محاضرات

في

الفلسفة العامة

تأليف
الدكتور / محمد حسينى موسى محمد الغزالى

الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٥م

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى ....

ولدي – حازم – بدر الدين

وبناتي : هبة الله – نعمة الله – رحمة الله

زينة الحياة الدنيا

راجياً الله سترهم في الدنيا وإسعادهم في الآخرة

إنه نعم المولى

ونعم النصير

والدكم

محمد الغزالى

١٩٥١/١٢/٢٨

مقدمة

الحمد لله لا إله سواه، خلق الإنسان وبالنعم أولاه، وجعله في الكائنات متميزاً، وعلى كثير من خلقه أعلاه، وبيّن أنه جل شأنه أرسل الرسل وبعث الأنبياء لهداه، وأنه وحده القادر عليه، والمتكفل به في دنياه وأخراه، فإن أطاع الله أنعم عليه وفى الجنان أبقاه، وان عصى واستكبر فالنار مثواه.

وأشهد أن لا إلا الله يسمع نداء من ناداه، ويجيب بالخير الجزيل من دعاه يعطى من أحبه فأطاعه، ويمنع من عصاه وعاداه، كما يعز أهل الإيمان، ويذل العصاة والطغاة. قال تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[١].

وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله، أسرى به إلى ما فوق السماوات مولاه، ومن كبرى الآيات أراه، بل جاء نور النبى من ذات نور الله[٢] واتباعه من علامات الحب لله، قال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[٣].

اللهم صلى وسلم وبارك على سيدنا محمد الرحمة المهداة[٤]، وعلى آله حب رسول الله، وأصحابه الذين كانوا أنجماً تنير وهداه وأزواجه أمهات المؤمنين اللاتى ضاعف أجورهن الإله[٥]، وأتباعه الذين صاروا القافلة الساعية نحو الخير

---

١) سورة آل عمران الآية ٢٦.

٢) قال العلامة الشيخ العقباوى : نور النبى من ذات الله، معناه : أن الله تعالى أوجده بدون واسطة أب أو أم أو طين، وهو ليس خارجاً من ذاته تعالى، إذ هذا القول باطل لا يعقل. الشيخ مصطفى العقباوى، حاشية العقباوى على شرحه لعقيدة الشيخ أحمد الدردير، ص٢٥، المطبعة الحسينية المصرية بالقاهرة، ١٣٢٦هـ على نفقة الشيخ محمد على المليجى الكتبى.

٣) سورة آل عمران الآية ٣١.

٤) ففى الحديث الشريف يقول الرسول ﷺ : "إنما أنا رحمة مهداة.

٥) قال تعالى : ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾. سورة الأحزاب الآية ٣١.

الحداه، وأهل العلم بالله، الذين هم أهل الخشية من الله، قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾[1].

وأكرم اللهم الأهل والأبناء والذرارى مع الوالدين والحفدة فهم من أنعم الإله، واجعل عملى عندك مأجوراً في الآخرة قبل الحياة، وأنزلنا منازل أهل القبول فذلك من أفضال الله، وأثبنا الخير والفضل وأرنا منازلنا مع أهل النجاة. فأعظم سعادة المؤمن فى الآخرة النظر إلى وجه الله.

أما بعد

فإن العقل البشرى ما زال قاصراً عن درك حقائق الأشياء، مهما بذل من طاقة، على أساس أن ما وصل إليه أقل بكثير مما لم يبلغه، ومن هنا تظل مسألة البحث عن حقائق الأشياء أمراً مهماً، بل بحاجة إلى المزيد من البحث والتأمل مع المراجعة الدقيقة على الناحية الفنية، وهو الدور الذى يقوم به المفكر[2] الذى يمثل الفيلسوف ويسعى جاهداً لإثبات مكانه في التفلسف.

غير أن هذا التفلسف، أو العمليات العقلية الخالصة لمعرفة حقائق الأشياء تمثل قاسماً مشتركاً بين جميع الناس، الذين لهم قدرات عقلية متميزة، باعتبار أن كل واحد منهم بداخله مشروع فيلسوف، ومن ثم فإذا وجد من ينمى هذا المشروع بداخله، ويخطط له مهتماً ببنائه وإقامة قواعده على أسس سليمة، فإنه يظل كذلك حتى يبلغ الغاية، وبناء عليه يمكن القول بأن التفلسف ظاهرة إنسانية عامة.

في نفس الوقت فإن هذا التفلسف ليس ضربة عمياء، أو خبطة عشواء، يمكن أن يجيء بل طلب أو عناء، أو يوصف به أحمق، أو يتصف به البلهاء، وإنما له من ملامح تميزه، وصفات ينفرد بها عن غيره، كاشتراك بنى الإنسان فيه، وبناء النهضات عليه، بجانب ازدهار العلوم وتكاثر المعارف، بغية استمرار التقدم، والانطلاق المتواصل في سلم الحضارة مما يجعله أمراً ترنو إليه العقول المتأملة، التى تحتاج الأمن، وتبحث عن الرفاهية.

---

١) سورة فاطر الآية ٢٨.

٢) راجع كتابنا : التفكير الإنسانى أصوله ومستوياته، ص٥٣، ط آل مخزنجي.

ومن هنا كان لابد من وجود دوافع قوية تسوق إليه، بعضها موجود بالفطرة في بني البشر، كتعدد الغرائز[١]، وتنامى القدرات العقلية على الدوام، بجانب تلاقى الوسائل والغايات، في حدود الإمكانيات والملكات، بحيث تكون كلها دوافع تقود للتفلسف في صوره الأولى، ثم يرقى بعد ذلك إلى قمة السلم المعرفى، من خلال المنهج البحثى، طالما أخذ بالأسباب[٢]، وهو ما يميز الفيلسوف عن غيره، ويجعله صاحب رؤيا فلسفية مستقلة.

في نفس الوقت فإن النظرة الفلسفية لها خصائص، تستقل بها عن نظرة أو تأمل كل من النحو والفقه وغير ذلك، من حيث أنها تعتمد على التأمل الهادف، ثم الشك في المعلومات الأولية، واختبارها حتى لا يبقى في النفس سوى المعارف الصحيحة[٣]، وبناءً عليه يمكن الاستماع لرأى الآخر ومحاورته، فإذا انتهى الأمر إلى قاعدة ثابتة، أمكن اعتبارها أبرز المسائل الخاصة، التى يقف عندها الفيلسوف، فى نفس الوقت فإنها تعبر عن فكره الخاص، وبناءً عليه يمكنه مراجعة خبراته الذاتية، وتجاربه الخاصة، التى تدفعه لتحريك رصيده المعرفى بحيث تقع الاستفادة منه على أوسع نطاق وبأقصى طاقة ممكنة.

وهذه الجزئيات تكشف عن أمرينْ هامين، أحدهما : وظيفة الفلسفة في المجتمع ككل، ثانيهما فائدة الفلسفة بالنسبة للإنسان، وكذلك المجتمع، وذلك يؤدى إلى بحث مفهوم الفلسفة في العصور المختلفة، لمعرفة الأدوار التى مرت بها، والتأثيرات التى نتجت عنها، أو كانت لها جوانب إيجابية، أو سلبية في مسيرة البحث العقلى أو التأمل الفلسفى.

كذلك موضوعات الفلسفة، وعلاقتها بالتصنيفات العامة للعلوم، ثم العلاقات القائمة بين الفلسفة والمجالات الأخرى، من العلم والميتافيزيقا وغيرها، مع بيان دور الإسلام في التطور الفلسفى على أساس أن النقل المنزل هو الذى يضبط ذلك التفكير في كافة أشكاله، وميادينه.

---

١) يقرر البحث العلمى فى العصر الراهن أن الدوافع غير الغرائز، والتفرقة بينهما حاسمة وضرورية، ولذا فقد قمت فى هذا الكتاب على ذات التفرقة.

٢) فالأخذ بالأسباب قاعدة شرعية قبل أن يكون أمراً دلت عليه التجارب الحياتية.

٣) راجع كتابنا : خواطر حديثة فى الفلسفة الحديثة، ص١٨٨-١٩٥.

بيد أن البحث الفلسفى العام[١] قد اتفق لـه ميـادين أساسية، تتمثل في ثلاثة موضوعات أو نظريات أو مباحث، هى الوجود، ثم المعرفة، وأخيراً القيم، بحيث تكون هذه الميادين بمثابة الجوانب التى يقع عليها البحث النظرى مع التطبيق العملى، وقد استقر البحث في الفلسفة العامة على هذه الميادين.

ولا يغربن عن دارس أن الفلسفة الإسلامية، تعنى بجانب ما ذكر، بالله تعالى وصفاته، كما تعنى بالعالم، المشاهد والغائب وأخيراً الإنسان، الذى يكون العلاقة القائمة، والتى عليها مدار التأمل، لأنه المكلف به، وبالتالى فهو عماد البحث الفلسفى من هذه الناحية.

من ثم فإن هذه المحاضرات، أرجو أن تكون بمثابة القرارات الكاشفة في القوانين العامة، والومضات المتوالية في سلم البحث الفكرى، وبخاصة القائم على التأمل الهادف، وحسب الباحث العلمى أن ينهض بالأعباء التى يكلف بها، وأن تنال منه غاية طاقته، أما التوفيق فمرجعه إلى الله تعالى.

وما دمت قد بذلت جهدى، بعد أن استعنت بالله ربى، فإن أمرى كله موكول إليه، وأجرى موصول عنده، وما ذلك على الله بعزيز، وأردد قول الحق العلام إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ﴿ **وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ** ﴾ [٢].
والحمد لله رب العالمين.

د / محمد حسينى موسى الغزالى
غزالة الخيس مركز الزقازيق شرقية
فجر الخميس أول شهر الله المحرم لعام ١٤٢٦هـ
الموافق ١٠ فبراير ٢٠٠٥م

---

١) لأن البحث الفلسفى المتعلق بالفكر الإسلامى – الحكمة الإسلامية – يقوم على ثلاثة قضايا هى : الله، والعالم، والإنسان، من خلال العلاقات القائمة. راجع كتابنا : المدخل لدراسة الحكمة الإسلامية – وكتابنا : ملامح الحكمة الإسلامية فى المغرب.

٢) سورة هود، الآية ٨٨.

القسم الأول

مقدمات عامة

الفصل الأول

التفلسف - الدوافع والخصائص

أولاً : تعريف التفلسف :

ما من عاقل إلا وهو يحاول معرفة حقائق ما يحيط به من أشياء، وعلاقتها ببعضها، بجانب دوره بالنسبة لها، من حيث التأثر بها، والتأثير فيها، وهو حينئذ يكون في دائرة التفلسف، أو على الأقل يكون داخلاً في نطاق الذين يوصفون بأنهم فلاسفة، باعتبار الجهة التى جاء تفكيره في ذات الأشياء من ناحيتها.

فالتفلسف ظاهرة إنسانية عامة يشترك فيها بنو البشر جميعاً، كل حسب إمكانياته، وقدرته على توظيف ملكاته، والاستفادة من أرصدته الذهنية أو خبراته التراكمية، التى تمثل بالنسبة له ضرورة لا يمكنه أن يتخلى عنها، كما أن القائم من معلومات أو استعدادات فى مخيلته لا يستطيع التفريط فيها، لأن هذه العملية من أفعال النفس، يقول الشيخ الرئيس ابن سينا[١] أن أفعال النفس ثلاثة، أفعال يشترك فيها الحيوان والنبات كالتغذية والتربية والتوليد، وأفعال تشترك فيها الحيوانات جلها، ولا حظ للنبات فيها مثل الإحساس والتخيل والحركة الإرادية وأفعال تخص الإنسان وحده، وهى قدرته على استجماع المعلومات وتوظيف الملكات[٢].

فالتفلسف ظاهرة إنسانية، وعملية عقلية، وتوجهات نفسية، تدفع كل عاقل إلى بذل المجهود والبحث المتواصل، بل والتأمل الجيد لمعرفة حقائق الأشياء معرفة دقيقة، تؤدى إلى الاعتقاد الصحيح، سواء أكان ذلك التأمل في نطاق المحسوسات، أم في حدود المعقولات، أم كان متعلقاً بعملية الجمع بينهما، ومن ثم أمكن تعريف التفلسف بعدة تعريفات منها :

---

١) هو الشيخ الرئيس أبو الحسين بن على بن سينا، ولد في أفشنة، قرية أمه التي نزح إليها أبوه بعد زواجهما، اشتهر ابن سينا بالفقه والعلم والحكمة، كما عمل بالسياسة، والطب، والرياضيات، وترك العديد من المؤلفات العلمية التي تعتبر من المصادر الموثوقة في كل فن تعرض له كالموسوعات : ومنها الإنصاف (في عشرين مجلداً) – الشفاء (في ثماني عشرة مجلد) – النجاة (ثلاث مجلدات) ...الخ وأيضاً في الطب من أشهرها القانون والموجز ومن المؤلفات الفلسفية : الإشارات والتنبيهات وغيرها، وفى علم الكلام والأخلاق والتصوف والفلك والهندسة والأدب والموسيقى والشعر. ولد في عام ٣٧٥هـ، وتوفى عام ٤٢٨هـ. راجع / الأعلام لخير الدين الزركلى.

٢) الشيخ الرئيس بن سينا، الشفاء، ص١٦٠.

١- أنه تفسير علمي للظواهر المدروسة، الواقعة على ناحية معينة، تدفع الباحث إليها، حتى يتعرف أصولها والخصائص المشتركة بينها، ثم العلاقات المتبادلة فيها الجامعة بين أطرافها، بحيث ينتهي به الأمر إلى معرفة الأشياء معرفة صحيحة(١). يمكن أن تبلغ البرهان، الذى هو القاعدة العامة التى لابد منها في القضايا العلمية.

٢- عملية عقلية متوازنة، يقوم بها المفكر لمعرفة حقائق الظواهر القائمة والكشف عن أصولها، مع ضرورة فحص العلاقات التى تربط بين أجزائها(٢). مع ملاحظة أنه لا يقوم بذات الدور إلا من سلك طريق التأمل العقلى الحر، واستطاع ترويض نفسه على طلب النتائج من المقدمات الصحيحة، التى تقوم على معارف سليمة.

٣- يذهب الشيخ الأنطاكى إلى تعريف التفلسف بأنه التفسير الفلسفى للظواهر، ومعرفة حقائق الأشياء، في صورة تجعل الموضوعات المطروحة غاية في الوضوح باعتبار المقدمات، مع الصدق واليقين في النتائج(٣). ومن ثم تكون تلك العملية العقلية بمثابة القرار الكاشف عن القدرات العقلية، والبعد الحقيقى حول تفهم الأمور القائمة.

وبعبارة أخرى تكون العمليات العقلية الذهنية دليلاً على أن هذا المفكر جدير بأن يطلق عليه وصف الفيلسوف، كما يمكن النظر إلى ما يصدر عنه على أساس أنه تفلسف حقيقى متى صادف الحق، والتزم جانب الصواب، وقامت الدلائل عليه، ولا يوجد عاقل إلا وهو متمكن من هذه العملية في صورة من الصور، أو طريقة من الطرق مهما كان دورها عظيماً أو قليلاً.

---

١) راجع كتابنا : التفلسف، ص٢٩، ط ثالثة، ٢٠٠٤م.

٢) الدكتورة ناهد محمود صبرى، دراسات فى الفلسفة العامة، ص١٣، ط أولى، ١٩٩٧م، والدكتورة هناء محمود اليوسف، الفلسفة العامة، ص٢٥، ط أولى، ١٩٧١، ط دار المعرفة بتونس.

٣) الشيخ عبد العظيم عبد الجواد الأنطاكى، التفكير الفلسفى قديماً وحديثاً، ص١٩، ط أولى، ١٩٥٩.

ثانياً : التفلسف ظاهرة إنسانية عامة :

لما كان التفكير العقلى المتميز هو أهم خصائص بنى الإنسان، حتى عرف الإنسان بأنه حيوان مفكر، فإن أفراد بنى الإنسان يتشاركون في كونهم مفكرين، باعتبار أنهم الذين يقومون به، لا أنهم الذين يقع عليهم التفكير، فهم مفكرون، ويقع عليهم التفكير أيضاً، إنهم يمثلون حالتين في وقت واحد، أو يؤدون وظيفتين معاً، داخل نطاق زمان محدد.

إحداهما : باعتبار أن أفراد بنى الإنسان هم الذين يقومون بعملية التفكير، فهم فاعلون له من تلك الناحية، مع اختلافهم في درجاته، طبقاً للإمكانيات والاستعدادات بجانب الملكات، والاتجاهات. ومن هنا يظهر تباينهم في طريقة التعبير عن أفكارهم، كما يبدو اختلافهم أيضاً في المناهج التى يعتمدون عليها، والتفلسف من هذه الناحية يكون ظاهرة إنسانية عامة.

ثانيتهما : باعتبارهم من العالم الموجود، الذى يصح أن يكون موضوعاً للتأمل والتفكير، فيكونون داخلين في نطاق قوله تعالى : **﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾**[1]. كما يكونون واقعين تحت نطاق التأمل المأمور به كأفراد في قوله تعالى : **﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾**[2].

بناء على ما سلف يكون التفلسف ظاهرة إنسانية عامة، وقاسماً مشتركاً بين كافة الأجناس البشرية، مهما اختلفت درجاته، أو تباعدت مستوياته، ولا يتخلف عن القيام بهذا النوع من التفكير إلا من شغلته لذته وشهوته عن البحث والتفكير، أو كان ناقص العقل، بعيداً عن التأمل والنظر[3]، أو انصرف لأمر غير مقبول عند بنى البشر من العقلاء.

---

١) سورة الذاريات الآية ٢١.

٢) سورة يونس / الآية ١٠١.

٣) الدكتور / عوض الله جاد حجازى، والدكتور / محمد السيد نعيم – فى تاريخ الفلسفة اليونانية، ص٦، ط الثانية.

* ملامح التفلسف :

لما كان التفلسف ظاهرة إنسانية عامة على ما سبق القول به، فإن أبرز ملامح هذه الظاهرة الإنسانية العامة ما يلى :

<u>الأول : اشتراك بنى الإنسان جميعاً فيه :</u>

سلف القول بأن التفلسف ظاهرة إنسانية، ولكن العقلاء من بنى الإنسان جميعاً يشتركون في وسيلة التفكير إلا وهى العقل، كما يشتركون في الموضوعات البحثية المتعلقة بعالم الشهادة، والتأملية القائمة في عالم الغيب، من خلال الفلسفة التأملية والفلسفة النقدية أيضاً، ومن ثم يكون التفلسف ظاهرة إنسانية في الفكر والمفكر معاً.

فالعقل غريزة يتبعها العلم بالضروريات عند سلامة الآلات، وذهب الشيخ أبو اسحاق إلى أن العقل صفة يميز بها الإنسان بين القبيح والحسن، كما عرفه الفيروز آبادى بأنه نور روحانى تدرك النفوس به العلوم الضرورية والعلوم الفطرية، أما الأحناف فقد ذهب البعض منهم إلى أنه نور يشرق للنفس من طريق الحواس الباطنة، بما يرتسم فيها من طريق الحواس الظاهرة(١)، وكل عاقل يساهم في عملية التفلسف بما أتيح له من إمكانيات.

ونقل عن الإمام الفخر الرازى أنه ليس المراد من العقل حصول العلم بكل الضروريات على وجه الحصر، وإنما يكفى العلم ببعضها على وجه ما يفيد اليقين، باعتبار أن الضروريات قد تفقد لفقد شرط التصور كالحس والوجدان، وذلك كالحال مع الأكمه والفاقد للعين، والعنين(٢) الفاقد لذة الجماع، وقد تفقد الضروريات لفقد شرط التصديق كفقد أحدهما، وهو الحس، أو الوجدان في القضايا الحسية، فإن فاقد حس من الحواس، إنما هو فاقد للقضايا المستندة إلى ذلك الحس(٣).

---

١) الشيخ محمود برهان الدين، الحركة العقلية الإسلامية، ص١٥٧، ط دار المهند بتركيا، ١٣٢٥هـ.

٢) على أساس أن العنة الدائمة تنشأ عن مرض في القلب يمنع من إقامة العلاقات الجسدية، وبالتالى فالعنين لا يقدر على الجماع، وقيل هو من لا يتمكن من جماع البكر وإن كان يصل إلى الثيب. راجع : شرح المنهاج، ص٢٧٣.

٣) الإمام الشيخ عبد الهادى نجا الابيارى، كتاب باب الفتوح لمعرفة أحوال الروح، ص١٠٧، الطبعة الأولى، المطبعة الخيرة، ١٣٠٤هـ.

كما أن عملية التفلسف الحقيقية لابد أن تقوم على أمور أربعة، يشترك فيها كل بنى البشر من العقلاء، وهى :

١- المفكر : ولابد أن يكون على قدر من النضج العقلى، مع الرغبة في التأمل، ومتى تمكنت منه الموضوعية بجانب الحيدة التامة، فإن نتائجه تكون مقبولة[1]، يستوى فى ذلك الرجل والمرأة ما دامت القدرات العقلية سليمة، إنما يختلف كل منهما عن الآخر فى المستوى الفكرى فقط، فقد يتفوق الرجل وتكون المرأة هى المتفوقة.

٢- الموضوع : ولابد أن يكون هذا الموضوع متعرضاً لبحث العلاقات المتبادلة بين الكائنات، التى ترتبط مع بعضها في شكل ثابت، أو على بحثها من ناحية هذا الجانب، ومتى كانت العلاقات المتبادلة واضحة المعالم[2]. فإن عملية البحث العقلى، والوصول إلى النتائج تكون على قدر كبير من القبول والأهمية.

٣- الميدان : وهو الذى يجرى فيه المفكر أبحاثه، ويطبق تأملاته، وأعنى بها حقائق الأشياء من حيث هى، سواء نظر إليها على أنها مفردات، أو كليات[3]. وسواء تم بحثها على أنها حقائق منفردة، أم مترابطة مجتمعة، ومن هنا كانت مباحث الفلسفة العامة ثلاثة، هى : مبحث الوجود، ومبحث المعرفة، ثم مبحث القيم..

٤- الغاية، وهى الهدف الذى يسعى إليه المفكر، حيث يحاول الوصول إلى إجابات كافية محددة، حول المسائل التى يتعرض لها، ومن ثم فلابد أن يكون هذا المتأمل أو المفكر واضح الغاية محدد الهدف.

فإذا تم بحث هذه الجوانب، وأمكن الوقوف على أن جميع بنى الإنسان يشتركون فيها، فقد صار من السهل القول بأنها ظاهرة إنسانية عامة، لها مظاهر قائمة في كل بنى الإنسان على اختلاف بيئاتهم، وتباعد ديارهم، وتباين مستوياتهم الثقافية والحياتية أيضاً.

---

١) راجع كتابنا : مناهج البحث العلمى بين التقليد والتجديد، ص٥٣، ط١ ١٩٨٧م.

٢) ولذا اعتبرت هذه المسألة من ضرورات البحث العلمى على كافة المستويات.

٣) راجع كتابنا : الغزاليات فى منطق التصورات، ط١، ١٩٩٨م.

الثانى : إقامة النهضات المختلفة :

من المعروف أن أية نهضة لابد لها من أسس تقوم عليها، ودوافع تقود اليها. والتفكير العقلى الخالص، أو التفلسف بالمعنى الفنى دائماً يكون هو المحرك للإنسان نحوها. حتى أمكن القول بأن الإنسان المفكر هو عماد الحضارة، لأنه الذى يقوم بالتعرف على الإمكانيات، ثم يلجأ إلى تطويعها، بحيث يمكنه توظيفها والاستفادة منها على أوسع نُطاق[١]، وتعرف الحضارة بأنها نمط من الحياة المستقرة التى تقتضى فنوناً من العيش والعلم والصناعة، وإدارة شئون الحياة والحكم مع توطيد حياة الدعة، وأسباب الرفاهية[٢].

ولابد من الإشارة إلى أن الحضارة أو النهضة لا تقوم بذاتها، ولا تشيد من فراغ، وإنما لابد لها من أسس تقوم عليها، وقواعد تكون بمثابة الركائز التى لابد منها، بحيث إذا نمت تلك الحضارة استمر نموها، وازداد حتى يبلغ الازدهار[٣]، ثم يجيء دور المحافظة عليها، ولا يقوم بذلك كله إلا العقل الإنسانى الذى يتفلسف على الدوام.

في نفس الوقت فإن أية نهضة تمثل حضارة، والحضارات الإنسانية حلقات متواصلة، يكمل اللاحق السابق، بل لابد أن يستفيد مما تركه، ومن ثم أمكن القول بأن بناء الحضارات، وإقامة النهضات يعتبر من أبرز مظاهر التفلسف الذى يميز الإنسان عن غيره، كما يعتبر من أبرز سمات الإنسان الذى منحه الله قدرات عقلية متميزة، جعلته يفكر في كيفية تطوير الحياة، والاستفادة من كل مظاهرها[٤]، بدليل أن الحضارة تعرف بأنها أرقى الأطوار التى بلغها الإنسان بعد ما تجاوز حياة

---

١) راجع كتابنا : قضايا حبيسة فى الفلسفة الحديثة، ص٩٨، وما بعدها، ط ثالثة، ١٩٩٩م.

٢) الأستاذ / توفيق محمد سبع، قيم حضارية فى القرآن الكريم، عالم ما قبل القرآن، جـ١، ص٢٢، ط أولى، دار المنار بالقاهرة.

٣) لأن كل حضارة تحتاج مراحل ثلاثة أو تمر بمراحل ثلاثة. المرحلة الأولى البناء والثانية الاستقرار، والثالثة الانهيار. ما لم تقم على أصول شرعية، أما إذا قامت على أصول شرعية فإنها تستمر.

٤) راجع كتابنا : الإنسان والحضارة، ص١٣، ط أولى، ١٩٩٣.

البداوة[١]، على أساس أن حياة البداوة تكون غالباً تقليدية فى الوسائل، محددة باعتبار الغايات والأهداف.

من هنا يمكن القول بأن النهضة هى الابن البكر للتفلسف، ثم تأتى منها الحضارة التى تعتبر حفيدة التأمل الجاد المنظم الهادف، مع ملاحظة أن الحضارة تقوم على جانبين هما الثقافة التى تمثل الجانب النظرى من الحضارة، ثم المدنية التى تمثل الجانب العملى لذات الحضارة.

الثالث : ازدهار العلوم وتكاثر المعارف

لما كانت العمليات العقلية التى تقوم على التفلسف متنوعة، فان مظاهر تلك العلوم هى الأخرى يقع لها التعدد والتكاثر معا، فالعلوم منها نظرية، وأخرى عملية تجريبية، ثم تجيئ المعارف السلوكية، والأخرى التطبيقية، بل ان كل مجموعة منها يقع فيها التنوع بين أفرادها وجزئياتها، إلى الحد الذى يجعلها متكاثرة جداً، حتى صارت عملية إحصائها تستغرق الوقت الطويل، كما تحتاج المجلدات المتعددة، بدليل ما نراه من جهود الباحثين حول تصنيف العلوم[٢]، بجانب المناهج المستخدمة أو الأهداف التى يسعى إليها هؤلاء الباحثون في المجالات العلمية المختلفة.

كما أن كل علم تجريبى تحفظه قواعده البحثية، التى تمثل المركز الثابت في البناء والحضارة، وهى في جملتها مجموعة من التجارب الذاتية، والخبرات السابقة، والمشاهدات التى تمت في أوقات سابقة[٣]، وسواء قامت على نتائج أم راحت تبحث جملة التجارب والمشاهدات التى لم يحسم البحث فيها. فإن الأولى تمثل أرصدة معرفية ثابتة، بينما الثانية عبارة عن أرصدة فكرية متحركة تقود للتأمل، كما تدفع للمزيد من التفكير.

---

١) راجع كتابنا : خواطر حثيثة فى الفلسفة الحديثة، ص١٨٣.

٢) راجع كتابنا : مناهج البحث بين التقليد والتحديد، ص٩٥-١١٢.

٣) أما العلوم النظرية وبخاصة المتعلقة بالفروع فإن القاعدة العامة فيها هو القيام على حقيقة النقل المنزل.

ثم يجيء بعد هذه القواعد العامة، عملية النظر العقلى المنظم، القائم في أصوله على التعامل المستمر، والبحث الدؤب، مع إعادة النظر في النتائج التى سبق الوصول إليها، طبقاً لمقتضيات العصر ومستجداته، وما كشفت عنه التجارب الجديدة، أو عبرت عنه الاتجاهات المستحدثة، لأن ذلك يمثل رغبة في التعرف على الجوانب الغيبية(١)، بجانب محاولة الكشف عن المجهول، والوقوف عليه في صورة تكون مقبولة.

من المؤكد أن النصوص الشرعية قد دفعت العقل الصحيح للتأمل، وما زالت تحثه على بذل المزيد من التفكير، وفى نفس الوقت تقدم له ما هو بحاجة إليه من خلال إشارات محددة، فيها الصيغة المتكاملة، لأنها من عند الله تعالى أنزلت، وعلى السنة رسله بلغت(٢)، كما أن مفكرى الإسلام الأوائل قد استفادوا من النصوص الشرعية، فأقاموا نهضة واسعة، وحضارة زاهية، وعلوماً متنوعة، ومعارف متكاثرة، فكانوا فلاسفة على الجانب الشرعى من خلال المفهوم الإسلامى للحكمة.

الرابع : استمرارا لتقدم العلمى.

يعتبر التفلسف الحقيقى أحد المعالم البارزة، في بقاء ركب التقدم العلمى منطلقاً، نحو الأمام، لا يعرف الرجوع للخلف أو التقهقر نحو الوراء، ذلك لأن ما تحقق في الماضى ينظر إليه الفيلسوف على أنه مكاسب أمكنه الوصول إليها، وهو يعلم أن دعمها يزيدها، كما يحافظ على أصولها، ومن ثم فهو يأخذ بعين الاعتبار عدة مهام ملقاة على عاتقه وحده، وهى تتمثل في :

أ المحافظة على النتائج الصحيحة السابقة، التى أمكن الوصول إليها. فى أزمان متواصلة، وخلال جهود متواصلة قام بها الباحثون على فترات الزمان المتواصلة(٣).

---

١) الغيب المراد هنا هو الغيب العلمى، وليس الغيب الدينى، فالفروق بينهما كبيرة. راجع كتابنا : الإيمان بالغيب وأثره فى الفكر الإسلامى، حيث تعددت طبعاته فى خلال سبع سنوات إلى ما يزيد على عشر طبعات.

٢) راجع كتابنا - المدخل لدراسة الحكمة الإسلامية، ص٢٨٥

٣) راجع كتابنا خواطر حثيثة فى الفلسفة الحديثة، ص١٨٣

ب- بذل المجهود لدعمها مهما تكلف في سبيل ذلك من مجهودات عقلية وفكرية، أو مالية وبدنية على أساس أن هذه المجهودات المتنوعة تعين على التقدم المستمر.

جـ- القفز بها إلى الأمام، ومن ثم هو بحاجة إلى ضرورة مواكبة الأحداث المعاشة[1]، والتأثير فيها بشكل فعّال.

د – استحداث طرائق تناسب ظروف العصر ومستجداته، حتى يظل ركب التقدم مستمراً، وسلم الحضارة قائماً؛ لأن المراحل العلمية متتابعة، يأخذ بعضها بعناق الآخر لا يفترق عنه إلا في طريقة الأداء.

بدليل ما نراه اليوم من نهضة علمية في كافة الجوانب الحياتية، ولكن ينقصها أن تكون منضبطة مع الشرع الإلهي، فإذا تحقق لها ذلك الانضباط الشرعي في البحث والنتائج كانت نهضة مكتملة الجوانب، بينما هي اليوم واقعة في نطاق الميتافيزيقا النقدية فقط، أو على الأقل هي حضارة مادية خالصة، تحيط بها أوجه القصور المختلفة، ومن ثم يسعى القائمون عليها إلى تدميرها، وتدمير أنفسهم معها.

الخامس : ظهور الاكتشافات المتوالية :

من الخطأ القول بأن الحركة العقلية توقفت عند زمن بعينه، ومن الأكثر خطأ القول بأنها لا تتجدد أو لا يقع فيها التأثر ولا يتم فيها التأثير[2]، لأن الأفكار الإنسانية يلقح بعضها الآخر، كما أن الاكتشافات العلمية في المجالات المختلفة، من الشواهد المتوالية على استمرار الحركة العقلية ودورها في عملية التقدم العلمي ، ومن الدلائل على أنها لن تتوقف عند حد معين، اللهم إلا أن يريد الله تعالى إنهاء هذا الكون، وانهدام معالمه، وذلك في يوم لا يعلمه إلا الله جل شأنه.

رابعاً : دوافع التفلسف :

الدافع في اللغة هو ما يقود إلى شيء اضطراراً، على سبيل الإسراع فيه، والتعلق به، حتى يكون المرء في حمايته، بحيث يحركه إقبالا على فعل شيء ما،

---

١) راجع كتابنا : التفكير الإنساني أصوله ومستوياته، ص١٠٢.

٢) الدكتور / محمد السيد زهران – الفلسفة الحديثة وأثرها في الحضارة، ص٥٣، ط ثانية، ١٩٨٧م.

او صرفا عنه[١]، ومن ثم فكل دافع لابد له من هذه الاتجاهات أو النعوت، فإذا كان ذلك الدافع لفعل شيء ما كان دافعاً للقيام بالفعل، أما إذا كان للبعد عن شيء ما، فإنه يكون دافعاً للإنصراف عنه وليس للقيام به.

بينما هو في الدراسات السيكولوجية عبارة عن عاملى داخلى، يستثير سلوك الإنسان ويوجهه، ويحقق فيه التكامل[٢]. فإذا لم يوجد ذلك الدافع لم يتحقق وقوع الفعل، وإذا وقع فإنه يكون منقوصاً، ومن ثم لا يمكن إطلاق اسم الدافع المتكامل عليه، وإنما يسمى شبه دافع[٣].

ويذهب الدكتور مصطفى فهمى : إلى أن الدافع لفظ يستعمل بكل بساطة للدلالة على فكرة تستخدم، لكى نوضح بها أن سلوك الكائن الحى يتوقف في تغييره وتعديله على إخضاع الكائن الحى، وتعرضه أو تعريضه لعمليات معينة، وهو يعتمد في ظهوره على الطاقة المختزلة بالجسم، وهو فوق ذلك الذى يوجهها[٤] نحو الأهداف التى يسعى إليها من داخله.

وعلى هذا فالدافع للتفلسف هو وجود القوة العقلية المتميزة، بجانب تكامل الحواس وسلامتها من الآفات، بحيث تحقق ما يدعو للدهشة، ويستدعى الاستغراب، بغية طلب المعرفة، والسعى إليها بكل قوة، مع تحصيل القدر الأكبر على الوجه الأمثل، وبناء عليه فقد تعددت الدوافع للتفلسف طبقاً لاتجاهات الدارسين، من أبرزها ما يلى :

---

١) هذه المعانى يمكن الوقوف عليها فى المصادر اللغوية، راجع قطر المحيط، أساس البلاغة، والقاموس المحيط.

٢) ادوارد. د. ج. موراى، الدافعية والانفعال، ص١٨٣، الطبعة الأولى، دار الشروق، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

٣) تعرضت لتعريف الدافع وأقسامه باعتبار الفطرية والمكتسبة والشعورية واللاشعورية. بجانب تنوع الدوافع باعتبار الأولية والثانوية راجع تفاصيل ذلك فى كتابنا التفلسف، ص٨١-١٠٥، الطبعة الأولى.

٤) الدكتور مصطفى فهمى، الدوافع النفسية، ص٣٩، الطبعة الخامسة، مكتبة مصر، ١٩٦٠م.

الدافع الأول : تعدد الغرائز :

الغريزة هى ما في الطبيعة الإنسانية، أو النفس البشرية بحيث تكون صورة النشاط النفسى، والطراز الواضح للسلوك القائم على الفطرة والوراثة[١].

كما تعرف بأنها ما يقوم في النفس البشرية، على أساس أنه طبيعة ثابتة لها، ويذهب توناباك إلى أن الغريزة هى ما يقوم في النفس بحيث يحركها نحو أغراض معينة، تؤدى في النهاية إلى غاية ما[٢]، ومن ثم فإن هذه الغرائز تتعدد طبقاً للأنشطة التى تقوم بها، أو الأغراض التى تترتب عليها، فإن كانت النتائج المترتبة عليها حسنة كانت غرائز حسنة، وإلا كانت غرائز رديئة.

ومن هذه الناحية ترتبط بعلم السلوك النفسى[٣]، كما ترتبط بعلم الأخلاق باعتبار أن الفعل الصادر عن الإنسان بحرية واختيار يتم الحكم عليه بالحسن أو القبح، وكذلك ترتبط بعلم الكلام من حيث حرية الإنسان أو جبريته فى الأفعال التى تصدر عنه.

ولما كانت الغرائز متعددة، ومنها غريزة التملك، وحب البقاء، بجانب الدفاع عن النفس، ثم حب الاستطلاع، والخوف من المجهول، وكل غريزة منها تدفع المرء العاقل حتى تكون عاملاً من عوامل التفكير، ودافعاً قوياً لتناول الموضوعات التى يراها أمامه، كأنها تطلب إليه القيام بهذا الدور وحده، أو بالتعاون مع الآخرين، مع الأخذ بعين الاعتبار رغبته هو في السبق، وإحراز التقدم بحيث ينسب إليه[٤].

فغريزة التملك تدفع المفكر لبحث موضوعات بعينها، حتى تمكنه من بلوغ أهدافه، فإذا وجد في طريقه ما يعوقه عن بلوغ غايته، حاول إزاحة ذلك كله من

---

١) الدكتورة هناء محمد طه، الغرائز والحياة الاجتماعية، ص١٥٢، ط الأولى، ١٩٥٧م.

٢) توناباك، علم النفس والغرائز، ص١٧، ترجمة حسان ميخائيل، ط أولى، ١٩٣١م.

٣) راجع كتابنا : غدوة المشتاق فى ربوع الأخلاق، ص٥٨-٦٠.

٤) لا شك أن تعدد الغرائز فى الإنسان، لا يستلزم تعدد الدوافع بنفس المقدار والكمية، لأنه من الممكن أن يزيد عدد أى منهما عن الآخر حسب الدراسات التى تؤدى إلى ذلك، راجع للدكتور هافينج الغرائز والدوافع دراسة سيكولوجية مقارنة، ترجمة حنان فاضل.

طريقه، وإبعاد هذه المعوقات عن أهدافه[١]، على أساس أن التملك أمر فطرى في النفوس، ولكن درجاته هى التى تختلف من حيث الضعف أو القوة، كما تختلف باعتبارات أخرى قد تكون الحوائل والموانع هى السبب الرئيسى في ذلك.

فالطفل الصغير يتمسك بأمه، ويعتبرها مملكته الخاصة، ولا يريد أن يشاركه فيها أحد، ولو استطاع أن يبعدها عن الجميع فعل، وذلك ما يدل على وجود غريزة التملك لدى الطفل منذ صغره، والشاب اليافع يتمسك بما يعتبره من خصوصياته، كأدوات الدراسة والرياضة، وهو على استعداد للمقاتلة في سبيل ذلك[٢]، بل ان الذى يعمل لدى مخدومه سائقاً مثلاً، فإنه يعتز بالسيارة التى يقودها وكأنها جزء من كيانه، ويمرض إذا حبست عنه، أو رأى غيرها يقودها، وبالتالى فهو يفكر في كيفية الاحتفاظ بها، مما يؤكد أن غريزة التملك ليس من السهل تجاوزها.

كما أن غريزة حب البقاء هى الأخرى تدفع المرء إلى مقاومة أعدائه التقليديين بكل ما يملك ليس هرباً من الموت، وإنما رغبة في الخلود متى أمكنه ذلك، فهو يقاوم المرض والفقر وما يعتبره من الكوارث الطبيعية، ويسعى دائماً لإيجاد البدائل المتعددة حتى فكر في طريقة يتحقق له بها إنزال المطر[٣]، بحيث يروى الأرض على الدوام، ولا ينتظر الأمطار الموسمية، ومع أنه فشل فى ذلك، إلا أنه ما زال يقوم بالتجارب لذات الغرض.

فضلاً عن ذلك ظهرت لديه عوامل كثيرة، بل وأسباب أو دوافع قوية غايته منها حماية نفسه، وبقاء حياته، بدليل ما تنتجه المصانع من أدوية لإطالة عمر الخلية، ودفع المرض، ودعم الجهاز المناعي في الجسم، حتى صار حجم ما يتعاطاه الناس من أدوية يفوق أوزان أجسامهم الطبيعية[٤]، متى حسب ذلك على المدى البعيد.

---

١) راجع كتابنا: ملامح الحكمة الإسلامية فى المغرب، ص١٧٨ وما بعدها

٢) الدكتورة / علية عبد الرحمن : دراسات فى سيكولوجية الطفل، ص٨٣.

٣) كما هو الحال فى بعض البلدان التى تعانى من التصحر.

٤) الدكتور / عادل عبد العظيم الطحاوى : الإنسان والمعلم الحديث، ص١٥٣.

فإذا نظرنا إلى الغرائز المتعددة، وما ينتج عنها من آثار، أمكن القول بأنها من دوافع التفلسف، يقول هاندى لقد ثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن الغرائز من أقوى الدوافع في عملية التفلسف، يكفى أنها التى تختبر إمكانيات الفرد العقلية، وتدفع ملكاته الداخلية إلى استحداث طرائق جديدة، يلبى بها احتياجاته، ويحطم الحواجز بينه وما يريد[1]، وهكذا حتى يصير ذلك الإنسان هو المسئول عن سلوكياته، وهو الذى يحدد أيضاً أحلامه، أو يحقق أمنياته، ومن ثم يصير فيلسوفاً، لأنه يمارس التفلسف.

الدافع الثاني : تنامي القدرات العقلية :

من المعلوم أن مستويات القدرات العقلية لدى العقلاء ليست واحدة، كما أنها ليست على مقدار واحد طبقاً لنظرية الفروق الفردية[2]، وكل عقل سليم يحتفظ بجملة من الخبرات، التى هى في الأصل ناتجة عن تراكمات ذهنية أمكن اختزانها في اللاشعور، والتعامل معها وقت الحاجة إليها، وهى لذلك في تنام مستمر، طبقاً لرغبة الكائن الحى في التمايز، وسعى الإنسان العاقل لبلوغ درجة الكمال، أو مقارنة المثال الأعلى، أو على الأقل التلاحم مع الأنا الأعلى أو الالتقاء به، حتى وإن كان سعيه من خلال نظرية القيم العليا الفلسفية.

والكثيرون من الناس يسعون لتنمية قدراتهم العقلية، وتوسيع مداركهم ومساحاتهم المعرفية، وهم في سبيل ذلك لا يبالون أى طرائق المعرفة يسلكون، وحينئذ يعددون في وسائل المعرفة كما يعددون مصادرها غايتهم الوقوف على قمة الهرم المعرفى[3]، يستوى في ذلك أن يكونوا من أصحاب المعرفة للمعرفة، أم من أصحاب المعرفة لما يترتب عليها من آثار إيجابية، ومصالح متعددة تحقق الخير لبنى البشرية. باعتبار أن هناك علاقة عادية[4]، تربط بين شيئين على نحو من الأنحاء، أو تربط بين الأشياء كلها بهذا المفهوم العادى.

---

١) تونى هاندى، الغرائز ودورها فى عمليات التفلسف، ص٤٣، ترجمة حنان عبد المقصود، ط أولى، دار الغد، ١٩٨٧م.

٢) وكذلك ظهرت نظريات عديدة، بعضها يتعلق بالسلوكيات، وبعضها الآخر يتعلق بالملكات العقلية، إلى غير ذلك.

٣) راجع كتابنا نظرية المعرفة عند ابن رشد، ص٩٨.

٤) نحن أهل السنة والجماعة نؤكد أن العلاقة بين الأسباب والمسببات علاقة عادية يمكن أن تتخلف طبقاً لما جرت به سنن الله تعالى.

تقول الدكتورة نازلى إسماعيل أن الذهن الإنساني يحتوى على أفكار تعطينا المعرفة، وهذه الأفكار تختلف عن الانطباعات الحسية من حيث قوتها وحيويتها، وهى تخطت طريقها داخل الذهن والشعور، ان الإدراكات الحسية تشمل الإحساسات والانفعالات كما تظهر في النفس، أما الأفكار فهى الصور الباهتة لهذه الانطباعات في تفكيرنا واستدلال لنا[1].

وبناء على ذلك فإن نظرية المعرفة من أكثر المباحث أو النظريات الفلسفية إلحاحا، في بيان القدرات العقلية وتناميها على الجهات المختلفة، كما أن فكرة وجود أفكار فطرية في الذهن يولد الإنسان مزوداً بها هى ذاتها التى تؤكد على ضرورة أن يتخطى الإنسان كل الحواجز، حتى يصل إلى المعارف الصحيحة[2]، فإذا لم يتحقق له ذلك في العالم الواقعى أمكنه البقاء على الفكرة في العالم التأملى، أو العالم الخيالى، ولا يقوم بذلك كله إلا العقل الذى يتجه نحو التفلسف، بخطى واسعة وعميقة، ولذلك ارتبطت الفلسفة بمعنى الحكمة وطلب الحقيقة، كما ارتبط التفلسف بحب الخير والمثل بجانب الرغبة فى الوصول للعوالم النورية.

ففكرة العوالم النورية التى وقف عندها أفلاطون أطلق عليها اسم المثل العقلية والمثل النورية[3]، وفى ذات الوقت أطلق مفكروا الإسلام على العوالم النورانية المثل المعلقة، لقناعتهم بأن المعرفة لا حدود لها، وأنها تضغط على العقل باستمرار حتى يقطع فيها الشوط الأكبر، ويبلغ الغاية القصوى، وكان السهروردى ومن قبله الهجويرى والفارابى والكثيرون من أهل الإسلام ينادى بفكرة المثل المعلقة الإشراقية[4] التى كان لهم فيها دور بارز.

وكذلك فكرة الجوهر الفرد والمداخلات التى لحقت بها، وأمكن التعديل فيها لدى البعض تمثل صورة من صور الإلحاح الباطنى على العقل حتى يجد ويجتهد، ويكثر من التأمل والانفلات من الأغلال المحيطة به، وإذا أمكنه تحطيم القيود

---

١) الدكتورة نازلى إسماعيل حسين، الفكر الفلسفى، ص٢٨٩، ١٩٨٢م.

٢) لا عبرة للأفكار الفاسدة، كما لا قيمة لها، لأنها فى الأصل تقوم على مقدمات خاطئة.

٣) من أكثر المؤلفات إلحاحاً فى المسألة كتاب : المثل العقلية، الذى قام بتحقيقه الدكتور عبد الرحمن بدوى.

٤) راجع كتاب المثل المعلقة فى الفكر الإسلامى، أصولها وتطورها، ط أولى ١٩٩٧م

الحائلة فعل، بحيث يصير متحررا طليقاً، يتجادل مع الطبيعة في كافة مظاهرها، ويتأمل دون أن تخيفه أعاصيرها، أو تقذف الرعب في قلبه زلازلها أو البراكين.

ثم ان العقل متى غاص في تأمل المظاهر التى من حوله، وأمكنه تحقيق بعض النجاحات بالنسبة لها، فإنه يغرى بها، ويندفع إليها، طالباً المزيد، حيث ان استكناه الأغوار، وسبر الطرق، والتعرف على المخبئات سمة من سمات العقل الإنسانى الذى يشعر بذاته عندها، يقول دوكنز : كلما أمكننى معرفة ما يحيط بى، اندفعت إلى البحث في الأعماق حتى أخرج اللآلئ، بعد أن كنت أطمع في إدراك القشور[1]، على أساس أنها الغاية بالنسبة للحالمين، لا للمتأملين الذين يسعون للحقيقة.

ويقول أنتونى باديس : ان العقل مغرم بمعرفة حقائق الأشياء، وكلما وصل إلى شيء ظن أنه بحاجة إلى المزيد، ومن ثم تتنامى طرائقه البحثية، كما تتعدد الموضوعات التى يضعها في طريقه، أو يجعلها ميدان البحث بالنسبة له، وكلما سار في هذا الطريق أمكن أن يوصف بأنه فيلسوف، أو أنه صاحب عقل متفلسف[2]، أما إذا توقف عن التأمل فإنه طريقه يلتوى به، ونجاحاته تتحول إلى خفاقات، وانتصاراته تصير هزائم.

بل ان القدرات العقلية لا تتنامى في موضوعات بعينها فحسب، وإنما تمتد لتشمل سائر المناهج وكافة الميادين، كما تشمل الطرائق والغايات، بحيث يتم التلقيح الفكرى، وعندئذ يقع التلاقى داخل الأفكار ذاتها، حتى إذا كانت النهاية وجد الإنسان نفسه فيلسوفاً[3]، سواء رضى بذلك أم أرغم عليه.

يقول رولنج : اننا نتفلسف حتى عندما ننكر ذلك، لأننا نسعى إلى تقديم أدلة على بطلان الفلسفة، واحتقار التفلسف، ونعمل جاهدين حتى نطعن عقول الآخرين،

---

١) الدكتور يوهان دوكنز، الخطوات الأولى فى المعرفة، ص٧٣، ترجمة الدكتور زكريا صابر، ١٩٨٧م.

٢) أنتونى باديس، الجديد فى عالم المعرفة، ص١٩، ترجمة الدكتورة هدى محمد نصر، ط ثانية، ١٩٩٥.

٣) ومن الظواهر الدالة على ذلك موقف الإمام الغزالى، فإنه حاول قراءة الفلسفة حتى يهدمها، لكنه صار متعلقاً بها، ومن ثم تحول إلى فيلسوف.

وهو ذاته التفلسف، ومن ثم نكون فعلاً فلاسفة، رغم أننا لم نقصد إلى أى منهما[١]، وما دام المرء قد تفلسف، فمن المؤكد أنه قد بذل مجهوداً عقلياً، عبر عن صاحبه، كما أظهر مجهوداته الفكرية.

الدافع الثالث : تلاقى الوسائل والملكات :

لا شك أن الله تعالى قد خلق لنا آلات ندرك بها ما يحيط بنا من أشياء، بحيث تكون تلك الآلات بمثابة الوسائل التى تمكننا من الحكم على أشياء كثيرة[٢]، وأعنى بالوسائل أو الآلات الحواس الخمس الظاهرة من السمع والبصر والشم والذوق واللمس، وكلما كانت هذه الآلات سليمة وقع التكامل في الأداء بين بعضها، أما إذا كانت فيها أوجه نقص، أو شابها عدم التكامل فإن المعرفة التى ترد عنها تكون حاملة من القصور بقدر ما في الوسائل من نقص.

ومن المؤكد أن الوسائل المعرفية المتكاملة إذا صحت لها الملكات العقلية[٣]، وقع التعاون الكامل، بل تحقق الحلم الكبير الذى يراود الإنسان عن نفسه حتى يغلق الأبواب، وكأنه يقول له هيت لك، فإذا برزت الملامح العقلية صحيحة، وظهرت الوسائل والآلات متكاملة، فإن عملية التفلسف تكون هى الأخرى قد جاءت على وجه صحيح، يقود للخير حين يعنى بالأسباب والمناهج.

بيد أن المعارف متنوعة باعتبار المصدر فمنها :

١- المعرفة الحسية لأن مصدرها الحواس الخمس الظاهرة أو إحداها، وكلما كانت متكاملة فإنها تؤدى نتائج إيجابية.

٢- ورأس المعرفة العقلية لأن مصدرها الحواس الخمس الباطنة وما يطلق على مجموعها اسم الملكات العقلية.

٣- المعرفة الإلهامية التى تأتى من مصدر أعلى عن الحواس والعقل لأنها تأتى للقلب، عن طريق الإلهام الإلهى، والعلم اللدنى.

---

١) أ. ب-رولنج- خطايا العلم الحديث، ص٣٤، ترجمة الأستاذ رزق فؤاد، ط الثانية، ١٩٩٧م.

٢) هذا الحكم عليها ليس معناه الوجود والعدم، وإنما معناه جدوى ذلك وعدم جدواه.

٣) الملكات العقلية يدخل فيها ما يتعلق بالحواس الخمس الباطنة، وأعنى بها الحافظة والمصورة والذاكرة، ثم الواهمة والقوة المتخيلة، راجع كتابنا : الإلهيات عند ابن سينا، ص٣٧، ١٩٨٥م.

٤- المعرفة الوحيية، وهى التى تجيء عن طريق الوحى الإلهى، ويعبر عنها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

ولما كان هذا التنوع تمثل أجزاؤه جزراً منعزلة، في محيط المعرفة الواسع، فإن تلاقيها كوسائل معرفية مع الملكات، يحقق صورة راقية لنوع من التفكير الإنساني المنضبط(١)، أما إذا استرشد الجميع بالنقل المنزل، فإن الأمر يختلف بحيث يصير راقياً من كل ناحية، متميزاً على جهاته المختلفة.

ثم ان سلامة كافة القدرات العقلية، وضبطها على الناحية المعرفية، بجانب سلامة الحواس وتكاملها تؤدى إلى التأمل الدقيق، والتفلسف المتميز العميق الذى يمكن وضع صاحبه في قال فكرى متميز، وشكل تأملى على قدر عال من إصابة الحق، وبلوغ الهدف، باعتبار أن الفكر التأملى المرتبط بالواقع العملى يعطى نتائج إيجابية، تفصله عن التأمل المجرد أو الكسول، إذ الفكر المتأمل له هدف محدد يتجاوز الذات المفكرة، ليرتبط بالحياة في رباط قوى وعناق طويل(٢)، ليؤكد فى النهاية على أن المفكر الواعى يستطيع استخدام امكانياته والاستفادة منها على نواح كثيرة.

ويذهب توباس إلى أنه كلما كانت الحواس متكاملة مع القدرات العقلية قدم المرء صورة راقية من صور التفلسف، حيث لا يكتفى بدراسة الأشياء في ظواهرها، ولا الظواهر في أشكالها المعروفة، وإنما يتجاوز ذلك كله، حتى يصل إلى الأعماق بعيدة الضوء، حينئذ يصير فيلسوفاً متكاملاً، كما يوصف ما يقوم به على أنه تفلسف حقيقى إلى أبعد مدى(٣)، فكان تكامل الوسائل مع تلاقى الملكات من دوافع التفلسف.

بيد أن تلاقى الوسائل والملكات لابد له من هدف يسعى إليه، وغاية توضع في حسبانه، ورغبة ملحة في المضى قدما لكشف الأسرار، وسبر الأغوار بحيث

---

١) فرانكفورت وآخرون، ما قبل الفلسفة، ص١٤، ترجمة جبران ابراهيم جبر، منشورات مكتبة الخطابى بغداد، ١٩٥٧.

٢) هذا الاستنتاج لا يحتاج أدلة عقلية، لأن الواقع يؤكد ذلك، بل ويدفع إليه دفعا قويا.

٣) مراند توباس، الفكر الفلسفى الحديث، ص١٩، ترجمة حنان رزق، ط أولى، دار الكتاب العربى، ص١٩٨٩.

يصير المرء قادراً على ممارسة التفلسف من الناحية الفنية، ومن الناحية العلمية والعملية أيضاً.

خامساً : خصائص النظرة الفلسفية :

خصائص الشيء، هي ما يقع له بها الامتياز عن الغير، أو تفضيله عليه، كما أنها الصفات التي تميز الشيء عن مشاركاته، بحيث تحدده على وجه دقيق[١]، والنظرة الفلسفية لها العديد من الصفات، أو السمات التي هي خصائص ومميزات تفصلها عن غيرها فصلاً تاماً، ومن أبرزها ما يلي :

١- التأمل الهادف :

أجل كل العقلاء لهم تأملات عديدة، بعضها خافت لا ثبات له، يمر على صاحبه مروراً سريعاً، لا يكاد يمثل بالنسبة لذلك المتأمل شيئاً، وبعضها يستولى على عقله ثم لا يترك أثراً، كمن يرى شيئاً مفاجئاً يندهش له، لكنه يتنازل عن الاحتفاظ به، بينما يأت بعض أخير قوى الأثر لأنه يأخذ العقل والقلب والوجدان لا يبتعد عنها، وإنما يستولى عليها[٢]، فتظل آثاره باقية إلى وقت طويل، وهو التأمل الهادف.

فالعرب حينما نزل القرآن الكريم كلما سألوا عنه واستمعوا إليه، وجدوه قوى المبنى، عميق المعنى، يحدث عن الماضى والحاضر والمستقبل، ذا وقع على العقل والقلب، وله سلطان لا يقاوم على الوجدان، وكلما تأملوه - وهم أهل الفصاحة وأرباب البيان - وجدوه يحمل الإعجاز والإيجاز، مع الفصاحة في أعلى مقام، ومن هنا نطق قائلهم : ان له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وان أعلاه لمثمر، وان أسفله لمغدق، وانه ليعلو وما يعلى عليه.

بل أنهم لما سمعوا قول الله تعالى : ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾[٣]. تراقصت رؤوسهم طرباً، من شدة ما لهذه الآيات من وقع في

---

١) راجع كتابنا، الفكر السياسى بين الغزالى والنظم الحديثة، جـ١، ص٢٤٥، ط أولى، ٢٠٠٤م.

٢) راجع كتابنا، رياض الأشواق فى الميتافيزيقا والأخلاق، ص٥٧، ط الخامسة.

٣) سورة هود، الآية ٤٤.

النفوس، حيث صورت الكلمات القرآنية الجمادات من الأرض والسماء والماء بصورة العقلاء الذين يخاطبون فيقع لهم السمع، وسرعة تنفيذ ما يؤمرون به[١]، ولا يمر هذا التعبير على عاقل إلا ويأخذ به من أطرافه كلها، ومن ثم فالتأمل الهادف، أولى خصائص النظرة الفلسفية.

ثم ان المرء العاقل تمر به مواقف بعضها يجلب السعادة، وبعضها الآخر مؤلم تغضبه الشقاوة، فإذا كان عاقلاً تأمل كل واحد من جملة هذه المواقف السالفة في صورة دقيقة، ثم قارن بين اللذائذ والآلام، بين الأفراح والأتراح، حتى إذا انتهى من تأملاته، اتخذ قراراته، بالتزام السلوك القويم، والابتعاد عن مصادر الآلام ومجلبات الشقاوة[٢]، وحينئذ يكون صاحب نظرة فلسفية.

أضف إلى ما سبق أن الإنسان المتأمل، يعيش هادىء النفس، مطمئن البال، لأنه يجد راحته في تأملاته التى تعينه على الخروج من أزماته، والتغلب على المواقف التى لم يكن مستعداً لها، أو التى تجبره على التعامل معها، ولذلك قيل ان التأمل الهادف هو الطريق الآمن للخروج من الأزمات المفاجئة[٣]، لأنه سوف يتعامل معها بعيداً عن الاندفاع والعصبية، كما لن يسمح للتهور بالإعلان عن نفسه، وإنما يكون قادراً على كبح جماح نفسه.

٢- الشك المنهجي

من سمات المفكر أنه إذا عرض عليه أمر لا يسارع إلى رفضه أو قبوله، وإنما ينظر فيه من كل جوانبه، على أساس أنه ليست له به معرفة سابقة، كما أن مصدره ليس معصوماً، وبالتالى يبقى الأمر المعروض في دائرة الشك، ومن ثم عرّف الشك بأنه ما استوى طرفاه، حيث يتم الوقوف بين الشيئين لا يميل القلب إلى أحدهما، فإذا ترجح أحدهما، ولم يطرح الآخر فهو ظن، أما إذا طرحه فهو غالب الظن، وهو بمنزلة اليقين[٤].

---

١) راجع كتابنا . الغزاليات فى السمعيات. ...

٢) راجع كتابنا : نظرية السعادة فى الفكر الإنساني، جـ٢، ص٧٣، ط اولى، ١٩٩٨.

٣) جراند توباس، الفكر الفلسفى الحديث، ص٧٣.

٤) العلامة السيد الشريف الجرجانى، التعريفات، جـ١، ص١٦٨

لأن الشك قد يكون في وجود الشيء من عدمه، أو في جنسه من أى جنس هو، أو في الغرض الذى لأجله وجد هذا الشيء، ويكون حيث لا يجد الرأى مستقراً له يثبت فيه، ويعتمد عليه[١]، ولذا يقال الشك أول درجات اليقين، لأن المشكلة التى تقود للشك، هى ذاتها التى تتطلب تقديم الحلول السليمة، وتظل ملحة على صاحبها حتى يتمكن من إيجاد الحلول، التى تزيح المشكلة من الوجود، وبناء عليه فلابد من وجود مشكلة تحتاج المفكر والشك معاً.

فمثلاً مشكلة الكثافة السكانية في بعض الدول، فرضت نفسها على قادتها، وبدأت العقول تعمل حتى تقدم الحلول لها، وكل واحد من ذات الحلول المقترحة لم ينل القبول على وجه الترجيح[٢]، وإنما أتاها الشك من كل ناحية، وبات كل مفكر يبحث عن حلول مناسبة، فمنهم ذاهب إلى ضرورة إعقام الرجال، ومنهم ذاهب إلى إعقام النساء، ومنهم ذاهب إلى إعقامهما معاً.

ولكن ظهرت مشكلات عديدة جاءت مع الآراء السالفة، جعلت الشك فيها ينسف بها كلياً أو جزئياً، بدليل أن البعض لجأ إلى فكرة الحروب الداخلية كوسيلة لمعالجة المشكلة، ثم بدأت أفكار جديدة تقوم على توظيف هذه الكثافة والاستفادة منها في الانتاج الزراعى والصناعى، كالحال في الصين والنمور الآسيوية، فأمكن استحداث وسائل زراعية، تتمثل في المزيد من استصلاح الأراضى الصحراوية، وكيفية الاستفادة من الأراضى الزراعية القائمة، كان من جراء ذلك وجود تجمعات سكانية صغيرة في المناطق التى كانت مهجورة في الماضى، وهو ما يعرف باسم التوسع الأفقى[٣]، بل وإدخال التكنولوجيا المتقدمة، والاستفادة منها، بجانب الهندسة الوراثية، وكيفية توظيفها لخدمة هذا الجانب الهام، حتى أمكن تقديم بعض الحلول لذات المشكلة[٤]، وما تزال عملية التطوير مستمرة.

---

١) العلامة الشيخ المناوى، التعاريف، جـ١، ص٤٣٧.

٢) الدكتور / فرنانورايس · المشكلة السكانية وتنمية العالم الثالث، ص٥٣، ترجمة / محسن فريد، ١٩٥م.

٣) الدكتور أنطونى فارس : النمو السكانى والتقدم التكنولوجي، ص٩٥، ترجمة / وفاء حامد.

٤) الأستاذ عادل محمد الظواهرى · مشكلات العالم الثالث الإقتصادية، ص١٣٤

كذلك مشكلة تفاقم الأمراض وانتشارها بصورة مؤثرة في المجتمع على الناحية السلبية، في الإنتاج الزراعي والصناعي، بل والعلمي ثم التقني، إلى غير ذلك من الأمراض التي باتت تهدد حياة الناس، وتسلب أمنهم، وتجعلهم في حالة من انعدام الوزن، وبخاصة إذا كانت هذه الأمراض مزمنة، وذات تأثير قوي فعّال بالنسبة للمرضى والمجتمع ذاته.

أجل بات المفكر يعتصر خبراته، ويشكك في إمكانياته، ثم قام إلى عقله يستحثه العمل والاجتهاد، ثم اندفع إلى رصيده المعرفي ومعمله العلمي، وأكثر من التجارب، فإذا بها تعطي نتائج إيجابية في علاج بعض الأمراض، بينما لم تكن – في بعض الحالات – غرضاً أصلياً كالأورام من الدرجة الأولى[1]، وأمراض القلب[2]، حيث اكتشف الباحثون في علاجها أدوية تتمكن من مهاجمة الخلايا المريضة وتساعد على تنشيط بعض الهرمونات، بحيث تؤدي مهام جديدة، لم تكن في حسبان أولئك الذين اكتشفوها[3]، أو أمكنهم التعرف عليها.

ولابد مع الشك من قلق، فإن كان صحياً أفاد بشكل واسع، أما إن كان قلقاً مرضياً فإنه يضر، ولا يقدم أدنى فائدة، وإنما يحول أصحابه إلى نوعية من المرضى الذين يحتاجون العديد من العلاج، الذي يجيء بعضه في صورة عقاقير، وبعضه الآخر في صور تفريغ شحني ذاتي[4]، وبعض أخير يتم من خلال الصدمات الكهربائية وغيرها، من ثم فلابد مع الشك من قلق صحي.

---

١) الدكتور / محمد عبد الظاهر : الاتجاهات العلمية المعاصرة، ص٧٢.

٢) حيث اكتشف الباحثون في علاج أمراض القلب دواء أطلقوا عليه اسم الفياجرا بحيث يعالج بعض القصور في الأداء الوظيفي بالنسبة للعمليات الجنسية المتكاملة، والمؤسف له أن تحول هذا العقار إلى مظهر من مظاهر الترف فصار استهلاكه واسعاً، ويتم تناوله من غير نظر إلى الأعراض الجانبية، مما أدى إلى حدوث بعض الوفيات، بجانب استغلال بعض الشركات الحاجة الكاذبة إليه، فظهرت أنواع متعددة وغالبيتها رديئة، يتم تصديرها إلى دول العالم الثالث حتى تمتص أمواله، جريدة الأخبار المصرية، ٥/٢١، ١٩٩٧، الصفحة الخامسة.

٣) الدكتور / عبد العزيز محمود زكي : الطب الحديث والهندسة الوراثية، ص٩٥.

٤) راجع للدكتور / سبنسر كولز : اعرف نفسك، ص٧١، ترجمة : هاني خليل.

٣- الاستماع للآخر :

ضيق الأفق يسم صاحبه بأنه أحمق الفكر، يعتبر نفسه العاقل الأوحد، والفاهم الوحيد، ومن ثم لا يعطى نفسه فرصة الاستماع للرأى الآخر، بل ولا يسمح له حتى يعبر عن نفسه، إذ لا يوجد لديه تسامح فكرى، ولا سعة أفق، فضلاً عن أن يكون صاحب رؤية واضحة، أو نظرة صافية للأشياء [١]، انه قد جمع كافة النقائص من غير أن يدرى، وإذا طلب منه الإصغاء إلى رأى الآخرين اعتبر ذلك خروجاً على القاعدة العامة، ومثله لا يقدم نفعاً في أى جانب من الجوانب.

أما صاحب النظرة الفلسفية الواعى، فإن نظرته لنفسه تكون على أساس أنه الأقل، ويريد الاستزادة من الآخرين، ومن ثم يفتح كل نافذة يمكن أن تجيئه منها معرفة، انه يؤمن بأن الحكمة كما تجيء في عقول الحكماء، قد تجيء على أفواه المجانين [٢]، وليس يعنيه عمن يأخذ، وإنما يعنيه قيمة ما يأخذ، والمؤسف له أن البعض يتهم الفلاسفة بأنهم يعيشون في أبراج عاجية، داخل جزر نائية، في أمكان مهجورة ومنعزلة.

لقد أمكن تعريف الفلسفة الذاتية بأنها نوع من الإصغاء للآخر، والاستماع لكل ما يعن له، وبعبارة أخرى هى إتاحة الفرصة للآخر حتى يعبر عن رأيه في حرية تامة، ووضوح لا يدخل فيه الاعتساف للنتائج، أو القفز فوق المقدمات، وبناء عليه فكل من يسمع للآخر، ويستفيد منه يعتبر صاحب نظرة فلسفية، كما ينظر إليه على أنه فيلسوف حقيقى.

ان الاستماع للآخر يعطى المرء فرصة الاستماع العقلى الجيد، ذلك أنه يضيف إلى رصيده المعرفى ما جادت به قرائح الآخرين، يقول تاهيتى حقاً لقد أيقنت أنه متى استمع المرء بأذنيه، ولم يقصر السمع على واحدة، فإنه يحلق بهما حيثما أمكنه الطيران، وعلى الأقل فإنه يظل مرتبطاً بالعلوم والمعارف التى تجيئه من هذا الطريق، فتسمح له بالانطلاق معها، وإضافة الجديد إليها [٣].

---

١) راجع كتابنا : نظرية السعادة فى الفكر الإسلامى، جـ١، ص١٥٧.

٢) فى الأولى حكم عام، وفى الثانية جاءت الكلمة قد لإفادة التقليل.

٣) أرنولد تاهيتى، الجديد فى الفلسفة، ص٧٣، ترجمة الدكتورة حنان عبد الله، ط دار الفؤاد، ١٩٨٧.

ثم ان القضايا المطروحة، أو الحلول المقترحة للمشكلات القائمة إنما تمثل وجهة نظر لأصحابها قد تسلم كثيراً من أوجه القصور، فإذا أهمل الاستماع إليها، وأغلق مسامعه دونها، فقد حرم عقله وفكره من اكتساب معرفة جديدة، فضلاً عن توظيفها، والاستفادة منها، وهو شأن الحمقى قصار النظر الذين لا قيمة لأفكارهم المتواضعة، ووجهة نظرهم الهابطة[1].

بدليل أن العلوم الخدمية كلها تتكامل فيما بينها، حيث يستفيد كل فرع بما هو قائم لدى الفروع الأخرى، فمثلاً علم الرياضة يستفيد من علم الطبيعة، ومعرفة طبائع الأشياء، ثم يختزلها ويعبر عنها، بصورة رياضية، كما أن علم الطبيعة يفيد من علم الرياضة، حين يريد التعبير عن قضاياه التى تحتاج النتائج السابقة[2]، بحيث توضع على شكل مقدمات جديدة.

بل ان الكم المنفصل وهو علم الأعداد والرموز – الحساب والجبر – يفيد من الكم المتصل وهو علم السطوح والأحجام – الهندسة والميكانيكا – وكل منهما يفيد من علم الجغرافيا والخرائط، بجانب علم الأحياء، بل ويحتاج المنطق لمعرفة ما إذا كانت هذه المقررات أو النتائج سليمة أم لا، وهكذا يقع التبادل فى استفادة كل هذه من بعضها بصورة من الصور، أو ناحية من النواحى.

من الملاحظ أيضاً أن كل تفكير عقلى خالص، يحتاج الرأى المستنير، والحكم الموضوعى، كل ذلك بجانب النقد الجاد الهادف، ولا يتحقق هذا وغيره إلا من خلال مفكر مستنير، يعنى بالمقدمات الصحيحة، ويسعى للنتائج السليمة، ولا يبالى من أى مكان جاءت، بل ولا من أى مصدر خرجت، إذ العبرة بالنتائج فقط، وهو المعول عليه لدى أصحاب النظرة الفلسفية.

---

١) ويطلق عليهم الإمام الغزالى أصحاب التعصب لغير الحق، راجع كتابنا : حصاد الاقتصاد فى الاعتقاد، جـ٣، الأفعال الإلهية، ص٨٥، الطبعة الخامسة.

٢) راجع كتابنا : مناهج البحث بين التقليد والتجديد، ص١٩٧

وقد نبه الإمام الغزالى[1] إلى أن التعصب للرأى آفة، ويدل على حماقة صاحبه، كما يقود إلى التبعية المرفوضة، والتقليد الأعمى، الذى يترتب عليه تأخر في اكتساب العلوم، وتدهور في المعارف، واختلافات في الرأى[2]، وتمزق في المجتمع، بجانب زيادة النزاعات التى يعقبها الفساد من كل ناحية.

٤- الميل للخصوصية :

لما كانت العمليات العقلية التى تنبيء عن التفلسف الحقيقى، تتم لكل فرد على حدة، طبقاً لنظرية الفروق الفردية، فإن تأملات كل شخص تعبر عن اتجاهاته الخاصة، بجانب توجهاته الذاتية، ولذا فإنها تتسم بالخصوصية الذاتية، وبناء عليه فكل مفكر يمكن أن ينظر إلى شيء ما، ويشاركه في ذات النظرة لنفس الشيء مفكر آخر، ثم تأتى النتائج مختلفة تماماً من كل ناحية، لأن كل تفكير إنما يعكس الصورة الداخلية لذات المفكر[3]، كما يعتبر الترجمة البارزة، والعلاقة الناطقة بما يعتمل داخل فؤاده هو، ولا علاقة له بما يدور فى عقل الآخر وبه يصطبغ فكره.

وإذا رمت دليلاً وجدته لدى كل طائفة من الفلاسفة، رغم كونهم منتسبين إلى جناح بعينه، فالفكر الأرستقراطى نجد أفراده متخالفين في الفروع الفكرية، بالرغم من أن القاعدة العامة لديهم واحدة. وكذلك الحال مع الفكر الثيوقراطى[4]، بل ان الاتجاه العام في الفكر اليونانى لدى الطبيعيين الأولين قد أثبت ذلك، وعلامته أن بعضهم أثناء البحث عن أصل الكون قد لجأ إلى تفسيره بالماء بينما اعتقد

---

١) الإمام ابو حامد الغزالى : هو محمد بن محمد بن محمد الغزالى الطوسى أبو حامد حجة الاسلام، فيلسوف متصوف له نحو مائتى مصنف، من أشهر كتبه : تهافت الفلاسفة، الاقتصاد في الاعتقاد، احياء علوم الدين، المنقذ من الضلال، الجام العوام عن علم الكلام، فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة .....الخ المؤلفات الكثيرة ولد عام ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م وتوفى عام ٥٠٥هـ/١١١١م، راجع : وفيات الاعيان ١:٤٦٣، وطبقات الشافعية، ٤:١٠١، الوافى بالوفيات ١:٢٧٧، مفتاح السعادة ٢/١٩١/٢١٠، الإعلام للزريكلى ج ٧/٢٤٧/٢٤٨.

٢) راجع للإمام الغزالى : الاقتصاد فى الاعتقاد القطب الثالث عند الحديث عن غلطات الوهم.

٣) راجع كتابنا : التفكير الإنسانى أصوله ومستوياته، ص٢١٠.

٤) يقصد بالفكر الثيوقراطى : ما يتعلق بالوراثة من الله، وهى أفكار تجرى فى نظم الحكم السياسية الملكية الوراثية، راجع كتابنا : الفكر السياسى بين الغزالى والأنظمة الحديثة، جـ١، ص١٨٧

البعض الاخر انه النار، في الوقت الذى مال إليه غيرهم بأن يكون التراب او الهواء، ولا ينكر وجود هذه المحاولات الفاشلة إلا من أنكر تاريخ البحث الفلسفى، واستقام في أحضان الخرافات.

كذلك اختلفوا في المعرفة باعتبارها نظرية أو مبحثا[١]، ثم اختلفوا بعد ذلك في مصادرها ونتائجها ودرجاتها من اليقين، وهو نفس الاختلاف الذى برز لديهم أثناء فهم طبيعة الوجود المخلوق على حدة، دون ارتباط له بكل من أنواع الموجود، مما حدا بالدارسين لأن ينسبوا كل فكر إلى صاحبه، بل صرنا نعرف فلسفة الفارابى، وابن سينا وابن رشد وغيرهم من فلاسفة الإسلام بالأفكار التى تناولوها، والنتائج التى نسبت فيما بعد إليهم.

على أن هذه الخاصية إذا عرفت، أو انتقل ما صدر عنها من أفكار إلى بيئة ثقافية أخرى، فإنها تصير ملكا للجميع، ومن ثم تتغير من وجوه شتى. يقول الدكتور أبو ريدة : وهى في هذه الحال ليست ملكا لأهلها الأولين، بل ملك لأرض بها الجود الذين اتخذوا منها نقطة بداية لنزعات جديدة، تناسب روحهم واتجاهاتهم، وجملة تفكيرهم الفلسفى، إذ ليس في تاريخ الفكر الصحيح تقليد[٢].

أما ابن سينا فإنه يعتبر هذه الخصوصية من سمات التفاضل بين الناس، فيقول من الله عليهم بفضل رأفته منا مستأنفا على الدوام، حيث جعلهم في عقولهم وآرائهم متفاضلين، كما جعلهم في أفلاكهم ومنازلهم ورتبهم متفاوتين[٣] على أن ذلك آية من آيات الله تعالى.

يقول جينينز Soame Jenyns : كلما أوغلنا في الفحص عن مصنوعات خالقنا العظيم، اكتشفنا آيات بينة على حكمته وقدرته اللامتناهية، وليس بينها أبلغ من تلك السلسلة العجيبة للموجودات، التى حشدت بها الكرة الأرضية، بحيث

---

١) الفرق بينهما أن النظرية فرض علمى لم يبلغ بعد درجة القانون، بينما المبحث جزء من قضية علمية مطروحة على بساط البحث.

٢) الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة، مقدمة رسائل الكندى، جـ٤ حيث قام بتحقيق هذه الرسائل وكتابة تقديم لها، ط دار الفكر العربى، ١٩٥٠.

٣) الشيخ الرئيس ابن سينا، رسالة فى السياسة، ص٣، ضمن مقالات فلسفية لمشاهير المسلمين والنصارى. إعداد لويس شيخو، ط الرابعة ١٩٩٢

يمضى أحدها صعدا في أثر الآخر، من المدرة التى لا حس لها، حتى ألمع بمفردى من عباقرة الجنس البشرى، الذن تستبين السلسلة فيه بوضوح كاف[١]، وعلى هذا فكل مفكر إنما يبذل مجهوده بحيث ينسب إليه، وذلك من خصائص النظرة الفلسفية.

يقول آرثر : إن من خواص النظرة الفلسفية، أنها تعبر عن وجهات نظر صاحبها ذاته، حتى كأنها صورة له، أو نسخة منه، انها الذى ترشدنا إلى مستوى تفكيره، وتسمح لنا بالحكم على هذا التفكير، وما إذا كان من السهل إدراج صاحبه في سلسلة الفلاسفة أم إبعاده عنهم[٢].

من المؤكد أنه لما كانت هذه النظرة الفلسفية خاصة بصاحبها، فإن القاعدة العامة التى تحكمها تتجه إلى اعتبار الوقتية قرينة الخصوصية، لأن المفكر ابن بيئته التى يعيش فيها، والأفكار التى يتعاطاها هؤلاء الأفراد أو يتداولونها فيما بينهم، وبناء عليه فهو يعدل في أفكاره من وقت لآخر، كما يعدل في اتجاهاته العامة، متى رأى أن الجديد هو الأنسب، وربما عدل في الوقت الواحد أكثر من مرة، فهو يسعى للحقيقة دائما، ولا يعنيه ان كانت معه أم مع غيره، وصل إليها في الغدو أم في الرواح، وذلك من شأنه التماس العديد من الوجوه الجديدة فى دنيا الأفكار التى تأكد من صدقها، بجانب نفعها مع ظهور الحاجة إليها.

٥- مراجعة التجارب السابقة :

المفكر الحقيقى لا يعنى بامتصاص جهود الآخرين فقط بحيث يكون عالة عليهم، وإنما يهتم بمراجعة الخبرات والتجارب السابقة، حتى تكون الأحكام التى يقف عليها يقينية برهانية ثم يضيف إليها، لأنه دائما يغالب عواطفه، ويعمل على كبح رغباته الوجدانية، كما يسعى لتوظيف رغباته وغرائزه، بل ودوافعه بحيث حتى يكون مستعداً لبذل المجهود الفكرى[٣]، والتأمل العقلى في كل ظاهرة فلسفية.

لأن بعض الناس ينقلون أوهاماً إلى الغير على أنها حقائق، وتظل عملية الإلحاح آخذة بهم إلى تصديقها حتى يجدوا ما يدعم الأحكام التى قامت في عقولهم،

---

١) صوم جينينز، الخلية الأولية للحياة، ص٧٣، ترجمة علية عبد الرحمن، ط ثانية، ١٩٦٣هـ.

٢) كيم آرثر، الفلسفة والفيلسوف، ص٤٧، ط أولى، دار الكرنك.

٣) جع كتابنا التفكير الانسانى اصوله ومستوياته، ص١١٢

وأخذوها عن طريق الغير، وهؤلاء لا يعنيهم سوى التقليد، والإمساك به من كل أطرافه، وهم لا حسبان لهم في دنيا المفكرين[١]، رغم ادعائهم الفكر، والزعم بأنهم من جملة المفكرين.

بيد أن صاحب الفكر الصحيح، والعقل السليم، إنما ينهض لأفكاره التى حواها عقله، بحيث يراجعها من خلال ميزان صحيح يقف عنده، وجملة من التجارب التى صارت قواعد ثابتة، من خلال البراهين التى أثبتها وكشف عنها، ومتى راجع المرء البيانات التى حفظها عقله الباطن[٢]، ونحيى من جملتها الأوهام، فإنه يتخلص تماماً من عقد الذنب، والوقوع في دوائر السفه والضلال.

في نفس الوقت فإن عملية المراجعة للتجارب السابقة ليس معناه إعادة لها، وإنما هو تقييم جديد للنتائج التى أمكن الوقوف عليها، وهو ما يعرف في الدراسات الإسلامية بأصول المذهب، وفى الغرب يطلق عليه اسم الإضافات الجديدة، لأن هذه الخاصية تعين على التمسك بالنتائج الصحيحة وحدها، فـ :

مثلاً كان أرسطو يقرر أنه إذا ألقى جسمان، مختلفى الوزن، من مكان عال، فإن الأثقل وزناً يصل إلى الأرض قبل الأخف، وظلت هذه الفكرة سائدة كأنها قاعدة عامة[٣]، ثم جاء كوبرنيقوس ودرس الرياضة بالشكل المتقدم الذى لم يعرفه أرسطو، كما درس الميكانيكا، فلم يرق له ما قال به أرسطو بالنسبة لسقوط الأجسام على الأرض.

ثم راح جاليليو هو الآخر يبحث القضية من جديد بعد دراسته العلوم الطبيعية والفلكية، حتى إذا انتهى إلى ضرورة التجربة، قام بها، فإذا هى محققة نتائج مخالفة تماماً لنتائج أرسطو، بل انه جمع العلماء وأخذ حجرين مختلفى الوزن، حيث وصعد برج بيزا، ثم ألقى بهما معاً في وقت واحد، فإذا بهما يصلان الأرض في وقت واحد، بناء على قوانين الجاذبية[٤]، من ثم فإن مراجعة التجارب

---

١) لأن المفكر الحقيقى دائماً يسعى نحو الوصول إلى الفكرة، بحيث يأتيها جانية دانية لم يسبقه إليها سابق.

٢) هذه المراجعة من سمات المفكر الحقيقى والتفلسف الأصيل.

٣) راجع كتابنا : رياض الأشواق فى الميتافيزيقا والأخلاق، ص١٤٧.

٤) ومع أنه استطاع الاستدلا الصحيح على فكرته، إلا أنه عوقب من قبل الكنيسة ونال العقاب حرقاً بعد الموت، راجع كتابنا : خواطر حثيثة فى الفلسفة الحديثة، ص١٧١.

السابقة تستلزم الجرأة مع الموضوعية والرغبة في الوصول إلى الحق دون اعتبار لشيء آخر.

يقول دوكنز : من السهل أن تبتلع ثمرات نتاج الآخرين، لكن من الصعب أن تراجع حصاد تلك الثمرات، أو أن تحكم عليها بأنها سليمة فعلاً، أم أنها معطوبة، وأنت لم تدرك عطبها، حتى لا تتهم بالهرطقة أو التجديف أو الخروج على النظام العام[1].

ويقول ادوارد هوكلى : إننا نصدق بما قاله لنا الكبار، على أنه حقائق ثابتة، فإذا حاولنا التجربة للتأكد منها تبين أنها تحمل الصواب أو الخطأ، لكن المشكلة الرئيسية حين يصطدم الأمر بالثوابت التى يرى اللاهوتيون عدم الاقتراب منها، أو تجريم من يعلن خطأ مصادرها[2]، لأن الكنيسة ترفض الفحص في أية مسألة اعتبرت عندهم من الدين حتى لو كانت الإضافات التى أدخلتها الكنيسة إلى الفكر اللاهوتى.

ويصرح فاك بأن مراجعة التجارب السابقة مهمة الفيلسوف وحده، لأن طبيعة عمله هو التأمل المتواصل، وليس التقليد الأعمى، كما أنه في الفلسفة النقدية لا عمل له سوى الوقوف على صحة النتائج، القديم منها والحديث، ثم يطور في قواعده هو الآخر حتى يقدم نتائج جديدة[3]، من ثم فإن من خصائص النظرة الفلسفية ضرورة مراجعة نتائج الأحكام أو التجارب السالفة بحيث يتم البناء الجديد على أصول صحيحة، وقواعد سليمة.

٦- تحريك الخبرات والدفع بها للأمام :

من الممكن القول بأن النظرة الفلسفية تجيء فيها الموضوعية بجانب الحيدة، لكنها تعمل دائماً على الاستفادة المتواصلة بناتج الخبرات الماضية من طريق تحريك الصالح منها للعمل، والدفع به للأمام، أما الفاسد فإنها تجعله في موضع العبرة فقط، ولذلك فإنها نظرة ذات رصيد معرفي، قابل للزيادة متى تعلق بما فيه المصلحة العلمية، وقابل أيضاً للنقصان متى تعلق به ضرر أو مخالفة للقواعد الصحيحة.

---

١) تشارلز دوكنز : الفلسفة والدين، ص٨٣، ترجمة وفاء صالح.

٢) ادوارد هوكلى، التفكير العلمي والتحديات، ترجمة حنان صالح، ١٩٦٣م.

٣) نونافاك، العلم فى القرن العشرين، ص٣١، ترجمة / زكى محمد فوزى، ط ثانية، ١٩٦٧

يقول ادوارد هوكلى : ليس من الصواب إلقاء كل تجاربى وخبراتى السابقة في بئر عميق، غايته النسيان، وإلا كنت كمن يلغى عقله تماماً، ولكنى من آن لآخر افضل اختبار هذا الراكد القديم، وتحريكه كما يفعل تاجر الذهب، فإذا بان لى فيه ما ينفع للإستفادة منه فى خلال الوقت الحاضر أمسكته، ثم قمت بتلميعه ودفعه للأمام، أما إذا وجدته قد علاه الصدأ والتآكل، فلا أقل من أن أنظر إليه نظرة وداع(١).

في نفس الوقت متى أمكن للإنسان مراجعة خبراته الذاتية وتجاربه التى بقيت صورها ثابتة في ذهنه، فإنه يرتبها حسب الأولويات من ناحية الأهمية، ثم يعمل على الاستفادة منها بطرائقه المختلفة، كما يسعى إلى إثبات قدرته على توظيفها في صور مختلفة، وحينئذ يكون فيلسوفاً كما يمكن نعت ما قام به بنعوت أصحاب النظرة الفلسفية الخالصة.

أما إذا استطاع أن يلعب دوراً جديداً، من خلال تحريك تلك الخبرات ثم الانطلاق بها نحو إيجاد حلول للمشكلات القائمة، أو جعلها في حسبانه عندما يواجه بمشكلة متوقعة(٢)، فإنه بذلك يكون قد أضاف بعداً جديداً لطبيعته الذاتية، كما أكد على كونه واحداً من أصحاب النظرة الفلسفية المتميزة.

أضف إلى ما سبق، أن الفرد العاقل من أفراد المجتمع الإنسانى ككل، إنما هو موضوع في الأصل ليمثل اتجاهاً معرفياً عند دراسته، من جوانب متعددة تشمل حواسه، وقدراته العقلية، بل والنفسية والإبداعية، فإذا ما تحول من مجرد موضوع معرفى(٣)، إلى منتج لهذه المعرفة من خلال احتفاظه برصيده السابق أو توظيفه على الناحية التى يريد، فإنه يكون صاحب نظرة فلسفية متميزة، واتجاه له أثره في عملية التفلسف، عماده هو النظرة الفلسفية الخالصة.

مما سلف اتضح أن خصائص النظرة الفلسفية متعددة، وأنه متى قام المرء ببعضها، فإنه يكون صاحب اتجاه فلسفى محدد أو مشروع فيلسوف، لكن إذا استطاع أن يجمعها، وتتمثل فيه جوانبها، فإنه يكون فيلسوفاً حتى ولو لم ينتج فلسفة تنسب إليه، إذ يكفى وجود قدرات عاملة تدل على كونه فيلسوفاً.

---

١) ادوارد هوكلى، التفكير العلمي والتحديات، ص٢٣-٢٤.

٢) لأن المفكر الحقيقى كلما وضع إجابات للمشكلات التى تعترضه، فإنه يفتح الباب لمزيد من الأسئلة التى تحتاج إجابات جديدة.

٣) راجع كتابنا : المعرفة عند ابن رشد، ص٧٨.

الفصل الثاني

الفلسفة
بين الوظائف والفوائد

تمهيد

ما من علم من العلوم، أو فن من الفنون، إلا وله وظيفة يقوم عليها، وفوائد يسعى لتحقيقها فإذا لم تكن هناك وظيفة[١] أو فائدة، فإن البحث فيها يكون عبثا لا طائل من ورائه، ومثله لا تسعى النفوس إليه، ولا تتطلع العقول لبلوغه، وإنما يتجاهل، حتى يصير نسيا منسيا.

والفلسفة تحاول الكشف عن نمط الأحداث فى العالم على نطاق واسع ليس فى الطبيعة الجامدة وحدها، ولا تستغرب أن كثيراً من الفلاسفة كانوا علماء للفيزياء[٢]،وكلما كشفت عن نمط من الأحداث، تقدمت خطواتها للأمام بسرعة، وانطلقت فى أحداثها باندفاع.

بيد أن بعض الناظرين فى الفلسفة، كانت لهم نظرات مختلفة فى الحكم على وظيفتها وفوائدها، انطلق بعضها من تعبئة عدائية للفلسفة، وبغض للفلاسفة، حتى قالوا: إن الفلسفة لا تؤدى عملا نافعاً[٣]، بل أن بعض هؤلاء قد أسرف فى الحكم عليها، فاعتبرها من المحرمات، باعتبار النظر فيها، أو الاشتغال بها، والاكتساب من ورائها[٤].

بل اشتط البعض فسارع بمجاراة العامة، واللعب على عواطفهم، حتى طالب بإحراق كل كتب الفلسفة، ومحاربة الفلاسفة، بل مطاردتهم أنفسهم والتخلص منهم، إن كان ذلك ممكنا، وبات أمر عداوتهم – من وجهة نظره – عملا مشروعاً، والتحق عليهم عبادة يتقرب بها هؤلاء إلى الله تعالى[٥]، بغض النظر عن كونها فلسفة مؤمنة، تقوم بالاستدلال على وجود الله، أم فلسفة ملحدة يسعى القائمون عليها بالطعن على العقيدة، وإنكار الغيبيات، والتمسك بالمحسوسات وحدها، ومن غير نظر إلى نوع الفلسفة، وهل هى يونانية تبحث عن الله، ثم تنتهى إلى إنكار وجوده[٦]، أم فلسفة إسلامية تستدل على وجود الله تعالى، مستخدمة كل دليل يمكن أن يؤدى إلى ذلك.

---

(١) الوظيفة: ما يقدر من علم أو طعام أو رزق فى زمن معين،كما تقال الوظيفة على المنصب والخدمة المعينة. [المعجم الوجيز – باب الواو فصل الظاء – ص٦٧٤]

(٢) جيمس جينس – الفيزياء والفلسفة ص٢٣– ترجمة جعفر رجب.

(٣) محسن عبدالعظيم نصر الله – دراسات فى الفلسفة ص٦٤ – طبعة أولى ١٩٥١م.

(٤) جين وروبرت هاندلى، بالاشتراك مع بولين نيف – كيف تتخلصين من القلق ص٢٤٣. ترجمة د: سهير محفوظ – الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠١م.

(٥) الأستاذ عبدالخالق سعد حامد – الفلسفة والواقع المعاش ص٥٧ ط١/١٩٦١م.

(٦) هذا مما لا تقره النصوص الشرعية؛ لأن الوقيعة بالمسلم تعتبر جناية عليه ففى الحديث الشريف: عن أبي هريرة قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد الله إخوانا المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره التقوى هاهنا ويشير إلى صدره ثلاث مرات بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه ». [الإمام مسلم – صحيح مسلم ج: ٤ ص: ١٩٨٦ – باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله– حديث رقم: ٢٥٦٤، رواه أحمد مسند أحمد ج: ٢ ص: ٢٧٧– الحديث رقم:٧٧١٣، و عن أبي هريرة قال « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلم أخو المسلم لا يخونه ولا يكذبه ولا يخذله كل المسلم على المسلم حرام عرضه وماله ودمه التقوى ههنا بحسب امرئ من الشر أن يحتقر أخاه المسلم ».[الإمام الترمذى – سنن الترمذي ج: ٤ ص: ٣٢٥– باب ما جاء في شفقة المسلم على المسلم حديث رقم:١٩٢٧ ، ورواه أحمد مسند أحمد ج: ٣ ص: ٤٩١ الحديث رقم: ١٦٠٦٢] ، وروى ابن ماجة عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه » [الإمام ابن ماجة – سنن ابن ماجه ج: ٢ ص: ١٢٩٨ – الحديث رقم: ٣٩٣٣]

فى نفس الوقت كان للتعبئة الشعورية، بالعداء لأصحاب الفكر الحر أثرها البالغ علـــى آراء المفكرين، وعلى طريقة معالجة القضايا التى انخرطوا فى مشكلاتها، وامتد هذا العداء حتى شمل الفقهاء، كما شمل المؤرخين، ورجال الصوفية، وباقى المتدينين، بحيث لم يفلت من هذه الأحكام القاسية أحد، بل تحولت البيئة الإسلامية أقرب شبها بميدان القتال، الذى ترابط فيه جيوش مختلفة الاتجاهات، وكل يستبق للقضاء على الآخرين.

وبالنظر إلى الآراء التى انطلقت، تبحث وظائف الفلسفة وفوائدها، تراها فى الأغلب الأعـــم إنما تعبر عن توجهات خاصة، كما تمثل نوعا من تصفيات مواقف، وحسابات لم يكن لها وجود، فى الزمن المعاصر، وبالتالى؛ فهى توجهات شخصية، استعمل أصحابها فى طريقهم لغة الدين[1]، كمـــا أعلنوا عن عداوتهم للفلسفة والفلاسفة، زاعمين أن موقفهم هذا، إنما تدفعهم إليه النزعـــة الدينيـــة، والرغبة فى الدفاع عن الشريعة الإسلامية.

وقد التزم أهل الحكمة القول: بأن النجاح هو أن تحول المعرفة التى تحصلها، إلى قوة دافعـــة للتحول الإيجابى، لكن المعرفة شيء والعمل شيء آخر، ومن ثم يجب علينا أن نأخذ بالأسباب، حـــتى يكون لنا دور فى مجريات الأمور من حولنا، ولكن مما يدعو للأسف أن غالبية الناس لا يتحركـــون، خوفا من عواقب ما يقومون به من أفعال[2]، ومن ثم كان الأولى بأهل النزاع أن يتناولوا قضاياهم فى شيء من التروى والتؤدة، وأن تكون لديهم المرونة الشديدة، مع التأنى والموضوعية، فذلـــك خـــير للبحث العلمى على كل ناحية، كما أن الانفعال والعصبية، أو الثورة والعنف، لا تتولد عنـــهما إلا مثلهما، وهل تنتج شجرة الحنظل إلا من جنسها، أما شجرة التفاح، فإنها تتساقط من حولها الروائح الطيبة، ومن ثمارها تتولد الصحة بجانب الطعم اللذيذ.

لكن يخال إلى أن بعض الأحكام القاسية ، كانت فيها تصفيات لحسابات، ما كان لهـــا أن تقوم بين المفكرين، وبغض النظر عن الجو الذى تكهرب، وظهرت فيه ذات الأفكار الـــتى جعلـــت أجواء الفضاء تلبدت بالغيوم، واكفهرت بقضاياه سماء الفكر، التى كان لها بعض الظهور والبيـــان، فى نفس الوقت فإن هذه العقول قد انفجرت أرحامها، بقضايا حامت حولها الشبهات[3].

● **يقول جون كولر:** يتهم الفلاسفة فى بعض الأحيان بأنهم يعيشون فى أبراج عالية، وأنهم لا يركـــزون إلا على التفريعات والتجريدات المنطقية، متجاهلين الاهتمامات الكبرى المتعلقة بالحياة، وعندمـــا يحدث ذلك، فإن الفلسفة تفقد الكثير من أهميتها، وتكف عن خدمة الشخص العادى فى تـــأمل وجوده دليل هذا العالم، وتفشل فى توفير المواد التى تمسى إليها الحاجة فى بناء صرح فلسفة الحياة،

---

(١) الأستاذ عبدالخالق سعد حامد – الفلسفة والواقع المعاش ص٦١ ط١/١٩٦١م.

(٢) وكلما الوازع الدينى فى؛ قويت الرغبة فى الانفلات، وازدادت شهوة النفوس فى الوقوع فى المخالفات الشرعية والقيـــم الأخلاقية، ومن كانت ذلك شأنه فلا شك أنه قد برأت منه ذمة الله وذمة رسوله.

(٣) راجع كتابنا: فى التيارات الفكرية ص٢٤٧، وكتابنا رياض الأشواق فى الميتافيزيقا والأخلاق ص١٤٠.

بالنسبة للشخص، ونحن فى الغرب معتادون إلى حد كبير على النظر إلى الفلسفة، باعتبارها شيئا مستقلا عن الحياة، مغرقا فى التجريد، وفى الطابع الأكاديمى بالنسبة للشخص العادى[١].

بيد أن المعركة لم تقف عند حد الانطلاق بالقضايا الشائكة، وإنما أوغلت هذه العقول فى الخلافات، أو حبست عن النور تلك الآراء، وسواء أكانت تلك الأسباب دينية أم شخصية أم سياسية أم اجتماعية، فإن الأمر الذي بات مؤكدا، هو أن أمر الحل والحرمة، والقبول والرد، ضيعت فيه أموال، وانتهكت حرمات، واستهلكت طاقات، كان الأحرى أن تدخر للدفاع عن العقيدة الإسلامية، ونشر الدعوة الإسلامية، بل كان الأولى ترشيد هذه الآراء، حتى تبلغ الرشد، وتحقق مصالح الأمة الإسلامية، التى جعلها الله تعالى أمة وسطا، وخير أمة أخرجت للناس[٢].

---

(١) جون كولر – الفكر الشرقى القديم ص٢٠ .ترجمة كامل يوسف حسين- مراجعة إمام عبدالفتاح إمام – سلسلة عالم المعرفة رقم ١٩٩ يوليو ١٩٩٥م.

(٢) قال تعالى : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.[سورة آل عمران - الآية ١١٠] ويقول الحافظ ابن كثير : « إن هذه الأمة المحمدية هى خير الأمم، فقال تعالى كنتم خير أمة أخرجت للناس، عن أبي هريرة ﷺ قال: خير الناس للناس تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام، والمعنى أنهم خير الأمم وأنفع الناس للناس ولهذا قال تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله.[الإمام البخارى - صحيح قال البخاري - رقم: ٤٥٥٧] وعن درة بنت أبي لهب قالت [قام رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر فقال يا رسول الله أي الناس خير قال خير الناس أقراهم وأتقاهم لله وآمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأوصلهم للرحم) [الإمام أحمد بن حنبل - أحمد في مسند أحمد - الحديث: ١٣٧٢ والنسائي في سننه كبرى - الحديث:١١٠٧٢ والحاكم في المستدرك - الحديث: ٢٢٩٤] والصحيح أن هذه الآية عامة في جميع الأمة كل قرن بحسبه وخير قرونهم الذين بعث فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم كما قال في الآية الأخرى وكذلك جعلناكم أمة وسطا أي خيارا لتكونوا شهداء على الناس، ففى الحديث الشريف عن حكيم بن معاوية بن حيدة عن أبيه قال « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله عز وجل وهو حديث مشهور وقد حسنه الترمذي ويروى من حديث معاذ بن جبل وأبي سعيد نحوه. [الإمام الترمذى - - سنن الترمذى - الحديث ٣٠٠١ ، وابن ماجه - سنن ابن ماجه - الحديث:٤٢٨٧ ، والحاكم فى المستدرك - الحديث: ٤٨٤ ، والإمام أحمد بن حنبل - مسند أحمد - الحديث:٤٤٤٧] وإنما حازت هذه الأمة قصب السبق إلى الخيرات بنبيها محمد صلوات الله وسلامه عليه فإنه أشرف خلق الله وأكرم الرسل على الله وبعثه الله بشرع كامل عظيم لم يعطه نبي قبله ولا رسول من الرسل فالعمل على منهاجه وسبيله يقوم القليل منه ما لا يقوم العمل الكثير من أعمال غيرهم مقامه ».[الحافظ ابن كثير - تفسير القرآن العظيم - ج١ ص٣٩٢ . وذكر الإمام ابن كثير فى معنى الآية إن الله تعالى يقول يا عيسى إني باعث بعدك أمة إن أصابهم ما يحبون حمدوا وشكروا وإن أصابهم ما يكرهون احتسبوا وصبروا ولا حلم ولا علم قال يا رب كيف هذا لهم ولا حلم ولا علم قال أعطيهم من حلمي وعلمي، فعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطيت سبعين ألفا يدخلون الجنة بغير حساب وجوههم كالقمر ليلة البدر قلوبهم على قلب رجل واحد فاستزدت ربي فزادني مع كل واحد سبعين ألفا فقال أبو بكر رضي الله عنه فرأيت أن ذلك آت على أهل القرى ومصيب من جافات البوادي. [الإمام أحمد بن حنبل - مسند أحمد - الحديث رقم:١٦] وعن عبد الرحمن بن أبي بكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إن ربي أعطاني سبعين ألفا يدخلون الجنة بغير حساب فقال عمر يا رسول الله فهلا استزدته فقال استزدته فأعطاني مع كل ألف سبعين ألفا قال عمر فهلا أستزدته قال قد أستزدته فأعطاني مع كل رجل سبعين ألفا قال عمر فهلا استزدته قال قد استزدته فأعطاني. [الإمام أحمد -المسند - الحديث: ١١٩٧] وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: [قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطيت ما لم يعط أحد من الأنبياء فقلنا يا رسول الله ما هو قال نصرت بالرعب وأعطيت مفاتيح الأرض وسميت أحمد وجعل التراب لي طهورا وجعلت أمتي خير الأمم]،[الإمام البيهقي - سنن البيهقي الكبرى ج١ ص٢١٣ - الحديث:٩٦٥ ، مصنف ابن أبي شيبة ج٦ ص٣٠٤ - الحديث:٣١٦٤٧ ، مسند أحمد ج١ ص٩٨ - الحديث:٧٦٣ ، ج١ ص١٥٨ - الحديث:١٣٦١].

أولاً : وظيفة الفلسفة

الباحث عن وظيفة الفلسفة يمكنه تلمسها والتعرف عليها في جملة ملامح. من أبرزها:-

١ـ التصنيف الدقيق للعلوم والمعارف

من المعلوم لدى الدارسين أن كل فن من الفنون له موضوعه الخاص، وسماته التي يتميز بها، ومنهجه وفائدته. يقرر هيدجر أن الموجود الذي ينبغي علينا اخضاعه للتحليل هو نحن أنفسنا[١]، لكن ما هو العلم الذي يفصل بين المتقابلات، ويوضح الفروق بين المتماثلات، ويكشف عن مناحي الاختلاف، ويبين عن ملامح الاتفاق، هل يمكن أن يكون ذلك هو علم الفيزياء مثلا، أو علم الفلك، أو علم النحو[٢]، أو علم القانون؟ إن هذه العلوم هي الأخرى بحاجة إلى من يضبط إيقاع كل منها، ويجعله متفردا بصفاته الخاصة.

هل يمكن أن يكون هذا المميز هو علم المنطق الكلاسيكي(٣)؟ أو علم المنطق الرمزي؟ أو علم المنطق الرياضي؟ أو علم المنطق الأصولي أم غيرها من فروع علم المنطق؟

الجواب: أن هذه العلوم كلها لا يمكنها القيام بهذا الدور؛ لأن علم المنطق الكلاسيكي موضوعه هو التفكير الإنساني على وجه العموم، مع بيان سليم الفكر من فاسده، أو صحيحه من سقيمه على ناحية تتعلق بصورة الفكر ومادته.

---

(١) جان بول سارتر ـ نظرية في الانفعالات ص٣٥ – ترجمة د: سامي محمود علي، ودكتور: عبدالسلام القفاشي – الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠١م.

(٢) النحو هو علم بقوانين يعرف بها أحوال التراكيب العربية من الإعراب والبناء وغيرهما، وقيل النحو علم يعرف به أحوال الكلم من حيث الإعلال، وقيل علم بأصول يعرف بها صحة الكلام وفساده.- [راجع التعريفات للجرجاني ج١ ص٣٠٨ باب النون – رقم:١٥٤١ – تحقيق إبراهيم الإبياري، وراجع للأستاذ مصطفى غلايني – جامع الدروس العربية ص٩ – مراجعة الدكتور عبدالمنعم خفاجه]

(٣) هو المنطق الذي وضع أرسطو أصوله وقواعده وعرفه اليونان ابتداء من القرن الثالث قبل الميلاد، ويسمى المنطق الاستنباطي؛ لأن نتائجه مستنبطة من مقدماته، متى روعيت الشروط التي لابد منها، حتى تصح النتائج، ويسمى المنطق اليوناني؛ لأنه منذ وضعه اليونان ورتبوا قواعده، عرف بهم و لم يتغير بالحذف، ولكن أضيف إليه الشكل الرابع وبعض الحدود، ويسمى المنطق الأرسطي نسبة الى واضعه أرسطو اليوناني، وهو المنظم لقواعده، ويسمى المنطق القديم؛ لأنه وضع منذ الماضي القديم، والتزم مشكلات بعينها ويقال عليه منطق قديم في مقابلة المنطق التجريبي الحديث، ويسمى المنطق الشكلي؛ لأنه يتهم بالأشكال التي يكون الحد الأوسط موجودا فيها، كما يسمى المنطق الصوري؛ لأنه لا يعني في قضاياه بمطابقة الواقع الخارجي، إنما يركز على مطابقة القضايا لكل من المادة والصورة. [راجع كتابنا: الغزاليات في منطق التصورات ص٣٩/٤٢ ط الخامسة]

كما أن علم المنطق الرمزى يعنى بالرموز والأرقام الرياضية، والدالات الأولية، والانطلاق من هذه المبادئ إلى النتائج المترتبة عليها دون غيرها، فهو علم خاص لا يمكن تطبيقه فى مجالات العلوم المختلفة[١]، وكذلك الحال مع المنطق الرياضى.

أما المنطق الأصولى الذى أنشأه علماء الإسلام، على سبيل الاستقلال فهو علم يعنى بوضع الأصول والقواعد الكلية التى يمكن تطبيقها على جزئيات صغيرة، هى الفقه المذهبى، ولذلك فالعلاقة بين الفقه وأصول الفقه إنما هى علاقة الكل بالجزء.

إذن لا يقوم بتصنيف العلوم، وبيان الفروق بينها إلا الفلسفة بمعناها الفنى الدقيق، وهو الحكمة على سبيل الامتثال لها ممارسة، والقيام بما تفرضه سلوكا، والتماس جوانب المعارف التى تقوم على أسس صحيحة[٢].

بل انتهت الدراسات العلمية، إلى أن الفلسفة هى القاسم المشترك بين العلوم، وعلى أساس هذا الاعتبار، أمكن وضع الفلسفة والفلاسفة فى تصنيفين، كل واحد منها يمثل مجموعة مستقلة على الناحية المكانية:-

☆**الأولى**: مجموعة الغرب.
☆**الثانية** : مجموعة الشرق[٣].

وهذا التصنيف المكانى، إن لم يكن دقيقا، إلا أنه كشف عن وجه يبين ملمحا من ملامح الفلسفة، أدى فى النهاية إلى القول بأن من وظائف الفلسفة التصنيف الفنى الدقيق للعلوم والمعارف، بل كان لذلك التصنيف أثره البالغ فى تطور الحركة الفكرية والنهضة العلمية.

ففى الغرب ظهرت مجموعات الفلاسفة المتميزين، حتى ليذكر أن:

● **روجر بيكون** كان أول من حمل مشعل الحضارة فى بلاده، غير أنه لم يقدر له الظفر بكل ما كان يعتمل فى صدره، أو يعبر عن كل ما حملته جوانحه، حتى يحقق لبلاده الخير الذى حلق بين طبقاته، وحاول اختراق الغيوم التى حجبت الرؤية عن عيون الآخرين[٤].

---

(١) الدكتور محمود محمد الغلبان – المنطق الرمزى ص٥٧ – طبعة دار المعرفة ١٩٨٧م.
(٢) الدكتور عبدالعظيم محمد السيد الميلاوى –الفلسفة ومناهج البحث ص١٧١ ط١/١٩٥٧م.
(٣) أ.ب هاتلى – الفلسفة والعلوم الحديثة ص٩٥ – ترجمة فخرى خلف الله.
(٤) راجع كتابنا: خواطر حثيثة فى الفلسفة الحديثة ص٢٥٧ .

* **كما أن فرنسيس بيكون**[1] هو الآخر قد حلق فى ميدان التجربة العلمية، وكان بوده لو أمكنه الفوز بتحريك ساكن الفكر، والانفلات من قيود السلطة الكهنوتية ومع أنه لم تكن أخلاقه على قدر بحثه الفلسفى، إلا أن الذى يمكن التنبيه إليه هو أن الرجل استطاع توجيه أفكاره لتصنيف العلوم والمعارف من جهة، وتقديم خدمة علمية لصالح المجتمع الذى يعيش فيه والمجتمع الإنسانى من ناحية ثانية، وكانت ذلك وجهة نظره على الأقل.

* **أما عمانوئيل كانط الألمانى**[2] فقد أحدث ضجة هائلة فى هذا الميدان، إذ أمكنه أن يقدم مشروع السلام الدائم[3]، كما استطاع القيام بدور فعال فى تصنيف العلوم التى يعتقد أنها القاعدة العامة الكلية، التى تتنوع عنها العلوم الأخرى، أو تقوم على هدى منها المعارف المتنوعة، كما قاد الحركة التنويرية فى ألمانيا خاصة، وأوربا بشكل عام، وكان له أثر كبير فى بناء الحضارة الأوربية. كما كان له دوره البارز فى مجال تصنيف العلوم[4].

* **كما كان رينيه ديكارت** الفيلسوف الفرنسى شعلة من الثقافة واختراق الحواجز التى تحول بين العلم التجريبى كالخرافات والأوهام، أو ما يحجب العلوم والمعارف عن المستفيدين منها، وقد ذكرا ذ كله فى المنهج الشكى التى سار فيه مسيرة كل من الإمام الغزالى[5] ومن قبله الإمام المحاسبى شيخ

---

(١) مرنسيس بيكون: فيلسوف إنجليزى عاش بين أعوام ١٥٦١/١٦٥٦م، وهو من أشهر الأعلام والمفكرين الإنجليز فى القرن السادس والسابع عشر، وهو فى ذات الوقت من أعلام الاتجاه التجريبى. [راجع ليوسف كرم: الفلسفة الحديثة] ولد فى مدينة لندن فى شهر يناير ١٥٦١، وكان والده نيقولا بيكون حاملا لأختام الملكة إليزابيث الأولى فى عصر بعد أزهى عصور التاريخ البريطانى، فبرزت مواهب بيكون وازدهرت عقليته وبان نبوغه، ولما بلغ الثانية عشر من عمر التحق بجامعة كمبردج، وبعد ثلاث سنوات من الدراسة تركها. [دكتور محمود زقزوق – دراسات فى الفلسفة الحديثة ص٣٧ دار الطباعة المحمدية ١٩٨٥م]، وفى سن السادسة عشر رحل لفرنسا، واشتغل فى السفارة الإنجليزية بباريس، وبعد وفاة والده عام ١٥٧٩ درس القانون وانتظم فى سلك المحاماة، ثم انتخب عضوا بمجلس النواب، وعينته الملكة مستشارا فوق العادة للتاج، وغدر برجل أحسن إليه هو أسكس، وساعد الملك المستبد جاك الأول فى استبداده، فبلغ لأعلى المناصب القضائية حتى صار الوزير الأول ١٦١٨، وفيكونت أوف سانت ألبان ١٦٢١، واتهم فى هذا العام بالرشوة والاختلاس، وحكم عليه بالسجن وغرامه، وبفضل رعاية الملك لم يسجن سوى أربعة أيام، و لم يؤد الغرامة، وتوفى بعدها بخمس أعوام بعد إصابته بنزلة برد. ومن مؤلفاته: فى قيمة العلوم ونموها، الأورجانون الجديد، وأطلانتس الجديدة. [الأستاذ يوسف كرم – تاريخ الفلسفة الحديثة ص٤٤/٤٥، ودكتور محمود زقزوق – دراسات فى الفلسفة الحديثة ص٣٩/٤١]

(٢) عمانوئيل كانط: ألمانى الجنسية عاش ما بين ٢٢ إبريل ١٧٢٤/١٢ فبراير ١٨٠٤.

(٣) راجع لكانت – مشروع السلام الدائم، وهو مترجم عن الألمانية ومطبوع فى مصر باللغة العربية ز

(٤) الدكتور فوزى محمد صقر – الفلسفة الألمانية ص١٣٧ ط١/١٩٦٧م.

(٥) هو الإمام زين الدين حجة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالى الطوسى النيسابورى الفقيه الصوفى الأشعرى ولد عام ٤٥٠هـ/١٠٥٨م وقد امتد عمره حتى عام ٥٠٥هـ وله من الألقاب الكثير منها [حجة الإسلام، زين الدين، الغزالى، الفقيه الشافعى، وحيد عصره، شيخ الإسلام، شيخ العارفين، عالم العلماء، وارث الأنبياء، حجة الدهور والأعوام، تاج المجتهدين، سراج المتهجدين، سيد المحققين، مقتدى الأئمة، مبين الحل والحرمة، زين الملة والدين] وكنيته الإمام أبو حامد الغزالى، وهناك العديد من الكنى التى لم تشتهر اشتهار الأولى وهى : [ابو عكار، أبو مغزل] وفى مسقط رأسه روايات منها : [الأولى : أنه ولد فى مدينة طوس إحدى أعمال خراسان، بينها وبين نيسابور عشرة فراسخ ولهذا نسبه – والثانية : أنه ولد فى قرية غزالة التابعة لمدينة طوس ولهذا نسبه وكنيته] (راجع كشف الظنون خاجى خليفة جـ١ ص٢٣،٢٦، معجم البلدان جـ٦/٧١) .

الصوفيه، بل وقد سبقهم فى مجال تصنيف العلوم جمهرة المفكرين المسلمين[1]، وكان لهم فى ذلك المجال أوجه الامتياز المتعددة.

وعلى أيدى هؤلاء قامت نهضة فكرية أساسها التفكير العقلى الحر، والرغبة فى إيجاد حلول لمشكلات المجتمع. وكانت الفلسفة هى المادة الأولى التى سرت فى جسد أوربا، فأحدثت به هذا التقدم الهائل، ولم ينكر احد منهم أثر الفلسفة فى خدمة المجتمع الإنسانى، وفى مجال تصنيف العلوم.

ومما يؤكد أن هذا التصنيف الدقيق للعلوم وليد الفلسفه، قيام المجتمع العلمى فى نابلى على أيدى تلزيو ٥٨٨، وكان هذا المجتمع قد أقيم للدراسات التجريبية، وكذلك إنشاء علم وظائف الأعضاء الفسيولوجيا على يد فيساليوس ٢٥٦٤ الذى أعلن مرارا أنه مدين لعلم ابن النفيس[2]، حيث ترجم لابن النفيس تشريح القانون. وسماه شرح تشريح لقانون. وكانت هذه الترجمه بن معه الأوربية تمثل فتحا فى مجال العلوم التجريبية[3]، بجانب توثيق الدراسات فى مجال التصنيف الفنى الدقيق للعلوم الإنسانية كلها على اختلاف تنوعاتها.

---

(١) ومن أراد المزيد فله مراجعة مناهج البحث عند مفكرى المسلمين للدكتور النشار، ومناهج البحث العلمى عند مفكرى الإسلام للدكتور فضل الله آدم.

(٢) هو علاء الدين بن أبو الحسن على بن أبى الحزم بن النفيس القرشى الدمشقى، ويلقب بالدمشقى لمولده بدمشق، ولقب بالمصرى لقضائه الشطر الأكبر من حياته بالقاهرة، ولد رحمه الله بسوريا عام ٦٠٧هـ/١٢١٠م، ثم رحل للقاهرة عام ٦٣٣هـ/١٢٣٠م، وتوفى بها عام ٦٨٤هـ/١٢٨٨م. درس ابن النفيس علوم اللغة والفقه والحديث فى مدينة حمص، ثم حل بدمشق والتحق بالبيمارستان النورى (مستشفى تعليمى كبير بدمشق) حيث تلقى تعليمه الطبى هناك، ولم يكتف بهذا مستشفى، بل أكب على كتب ابن سينا وأبقراط وجالينوس وديسقوريدس، وحفظ كتاب القانون لابن سينا، واهتم أيضا بدراسة الفلسفة والمنطق وعلم البيان، وتوسع فى دراسة الفقه وعلوم الشريعة، حتى أصبح أستاذا لفقه الشافعية فى المدرسة المسرورية بالقاهرة إلى جانب كونه أستاذا فى الطب، ومن إنجازاته الطبية كشف الدورة الدموية الصغرى (الدورة الدموية الرئوية Pulmonary Circulation) التى ينتقل فيها الدم من القلب للرئتين لتخليصه من ثانى أكسيد الكربون، وتزويده بالأكسجين، ودون ذلك فى كتابه (شرح تشريح ابن سينا)، واهتم أيضا بالتشريح، وترك ابن النفيس لشعب مصر صرحا طبيا عظيما هو البيمارستان المنصورى والذى أشرف على بنائه فى عصر السلطان المنصور قلاوون. وألف ابن النفيس فى السيرة وعلم الحديث وأصول الفقه والنحو، والفلسفة والمنطق، وعدة مؤلفاته الطبية أربعة عشر مؤلفا، من أهمها: شرح تشريح القانون، والموجز فى الطب، وموسوعة الشامل فى الطب، وكتاب المختار من الأغذية، شرح لكتاب الأدوية لأبقراط، تفسير العلل وأسباب الأمراض، المهذب فى الكحل. [راجع للأستاذ: محمد غريب جوده عباقرة علماء الحضارة العربية والإسلامية فى العلوم الطبيعية والطب – ص٢٣٨/٢٤١ – دار الطباعة المحمديه بالقاهره]

(٣) الدكتور توفيق الطويل – أسس الفلسفة ص١٢٢/١٢٣ طبعة دار النهضة.

كذلك استطاع وليم هارڤ[1] تقديم إضافات في مجال التعرف على الدورة الدموية، وبخاصة بعد معرفته بكتب ابن النفيس[2]، وقيامه بترجمتها إلى اللغة الأوربية، وكان ابن النفيس هذا هو أول من اكتشف الدورة الدموية، وإليه ينسب الفضل في معرفتها وتقنين الحديث عنها[3]، والاهتمام بها والكتابة فيها على النواحي المختلفة.

أما في المشرق ـ وهو التصنيف الثاني ـ فإن الهوة بين الفلاسفة من ناحية، وبسطاء القوم من ناحية ليست واسعة؛ لأن هؤلاء البسطاء لم يكن لديهم من الوقت ما ينفقونه في تناول مثل هذه الموضوعات، التي لا حيلة لهم فيها، ولا طاقة لهم في دراستها.

كما أن الفلاسفة الشرقيين يستمرون في التواصل عن كثب مع الحياة عائدين إلى محك التجربة الإنسانية، لاختبار نظرياتهم، علما بأن الناس العاديين يمتدحون اهتماماتهم إلى ما يتجاور حياتهم العادية، ويكافحون لرؤية الوضع الصحيح لوجودهم وفهمه، من خلال المفاهيم الفلسفية التي تركها لهم الفلاسفة[4].

إذن وجود الفلسفة والفلاسفة والحكمة والحكماء ضرورة اجتماعية وثقافية وعلمية، كما أن تصنيف العلوم والمعارف يعتبر أحد وظائف الفلسفة على الناحية الفنية[5].

بيد أن ما يجب الالتفات إليه هو أن الفلسفة في الشرق ارتبطت بما يلي :ـ

(١) التعلق الشديد بالدين.

---

(١) ويليام هارڤ William Harvey طبيب إنجليزي عاش في الفترة من ١٥٧٨/١٦٥٧م، وصف في كتاب له الدورة الدموية العامة (بما فيها الدورة الدموية الصغرى) دون أن يشير إلى أية مصادر عربية نقل عنها معلوماته، وكان هارڤ هذا قد درس الطب بجامعة بادوا Padua University الشهيرة بمدينة البندقية (فينسيا) الإيطالية، وكان من بين الذين درسوا الطب في تلك الجامعة ـ قبل عصر هارڤ ـ طبيب أسباني درس الطب العربي الأندلسي، وقد ترك هذا الطبيب واسمه ميخيل سرڤيتو (١٥١١/١٥٦٣م) مؤلفاته بهذه الجامعة وتناول فيها الدورة الدموية الصغرى وأمورا أخرى كان ابن النفيس قد تناولها في مؤلفاته، واطلع عليها هارڤ واكتشف الدورة الدموية العام. [راجع للأستاذ: محمد غريب جودة ـ عباقرة علماء الحضارة العربية والإسلامية في العلوم الطبيعية والطب ـ ص٢٤٠ ـ دار الطباعة المحمدية بالقاهرة]

(٢) ابن النفيس (ت ٦٨٧هـ/١٢٨٨م) وهو أول من اكتشف الدورة الدموية ـ فلما جاء وليم هارڤ بعد ذلك، عمد إلى مؤلفات ابن النفيس فترجمها، ثم أضاف إليها المتعلقات والشروح، وبمرور الزمن تجاهل الغرب دور ابن النفيس كمكتشف أصلي للدورة الدموية، وعلقوا ذلك الاكتشاف بوليم هارڤ، على أنه من ملامح الفكر الغربي، وما هو إلا من الأدلة على مرض الكبر والحقد الذي يمارسه الغرب ضد العرب عامة والمسلمين خاصة.

(٣) الدكتور رمزي محسن الصبان ـ أعلام الفكر العربي ص٧٧ ط٣/١٩٦١م ـ دار كركوك بالعراق.

(٤) جون كولر ـ الفكر الشرقي القديم ص٢١، إذن عدم اتساع الهوة يرجع إلى تفهم فلاسفة الشرق لواجباتهم، واندماج الناس العاديين معهم، واختلاطهم بهم، وهذا مما يؤكد أن الفلسفة تسعى لإصلاح العيوب والمشكلات الاجتماعية.

(٥) راجع كتابنا: رياض الأشواق في الميتافيزيقا والأخلاق ص٩٣.

(٢) الانخراط الطبيعى فى الحياة العامة.
(٣) اعتبار الفلسفة هى الميزان الدقيق الذى توزن به النظريات المختلفة، والمعارف المتنوعة.
(٤) اعتبار الفلسفة الوسيط الجيد الذى يربط بين المجتمع وقضاياه، ويبحث عن حلول لمشكلاته، وبضع الخطط المنضبطة، ويقعد المناهج التى يمكن أن تتحرك فى اتجاهات مختلفة[1]، محققة للمجتمع أقصى المنافع وللأفراد أعلى درجات معرفية وللعلوم أفضل الطرق، للتعرف عليها واكتسابها، والتفرقة بينها والمعارف المختلفة.

على أن مما تجدر الإشارة إليه هو أن التصنيف الفنى للعلوم والمعارف يستلزم الحكمة، أو على الأقل يحتاج حكماء يقومون بذلك الدور، وهم لا يتوفرون، إلا إذا كانت تربيتهم الفكرية قد تمت فى نطاق معين، تقوم فيه قواعد التأمل العقلى مقامها، حتى تمهد لمعرفة حقائق الأشياء وأصولها والعلاقات التى تربط بينها، وذلك يعتبر من وظائف الفلسفة والدور الذى يجب أن يلعبه الفلاسفة أبدا.

٢ـ تقديم خدمات عامة للمجتمع

ذلك أن المفكر هو الذى ينظر إلى مشكلات مجتمعه، الواحدة تلو الأخرى، من خلال نظرة واعية مستمرة، ثم يتعامل معها من خلال عقلية ناضجة ترى المثالب، ثم تعمل على تحويلها إلى مناقب، وتوفق بين المشكلات وطرائق التعامل معها، كما تعمل على إيجاد حلول عملية واقعية لها؛ لأن الفلاسفة هم من صفوة المجتمع على الناحية الفكرية[2]، وهم لا يعيشون منعزلين عن هموم المجتمع الذى يوجدون فيه، وإنما تختلط أفكارهم وأوهامهم وأحلامهم بقضايا المجتمع وطرائق الوصول إلى حلول حاسمة لها.

وكان ظن البعض فى الماضى أن الفلسفة عبث والفلاسفة يعيشون فى وهم؛ لأنه لا وظيفة للفلسفة، كما لا فائدة من الفلاسفة، بل اتهم هؤلاء — كلا من الفلسفة والفلاسفة — اتهامات فى غير موضعها، ومنها أن الفلاسفة يعيشون فى حالة انعزال عن المجتمع وقضاياه[3]، وأنهم أصحاب أبراج عاجية وأفكار سحابية[4]، ومن كان ذلك شأنه فهو المنعزل عن المجتمع بأفكاره وأوهامه وأحلامه، ثم انتهوا إلى إصدار حكم قاس، رأوه يحسم الصراع بينهم والفلسفة قام هذا الحكم القاسى على أن

(١) الدكتور: رمزى محمد جمعة — المدخل للفلسفة ص٧٧، وكذلك الدكتور وصفى محمد السيد — دراسات فى الفلسفة ص٨١.
(٢) الدكتور مرسى محمد شرابة — الفلسفة والمجتمع نظرة واقعية ص٧٣ ط٢/١٩٦٥م.
(٣) الأستاذ فوزى محمد الكاتب — الفكر الإنسانى ومشكلاته ص٤٥ ط١/١٩٤٦م.
(٤) الأستاذ صبحى محمد إسكندر — الفلسفة القديمة ص٥٧ ط١/١٩٣٧م.

الفلسفة لا وظيفة لها[١]، وبالتالى فيجب إلغاؤها لبعدها عن حياة الناس، وواقع المجتمع فضلا عن بحثها لمشكلاته، ومحاولة إيجاد حلول علمية لها وقضاياه.

غير أن هذه المزاعم والظنون يمكن أن يصدق بعضها على الفلسفات الكافرة، التى تبحث عن الله، والفلاسفة الذين حبسوا أنفسهم فى ذات الاتجاهات، لا يبرحونها ولا ينصرفون عنها إلى غيرها لكن هذا الحكم ليس قانونا علميا ينطبق على الفلسفة والفلاسفة، على اختلاف الاتجاهات، وفى كل الأحوال، وإنما غايته أن يقع توافق بينه وبعض الفلسفات الإلحادية، مع بعض مدعى التفلسف، فى حين ما، وداخل مجتمع بعينه، ويجب استبعاد حكماء الإسلام وحكمتهم من ذلك كله. أما لماذا؟

فلأن الناظر للاتجاه العقلى فى الماضى السحيق، يجد أن فلاسفة المصريين القدماء، كانت لهم ارتباطات بالمجتمع وقضاياه على غاية الوفاق[٢]، بل فيها المتانة مع الصلابة، ودليل ذلك الأهرامات التى مازالت شامخة، رغم مضى آلاف السنين على إنشائها، بما تحتويه من عجائب هندسية، ودقائق فنيه وخدمة اجتماعية، كما أن ألوان الحضارة التى ازدهرت مع قدماء المصريين تؤكد كلها أن الفلسفة عندهم كانت ممتزجة بالمجتمع وقضاياه، كما كانت تبحث عن حلول علمية لمشاكله، وصياغة جديدة لقضاياه[٣]، بحيث تكون متوافقة مع الواقع العلمى الحياتى.

وكذلك الحال فى كل من الهند وبلاد الصين، فضلا عن حضارة بلاد الرافدين، التى كانت تضارع حضارة المصريين القدماء — فى كافة الأنشطة والمجالات — بل وتعمل على منافستها ومحاولة إحراز نوع من التقدم عليها والسبق لها، و لم يكن هناك من موجه إليها إلا الفلسفة ذاتها.

كما أن بلاد اليونان فى القرن السادس قبل الميلاد كانت حضارتها قائمة على عقول الفلاسفة أنفسهم[٤]، ونتاج البحث العقلى الحر، إذ كان طاليس المليطى على اتصال دائم وثيق، بحاجات المجتمع فى عصره، حتى إن فلسفته هى الأخرى قامت لخدمة مصالح قومه، وكان هو أحد الحكماء السبعة فى عصره، وكان يؤخذ رأيه فى سياسة المدنية، وقد خدمت اختراعاته الفلكية الفلاحين، الذين ارتبطوا بالزراعة، ويقال: إنه وضع تقويما فلكيا، يعد أقدم ما عرف من نوعه، بين فيه أوجه القمر، وحركة الاعتدالين، والتنبؤ بحالة الطقس[٥].

---

(١) هذه الاتهامات تجىء فى الغالب الأعم من خصوم الفلسفة، ومثلهم لا يقبل لهم قول، لما هو معروف من أن شهادة العدو تمثل قدحا، طالما كانت تحمل الإدانة.

(٢) توماس هوز — الفلسفات القديمة ص٩٧ — الطبعة الأولى — ترجمة هناء خورى ١٩٦١م.

(٣) راجع كتابنا: قضايا حيسة فى الفلسفة الحديثة ص٦٥ وما بعدها.

(٤) دليل ذلك: أن تاريخ الفكر الإنسانى لم يتعرض لذكر أحد ممن شادوا تلك الحضارة، سوى الفلاسفة الذين أقاموا بناءها أو حملوا مشاعل الحضارة فيها.

(٥) الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى — المدارس الفلسفية ص٨،٩ — الدار المصرية للتأليف والترجمة — يوليو ١٩٦٥م.

أما فى جانب الفلسفة الإسلامية، فقد أسرعت بتقديم أوجه استدلال جديدة على وجود الله تعالى، وقامت بالدفاع عن العقيدة الإسلامية فى مواجهة دعاة العلم، الذين احتكموا إلى قضايا العلم النظرى حينا، وتحاكموا إلى نتاج العلم التجريبى حينا أخر، كالحال فى الجهود التى بذلها الكندى فيلسوف العرب، وجهود الفارابى المعلم الثانى، ومجهودات الشيخ الرئيس ابن سينا، وبخاصة تلك التى فصلها فى كتابه الإشارات والتنبيهات[١].

بالتالى فالفلسفة كانت ومازالت خادمة لكل ظروف المجتمع فى جانب العلاقات الاجتماعية تارة، وفى جانب العلاقات العلمية أخرى، وفى جوانب الثقافة والحضارة والمدنية تارة ثالثة، و لم تكن الفلسفة بعيدة عن المجتمع ومصالحه، أو منعزلة عنه أو طوت على نفسها أثواب النسيان، أو تسربلت فى عباءات الاستكانة والأمانى الكاذبة، كما ظن البعض بها أو أقاموا على أكتافها الشبهات الكثيرة، بغرض النيل منها، أو صرف عشاقها عنها.

◈ وربما تسألنى عن دليل لهذا الاتجاه الفكرى؟

☜ والجواب: أن العلماء ظلوا يستنسخون الخلايا والجينات البشرية والحيوانية على المستوى الجزئيى والخلوى طيلة عقود عديدة، وبرر هذا الاستنساخ علميا بأنه يوفر للأبحاث كميات أكبر من الجينات والخلايا المتطابقة، حيث تكون كل خلية أو جزئ فى تطابق مع الآخرين[٢]، وقد تنامى ذلك الاتجاه العلمى، حتى صار فى الوقت الراهن أحد المصادر الهامة فى توفير الغذاء والدواء للذين يعيشون على البسيطة.

إذن كانت الفلسفة – وما تزال – قائمة فى خدمة المجتمع، وتعمل لصالح قضاياه، و لم تكن أبدا بعيدة عنه، أو منعزلة بأفكارها، منطوية على نفسها – كما ظن البعض بها[٣] – بل إن تقدم العلوم والمعارف فى تلك الفترة المترامية، لهو من أكثر الأدلة على أن الفلسفة هى القاسم المشترك بين كل العلوم، وهى الدافع والمحرك للفكر فى كل العصور.

فى نفس الوقت فإن خدمة المجتمع لا تقف عند حد التعرف على نوعية المشكلات، أو الوقوف على ماهياتها، وإلا كان الفعل الذى تقوم به ناقصا، وإنما لابد لها من مواجهة ذات

---

(١) راجع فى هذا الشأن: النمط الرابع فى الوجود علله من الإشارات والتنبيهات، وبخاصة التحقيق الذى به حاشية العلامة الطوسى، عرض ابن سينا لشبهات الحسين، ثم نقدها، وبيان فسادها، وبعدها انتهى إلى الاستدلال على وجود الله تعالى وسائر صفاته من الجلال والجمال والكمال والإكرام.

(٢) مارتاس نسبوم ، كاس شانستين – استنساخ الإنسان الحقائق والأوهام ص٣١ – ترجمة د: مصطفى إبراهيم فهمى – الهيئة المصرية ٢٠٠٢م .

(٣) يجب عدم الالتفات إلى ما يدلى به الخصوم، باعتبار أن الحكم الخصم تنتهى دائما مشكلاته عند مفرزاته النفسية، بغض النظر عن نوع الانتماء، الذى يعلنه أو يحاول المعنى فى طريقه، وفى الأمثال: إذا كان الخصم حكما عليك، فلن يقبل منك الشهود.

المشكلات، والبحث عن حلول عملية واقعية لكل مشكلة تطرأ، وما تركه حكماء الإسلام من أظهر الشواهد على ما يتم بحثه والوقوف عليه[1].

بيد أن الاستقلال الهولامى أو الانعزال الفكرى، قد يكون له وجود ما فى بعض فلسفة الغرب، التى انطوت على ما يلهوا به الرهبان، أو يتفوه به القسس والكهان، أو فلسفة التحليل والتركيب، أو الفلسفة التى تنعقد آمال أصحابها على مجرد الرموز والعلاقات، دون أن تنخرط فى المجتمع أو تفكر فى معالجة قضاياه من خلال مشكلات الوقت الحاضر.

أما فى الماضى، فقد كان فلاسفة الغرب، يحاولون الاختلاط والاندماج فى المجتمع الإسلامى بمشكلاته ومسائله، اندفاعا من ذلك الحماس الذى يغلب عليهم، إذن لم يكونوا بمعزل عن المجتمعات التى يعيشون فيها، كما لم يتوهموا وجود مشكلات زائفة، بغية استهلاك الوقت فيها، أو ينغمسوا فى قضايا المجتمع على الناحية النظرية، دون أن يشغلوا أنفسهم بالواقع الذى يجب التعامل معه[2]، وإنما كانوا يتعاملون مع القضايا والمشكلات العلمية الحقيقية، بغرض التعرف على حلول بحيث يكون لها من القوة والصلابة ما يدفع إلى التمسك بها، ودليل ذلك النهضة التى عرفت فى أوربا بهذا الاسم[3].

ليس معنى ذلك أن فلاسفة الشرق، قد غلبهم شيء من الوجدانى المعبأ بروح تصديق القصص والحكايات، وإنما معناه أن فلاسفة المشرق كانوا يمثلون اتجاهين يتلاقيان حينا، فيأخذ القوى الموثق بيد الضعيف المتأرجح، حتى شاطئ البحر، أما إذا تخلف الضعيف، فإن المأساة تقع، والكارثة تحل. والاتجاهان هما:-

- الأول: اتجاه حكماء الإسلام.
- الثانى: اتجاه المنفلتين من القيود.

❊ **أما الأول : فأصحابه يلتزمون القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة**، يجهدون أنفسهم فى تفهم النقل المنزل، والعمل على الاستفادة منه بأقصى طاقة ممكنة، فهم يتوجهون إليه بكلياتهم وجزئياتهم، بعقولهم وقلوبهم؛ ولذا يتشابك الإيمان عندهم مع المعرفة[4]، ويختلط ميدان الاعتقاد بميدان المعرفة،

---

(١) الاستاذ: صالح محمد ضبيع – فلاسفة الإسلام ص٦١ ط١/١٩٤٧م.
(٢) الدكتور محسن محمد داود – الفلسفة وقضايا المجتمع ص٧٣ ط٢/ ١٩٥١م.
(٣) عرف باسم عصر النهضة الحديثة فى أوربا، وقد شغل ها العصر القرنين الخامس عشر، والسادس عشر من الميلاد، وكان ثورة على السلطان الكهنوتى فى الكنيسة وإحياء لفلسفة العلم الطبيعى، وكان له أثره البالغ على أوربا التى استيقظت من نومها الطويل وسباتها العميق، متجاوزة كل ذلك الضباب، الذى خلفته العصور الوسطى، ولم يكن لأوربا أن تنهض إلا بأنوار الإسلام، وحرية الفكر التى حلقت فوق عقول النابهين من الأوربين.
(٤) الدكتور عبدالعليم بن محمود الطوانسى – الإيمان والمعرفة ص٧٧ ط١/١٩٦١م فكأنه قصد بالعبارة أن يكون الإيمان قلبيا من ناحية الاعتقاد، معرفيا من ناحية الاستدلال عليه، أو إقامة الأدلة بالنسبة له.

فيقع بينهما التكامل من كل ناحية، وحينئذ يتوج الاعتقاد الصحيح مفرق الرأس في المعارف والعلوم.

وأصحاب هذا الاتجاه يتقلبون مناحي الحياة المختلفة، لا غاية تقودهم إلى شيء ما خارج نطاق قضايا ما تفرضه النصوص الشرعية، فهم في مأمن من الانفلات الفكري، كما هم في جنة من همزات الشيطان[1]، ووساوس النفس وارتدادات الأهواء[2].

✽ **أما أصحاب الاتجاه الثاني - أصحاب الانفلات من القيود الشرعية** – فهم ينظرون إلى الحياة نظرات فيها التباين من كل ناحية، قضايا وهموم المجتمع بالنسبة لهم عقوبات مقنعة، لا قضايا للعلم والاجتهاد

---

(١) وكان رسول الله ﷺ يستعيذ بالله من ذلك. قال تعالى: ﴿وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين﴾ [سورة المؤمنون – الآية ٩٧] وهذا أمر من الله تعالى لنبيه أن يستعيذ من الشياطين لأنهم لا تنفع معهم الحيل ولا ينقادون بالمعروف، حيث إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه » [الحافظ ابن كثير – تفسير القرآن العظيم – ج٢ ص٢٥٥]

(٢) قال تعالى: ﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين * ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون﴾.يقول الإمام الحافظ ابن كثير – رحمه الله - : « عن مسروق عن عبدالله بن مسعود ﷺ في قوله تعالى: ﴿ واتل عليهم نبأ الذى أتيناه آياتنا فانسلخ منها ﴾ هو رجل من بني إسرائيل يقال له بلعام بن باعوراء، ونسب هذا الكلام إلى ابن عباس، وإلى ابن جرير الطبري وغيرهم ممن نسب سبب نزول الآية إلى بلعام بن بعور وكأن أمر هذا الرجل على دعوات مستجابات؛ لأنه كان يدعو باسم الله الأعظم، فدعا على نبي الله موسى ومن معه بعد إغرائه، فسلخه الله مما كان عليه قال تعالى: ﴿فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين﴾ أي من الهالكين الحائرين البائرين ». [العلامة الحافظ ابن كثير – تفسير القرآن العظيم م٢/ جـ٣ /ص٣١٠ (بتصرف يسير)] وقد ورد في معنى هذه الآية حديث (حذيفة بن اليمان) رضي الله عنه قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إن مما أتخوف عليكم رجل قرأ القرآن حتى إذا رؤيت بهجته عليه وكان رداؤه الإسلام، اعتراه إلى ما شاء الله، انسلخ منه ونبذه وراء ظهره، وسعى على جاره بالسيف، ورماه بالشرك" قال: قلت يا نبي الله أيهما أولى بالشرك المرمي أو الرامي؟ قال: "بل الرامي" ».[العلامة ابن حبان – صحيح ابن حبان ج: ١ ص: ٢٨١ - ذكر ما كان يتخوف صلى الله عليه وسلم على أمته جدال المنافق الحديث رقم:٨١، والحديث ذكره ابن كثير في تفسيره جـ٣/٣١٣ وقال: إسناده جيد وعزاه إلى الحافظ أبي يعلى الموصلي. وجاء في كنز العمال - للعلامة المتقي الهندي - م٢ - الحديث رقم:٢٨٨٢ - « قراء القرآن ثلاثة: رجل قرأ القرآن فاتخذه بضاعة فاستجر به الملوك واستمال به الناس، ورجل قرأ القرآن فأقام حروفه وضيع حدوده كثر هؤلاء من قراء القرآن لا كثرهم الله تعالى، ورجل قرأ القرآن فوضع دواء القرآن على داء قلبه، فاسهر به ليله واظمأ به نهاره وقاموا في مساجدهم وحبوا به تحت برانسهم فهؤلاء يدفع الله بهم البلاء، ويزيل من الأعداء وينزل غيث السماء فوالله لهؤلاء من القراء أعز من الكبريت الأحمر »]. وقوله تعالى: ﴿ ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه ﴾، « أي لرفعناه من التدنس عن قاذورات الدنيا بالآيات التي آتيناه إياها، ﴿ ولكنه أخلد إلى الأرض ﴾ أي مال إلى زينة الحياة الدنيا وزهرتها، وأقبل على لذاتها ونعيمها، وغرته كما غرت غيره من غير أولي البصائر والنهى. ».[العلامة الحافظ ابن كثير - تفسير القرآن العظيم م٢/ جـ٣ /ص٣١١/٣١٤ (بتصرف يسير)]

واقعة، وبالتالى فانشغالهم بقضايا المجتمع، وإيجاد حلول لها تعتبر من الأمور التابعة لغيرها[1]، والمعول عليه عند هو اعتبار اتجاه حكماء الإسلام ولا عبرة بالاتجاهات الأخرى، التى قد تكون القيادة فيها مردها لعوامل نفسية، أو مواقف شخصية، غلبت على غيرها من الناحية الموضوعية.

فإذا نظرنا إلى النقل المنزل، ألفينا العديد من النصوص الشرعية، تدفع الفرد العاقل إلى ضرورة تقديم خدمات عامة للمجتمع الإنسانى ككل، مستخدمة أسلوب الترغيب تارة، والترهيب أخرى، أو مستخدمة تبسيط الحقائق الإيمانية، وتقريبها من الأفهام إلى الحد الذى تستوى فيه، بين مدركات الخامل والنابه، بين فهم الذكى ومحاولات القبى، من ذلك قوله تعالى: **﴿ " يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالا طيبا ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين " ﴾**[2].

وفى الحديث الشريف عن أنس بن مالكﷺ[3] قال: **«قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن قامت على أحدكم القيامة وفي يده فسلة فليغرسها»**[4]،

ولاشك أن تقديم خدمات عامة للمجتمع الإنسانى، يفتح أبواب المشاركة فى الأعمال، والتشارك فى الأجور والعوائد، فيقع التبادل العلمى[5]، والمهارى بين الناس موقع البدل النقدى، كما يقع بينهم أمر تبادل المنافع على ناحية لا غنى لهم عنها من وسائل جلب المصالح أو دفع المفاسد أو

---

(١) الدكتور عبدالعليم محمود الطوانسى – الإيمان والمعرفة ص٨١ .

(٢) سورة البقرة آية ١٦٨، ويقول الخازن فى تفسير قوله تعالى :﴿ " كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا ولا تتبعوا خطوات الشيطان " ﴾: » أى لا تسلكوا سبيله ، وقيل معناه : لا تأتموا به ، ولا تتبعوا آثاره وزلاته ، وقيل هى النذور فى المعاصى ، وقيل هى المحقرات من الذنوب « [تفسير الخازن جـ١ ص١٠٣]

(٣) أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم بن زيد بن حرام بن جندب بن عامر بن غنم بن عدي بن النجار أبو حمزة الأنصاري الخزرجي خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم واحد المكثرين من الرواية عنه صح عنه أنه قال قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة وأنا ابن عشر سنين وأن أمه أم سليم أتت به النبي صلى الله عليه وسلم لما قدم فقالت له هذا أنس غلام يخدمك فقبله وأن النبي صلى الله عليه وسلم كناه أبا حمزة ببقلة كان يجتنيها ومازحه النبي صلى الله عليه وسلم فقال له ياذا الأذنين. ودعا له النبي صلى الله عليه وسلم وكان له بستان يحمل الفاكهة في السنة مرتين وكان فيه ريحان ويجيء منه ريح المسك وكانت إقامته بعد النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة ثم شهد الفتوح ثم قطن البصرة ومات بها قال علي بن المديني كان آخر الصحابة موتا بالبصرة. وعن أنس قال:جاءت بي أم سليم إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأنا غلام فقالت يا رسول الله أنس أدع الله له فقال النبي صلى الله عليه وسلم اللهم أكثر ماله وولده وأدخله الجنة قال قد رأيت اثنتين وأنا أرجو الثالثة وقال جعفر أيضا عن ثابت كنت مع أنس فجاء قهرمانه فقال يا أبا حمزة عطشت أرضنا قال فقام أنس فتوضأ وخرج إلى البرية وصلى ركعتين ثم دعا فرأيت السحاب تلتئم قال ثم مطرت حتى ملأت كل شيء فلما سكن المطر بعث أنس بعض أهله فقال انظر أين بلغت السماء فنظر فلم تعد أرضه الا يسيرا وذلك في الصيف. ومناقب أنس وفضائله كثيرة جدا. [راجع الإصابة لابن حجر العسقلانى . رقم: ٢٧٧ – ص ١٢٨/١٢٧]

(٤) الإمام أحمد بن حنبل – مسند أحمد ج٣ ص١٨٣ رقم: ١٢٩٢٥ ، وأخرجه الهيثمى – مجمع الزوائد ج٤ ص٦٣

(٥) الأستاذ هاشم محمد عبده هاشم – الإيمان والعمل ط٢/١٩٥٧م والتبادل العملى هنا هو مايطلق عليه الفلاسفة المعارضة على أساس أن يقوم كل فرد أو جماعة بأداء نوع من الأعمال، ثم يأتى فرد أو جماعة أخرى فتقوم بعمل أخر، وهكذا، فالفلاح للزراعة والصانع للصناعة، و التاجر للتجارة، والخابز للمخبز، والحائك للحياكة فظل منهما يعارض الأخر فى صناعة من الصناعات، أو حرفة من الحرف، أما مفهوم المعاوضة فيقومعلى تبادل المنافع بأعواض مالية أو عينية. [لمزيد من التفاصيل راجع المواقف للإمام الإيجى، وكتابنا: الغزاليات فى النبوات أثناء الحديث عن فوائد بعثة الرسل اصطلاحا]

اختصار أداء المنافع في أوقات قليلة، مع تحقيقها مصالح جمة كثيرة، يعتبر من وظائف الفلسفة بالمعنى الحرفي والفني معا.

كما لا يقتصر دور الفلسفة على مجرد تقديم خدمات عامة للمجتمع، وإنما يتعدى ذلك الطور حتى يضع تصورات مستجدة لمشكلات قائمة أو متوقعة على سبيل الحدس والتخمين، ودليل ذلك أن كبلر قد حفزته المباحث الفلسفية على إثبات مركزية الأرض، كما انطلقت به نحو تحقيقه دوافع فلسفية لاهوتية، حين رام كبلر وضع الجرم السماوي الذي يقابل الله في العالم المادي، ويرمز إليه وهو الشمس، في وسط العالم المحسوس؛ لأنه كان مصدر كل نور وحياة، والمقام الوحيد اللائق بالله[1]، من وجهة نظر كبلر، أما عندنا نحن المسلمين، فالله تعالى منزه عن ذلك كله.

ورغم أنها تصورات غير مقبولة – من جانبنا – إلا أنها فتحت الباب لبحث المسألة على ناحية مستجدة، من خلال التصورات التي قدمها كنوع من ممارسة الدور في القيام بأعمال خدمية لصالح المجتمع الإنساني عامة.

٢- إعداد قادة متجددي الفكر

ما من مجموعة إلا وتحتاج قائدا يتولى الرئاسة فيهم، فإما أن تكون الجماعة هي التي دفعت به إلى مركز القيادة، أو هي التي مهدت له، حتى يقوم بذلك الدور، أو يكون هو الذي استغل ظروف المحيطين به، فنصب نفسه قائدا عليهم، فاستجابوا له وارتضوه قائدا فيهم[2]، وقد يغتصب آحاد الناس مركز القيادة، ويدفع العامة إلى إعلان تمسكهم به، وانخراطهم تحت قيادته، وقد يكون ذلك القائد غير مهيء لشيء من القيادة نفسيا وثقافيا وعلميا، بل وأخلاقيا، وبالتالي فإن ذلك القائد تكون سلبياته كثيرة، وأضراره خطيرة.

أما الفلسفة فمن طبيعتها البحث عن مصالح المجتمع، والتعرف على مشكلاته، ثم معالجتها، لكن ذلك يحتاج إعداد القائمين عليه، على ناحية فنية ترتبط بمصالح المجتمع، حتى لا يكونوا وسائل تدمير له، أو للذين يعيشون فيه، ولما كان القائد لا يولد قائدا، وإنما يتدرب على القيادة، فإن الحكماء كان من منهجهم الفكري توظيف الفلسفة، حتى تقوم هي بوضع برنامج وخطة عمل، ومنهج فني يكون بمثابة البوتقة التي ينصهر في أعماقها من سيكون قائدا[3].

---

(١) أرثر لفجوى – سلسلة الوجود الكبرى – محاضرات في تاريخ الفكر الفلسفي ص٢٤ – ترجمة الدكتور ماجد فخري – دار الكاتب العربي – بيروت ١٩٨٤م .

(٢) الدكتور فوزية محمد الأنور – القيادة ومستوياتها ص٧٥ ط١/١٩٧٧م، وراجع للدكتور فتحي خيري عبدالوهاب – الفروق الفردية وفن القيادة ص١٤٢.

(٣) الدكتور: السيد محمد الحسيني – الفلسفة والقيادة الناجحة ص١١٣ ط دار منار ١٩٥٥م.

والفلسفة لا تسقط على الناس من برج عال، وإنما تتسلل إليهم رويدا رويدا، بحيث تخاطب منافعها مشاعر الناس وقلوبهم، من خلال التأملات المتواصلة التى تتعاون فى رسم الخطوط المنهجية العريضة لتنمية القدرات العقلية والفروق الفردية، والانطلاق بدوافع القيادة فى كثير من الأشخاص، ثم عقد دورات تدريبية، يقوم بها المتأمل ذاته، تعقبها امتحانات واختبارات ذاتية أيضا، تنتهى بالإعلان عن امتياز أصحاب قدرات عقلية متميزة هم القادة الذين يتم إعدادهم للانطلاق بالأمة، نحو أهداف المجتمع، بغرض العمل على تحقيقها من الناحية الفكرية(١).

إذن الفلسفة هى التى تعد القادة والمفكرين، الذين يناط بهم تقدم الأمم ورقى المجتمعات، وبناء عليه يمكن اعتبار الفلسفة هى التى هيأت لنفسها مكانا بارزا فى إعداد القادة، بل صارت هى مركز القيادة الفكرية، وهى بذلك تنتزع من الناس إقرارا شفويا، واعترافا كتابيا بعجزهم عن الانفصال من الفلسفة، أو التصرف فى قضاياهم بعيدا عنها، وإنما لابد لهم من إحالة هذه المشكلات إلى الفلسفة والفلاسفة، إلى الحكمة والحكماء الذين يملكون ناصية التوجية الفكرى(٢)، كما يمكنهم رسم خطوط عريضة لبناء المجتمعات الفاصلة، أو المدن واليوتوبيا المثالية، ويعملون على إيجاد أنظمة متميزة تساير خطوات الزمان، أو تعدو سابقة عليها، تكون من أبرز المهام الموكلة إليها، تطوير المجتمع كله، والعمل على الارتقاء به من كافة النواحى.

ومن المؤكد أن من وظائف الفلسفة الهداية الفكرية والإرشاد العلمى، والسعى لمصالح المجتمع، وبالتالى فهى تقوم بدور القيادة الفكرية التى تأخذ بيد الأمة إلى الأمام(٣)، وتمنعها من التقهقر أو الانهزام، وتنقذها من ركام الأحلام ورغام الأوهام وتجعلها تعيش الحقائق فترفض قبول الأوهام.

أجل من وظيفة الفلسفة إعداد قادة، لكن لا يكفى قصرها على مجرد الإعداد للقادة، وإنما لابد من أن يكون هؤلاء القادة متحددى الفكر، وإلا فما قيمة قيادة تنعم بالكسل وتخلد إلى الراحة، رصيدها ما تركه الأجداد، ومفخرتها ما آل إليهم عن غيرهم، ولم يكن لهم فيه أدنى نصيب، ومن ثم فإن من وظائف الفلسفة إعداد قادة متحددى الفكر، متحررى الإرادة، فيهم بعد النظر، بجانب التواضع الطبيعى(٤)، الفياض بالتقدير والاحترام.

---

(١) الدكتورة: فوزية محمد الأنور – القيادة ومستوياتها ص٨١ .

(٢) الدكتور: السيد محمد الحسينى – الفلسفة والقيادة الناجحة ص١٤٧.

(٣) الدكتور : أحمد فؤاد الأهوانى – المدارس الفلسفية ص١١ .

(٤) هناك تواضع طبيعى أخلاقى يدفع إليه الدين الإسلامى وتعمونه الحكمة، وطبيعته السلوك الممتاز، وهناك تواضع خداع، يدفع إليه المكر، وادعاء الاستحياء، وتعمونه المفردات الجوفاء، ويكشف عنه التعامل الجاد ، الذى يفضحه، ويجعل صاحبه فى عداد المخادعين، وقد أنشأت قصيدة فى هذا الشأن بعنوان (منكم لله) [راجع كتابنا: دعوة مظلوم ونفثة مهموم – الديوان الثالث عشر]

ولا تعجب إذا أدركت أن تصدر القيادة الفكرية والزعامة الاجتماعية التى حازتهما الفلسفة والفلاسفة كانا من أسباب بغض الفلسفة والفلاسفة معا، وبخاصة إذا وقع البغض والحسد من جانب أولئك الذين قعدت بهم ظروفهم الحياتية، عن مسايرة الفلسفة فى ذيوعها والفلاسفة فى بعد الصيت وانتشار الخبر، حيث لم ينالوا ذلك الشرف، و لم يبلغوا فى الناس الشأو الذى كم تمنوه - أو تطلعوا إليه – أو أشير إليهم بأنهم الموسومون به، فلما لم تدر ا لفلسفة حبها إليهم، و لم ينلهم أمره، اتهموا الفلسفة بالجمود، والفلاسفة بالانعزال[1]، أو غيرها من الاتهامات، التى رفضتها الفلسفة والفلاسفة معا.

ومن المؤكد أن محبى الفلسفة يعشقونها، ويغرقون فى بحارها حتى الأنوف، وهذه المكانة العالية التى للفلسفة فى صدورهم، جعلتها تقف على قمة العلوم، كما أدركوا أن هذه المنزلة العالية للفلاسفة بين المفكرين والعلماء تفوق كل خيال، وبالتالى فهم يعتبرونها –الفلسفة والفلاسفة - العناصر المثالية فى كل مجتمع، حتى يحلوهم فى عقولهم موقع الصدارة والاقتداء، وحينئذ يستقر فى نفوس الناشئين والراغبين فى البحث والمعرفة، حب الاقتداء بهؤلاء الفلاسفة، الذين وقفوا أنفسهم للبحث والتنقيب عن الحقيقة، ووهبوا حياتهم لتعليم الناس مبادئهم، ويعرفوهم بأدق آرائهم، مهما لاقوا من الأذى والإهانة، فننهج طريقهم، ونسير على هديهم[2].

بيد أن البحث العلمى الموضوعى ينظر إلى الفريقين – فريق خصوم الفلسفة وفريق المحبين لها – نظرة محايدة، فيها شيء كبير من الموضوعية ، فيرى أن كليهما قد جانبه الصواب فى بعض الرأى، وظاهرة الصواب فى البعض الأخر؛ لأن كل فريق منهما قد بحث عن جانب وركز عليه أما قدحا فيه، أو مدحا له، متناسيا باقى الجوانب عن قصد، أو سقطت منه بحسن نية، وبالتالى فكل حكم من هذه الأحكام يقبل الاستئناف والنقض، وسائر أنواع دعاوى إبطال الأحكام.

والناظر فى التاريخ الفكرى العام للإنسانية جمعاء، يراه قد طفق متحدثا عن الريادة الفكرية للفلاسفة، والسبق الفنى للفلسفة، كما تحدث عن تضحياتهم الكبيرة التى بذلوها[3]، فمنهم من أغرق، ومنهم من أحرق[4]، ومنهم من تجرع السم مكرها، ومنهم من طلى جسمه بالقار، واشتعلت فيه النيران، حتى ظهرت فى سماء المدينة التى يقيم بها، ومع هذا كانوا أعلاما فى أقوامهم، قادة فى أممهم،

---

(١) الدكتور السيد محمد الحسينى – الفلسفة والقيادة الناجحة ص١٥٢ ، وراجع للدكتور محمد غلاب – نظرية المعرفة عند مفكرى المسلمين أثناء حديثه عن دوافع بغض الإمام الغزالى للفلاسفة، واستشهاد الدكتور غلاب بتصوير الإمام ابن العربى لنفسية الإمام الغزالى .

(٢) الدكتور عوض الله جاد حجازى، والدكتور محمد السيد نعيم – فى تاريخ الفلسفة اليونانية ص٣٤ ط٢ .

(٣) الدكتورة: وفاء محمد ظهران – الفلسفة بين الحقيقة والخيال ص٧٧ ط أولى ١٩٦٥م.

(٤) الإحراق إيقاع نار ذات لهب في الشيء ومنه استعير أحرقني لومه إذا بالغ في أذاه بلوم، وقيل: الاحتراق ذهاب صورة الشيء وروحه ذهابا بإصابة قاصف لطيف بشيع في كليته فيفنيه. [التعاريف ج١ ص٤٠]

علماء ى عكرهم، رواد له فى المجال الفلسفى لمن يحيطون بهم، ويكفى أن تقرأ فى تاريخ الفلسفة عن جمهرة المشائين، الذين انتعلوا وجه الأرض، وتدفقوا خلف معلمهم رغبة فى العلم، وحرصا عليه وحبا له، وكان فيهم أبناء النبلاء، وبينهم رجال المال والأثرياء[1]، بل كان فيهم الذين تتدفق الحياة معهم أنهارا، ولكنهم فضلوا انتعال الأرض، والتعلق بمعلمهم إلى أقصى مدى.

إذن تجديد الفكر يعتبر ضرورة، حتى يواكب روح العصر، الذى تعيش فيه تعاليم ذلك الفيلسوف، إذ ليس من المعقول ان تظل الأفكار ثابتة جامدة فى مكانها لا تتغير، مع أن الزمان حركة مستمرة متغيرة لا تتوقف[2]، بل ثبات الأفكار على حالة واحدة، يعتبر من الأدلة على عقم العقول مادامت الأفكار الثابتة من صنع البشر، والمعروف أن كل عصر تأتى إفرازاته الفكرية فى جانب يواكب العصر الذى يعيشه، فإذا انتهى العصر القائم، صارت الأفكار مستهلكة غير صالحة للبقاء، كما أنها لا تفيد جديدا، ولا تقدم صورة لمواقف تصلح أرصدة مستقبلية.

* **مثال ذلك:** كان حكماء الصين يعتقدون فى غيبيات صنعتها خيالاتهم، لا دليل عليها من الناحية الشرعية، ومع هذا طوروا فى تلك العقائد، من حيث التناول لها تارة، والعرض أخرى، ثم حدث تطور أخر فيه، تم الاستغناء والتنازل عن بعض الأساطير المغرقة فى الخيال، والإمساك بالبعض الذى يمكن أن تقف له بعض الشواهد، أو بعض الآثار، وذلك يمثل نوعا من التحديد السريع للفكر، الذى كان عليه أن يساير المجتمع، ويحفز عليه تقدمه[3].

وكان اليونانيون القدماء يعتقدون بوجود جملة من الآلهة المتعددة، تسكن فوق السحاب، وعلى قمم جبل الأولمب فى اليونان، وكان كل إله مختص بنوع من الظواهر الكونية، فالشمس وشروقها، ومسيرها نحو المغيب من فعل الإله أبولو، وهطول المطر منفعل الإله جوبيتير، وهناك آلهة للحب والجمال والحكمة والحرب، وهذه الآلهة لا تتورع عن الشر والحسد والغيرة والصراع على ملذات الحياة، وظل هذا الفكر الأسطورى فترة من الزمان[4]، محل قبول أو تردد.

وكان البابليون هم الآخرون يعتقدون بوجود جملة من الآلهة - من اشهرها: الإله تموز[5]،

---

(١) الدكتور: محمود حسين الليلى - تاريخ الفلسفة ج٢ ص٧٣ - طبعة الدار المنصورية ١٩٧١م.

(٢) ليوتانيليل - الزمان حركة متدفقة ص٥٧ - ترجمة رمضان سعد - ط١٩٥١/٢م بالكويت.

(٣) الدكتورة: وفاء محمد ظهران - الفلسفة الحقيقية والخيال ص٩١ ط١٩٥٧/١م.

(٤) الأستاذ: أنور الجندى - الإسلام والفلسفات القديمة ص٥١ ط دار الاعتصام.

(٥) الإله تموز عند البابليين، كانوا يعدونه إله الأرض السفلى، وكانوا يتصورون أنه يموت سنويا، ثم يعود للحياة مع السنة الجديدة، وكان البابليون يحتفلون به فى إطار طقوس داعرة، فيزاول فيها الرجال والنساء الدعارة، وكان اليهود يفعلون كل ذلك فى عبادة تموز داخل هيكل أورشليم نفسه. [راجع ول ديورانت - قصة الحضارة م١ ص٢٢١/٢١٩]

والإله عشتروت[١] ... الذين يتنقلون من مكان إلى آخر ... ويقيمون ... ثانية ... يشاركون أفراد المجتمع فى كل مكان، وهم فى ذات الوقت يحلون فى بعض الأفراد ... ويتحدون بالآخر، وقد يحلون ويتحدون بغيرهم على أنحاء شتى[٢].

لكن هذه الأفكار لم تقف جامدة أو تؤدى على هيئة ثابتة، وإنما راح البابليون المستحدثون يعيدون النظر فيه، حتى جعلوا هذه الآلهة المتعددة تتحد فيما بينها، ويصير العدل ابرزها، والقط والجعران نوابا عنه، ورغم أنها عقائد وثنية[٣]، إلا أنها أثبتت حركة الفكر المتجددة التى يقوم بها الفلسفة كوظيفة من وظائفها.

◈ إذن يمكن القول بأن الفكر لا يمكن أن يظل جامدا. وإنما لابد له من الحركة المنطلقة على سبيل الإطراد. **أما لماذا؟**

☜ **فلأن** العقل يرفض أن يكون العالم محلا لنزاع الآلهة، مهما كانت ثقة الناس فى الأساطير التى ترسم سطوة هذه الآلهة، أو تحكى عن سلطانهم، بدليل أن كل جيل يأتى من بعده فيعمل على مراجعة ذات الأفكار، ثم ينقض منها ما يراه غير قادر على الدفاع نفسه.

كما أن أرسطو نفسه لم يصدق أسطورة الآلهة المتعددة، التى يقع بينها التنازع، ولكنه اعتقد فى إله واحد يكون معبرا عن هذه الآلهة المتعددة، وسماه المحرك الأول، ووصفه بأنه ثابت لا يتحرك،

---

(١) الإله عشتروت: هو إله السماوات وإله القمر، وأنها زوجة الإله تموز، وهى أخته فى نفس الوقت، ... كان النساء يزاولون الدعارة فى هيكلها ليلا، ويطرزن خيمتهن نهارا، وقد أدخلت عبادتها فى بنى إسرائيل فى بداية عهد الانقسام، كما ظلوا يعبدونها فى كل مراحل تاريخهم القديم. [راجع فى هذا الشأن: دكتور جوستاف لوبون ... اليهود فى تاريخ الحضارات الأولى ص٦٧، وراجع أيضا قاموس الكتاب المقدس ص٦٢٨]

(٢) مايكل هيور – آلهة البابليين القدماء ص١٥٢ – ترجمة خالد عبدالعظيم – ط٣/ ١٩٠٠م، ولا حد أدنى تقدير لفكرة تعدد الآلهة، التى كان بعض القدماء يلجأون إليها؛ لأن الفطرة السليمة والعقل المستقيم يقران بأن الله واحد لا شريك له. وأن هذه العقيدة هى الفطرة التى فطر الله الناس عليها. قال تعالى ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ [سورة الروم الآية ٣٠] يقول العلامة الطبرى: » يقول الله تعالى ذكره فسدد وجهك نحو الوجه الذي وجهك إليه ربك يا محمد لطاعته وهي الدين حنيفا يقول مستقيما لدينه وطاعته فطرة الله التي فطر الناس عليها يقول صنعة الله التي خلق الناس عليها، وعن ابن زيد في قوله فطرة الله التي فطر الناس عليها قال الإسلام مذ خلقهم الله من آدم جميعا يقرون بذلك وقرأ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا قال فهذا قول الله كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين بعد. وقوله لا تبديل لخلق الله يقول لا تغيير لدين الله أي لا يصلح ذلك ولا ينبغي أن يفعل « [العلامة الطبري – جامع البيان ج٢١ ص٤٠/٤٢]

(٣) الدكتور محمد السيد عبدالله – العقائد الوثنية ص١٧٣ ط١/١٩٥٧م.

وإنما العالم هو الذى يتحرك نحوه، ويندفع إليه فى حركة شوق وانجذاب، كما وصفه بأنـــه عقـــل خالص، ومرة أخرى يسمه بأنه عقل محض[١].

ومع أن أرسطو لم يصب الحقيقة، بل كان فى الضلال واقعا، إلا أنه رفـض فكـرة الآلهـة المتعددة، وانتقل إلى فكرة الإله الواحد، وإن أخفق فى التعرف عليه، أو الوصول إليه، لكنه بذل جهدا فكريا، قصد به تحرير الفكر من الأساطير المعبودة، وانتقل به من ميدان إلى اخر، فكان ذلك بمثابـــة نوع من التجديد للأفكار المطروحة، ورغبة فى التخلى عن الأساطير التى لا دليل عليها.

ومن المؤكد أن التجديد الفكرى يمثل نوعا من أنواع الدعم العقلى للقيم تـــارة والأخـــلاق أخرى، ويدفع إلى التأمل المتواصل فى الحياة المعاصرة وأنماطها المختلفة، التى قد تتهددها الأخطار على نحو لم يسبق له مثيل[٢]، إن هى استمرت على ذلك اللون من التفكير الجاد، والأساطير التى انخدع بها الناقلون لها، و لم يبذلوا جهودا فى التعرف على الحقيقة.

ربما يظن البعض أن تجديد الفكر يقصد به الثورة على النصوص الدينية، أو الرموز أو القواعد الدينية، ولكن هذا أمر غير وارد على الإطلاق من جانبى على الأقل. أما لماذا؟

فلأن هناك فارقا جوهريا بين الدين والفكر، لا يمكن تجاوزه، أو الاقتراب منه، فضلا عـــن القفز فوقه، إذ الدين الإسلامى يقوم على النقل المنزل، وهو نص إلهى مقدس معصوم، لا يقبل الزيادة عليه أو النقصان منه، كما لا يقبل التحريف[٣] أو الإضافة ولا التعديل؛ لأنه هكـــذا أنزلـــه الله رب العالمين، وسيظل إلى أن يرث الله العالمين، وذلك مما جاء به القرآن الكريم والسنة النبويـــة المطـــهرة الصحيحة.

ﷻ فمن القرآن الكريم. قال تعالى: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾[٤].

---

(١) الدكتور رمضان حسن السريطى – الفلسفة اليونانية ص٢٥/٧ .

(٢) الدكتور محمود رجب – الميتافيزيقا عند الفلاسفة المعاصرين ص٢١٢ ط٣ دار المعارف بمصر ١٩٨٧م.

(٣) حرف كل شيء طرفه وشفيره وحده و الحرف واحد حروف التهجي وقوله تعالى ﴿ ومن الناس من يعبـــد الله علـــى حرف ﴾ قالوا على وجه واحد وهو أن يعبده على السراء دون الضراء ورجل محارف بفتح الراء أي محدود محروم وهو ضد المبارك وقد حورف كسب فلان إذا شدد عليه في معاشه كأنه ميل برزقه عنه وفي حديث بن مســـعود رضـــي الله عنه موت المؤمن عرق الجبين تبقي عليه البقية من الذنوب فيحارف بها عند الموت أي يشدد عليه لتمحص عنه ذنوبـــه و الحرف بوزن القفل حب الرشاد ومنه قيل شيء حريف بالكسر والتشديد للذي يلدغ اللسان بحرافته وكذلـــك بعصـــل [illegible] الحرف أيضا الاسم من قولك رجل محارف أي منقوص الحظ لا ينمي له مال وكـــذا الحرفة بالكسر وفي [illegible] الكلام عن مواضعه تغييـــره وتحريف القلم قطه محرفا ويقال انحرف عنه و تحرف و احرورف أي مال [illegible]
مادة: ح ر ف]

(٤) سورة الحجر – الآية ٩ .

۞ **يقول الإمام القرطبي**[١] : « قوله تعالى: ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر ﴾ يعني القرآن وإنا له لحافظون من أن يزاد فيه أو ينقص منه قال قتادة[٢]: حفظه الله من أن تزيد فيه الشياطين باطلا أو تنقص منه حقا فتولى سبحانه حفظه فلم يزل محفوظا وقال في غيره بما استحفظوا فوكل حفظه إليهم فبدلوا وغيروا[٣]،وقيل: ﴿ وإنا له لحافظون ﴾ أي لمحمد صلى الله عليه وسلم من أن يتقول علينا أو نتقول عليه أو ﴿ وإنا له لحافظون ﴾ من أن يكاد أو يقتل نظيره والله يعصمك من الناس »[٤].

۞ **ويقول الإمام الفخر الرازي**[٥]: « إنه لم يتفق لشيء من الكتب مثل هذا الحفظ، فإنه لا كتاب إلا

---

(١) الإمام القرطبي : هو أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي الأندلسي القرطبي ، استقر آخر حياته في مدينة الميناوي أعمالها ، وتوفي ودفن بها ليلة التاسع من شوال سنة ٦٧١هـ . [راجع في هذا الشأن - الجامع لأحكام القرآن للقرطبي - ج١ ص٧/٨ - دار الفكر العربي ١٤٠٩هـ /١٩٨٨م - ط١، وطبقات المفسرين للداودي جـ٢ ص٦٩]

(٢) هو قتادة بن دعامة بن عزيز السدوسي البصري، من الثقات الإثبات، كان حجة في الحديث مأمونا، توفي سنة بضع عشرة ومائة. [راجع تهذيب التهذيب جـ٨ ص٣١٥، وتقريب التهذيب جـ٢ ص١٢٣]

(٣) يحكى أنه كان للمأمون مجلس يدخل فيه جملة الناس – بمجلس المأمون – فدخل رجل يهودي حسن الثوب حسن الوجه طيب الرائحة قال فتكلم فأحسن الكلام والعبارة قال فلما تقوض المجلس دعاه المأمون فقال له إسرائيلي قال نعم قال له أسلم حتى أفعل بك وأصنع ووعده فقال ديني ودين آبائي وانصرف قال فلما كان بعد سنة جاءنا مسلما قال فتكلم على الفقه فأحسن الكلام فلما تقوض المجلس دعاه المأمون وقال ألست صاحبنا بالأمس قال له بلى قال فما كان سبب إسلامك قال انصرفت من حضرتك فأحببت أن أمتحن هذه الأديان وأنت تراني حسن الخط، فعمدت إلى التوراة فكتبت ثلاث نسخ فزدت فيها ونقصت وأدخلتها الكنيسة فاشتريت مني وعمدت إلى الإنجيل فكتبت ثلاث نسخ فزدت فيها ونقصت وأدخلتها البيعة فاشتريت مني وعمدت إلى القرآن فعملت ثلاث نسخ وزدت فيها ونقصت وأدخلتها الوراقين فتصفحوها فلما أن وجدوا فيها الزيادة والنقصان رموا بها فلم يشتروها فعلمت أن هذا كتاب محفوظ فكان هذا سبب إسلامي ....، ومصداق هذا في كتاب الله ﷻ في قول الله تبارك وتعالى في التوراة والإنجيل بما استحفظوا من كتاب الله فجعل حفظه إليهم فضاع وقال ﷻ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون فحفظه الله ﷻ علينا فلم يضع . [الجامع لأحكام القرآن ج١٠ ص٦]

(٤) العلامة القرطبي – الجامع لأحكام القرآن ج١٠ ص٥/٦، و نحن يجوز أن يكون موضعه رفعا بالابتداء و نزلنا الخبر والجملة خبر إن ويجوز أن يكون نحن تأكيدا لاسم إن في موضع نصب ولا تكون فاصلة لأن الذي بعدها ليس بمعرفة وإنما هو جملة والجمل تكون نعوتا للنكرات فحكمها حكم النكرات. [نفس المصدر]

(٥) الفخر الرازي هو صاحب التفسير والتصانيف ويعرف بابن خطيب الري واسمه محمد بن عمر بن الحسين بن علي القرشي التيمي البكري أبو المعالي وأبو عبد الله المعروف بالفخر الرازي ويقال له ابن خطيب الري أحد الفقهاء الشافعية المشاهير بالتصانيف الكبار والصغار، له نحو من مائتي مصنف منها التفسير الحافل والمطالب العالية والمباحث الشرقية والأربعين وله أصول الفقه والمحصول وغيره وصنف ترجمة الشافعي في مجلد مفيد. ولد رحمه الله في رمضان سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة. وقد كان معظما عند ملوك خوارزم وغيرهم وبنيت له مدارس كثيرة في بلدان شتى ، وقد وقع بينه وبين الكرامية في صولات، وكانوا يبغضونه ويبغضونه ويبالغون في الحط عليه ويبالغ هو أيضا في ذمهم، وقيل إنهم وضعوا عليه من سقاه سما فمات ففرحوا بموته . وكانت وفاته بمدينة هراة يوم عيد الأضحى المبارك في ذي الحجة سنة ٦٠٦هـ/١٢٠٩م، ولا تقدم في فضله ولا فيما كان يتعاطاه . [راجع البداية والنهاية لابن كثير - ترجمة الفخر الرازي - ١٠/٣٧٧. وراجع الإمام فخر الدين الرازي - حياته وآثاره - للدكتور علي محمد حسن العماوي - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ص٦٠٥ سنة ١٣٨٨هـ/١٩٦٩م - مؤسسة دار التحرير للنشر والطبع، وراجع طبقات الشافعية للعلامة السبكي - ج٥ ص٤٠]

وقد دخله التصحيف[١] والتحريف[٢] والتغيير، اما في الكثير منه أو القليل، وبقاء هذا الكتاب الكريم مصونا عن جميع جهات التحريف، مع أن دواعي الملاحدة واليهود والنصارى متوفرة على إبطالـــه وإفساده من أعظم المعجزات.

وأكبر الأدلة على صدق الآية الكريمة في أنه منزل من الله تعالى، وأنه باق إلى ما شـاء الله في علمه، وأيضا أخبر الله تعالى عن بقائه محفوظا عن التغيير والتحريف »[٣]، وانقضى الآن ما يزيد على أربعة عشر قرنا من الزمان والقرآن الكريم محفوظ بحفظ الله تعالى له، والحمد لله، فكان هذا إخبـــارا عن الغيب، وكان ذلك أيضا معجزا قاهرا.

۞ **ومن السنة النبوية المطهرة** قال صلى الله عليه وسلم: « تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمســكتم بهما؛ كتاب الله وسنة رســـول الله ﷺ »[٤]، وقـــال ﷺ: « ألا إني أوتيـــت الكتـــاب ومثلـــه معه »[٥]. وقوله ﷺ : « ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معـــه الا إني أوتيـــت القـــرآن ومثلـــه معه »[٦].

۞ ومن السنة النبوية المطهرة الصحيحة أيضا كلام الله بمعناه؛ لأن اللفظ من عنـــد رســـول الله ﷺ الذى عصمه الله تعالى. قال تعالى: ﴿وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحي يوحـــى * علمـــه شديد القوى﴾[٧].

أما الفكر الإنساني فأمره مختلف، لا هو مقدس، ولا هو من عند الله تعالى، ولا هو معصوم، إنما يقبل الزيادة والنقصان والإضافة والتعديل، لكنه يمثل حركة في الذهن لفهم المعقولات والتعبـــير

---

(١) التصحيف : معناها كتابة الكلمة أو قراءتها على غير صحتها . [المعجم الوجيز ص٣٦٠]

(٢) التحريف : معناها إمالة الكلام وتغييره وصرفه عن معانيه . [المعجم الوجيز ص١٤٥]

(٣) الإمام فخر الدين الرازى - مفاتيح الغيب م٩ ج١١ ص٣٩٠. /

(٤) الإمام الحافظ أبو عبدالله الحاكم النيسابورى (٣٢١/٤٠٥)هـ - المستدرك على الصحيحين - طبعة دار الكتب العلمية ببيروت ١٤١١/١٩٩٠م الأولى - تحقيق مصطفى عبدالقادر عطا. جـ١ ص١٧١ - الحديث رقم: ٣١٨، وراجع سنن البيهقي الكبرى ج: ١٠ ص: ١١٤ - الحديث رقم: ٢٠١٢٣]

(٥) راجع كنز العمال للمتقي الهندي - الباب الثاني في الاعتصام بالكتاب والسنة - الحديث رقم: ٨٨٠ وهذا جزء من حديث طويل)، وإجماعنا نحن أهل الإسلام على أن القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة الصحيحة هما النقل المنزل من عند الله تعالى - وهما معا مصدر واحد في التشريع الإسلامي - فمن كفر بواحد وآمن بآخر فهو كافر بهما معا؛ لأنهما جزءان لشيء واحد. [راجع في هذا الشأن كتابنا: الدرة النيرة في الدفاع عن الســـنة النبويـــة المطـــهرة ج١ ص٥٧ ط١/١٩٩١م].

(٦) الإمام أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني المولود في ١٦٤هـ والمتوفى في ٢٤١هـ - مسند الإمام أحمد بن حنبل ج: ٤ ص: ١٣٠ - الحديث:١٧٢١٣ - مؤسسة قرطبة - مصر .

(٧) سورة النجم - الآيات ٣/٥ .

عنها بألفاظ مكتوبة أو منطوقة، أو وسائل إيضاح فردية أو جماعية، إلى غير ذلك من الوسائل الـتي تنقل الفكر من صورته الذهنية إلى صورة من الصور الأخرى.

وهذا الفكر الإنساني قابل للتعديل والحذف والإضافة والقبول والإنكار؛ لأنه فكر بشـري، وإنتاج ذهني ومطروح موضوعي معرفي، وهو في كل حالاته أمر نسبي لا مكان فيه للحكم عليه بأنه مطلق، أو القول بأنه ينتج الحقائق الثابتة، والقواعد الكلية، باستثناء علم الرياضة في جانبه من الكـم المنفصل، وبخاصة علم الحساب، وعلم الجبر؛ لأن الدلائل عليهما برهانية، ولا ء طعن على البرهان، إن الله تعالى طلب من أصحاب الدعاوى إقامة البرهان الذى بأيديهم عليها.

قال تعالى: ﴿أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله قل هـاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾[1].

يقول العلامة الطبرى : « يقول تعالى ذكره: أم ما تشركون أيها القوم خير أم الذي يبدأ الخلـق ثم يعيده، فينشئه من غير أصل، ويبتدعه ثم يفنيه إذا شاء، ثم يعيده إذا أراد كهيئته قبـل أن يفنيـه، والذي يرزقكم من السماء والأرض فينزل من هذه الغيث، وينبت من هذه النبـات لأقواتكـم وأقوات أنعامكم، أءله مع الله سوى الله يفعل ذلك، وإن زعموا أن إلها غير الله يفعل ذلك أو شيئا منه، فقل لهم يا محمد: هاتوا برهانكم، أي حجتكم لحلى أن شيئا سوى الله يفعل ذلك إن كنتـم صادقين في دعواكم»[2].

ويقول العلامة القرطبى : « فكأن هؤلاء كانوا يقرون انه الخالق الرازق، فألزمهم الإعادة، أى إذا قدر على الابتداء، فمن ضرورته القدرة على الإعادة، وهو أهون عليه، ﴿ أإله مع الله ﴾ يخلـق ويرزق ويبدئ ويعيد ﴿قل هاتوا برهانكم ﴾ أى حجتكم إن لى شريكا أو حجتكم فى أنه صنع أحد شيئا من هذه الأشياء غير الله ﴿ إن كنتم صادقين﴾ ثم تأتى الآيات بعد ذلـك بتوجيـه الاستهزاء لهؤلاء المكذبين بالبعث على سبيل الاستفهام »[3].

ولما كانت الفلسفة فى نظر البعض من الدارسين هى: « معرفة النتائج من أسبابها والأسـباب من نتائجها ...، أو هى دراسة الموضوعات بالفكر، وبالتالى فإن تجديد الفكر الإنسانى على العديـد من النواحى، يعتبر من وظائف الفلسفة[4]، وإن رمت دليلا على أن تجديد الفكر هو واحـد مـن

(١) سورة النمل – الآية ٦٤ .
(٢) العلامة الطبرى – جامع البيان ج٢٠ ص٥.
(٣) العلامة القرطبى – الجامع لأحكام القرآن م٧ ص٥١٠٩. وراجع تفسير الطبرى ج٢ ص٥ .
(٤) جيمس جيز – الفيزياء والفلسفة ص٣٢ ، نسب التعريف الأول لهوبز ١٥٨٨/١٦٧٩م، بينما نسب التعريف الثـاني للفيلسوف هيجل – ترجمة جعفر رجب .

وظائف الفلسفة، فانظر إلى المدارس الفلسفية من نقدية أو تأملية، ومن مثالية أو عقلية، ومن وجودية إلى براجماتية.

ناهيك بالحديث عن الفلسفة الإسلامية في المشرق والمغرب، التي قدمت العديد من الأدلة على وجود الله تعالى، كما زحفت إلى المسائل الخلافية، فقدمت وجهات نظر كان لها الكثير من القبول، كالحال مع مسألة القضاء والقدر، ومسألة خلق العالم، ومسألة إثبات المعاد الجسماني والروحاني[1]، وكلها كانت الفلسفة الإسلامية فيها سباقة لتجديد الفكر، وتحويله من ظواهر سلبية إلى نتائج غاية في الإيجابية.

وإن عدت إلى الوراء ويممت وجهك شطر البحث ناحية الفلسفة الشرقية القديمة، والإغريقية في الماضي السحيق، أو المصرية لدى الفراعين، فسترى أنها جميعا قد ساهمت في بناء الفكر وتجديده، باعتبار أن كل لاحق يعدل في السابق ما يرى تعديله ضروريا، أو يحذف ما تكون الحاجة في حذفه أو تنحيته ضرورية لخدمة على العديد من النواحي التي تمثل روح التفكير العقلي الحر.

وليس الفكر الإنساني الذي تجدده الفلسفة منحصرا في معنى معين، أو موضوع محدد، إنه ينساب في المعارف الإنسانية كلها، أخلاقا ومعرفة، قيما وعلوما؛ لأن الفلسفة لا تعرف موضوعا تقف عنده، بحيث تعالجه وحده، وإنما تتناول كل ما يمكن للعقل تصوره على ناحية من النواحي، وهي في عالم الشهادة أكثر حركة وأسرع[2].

✽ **يقول بيري**: ليس هناك من سبب يدعو لأن تتطابق المبادئ العلمية على موضوع معين، وإن كان علم الفيزياء قد قاد الطريق في تطوير الطريقة العلمية وتحسينها، وفي التطبيقات التقنية، فإن هذا لا يعطيه الحق في التفرد بمملكة العلم[3]، التي تقوم على الحركة الذهنية الدائمة، التي تنتهي غالبا بتجديد الفكر على ناحية من النواحي الرائعة.

✽ **ويقرر هيلموث** بانفرر أن الفلسفة ما لم تجدد الفكر، فلا تكون فلسفة، باعتبار أن الحياة حركة مستمرة في امتداد واحد مع الزمان لا تنقطع؛ ولا يمكن الارتداد بها للخلف ولا الثبات في الموقع الواحد، وكلما جاءت النتائج الفلسفية معبرة عن روح العصر الذي نعيشه؛ فإنها تجتذب العديد من الأنصار، وتفقد الكثير من الخصوم[4].

---

(١) راجع على سبيل المثال لفيلسوف قرطبة أبي الوليد بن رشد – فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، وتهافت التهافت، و مناهج الأدلة، ولابن سينا: رسالة أضحوية في أمر المعاد.

(٢) الأستاذ: ناظم محمد الضبع – الحركة الفكرية وتطوراتها المستمرة ص٧٧، وهو يتحدث عن الحركة الفكرية كأنها تملك الانفصال التام عن الإنسان المفكر، وليس الحال كذلك، بل هناك ارتباط تام بين المفكر والحركة الفكرية على ناحية من النواحي.

(٣) رالف بارتون بيري – إنسانية الإنسان ص٢٠ – ترجمة سلمى الخضراء – دار مكتبة المعارف – بيروت ١٩٦١م.

(٤) هيلموت بانفرر – الفلسفة والإنسان المعاصر ص٧٣ ترجمة هناء صبري ط٣/١٩٦٥م.

❖ **إذن من المؤكد ضرورة القول بأن الفلسفة :-**

[أ] تمهد العقل والمجتمع لظهور قيادات فكرية جديدة متميزة.

[ب] تعين على ظهور كوادر فكرية تواكب روح العصر.

[ج] تتولى زمام القيادة الفكرية.

[د] تدفع إلى تجديد الفكر الإنساني على الدوام، من خلال تنقيح الأفكار وتنقيتها، فما كان صوابا على سبيل البرهان، أمكن التمسك به، وما كان قابلا للترجيح والرجحان، تظل حركة الترجيح فيه قائمة[1]، وكلما أمكن الوقوف على قضايا برهانيه، أمكن التصديق بها واستعمالها.

❖ **وقد يتساءل المرء قائلا:** إن الجانب الإيجابي في الفلسفة، لا يمثلها كلها على الناحية النظرية، بقدر ما يمثل الجانب العملي وحده، وفرق بين الفلسفة في جانبها النظري، الذي هو محل الهام، وبين الفلسفة في جانبها العملي، الذي هو محل قبول، وهذه التفرقة تحتاج مراجعة، حتى لا يتم الحكم على الفكر من خلال جانب واحد بالإدانة له قدحا، أو التزكية مدحا؟

● **والجواب:** أن العمل هو الذي يمثل الصورة الصحيحة للتطبيق الفكري، كما أن العمل هو فاعلية ما للفكر من وجود حقيقي، بيد انه ليس فاعلية ترقى إلى إجرائية التفكير فحسب، حيث في العمل يوجه تفكيرنا دائما نحو إيجاد نتيجة ما، بله الفكر الصادق نفسه[2]، حتى هذه النتيجة المؤكدة — ضرورة وجود علاقة بين الفكر والعمل — لم تسلم من الضغط عليها، رغم أنها في الواقع تمثل ضرورة فلسفية في الاتجاه إليها على الدوام.

كما أن العمل على إبراز قيادة فكرية واعية، إنما هو من وظيفة الفلسفة، التي تعمل على تطوير التفكير، **وهذه الوظيفة تمثل دورا مهما نتج عنه لدى الشرقيين من الفلاسفة ما يلي:-**

✽ **أ- رفض العزلة الفكرية:**

لأن المفكر الشرقي تحكمه طبيعة رقيقة، كما تحكمه روابط اجتماعية، وقيم دينية، وهو بين هذه الروابط والقيم يجرى شوطه الحياتي كله، بل هي حلقة متجانسة، تمثل تكاملا من كل ناحية، وازدواجية تفرضها ضرورة الفكر، التي هي توأم العمل، ولا يمكن فصل أي منها عن الآخر[3]، وإلا فقد كل منهما فاعليته، وانتهت مسائله وضاعت أسسه.

✽ **ب- التوافق التام بين ميادين الفلسفة:** معروف أن للفلسفة ميادين ونظرات، ومناهج وموضوعات كنظرية الوجود، ونظرية المعرفة والقيم، ونظرية الفن والنظام السياسي والسلوك الإنساني، وغير

---

(١) تلك الجوانب أراها قائمة في الفلسفة، فإن أمكن لغيري اقتناص غيرها، فكلنا نحمد الله على التوفيق، ونسأله السداد.

(٢) أ.أ. ميلر – المعلم الأول أرسطو ص١٣١ – ترجمة محمد زكي حسن – مكتبة الخانجي .

(٣) الدكتور: خيري حسن جميل في الفلسفة والحركة الفكرية ص٥١ ط٢/١٩٧٧م.

ذلك من النظريات المستحدثة والكلاسيكية والجوانب التي تخص الفلسفة وحدها[1]، كميادين ونظريات، والشرق لا يفصل بينها جميعا وبين الحياة العامة، إنما يعمل على دمج هذه النظريات، وخلطها بأنماط الحياة العامة، بحيث يقع بينها التكامل، بغية تقديم غرض واحد هو خدمة المجتمع الإنساني كله.

ج ـ أهميتها الحقيقية للحياة:-

كثير من الفلاسفة ربما انحازوا إلى أن التفكير العقلي ليست له ضرورة حقيقية، وإنما هي حدود متوهمة، باعتبار أن الفكر الإنساني حلقات تتكامل بعضها مع البعض الآخر، من ثم فإن المفكر الشرقي يؤكد على أنه يجب حمل الفلسفة محمل الجد البالغ حد التمكن من غير تهاون أو مهادنة؛ لأن الفلسفة في الشرق ليست أمرا مجردا، متسما بالطابع الأكاديمي، أو لا تربطه كبير صلة بالحياة اليومية، وإنما ينظر إليها باعتبارها المشروع الأكثر اهمية وجذرية للحياة[2] العامة التي يتشارك فيها أفراد المجتمع الإنساني كله، والفلسفة بهذا تؤدي دورا هاما في بسط قضايا المجتمع ومعالجتها بصورة اكثر رقيا، وأعلى تقدما.

لكن من المهم القول بأن تجديد الفكر المراد هنا، إنما هو نوع من التوسع في استعمال معنى العلم وتوظيفه في شكل جديد، من خلال طرح جديد لمفهومه، بحيث يقع التكامل بين العلم والطبيعة الفيزيائية من ناحية، والطبيعة البشرية من ناحية أخرى، حتى يتجاوز العلم حدود التخصص البينوي، فيشمل أنواعا عديدة من المعارف يطلق عليها جميعا اسم علم[3].

وسواء أقبل هذا الرأي أم رفض، وسواء أتم التعديل فيه، أم ترك على ما هو عليه، فإن الذي لا يمكن الانفلات منه هو أن عملية التجديد للفكر لا تنقطع، وإلا انقطع الفكر نفسه، كما أنها عملية عقلية ووظيفة فلسفية، وعمل من أعمالها التأملية والنقدية أيضا، وإن اختلفت المفاهيم بالنسبة لأصحاب الاتجاه النقدي عن مفاهيم أصحاب الاتجاه التاملي.

د ـ دراسة النظم الاجتماعية وتأثرها بالمذاهب الفلسفية

لكل مجتمع من المجتمعات الإنسانية مناهج وموضوعات، بل ونظم اجتماعية، تحتاج تحليلا فنيا دقيقا، وتقديم حلول أفضل لكل مشكلة من مشكلاتها، ولا يكون ذلك إلا بمعايشة النظم الاجتماعية معايشة تامة؛ لأن النظر إلى النظم الاجتماعية يستلزم دراستها على ناحية تفصيلية،

---

(١) هذا التمييز يعتبر ضرورة عقلية، ويتسم في أغلب الأحيان بالنظرة المتأنية، كما أن أحكامه تكون فيها المرونة والدقة، وذلك من ضرورات البحث العلمي.

(٢) جون كولر – الفكر الشرقي القديم ص٢١ ط٢/١٩٦٧م.

(٣) الدكتور: خوى حسن جميل – الفلسفة والحركة الفكرية ص٦٢ .

والتعامل معها فى حدود الظروف المحيطة بها[1]، ومن ثم فقد ذهب الكثيرون من الدارسين إلى أن من وظائف الفلسفة معايشة النظم الاجتماعية معايشة تامة، ثم تحليل تلك النظم وبيان حاجة المجتمع إلى هذه النظم من عدمه.

وبقدر ما تؤديه تلك النظم من فوائد، بقدر ما يمكن المحافظة عليها، أما ما لا فائدة من ورائه فيجب على العقل الذكى الفرار منه والتخلى عنه، بل والمطالبة بإلغائه متى أمكن، ولا يكون ذلك صحيحا إلا بمراقبة النظم القائمة على سبيل الاستقلال الواحدة تلو الأخرى، أو الواحدة بعيدا عن باقى الأنظمة[2]، ثم تحليل كل واحدة منها على سبيل الاستقلال، ثم ربط هذه النظم مع بعضها فى سلسلة واحدة، تؤدى فى النهاية إلى الأغراض المنوطة بها.

فمثلا: ظاهرة العنوسة فى النساء، والعزوبية فى الرجال تمثلان ظاهرة اجتماعية غير طبيعية؛ لأن الله تعالى خلق الناس ذكرا وإنثى[3]، وجعل بينهما المودة والرحمة[4]، وكلما انتشرت العنوسة

---

(١) الدكتورة وفاء السيد عبدالخالق – الفلسفة الاجتماعية ص٧٧ ط٣ دار السند ١٩٦٧م.

(٢) الدكتور: عبدالعاطى عبدالباقى رزق الله – الفلسفة والعلم ص٨٥ ط١ مكتبة رزق الله ١٩٥٣م.

(٣) بل إن الخلق الزوجى ثابت فى كل الكائنات المخلوقة. قال تعالى: ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾ [سورة الذاريات – الآية ٤٩]

(٤) قال تعالى: : ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾. [سورة الروم – الآية ٢١] « حيث أحل الله تعالى التزوج ببعض النساء دون بعض، مراعاة لمصالح ترجع فى الكثير منها إلى فتح الباب لإنشاء علاقات لم تكن موجودة، و توثيق علاقات ضعيفة، أو الإبقاء على روابط وثيقة توجبها العلاقة الزوجية، وما فيها من تبادل الحقوق والواجبات إلى الضعف والقطيعة ». [الدكتور على حسب الله – أصول التشريع الإسلامى ص٤٢٦ – الطبعة الخامسة – دار المعارف – بمصر ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م] ومن ثم؛ نظمت الشريعة الإسلامية إقامة تلك العلاقات على أسس سليمة وقوية، تبتدئ بالخطبة التى هى وعد سابق بنكاح لاحق.[الدكتور محمد عبدالواحد عبدالهادى – مقاصد الشريعة الإسلامية ص١٢٩ سنة ١٩٥٧م] ثم عقد النكاح الذى يقوم على الإيجاب والقبول طبقا لقاعدة العقود الشرعية، ولما كان عقد النكاح فى الإسلام تترتب عليه حقوق لكل من الطرفين، وتقوم عليه واجبات كل منهما نحو الأخر، فقد اعتبره الإسلام هو النكاح، وجعل له ضوابط يقوم عليها هى: ١- الزوج . ٢- الزوجة . ٣- الولى . ٤- شاهدى عدل. وفى الحديث الشريف « عن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ لا نكاح إلا بولي وشاهدي عدل ».[الطبران – المعجم الأوسط ج: ٩ ص: ١١٧ الحديث رقم: ٩٢٩١ ، والهيثمي- مجمع الزوائد ج: ٤ ص: ٢٨٧/٢٨٦ وأخرج الترمذى – سنن الترمذي ج: ٣ ص: ٤٠٧- باب ما جاء لا نكاح إلا بولي حديث رقم: ١١٠١ عن أبي موسى قال « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا نكاح إلا بولي » وذكره الدارمي – سنن الدارمي ج: ٢ ص: ١٨٤ – ١١ باب النهي عن النكاح بغير ولي حديث رقم:٢١٨٢ وفى سنن البيهقي الكبرى ج: ٧ ص:٥٦ – باب ما أبيح له من النكاح بغير ولي وبغير شاهدين استدلالا بجواز الموهوبة حديث رقم:١٣١٣٧ « عن أبي سعيد قال : لا نكاح إلا بولي وشهود ومهر إلا ما كان من النبي صلى الله عليه وسلم »]

والعزوبية؛ كثرت المفاسد الأخلاقية، وظهرت الاضطرابات النفسية، ووقع الخلل الاجتماعى[١]، والفيلسوف من مهامه الأساسية تقديم حلول لمشكلات المجتمع الذى يعيش فيه، وبالتالى فالفلسفة تقوم بدور فعال حين تلجأ إلى بحث هذه الظاهرة، والتعرف علىّ أسبابها، ثم محاولة تقديم الحلول الممكنة لها، والحكيم المسلم هو الذى تقوم حلوله لهذه المشكلات على الأحكام الشرعية.

وكذلك الأنظمة السياسية إذ تنقل الآثار أن النظام السياسى الذى كان سائدا فى المدن الأيونية أيام طاليس، هو التفرق والوحدات السياسية الصغيرة الكانتونات، وكانت هذه المدن والمستعمرات مستقلة من الناحية السياسة والإدارية، وكانت تؤلف فيما بينها عالما واحدا هو العالم اليونانى، الذى تجمع بين أجزائه وحدة الجنس واللغة والدين، فكانوا جميعا يعبدون – نزوس – ويحجون إلى هيكله الأكبر فى أولمبيا بالمورة، كما كانوا يذهبون إلى دلفى فى سفح جبل برناس يستنزلون وحى أبولون، ويبعثون القرابين والنذور لهذه الآلهة[٢].

ولأن هذه الأنظمة السياسية الضعيفه كانت أحيانا تعجز عن مقاومة الأعداء، كما هى عاجزة عن الدفاع الذاتى، فقد طمع فيها الفرنسيون، وصار الخطر الفرنسى يتهدد هذه المدن بين الحين والآخر، ولم تبلغ الجرأة بأحد سكانها، حتى يطالب بالوحدة بينها فى مواجهة الخطر الذى يتهدد الجميع، بل إن هذا الخطر الداهم صار مشكلة مستفحلة، يصعب الوقوف فى وجهها[٣]، كما يصعب التزام الصمت حيالها.

لكن طاليس المليطى لم يطق صبرا على هذه المشكلات الاجتماعية، وبخاصة المتمثلة فى العدو المتربص، والشعب المستكين المتخاذل، فقام بتحليل تلك الظاهرة، ثم صاح فى الناس مطالبا بالاتحاد فيما بينهم، حتى يتمكنوا من مواجهة ذلك الخطر الذى ينتظر وقوعه، والاستعداد له على كل ناحية ممكنة[٤]، وبالتالى هب الأيونيون ليأخذوا صيحة طاليس مأخذ الجد، ويستجيبوا لنداءاته المتكررة، فتوحدوا أمام الخطر الفرنسى، الذى لم يتمكن من الاستيلاء على ديارهم، أو إلحاق هزيمة بهم بعد ذلك[٥]، وهكذا استطاعت الفلسفة أن توقظ فى الناس الشجاعة، وتبعث بداخلهم روح الأمل فى الانتصار، بل أمكن لها أن تدلف إلى نفوس هؤلاء جميعا، فتزيح عنها ما علق بها من تراب الانكسار، أو غبار اليأس، وتحقق للأيونيين ما لم يكن له عندهم من حسبان.

---

(١) هارفى نورهان – العزوبية والخلل الاجتماعى ص١٢٧ – ترجمة ناهد فتحى .

(٢) الدكتور: محمود عبدالرازق شفشق ، والدكتور منير عطاالله سليمان – تاريخ التربية ص١٥ طبعة دار النهضة العربية ١٩٦٨م.

(٣) الأستاذ رمزى محمد وصفى – الاستعمار قديما وحديثا ص١٥٧ .

(٤) الدكتور منصور عبدالعظيم كامل – تاريخ الفلسفة اليونانية ص١٨٥ ط دار هدى ١٩٧٥م.

(٥) الدكتور : عبدالعاطى عبدالباقى رزق الله – الفلسفة والعلم ص٨٨ الطبعة الثانية ١٩٦٧م.

وإذا انتقلنا إلى المدرسة الطاليسية ككل، فإننا نرى رجالها قد هبوا لمحاربة الجهل؛ لأنه مرض اجتماعي، كان قد انتشر في بلاد اليونان، وكان من الضروري إنشاء مدرسة علمية، تهتم بقواعد العلم ونظرياته، كما تهتم بالنظر في الطبيعة، حتى أثمرت مباحث هذه المدرسة ثمرتين: الأولى: محاربة الجهل، والثانية: انتشار العلم، فأثمر مباحث هذه المدرسة ما كان أصلا في ترقية المجتمع[١].

ولا يختلف النظام الثقافي عن النظام السياسي، ودليل ذلك أن مفكري أوربا في العصور الوسطى، لما رأوا ما تعيشه أوربا من ظلام فكري، وضغط ثقافي وسقوط في أعماق الجهل الذي فرضته الكنيسة، وباشره رجالها تحت اسم اللاهوت تارة، وتحت ستار المحافظة على الدين المسيحي أخرى، هرع هؤلاء إلى وجدانات الناس، يطرقون أبوابها على كل ناحية، ويبذلون جهودا جبارة، لإقناع عامة الناس بأن الدين الكنسي عدو العلم، كما أن رجال الكنيسة ليسوا سوى مجموعة من المنتفعين، الذين ساندتهم الظروف، فحملوا لواء العلم اللاهوتي[٢].

غير أن هذا النظام الثقافي المتدني المفروض من قبل قيادات لاهوتية، كان هو الآخر أحد العوامل التي أججت الثورة على النظام الكهنوتي، وأشعلت في الناس مزيدا من الحماس، لإحداث تغيرات جذرية في البرنامج الثقافي، والخطط التي كانت تعد سلفا، حتى تؤدي نفس النتائج، التي يسعى رجال اللاهوت إليها، فكانت الصرخات المتواليات التي قام بها الفلاسفة، هي التي أنتحت بعقول الناس جانبا، حتى أفهمتهم الصواب، ودلتهم على طريق الوصول إليه[٣]، وما كان ذلك إلا من وظائف الفلسفة.

و لم يقف الأمر عند مجرد تحليل النظام السياسي، أو الثقافي والاجتماعي، وإنما تخطى ذلك ليشمل المطالبة بالتحرر والمساواة بين الناس، والتخلي عن نظام السادة والعبيد، الأقنان والأسياد، حيث كان اليونان يمارسون ذلك النظام الغريب، فكانت مهمة الأرقاء العمل الشاق، والسعي الدؤوب، وممارسة المهن التي لا تصلح لمتوسطي الحال[٤].

أما الأحرار يلقبون أنفسهم بالأسياد، وعملهم التأمل الفكري والنظر العقلي على أوسع نطاق متى كان ذلك ممكنا، أما إذا لم تكن لديهم الملكات[٥] العقلية التي تعينهم على ممارسة ذلك

---

(١) الدكتور: أحمد فؤاد الاهوانى – المدارس الفلسفية ص١٠/١١ .

(٢) ليلاود كاسيل – اللاهوت والعصور المظلمة ص٧٥ ترجمة لطفي عبدالباقي ط٢/١٩٥٧م روسيا.

(٣) لا أقصد أن الفلسفة تغني عن تعاليم الدين الإسلامي، فهذا لم يجل بخاطري أبدا، وإنما أقول: إن تعاليم الفلسفة مادامت متوافقة مع الأصول الشرعية، فإنما تحقق نتائج إيجابية، لا من حيث ذاتها، وإنما باعتبار موافقة ما تدعوا إليه للنصوص الشرعية.

(٤) الدكتور: صبري محسن صادق –تاريخ الفكر اليوناني ص١١٧ – ط ثانية ١٩٥٥م.

(٥) ملكات جمع ملكة وهي « صفة راسخة في النفس تحصل لها هيئة بسبب فعل من الأفعال ويقال لتلك الهيئة كيفية نفسانية وتسمى حالة ما دامت سريعة الزوال فإذا تكررت ومارستها النفس حتى رسخت تلك الكيفية فيها وصارت بطيئة الزوال فتصير ملكة وبالقياس إلى ذلك الفعل عادة وخلقا ». [راجع للعلامة الجرجاني - التعريفات ج١ ص٢٩٦ رقم: ١٤٧٨ ط١ دار الكتاب العربي ١٤٠٥هـ ، ص٢٤٠ – ط دار الكتاب العربي ١٤١١هـ/١٩٩١م]

فإنهم يكتفون بوصفهم بالأسياد والتنادى بينهم بالأحرار، من غير مراعاة لشيء أخر، وقد استفحلت تلك الظاهرة، حتى جعلت المجتمع ينقسم إلى طبقتين متصارعتين:-

☆ **الأولى : طبقة الأسياد**: الذين يرون أحقيتهم فى ممارسة السيطرة والسلطان على كل شىء مما حواليهم، بغض النظر عن توافر الإمكانيات لممارسة ذلك النوع من السيطرة[1]، وهم فى ذات الوقت يرون أن الحياة حق لهم وحدهم، أما الآخرون فإما أن يكونوا خدما على القسر قائمين، أو أرقاء فى لهيب العنصرية مكتووين.

☆ **الثانية: طبقة الأرقاء**: الذين يرون حقوقهم الأولية مهضومة، ونفوسهم محطمة، وإمكانياتهم منهارة، وحرياتهم منعدمة، يتولى التصرف فيهم بكل أنواعه من نصب نفسه سيدا على غيره[2]، مع أنه لا توجد لديه الملكات التى تعينه على القيام بأعباء ما يدعيه لنفسه.

من ثم بات الصراع الطبيعى حتميا، ولا ينهض مجتمع يتصارع أفراده، أو فى لبناته الأولى وهن واضح، أو بين الأسس الأولى تنازع لم ينقطع، وخلافات لا يرجى لأصحابه الاتفاق فيما بينهم، أو التنازل عن هذه الهواجس التى تختبئ فيها الجمرات تحت الرماد.

من ثم، فقد وقف المفكرون الأحرار على هذه العلل، وتعرفوا على ذات الأمراض فأمكنهم تصنيفها إلى مستويات، ثم تحليل هذه العناصر، والدفع بها إلى ميدان بعيد، وقد كان ساكاس من أكثر الناس جرأة، ومطالبة بإلغاء ذلك النظام الطبقى، ومحاربته، حتى أمكن القضاء عليه.

يستوى فى ذلك أفلاطون ابن الثراء والمال، سليل العراقة والنبالة، الذى تنازل عن ثروته الكبيرة، وهجر موطنه، تاركا حياة الترف والرفاهية؛ بغية العيش بين أحضان الحياة الفكرية الهادئة، قانعا بقليل يأتيه[3] مع أفلوطين الحمال الذى عمل أجيرا بالقطعة، وظل يمارس تلك المهنة، حتى وافله أجله، رغم أنه كان فيلسوفا متميزا، ومفكرا من النوع الجاد.

إن هموم المجتمع قد شغلت عقلية كل منهما، وتحليل النظم الاجتماعية كان السلوى بالنسبة لمشاعرهما، وكان البحث عن حلول واقعية لهذه المشكلات من أبرز المعالم الوجدانية، التى حركت مناحى التأمل لدى كل منهما، مما مهد لحياة راقية، فيها الكثير من الواقعية والمحافظة على ما ترقى به المجتمعات، وحتى تقفز للأمام فى خطا ثابتة وثابة.

كما لم يكن النظام الاقتصادى هو الآخر بعيدا عن فكر الفلاسفة، أو عقول المفكرين، وإنما كانت الاتجاهات إليه متواصلة، طبقا لمعطيات العصر، فيذكر أصحاب السير: أن مليطة كان معظمهم من البحارة والتجار الذين يخرجون بسفنهم إلى البحر، يطوفون بمعظم ثغور البحر الأبيض

---

(١) راجع لهيلموت أدبير – أوربا فى العصور الوسطى ص١٥٩ – ترجمة هدى محمد لطفى .

(٢) الدكتور: صبرى محسن صادق – تاريخ الفكر اليونانى ص١٢٥ .

(٣) الدكتور: متولى السيد يسرى – الفلسفة اليونانية ص١٨٢ ط دار المهند تركيا ١٩٤٧م.

المتوسط للتجارة[١]، ولم يكن لديهم تقوم يضبط لهم منازل القمر، وحركة المد والجزر، فكانوا يتكلفون الأموال الكبيرة المرهقة، وفى ذات الوقت لم يكن العائد المادى من تلك التجارة مجزيا[٢]، فصار ذلك أحد المشكلات، التى ترهق المجتمع على الناحية الاقتصادية.

من ثم فكر طاليس — ومن جاء بعده، الذين تخرجوا فى مدرسته — فى ضرورة مجابهة هذه الظاهرة، ومواجهتها بكل ما لديهم من ثقافة وفكر، حتى انتهى بهم الأمر إلى وضع تقويم فلكى متميز، يعد من أقدم ما عرف فى نوعه، بين فيه أوجه القمر[٣]، على النحو الذى أفاد منه التجار وراكبو البحر، وتمثلت فيه حلول عملية لمشكلات اقتصادية.

إذن يمكن القول: بأن الفلسفة قدمت خدمات عظيمة للمجتمع الإنسانى فى الناحية الاقتصادية، كما قدمت ذات الخدمات العظيمة فى النواحى الاجتماعية والثقافية، بل كل الأنظمة والحياة الاجتماعية على هذا المنوال سارت، وتم تقديم حلول مناسبة لها[٤].

وكما أن أنظمة الحياة مختلفة، فإنها تحتاج إلى ما يربط بين هذه الأنظمة ويوجه أمرها نحو ما فيه الخير العام، وبالبحث الفنى تبين أن من وظائف الفلسفة وقوف النظريات الفلسفية خلف الحركات التحررية الاجتماعية من ابتدائها وتطوراتها، إلى أبعد مدى خلال الحوادث التاريخية نفسها، بحيث يعتبر ذلك مصدرا موثقا لتأثر الحركات الاجتماعية والعلمية بالمذاهب الفلسفية، ونظرياتها المختلفة[٥].

أجل صار من المؤكد القول: بأن الفلسفة قد وقفت وراءها ونهضت بعبء التوجيه المستنير الذى أدى إلى إيقاظ شعلة الإدراك والمتابعة لها، حتى بلغت أوجها حينها نضج الإدراك، وتفتح الوعى فى كثير من الشعوب التى طالبت بالتحرر على كل ناحية، وبهذا كان للفلسفة - إلى جانب وظيفتها الأكاديمية العلمية فى تفسير طبيعة العالم وحقيقة الإنسان - وظيفة التوجيه المستمر إلى عالم أفضل وحياة أكرم وأسعد[٦].

۞ **وفى تقديرى:** أن الفلسفة من أبرز صفاتها التأثير المباشر وغير المباشر على كل الحركات الاجتماعية والسياسية، بل والثقافية والعلمية أيضا، وكان ذلك كأنه يغذى الجانب الحضارى ويدفعه إلى التنامى مع الاستنارة، بحيث يمكن القول: إنه بغير الفلسفة أو الحكمة فى الأمم غير الإسلامية لا تكون حضارة، كما أن هذه الحضارة هى أحد المعبرات عن الفلسفة.

---

(١) الدكتور منصور عبدالعظيم كامل – تاريخ الفلسفة اليونانية ص١٩١ ط الدار الجديدة ١٩٧٥م.
(٢) الدكتور فوزى محمد شعبان – الاتجاهات الفلسفية ص٤٣ – طبعة دار التوفيق ١٩٧٥م .
(٣) الدكتور أحمد فؤاد الاهوانى – المدارس الفلسفية ص٩ .
(٤) الدكتور فوزى محمد شعبان –الاتجاهات الفلسفية ص٤٧ ط دار مراد ١٩٤٥م.
(٥) الدكتور فوزى محمد شعبان – الاتجاهات الفلسفية ص٥٧ .
(٦) الدكتور توفيق الطويل – مدخل إلى الفلسفة ص١٣ .

ك- ومن ثم يمكن الانتهاء إلى أن من وظائف الفلسفة ما يلي:-

[أ] تغيير العالم نحو الأفضل دائما.
[ب] تحرير الإنسان من الظلم والطغيان.
[ج] إبعاد شبح التهاون والحرمان.
[د] تحرير العقل والعاطفة من سلطان الخرافة والأوهام.
[هـ] إلغاء سيطرة العواطف الساذجة، والأساطير الكاذبة على العقل.
[و] الترقى المتواصل بالإنسانية إلى درجة من الكمال المتميز.
[ز] بناء نظرة سليمة للوجود بشكل خاص، وللحياة الإنسانية بوجه عام.
[ح] إذا هدمت الفلسفة فلا يكون إلا من باب تنقيتها من الأوهام والخرافات والأساطير والقيم الباطلة، وذلك لبناء حقائق يقرها العلم، وإقامة قيم نبيلة، أصح مما الهدم،وأسلم مما أزيل[1].

وهذا مما يؤكد أن العلاقة بين العلم والفلسفة وثيقة فى التحاور الهادف حينا، والاختلاط المتبادل حينا أخر، ومن ثم فلا يمكن استغراب وجود كثير من الفلاسفة فى زمرة علماء الفيزياء فى نفس الوقت منذ بداية التاريخ المدون حتى نهاية القرن السابع عشر، فالأسماء الرنانة فى الفلسفة اليونانية وغيرها مثل طاليس وأبيقور وهيراقليطس وأرسطو وديكارت، ولينتز كانت أسماء كبيرة فى العلم، كما هى كبيرة فى الفلسفة[2]، وما ذلك إلا لأن معمل الفيلسوف هو مخه الذى يعرف به طرائق اكتساب المعرفة التى تمهد له فى بلوغ درجات أعلى من سابقتها فى العلوم والمعارف.

د- معرفة النفس البشرية والعالم الذى تعيش فيه

النفس البشرية بحر عميق من حيث هى نفس، ومن حيث هى أسرار يحاول العقل السليم التعرف عليها، والإلمام بها، ومن ثم فهو يتساءل: هل هى نفس واحدة، أم أنفس مختلفة، وهل بعضها يخلد وبعضها يموت، وهل هى الروح أم شيء أخر غيرها؟ وذلك يقتضى سبر اغوارها، والعمل على كشف خفاياها، والتغلغل فى حناياها، والانطلاق نحو أعماقها، والسير بها فى طريق التأمل العقلى إلى أبعد مدى، حتى يخرج المرء من تلك الجولة ومعه حصيلة لا بأس بها عن النفس البشرية.

والنفس الإنسانية متى أدركها المفكر؛ فإن السعادة التى يبلغها التى تقوده إليها، رغبة ذاتية غايتها رسم أهداف عميقة[3]،وإيجاد مثل عليا لا تتوقف على كونها مشاعل مضيئة تنير له طريق الحياة

(١) راجع كتابنا: رياض الأشواق فى الميتافيزيقا والأخلاق ص٥٣ وما بعدها.
(٢) جيمس جينز – الفيزياء والفلسفة ص٣٣ .
(٣) الشيخ محمد عبدالعظيم الفيشاوى – أسرار النفس الإنسانية ص٥٧ ط٢/١٩٥١م.

فحسب، وما تسمو به إلى ما هو أعلى من هذا وأكبر، وفوق ذلك فإن معرفة النفس الإنسانية على وجه تفصيلى يعين العقل على تجاوز العديد من الخطوط، ويقفز به إلى ما فوق العالم المشاهد.

والبحث فى أغوار النفس الإنسانية يعين على تفهمها، والوقوف على علاقتها بالبدن والروح، بل وعلاقتها بأنفس وأرواح الآخرين، وأثر ذلك كله على الأخلاق، وارتباطه كله بالنفس، وتأثر هذه النفس بالأخلاق على وجه الحضور[1]، بغية إزاحة الأوهام والخرافات، واستبعاد الأساطير من طريق بستولوجيا – المعرفة – حتى تتجرد من المؤثرات الخارجية، فتبدو هذه النفس متعانقة مع القيم، متآزرة مع الأخلاق النبيلة، بحيث تتلاقى كلها فى ثوب عرس واحد، يحمله أشهب يدنيها من القبول المتزايد، والاحترام المتواصل، كما يبعد بها عن نزوات النفس وسقطات الأخلاق[2]، وذلك حين يباعد بينها والإسفاف، كما يصرفها عن الكبر والغرور، ولا يسلمها للحقد أو الأثرة، أو يقودها للأنانية والحسد.

ومن المؤكد أن علم الرياضة أو الفيزياء، بل وسائر العلوم لا يمكنها الوقوف على حقيقة النفس الإنسانية؛ لأنها ليست من موضوعاتها، كما أن حقيقة النفس الإنسانية لا يتمكن منها علم

---

(١) الأستاذ: عبدالمنعم حسن العسراوى – النفس والروح فى الفكر الإسلامى ص٧١ ط دار الهدى ١٩٥٣م.

(٢) وكلما كانت الهمة عالية، والنفس بالشرع قائمة؛ فإنها تنطلق فى حرية تامة، حتى ترتقى من الأمارة إلى اللوامة، ثم إلى المطمئنة، بحيث يخاطبها ربنا بقوله تعالى : ﴿يا أيتها النفس المطمئنة * ارجعي إلى ربك راضية مرضية * فادخلي في عبادي * وادخلي جنتي﴾.[سورة الفجر – الآيات ٢٧/٣٠] قال العلامة ابن عاشور : « والمطمئنة: اسم فاعل من اطمأن، إذا كان هادئا غير مضطرب ولا منزعج، فيجوز أن يكون من سكون النفس بالتصديق، لما جاء به القرآن الكريم دون تردد ولا اضطراب بال، فيكون ثناء على هذه النفس، ويجوز أن يكون من هدوء النفس بدون خوف ولا فتنة فى الآخرة ».[العلامة الطاهر بن عاشور – التحرير والتنوير – ج٣٠ ص٣٤٢] وذكر الإمام القرطبى: « إن النفس المطمئنة: هى الساكنة الموقنة، التى أيقنت أن الله ربها؛ فأخبتت لذلك.قال ابن عباس: وأى النفس المطمئنة بثواب الله. وعنه المؤمنة، وقال الحسن: المؤمنة الموقنة، وعن مجاهد أيضا الراضية بقضاء الله التى علمت أن ما أخطأها لم يكن ليصيبها، وما أصابها لم يكن ليخطئها. وقال مقاتل: الآمنة من عذاب الله، ﴿يا أيتها النفس المطمئنة﴾، وقيل: التى عملت على يقين بما وعد الله فى كتابه.. وقال ابن عطاء: العارفة التى لا تصبر عنها طرفة عين. وقيل: المطمئنة بذكر الله تعالى. بيانه: ﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾[سورة الرعد – الآية ٢٨] وقيل المطمئنة بالإيمان المصدقة بالبعث والثواب. وقال ابن زيد: المطمئنة؛ لأنها بشرت بالجنة عند الموت، وعند البعث، ويوم الجمع ». [الجامع لأحكام القرآن – القرطبى – ج١٠ ص٧١٤٨] وقال الإمام ابن القيم: « تسمى النفس بالنفس المطمئنة باعتبار طمأنينتها إلى ربها بعبوديته ومحبته، والإنابة إليه، والتوكل عليه، والرضا به، والسكون إليه، فإن سمة محبته وخوفه ورجائه منها قطع النظر عن محبة غيره ورجائه، فيستغنى بمحبته عن حب سائر ما سواه، فالطمأنينة إلى الله سبحانه حقيقة ترد منه سبحانه على قلب عبده، تجمعه عليه وترد قلبه الشارد إليه، حتى كأنه جالس بين يديه، يسمع به ويبصر به، ويتحرك به ويبطش به، فتسرى تلك الطمأنينة فى نفسه وقلبه ومفاصله إلى خدمته والتقرب إليه، ولا يمكن حصول الطمأنينة إلا بالله وبذكره، وهو كلامه الذى أنزله الله على رسوله، كما قال تعالى: ﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ ».[للعلامة ابن القيم – الروح ص٢٩٢]

المنطق، باعتبار أن موضوع المنطق هو التفكير الإنسانى ومعرفة صحيحة من فاسده. وعثه من سيمنه[١]، وبالتالى فمعرفه النفس لا تكون من موضوعات المنطق، إذن هذه المحاولة إنما تكون من وظائف الفلسفة، التى تعنى بالبحث عن معرفة حقيقة النفس البشرية وأنواعها.

بيد أن معرفة النفس البشرية تسوق إلى إدراك الوجود كله– الأنظولوجيا – والتعرف عليه كنظرية بغية معرفة أرجاء العالم الذى نعيش فيه ما هو؟ من أين ابتدأ؟ إلى أين يسير؟ ما هى نهايته؟ وما هى المبادئ والأسس التى يقوم عليها أو تنظم شئونه بما من السببية والنسبية، ثم الحتمية والضرورة، وهل لها وجودات فعلية أم تصورات ذهنية مجردة[٢]،ثم ما هى الغايات التى يهدف إليها هذا العالم، أو القواعد التى يمكن الاحتكام إليها فى التعامل معه، وحين التعرف عليه.

وليس هذا فى العالم المشاهد وحده – وإن كان هو المعنى – وإنما لابد من انضمام معرفتنا بالعالم الغائب الى العالم المشاهد، بحيث يمكن الوصول إلى مرحلة من الاطمئنان فى المعارف، وتزداد صلتنا به، كما نوثق معارفنا عن موجوداته على ناحية مأمونة، وحينئذ نتمكن من التعرف على موقعنا من هذا الوجود، بل ونحدد مكاننا عليه[٣].

وكم من فيلسوف وجد فى هذه التأملات الفنية غذاءه الروحى، وسلوى قلبه، وسعادة فى حياته[٤]، حتى جعلته يدرك العالم الذى يعيش فيه، وصلة هذا العالم بالنفس والروح من جهة، والعقل والوجدان تبعا لذات الجهة، ثم معرفة العالم الغائب والمشاهد فى حدود ما يحقق المعارف الجيدة، ويهيئ للعديد من الثقافة المستجدة، وما طريق ذلك إلا الفلسفة، فبان أن ذلك من وظائفها لا محالة

۞ **يقول الشيخ الديباوى:** « إن معرفة حقيقة النفس يضفى على العقل المهابة و الفخار، ويرسل للفؤاد إرسالا من الطمأنينة والهدوء، تندفع به إلى تخطى العديد من الحواجز، وتمزيق جملة من الأستار[٥]، التى صنعتها الخيالات وتحكمها الأساطير، وتحبكها الخرافات والأوهام.

۞ **وفى تقديرى:** أن علاج نوبات الذعر والقلق، بجانب عبور الخوف، وبرنامج الحياة الإيجابية للخروج من المأزق تصنعه الفلسفة[٦]، التى تُرسم الخطط، حتى تتمكن النفس من تجاوز أزماتها، طبقا للفطرة التى خلق الله تعالى الإنسان عليها، وجعل ذات النفس تقوم بها على الكمال والتمام، متى كانت صالحة لذلك، على منهج الشرع قائمة.

---

(١) الدكتور: محسن السيد زكريا – المنطق القديم ص٥٣ ط١/١٩٥٧م.
(٢) هذه الأسئلة مما يرد على الخاطر، ويحاول العقل البحث لها عن إجابات تكون كافية، أو على الأقل تكون وافية، وذلك مما يحرك العقل ويعمق التأمل.
(٣) راجع كتابنا: رياض الأشواق فى الميتافيزيقا والأخلاق ص٩١ .
(٤) الدكتور: توفيق الطويل – مدخل إلى الفلسفة ص١٦ .
(٥) الشيخ محمد أحمد الديباوى – الروح وأثارها الكونية ص٩٧ ط١/١٩٣١م.
(٦) جين وروبرت هاندلى – بولين نيف – كيف تتخلصين من القلق ص١٦ – ترجمة د: سهير محفوظ.

يقول أبو بكر بن باجة : « الفطرة الفائقة المعدة لقبول الكمال الإنسانى هى المعدة لقبول العقل الإنسانى، ثم لقبول عقل إلهى وهو عقل مستفاد من الله عز وجل لا يدرك، وهى الفطر التى تعلم الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الأخر والسعادة التى هى بقاء لا فناء معه، وسرور لا كدرات معه، والعلم إن يرى ببصيرة نفسه، التى هى موهبة من الله عز وجل الموجودات طبقا لكمال وجودها، فالذين يبلغون الكمال الإنسانى هم الذين يعلمون الله عز وجل ومخلوقاته، وما هذا العلم صورة لهم، وذلك هو الكمال العقلى »[1].

وقد تميز بالكمال العقلى كل الأنبياء، ثم يجيء بعدهم الأولياء، كما تميز بهذا النوع من الكمال العقلى الحنفاء من العرب، الذين حلقت نفوسهم فوق السحاب، فتأملوا الملكوت العلوى، ومنحهم الله صفاء يعلو بهم عن عبادة الأصنام والأوثان، من ذلك ما نقل عن زيد بن عمرو[2] الذى اعتزل عبادة الأوثان، وامتنع عن أكل ما ذبح باسمها، وكثيرا ما أنكر على قريش ذبحها على غير اسم الله قائلا: يا معشر قريش أيرسل الله قطر السماء، وينبت بقل الأرض، ويخلق السائمة فترعى فيه وتذبحونها لغيره[3]، إن العقل الصحيح يرفض ذلك السلوك غير السوى.

---

(١) الدين العلوى – رسائل فلسفية لأبي بكر بن باجة نصوص فلسفية غير منشورة ص١٧٥ طبعة دار الثقافة – بيروت – دار النشر المغربية – الدار البيضاء – المغرب .

(٢) زيد بن عمرو بن نفيل العدوي بن عم عمر بن الخطاب أمير المؤمنين ووالد سعيد بن زيد أحد العشرة روى عنه ولده سعيد وزيد بن حارثة وعامر بن ربيعة وعبد الله بن عمر بن الخطاب وأسماء بنت أبي بكر ، لم يدرك البعثة، وكان هجر عبادة الأوثان ورحل في طلب دين إبراهيم إلى الشام وغيرها قالت أسماء بنت أبي بكر لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل مسندا ظهره إلى الكعبة يقول يا معشر قريش والذي نفسي بيده ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيري وكان يحيى الموودة يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته لا تقتلها فأنا أكفيك مؤنتها وكان يقول اللهم لو أني أعلم أحب الوجوه إليك لعبدتك به ولكني لا أعلم ثم يسجد على راحلته، وكان يعيب على قريش ذبائحهم لغير الله، وعن ابن عمر قال: خرج زيد بن عمرو يطلب الدين فلقى عالما من علماء اليهود فسأله عن دينهم فقال انك لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله فقال لا أفر إلا من غضب الله، وفيه أنهم اتفقوا على أن الدين الحق دين إبراهيم ورجع فمات قبل أن يبعث النبي، وعن أسامة بن زيد بن حارثة قال خرجت مع رسول الله وهو مردفي فلقي زيد بن عمرو فقال له يا زيد ما لي أرى قومك أبغضوك قال خرجت ابتغي هذا الدين فذكر الحديث وفيه أن بعضهم قال له إن الدين الذي تطلبه قد ظهر ببلادك فرجع وأنزل على النبي بعده فقال النبي أنه يبعث يوم القيامة أمة وحده، وعن نفيل بن هشام بن سعيد بن زيد عن أبيه عن جده أن زيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل خرجا يلتمسان الدين حتى انتهيا إلى راهب بالموصل فذكر الحديث وفيه قال ابنه يعني سعيدا للنبي كان كما رأيت وكما بلغك فاستغفر له قال نعم فإنه يبعث يوم القيامة أمة وحده، وعن عامر بن ربيعة عن زيد بن عمرو أنه كان يقول أنا أنتظر نبيا من ولد إسماعيل ثم من ولد عبد المطلب ولا أراني أدركه وأنا اؤمن به وأصدقه واشهد أنه نبي فإن طالت بك مدة ورأيته فاقرأه مني السلام الحديث وفيه فرد عليه السلام وترحم عليه وقال قد رأيته في الجنة يسحب ذيولا قال سعيد توفي أبي وقريش تبني الكعبة ، وعن هشام بن عروة قال بلغنا أن زيد بن عمرو كان بالشام فبلغه مخرج النبي فأقبل يريده فقتله أهل مسعفة موضع بالشام.
[تهذيب التهذيب ج٣ ص٣٦٣ رقم: ٧٧٣]

(٣) الدكتور عبدالحليم محمود – التفكير الفلسفى فى الإسلام ج١ ص١٤ – مكتبة الأنجلو ١٩٥٥م.

د. من وظائف الفلسفة بصر النفس الإنسانية بذاتها وتعريفها حقيقتها وربط ذلك بالعالم الذى تعيش فيه بحيث يؤدى فى النهاية إلى الانتقال من المحسوسات إلى المعقولات. ومن معارف عالم المشاهد إلى محاولة فهم بعض أسرار العالم غير المشاهد، ومن ثم فمن ينكر وظائف الفلسفة. كما جحد البدهيات، وينكر الضروريات، ومثله لا يلتفت إلى قوله

٦- التوفيق بين النقل المنزل والمنتج العقلى[١]

من المعلوم أن النبوات السالفة، كانت تجيء معها معجزات تصدق النبى فى دعواه، إنه مبلغ عن الله، بحيث تكون هى البرهان الذى تقوم عليه حجته وتنتصب به دعوته[٢]، ولما كانت معجزات الأنبياء السابقين حسية، فقد كانت الكتب التى تنزل عليها، وصفا لتلك المعجزات فى الغالب الأعم، حيث تعرضها وتحكيها من البداية حتى النهاية، ولأنها كانت نبوات مؤقتة فى زمان بعينه، وخاصة بشعب أو جماعة بذاتها، فإذا انتهت نبوة النبى انقضت معجزته، بناء على أن الوصف ينقضى بانقضاء موصوفه[٣].

فلما بعث الله سيدنا محمدا خاتما للأنبياء والمرسلين، وجعل نبوته خاتمة للنبوات والرسالات، جاءت معجزته وصفية وعقلية وحسية ومعنوية أيضا[٤]، بل إن القرآن الكريم هو المعجزة الباقية الكاملة على كل ناحية، نصوصه مقدسة، دائمة باقية إلى يوم الدين، فيه الشفاء لكل ما فى صدور أهل الإيمان. قال تعالى: **﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا﴾**[٥]

❁ **يقول الإمام القرطبى** « اختلف العلماء فى كونه شفاء على قولين:

☆ **أحدهما** . أنه شفاء للقلوب بزوال الجهل عنها، وإزالة الريب، ولكشف غطاء القلب من مرض الجهل لفهم المعجزات والأمور الدالة على الله تعالى[٦].

---

(١) هذا من وظائف الفلسفة الإسلامية وحدها؛ لأن حكماء الإسلام هم الذين يؤمنون بالنقل المنزل، أما غيرهم فلا علاقة لهم به، كما أن من اشتغلوا بالتفلسف من اليونان أو غيرهم فى الماضى لم يكن لديهم علم بالنقل المنزل، كما أن من اشتغلوا به من اتباع المسيحية واليهودية قد طعنوا فى النقول التى بأيديهم، وأعلنوا انفصالهم عنها، حتى حاربوها وكشفوا عن بعض من أوجه تخريبها.

(٢) الدكتور محمد السيد فتح الله – القرآن المعجزة الخالدة ص٧١ ط أولى ١٩٧٦م.

(٣) راجع للشيخ محمد متولى الشعراوى – معجزة القرآن ج١ ص٧٨

(٤) الدكتور نورى مصباح بصار – القرآن الكريم المعجزة الكاملة ص٨٣ طبعة دار الهدى ١٩٥٧م.

(٥) سورة الإسراء - الآية ٨٢

(٦) وهو تأويل فيه اتجاه بالنقل المنزل نحو الهدف المتعدد فى أغراضه، وذلك من سمات إعجاز القرآن الكريم

☆**الثاني**: شفاء من الأمراض الظاهرة بالرقى والتعوذ ونحوه »[١].

فعن أبي سعيد الخدرى[٢] قال: بعثنا رسول الله ﷺ فى سرية ثلاثين راكبا، فنزلنا على قوم من العرب فسألناهم أن يضيفونا فأبوا. قال فليدغ سيد الحي فأتوا فقالوا: فيكم أحد يرقى من العقـوب؟ قال: قلت أنا نعم. ولكن لا أفعل حتى تعطونا. فقالوا: نعطيكم ثلاثين شاة. قال: فقـــرأت عليــه: ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ سبع مرات فبرأ. فبعث إلينا بالنُّزل وبعث إلينا بالشاء فأكلنا الطعام أنـــا وأصحابى وأبوا أن يأكلوا من الغنم، حتى آتينا رسول الله ﷺ فأخبرته الخبر، فقال: (وما يدريك أنها رقية)؟ قلت: يا رسول الله شيء ألقى فى روعى. قال: (كلوا وأطعمونا من الغنم)][٣].

وعن أم المؤمنين السيدة عائشة رضى الله عنها قالت: [إن النبى ﷺ كان ينفث على نفســه فى المرض الذى مات فيه بالمعوذات، فلما ثقل كنت أنفث عليه بهن، وأمسح بيد نفسه لبركتها][٤].

وعنها – رضى الله عنها – أيضا : [أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى قرأ علـــى نفســه المعوذتين وتفل أو نفث][٥].

۞ **ويقول الإمام الزركشي**: « إن أولى ما أعملت فيه القرائح، وعلقت به الأفكار اللواقح ، الفحــص عن أسرار التنزيل، والكشف عن حقائق التأويل، التى تقوم به المعالم، وتثبت الدعائم فهو العصمة الواقية، والنعمة الباقية والحجة البالغة، والدلالة الدافعة، وهو شفاء الصدور، والحكم العدل عــن

---

(١) تفسير القرطبى – ج٦ ص٦٩٣٢/٢٩٣٣ .

(٢) أبو سعيد الخدرى : هو سعد بن مالك بن سنان بن عبيد بن ثعلبة بن الأبجر وهو خدرة بن عوف بـــن الحـــارث بـــن الخزرج الأنصاري الخزرجي أبو سعيد الخدري مشهور بكنيته استصغر بأحد واستشهد أبوه بها وغزا هو ما بعدهـــا روى عن النبي ﷺ الكثير وروى عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وزيد بن ثابت وغيرهم روى عنه من الصحابة ابن عبـــاس وابن عمر وجابر ومحمود بن لبيد وأبو أمامة بن سهل وأبو الطفيل ومن كبار التابعين ابن المسيب وأبو عثمـــان النـــهدي وطارق بن شهاب وعبيد بن عمير وممن بعدهم عطاء وعيـــاض بـــن عبـــدالله بـــن أبي ســـرح وبشـــر بـــن ســـعيد ومجاهد ...وآخرون وهو مكثر من الحديث. وكان من أفقه أحداث الصحابة ومن أفاضل الصحابة، وحفـــظ حديثـــا كثيرا وروى الهيثم بن كليب في مسنده من طريق عبدالمهيمن بن عباس بن سهل بن سعد عن أبيه عن جده قال بـــايعت النبي صلى الله عليه وسلم أنا وأبو ذر وعبادة بن الصامت ومحمد بن مسلمة وأبو سعيد الخدري وسادس على ألا تأخذنـــا في الله لومة لائم فاستقال السادس وقيل مات سنة أربع وسبعين. راجع الإصابة لابن حجر – في: ذكر من اسمه ســـعد ساكن العين. في الفصل: ٣١٩٨[ص:٧٨]

(٣) الحديث أخرجه الدار قطنى فى سننه ج٣ ص٦٤، وهو عند البخارى – كتاب الطب – باب الرقى بفاتحة الكتاب بلفـظ : « خذوا واضربوا لى بسهم » حديث رقم ٥٧٣٦ .

(٤) أخرجه البخارى – كتاب الطب – باب الرقى بالقرآن والمعوذات . حديث رقم: ٥٧٣٥ .

(٥) أخرجه البخارى – كتاب المغازى – باب مرض النبى ﷺ ووفاته ز حديث رقم ٤٤٣٩، وأخرجه مســـلم – كتـــاب السلام – باب استحباب رقية المريض ج١٤ ص١٨٢ .

ولا يحيط بوصفه على الإطلاق ذو اللسان الطلق، فالسعيد من صرف همته إليه، وقف فكره وعزمه عليه، والموفق من وفقه الله لتدبره، واصطفاه للتذكير به وتذكره، فهو يرتع فى رياض، ويكرع[١] منه حياض »[٢].

والقرآن الكريم هو حبل الله المتين والذكر الحكيم، ففى الحديث الشريف عن الحارث الأعور[٣] قال« مررت في المسجد.فإذا الناس يخوضون في الأحاديث فدخلت على علي فقلت يا أمير المؤمنين ألا ترى أن الناس قد خاضوا في الأحاديث قال وقد فعلوها قلت نعم قال أما إني قد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ألا إنها ستكون فتنة فقلت ما المخرج منها يا رسول الله قال كتاب الله فيه نبأ ما كان قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم وهو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله وهو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم هو الذي لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ولا يشبع منه العلماء ولا يخلق على كثرة الرد ولا تنقضي عجائبه هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد من قال به صدق ومن عمل به أجر ومن حكم به عدل ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم»[٤].

ولا شك أن القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة الصحيحة قد تعرضا للحديث عن قضايا تتعلق بالعالم المشاهد، والعالم الغيبى، حديثا مستفيضا فى بعض الجوانب، أو مقتصدا فى بعض الأخرى، طبقا لما يستلزمه المعروض نفسه، أو تطيقه العقول التى تبذل جهودها فى التعرف عليه،

---

(١) كرع فى الماء أو الإناء كرعا، كرعا = تناوله بفيه من موضعه، والحياض: جمع حوض وهو مجتمع الماء، ومنه حوض البحر وحوض النهر- المعجم الوجيز ص٥٣١، ١٨٧ .

(٢) الإمام الزركشى - البرهان فى علوم القرآن جـ١ ص٣ طبعة المكتبة العصرية - صيدا - بيروت - تحقيق أبو الفضل إبراهيم. والإمام الزركشى هو محمد بن بهادر بن عبدالله الزركشى أبو عبدالله بدر الدين . عالم بفقه الشافعية والأصول، تركى الأصل، مصرى المولد والوفاة. له تصانيف كثيرة فى عدة فنون منها: لقطة العجلان، البحر المحيط) فى أصول الفقه. ولد سنة ٧٤٥هـ/١٣٤٤م، وتوفى سنة ٧٩٤هـ/١٣٩٢م . [راجع الأعلام للزركلى جـ٦ ص٦٠]

(٣) الحارث الأعور وهو بن عبد الله ويقال بن عبيد أبو زهير الهمداني الخارفي الكوفي روى عن علي وعبد الله بن مسعود روى عنه عبد الله بن مرة وأبو إسحاق والضحاك بن مزاحم. [الجرح والتعديل ج٣ ص٧٨ رقم٣٦٣]

(٤) الإمام الترمذى - سنن الترمذي ج٥ ص١٧٢ - [١٤] باب ما جاء في فضل القرآن - الحديث:٢٩٠٦، وأخرجه الدارمي - سنن الدارمي ج٢ ص٥٢٦ - الحديث:٣٣٣١ ، مصنف ابن أبي شيبة ج٦ ص١٢٥ - الحديث:٣٠٠٠٧ .
وعن معاذ بن جبل قال « ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما الفتن فعظمها وشددها فقال علي بن أبي طالب يا رسول الله فما المخرج منها فقال كتاب الله فيه حديث ما قبلكم ونبأ ما بعدكم وفصل ما بينكم من تركه من جبار قصمه الله ومن تبع الهدى في غيره أضله الله هو حبل الله المتين والذكر الحكيم والصراط المستقيم هو الذي لما سمعته الجن قالت إنا سمعنا قرآنا عجبا هو الذي لا تختلف به الألسن ولا تخلقه كثرة الرد ». [العلامة الطبراني - المعجم الكبير ج٢٠ ص٨٤ رقم:١٦٠]

كالحديث عن اندماج السماوات والأرض، ثم انفصال كل منها عن الأخرى، مع ارتباطهما معا فى رباط كونى واحد محكم، إلى أن يأذن الله تعالى.

من ذلك قوله تعالى: ﴿أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون﴾[١].

فالآية الكريمة لفتت الأنظار إلى التأمل فى حقيقة كونية ثابتة، هى أن السماوات والأرض متساوية فى الأعداد[٢]،متجانسة فى الأصول، كانتا رتقا من مادة واحدة، فى كتلة واحدة، ثم حدث لكل منها تعريف من الاستقلال ففتقناهما، وهى حقيقة واضحة للعيان، فالأرض مفروشة تحتنا، والسماء سقف محفوظ يظلنا. قال تعالى **﴿ أولم ير الذين كفروا أن السماوات والارض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون* وجعلنا في الارض رواسي أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون * وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون﴾[٣].**

و لم يكن المنتج العقلى قد بلغ رشده، حتى يعرف تلك الحقيقة الثابتة، بل كان يصدر بعض الأحكام التى أمكنه الوقوف عليها، ويظنها أصحابها يقينية، مع أنها قد تأتى مخالفة لظواهر النقل المنزل، وبالتالى فلابد من عملية عقلية يتم بها إزالة ذلك التخالف، من غير طعن على النقل الصحيح، أو قفز فوق النتائج الصحيحة للعقل السليم، وهو ما عرف فى الفكر الإسلامى بقضية التوفيق بين النقل والعقل، أو بين الدين والفلسفة[٤].

إذن من وظائف الفلسفة الإسلامية وحدها التوفيق بين النقل والعقل، أو بين الدين والفلسفة ولذا فقد تولى القيام به حكماء الإسلام كالكندى فيلسوف العرب، والفارابى المعلم الثانى، والشيخ الرئيس ابن سينا وغيرهم فى المشرق الإسلامى، وابن باجة وابن طفيل، وابن رشد وغيرهم فى المغرب

---

(١) سورة الأنبياء – الآية ٣٠ . يقول صاحبا تفسير الجلالين: « أو لم يعلم الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا سدا بمعنى مسدودة ففتقناهما جعلنا السماء سبعا والأرض سبعا أو فتق السماء أن كانت لا تمطر فأمطرت وفتق الأرض أن كانت لا تنبت فأنبتت وجعلنا من الماء النازل من السماء والنابع من الأرض كل شيء حي من نبات وغيره أي فالماء سبب لحياته أفلا يؤمنون بتوحيدي » [تفسير الجلالين ج١ ص٤٢٣]

(٢) قال تعالى: ﴿الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما﴾ [سورة الطلاق – الآية ١٢]

(٣) سورة الأنبياء – الآيات ٣٠/٣٢ .

(٤) بذل بعض مفكرى المسلمين فى هذه القضية مجهودات كثيرة، بل إن بعضهم عرف بها. [راجع للشيخ حسين بن محمد الأنصارى – قضية التوفيق بين الدين والفلسفة ص١٣٥ وما بعدها، وللدكتور محمد البهى – الجانب الإلهى من التفكير الفلسفى]

الإسلامى[1]، وقد تأثر بهم جمع غير قليل من الفلاسفة الذين جاءوا بعدهم وحملوا مشاعل الحضارة للإنسانية.

◈ وربما تسألنى: لماذا كان التوفيق بين النقل والعقل من عمل مفكرى الإسلام وحدهم؟

والجواب: أن المفكر المسلم وحده الذى يعرف النقل المنزل الصحيح، ثم دائم التأمل فى نصوص النقل المنزل، وفى ذات الوقت دائم التأمل فى الكون المنظور، حتى إنه من كثرة تأملاته أمكنه الوقوف على حقيقة هامة هى أن هناك قضايا تناولتها النصوص الدينية، وتناولتها الفلسفة، لكن وجدت هناك فروق فى التناول، وقد « ينتهى إلى وجود نوع من التخالف فى العرض والنتائج، أو الأحكام المترتبة، وهو على يقين من صحة النتائج العقلية، كما هو على كل اليقين فى صدق وصحة النصوص الدينية، وبالتالى فقد رأى أن من الواجب عليه إيجاد نوع من التقارب بين ما جاء فى النقل المنزل، وما انتهى إليه العقل الصحيح »[2].

فكان له فى ذلك الجانب بجهود أخر أثبت استقلال المفكر المسلم عن غيره، كما أبان عن عقلية واعية متميزة، تجعل من أولى واجباتها الدينية والعلمية إثبات أن العقل الصريح لا يخالف النقل الصحيح، وإنما يتعاونان[3]، وقد قام المفكرون المسلمون بذلك الدور خدمة للنقل والعقل معا، بل إن بعضهم جعل تلك القضية من الأولويات التى لا يجوز تأخيرها، ولشدة ولع البعض بها، فقد جعل عنوان مؤلفاته أو بعضها تحت ذات الموضوع[4].

◈ يقول الشيخ الفكهانى: « لقد كانت جهود الفلاسفة المسلمين قائمة على تأمل النقل المنزل وحده أول الأمر، ثم محاولة استخراج الظواهر الكونية من الظواهر النقلية، باعتبار أن القرآن الكريم هو الكتاب المقروء، والكون هو الكتاب المنظور، وكان ذلك هو شاغلهم الأكبر أول الأمر أيضا، غير أنهم أضافوا إلى ذلك محاولة جديدة، تقوم على التوفيق بين نصوص النقل ومجهودات العقل، أو بين الوحى[5] الإعلامى والوحى الإلهامى[6].

---

(١) راجع كتابنا: ملامح الحكمة الإسلامية فى المغرب، وكتابنا ابن باجة مفكرا .

(٢) راجع قواعد ذلك فى المطالب العالية للإمام الرازى ج٧ ص٨ تحقيق د: أحمد حجازى السقا.

(٣) وقد نبه إلى ذلك الإمام محمد عبده فى كتابه رسالة التوحيد، حيث ذكر هذه المؤاخاة، بين ملامحها فى عبارة وجيزة، تحمل البلاغة على العديد من النواحى.

(٤) من ذلك ما نقله شيخ الإسلام ابن تيمية فى كتابه/ درء تعارض العقل و النقل، أو موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول.

(٥) وردة مادة الكلمة فى القرآن الكريم ثمان وسبعين مرة. [راجع للاستاذ محمد فؤاد عبدالباقى – المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم – باب الواو ص٧٤٦/٧٤٧ .

(٦) الشيخ منصور بن محمد الفكهانى – بين الدين والفلسفة ص٣٥ – ط الأستانة.

باعتبار أن الوحى الإعلامى هو الذى يجيء به ملك الوحى سيدنا جبريل الأمين على قلـــب كل نبى من الأنبياء و رسول من المرسلين، أما الوحى الإلهامى فهو ما يلقيه الله تعالى للمخلوقـــات مباشرة، سواء أكان ذلك المخلوق إنسانا، كالحال مع أم موسى كليم الله عليه السلام[1]، قـــال تعـــالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ[2] وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّـــا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[3].

أم كان ذلك المخلوق الموحى إليها حيوانا أو حشرة، لقوله تعالى: ﴿ " وَأَوْحَى رَبُّـــكَ إِلَـــى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ " ﴾[4].

أم كان المخلوق جمادا لقوله تعالى: ﴿ " وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَـــا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ" ﴾[5]،. وقال تعالى : ﴿ " بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا " ﴾[6].

هذا بخلاف الوحى، بمعنى تزيين الباطل، الذى تقوم به الشياطين مع أوليائهم، الذين يرضخون لهم، ويسقطون تحت أعتابهم. قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـــادِلُوكُمْ وَإِنْ

---

(١) قال تعالى: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى﴾ [سورة طه – الآية ٣٨]

(٢) اليم : البحر . [المعجم الوجيز ص٦٨٧]

(٣) سورة القصص – الآية ٧ . يقول العلامة الفخر الرازى: « فإذا خفت أن يتعرف جنود فرعون عليه، أو ينالوه، فيقع لـه منهم سوء، فأرضعيه، حتى الشبع، ثم اتخذى حيلة تضمن عدم غرقه ثم إلقاؤه فى اليم دفعاً إلى قريب من جريان الماء، ولا تخافى عليه الغرق، فإن الله سوف ينجيه منه، ويرده إليك، وسيكون نبيا كريماً... . وقوله ﴿ أن أرضعيه ﴾ دلالة علـــى إرضاعه، فإذا خافت عليه أن يسمع به أحد من الجيران فألقيه فى اليم، والله هو الحافظ له، حتى يصل إلى المكان الـــذى أراده له ». [الإمام الفخر الرازى – مفاتيح الغيب – مكتبة الإيمان ط١ ج٢٣ ص٢٤٩] ويذهب العلمـــاء إلى أن فى الآية أمرين، ونهيين، وبشارتين: أما الأمران فهما: ١- إرضاعه عليه السلام حتى الشبع. ٢- إلقاؤه فى اليم. أما النـــهيان فهما: ١- عدم الخوف عليه. ٢- عدم الحزن عليه. أما البشارتان فهما: ١- إرجاعه إلى أمه. ٢- جعله نبياً.

(٤) سورة النحل آية ٦٨. يقول العلماء : » قبل أن يستخدم الإنسان النحل ، كانت تربيته بريه ، وعندما فكر الإنســان فى استغلاله ، اتخذ مساكن التربية مشابهة بقدر الإمكان للمساكن الطبيعية ، وكان النحل يبـــنى أوكـــاره فى الفجـــوات الموجودة بين الصخور ، وفى جذوع الأشجار المجوفة ،وكثيرا ما بنى وما زال يبنى أقراصه الشمعية فى العـــراء ، متخـــذا الأماكن التى يسهل حمايتها من العوامل الطبيعية ، ويتوالد فيها ويخزن العسل ، وكان يتحصل على العسل من مثل هـــذه الأماكن ، بعد طرد النحل ، أو إهلاكه كليا أحيانا « .[نحل العسل – عبدالخالق وفا ص ٥٧ ط دار الغـــد العـــربى]، وفى قوله تعالى: ﴿ " من الجبال ومن الشجر ومما يعرشون " ﴾. يقول العلامة البيضاوى:» ذكر بحرف التبعيض (مـــن) ،لأنها لا تبنى فى كل جبل ، وكل شجر ،و كل ما يعرش من كرم أو سقف ، ولا فى كل مكان منها ، وإنما سمـــى مـــا تبنيه ؛ لتتعسل فيه بيتا تشبيها ببناء الإنسان ، لما فيه من حسن الصنعة ، وهى القسمة التى لا يقـــوى عليـــها حـــذاق المهندسين بآلات معينة «[تفسير البيضاوى ص ٢٦٩]

(٥) سورة فصلت الآية ١٢

(٦) سورة الزلزلة الآية ٥ .

أطعتموهم إنكم لمشركون﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الانس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون﴾[2].

والذى تطمئن إليه النفس أن مفكرى المسلمين كانوا يهتفون من أعماقهم طربا بالنقل المترل جباله، واحتراما لتعاليمه، وأنهم كانوا سباقين فى كل المحاولات التى قاموا بها، حتى يخدموا النقل المترل، ويبلغوه للناس تارة، كما يبلغون معانيه وأحكامه، وفوق ذلك فهم يعملون بكل طاقاتهم العقلية والفكرية، حتى يوفقوا بين الدين والفلسفة، أو بين العقل والنقل، بحيث تبرز أوجه للناس إعجاز جديدة، تضاف إلى الأخرى، التى تمكن من الإعلان عنها علماء التفسير وعلماء العقيدة أو علماء الحديث والسير.

كما أنهم قد نظروا إلى موضوعات الفلسفة نظرة فيها الكثير من الروية والتأنى، بجانب العناية والاهتمام، وأيقنوا أن من وظائفها التوفيق المستمر بين الدين والفلسفة، وتقديم خدمات علمية على جانب عقلى فكرى[3]، وقد حققوا فى ذلك أعلى درجات النجاح، كما أيقنوا أن خدمة النقل المترل تجىء مع التأمل العقلى أيضا.

٧- إقامة الأدلة المستجدة على وجود الله تعالى وصفاته[4]

عنى الإسلام بإقامة الأدلة المتنوعة على وجود الله تعالى، كل فى مجال تخصصه، منها الأدلة النظرية، ومنها الأدلة العلمية، وبعضهم أقام أدلته على النقل المترل وحده، وهم أصحاب الأدلة النقلية، وبعضهم أقام أدلته على القضايا اللفظية المتعلقة بأوجه الإعجاز اللغوى فى القرآن الكريم، وهكذا تعددت الاتجاهات الإسلامية فى إقامة الأدلة على العقيدة الإسلامية.

بيد أن الفلسفة العامة، قد شغلت نفسها بقضايا وأمور تتعلق بالفلسفة العامة كموضوعات لها وسائل متعلقة بها، أما الحكمة أو الفلسفة الإسلامية التى هى عمل المسلمين العقلى، فقد كان من

---

(١) سورة الأنعام – من الآية ١٢١ . ويقول الإمام القرطبى :» آيات الأنعام نزلت بسبب أناس أتوا النبى ، فقالوا : يا رسول الله إنا نأكل ما نقتل ، ولا نأكل مما قتل الله ، فنزلت :﴿ " فكلوا مما ذكر اسم الله عليه " ﴾ » ، بل وصل الأمر إلى أكثر من هذا ، قال عطاء :» هذه الآيات أمر بذكر اسم الله ، على الشراب والذبح وكل مطعوم «[تفسير القرطبى جـ٣ ص ٢٥٩٣]

(٢) سورة الأنعام – الآية ١١٢ .

(٣) راجع كتابنا: رياض الأشواق فى الميتافيزيقا والأخلاق ص٥٤ وما بعدها.

(٤) ربما يقال: إن هذا دور علم الكلام، فما هى الزيادة التى جاءت بها الفلسفة الإسلامية، وذلك ما سوف أعرضه فى صفحات مقبلات من هذا الكتاب – إن شاء الله تعالى – .

وظائفها الحقيقية إقامة الأدلة الجديدة على وجود الله تعالى على الناحية العلمية والنظرية معا[1]، بجانب التمسك بأهداب النقل المنزل، ومحاولة التفهم الجيد لأهدافه وغاياته ومراميه، والدفاع عن ذلك كله بالعديد من الطرائق الصحيحة.

وإذا كانت الفلسفات السابقة قد ضلت سبيلها في الوصول إلى الله تعالى؛ لأنها اعتبرته غائبا، وراحت تبحث عنه – مع أنه أظهر من كل شيء، بل إن ظهور كل الأشياء منه – جل علاه – وهذا التصرف غير اللائق من الفلسفات القديمة في جانب الله تعالى هو الذى جعلنا نبغضها من أجله وننفر منها بسببه؛ لأن الله تعالى لم يغب أبدا، حتى نبحث عنه، وهى لذلك فلسفة كافرة[2]، لا صحة لها ولا ثبات لقضاياها أو مسائلها.

أما الفلسفة الإسلامية، فقد قامت الأدلة على وجود الله تعالى، إنها تعتقد في وجود الله تعالى وسائر صفاته التي أخبر بها، والفلاسفة المسلمون يقومون بالاستدلال على وجود الله تعالى، لا بالبحث عن الله تعالى، والفرق بين المفهومين كبير[3].

❖ **ربما يقال:** إن علم الكلام يقدم الأدلة على وجود الله تعالى، والفلسفة الإسلامية تقدم ذات الأدلة على وجود الله تعالى، فهل هما شيء واحد[4]؟

☞ **والجواب** : أن أدلة أغلب المتكلمين حول إثبات القضية تقوم على :

✽ **١ـ دليل الحدوث:**

أ- حدوث الجواهر . ب- حدوث الأعراض .

✽ **٢ـ دليل الإمكان:**

أ- إمكان الجواهر . ب- إمكان الأعراض .

☞ **أما الفلسفة الإسلامية فإنها تقدم أدلة عديدة تقوم على** :

أ- دليل الخلق .
ب- دليل الاختراع .
د- دليل الخلق المباشر.

---

(١) راجع للشيخ محمد محمد أبو موسى – الإسلام والفلسفة ص٣٧ ط أولى ١٩٤٦م .
(٢) الدكتور: صبرى مرسى الجعار –الفلسفة وأخطاؤها ص٧٣ ط٢/ ١٩٧٥م .
(٣) راجع كتابنا: قيمة الصراع بين الفلسفة الإسلامية وعلم الكلام ص٤٥ حيث تناولت صور هذا الفرق، وأكدت على أن الفلسفة الإسلامية وعلم الكلام في الإسلام يهدفان إلى غاية واحدة، ويسعيان لإقامة الأدلة المتعددة على إثبات العقيدة الإسلامية والدفاع عنها، ولكن مناهجهما مختلفة.
(٤) الدكتور: عبدالعزيز حسن المندل – بين الفلسفة وعلم الكلام ص١٣٧ .

◉ **يقول فيلسوف قرطبة:** الطريقة التى نبه الكتاب العزيز عليها، ودعا الكل من بابها، إذا استقرئ الكتاب العزيز، وجدت تنحصر فى جنسين:

✫ **أحدهما:** طريق الوقوف على العناية بالإنسان، وخلق جميع الموجودات من أجله، ولنسم هذه دليل العناية.

✫ **الطريقة الثانية:** ما يظهر من اختراع جواهر الأشياء والموجودات، مثل اختراع الحياة فى الجماد والإدراكات الحسية والعقل، ولنسم هذه دليل الاختراع[١].

كما أن علم الكلام يبتدئ قضاياه من مقدمات نقلية غالبا، وأن صيغت فى عبارات منطقية فلا تبعدها ذات الصياغة عن النصوص القائمة عليها، اما الفلسفة الإسلامية فإن قضايا عقلية سواء أجاءت صياغتها على لغة المنطق النظرى أم المنطق التجريبى، أم جاءت سافرة على لغتها الفلسفية بما فيها من غموض أو صعوبة.

ومن الشواهد الدقيقة على هذا الفرق الكبير بين استدلالات المتكلمين وبراهين الفلاسفة فكرة الخلاء الممتد، التى ذهب المتكلمون القدماء إلى أنها فكرة واقعية جديرة بالتقدير والاهتمام[٢]، بينما ذهب المحدثون إلى أنها من صنائع أفكار الفلاسفة، الذين كان همهم الأول الانطلاق نحو المعرفة بأقصى سرعة، و من أوسع طريق[٣]، باعتبار أن الفكر الذى يلتزم به الفيلسوف ما هو نتاج تأملى، لا يجمد على موضوع الفلسفة وقضاياه[٤].

كما أن فكرة اللانهائى التى عاشت فى أحضان الفكر اليونانى قديما، حيث ولدت فيه، ثم تربت صغيرة تبحث عن الماهية الفكرية فترة طويلة من الزمان، ثم انتقلت هذه الفكرة الفلسفية إلى

---

(١) ابن رشد – مناهج الأدلة فى عقائد الملة مع مقدمة فى نقد مدارس علم الكلام ص١٥٠ مكتبة الأنجلو المصرية، ثم يقول فهذان الدليلان هما دليلا الشرع، أما أن الآيات المنبهة على الأدلة المفضية إلى وجود الله تعالى فى الكتاب العزيز، فهى منحصرة فى هذين الجنسين من الأدلة، وذلك بين لمن تأمل الآيات الواردة فى الكتاب العزيز فى هذا المعنى، وذلك أن الآيات التى فى الكتاب العزيز فى هذا المعنى إذا تصفحت وجدت على ثلاثة أنواع: إما آيات تتضمن التنبيه على دلالة العناية، وإما آيات تضمن التنبيه على دلالة الاختراع، وإما آيات تجمع الأمرين الدلالة جميعا. [المصدر نفسه ص١٥٢]

(٢) الدكتور: سامى لطف الله يعقوب – القضايا الكلامية والفلسفية ص١٢٢ .

(٣) الدكتور يوسف زكى عوض الله زكى – الفلسفة نظريات ومذاهب ج٢ ص١٧٥ طبعة أولى ١٩٥١م.

(٤) الدكتور أحمد عبده حموده الجمل – مفهوم الفكر المادى ص١٠٦ بحث مستل من حولية كلية أصول الدين بالقاهرة – العدد الثانى عشر ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

الفكر الرياضى مع بعض التعديل فيها، وظلت تلازمه مع الرغبة فى استمرار التعديل الذى هيأها لتكون فيما بعد فكرة أكثر نضجا وأقرب إلى البرهان[١].

فلما نظر إليها المفكرون المسلمون، ورأوا أنها لا تخالف النصوص الشرعية، بل على العكس تؤيدها وتدافع عنها مع المحافظة عليها انطلقوا إليها، غير أن فلاسفة الإسلام قد تلفقوا فكرة اللانهائى ثم استعملوها لإثبات نهائية المكان والزمان والحركة أولا، واستطاعوا القيام بدور متميز فى التعامل معها من جديد[٢]، وكان الفيلسوف الكندى أول من مهد لذلك الطريق على الناحية الرياضية.

غير أن المتكلمين هم الآخرون قد أخذوا فكرة اللانهائى، ثم انتهوا إلى ضرورة القول بانعدام اللانهائى العددى والطبيعى، وكذلك الحسابى، كما أثبتوا أن الأرقام ما هى إلا مفاهيم ذهنية مفترضة، بغية الانتهاء إلى أنه ما من شيء إلا وهو متناه سواء على ناحية الحقيقة الواقعية أم على ناحية المفاهيم الذهنية، أما اللانهائى المطلق من كل ناحية فهو الله سبحانه وتعالى، وكان ذلك التطور العقلى أحد مميزات الفكر الكلامى[٣].

. كما أن المفكر المسلم لم أعاد النظر فى فكرة اللانهائى، انتهى إلى أنها مجرد فكرة عقلية ميتافيزيقية، ثم استخدمها لإثبات وجود الله تعالى وتفرده ل علاه بالوحدانية، وسائر صفات الجلال والكمال والجمال والإكرام، بل وأزليته وأبديته جل علاه، فكأنه استفاد بها من ناحية إثبات الذات الإلهية، كما استفاد بها من ناحية إثبات الصفات الإلهية.

إذن يمكن القول بأن الحكمة الإسلامية أو الفلسفة، يمكنها أن تلعب دورا هاما فى إثبات وجود الله تعالى، وتقدم أدلة جديدة فى هذا المجال، تساير الزمان على كل ناحية، ولا تتوقف عند مجرد الاتجاهات العقلية فى مرحلة من المراحل، وإنما تتعداها جميعا، كما أن مفكرى الإسلام كانوا حكماء علي كل جانب ولجوه، وكل ناحية انطلقوا منها، فالإمام الرازى المتكلم الأشعرى، يقدم نموذجا متميزا فى باب للاستدلال على وجود الله تعالى على الناحية الفلسفية، حيث يقرر أن خلق الله تعالى للأرضين على الماء لهو من أكثر الأدلة دقة، وأوفاها فى إثبات وجود الله تعالى وقدرته؛ لأن من يبنى على الأرض فقد ساعدت الأرض الصلبة على إمساك ما بناه، أما من يبنى على الماء فهو وحده الذى يمسك ذلك البناء ويبقيه[٤].

---

(١) والملاحظ أن فكرة اللانهائى الميتافيزيقية ظلت تجرى فى الفلسفات القديمة ومن سار فى ركبها، حتى القرن الثامن عشر، وهى تمثل نوعا من الإقرار بوجود الله تعالى كمبدأ عقلى مجرد يعلل به أمر وجود الكون فقط، لا كمعبود له من صفات الجلال والجمال والكمال ما جاء فى العقيدة الإلهية المنزلة. [أرثر لفجوى – سلسلة الوجود الكبرى ص٤٩ وما بعدها]
(٢) راجع كتابنا:التفكير الإنسانى أصوله ومستوياته ص٨٥، وكذلك كتابنا: حبو الوليد فى علم التوحيد ص١١٥ .
(٣) الشيخ نور الدين محمد نصر الله – الحركة العقلية الإسلامية ص٩٧ ط دار حكمت ١٩٥٧م.
(٤) الإمام الفخر الرازى – مفاتيح الغيب ج١٢ ص٣٥ .

ويقرر الشيخ الديناري: أن الرازى تنازعه الفلسفة وعلم الكلام، ولا يمكن حسبانه مع الفلاسفة وحدهم، بل هو فى منظومة الفلاسفة أدخل بالضرورة، ولا يقلل ذلك من دفاع الأشاعرة[١] عنه كمتكلم أشعرى، وعدم إعلان الفلاسفة أنه أحدهم؛ لأن العبرة بالمطروحات الفكرية، وهى بالنسبة لفكر الرازى تجعله فى قمة المعبرين عن الفلسفة[٢].

وبعيدا عن ما قرره الشيخ الدينارى، فإن القضايا الفكرية والمجهودات العقلية التى ينهض لها الإمام الرازى، وجاء تناوله لها فى تفسيره، أو فى مؤلفاته الكلامية، أو فى مؤلفاته الفلسفية هى التى تشهد بأنه كان فيلسوفا مبدعا، فقد كان مفكرا من أبرع المفكرين المسلمين، وأكثرهم حرصا على ممارسة التفكير العقلى بأوسع معانيه[٣]، وكان فى كل خطواته يقدم الأدلة المتعددة على إثبات العقيدة الإسلامية والدفاع عنها، ويفتح الباب على مصراعيه للبحث العقلى، كأنه يرد على القائلين بأن الإسلام يرفض التفكير العقلى الحر، وردوده كلها جاءت على الناحية العلمية، فيما يحتاج إليها، والنظرية فيما يكون إليها أدخل، فكان بحق من أكثر المفكرين سبقا لاستخدام العلم التجريبى المعملى فى باب الاستدلال على العقيدة الإلهية والدفاع عنها[٤]، وكان فى ذلك منهجا تميز به الإمام الفخر الرازى.

من ثم فلا نعجب عندما نقرأ لفيلسوف قرطبة الذى قرر أن معرفة الله تعالى تأتى عن طريق النظر العقلى والتأمل الفكرى، كما تجيء عن طريق النقل المنزل، حيث يذكر أن النظر فى كتب القدماء واجب بالشرع، إذ كان مغزاهم فى كتبهم ومقصدهم هو المقصد الذى حثنا الشرع عليه، وأن من نهى عن النظر فيها من كان أهلا للنظر فيها، وهو الذى جمع أمرين: أحدهما زكاء الفطرة[٥]،

---

(١) هو لقب يطلق على أصحاب الإمام أبى الحسن على بن إسماعيل الأشعري المتوفى فى ٣٣٠هـ، والذى قدم بغداد وأخذ الحديث عن زكريا بن يحيى الساجي وتفقه بابن سريج، وذكر ابن خلكان أنه كان يجلس فى حلقة الشيخ أبى إسحاق المروزي وقد كان الأشعري معتزليا أول أمره، وتتلمذ على يد شيخهم أبى على الجبائى، وأقام على الاعتزال حتى سن الأربعين، فتاب منه بالبصرة فوق المنبر، ثم أظهر فضائح المعتزلة وقبائحهم، وذلك بالأدلة والبراهين، مدافعا عن عقائد السنة، فانتشر المذهب الأشعرى فى العراق ثم فى مصر وسوريا وبلاد المغرب العربى وأخيرا اعتنقه العثمانيون، فانتشر فى أسيا الوسطى، وللإمام الأشعرى من الكتب الموجز وغيره وحكى عن ابن حزم أنه قال للأشعري خمسة وخمسون تصنيفا وذكر أن مغله كان في كل سنة سبعة عشر ألف درهم وأنه كان من أكثر الناس دعابة وأنه ولد سنة سبعين ومائتين، ومات في سنة بضع وثلاثين وثلثمائة. [الأستاذان: عبد الأمير على مهنى وعلى خريس - جامع الفرق والمذاهب الإسلامية ص٢٠/٢٣ (بتصرف) - المركز الثقافى العربى - بيروت سنة ١٩٩٢م].

(٢) الشيخ عبدالعظيم منصور الدينارى – دراسات فى الفكر الإسلامى ص١٩٥ طبعة دار نصرت بالأستانة ١٣١٥هـ، وراجع الرازى والحكمة القرآنية للدكتور عبدالحميد سلامة.

(٣) الشيخ نور الدين محمد الأنباوسى – الفخر الرازى وفلسفته ص١٢٥ طبعة الدار القومية ١٣١٥هـ.

(٤) الشيخ حسن محمد السيد – دراسات فى الفكر الإسلامى ص١٢١ ط أولى ١٣٣٥هـ.

(٥) الذكاء الفطرى ملكة يخلقها الله تعالى فى العبد تمكنه من التحليل والتركيب والتميز والاختبار، كما تعينه على التكيف إزاء المواقف المختلفة. [الدكتورة تمان لطفى مصطفى – الذكاء والقدرات العقلية ص١٧٣ ط٢/١٩٧١م]

والثانى العدالة الشرعية والفضيلة العلمية والخلقية[١]، فقد صد الناس عن الباب الذى دعا الشرع منه الناس إلى معرفة الله، وهو باب النظر المؤدى إلى معرفته حق المعرفة، وذلك غاية الجهل والبعد عن الله تعالى[٢].

وفيلسوف قرطبة يتفق مع غيره من مفكرى المسلمين فى أن من وظائف الفلسفة إقامة الأدلة المتعددة على وجود الله تعالى على وجه الخصوص، والعقيدة الإسلامية على وجه العموم، بجانب الدفاع عن تلك العقيدة الإلهية، ويرجح هذا الرأى: أن الفلسفة معناها الحكمة، وهى حجة العقل على وفق أحكام الشرع، دليل ذلك قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾[٣] أى « قولا يوافق العقل والشرع »[٤].

◈ وربما تتساءل قائلا: أين الدليل على أن الفلسفة تقيم الأدلة على وجود الله تعالى من كلام الفلاسفة أنفسهم؟

والجواب: أن الكندى قدم ثلاثة أدلة لإثبات وجود الله تعالى :

✽ الأول: دليل الحركة الحادثة:

ذلك أنه لما كان الكندى متكلما معتزليا، وفيلسوفا ورياضيا وعالما من النوع المتميز، فقد قرر أنه ما من شيء فى الكون إلا وهو متحرك، باعتبار ما من الاعتبارات المختلفة، وهذه الحركة دليل حدوث المتحرك نفسه، وكل متحرك محدث لا محالة، بحدوث الحركة، وبالتالى يستحيل أن يوجد المحدث نفسه، كما أن كل حركة متناهية بتناهى أجزاء الزمان الواقعة فيه، ومادامت أجزاء الزمان متناهية فإنها تكون حادثة.

يقول: يمتنع أن يكون جرم لم يزل، فالجرم إذن محدث اضطرارا، والمحدَث مُحدث المحدِث، إذ المحدث والمحدث من المضاف، فالكل محَدث اضطرارا عن ليس[٥].

---

(١) يقصد بالعدالة الشرعية ملكة مكتسبة تقوم على التزام القواعد التى جاء الشرع الشريف حفظا لها، وقياما بها حتى تصير خلقا كريما لصاحبها يقوده إلى الخير، ويصرفه عن الشر. [راجع للشيخ حسن حكمت الله – الأخلاق الإسلامية ص٧٧ وما بعدها]

(٢) أبو الوليد بن رشد – فيلسوف قرطبة – فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الأتصال ص٢٩ تحقيق د: محمد عمارة – دار المعارف بالقاهرة.

(٣) سورة لقمان – الآية ١٢

(٤) العلامة الفيروز آبادى – بصائر ذوى التميز إلى لطائف الكتاب العزيز – باب الحاء.

(٥) العلامة الكندى – رسائل الكندى الفلسفية ص٢٠٧ تحقيق الدكتور محمد عبدالهادى أبو ريدة، وراجع للدكتور أحمد فؤاد الأهوانى – الكندى فيلسوف العرب.

❊ الدليل الثاني: علة اشتراك الكثرة(١) والوحدة(٢):

يذهب الكندى إلى أن العالم المشاهد المحسوس تبدوا فيه الموجودات متكاثرة، ولا يعقل أن تكون هذه الكثرة من غير وحدة تقوم فيها، أو ترجع إليها، والحال فى المحسوسات كالحال فيما يلحق بها، غير أن هذه الموجودات مشتركة فى الكثرة نفس اشتراكها فى الوحدة، ولا يمكن أن يكون ذلك كله مصادفة محضة، وإنما لابد أن تكون عن علة هى خارج هذه الموجودات المتكثرة المتوحدة ضرورة(٣). أما لماذا؟

فلأنه لو كانت العلة من داخل الموجودات فى كثرتها، أو فى وحدتها لاستمر تسلسل العلل والمعلولات إلى ما لا نهاية، والقاعدة السابقة قررت أنه لا يمكن أن يكون وجود شيء بالفعل بلانهاية، وبالتالى فلابد أن يكون مرجع اشتراكهما فى الوحدة والكثرة هو علة أخرى غير ذات الكثرة والوحدة، بل غير ذات الموجودات المخلوقات كلها وهو الله سبحانه وتعالى؛ لأنه أرفع مقاما وأشرف منها جميعا.

إذن فليست علة اشتراك الكثرة والوحدة مع الأشياء الكثيرة الواحدة فى جنس، ولا شبه، ولا مشاكلة، بل هى علة كونها وثباتها أعلى وأشرف وأقدم منها(٤)، وهو الله سبحانه وتعالى، وقد استفاد ابن سينا هذا الدليل لكنه صاغه على طريقة أخرى تكشف عن عقلية ناضجة، فيها الكثير من

---

(١) الكَثْرَةُ ضد القلة والكِثرة بالكسر لغة رديئة وقد كَثُرَ يكثر بالضم كَثْرةً فهو كَثِيرٌ وقوم كثير وهم كثيرون و أكْثَرَ الرجل كثر ماله و كاثَروهم فكَثَرُوهم من باب نصر أي غلبوهم بالكثرة و استَكْثَرَ من الشيء أكْثَرَ منه و الكُثْرُ بالضم المال الكثير يقال ماله قل ولا كثر ويقال الحمد لله على القُل و الكُثْر والقل و الكِثْر بالضم ولاكسر و التَّكاثُرُ المكَاثَرَةُ والكَوْثَرُ من الرجال السيد الكثير الخير والكوثر من الغبار الكثير والكوثر نهر في الجنة و الكَثَرُ بفتحتين جمار النخل وقيل طلعها وفي الحديث لا قطع في ثمر ولا كثر. [مختار الصحاح ج١ ص٢٣٥]

(٢) الوَحْدَةُ: الانفراد، قال أبو العباس يحتمل أن يكون الرجل في نفسه مُنفردا، والوَاحِدُ أول العدد والجمع وُحْدَانٌ و أُحْدَانٌ كشاب وشُبان وراعٍ ورُعيان، وتَوَحَّدَ برأيه تفرَّدُ به وفلان وَاحِدُ دَهْره أي لا نظير له وفلان لا واحد له. [مختار الصحاح ج١ ص٢٩٦]

(٣) الضرورة المرادة هنا الضرورة العقلية، فالضرورة مشتقة من الضرر وهو النازل مما لا مدفع له. [التعريفات ج١ ص١٨٠ رقم: ٨٩٦] والضرورية المطلقة التي يحكم فيها بضرورة ثبوت المحمول للموضوع أو بضرورة سلبه عنه ما دامت ذات الموضوع موجودة أما التي حكم فيها بضرورة الثبوت فضرورية موجبة نحو كل إنسان حيوان بالضرورة فإن الحكم فيها بضرورة ثبوت الحيوانية للإنسان في جميع أوقات وجوده وأما التي حكم فيها بضرورة السلب فضرورية سالبة نحو لا شيء من الإنسان بحجر بالضرورة فإن الحكم فيها بضرورة سلب الحجر عن الإنسان في جميع الأوقات الضروري ما اتصلت الحاجة إليه إلى حد الضرورة كحفظ الدين فالنفس فالعقل فالنسب فالمال فالعرض. [التعاريف ج١ ص٤٧٢ وراجع التعريفات ج ١ ص١٨٠ رقم:٨٩٧]

(٤) أبو يعقوب الكندى – رسائل الكندى الفلسفية ص١٤٣ بتصرف يسير اقتضته ظروف العبارة.

الحنكة، مع القدرة على هضم الأفكار، ثم إخراجها فى شكل جديد، تجىء فيها الجدة العلمة والطرافة البحثية معا.

❊ **الدليل الثالث: تدبير العالم والعناية به:-**

يقرر الكندى أن العالم حادث، وأن أجزاءه فيها الكثرة والوحدة، وبالتالى فلابد من مدبر لهذا العالم، حتى تكون عنايته به بالغة معه الغاية العظمى التى بها صلاحه[١]،وهذا المدبر لا يكون من جنس العالم، إنما لابد أن يكون متعاليا عنه، يملك كل صفات الجلال والجمال والكمال والإكرام، وهو فى ذات الوقت يرى كل المخلوقات ولا يراه واحد منها على حقيقته، اذ لا يعرف الله على الحقيقة إلا الله تعالى.

كما يذكر الكندى أن العالم المرئى المشاهد، لا يمكن أن يكون تدبيره، إلا بعالم لا يرى، والعالم الذى لا يرى لا يمكن أن يكون معلوما، إلا بما يوجد فى هذا العالم من التدبير والآثار الدالة عليه[٢]، وذلك المدبر العظيم هو الله سبحانه وتعالى.

إذن من وظائف الفلسفة الإسلامية إبراز العقيدة الإلهية، ثم عرضها بالطرائق المختلفة، والصور المتعددة، ثم الدفاع عنها بكل طريقة يمكن من خلالها مخاطبة العقل الصحيح، وتحريك الفكر المستنير، والاتجاه بالضمير الحى اليقظ إلى حيث يرى النور بدل الظلمة، والسعادة بدل الشقاوة، ولا يكون ذلك إلا فى رحابة الإيمان والاستمتاع بحلاوة القرآن، والمتابعة مع الالتزام لسنة النبى العدنان سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسلم.

---

(١) استفاد جوتفريد ليبنتز دليل الكثرة والوحدة من مفكرى المسلمين، وسماه المونادولوجيا، ويعنى به العالم المكون من أصغر جزئية، والعلاقة التى تربط بين هذه الجزئيات المونادات. [راجع لليبنتز – المونادو لوجيا – ترجمة الدكتور عبدالغفار مكاوى]

(٢) أبو يعقوب الكندى – رسائل الكندى الفلسفية ص١٤٤ .

ثانياً : فائدة الفلسفة

قد يظن البعض أن وظيفة الفلسفة هى نفسها فائدة الفلسفة، ولكن اللغة تؤكد وجود تمايز لفظ وظيفة ولفظ فائدة، بل تقوم الأدلة المتوالية على أن الوظيفة غير الفائدة، ولا مانع من وجود علاقة ما بينهما، أو ترتب إحداهما على الأخرى، باعتبار أن الفائدة هى ما يستفاد من علم أو عمل أو مال وغيره على ناحية معينة، أو نواح متعددة[1]، أما الوظيفة فهى ما يقدر من عمل أو طعام أو رزق، أو غير ذلك فى زمن معين[2]، وبالتالى فكل منهما غير الأخرى على الناحية اللغوية.

وربما زعم زاعم، أو ادعى مدع أن الفلسفة لا فائدة لها من ناحية الدراسة، أو الاشتغال والتكسب، ولكن هذا الزعم غير مقبول؛ لأنه لو لم تكن للفلسفة فوائد، ما انشغل بها هذا الجمع الكبير من المفكرين، الذين يمثلون جماعة كبيرة فى التاريخ الفكرى، ولهم نتاجات متميزة فيه، بل لو لم تكن لها فائدة ما سعى إليها أولئك الأفذاذ الذين امتلأت بهم ساحات الفكر، ولما تحملوا فى سبيل ذلك صنوفا شتى، وألوانا متعددة من العذاب كانت تصل ببعضهم إلى حد التضحية بنفسه[3]، وهل بعد التضحية بالنفس دليل على حب الفلسفة وعشقها[4].

ولو لم يكن لها من الفوائد ما يغطى كل جوانب المعاناة ويزيد، لكان لهم الاشتغال بعلوم أخرى، تتحقق لهم بها الفائدة، ويعم من خلال ممارستها النفع أو تباعد بينهم والأحكام القاسية، والعقوبات التى لا قبل لواحد من غير الفلاسفة فى احتمالها، إلا أن تكون الموازنة بين ما يعانى وما يشعر به من لذة تكون لصالح التأمل العقلى، والبحث الفلسفى.

ومن ثم فقد كانت فوائد الفلسفة هى التى تدفع بعضهم إلى احتمال المكارة، حتى إنهم ارتضوا لأنفسهم تحمل عبئ ذلك كله فى مقابل التعبير عن آرائهم بحرية، وانطلاقهم فى جنبات التفكير العقلى المتميز، وشرف الانتساب لجماعة الفكر الهادف[5]، والذى يسعى لتقديم خدمات علمية وأخلاقية، علمية ونظرية، وتصحيح الأفكار الخاطئة، والأخذ بالعقلاء حتى يتمكنوا من التعرف على ما للخالق العظيم من الجلال والمهابة[6].

وبالتالى فيمكن اعتبار دراسة الفلسفة والاشتغال بها تأتى معه فوائد عديدة منها:

---

(١) العلامة الرازى – أساس البلاغة – باب الفاء ص٤٣٥ والقاموس المحيط باب الدال – فصل الفاء ج٢ ص٢١٥ ، والمعجم الوجيز باب التاء ص٤٨٣ .

(٢) المعجم الوجيز – باب الواو ص٦٧٤ .

(٣) كالحال مع سقراط الذى تجرع السم فى رباطة جأش، وكان يستطيع الإفلات من الحكم الذى صدر عليه عن الطريق الذى دبره له بعض تلاميذه. [راجع ما سبقت كتابته فى هذا الشأن من ذات الكتاب]

(٤) الدكتور فوزى محمد النويرى – سقراط وفلسفته ص١٧٧ ط٣/١٩٨١م.

(٥) الدكتورة وفاء محمد الأعصر – أرسطو فيلسوف اليونان ص٨٧ ط١/١٩٧٣م.

(٦) هذه من فوائد الفلسفة أو الحكمة الإسلامية؛ لأنها التى تسعى لمعرفة الله تعالى، وإقامة الأدلة على تلك المعرفة، ثم الدفاع عنها بالعديد من الأدلة. [راجع كتابنا: المدخل لدراسة الحكمة الإسلامية ص٣١٥]

١ـ معرفة الحقيقة[1] لذاتها

أجل معرفة الحقيقة أمر مهم لكل ذى عقل، لكن أية حقيقة تلك التى يحاول العقل معرفتها. إنما معرفة حقيقة الذات العاقلة، حتى يقف على حقائق ذلك الوجود، ومن ثم يمكنه الوصول إلى حقيقة الحقائق وأصل الأصول، وهو الله رب العالمين من باب دلالة الأثر على المؤثر[2].

فإذا أمكن للعقل القيام بهذا الدور على ناحية معرفية، ثم تمكنت هذه المعرفة من عقله وقلبه، صارت عقيدة إيمانية يلزمه الإيمان بها، والخضوع لأحكامها، وبالتالى يقوده ذلك البحث إلى معرفة ما عليه من الواجبات، وما يلزمه فى الحلال والحرام، وهو ما ينصرف به إلى رقى سلم الدرجات الأخلاقية، حتى يرقى أعلاها ويتربع على قمتها.

لأن الحقيقة لها وجهة واحدة، فإذا أمكن للعقل معرفة حقيقة الوجود، أيقن أنه مخلوق، وأن له خالقا بالضرورة، وأن هذا الخالق العظيم له من صفات الجلال والجمال ما يحاول المخلوق الراقى التشبه بشيء من أخلاق الله، وفى الأثر: « تشبهوا بأخلاق الله »[3].

كما أن من عرف حقيقة هذا الوجود من أين ابتدأ، وإلى أين يسير، وما الغاية من ذات الوجود، فقد صار حكيما، وفى الحديث الشريف عن أبي هريرة ﷺ قال: « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الكلمة الحكمة[4] ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها »[5].

---

(١) وردت مادة الكلمة ح ق ق فى القرآن الكريم حوالى ثمانين ومائتى مرة . [المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص٢٠٨/٢١٢] .

(٢) هذا الدليل مما يتمسك به كل من المتكلمين والفلاسفة المسلمين، وإن كان بعضهم يستخدم فى التعبير عنه صياغة أخرى،أو يستخدمه على طريقته هو، وهو من أقوى الأدلة فى باب إثبات العقيدة الإسلامية على الناحية العملية، بل ذهب البعض إلى أنها أقوى من دلالة المؤثر على أثره.

(٣) فعن سعيد بن عثمان الخياط قال سمعت ذا النون يقول معاشرة العارف كمعاشرة الله يحتملك ويحلم عنك تخلقا بأخلاق الله الجميلة قال وسمعت ذا النون يقول لا تثق بمودة من لا يحبك إلا معصوما ووال من صحبك ووافقك على ما تحب وخالفك فيما تكره فإنما يصحب هواه ومن صحب هواه فإنما هو طالب راحة الدنيا. [حلية الأولياء ج٩ ص٣٧٦]

(٤) الحكمة: هى استكمال النفس الإنسانية بتصور الأمور والتصريف بالحقائق النظرية والعلمية على قدر الطاقة الإنسانية، وأنها صناعة نظر يستفيد منها الإنسان بتحصيل ما عليه الوجود كله فى نفسه وما عليه الواجب لتشرف بذلك نفسه، وتستكمل وتصير عالما معقولا مضاهيا للعالم الموجود، وتستعد للسعادة فى الدنيا والقصوى بالآخرة، وذلك بحسب الطاقة الإنسانية. [راجع كتاب تسع رسائل فى الحكمة والطبيعيات للشيخ الرئيس ابن سينا ص٢،٣]، كما عرفها ابن مسكويه بأنه وضع الشيء فى موضعه، كما أنها فضيلة النفس الناطقة المميزة.[تهذيب الأخلاق لابن مسكويه ص٣٦].

(٥) الإمام الترمذى – سنن الترمذي ج:٥ ص:٥١ – الحديث:٢٦٨٧، وأخرجه الإمام ابن ماجه – سنن ابن ماجه ج:٢ ص١٣٩٥ – باب الحكمة – الحديث:٤١٦٩ .

◈ **وربما يقال:** إن مفكرى اليونان قديما كانوا يبحثون عن الحقيقة، وأنهم بذلوا فى سبيل معرفتها الكثير، فهم حاولوا معرفة الكون وما فيه، ومعرفة المبدأ الذى صدر عنه، والمصير الذى ينتهى اليه وقد كانت هذه الأسئلة تمثل بعض مجهودات مفكرى المسلمين فى هذه الناحية، فهل كانوا فلاسفة، أم كانت تلك التساؤلات إشارات على طريق التفلسف؟

☜ **والجواب:** أن هذه الأفكار شغلت عقول المصريين القدماء، كما شغلت رءوس أهل بابل والصين والإغريق أيضا[١]، وكان أرسطو اليونانى يفكر فى ذات الأسئلة، واعتبر وصوله إلى إجابات محددة حولها هو غاية الفلسفة القائمة على اللذة العقلية، حيث ذهب أن اللذة العقلية هى المعرفة لذات المعرفة، بغض النظر عن تعلق المعرفة بفائدة عملية أو فائدة نظرية[٢]، كما اعتبر الفلسفة أفضل العلوم، لكونها تأتى الفائدة فيها أعلى من غيرها، حيث يقرر أن العلوم الأخرى – غير الفلسفة – قد تكون أكثر ضرروة من الناحية النفعية، ولكن لا يوجد علم أكثر فضلا من الفلسفة[٣].

● **ويقرر سبتاى** « أن البحث عن الحقيقة كان شاغل القدماء، ولكنهم ربما أخفق بعضهم فى طرائق الوصول إليها، أو أخفق آخرون فى استعمال الوسائل الموصلة إليها، أو وقع الإخفاق لدى من يحاولون جمع النتائج التى جاءت بعد المجهودات الذهنية الكبيرة أثناء محاولة الوصول الى الحقيقة تعرفا عليها أو استعمالا لها »[٤].

والحقيقة من حيث هى أمر قد يكون غامضا يحتاج نوع إيضاح، أو غائبا يحتاج بعض استحضار، أو مختلطا يحتاج من يفصل بينه وبين غيره من الأمور المتقابلة، أو الأمور المختلطة المتشابكة، ولا يقوم بذلك الدور إلا من كملت قدراته العقلية، واتسعت قدراته العلمية، ووطن نفسه على السير فى دروب البحث العلمى التأملى فى تؤدة، تقودة رغبة أكيدة فى كشف الحقيقة لذاتها، والتعرف عليها من كل ناحية[٥]، ولا يقوم بذلك إلا الفيلسوف، فكان ذلك من فوائد الفلسفة.

☜ **إذن هناك ثلاث عمليات ترتبط كل منها بالأخريات ارتباطا وثيقا:-**

---

(١) الدكتور: عادل محمد حسن الأشوح – التراث الفلسفي ص١١٢، وراجع للدكتورة: سهام مصطفى –التراث الفلسفى القديم ص٥٧ ط١/١٩٨٥م .

(٢) الدكتورة: وفاء مصطفى الأعصر – أرسطو فيلسوف اليونان ص٩٥ ط١/١٩٧١م.

(٣) الدكتور محمد غلاب – الفلسفة الإغريقية ص١٨.

(٤) سبتاى بيغوفير – الفلسفة موضوعات ونتائج ص١٩٥ – ترجمة هناء فخرى ١٩٦١م.

(٥) ليس من السهل الادعاء بأن علما من العلوم غير الفلسفية يمكنه القيام بهذا الدور، وإلا طولب أصحاب الإدعاء بإقامة الدليل، وليس من إمكانياتهم ذلك، إلا إذا استخدمت الطرائق الجدلية السوفسطائية،وهى لا تغنى عن البحث العلمى شيئا، كما أن هذا الجدل منهى عنه شرعا، ففى الحديث الشريف عن ابي أمامة الباهلي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:« أنا زعيم بيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وان كان محقا وبيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وان كان مازحا وبيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه ». [العلامة الطبراني – المعجم الأوسط ج٥ ص٦٨ رقم:٤٦٩٣]

☆**الأول:** الكشف عن الحقيقة.

☆**الثانية:** معرفة الحقيقة لذاتها.

☆**الثالثة:** كيفية الاستفادة من هذه المعرفة.

وكل من هذه العمليات لا تنفصل عن الأخرى، من حيث الغاية التى تناط بها، وإن كانت كل واحدة منها تنفصل أثناء الوصول إليها، باعتبار الوسائل، لما هو معلوم من أن الكشف عن الحقيقة يحتاج منهجا متميزا، يقوم على التأمل الدقيق، والتركيز الشديد، والعناية بكل ما يحيط بالظاهرة موضع التأمل، أو النظرية موضع الدراسة؛ لأن إغفال أى واحد من هذه العناصر يجعل الكشف عن الحقيقة يجيء متأخرا، وربما صار الكشف عنها المرة تلو الأخرى شبه مستحيل، ولا يتمكن منه حتى يفصل المعلومات المتشابكة، التى قد يقع بينها نوع من التقارب الشديد[1]، مع أن كل معلومة منها تستقل بنفسها من حيث الحقيقة التى تعتصم بداخلها، ومتى أمكن بلوغ تلك المسألة فقد صار القائم بها فيلسوفا تؤدى فلسفته فائدة علمية وعملية معا فى وقت واحد.

أما معرفة الحقيقة بعد الكشف عنها، فهى الأخرى تحتاج منهجا متزنا يقوم على التكامل بين أجزائه من ناحية، والتعاون التام مع منهج الكشف عن الحقيقة من جهة أخرى.

* **يقول تيرى:** « إن عملية الكشف عن الحقيقة تتمثل فيها المناهج المتعددة، إذ ليس من السهل الوصول إلى الحقيقة، وإنما ذلك أمر صعب للغاية، ولا يتمكن منه إلاّ أفراد قليلون، عرفوا المناهج الفنية، وأمكنهم استعمالها، كل على الناحية التى يصلح لها »[2].

◈ **ويقرر الدكتور فضل الله آدم:** « أن عملية الكشف عن الحقيقة تمضى فى مسالك صعبة، حيث يأتى فيها التباين أحيانا، باعتبار أن الحقيقة قد تكون متعلقة بفكرة معينة، أو قاعدة أخلاقية، أو منظومة وجدانية، أو ظاهرة كونية، وذلك كله بغرض ضرورة الاحتياج لمناهج متعددة تكشف عن الحقيقة، بحيث تجعلها بينة من حيث ذاتها، لا من حيث العلائق المرتبطة بها »[2].

على أنى أميل إلى أنه لما كانت فوائد الفلسفة عملية تارة ونظرية أخرى، والحقيقة هى الأخرى تتنوع بتنوع الموضوعات التى ينبغى الوصول إليها، من ثم فإن الوسائل التى تجعلنا نبلغها لابد أن تكون هى الأخرى معينة على ذلك، ولا تكون معرقلة عنه، وحينئذ يقع التعدد فيها بتعدد الموضوعات تارة، واختلاف إمكانيات الباحثين عنها تارة أخرى.

---

(١) والواقع المعاش يشهد بذلك، فالتشابك اللفظى قائم، فمثلا البر والبر والبر أمر يحتاج معرفة أيها المراد من اللفظ الذى يحتوى جملة من المعانى يجيء اللفظ فى أحضانها، وكذلك التشابك فى الحقائق الذاتية كالحال بين النفس والروح، ومعرفة كل منهما على الحقيقة المستقلة، مع أنهما قد تتشابكان فى بعض المظاهر، وبالتالى هذه المعلومات والحقائق قد يقع بينها التشابك والتقارب، ويكون الفصل بينها جميعا ضرورة علمية، وهو من مهام الفلسفة وفائدة من فوائدها.

(٢) وليم تيرى – المناهج الفلسفية ص١٧٧ – ترجمة فؤاد نصار ط أم درمان ١٩٦١م.

(٣) الدكتور فضل الله آدم – الفلسفة والمناهج الحديثة ص١٣٥ ط الخرطوم ١٩٥٧م.

وغاية الفلسفة تيسير أمور الكشف عن الحقيقة من خلال اصطناع المناهج المناسبة لكل جزئية على حدة، وتنمية المواهب، وتعزيز الملكات، بحيث يمكن لها اقتناص الوصول إلى الحقيقة في سهولة ويسر، فمعرفة الخالق جل علاه وهو حقيقة الحقائق يمكن الوصول إليها عن طريق الفطرة النقية، كما يمكن الوصول إليها عن طريق دليل العناية، أو دليل الخلق المستمر، أو دليل الاختراع التي أمسك بها الفلاسفة[1]، أو دليل الحدوث، أو دليل الإمكان التي أمسك بها غالبية المتكلمين[2].

كما أن معرفة حقيقة الكوْن يمكن الوصول إليها عن طريق دليل التناهي الحقيقي أو الفرضي في الأعداد أو الموجودات، حيث يؤكد ضرورة أن يكون الكون مخلوقا له زمان ابتدأ فيه، وله غاية قدرها خالقه العظيم جل علاه، وله نهاية تقع حتما متى أراد الله تعالى ذلك. قال تعالى: ﴿**يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد * إن يشأ يذهبكم ويأتِ بخلق جديد * وما ذلك على الله بعزيز**﴾[3].

ﷻ وعن نهاية الكون الحالي، واستبداله بكون آخر، يقول تعالى: ﴿**يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار**﴾[4].

۞ **يقول العلامة الطبري**: « يوم تبدل الأرض التي نحن عليها اليوم يوم القيامة غيرها وكذلك السماوات اليوم تبدل غيرها كما قال جل ثناؤه، لكن نوعية الأرض المبدلة مما يفوض علم ذلك إلى الله تعالى. أما لماذا؟

فلأنه جائز أن تكون المبدلة أرضا أخرى من فضة، وجائز أن تكون نارا، وجائز أن تكون خبزا وجائز أن تكون غير ذلك، ولا خبر في ذلك عندنا من الوجه الذي يجب التسليم له أي كل ذلك يمكن أن يكون فلا قول في ذلك يصح إلا ما دل عليه ظاهر التنزيل، وبرزوا على سبيل الظهور

---

(١) راجع الكشف عن مناهج الأدلة، وفصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال لأبي الوليد بن رشد.

(٢) راجع للإمام الإيجي –المواقف، وللإمام السعد التفتازاني – شرح المقاصد، وأغلب المؤلفات الكلامية تركز عليها.

(٣) سورة فاطر – الآية ١٥ . يقول العلامة الطبري : « يقول تعالى ذكره إن يشأ يهلككم أيها الناس ربكم؛ لأنه أنشأكم من غير ما حاجة به إليكم، ويأت بخلق جديد يقول ويأت بخلق سواكم يطيعونه ويأتمرون لأمره وينتهون عما نهاهم عنه، قال قتادة قوله: إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد أي ويأت بغيركم، وقوله وما ذلك على الله بعزيز يقول وما إذهابكم والإتيان بخلق سواكم على الله بشديد بل ذلك عليه يسير سهل يقول فاتقوا الله أيها الناس وأطيعوه قبل أن يفعل بكم ذلك ».[العلامة الطبري – جامع البيان ج٢٢ ص١٢٧] وهذا نداء للناس بأنهم هم الفقراء المحتاجون إلى فضله وإحسانه، وهو الغني الذي لا يحتاج إليهم المحمود في إحسانه إليهم، المستحق بإنعامه عليهم، أن يحمدوه إن يشأ – لا إتخاذكم أندادا – يذهبكم ويخلق من بعدكم من يعبده، ولا يشرك به شيئا وما ذلك على الله بممتنع أو بعيد. [العلامة علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم المعروف بالخازن – تفسير القرآن الجليل المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل ج٣ ص٥٢٣ – طبعة المطبعة الخيرية ١٣٥٨هـ/١٩٣٩م]

(٤) سورة إبراهيم – الآية ٤٨ .

لله المنفرد بالربوبية الذي يقهر كل شيء فيغلبه ويصرفه لما يشاء كيف يشاء فيحيي خلقه إذا شاء ويميتهم إذا شاء لا يغلبه شيء ولا يقهره أن يخرجهم من قبورهم أحياء لموقف القيامة »[١].

وعن أم المؤمنين عائشة[٢] - رضي الله عنها - قالت سألت رسول الله عن قول الله تعالى يوم تبدل الأرض غير الأرض قلت يا رسول الله إذا بدلت الأرض غير الأرض أين يكون الناس قال على الصراط »[٣]. وعن عبدالله بن مسعود[٤] قال: « قال رسول الله ﷺ في قول الله تعالى يوم تبدل

---

(١) العلامة محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري أبو جعفر المولود في ٢٢٤هـ، والمتوفى في ٣١٠هـ - جامع البيان عن تأويل آي القرآن المشهور بتفسير الطبري ج١٣ ص٢٥٤- دار الفكر بيروت ١٤٠٥هـ - (بتصرف يسير).

(٢) السيدة عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها أم المؤمنين (زوج رسول الله ﷺ) . « أبوها : عبدالله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي القرشي التيمي (أبو بكر الصديق بن أبي قحافة) رضي الله عنه خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأمها أم رومان بنت عامر بن عويمر الكنانية . ولدت : بعد المبعث بأربع سنين أو خمس ففي الصحيح عن عائشة قالت : تزوجني رسول الله ﷺ وأنا بنت ست سنين وبنى بي وأنا بنت تسع وقبض وأنا بنت ثماني عشرة سنة، وكانت تكنى أم عبدالله، حيث كناها بابن أختها أسماء عبدالله بن الزبير. وكانت عائشة أفقه الناس وأعلم الناس وأحسن الناس رأيا في العامة. ففي الصحيح عن أبي موسى الأشعري مرفوعا فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام . وقال الزهري لو جمع علم عائشة إلى علم جميع أمهات المؤمنين وعلم جميع النساء لكان علم عائشة أفضل . وهي من زوجاته ﷺ في الجنة لما ورد بالسنة النبوية، فعن مرسل مسلم البطين قال : قال : رسول الله ﷺ عائشة زوجتي في الجنة، وعن أبي محمد مولى الغفاريين أن عائشة قالت يا رسول الله من أزواجك في الجنة قال أنت منهن . وروت عائشة - رضي الله عنها- عن النبي ﷺ الكثير الطيب وروت أيضا عن أبيها وعن عمر وفاطمة وسعد بن أبي وقاص وأسيد بن حضير وجدامة بنت وهب وحمزة بنت عمرو وروى عنها من الصحابة عمر وابنه عبدالله وأبو هريرة وأبو موسى، وآخرون كثيرون . وماتت - رحمها الله - سنة ثمان وخمسين في ليلة الثلاثاء لسبع عشرة خلت من رمضان عند الأكثر، وقيل سنة سبع ذكره علي بن المديني عن بن عيينة عن هشام بن عروة ودفنت بالبقيع » راجع الإصابة في تمييز الصحابة - (العلامة شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢هـ) - الجزء الثامن- كتاب النساء - العين المهملة. القسم الأول [من ذكر لها صحبة، وبيان ذلك]. رقم ١١٤٥٧ ص ١٩/١٧ .

(٣) الإمام مسلم - صحيح مسلم ج٤ ص٢١٥٠ - ٢ باب في البعث والنشور وصفة الأرض يوم القيامة- رقم: ٢٧٩٠

(٤) عبدالله بن مسعود بن غافل بن حبيب بن شمخ بن فار بن مخزوم بن صاهلة بن كاهل بن الحارث بن تيم بن سعد بن هذيل الهذلي أبو عبدالرحمن حليف بني زهرة وكان أبوه حالف عبدالحارث بن زهرة أمه أم عبدالله بنت ود بن سواءة أسلمت فأصحبت أحد السابقين الأولين أسلم قديما وهاجر الهجرتين وشهد بدرا والمشاهد بعدها ولازم النبي صلى الله عليه وسلم وكان صاحب نعليه وحدث عن النبي صلى الله عليه وسلم بالكثير وعن عمر وسعد بن معاذ وروى عنه ابناه عبدالرحمن وأبو عبيدة وابن أخيه عبدالله بن عتبة وامرأته زينب الثقفية ومن الصحابة العبادلة أبو موسى وأبو رافع وأبو شريح وأبو سعيد وجابر وأنس وأبو جحيفة وأبو أمامة وأبو الطفيل ومن التابعين علقمة وأبو الأسود ومسروق والربيع بن خثيم وشريح القاضي وآخرون، وآخى النبي صلى الله عليه وسلم بينه وبين الزبير وبعد الهجرة بينه وبين سعد بن معاذ وقال له في أول الإسلام إنك لغلام معلم. وهو أول من جهر بالقرآن بمكة، وقال النبي صلى الله عليه وسلم من سره أن يقرا القرآن غضا كما نزل فليقرأ على قراءة بن أم عبد. ومن أخباره بعد النبي صلى الله عليه وسلم أنه شهد فتوح الشام وسيره عمر إلى الكوفة ليعلمهم أمور دينهم . وعن وفاته: قال البخاري مات قبل قتل عمر وقال أبو نعيم وغيره مات بالمدينة سنة اثنتين وثلاثين وقيل مات سنة ثلاث وقيل مات بالكوفة والأول أثبت . (راجع الإصابة في تمييز الصحابة - [العلامة شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢هـ]- الفصل رقم: ٤٩٥٧ ص ٢٣٥/٢٣٣ (باختصار).

الأرض غير الأرض قال هى أرض بيضاء كأنها فضة لم يسفك فيها دم حرام، ولم يعمل فيها خطيئة »[١].

۞ **ويقول الشيخ الصابونى** : « إن الله ينتقم من أعدائه يوم الجزاء، يوم تبدل هذه الأرض أرضا أخرى، وتبدل السماوات سماوات أخرى، قال ابن مسعود: تبدل الأرض بأرض الفضة نقية، لم يسفك فيها دم، و لم يعمل عليها خطيئة، ويرتدون لله الواحد القهار، أى خرجت الخلائق جميعا من قبورهم، ومثلوا أمام أحكم الحاكمين، لا يسترهم ساتر، ولا يقيهم واق، وليسوا فى دورهم ولا فى قبورهم، وإنما فى أرض المحشر أمام الواحد القهار »[٢].

فى نفس الوقت فإن معرفة حقيقة للتكاليف الشرعية أمر غاية فى اليسر بناء على أن هذه التكاليف تترتب عليها مصالح للعباد أنفسهم، ومنافع تتعلق هم وحدهم، بعضها عملى يمكن معرفته كله، وبعضها قلبى يمكن بلوغ بعضه، وبعضها الآخر تعبدى. يقول المؤمن بالله إلى صحيح الاعتقاد؛ لأنه إيمان بالغيب الذى شرعه الله تعالى. قال تعالى: ﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون * أولـئك على هدى من ربهم وأولـئك هم المفلحون﴾[٣].

ولا يغربن عن دارس منصف أن للفلسفة فوائد عملية، وأخرى علمية، وثالثة أخلاقية، وأنها فى جانب معرفة الحقيقة لذاتها بعد الكشف عنها تمهد العقل والوجدان لتلقى معارف جديدة، والدفاع عنها بحرية، كما تجعل المؤمن بالله تعالى يرضى بما قسمه الله[٤]، ويمضى فى حياته كلها على

---

(١) العلامة أبو سعيد الهيثم بن كليب الشاشي المؤلف المتوفى ٣٣٥هـ - المسند للشاشي ج: ٢ ص: ١٣٢ - الحديث رقم٦٦٩ - مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة ١٤١٠هـ - الطبعة الأولى - تحقيق د. محفوظ الرحمن زين الله.

(٢) الأستاذ محمد على الصابونى - صفوة التفاسير - المجلد الثانى ص١١٢ - دار رشيد سوريا - حلب ١٣٩٩هـ.

(٣) سورة البقرة - الآيات ٢/٥ . يقول صاحبا الجلالين: « هذا الكتاب الذي يقرؤه محمد لا ريب، لا شك فيه أنه من عند الله هاد للمتقين الصائرين إلى التقوى بامتثال الأوامر واجتناب النواهي لاتقائهم بذلك النار. الذين يؤمنون يصدقون بالغيب بما غاب عنهم من البعث والجنة والنار ويقيمون الصلاة حق يأتوها بحقوقها ومما رزقناهم على سبيل العطاء ينفقون في طاعة الله. والذين يؤمنون بما أنزل إليك أي القرآن وما أنزل من قبلك أي التوراة والإنجيل وغيرهما وبالآخرة هم يوقنون يعلمون, أولئك الموصوفون بما ذكر على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون الفائزون بالجنة الناجون من النار » [تفسير الجلالين ج١ ص٣/٤]

(٤) وفى الحديث الشريف عن أبي هريرة قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من يأخذ عني هؤلاء الكلمات فيعمل بهن أو يعلم من يعمل بهن فقال أبو هريرة فقلت أنا يا رسول الله فأخذ بيدي فعد خمسا وقال اتق المحارم تكن أعبد الناس وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس وأحسن إلى جارك تكن مؤمنا وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلما ولا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب » [الإمام الترمذى - سنن الترمذي ج٤ ص٥٥١ - ٢ باب من اتقى المحارم فهو أعبد الناس رقم:٢٣٠٥ ، والطبراني - المعجم الأوسط ج٧ ص١٢٥ رقم:٧٠٥٤ ، وأحمد - مسند أحمد ج٢ ص٣١٠ رقم:٨٠٨١]

تلك الـ حية، إذ متى أدرك العاقل أن الأمور تجرى بمقاديرها[١]، وأن العمل فى المتاح ضرورة شرعية، فإنه يفوض الأمر الى الله فيما جرت به المقادير، ثم يمارس عمله بكل طاقة ممكنة توازره نفسه القوية فى إيمانها بالله تعالى، وتوجهه النصوص الشرعية. من ذلك قوله تعالى: ﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون﴾[٢]، ومن ثم فإن معرفة الحقيقة والكشف عنها لذاتها، يعتبر فائدة من فوائد الفلسفة.

٢ـ بلوغ السعادة[٣]

من شأن أى عمل عقلى مفيد أن يبعد الضرر عن صاحبه أولا، وعن غيره ثانيا، وتلك أولى مهمات النظر العقلى، ولا يختلف فى ذلك عاقل، وإبعاد الضرر فى حد ذاته يريح المرء نفسه، ويجعله يشعر بأنه فى مأمن من الأخطار التى تحدق به، أو تحاول فرض سلطانها عليه، وبالتالى يشعر المرء بشيء يغمر نفسه، ويفجر داخله طاقات الرضا، حتى يضفى على نفسه صفات البطولة تارة، والقدرة على مجابهة الأخطار أخرى، وهو ما يعرف بالسعادة[٤].

أما إذا تعلق العمل العقلى بعد دفع المضرة بتحصيل منفعة ما لذات المتأمل، أو المحيطين به، فإنه سيقع له نوع من الفخر بنفسه؛ لأنه تمكن من تحقيق المصالح، كما يقع له السرور نظر لثناء

---

(١) وفى الحديث الشريف عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة قال وعرشه على الماء » [الإمام مسلم - صحيح مسلم ج٤ ص٢٠٤٤ رقم:٢٦٥٣ وأخرجه الحاكم - المستدرك على الصحيحين ج١ ص ٤٥ رقم: د]

(٢) سورة التوبة – الآية ١٠٥ .

(٣) وردت مادة الكلمة س ع د فى القرآن الكريم مرتين الأولى : فى قوله تعالى : ﴿ " وما نؤخره إلا لأجل معدود يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقي وسعيد" ﴾ [سورة هود الآية ١٠٥] . والثانية : قوله تعالى : ﴿ " وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ" ﴾ [سورة هود الآية ١٠٨] ، وهذه الآية فيها شيء من التفصيل ، لما أجمل فى الآية التى قبلها ، حيث تتحدث عن بعض نعيم أهل السعادة ، وأنهم فى الجنة خالدون فيها ، ينعمون بما تفضل أهل الله عليهم به ، عطاء من عنده جل علاه ، مستمرا لا ينقطع ، والآيتان معا فى سورة واحدة من سور القرآن الكريم ، وليس بينهما فاصل كبير فى التلاوة ، وقد جاءتا فى بيان أهل السعادة ومكانتهم ، من حيث النعيم ، وأهل الشقاوة وبيان مكانتهم فى العذاب المقيم. [الشيخ عبدالباقى محمود سليمان - نظرات فى القصص القرآن ص١٣٥]؛ وذلك يكشف لنا شيئا من العلاقة المتميزة ، بين الفكر الإسلامى والنصوص الإسلامية، التى تتحدث عن الآخرة ، وما فيها من نعيم أو عذاب ، مما لا يعرف اليونان أو غيرهم شيئا عنه.

(٤) الشيخ محمد السيد الدهيش – القرآن والعمل ط١/١٣٦٥هـ.

الناس عليه[١]، وفوق ذلك فإنه يتشبث بأهداب البحث العلمي، بغية المزيد من المدح والثناء، أو ما فيه المنافع على ناحية من النواحي، وهو أيضا معنى السعادة[٢].

◈ لكن بلوغ السعادة أو تحقق الوصول إليها، هل تكفى فيه النوايا الحسنة والتأملات العقلية المجردة، أم لابد فيه من ممارسة ذلك كله، على ناحية عملية تكون هى المقياس الحقيقى للأفكار النظرية؟

والجواب: أن متابعة الحركة الفكرية كشفت عن تمسك أهل الإغريق القدماء بجعل الفلسفة منحصرة فى بعض القيم الأخلاقية، فلما جاء أرسطو أكد على حصر الفلسفة فى الأخلاق العلمية، والاتجاه بغاية الفلسفة نحو الحياة العملية، معتبرا الجانب النظرى قائما فى الوجدان، أما تحقيق السعادة فإنه لا يكون إلا بفعل ما هو مبعد عن الشقاوة وأسبابها، ومقرب الى السعادة وأسبابها[٣].

كالقيم الأخلاقية المتوازنة، والزهد فى اللذات إلى حد كبير، مع ممارسة أنواع التقشف والحرمان، حتى لا يقع المرء تحت وطأة الحاجة، أو الخضوع لقوانين الظروف، والتخلى عن مطامع النفس، مهما كانت ضرورية، والإلحاح على الشهوات، حتى لا تعبر عن نفسها فى شكل من الأشكال التى تفرز الشقاوة، وتبعد عن السعادة[٤].

كما أن مفهوم السعادة قد اختلف لدى المصريين القدماء، اختلافه عند أهل بابل والصين، بل أن تحقيق السعادة – رغم أنه هدف – قد باعد بين الكثيرين من الأمم، واختلفت وسائل التعبير عنه اختلافهم فى مفهومه أيضا،وما ذلك إلآ لتمسك كل فريق بالمفاهيم التى توارثها دون أن يقف على حقائقها أو يتعرف على أصولها.

أما الفيلسوف المسلم الحكيم فإنه ينحى هذه المفاهيم جانبا، ثم ينظر للسعادة على أنها قاعدة عامة، يشترك فيها الناس جميعا،وإن اختلفت درجات اشتراكهم فيها أو إحساسهم بها، إنه ينظر الى السعادة من حيث هي، ثم يبحث كيفية الوصول إليها، بحيث يكون المرء سعيدا فى نفسه سعيدا فى مجتمعه ومع الآخرين[٥].

لأن ممارسة التقشف والحرمات على ناحية كبيرة، بغرض تعذيب النفس إلى الحد الذى قد يبلغ بها درجة الإزهاق،كان سمة غالبة على حياة الأبيقوريين والرواقيين وحدهم؛ لأن الرواقيين كانوا

---

(١) وهذا الثناء أو المدح قد يكون مقبولا بين الناس، وعند الله متى كانت غاية الفاعل هى رضوان الله تعالى، أما إذا كانت غايته إرضاء الناس فقط، فإن عمله يكون مقبولا بين الناس غير مقبول عند الله، ومن ثم فلا يؤجر به.

(٢) الشيخ محمد السيد الدهيش – القرآن والعمل ص٣٧ .

(٣) الدكتور صابر محسن الشيخ – محاضرات فى الأخلاق ص٥٧ – ط مكتبة النصر ١٩٦١م.

(٤) الدكتور رمضان حسن السريطى – الفلسفة اليونانية ص١٧٣ ط الدار الجديدة الثالثة ١٩٥٧م.

(٥) الدكتور أحمد حسن عبدالعظيم – الفلسفة والأخلاق ص٦ الطبعة الثانية ١٩٧١م.

يتصورون أن فائدة الفلسفة هى السعى لحياة السعادة، باستعمال العقل وحده، واعتبروا الأخلاق هى وحدها فائدة الفلسفة وغايتها، أما علم الطبيعة والمنطق، فإنهما خدم يوصلان إلى تلك الفائدة[١]، فأزاحوا من طريقهم بعض القواعد التى كان من الواجب التمسك بها.

أما الأبيقوريون فقد كانت سعادتهم فى احتمال الآلام، وإمساك النفس عن الشكوى وإظهار التألم، والانطلاق بذيوع الصيت وشهرة الاحتمال إلى حد التحليق فى عالم واسع، فضفاض من الخيال، وكان الواحد منهم يبذل قصارى جهده، فى ذلك الشأن؛ بغية نيل السعادة، أو أن يتحقق له أكبر قدر منها على أقل تقدير[٢]،

وكان أرسطو يقول: « إن السعادة الحقيقية هى نشاط الروح،من خلال الفضيلة الكاملة، ونحن نتواجد من خلال الحياة والعمل، وأكثر بقاء من الحياة طبيعة العمل »[٣].

بيد أن تحقيق السعادة للفرد والجماعة، فى الفكر الإسلامى لا تكون إلا فى الرضا بالأقسام[٤]، والتسليم بما تجرى به الأقدار، والإذعان الحقيقى مع الاعتقاد الصحيح بأن ما أراده الله كائن لا محالة[٥]، ففى الحديث القدسى: يقول رب العزة جل شأنه فيما يرويه رسول الله: عبدى أنت تريد وأنا أريد ولن يكون إلا ما أريد.

وفى السنة النبوية المطهرة ما عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: « أهدي إلى النبي صلى الله عليه وسلم بغلة أهداها له كسرى فركبها بحبل من شعر ثم أردفني خلفه ثم سار بي مليا ثم التفت فقال يا غلام قلت لبيك يا رسول الله قال: احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله في الرخاء؛ يعرفك في الشدة، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، قد مضى القلم بما هو كائن، فلو جهد الناس أن ينفعوك بما لم يقضه الله لك، لم يقدروا عليه، ولو جهد الناس أن

---

(١) راجع كتابنا: رياض الأشواق فى الميتافيزيقا والأخلاق ص٥٩ .

(٢) الدكتور فتحى محمد سليم – تاريخ الفلسفة اليونانية ص١٩٢ ط١٩٧٥/١م، والدكتور نظمى محمد نظير – فى تاريخ الفلسفة اليونانية ص٧٣ .

(٣) فردريك روزنتال – التراث القديم فى الحضارة الإسلامية ص١٥٠ – تقديم وتعليق الدكتور عبدالله حسن المسلمى – الناشر مكتبة سعيد رأفت ١٩٩٣م.

(٤) وفى الحديث الشريف عن أبي هريرة قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من يأخذ عني هؤلاء الكلمات فيعمل بهن أو يعلم من يعمل بهن فقال أبو هريرة فقلت أنا يا رسول الله فأخذ بيدي فعد خمسا وقال اتق المحارم تكن أعبد الناس وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس وأحسن إلى جارك تكن مؤمنا وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلما ولا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب » [الإمام الترمذى – سنن الترمذي ج٤ ص٥٥١ – ٢ باب من اتقى المحارم فهو أعبد الناس رقم:٢٣٠٥ ، والطبرانى – المعجم الأوسط ج٧ ص١٢٥ رقم:٧٠٥٤ ، وأحمد – مسند أحمد ج٢ ص٣١٠ رقم:٨٠٨١]

(٥) ففى الحديث القدسى عن أبي هند الداري قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قال الله تبارك وتعالى من لم يرض بقضائي ويصبر على بلائي فليلتمس ربا سواي. [المعجم الكبير ج٢٢ ص٣٢٠ رقم: ٨٠٧]

يضروك بما لم يكتبه الله عليك، لم يقدروا عليه، فإن استطعت أن تعمل بالصبر مع اليقين فافعل، فإن لم تستطع فاصبر، فإن في الصبر على ما تكرهه خيرا كثيرا، واعلم أن مع الصبر النصر، واعلم أن مع الكرب الفرج، واعلم أن مع العسر اليسر »[١].

كما أن سعادة المؤمن فى دار الدنيا لا تتحقق بعد الاعتقاد الصحيح فى الله رب العالمين، إلا بالالتزام الكامل بما شرع الله تعالى من قيام بالتكاليف على وجه صحيح، وقيام بالأخلاق الإسلامية على نحو متكامل، واعتقاد بالقيم النبيلة إلى أبعد حد، ونبذ الأمراض الاجتماعية ومنها الكبر، لقوله تعالى: ﴿**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير**﴾[٢]. وقوله تعالى : ﴿**يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا**﴾[٣].

۞ **يقول الحافظ ابن كثير**[٤]: « يقول تعالى آمرا خلقه بتقواه وهي عبادته وحده لا شريك له، ومنبها لهم على قدرته التي خلقهم بها من نفس واحدة وهي آدم عليه السلام، وخلق منها زوجها وهي حواء عليها السلام، حيث خلقت من ضلعه الأيسر من خلفه وهو نائم فاستيقظ فرآها فأعجبته فأنس إليها وأنست إليه.

وقال ابن عباس[٥]: قال خلقت المرأة من الرجل فجعلت نهمتها في الرجل، وخلق الرجل

(١) العلامة الحاكم - المستدرك على الصحيحين ج٣ ص٦٢٣ رقم: ٦٣٠٣

(٢) سورة الحجرات - الآية ١٣ . وقال صاحبا الجلالين: « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى هما آدم وحواء وجعلناكم شعوبا جمع شعب، وهو أعلى طبقات النسب وقبائل هي دون الشعوب وبعدها العمائر ثم البطون ثم الأفخاذ ثم الفصائل آخرها. لتعارفوا ليعرف بعضكم بعضا لا لتفاخروا بعلو النسب وإنما الفخر بالتقوى إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم بكم خبير ببواطنكم » [تفسير الجلالين ج١ ص٦٨٧]

(٣) سورة النساء - الآية ١ .

(٤) ابن كثير : هو الإمام الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي من أشهر مؤلفاته تفسير القرآن العظيم، والبداية والنهاية . توفى سنة ٧٧٤هـ . (الطبقات للداودى ج١/١١١) .

(٥) عبدالله بن عباس بن عبدالمطلب القرشي الهاشمي ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم كنيته أبو العباس مات النبي صلى الله عليه وسلم وعبدالله بن عباس قد استوفى ثلاث عشرة ودخل في أربع عشرة وكان يصفر لحيته وكان يكنى أبا العباس، وكان قد قرأ المحكم على عهده صلى الله عليه وسلم دعا له المصطفى صلى الله عليه وسلم بالفقه في دين الله وعلم تأويل كتابه وكان بحرا لا ينزف. مات بالطائف سنة ثمان وستين وهو ابن ثنتين وسبعين سنة. روى عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن معاذ ، وعن عمر وميمونة وأم الفضل بنت الحارث وأبي هريرة والصعب بن جثامة وزيد بن أرقم في الحج وأم عبدالله بن الزبير أسماء ، وروى عنه أبو جمرة وأبو زميل وسعيد بن جبير وأبو رجاء وأبو العالية الرياحي رفيع ومجاهد وعطاء بن رباح وأبو عثمان النهدي وأبو المتوكل الناجي وطاوس وسليمان بن يسار وكريب وأبو الشعثاء جابر بن زيد وابنه علي ومحمد بن عمرو بن عطاء... [راجع العلامة أحمد بن علي بن منجويه الأصبهاني أبو بكر المولود ٣٤٧هـ والمتوفى٤٢٨هـ - رجال صحيح مسلم ج١ ص٣٣٩ - رقم: ٧٣١ - دار المعرفة - بيروت]

الأرض فجعلت همته[1] في الأرض فاحبسوا نساءكم. وقوله تعالى: ﴿ واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام ﴾ أي واتقوا الله بطاعتكم إياه

قال الحسن[2]: الذي تساءلون به اي كما يقال أسألك بالله وبالرحم، وقال الضحاك[3]: واتقوا الله الذي تعاقدون وتعاهدون به، واتقوا الأرحام أن تقطعوها ولكن بروها وصلوها، وقال مجاهد[4] وغيره : قوله ﴿ إن الله كان عليكم رقيبا ﴾ أي هو مراقب لجميع أحوالكم وأعمالكم كما قال والله على كل شهيد »[5]، ومن ثم فإن مراقبة العبد لمولاه هي القيام بالطاعة، التي فرضها عليه جل علاه.

وفي الحديث القدسي عن أبي هريرة « عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يحكي عن الله جل وعلا قال الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، فمن نازعني في واحدة منهما قذفته في النار، ومن اقترب إلي شبرا اقتربت منه ذراعا، ومن اقترب مني ذراعا اقتربت منه باعا، ومن جاءني يمشي جئته أهرول، ومن جاءني يهرول جئته أسعى، ومن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ومن ذكرني في مـ

---

(١) النهمة بلوغ الهمة في الشيء وقد نهم بكذا نهمة فهو منهوم أي مولع به وفي الحديث منهومان لا يشبعان منهوم بالمال ومنهوم بالعلم و النهم بفتحتين إفراط الشهوة في الطعام وقد نهم من باب طرب و نهم الابل زجرها وصاح بها لتجد في سيرها وبابه قطع و نهيما أيضا. [العلامة الرازى - مختار الصحاح ج١ ص٢٨٤].

(٢) هو « الحسن بن أبي الحسن البصري الإمام أبو سعيد مولى زيد بن ثابت وقيل مولى جميل بن صفحة خالية قطبة وقيل غير ذلك وأبوه يسار من سبي ميسان أعتقته الربيع بنت النضر ولد الحسن زمن عمر وسمع عثمان وشهد الدار بن أربع عشرة سنة وروى عن عمران بن حصين وأبي موسى وابن عباس وجندب وعنه بن عون ويونس وأمم كان كبير الشأن رفيع الذكر رأسا في العلم والعمل مات في رجب سنة عشرة ومائة وقد قارب التسعين » [راجع العلامة حمد بن أحمد أبو عبدالله الذهبي الدمشقي المولود ٦٧٣هـ، المتوفى ٧٤٨هـ - الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة - ج١ ص٣٢٢ رقم:١٠٢٢- دار القبلة للثقافة الإسلامية , مؤسسة علو - جدة - ١٤١٣هـ/١٩٩٢م - الطبعة الأولى - عدد الأجزاء ٢ - تحقيق محمد عوامة، تقريب التهذيب ج١ ص١٦٠ رقم:١٢٢٧، جامع التحصيل ج١ ص١٦٢ رقم:١٣٥، سير أعلام النبلاء ج٤ ص٥٦٣ رقم:٢٢٣، الطبقات للداووى جـ١ ص١٥٠].

(٣) الضحاك : هو الضحاك بن مزاحم الهلالي الخراساني أبو محمد، وقيل: أبو القاسم صاحب التفسير وكان من أوعية العلم وهو صدوق في نفسه وثقه أحمد بن حنبل ويحيى بن معين. توفي سنة ١٠٢هـ. وقيل ١٠٥هـ. وقيل : ١٠٨هـ. (سير أعلام النبلاء ج٥ ص٤٨١) .

(٤) مجاهد : هو مجاهد بن جبر مولى السائب بن أبي السائب المخزومي . مات ساجدا سنة ١٠٣هـ . راجع سير أعلام النبلاء - جـ٤ ص٤٤٩.

(٥) العلامة الإمام إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي أبو الفداء المتوفى ٧٧٤هـ - تفسير القرآن العظيم ج١ ص٤٤٩ - دار الفكر ببروت ١٤٠١هـ - عدد الأجزاء ٤.

ذكرته في ملأ أكثر منهم وأطيب »[١].

وعن فضالة بن عبيد[٢] عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ثلاثة لا يسأل عنهم، رجل فارق الجماعة وعصى إمامه ومات عاصيا، وأمة أو عبد أبق من سيده فمات، وامرأة غاب عنها زوجها وقد كفاها أمر الدنيا فتبرجت بعده وثلاثة لا يسأل عنهم رجل نازع الله رداءه فإن رداءه الكبرياء وإزاره العز ورجل كان في شك من أمر الله، والقنوط من رحمة الله »[٣].

وعن جابر بن عبدالله[٤] ﷺ قال « خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في أوسط أيام التشريق فقال يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد ألا لا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى، اللهم أبلغت؟ قالوا بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال أي يوم هذا قالوا: يوم حرام، ثم قال: أي شهر هذا، قالوا: شهر حرام ثم قال: أي بلد هذا قالوا: بلد حرام قال فإن الله قد حرم بينكم دماءكم وأموالكم قال ولا أدرى قال وأعراضكم أم لا كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا أبلغت قالوا بلغ

---

(١) ابن حبان – صحيح ابن حبان ج٢ ص٣٥ – ذكر في الإخبار بأن من تقرب إلى الله قدر شبر أو ذراع بالطاعة كانت الوسائل والمغفرة أقرب منه بباع – رقم:٣٢٨. وأخرجه ابن حبان بلفظ عن أبي هريرة قال: « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فيما يحكى عن ربه جل وعلا الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحدا منهما قذفته في النار » [صحيح ابن حبان ج١٢ ص٤٨٦ – ٦ باب التواضع والكبر والعجب – ذكر الاخبار عما يجب على المرء من لزوم التواضع وترك الكبر على عباد الله رقم:٥٦٧١، والحاكم – المستدرك على الصحيحين ج١ ص١٢٩ رقم: ٢٠٣، وابن ماجة – سنن ابن ماجه ج٢ ص١٣٩٧ رقم: ١٦ باب البراءة من الكبر والتواضع الحديث: ٤١٧٤، والطبراني – المعجم الأوسط ج٩ ص١٠٣ رقم:٩٢٥٣ ، وأحمد – مسند أحمد ج٢ ص٢٤٨ رقم:٧٣٧٦]

(٢) فضالة بن عبيد وهو عبيد بن نافذ بن كلفة الأنصاري من الأوس من بني عمرو بن عوف نزل الشام له صحبة نزل دمشق وبنى بها دارا، وولي القضاء بدمشق بعد أبي الدرداء، مات بها في ولاية معاوية بن أبي سفيان وكان معاوية فيمن حمل سريره، وله عقب، روى عنه أبو علي عمرو بن مالك الجنبي وحنش الصنعاني وميسرة مولى فضالة وأبو علي الهمداني ثمامة بن شفي وعبد الله بن محيريز . [راجع الثقات ج٣ ص٣٣٠رقم:١٠٧٨، والجرح والتعديل ج٧ ص٧٧ رقم:٤٣٣ ، ومشاهير علماء الأمصار ج١ ص٥٢ رقم: ٣٣٩]

(٣) الحافظ نور الدين الهيثمي – مجمع الزوائد ج١ ص١٠٥ .

(٤) جابر بن عبدالله بن عمرو بن حرام بن كعب بن غنم بن كعب بن سلمة الأنصاري السلمي يكنى أبا عبدالله وأبا عبدالرحمن وأبا محمد وهو أحد المكثرين عن النبي صلى الله عليه وسلم وروى عنه جماعة من الصحابة وله ولأبيه صحبة وفي الصحيح عنه أنه كان مع من شهد العقبة. روى مسلم من طريق عن أبي الزبير أنه سمع جابرا يقول غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم تسع عشرة غزوة قال جابر لم أشهد بدرا ولا أحدا منعني أبي فلما قتل لم أتخلف، وعن جابر قال استغفر لي رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الجمل خمسا وعشرين مرة أخرجه أحمد وغيره عن أبي الزبير عنه. وقال قتادة قال كان آخر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم موتا بالمدينة جابر، حيث سنة أربع وسبعين، ويقال: إنه عاش أربعا وتسعين سنة. راجع الإصابة لابن حجر – الجيم بعدها الألف.. في الفصل: ١٠٢٧[ص:٤٣٤]

رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ليبلغ الشاهد الغائب »[١]. وعن أنس بن مالك ﷺ « الناس مستوون كأسنان المشط ليس لأحد على أحد فضل إلا بتقوى الله »[٢].

أضف إلى ما سبق ؛ أن سعادة المؤمن لا تكون إلا فى إسعاد إخوانه من أهل الإيمان؛ لأنه عضو فى جماعة متكاملة، يربط بينها جميعا الإيمان،لقوله تعالى: ﴿**إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون**﴾[٣]، وعن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه قال: « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »[٤].

وقد بذل مفكرو المسلمين جهودا كبيرة فى الحديث عن السعادة من ناحية المفهوم والأقسام والأنواع التى تكون بعضها فى الدنيا، والبعض الأخر فى الآخرة، بل قدم أغلبهم نظريات متكاملة فى السعادة[٥]، وإن كان يربطها بالأخلاق أحيانا، أو يربطها بالعمل أحيانا أخرى، إلا أنها فى مجملها تكشف عن عبقرية متميزة، وانطلاقات فكرية فيها الجدة مع الأصالة والطرافة، وهو ديدن الحكماء من أهل الإسلام، وأحد السمات البارزة التى تتميز بها الحكمة أو الفلسفة الإسلامية.

وجدير بالذكر القول بأن كل مفكر يصح أن يوصف بأنه فيلسوف قد داعبته خيالات السعادة على ناحية من النواحى، وحاول تحقيقها فى عالمه الخاص على أقل تقدير، ثم انطلق منه إلى العالم الأوسع مكانا، والأكثر رحابة، يستوى فى ذلك ان يكون بحثه من خلال الحياة العملية، التى

---

(١) راجع : الإمام أحمد بن محمد بن حنبل (ت : ٢٤١هـ) – مسند الإمام أحمد ج٥ ص٤١١ الحديث: ٢٣٥٣٦ – المكتب الإسلامى للطباعة والنشر – بيروت – الطبعة الأول – دار كتب الفقه، والعلامة عبد العظيم بن عبد القوي المنذري أبو محمد (٥٨١هـ /٦٥٦هـ)- الترغيب والترهيب من الحديث الشريف ج٣ ص٣٧٥ الحديث:٤٤٩٤ - دار الكتب العلمية - بيروت ١٤١٧هـ - الطبعة الأولى - تحقيق إبراهيم شمس الدين، والعلامة أبو نعيم أحمد بن عبدالله الأصبهانى (ت: ٤٣٠هـ) - حلية الأولياء ج٣ ص١٠٠- طبعة دار الكتب العلمية ببيروت ١٤٠٥هـ - الطبعة الرابعة، والحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي - مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ج٣ ص٢٦٦ ، ج٣ ص٢٧٢ بتحرير الحافظين الجليلين: العراقي وابن حجر - - طبعة دار الفكر، بيروت، طبعة ١٤١٢هـ، الموافق ١٩٩٢م.

(٢) الشيخ إسماعيل محمد العجلوني (ت: ١١٦٢هـ) - كشف الخفاء ومزيل الإلباس فيما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس ج٢ ص٤٣٣ رقم: ٢٨٤٧ - مكتبة الغزالى - دمشق .وأخرج العجلونى فى نفس الصفحة بلفظ الناس كأسنان المشط . وقال: أخرجه الديلمي عن سهل بن سعد زاد وانما يتفاضلون بالعافي فلا تصحبن أحدا لا يرى لك من الفضل مثل ما ترى له .

(٣) سورة الحجرات – الآية ١٠ .

(٤) الإمام البخارى - صحيح البخاري ج١ ص١٤ - ٦ باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه - رقم:١٣، والترمذى - سنن الترمذي ج٤ ص٦٦٧ رقم: ٢٥١٥ ، والنسائى - سنن النسائي (المجتبى) ج٨ ص١٢٥ - ٣٣ باب علامة المؤمن - رقم:٥٠٣٩، وابن ماجة - سنن ابن ماجه ج١ ص٢٦ - رقم:٦٦، .

(٥) حيث فعل ذلك كل من الفارابى وابن سينا وابن باجة، وابن طفيل وابن جماعة، وكثير غيرهم، بل كان الصوفية هم الآخرون ممن شاركوا فى إقامة نظريات متعددة حول فكرة السعادة، فضلا عن علماء الأخلاق كابن مسكويه والغزالى وغيرهم من مفكرى أهل الإسلام .

تجرى فيها الأعمال والإنشاءات[1]، أو من خلال الحياة العلمية التى تجرى فيها قنوات الفكر ممتلئة بالتأملات، حافلة جنباتها بكل ما من شأنه أن يثير فى الناس المزيد من طلب السعادة، أو الرغبة فى تحصيلها، وذلك من فوائد الفلسفة لا محالة.

٢ـ ربط التفكير النظرى بالحياة العملية

توهم البعض أن الفلسفة بحث عقلى نظرى وكفى، لا علاقة له بالحياة العملية، بمعنى أن الأفكار الفلسفية لا تقبل الدخول إلى ميدان التطبيق العملى، حتى توسع خصوم الفلسفة فى هذه النتيجة، ومن ثم رموا الفلسفة بأنها لا تنتج أفكارا عملية، وضاعف من هذه الخصومات أن الفلاسفة أنفسهم لم يفكروا فى الرد على تلك التوهمات، فكان من نتيجة ذلك أن صارت تلك الاتهامات مادة خصبة نبتت فيها الأفكار العدائية[2]، وظلت تعيش فى جنباتها التعبئة اللاشعورية على الفلسفة والفلاسفة.

بيد أن تاريخ الفكر الفلسفى قد كشف النقاب عن أن البحث العقلى الفلسفى بطبيعته ميال للناحية التطبيقية التى تعتبر غاية بعيدة يقوم عليها. يقول الدكتور توفيق الطويل: « غاية الفلسفة المباشرة هي كشف الحقائق، وغايتها البعيدة هى الإفادة من هذه الحقائق فى دنيا العمل على ناحية مأمونة »[3].

وإذا أدرنا الوجوه ناحية الخلف أو رجعنا إلى الوراء، أطلعتنا الأيام على أن زعماء الفكر الفلسفى كانت نتائج أبحاثهم لا تقبل إلا إذا أمكن الاحتكام فيها إلى نتائج ما يعقبها عند التطبيق، حتى إن مثل أفلاطون قد حاول تصويرها كأنها واقع عملي، فلما لم يتمكن من ذلك هوجمت مثله، وانطوت معالمها، وما بقى لها إلا الذكرى بعد الأثر[4].

- **وأرسطو** حين قرر الاحتكام إلى النتاج الفكرى، لم يكن يقصد الاحتكام إلى التجربة العملية، وإنما كان يهدف إلى تحويل الأنماط الفكرية إلى شجرة وارفة الظلال، تمتد تحت جداول الماء الخرخارة، فتروى عطاش الأفكار على الجانب العملى، بحيث ينظر المفكر إلى نتائج فكرة، فيراها قد أثمرت

---

(١) الدكتور موسى محمد حسن – الأخلاق عند فلاسفة الإسلام ص١٩٥ – طبعة أولى – دار الثقافة – بيروت ١٩٥١م.

(٢) الدكتور: حامد المتولى رضوان – الفلسفة بين الخصوم والأنصار ص٧٣، وهذه النتيجة قد تكون مقبولة بعض الشيء، لكنها لا تدعمها بعض الاتجاهات الأخرى كغموض الفكر الفلسفى، وتعالى الفلاسفة أنفسهم .

(٣) الدكتور: توفيق الطويل – أسس الفلسفة ص١٠٦ وهو هنا يؤكد على أن السعى للحياة العملية سمة تميز بها الفلسفة عن باقى العلوم الأخرى.

(٤) الدكتور: محسن السيد تعيلب – الفلسفة اليونانية ص١٤٥ ط دار المغرب الجديدة – مراكش ١٩٦٧م.

طبا وهندسة، وكيمياء، وفيزياء، وأنبتت فلكا ورياضة؛ لأنها تدفع إلى ذلك كله، وتسوق إليه سوقا مباشرا على الدوام.

وهذا الاتجاه قد غلب على أصحاب الفكر الفلسفي في العصر الحديث، باعتباره جامعا بين عدة فوائد، وبخاصة أنها تقود إلى كشف الحقيقة ومعرفتها لذاتها، ثم تدفع ذلك الانطلاق نحو السعادة، بغية تحقيقها على الناحية الواقعية عملية كانت أو نظرية[1].

ثم إن البحث الفلسفي يلتزم الممارسة، وضبط العلائق القائمة بين الفكر الماهوى والواقع العملي، الذى يسبق التأمل العقلي حينا، بحيث يكون هو موضوع النظر العقلي، ثم يتأخر عنده، حتى يكون هو الناتج والغاية، وبالتالي فلا يمكن القول بأن الفكر الفلسفي خارج نطاق التجربة أو التطبيق العملي، وإنما لابد من القول بأن التفكير العقلي الفلسفي يواكب السعادة[2]، حتى يكون هو الرباط القوى الذى تتلاقى أنسجته وتتلاحم خلاياه مع الحياة العملية لتحقيق السعادة المشروعة على النحو الأكمل.

بل إن بعض الفلاسفة قد ذهب إلى أن الميتافيزيقا النقدية مجالها الحقيقي هو التطبيق العملي، حتى أطلقوا عليها اسم الفلسفة التجريبية، كما ألمحوا إلى أن هذه الفلسفة النقدية هى المعبر الأصيل عن اتجاهات الفلسفة بوجه عام، أو هى النموذج الأمثل للتفكير العقلي الحر، وانطباقه مع الحياة العملية[3]، فإذا لم يقع التطبيق العملي، فإن الأفكار تكون غير مقبولة.

* **ويقرر اشتابنبك** أن الفلسفة النقدية التى هى جزء من الميتافيزيقا بوجه عام، جدير بها الإعلان عن كونها الممثل الحقيقي للفلسفة؛ لأنها هى التى تطابق بين العلم والعمل، أو بين الفكر والواقع المعاش، وهى فوق ذلك الرباط الوثيق بين الأفكار النظرية والحقائق العملية[4].

* **كما يذهب أريشنباخ** فى نفس الفكرة، حيث يقرر أن الوضعية قد خطت بالفلسفة النقدية خطوات واسعة، حين أعلنت عن فلسفتها النقدية، وأبانت عن ملامح اختلاطها بالحياة العملية التى تدفع عجلة الحياة إلى الأمام، وتمهد للناس طرائق الحياة فى أشكال مختلفة، كلها تؤدى فى النهاية إلى موافقة التفكير العقلي النظرى للحياة العملية[5]، وبنائها عليه، حتى تتحقق المصالح العليا للفرد والجماعة.

---

(١) الأستاذ: نصر محمد السيد صبرى – الفلسفة والأخلاق ص٩٥ ط١/١٩٦١م.
(٢) الشيخ عبدالفتاح حسن الصعيدى – السعادة الإنسانية ص٥٧ ط دار هدى ١٩٨٥م.
(٣) الدكتور: عبدالراضى محمد الأنور – الفلسفة النظرية والعملية ج٢ ص٣٣ ط٢ كركوك ١٩٤١م.
(٤) جون اشتابنك – الفلسفة النقدية والعملية ص٨٣ ترجمة ناصر محمد ط الدار الأهلية ١٩٥٧م.
(٥) أريشنباخ – الفلسفة الوضعية ص١١٥ – طبعة أولى – ترجمة حنان صبرى ١٩٦٣م.

وبعيدا عن اتجاهات الفلسفة الوضعية؛ فإن الفكر التأملي هو الذى قاد إلى الحضارة فى جانبيها الثقافى والمدنى، ولما كان الجانب الثقافى هو الممثل للجانب النظرى من الحضارة؛ فإن المدنى هو المعبر الحقيقى، بل هو الجانب العملى التطبيقى لذات الحضارة، ومثل ذلك الاتجاه مما ينتهى إلى ضرورة اعتباره أحد الفوائد الفلسفية لا محالة[١].

أما الذى يمكن الانطلاق منه، فهو أن التأمل العقلى كالطائر الذى يحلق فى الفضاء نهارا، ثم يلجأ للبحث عن وكر يأويه ليلا، ويبذل جهده فى بلوغ تلك الغاية قبيل غروب الشمس، فهو إن حلق نهارا، إلا أنه يحتاج المأوى الآمن ليلا، وإن حاول الطير ليلا تعثرت جناحاه، وضاعت أحلامه، وتبددت أمانيه.

وكأنى بقيس العامرى فى منولوجه النفسى أو حواره الداخلى يترنم قائلا:

كأن القلب ليلة قيل يُغـ ـدى بليلى العامرية أو يراحُ
قطاة عزها شرك فباتت تعالجه وقد علق الجناحُ

فوق ذلك؛ فإن الواقع العملى يقع فيه التطور على الدوام، ولا يقع التطور على ذات الواقع الحياتى، وإنما لابد من عقلية مفكرة تقوم بهذه العملية، حتى تنتقل بالواقع الحياتى من صورة بدائية إلى صورة أرقى من الأولى، ثم يستمر التطور، حتى يبلغ أعلى درجات الرقى، وأقوم طاقات الإبداع، وهذه العقلية المفكرة هى الممثل الحقيقى للفكر الفلسفى فى صورة من صوره المعروفة[٢].

إذن المحاولات التى يقوم بها العقل النظرى التأملى فى المجتمع وتطوره، ينتج عنها انطلاقات اجتماعية، وأخرى ثورية، وثالثة اقتصادية، ورابعة سياسية، وهكذا تتعدد نتائج الانطلاقات الفكرية لتعبر هذه النتائج كلها عن علوم متحدثة فى بعض جزئياتها، وتكون هذه العلوم بمثابة القرار الكاشف للحكم القضائى، أو الممثل الحقيقى للأفكار على الناحية العملية.

يقرر الشيخ الدينورى: أن ارتباط الحياة العملية بالفكر النظرى ليس صحيحان وإنما لابد فيه من ارتباك هذه النتائج الفكرية النظرية بالحياة المعاشة، أو الواقع العملى، وإلا كانت الفلسفى عبثا لا طائل من ورائه، أو بحثا عن سراب[٣]، لا يوجد فيه ماء، والله تعالى قد ضرب هذا المثل للعابثين الكافرين. قال تعالى: **﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب﴾**[٤]. وقوله سبحانه:

(١) وفى تقديرى أن من ينكر ذلك إنما يلجأ إلى المكابرة والجدل أو تصفية الحسابات، أو الإفصاح عن طبيعه المعلومات التى يعتقدها هو، لا التى تدلى بها النصوص الصحيحة، أو ينتهد بها الواقع العملى.

(٢) الأستاذ محسن عبدالحميد رزق – الفلسفة الإسلامية وقضاياها ص١٨٧ ط١/١٩٦٥م.

(٣) الشيخ : أحمد عبدالصمد الدنيورى – قضية الفلسفة من منظور إسلامى ص٦٥ طبعة دار حكمت الله ١٣١٥هـ .

(٤) سورة النور – الآية ٣٩ .

﴿مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد﴾[١].

ونفس الفكرة يرددها العلامة الدمشقى، حيث يقرر ان التفكير العقلى الخالص يمثل حركة عقلية ناضجة، ولكن الحكم على هذه الحركة بالصحة أو الخطأ مرده إلى الناحية العملية، فإما أن تسير فى اتجاه التطبيق العملى على الناحية الصحيحة، وإما أن تسير فى اتجاه معاكس لا يقع على الناحية العملية موقع القبول[٢]، وهذا كله مما يفسر لنا إصرار الفلاسفة على أن ارتباط الفلسفة بالناحية العملية أمر لا جدال فيه، وأن معالم هذا الارتباط بادية فى أرجاء الكون لا تفارقه، فكان ذلك من فوائد الفلسفة.

٤ـ المساهمة فى استحداث أنماط[٣] فكرية جديدة

لم تقف فوائد دراسة الفلسفة عند كشف الحقيقة لذاتها، والوصول إلى تحقيق السعادة، وارتباط التفكير النظرى بالحياة العملية، وإنما تعدى ذلك إلى المساهمة فى التعرف على أنساق[٤] فكرية جديدة، واستحداث أنماط عقلية تندمج فيها الأفكار بالواقع، ويقع التطابق بين النظر والعمل، ثم استيلاد عناصر فكرية جديدة، تكون بمثابة الوليد أو الحفيد للأفكار الأصلية التى قامت عليها أو انطلقت منها[٥].

لأن طبيعة البحث العقلى لا تفارقه، إذ هو على الدوام يمارس مهامه فى أرجاء الكون المختلفة، يستوى فى ذلك العالم المشاهد الواقع تحت الحس والتجربة، أو العالم الروحانى الذى لا تمارس فيه التجربة، أو العالم الذى أخبر به النقل المنزل، ويسعى العقل جاهدا فى بلورة الفكرة المقدمة إليه عنه، بحيث تظهر فى صورة تكون أقرب إلى الوثائق المعمول بها من النظريات المجردة[٦].

والعقل حين يخوض هذه الغمار، إنما يسلك مسالك متعددة، ولأن الحاجة أم الاختراع، فالعقل ذاته يجد فى سبيل استحداث أنماط أو طرائق أو أساليب فكرية تساهم معه فى تقديم حلول

---

(١) سورة إبراهيم – الآية ١٨ .

(٢) العلامة نور الدين صبحى الدمشقى – الفلسفة بين الحقيقة والخيال ص٩٣ ط٢ الدار الإسلامية ١٣٣٧هـ.

(٣) النمط هو الطريقة أو الأسلوب، كما يطلق على الجماعة من الناس الذين أمرهم واحد، ويطلق كذلك على الطراز من الشيء والصنف والنوع. [لويس معلوف – المنجد فى اللغة والأعلام والآداب – باب النون]

(٤) النسق: ما كان على نظام واحد من كل شيء. يقال: جاء القوم نسقا، وزرعت الأشجار نسقا. [العلامة الزمخشرى – أساس البلاغة – باب النون والسين وما يثالثهما]

(٥) راجع كتابنا: التفكير الإنسانى أصوله ومستوياته ص٨١ .

(٦) راجع كتابنا: التيارات الفكرية ص٢٢٥ .

للمشكلات التي تعترض طريقه في الوصول للحقيقة، أو تمثل بالنسبة له بعض المعوقات التي تقف في سبيل بلوغ تلك الغاية[1].

فإذا كانت الأنماط الفكرية في الماضي قد انحصرت في نوعين هما النظري والعملي، إلا أنها في العصر الحديث تخطت ذلك كله، فصار النظري أنواعا، والعملي أنواعا، بل صار كل نوع منهما تمثله مجموعة تجارب فكرية، واتجاهات علمية، وتقع في بعضها التجربة، كما يقع في البحث الآخر الحدس العقلي.

ومن ثم انقسمت العلوم إلى:

أ- نظرية صرفه. ب- عملية صرفه.

جـ- سلوكية[2].

وربما ارتبط ذلك بالبحث في الأفعال الإنسانية أيضا، حيث انقسمت إلى:

أ- أفعال اضطرارية كلها. ب- أفعال اختيارية كلها.

جـ- أفعال تجمع بين الاضطرار والاختيار[3].

وكان من جراء ذلك أن انقسم الحكم على الأفعال بأنها:-

أ- إما خيرة كلها. ب- إما شرية كلها.

جـ- إما جامعة بين الخيرية والشرية.

ولما كان كل علم من العلوم أو فعل من الأفعال، وحكم من الأحكام يحتاج طرائق للبحث فيه، ونتائج يتوقف عليها؛ فإن الفلسفة هي التي تمهد لذلك كله على سبيل المساهمة الإيجابية، هي أنها تتولد عنها حركة عاقلة، تنتهي الى استحداث طرائق على درجة عالية من الأهمية عند النظر في أنماط الفكر وأنظمته، وكما أن فكرة الأنا بأنواعها[4]، فقد احتاجت مناهج لدراستها، فإن فكرة

---

(١) راجع كتابنا: التفلسف (مفهومه - بواعثه - خصائصه) فقد تعرضت فيه لتحليل بعض هذه المظاهر.

(٢) هذا التقسيم غير التصنيف الذي قد يتجه إليه بعض أصحاب البحث في المناهج.

(٣) راجع للزميلة سنو عبدالرحمن عبده - الفعل الإنساني بين المتكلمين والأخلاقيين والفلاسفة.

(٤) هناك الأنا الذاتي والأنا الآخر، والأنا الأعلى، وكان واحدة منها تقوم على دراستها مباحث بذاتها. [راجع للدكتورة نماد شمر - الأنا والأنا الآخر ص٤٧ وما بعدها - طبعة دار باهر كركوك ١٩٨٧م] والأنا الشخصي : هي الوحدة الدنيا... التي تؤلف الفرد، أو هي تجربة الفرد لنفسه، أو تصوره الكلي لذاته. [راجع: أسعد رزق - موسوعة علم النفس ص٤٧ - مراجعة الدكتور عبدالله عبدالدايم]. أما الأنا الأعلى : فهو اصطلاح يستخدمه علماء التحليل النفسي مجاراة لفرويد للدلالة على تكوين يحدث في العقل الباطن، يقوم بوظيفة الضمير بالنسبة لكل من الأنا الواعية ومخزون الدوافع والبواعث اللاواعية، التي تتم في معظمها طبيعة جنسية يتكون الأنا الأعلى من تجارب مفكره تفود بكل رئيس إلى علاقات الولد بالأبوين، وهو الذي يقترن به الأخلاق الاجتماعية، وينتقد أفكارنا وأفعالنا جامعا بين الوعي واللاوعي. [راجع الدكتور سعدون رزق - موسوعة علم النفس ص٤٧- مراجعة الدكتور عبدالله عبدالدايم - المؤسسة العربية للدراسات والنشر ط٢ /١٩٧٩م]

الهو[1] هى الأخرى صارت بحاجة إلى أنظمة منهجية، تتوافر عليها لدراستها وتقديم الفائدة المرجـــوة
منها، وكان ذلك من الفوائد التى عكفت عليها الفلسفة إبانة لها وتفصيلا.

ويذكر المؤلفون أن الحضارة ظهرت فى أرض مصر منذ أقدم عصور ما قبل التاريخ، وأنه قـد
وجدت أثار العصر الحجرى الأول، الذى يرجع إلى اثنين وأربعين ألف عام قبل العصور التاريخية، فى
جبل القربة غرب النيل من ناحية الأقصر، وكذلك فى صحراء العباسة من شمال القاهرة[2]، وكـــان
الإنسان فى تلك العصور الغابرة يستخدم الحجر الصوان فى صنع الأدوات التى يستخدمها فى الصيـد
والدفاع عن نفسه، وفى هذا العصر كانت تنتشر الحضارة[3] ما قبل التاريخية فى أفريقيـــا والشـــرق
الأدنى، وجنوب غرب أوربا حول شواطئ البحر الأبيض المتوسط، وكان إنسان العصـــر الحجـــرى
يعيش فى الكهوف، وتحت الصخور، ويعتمد فى غذائه على القنـــص والصيـــد، بجـــانب الزراعـــة
والرعى[4]، وكان ذلك كله يحتاج عقلية متمكنة، تستطيع إيجاد أنماط فكرية، يكون بإمكانها الموائمـة
بين ظروف العصر وحاجيات الكائن الحى، ولم يكن ذلك الدور ليقوم به أحد سوى المفكرين الذين
عشقوا الحكمة، وانطلقوا فى طريقها إلى أبعد مدى.

بيد أن دور الفلسفة لم يتوقف عند مجرد المساهمة فى إيجاد أنظمة وأنماط فكرية جديدة علـــى
ناحية نظرية، وإنما تخطى ذلك كله إلى المجال التطبيقى النقدى، فصارت الفلسفة الإسلامية جديـــرة
بإطلاق صيغة التأمل العقلى والتجربة العملية على مباحثها من الناحية الفنية.

كما أن الفلسفة عند تحليلها للنظم الفكرية وروابط الحياة الاجتماعية ومظاهرها، فإنها تنظـــر
إليها نظرة واقعية، ترتبط ارتباطا وثيقا بالواقع المعاش نفسه، بحيث تعمل على تلبية احتياجات أفراده،
والموائمة بين الإمكانيات والمتطلبات[5]، وذلك مما يسترعى الانتباه، كما يستلزم ضرورة البحث عـــن
طرائق جديدة أيضا، يمكن أن تواجه المشكلات المستجدة، وهو مما يساعد على إيجاد أنماط فكريـــة
جديدة، سواء تعلقت بطرق مواجهة المستجدات، أم تعلقت بالحلول المباشرة لها، باعتبار أن الفلسفة
هى البحث عن الحقيقة، والسعى إلى تحقيق الخير والجمال[6].

---

(١) تعتبر فكرة الهو رد فعل موقفى لفكرة الأنا، ولذلك يعتبرها البعض من النظريات التى تجيء بين الفعل المطرد، والفعـــل
المنعكس. [راجع لتيرى بايرين – الأنا والهو (دراسة سيكولوجية) ص٤٧ – ترجمة يوسف مرقص].
(٢) وموقعها الحالى فى محافظة الشرقية، ما بين بلبيس وأبو حماد والملاك، وهى مشهورة بآثارها وبرك الصيد وتربية الخيـــول
العربية الأصيلة.
(٣) تعرف الحضارة بعدة تعريفات منها : « أنها ذلك النمط من الحياة المستقرة، الذى يقتضى فنونا مـــن العيـــش والعلـــم
والصناعة وإدارة شئون الحياة والحكم وتوطيد حياة الدعة وأسباب الرفاهية. [الأستاذ توفيق محمد سبع – قيم حضاريـــة
فى القرآن الكريم – عالم ما قبل القرآن ج١ ص٢٢ ط دار المنار بالقاهرة].
(٤) الدكتورة: نازلى إسماعيل حسين – فلسفة الحضارة ص١٨ طبعة سعيد رأفت .
(٥) الدكتور فوزى السيد البنان – الفلسفة والمجتمع ص٤٧ طبعة دار منصور ١٩٥٤م.
(٦) الدكتورة نازلى إسماعيل حسين – فلسفة الحضارة ص٣ .

ولعل أفلاطون[١] اليونانى كان من أكثر أهل اليونان بعد سقراط حرصا على التوسع العلمى فى إيجاد أنماط فكرية جديدة، حتى إذا جاء أرسطو من بعده، أضاف إلى ما تركه أفلاطون الكثير الذى نسب إليه استقلالا، فكل منهما أدى واجبه الفلسفى على الناحية التى أمكنه القيام بها.

أما عند فلاسفة المسلمين فقد كانت الفلسفة الإسلامية من أوسع العلوم بحثا عن الطرائق والأنماط الفكرية الجديدة، يستوى ذلك بحثها فى أمور الدنيا كلها؛ لأنها قائمة على النقل المنزل، كما أنها فتحت أفاقا للتأمل الفكرى فى الملكوت كله، من خلال التأمل المتواصل فى النقل المنزل، فكانت الفلسفة الإسلامية هى المتميزة بهذا الجانب على الناحية التوثيقية أيضا.

هـ الدفاع عن العقيدة الإلهية

ما من شك فى أن الفلسفة الإسلامية تقوم بدور فعال فى الدفاع عن العقيدة الإلهية، من حيث تقريرها على ناحية عقلية، وإزاحة الشبهات من طريق الإيمان بهذه العقيدة الإلهية؛ لأن الغاية التى تقصد إليها فى تعلم الفلسفة هى معرفة الخالق سبحانه وتعالى[٢]، وذلك يستلزم الدفاع عنها بكل ما لدى المفكر المسلم من قوة، أو أدنى سبب من الأسباب.

وقد ظهرت هذه الفائدة لدى فلاسفة الإسلام، الذين كان إيمانهم بالله والوحى الإله السماوى هو الدافع[٣] لهم على ممارسة ذلك، كما كانت ثقتهم بالعقل ومذاهبهم الفكرية من

---

(١) هو افلاطون بن أرستون وبركيتوس، من أعظم فلاسفة اليونان، ومن أفضل تلاميذ سقراط، وهو أستاذ أرسطو. ولد فى أثينا عام ٤٢٧ق.م ومات بها عام ٣٤٧ق.م، كان من أسرة أرستقراطية، عاشت على الثراء، فعلمته خير تعليم، واعتنى بالرياضيات والفلسفة، عرف سقراط ولزمه، حتى حكم على سقراط بالإعدام، وبعده غادر أثينا رحالة إلى بلاد كثيرة، ثم رجع إلى أثينا مرة أخرى، وأنشأ بها معهدا عرف بالأكاديمية، له مؤلفات عديدة، جاوزت الكثير، وله ثلاثون محاورة فلسفية، من أهمها: بارمنيدس والسوفسطائى، وفيتاتوس، والجمهورية، فيدون، طيقرون. [راجع الموسوعة الفلسفية المختصرة - ترجمة فؤاد كامل ص٥٤٥، والموسوعة الفلسفية - وضع لجنة من العلماء السوفيت ص٥٤٠]

(٢) الدكتور: عبداللطيف محمد العبد - دراسات فى الفكر الإسلامى ص٦٦ طبعة الأنجلو المصرية ١٩٧٧م.

(٣) الدافع فى اللغة هو : القوة الحادفة ، التى تلحئ إلى غاية معينة ، مستخدمة الأسباب الموصلة بحركة قوية ، تستهدف الإزاحة ،سواء للإنشاء أو للانتهاء .، ويعرف فى الاصطلاح بأنه: « ما يدفع به الخصم حجة خصمه عند الحاكم الشرعى »(المعلم / بطرس البستانى - دائرة المعارف - قاموس عام لكل فن ومطلب - المجلد السابع ص٧٠٤ (طبعة ١٨٨٣م - مطبعة المعارف ببروت) . ويعرفه علم النفس بأنه : عبارة عن عامل داخلى ، يستثير سلوك الإنسان ، ويوجهه ، ويحقق فيه التكامل(أدوارد د.ج موراى - الدافعية والانفعال ص١٨٣ (الطبعة الأولى - دار الشروق ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م) .) ، بحيث لو لم يوجد ذلك الدافع - ما تم ذلك التكامل . والدافع « يستعمل بكل بساطة للدلالة ، على فكرة تستخدم ، لكى نوضح بها ، أن سلوك الكائن الحى ، يتوقف فى تغيره وتعديله ، على إخضاع الكائن الحى ، وتعرضه أو تعريضه لعمليات معينة ، ونجد أن الدافع يعتمد فى ظهوره على الطاقة المختزلة بالجسم ، وهو الذى يوجهها »(الدكتور / مصطفى فهمى - الدوافع النفسية ص٣٩ (الطبعة الخامسة - مكتبة مصر - دار مصر للطباعة ١٩٦٠م) .) . وهى تنقسم إلى "١-: الدوافع الفطرية، و» هى الدوافع التى تكمن فى الإنسان ، ويولد مزودا بها ، ولا يمكنه الاستقلال عنها أو الانفصال ، وإن أمكن تعديلها فى مراحل العمر«. ٢-: الدوافع المكتسبة » هى عكس الدوافع الفطرية ؛ حيث لا يولد الفرد مزودا بها ، بل يكتسبها بعد ولادته من خلال التطور الزمنى للإنسان ؛ وهى تتنوع مع تنوع خبراته ،والمواقف التى يتعرض لها ، وطبيعة كل مرحلة عمرية يمر بها «.[راجع للباحثة نجلاء مصطفى بدوى - الدوافع فى العهد القديم وموقف القرآن الكريم منها - رسالة ماجستير ١٤٢٣هـ/٢٠٠١م]

البواعث عليه أيضا، وفعلا استطاع فلاسفة الإسلام استخدام المصطلح الفلسفى بمعناه الفنى عند غيرهم، ثم أفرغوه من المحتوى المرفوض[1]، ووضعوا بداخله مضمونا آخر شرعيا، يتفق مع ما تهدف إليه النصوص الإسلامية.

وكان مفكرو الإسلام هم الذين أقاموا هذه الفائدة، كما كان لهم فيها باع طويل، وقدم ثابتة، وفوق ذلك فإنها قد أبانت عن مناطق الضعف فى الفكر الغير إسلامى، مما حدا بالكثيرين ممن يتناولونه إلى التفكير فى الانصراف عنه والاتجاه ناحية الفكر الإسلامى، باعتبار أن الدين الإسلامى هو الوحيد الذى سلمت نصوصه، مما أصاب مصادر الآخرين من تحريف[2] بالزيادة أو النقصان أو التبديل[3]، وذلك مما جعل أى مفكر غير مسلم يشعر بالإحباط، إذ كيف يدافع عن عقيدة لم تسلم

---

(١) راجع كتابنا: رياض الأشواق فى الميتافيزيقا والأخلاق ص٥٩ وما بعدها.

(٢) يعرف التحريف فى الاصطلاح بعدة تعريفات منها: أنه الخروج عن جادة الطريق، أو إخراج الوحى والشريعة عما جاءت به، إما بتبديل وهو قليل، وإما بكتمان بعض وتناسيه، وإما بالتأويل البعيد. [الشيخ محمد الطاهر بن عاشور - تفسير التحرير والتنوير ج١ ص٥٤٦ - ط١ - الحلبى ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م] كما يعرف بأنه إمالة الشيء عن وضعه، وذلك إما أن يكون فى اللفظ أو فى المعنى، إلا أن حمله على تغيير لفظ أولى من حمله على تغيير المعنى؛ لأن كلام الله تعالى إذا كان باقيا على جهته، وغيروا تأويله، فإنما يكونون مغيرين لمعناه، لا لنفس الكلام المسموع، فإن أمكن أن يحمل على ذلك كما روى ابن عباس من أنهم زادوا فيه ونقصوا فهو أولى، وإن لم يكن ذلك فيجب أن يحمل على تغيير تأويله، وإن كان التنزيل ثابتا، وإنما يمتنع ذلك إذا ظهر كلام الله متواترا كظهور القرآن الكريم.[الإمام الفخر الرازى - مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) - ج١ ص٣٣٩ - ط١ المطبعة العامرة ١٣٠٨هـ، وراجع للإمام الطبرى - جامع البيان فى تأويل أى القرآن م١ ص٢٩٢/٢٩٢ - دار الجيل - بيروت ط٣/١٩٥٤م] والتحريف هو الانحراف بالأصول من الوجهة الصحيحة إلى غيرها، وهو فى الكتب السابقة على دين الإسلام قسمان:- القسم الأول: التحريف اللفظى: ويعرف بأنه وضع لفظ أو مجموعة من الألفاظ مكان أخرى، على طريق التبديل أو الزيادة أو النقصان، والمقصود به تبديل الألفاظ أو زيادتها أو نقصانها. [الشيخ رحمت الله الهندى - إظهار الحق ج٢ ص٤٢٧ تحقيق: دكتور محمد أحمد ملكاوى] وأنواعه ثلاثة: هى: النوع الأول: التحريف بالزيادة على الكتب المنزلة بإضافة أجزاء إليها كتبها هؤلاء المزيفون، حتى تبيح لهم بعض الممارسات غير المشروعة.النوع الثانى: التحريف اللفظى بالنقصان من تلك الكتب بحذف بعضها، مما يدين أعمال المنتسبين إلى هذه المصادر النوع الثالث: التحريف بالتبديل اللفظى، وهو فروع، فقد يكون التبديل فى الألفاظ، وقد يكون فى تقديم موضوعات وتأخير أخرى، وقد يكون بتبديل المعانى حتى يقع الإضلال. القسم الثانى: التحريف المعنوى، وهو أنواع ثلاثة كالحال مع التحريف اللفظى. [راجع للباحث عمر عبدالقادر - جهود الشيخ رحمت الله الهندى فى الدين والعقائد - رسالة ماجستير بمعهد الدراسات والبحوث الأسيوية - جامعة الزقازيق ٢٠٠١م بإشرافنا]

(٣) يعرف بأنه الإبدال والإخفاء والكتمان/ وذلك مثل الذين حرفوا لكلام الله وأحكامه فى كتبهم عن الأوضاع التى وضعها الله فيها على حسب أهوائهم، إما بإبدال كلمة بكلمة، وإما بإخفاء ما فى كتابهم وكتمانه. يقول يهود خيبر لمن أرسلوهم لاستفتاء الرسول فى أمر الزانيين، إن أفتاكم محمد بهذا الحكم وهو التحميم والجلد فخذوه واقبلوه، وإن أفتاكم بغيره فاحذروا أن تقبلوه. [الأستاذ محمود محمد حمزة وآخرون - تفسير القرآن الكريم - م٢ ص٤٩ طبعة دار المعارف ١٩٨٢م].

له النصوص التي تنقلها، و لم يتفق عليها أصلا الداعون لها، بل أنهم الذين أعلنوا عدم سلامتها من كل ناحية.

◈ **وربما يقال:** إن أصحاب كل عقيدة يدافعون عنها، فلماذا تمسكت بأهل الفكر الإسلامى، و لم تذكر دفاع أو موقف غيرهم من أصحاب الديانات الأخرى؟

والجواب: أن هناك فروقا عديدة تنتهى كلها إلى أن الذى يدافع عن العقيدة الإلهية هم أهل الإسلام فقط. أما لماذا؟ فلما يلىْ:

❊ **أولا: أنه لا توجد أديان أو ديانات أخرى صحيحة**، إنما الدين الصحيح الوحيد هو دين الإسلام، دين رب العالمين الذى شرعه الله تعالى، ونادى به كل الأنبياء والمرسلين، وهو دين السلام، أما غيره فهى مقترحات تتعلق بأصحابها. قال تعالى: **﴿ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾**(١).

قال العلامة الحافظ ابن كثير – رحمه الله – : « من سلك طريقا سوى ما شرعه الله فلن يقبل منه، ﴿ وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح: "من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد" »(٢).

❊ **ثانيا: أن أصحاب هذه الديانات المزعومة، إنما يدافعون عنها من باب المعرفة**،لا من باب الاعتقاد، وبالتالى فالمعرفة تنقص وتزيد، ويحدث لها النسيان والتذكر، وتقع من الدافعين عنها موضوع القبول لـ ـعـ ـبـ مصادرها والرفض لبعض أخر، وكذلك الحال مع نتائجها، وبالتالى فالدفاع عنها يكون غالبُا دفاعا مؤقتا، من باب الغلبة للدليل أو الجدل(٣)، وذلك لا يمثل عقيدة تقود صاحبها للتمسك بها، بقدر ما يعبر عن جانب معرفى، لا علاقة له بالاعتقاد أبدا.

---

(١) سورة آل عمران – الآية ٨٥ .

(٢) العلامة لحافظ ابن كثير – تفسير القرآن العظيم (٢/٢١٢) . والحديث رواه ابن ماجة في سننه – باب تعظيم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم والتغليظ على من عارضه – الحديث رقم:١٤ – وأبو داود في سننه – باب في لزوم السنة – الحديث رقم:٤٦٠٦ـ بلفظ « عن القاسم بن محمد، عن عائشة:أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه، فهو رد) » والمراد بـ: [(في أمرنا) أي في شأننا. فالأمر واحد الأمور. أو في ما أمرنا به، فالأمر واحد الأوامر. (فهو رد) أي مردود على صاحبه غير مقبول عند الله تعالى]

(٣) والموسف له أن البعض ممن ينتسبون للعلم أو يزعمون الانتساب إليه يمارسون الجدل المنهى عنه شرعا، بكل ما لديهم من طاقة، أو أوتوا من قوة، أو أمكنهم من حيلة إنهم يندفعون إليه بفرض الجدل واللجج، والمحزن أنهم لا يراعون قواعد الجدل، كما لا يحسنون السير فى الاتجاه الذى ربما أخذ بهم إلى طريق النجاة، وقد نهى الرسول ﷺ عن ممارسة ذلك، ففى الحديث الشريف عن أنس بن مالك قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما ونحن نتمارى في شيء من أمر الدين فغضب غضبا شديدا لم يغضب مثله ثم انتهرنا فقال مهلا يا أمة محمد إنما هلك من كان قبلكم بهذا أخذوا المراء لقلة خيره ذروا المراء فإن المؤمن لا يماري ذروا المراء فإن المماري قد تمت خسارته ذروا المراء فكفاك إثما أن لا تزال مماريا ذروا المراء فإن المماري لا أشفع له يوم القيامة ذروا المراء فأنا زعيم بثلاث أبيات في الجنة في رباضها ووسطها وأعلاها لمن ترك المراء وهو صادق ذروا المراء فإن أول ما نهاني عنه ربي بعد عبادة الأوثان المراء وشرب الخمر ذروا المراء فإن الشيطان قد يئس أن يعبد ولكنه قد رضي منكم بالتحريش وهو المراء ذروا المراء فإن بني إسرائيل افترقوا على إحدى وسبعين فرقة والنصارى على ثنتين وسبعين فرقة كلهم على الضلالة إلا السواد الأعظم قالوا يا رسول الله ومن السواد الأعظم قال من كان على ما أنا عليه وأصحابي من لم يمار في دين الله ومن لم يكفر أحدا من أهل التوحيد بذنب غفر له ثم قال إن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا قالوا يا رسول الله ومن الغرباء قال الذين يصلحون إذا فسد الناس ولا يمارون في دين الله ولا يكفرون أحدا من أهل التوحيد بذنب. [الإمام الطبراني – المعجم الكبير ج٨ ص١٥٢ رقم:٧٦٥٩]

❋ **ثالثا: إن مفكرى الإسلام يتمسكون بالعقيدة الإلهية التى جاء بها النبى الخاتم سيدنا محمد ﷺ** ؛ لأنها العقيدة الوحيدة الصحيحة، التى تعبر عن دين الإسلام، وينقلها لكل العالمين مصدر ثابت أصيل هو النقل المنزل – القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة الصحيحة – فدفاع أهل الإسلام إنما هو دفاع عن عقيدة قلبية عقلية إيمانية ومعرفية معاً، وبالتالى فهم يصطنعون لها الوسائل الدفاعية بقدر ما يتاح لهم.

❋ **رابعا: أن العقيدة الإلهية عندنا – نحن المسلمين – لا تطالب الناس بإغماض عيون عقولهم**، أو قلوبهم وإنما تدفعهم إلى فتحها عن آخرها، وبذل المجهود فى التأمل العقلى، ثم تقديم البراهين على كل ما يدعونه أو يدعون إليه. قال تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[١].

◈ **وربما يقال أيضا**: إن من وظائف الفلسفة الإسلامية الاستدلال على العقيدة الإلهية، وذلك يستلزم الدفاع عنها، فكيف يكون الدفاع عن العقيدة الإلهية فائدة من فوائد الفلسفة، ألا يمثل ذلك قبلم الشيء الواحد – وهو الدفاع عن العقيدة – مقامين: أحدهما فى وظيفة الفلسفة، وثانيهما: فى فوائد الفلسفة؟

☜ **والجواب**: أن وظائف الفلسفة غير فوائدها، والتقارب فى المفاهيم لا يعطى لأحد الحق فى دمجهما معا؛ لأن اللغة حاكم على أن لفظ الوظيفة غير لفظ الفائدة، وبالتالى فكل منهما غير الأخرى، على ناحية اللغة، ولا منازعة فى ذلك، على اعتبار أن الألفاظ أثواب المعانى التى لا ترى إلا من خلالها[٢].

كما أن مفكرى الإسلام حينما كانوا يتحدثون عن وظائف الفلسفة على العموم، فقد اضطروا لإضافة بعض فوائد الفلسفة الإسلامية إليها هناك، من باب أن ما لا يدرك كله لا يترك كله، ومن ثم فهم قد عرضوا من وظائف الفلسفة والحكمة الإسلامية، الاستدلال على وجود الله تعالى من حيث طرائق الاستدلال، وأدلته التى يلجأون إليها على سبيل الغرض الاسمى، عرضا لها، وشرحا لقواعدها، وبيانا لمصادرها، أما الدفاع عنها فكأن يأتى هناك عرضا، أو على سبيل زيادة الشرح والتوضيح، لكنها فى فوائد الفلسفة أظهرت الدفاع عن العقيدة كغرض أصيل من أغراضها، وفائدة من فوائدها، لا يمكن التخلى عنها، أو تجاوز مناطق الإمساك بها[٣]، وتلك فائدة عظمى متى قيست بغيرها على ناحية فنية.

---

(١) سورة النمل – الآية ٦٤ .

(٢) راجع فى ذلك الشأن: المعاجم العربية لترى أن مادة و ظ ف غير مادة ف ي د، كما أن مدلولات كل منهما تتخالف مع الأخرى، ومن ثم فلا يمكن القول بأن الوظيفة هى الفائدة، ولا العكس.

(٣) ولا شك أن هذا الفارق الجوهرى يمثل طبيعة كاشفة ثابتة، لكل من الوظيفة والفائدة، كما يمثل فرقا دقيقا بين عرض الفكرة وطرائق الدفاع عنها.

❁ **يقول الشيخ الإنطاكى:** إن كل عملية عقلية قام بها مفكرو الإسلام، بغرض الدفاع عن العقيدة الإسلامية، تدخل فى النطاق الطبيعى لفوائد الفلسفة، كما أن كل عملية عقلية من هذا القبيل بغرض بسط العقيدة الإلهية على سبيل الشرح لها أو التعريف للواسع بها، إنما تدخل فى النطاق الطبيعى لوظائف الفلسفة[١]، ومن ثم فكل وظائف الفلسفة غير فوائد الفلسفة، وعلى الخصوص الحكمة أو الفلسفة الإسلامية.

كما أن المفكر المسلم عند الاستدلال على العقيدة الإلهية يسلك أولا مسالك العرض لأجزاء العقيدة، مع التماس طرائق الاستدلال لكل جزء منها على حدة، وهو ما يعرف بمنهج التحليل[٢]، ثم يأخذ فى الاستدلال عليها جميعا فى وقت واحد، وهو المعروف بمنهج التركيب[٣]، ولا شك أن فى ممارسة المنهجين معا مهمة شاقة بالنسبة للمفكر المسلم، الذى يبذل قصارى جهده، حتى يصل بالعقيدة إلى مفاهيم الناس، الذين يختلفون فى مداركهم ومعارفهم ومستوياتهم الفكرية.

أما حين الدفاع عنها، فإنه يلجأ إلى وسائل الهجوم التى يتمسك بها الخصوص، ثم يتسلح بها حتى يكشف لهم عن أوجه الفساد فيها، فإذا أبان لهم أوجه ضعفها، فإنهم حتما سيتخلون عنها كلا أو بعضا، فإذا وقع لهم التخلى عنها كلية، فقد أصاب هدفه، وإن أمكنه أزاحتهم عن بعضها، فقد أصاب هدفه أيضا[٤]؛ لأن الذى يتشكك فى جزء من عقيدته يقع حتما شكه منها كلها، ومثله يكون من السهل عليه عرض العقيدة الإلهية من جديد، فربما فتح الله عليه وأنضم لفريق حزب الله المؤمنين به.

﴿ قال تعالى: ﴿لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الأخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه

---

(١) الشيخ محمد بن نصر الله الإنطاكى – الروح والنفس والعقيدة عند المسلمين ص٥٧ طبعة دار حكمت الله بالأستانة ١٣١٥هـ.

(٢) ومن مظاهر ذلك فى القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم﴾ [سورة الحشر – الآية ٢٢] ولا شك أن ذكر هذه الأسماء على سبيل العد كل اسم على حدة، إنما يمثل طبيعة منهج التحليل.

(٣) وقد جاء ذلك فى القرآن الكريم مثاله قوله تعالى: ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون﴾ [سورة الأعراف – الآية ١٨٠]

(٤) وقد عرض القرآن الكريم صورة عملية لهذا الجانب فى قوله تعالى: ﴿قل من يرزقكم من السماء والارض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون﴾ [سورة يونس – الآية ٣١]، وقوله تعالى: (قل من يرزقكم من السماوات والارض قل الله وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين) . [سورة سبأ – الآية ٢٤]

وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾(١).

وربما انطمست مع بصره الكافر بالله المؤمن بالجبت أو الطاغوت بصيرته، فانحاز كلية إلى حزب الشيطان. قال تعالى: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾(٢).

ولا شك أن معرفة الله تعالى والدفاع عن العقيدة الإسلامية، وتثبيتها فى النفوس والتأكيد عليها يعتبر من أعظم فوائد الفلسفة، إن لم يكن أعظمها على الإطلاق.

وفى تقديرى: أن عرض العقيدة الإلهية من باب الاستدلال عليها، يكون من وظيفة الفلسفة الإسلامية، ومن طبيعة المفكر المسلم، وأما الدفاع عن هده العقيدة، فإنما هو من صميم فوائد الفلسفة الإسلامية، كما أن المصادر الإسلامية قد أبانت المنهجين، ففى المنهج الأول إشارات قرآنية، من دلك قوله تعالى : ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾(٣).

ﷻ وقوله تعالى ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلا نَعْبُدَ إِلا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾(٤).

ﷻ وقوله تعالى:﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ

---

(١) سورة المجادلة – الآية ٢٢ . « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون على سبيل المصادقة من حاد الله ورسوله ولو كانوا أي المحادون آباءهم أي المؤمنين أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم بل يقصدونهم بالسوء ويقاتلونهم على الإيمان كما وقع لجماعة من الصحابة رضي الله عنهم أولئك الذين لا يوادونهم كتب أثبت في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح بنور منه تعالى ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم بطاعته ورضوا عنه بثوابه أولئك حزب الله يتبعون أمره ويجتنبون نهيه ألا إن حزب الله هم المفلحون الفائزون ». [تفسير الجلالين ج١ ص٧٢٩]

(٢) سورة المجادلة – الآية ١٩ . يقول العلامة الطبرى : « يعني تعالى ذكره بقوله استحوذ عليهم الشيطان غلب عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان يعني جنده وأتباعه ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون يقول ألا إن جند الشيطان وأتباعه هم الهالكون المغبونون في صفقتهم » [الطبري – جامع البيان ج٢٨ ص٢٥]

(٣) سورة العنكبوت – الآية ٤٦ .

(٤) سورة آل عمران الآية ٦٤ .

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ ﴾(١) .

وفى المنهج الثانى إشارات قرآنية أيضا، منها قوله تعالى قال تعالى : ﴿وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾(٢). وقوله تعالى: ﴿فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ ﴾(٣).

٦- تعبئة المصطلحات(٤) الفلسفية بنصوص شرعية

أجل استطاع مفكرو المسلمين التعامل مع الأفكار الموجودة على الساحة الفكرية، واقتناص أفضلها، ثم فحصه على الناحية الشرعية، فلما بان لهم أن بعض هذه الأفكار يصعب استخدامه والتعامل معه فى البيئة الإسلامية بنفس المفاهيم التى تصاحبه فى البيئات الأخرى قام أهل الإسلام بتفريغ ذلك اللفظ المصطلح عليه من مفهومه عند الوثنين، وأصحاب الاعتقادات الفاسدة، بحيث صار هذا المصطلح كالزجاجة التى خصصت للتعبئة بالخمر، ثم قام صاحبها بإفراغ ما فيها من خمر على الأرض، كما قام بغسلها وتطهيرها على كل ناحية، فلما طابت له، اختزن فيها عسل النحل ليستخدمه متى شاء فى الدواء أو الصحة العامة أو الغذاء.

---

(١) سورة التوبة الآية ٦ . يقول الإمام القرطبى : « تدل الآية الكريمة على أن ، من يأتى إلى دار الإسلام من المشركين، ليفهم أحكام الإسلام ، وأوامر الله عز وجل ونواهيه ؛ وجب علينا أن نعطيه الأمان ، ليتمكن من ذلك ، فإن قبل الإسلام ؛ فهذا هو المراد ، وإن أبى ؛ يحرم قتله ، ويجب علينا رده إلى مأمنه ، وهو المكان الذى يأمن فيه على نفسه » .[الإمام القرطبى – الجامع لأحكام القرآن الكريم للعلامة القرطبى ٣٠٠٣/٤]، ويقول العلامة الزجاج : « المعنى إن طلب منك أحد من المشركين – أن تجيره من القتل ، إلى أن يسمع كلام الله فأجره » .[العلامة الزجاج – معانى القرآن وإعرابه ٤٣١/٢ – شرح وتحقيق الدكتور: عبدالجليل عبده شلبي – الطبعة الثانية – دار الحديث – القاهرة ١٤٦٨هـ/١٩٩٧م] ويقول العلامة الفخر الرازى : « إن هذه الآية تدل على أن التقليد غير كاف فى الدين ، وأنه لابد من النظر والاستدلال ؛ وذلك لأنه لو كان التقليد كافيا – لوجب أن لا يمهل هذا الكافر ، بل يقال له: إما أن تؤمن ، وإما أن نقتلك، فلما لم يقل له ذلك ، بل أمهلناه ، وأزلنا الخوف عنه ، ووجب علينا أن نبلغه مأمنه، علمنا أن ذلك إنما كان لأجل أن التقليد فى الدين غير كاف ، بل لابد من الحجة والدليل ، فأمهلناه وأخرناه ، ليحصل له مهلة النظر والاستدلال » .[مفاتيح الغيب (التفسير الكبير للفخر الرازى) ٥٧٧/٧ – طبعة دار الغد العربى] ويقول الإمام الشربينى: « ولا تجب إجابة من طلب الأمان إلا إذا طلبه لسماع كلام الله ، فتجب قطعا » [الإمام الخطيب الشربينى – مغنى المحتاج للإمام الخطيب الشربينى ٢٣٧/٤]

(٢) سورة التوبة – الآية ٣٦ .

(٣) سورة البقرة – من الآية ١٩١ .

(٤) يعرف المصطلح على الناحية الفنية بأنه اتفاق جماعة أو قوم مخصوص على استعمال لفظ بعينه فى علم بعينه للدلالة على معنى بذاته، وتسمى الاصطلاح الخاص. [الشيخ أحمد بن سعيد النكلاوى – اللغة والمصطلحات ص٢٣ – طبعة دار توفيق ١٣١٩هـ]

- **مثال ذلك:** مصطلح المحرك الأول الذى نظر إليه اليونان على أنه الذى حرك العالم من العدم إلى الوجود، ثم تركه واختفى وظل العالم المتحرك يبحث عن محركه الأول فى حركة جذب وشوق لا ينقطعان، ومن أثر الحركة الأولى مازال العالم العنصرى يتحرك منجذبا فى شوق مستمر[١]، دون أن يكون له خالق عظيم.

ومع أنها أفكار نمت فى رحاب العقلية اليونانية، وتمسك بها أهل اليونان فترة من الزمان، إلا أنها لم تصب الحقيقة، وإنما غابت عنها بسائط العقيدة، باعتبار أن المحرك الأول عندهم الذى حرك العالم من العدم إلى الوجود، لا يمكن أن يختفى، حتى يبحث العالم عنه؛ لأن الذى حرك العالم لا بد له أن يتصف بالقدرة العظيمة، والإرادة المتسعة، والعلم الذى لا يحدث[٢]، ومن كان ذلك شأنه، فلابد له من صفات الكمال والجلال والإكرام، وبالتالى فهو وحده الذى يتولى العالم على كل ناحية وجودا أو عدما خلقا جديدا وخلقا مستمرا.

إذن مصطلح المحرك الأول أخذه الفيلسوف المسلم، ثم بذل مجهودا فكريا للتعرف عليه، من ناحية القوم الذين استخدموه، فلما تبين له أنهم قصدوا به الخالق العظيم جل علاه، لم يترك ذات المصطلح، وإنما أسرع بالحديث عنه ذاتا وصفات وأفعالا[٣]، ولأن المحرك الأول ليس اسما من أسماء الله الحسنى؛ لأنها توقيفية، فقد نعت هذا المصطلح بالنعوت التى لا تنطبق من حيث الحقيقة، إلا على الله تعالى، وكأنه بذلك يريد أن يقول لهم: إن المحرك الأول فى مفهومكم هو الله عز وجل عندنا، وقد ألزمتكم به؛ لأنكم الذين تحدثتم عنه، وهكذا حقق المفكر المسلم فائدة جديدة فى دفاعه عن العقيدة الإلهية.

- **مثال آخر:** مصطلح الجوهر الفرد[٤] ساد هذا المصطلح لدى اليونان والصينيين، ثم انتقل إلى أهل بابل فى العصور القديمة، وكانوا يعنون به أول الأمر، الذى لا يحد بصفة من الصفات، يتساوى مع المحرك الأول من ناحية سبقه لكل ما عداه، واستقلاله عن كل الكائنات إلى حد التفرد عنها، فلما وقف المفكر المسلم على مصطلح الجوهر الفرد عندهم، وجد أنه يمثل صورة مادية بحتة، باعتبار أنه الذى لا يقبل الانقسام إلى أجزاء، لكن له صورة مادية يمكن التعبير عنها بالكيفية لا

---

(١) الدكتور: محمد أحمد الزاعوق – الفلسفة اليونانية ص١٣٧ ط٢/١٩٧١م.

(٢) الأستاذ: رمزى حسن رزق – العقيدة الإسلامية ومناهجها ص١٧٣ ط مكتبة المادى ملوى – ١٩٨٧م.

(٣) أنطون هيرماس – الديمورج اليونانى ص٥٢ ترجمة هناء فاضل – طبعة بيروت ١٩٦١م.

(٤) يعرف الجوهر العام بأنه ما يقوم بذاته، وينقسم باعتبار المادة إلى جوهر مادى وآخر غير مادى، كما ينقسم باعتبار الحلول إلى جوهر حال وآخر حال منه، كذلك ينقسم باعتبار الانقسام وعدمه إلى جوهر منقسم وآخر غير منقسم، والمنقسم إلى أجزاء، وقد أكثر علماء أهل الإسلام من ذكر هذه التفصيلات، فليرجع إليها طالبها فى الكتب الفلسفية كالإشارات والتنبيهات، والكتب الكلامية كالمواقف للإمام العضد الإيجى والمقاصد للسعد التفتازانى، والطوالع والمطالع للبيضاوى والأصفهانى.

بالكمية والمقدار، ثم وقف المفكر المسلم ذاته على مفهوم الجوهر فى الفكر المسيحى، فوجد أن دعاة المسيحية يصفون إلههم بأنه جوهر[١].

ولما كان الجوهر لا يفارق أعراضه، إلا فى الذهن، ولفظ الجوهر عند إطلاقه على الله تعالى يمس جانب التنزيهات، بجانب أنه ليس من أسمائه الحسنى، فقد لجأ المفكر المسلم إلى الجوهر ككل، فقدم دراسة واسعة حوله، شملت تعريفه، وبيان ماهيته، ثم أقسامه وأنواع كل قسم، وأخيرا انتهى إلى أن الجوهر يمكن أن يكون فكرة ذهنية، كالحال مع الجوهر المجرد، أو صورة خيالية كالجوهر المتولد بين أم بشرية وصورة إلهية، كما يقول دعاة المسيحية على عيسى ابن مريم رسول الله[٢].

ومن ثم استطاع تفتيت لفظ الجوهر، ثم تعبئته بما يخدم القضية الأصلية، بناء على أن كل جوهر لا ينفصل عن عرض من أعراضه ضرورة، وما لا ينفصل عن أعراضه يكون محتاجا إليها، وكل محتاج لأعراضه لا يكون مستغنيا، ومن ثم لا يصح الجوهر أن يكون إلها كما لا يصح وصف الإله بأنه جوهر على أية ناحية.

- **مثال ثالث**: الفيض والصدور[٣] وهما نظريتان شغلتا الفكر الإغريقى ردحا طويلا من الزمان، وكان الغرض منهما إيجاد حلول لمشكلة كيفية وجود الكثرة فى الموجودات عن الإله الواحد جل علاه، ولما لم يكن لدى اليونان من سعة الأفق ما يسمح لهم بتصور وجود إله واحد قادر، فقد عمدوا إلى تصورات مادية، حاولوا من خلالها إيجاد حلول لمشكلات ميتافيزيقية، مثل كيفية وجود الكثرة عن القلة، فنتج عن ذلك القول بنظرية الفيض تارة والصدور أخرى، زاعمين فى الأولى أن العالم فاض عن الله فيضان النور عن الشمس والضوء عن مصدره، كما زعموا أن العالم صدر عن الله صدور الفعل عن علته التامة، من غير قصد إلى ذلك الفعل

غير أن المفكر المسلم امسك هذه المصطلحات، ثم أفرغها من مضامينها تماما، ثم استخدمها كمعلبات فكرية فقط نشأ عن استعمالها نظرية الخلق المستمر التى تبناها الفارابى وابن سينا، ثم أعلى بناءها أبو الوليد بن رشد، مقدما حلولا مقبولة للمشكلة التى أثارها دعاة الفكر اليونانى[٤].

مما سلف بيانه اتضح أن للفلسفة فوائد، وأن فوائدها غير وظائفها، كما اتضح أن دراسة الفلسفة الإسلامية أمر ضرورى، وبالتالى فإن التنفير من دراستها لا يقوم على أسباب موضوعية، كما أنه إذا كان الماضى قد طغت الخلافات فيه على بعض الرؤى، فحجبت البصيرة عن الانطلاق،

---

(١) القس إلياس مقار – إيمانى أو قضايا المسيحية ص٧١ والقس صموئيل مشرقى – الإلهيات ص٤٨ .

(٢) القس جرجس – عبدالملك – المسيح الإله ص٤٥ ط الكنيسة الكاثوليكية ببروت .

(٣) راجع تفاصيل ذلك فى كتاب مشكلة الألوهية للدكتور غلاب، والجانب الإلهى للدكتور محمد البهى، وما قبل الفلسفة لميرى توماس – ترجمة هناء فخرى – ط دمشق ١٩٦٤م.

(٤) راجع للدكتور محمود قاسم – نظرية المعرفة عند ابن رشد وتأويلها لدى توماس الأكوينى ص٢٣١ ط٢ الأنجلو

حتى سارع أصحاب تلك الرؤى إلى إصدار احكام بأن الفلسفة لا فائدة من ورائها، فإن دراسة الفلسفة فى العصر الحديث والمعاصر قد صارت ضرورية لما لها من فوائد سلف ذكر بعضها.

كما أنها تمثل صورة عقلية ونمطا من أنماط التفكير العقلى الحر، الذى لا يمكن تجاهله أو إهماله، بل يجب البحث فى سلال المهملات من الأزمنة الماضية.والتنقيب بعناية عن تلك الأفكار التى توارت تحت ضغط محاكم التفتيش، أو خوف أراء العامة، أو حكم الغوغائية، وإبراز جمالها، والتركيز على ما بها من جوانب إيجابية تؤدى فى مجملها خدمات متميزة للإنسانية جمعاء.

الفصل الثالث

مفهوم الفلسفة
في العصور المختلفة

تمهيد

أجل للفلسفة مفهوم، لكنه ليس محددا أو واحدا فى كل العصور، ومع جميع الفلاسفة، وربما يقال: لماذا كانت تعاريف الفلسفة متفاوتة إلى حد الاختلاف[١]، أما كان الأولى أن يوجد لها مفهوم واحد، يجمع أشتاتها والمتفرقات، كمّا يلم شملها، ويجمع ما شذ من أطرافها، فتبدو كعروس غانية[٢] بجمالها عن كل زينة دخيلة، وبخاصة أنها أم العلوم، ورأس الفنون؟

والجواب: أن الفلسفة كعلم تختلف عن سائر العلوم المعرفية، التى تختص بدراسة موضوع واحد، فى عصر واحد، تقعّد فيه القواعد، ويتم بناء الأسس، إذ أن العلوم الأخرى تختص بموضوع معرفى محدد، بحيث يكون ذلك الموضوع هو ميدانها الأصلى ومرتعها الآمن.

كالحال مع علم الحساب، الذى هو علم الأرقام الذهنية المجردة، وموضوعه محدد هو الكم المنفصل؛ لأنه أرقام حسابية بين كل رقم وما يليه كمية كبيرة من الجزئيات الحسابية التى يعبر عنها بلغة الحساب أيضا[٣].

مثال ذلك: ما بين رقم (١)، ورقم (٢) يمكن تقسيمه إلى ١,٥، ١,٣٣، ١,٢٥، ١,١٦٧، ١,١٢٥ وهكذا حتى نصل إلى ١,٠١، ١,٠٠١، ١,٠٠٠١ وكلما سرنا فى هذا الاتجاه؛ أمكن التعامل مع الكمية المنفصلة بمفهوم رياضى بحت، كما تكون له دلالة واضحة يمكن استخدامها مرات عديدة، وبصيغ مختلفة أحيانا، أو بنفس الصيغ المتكررة أحيانا أخرى مع بعض العلاقات من الجمع أو الطرح أو الضرب، أو القسمة[٤].

كذلك علم الميكانيكا له موضوعه الخالص القائم فى مفهوم الكم المنفصل من خلال الحركة المنتظمة الثابتة، باعتبار أن مفهوم الديناميكا هو الحركة، ومفهوم الاستاتيكا هو الانتظام فى المحل، وكل من الديناميكا والاستاتيكا يمثلان علم الميكانيكا، تمثيلا علميا دقيقا على الناحية الفنية.

---

(١) راجع كتابنا: رياض الأشواق فى الميتافيزيقا والأخلاق ص٧٨ .

(٢) الغانية هى التى كملت زينتها الطبيعية، فلا تحتاج شيئا تتزين به. [قطر المحيط – باب الغين] ويقول ابن منظور : « الغانية من النساء: التي غنيت بالزوج؛ وقيل: الشابة المتزوجة، وجمعها غوان؛ وقيل هى التي غنيت بحسنها وجمالها عن الحلي، وقيل: هي التي تطلب ولا تطلب، وقيل: هي التي غنيت ببيت أبويها ولم يقع عليها سباء. وقيل: هي الشابة العفيفة، كان لها زوج أو لم يكن » [راجع لسان العرب ج١٥ ص١٣٨ ، ومختار الصحاح ج١ ص٢٠٢ رقم:٢٠٢ مادة غ ن ن]

(٣) الشيخ حمدان السيد ثابت – العلوم العقلية فى البيئة الإسلامية ص٣٧ .

(٤) العلامة محمد بن حسن الطرهونى – العلاقات والكميات ص٢٣ .

كما أن الفلسفة تعبر عن وجهات نظر ممارسى التفلسف أنفسهم(١)، وبالتالى فهى تمثل وجهة نظر شخصية، تتعلق بالمفكر نفسه ولا تمثل قاعدة عامة كلية، تنطوى فيها جزئياتها، ولما كان كل مفكر ينسب إلى جماعة بعينها؛ فان الأفكار التى تملأ عقله أو تتولد عنه – كنتاج فكرى – تكون مصبوغة بما تقوم عليه تلك الجماعة.

وإذا كانت المعالم الأدبية فى عصر من العصور هى المرآة الجمالية التى تنعكس عليها صورة ذلك المجتمع؛ فان الفلسفة هى المرآة العقلية التى تعين على قراءة ما يجرى داخل ذلك رءوس وعقول أفراد ذلك المجتمع، باعتبار أن كل إنسان مفكر لابد أن تكون له نظرة تأملية(٢) فى ناحية من مناحى التأمل، التى تعتبر فيلسوفا من ناحيتها، أو تجيئه الفلسفة من بابها.

بيد أن الأمر لم يقف عند هذا الحد، وإنما تجاوزه ليشمل الفوارق الطبيعية الكاشفة بين انتماءات أفراد الجماعة الواحدة، إذ لم يعد الفارق بينها هو المعبر عن تمايز جماعة على أخرى، وإنما هو المعبر الحقيقى عن تمتع جماعة بخاصية بحث فى مجال من المجالات العلمية(٣)، وانطلاق جماعة أخرى إلى مجال بحثى أخر قد تكون له بعض العلاقات بالجانب الأول، وقد لا تكون، وذلك مما يجعل الاتفاق على تعريف محدد للفلسفة أمرا صعبا.

كما أن مباحث الفلسفة تختلف باختلاف الاسم أو الوصف، فالفلسفة اليونانية كانت تبحث فى أصل الكون، بينما الفلسفة العامة تبحث فى الوجود والمعرفة والقيم، أما الفلسفة الإسلامية فإنها تبحث فى طرائق الاستدلال على وجود الله تعالى(٤)، ثم أدلة وجود العالم وتناهيه، وأخيرا الإنسان وعلاقته بالله والعالم، وذلك أيضا يجعل إمكانية تقديم تعريف حدى للفلسفة فى غاية الصعوبة.

إذن تعدد الموضوعات التى تتناولها الفلسفة، وتوالى العصور الفكرية واختلافها ضعفا وقوة، وتعدد اتجاهات المفكرين بتعدد المجتمعات والانتماءات والعصور، كل ذلك يؤكد صعوبة الاتفاق على تعريف محدد للفلسفة يكون بحيثه على ناحية حدية، جامعا مانعا فى نفس الوقت، ومن ثم سأحاول التقاط بعض التعريفات للفلسفة من خلال بعض العصور الفلسفية.

---

(١) راجع كتابنا: التفلسف (مفهومه – بواعثه – خصائصه)

(٢) الدكتور فوزى محمد ثابت – الفلسفة اليونانية ص١٣ ط١/١٩٦١م.

(٣) الدكتور عبدالعظيم حسن قطب – الفلسفة ومناهج البحث ص٤١ ط دار مراد ١٩٧٣م.

(٤) الشيخ مرسى حسن عبدالعظيم – العصور الفلسفية لدى القدماء ص٦٥ ط٢/١٩٣٧م.

تعريفات الفلسفة فى عصورها المختلفة

أولا: فى عصر التفكير الغير منظم

هذا العصر هو ما يعرف باسم عصر فلسفة ما قبل الفلسفة، أو عصر التفلسف قبل الفلسفة المنظمة[١]؛ لأن كل مفكر كانت أفكاره تجول برأسه دون أن يطلع عليها أحدا، كما كانت تمثل حركة تأملية داخل وجدانه وحده، دون أن يحاول إبرازها لأحد، حتى يرى ما إذا كانت مقبولة أم مرفوضة، فهذا يتأمل نفسه ، وذلك يسعى لتأمل بعض الكائنات المحيطة به، وذلك يسعى لمعرفة مصادر غذائه وشرابه، وكيفية المحافظة عليها، بل كان كل منهم يبذل قصارى جهده فى محاولاته كحالات فردية لا رابط بينها، وكل منهم تعتصم أفكاره برأسه، ولا يعمل على إبرازها، حتى يطلع عليها الآخرون، وحينئذ تعرف الفلسفة بأنها المحاولات العقلية التى يبذلها كل إنسان مفكر فى حدود طاقاته والمشكلات التى تحيط به[٢].

وعلى هذا النحو يمكن معالجة كل الخطرات الفلسفية التى جنحت بأصحابها ناحية التأمل العقلى، بغية البحث عن حلول لمشكلات الحياة اليومية، والمسائل التى تعترض طريق الإنسان المفكر ويعمل على تذليلها والسيطرة عليها، يستوى فى ذلك إنسان الصين، أو إنسان الهند، وإنسان بابل[٣]، أو الإنسان الفرعونى القديم؛ لأنها عمليات عقلية فى البحث عن حلول لمشكلات تتعلق بالإنسان أيًا كان.

---

(١) أ.هـ بيتال – الفلسفة القديمة ص٩ ترجمة حنان صبحى ١٩٥٧م.

(٢) يوهان أندرسون – ما قبل الفلسفة ص١٧ – ترجمة: رمزى عبدالمسيح ط دار الفؤاد ١٩٤٦م.

(٣) بابل: هى إقليم من العراق تقع ما بين سبعين درجة طولا وعرضا، وبالنسبة لموقعها تحت خط الأستواء، تقع تحت اثنين وثلاثين درجة، ويذكر أهل التوراة أن مقام آدم عليه السلام كانُ ببابل، فلما قتل قابيل هابيل؛ مقت آدم قابيل، فهرب قابيل بأهله إلى الجبال (أرض بابل) فسميت ببال بمعنى التفرقة. [راجع فى هذا الشأن الشيخ الإمام فهد الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموى الراوى البغدادى (ت: ٦٢٦هـ) معجم البلدان ج٢ ص٣٦٧/٣٧٠ – تحقيق دكتور فريد عبدالعزيز الجندى – دار الكتب العلمية ببروت لبنان ج١ أولى ١٤١٠هـ/١٩٨٠م]، ويقول عنها قاموس الكتاب المقدس: » كانت مدينة مبنية على جانبى نهر الفرات، وكانت بيوتها ترتفع إلى دورين أو ثلاثة أو أربعة، وشوارعها مستقيمة، ويظهر أنها كانت تتقاطع فى زوايا قائمة كشوارع المدن العظيمة الحديثة، كل شارع يصل إلى النهر، محكمة ببوابة نحاسية كبيرة تحميه، وكانت تلك المدينة قد نسبت إلى نمرود من حيث البناء، بينما ينسبها غيرهم إلى مردوخ ولا يعرف بالضبط تاريخ تأسيسها، لكنها بلغت ذروة مجدها فى القرن الثامن عشر قبل الميلاد فى عصر حمورابى من الأسرة البابلية الأولى، وكذلك فى القرن السادس قبل الميلاد فى عصر الملك نبوخذ نصر من الأسرة الكلدانية «. [راجع قاموس الكتاب المقدس ص١٥٢/١٥٧]

وهذا العصر لا يعرف بالتحديد بدايته، كما لا تعرف على وجه اليقين نهايته[١]، كما أن الأفكار التى أمكن تناولها فيه لم تكن على شكل منظم، وإنما كانت تجيء على ناحية عشوائية خالصة.

غير أن ذلك الإنسان - الذى وجد فى عصور لما قبل التاريخ - قد تطورت معه بعض أنماط الحياة، فطور هو الآخر من سلوكياته بفرض مواجهتها حينا، أو الرغبة فى السيطرة عليها وإعلانه الغلبة لها حينا آخر، فمثلا: تطورت حياة الإنسان من الرعى إلى الزراعة فى الأغلب الأعم[٢]، ومن الترحال المتواصل إلى الاستقرار المؤقت، ومن النظر فى الكائنات الواقعة تحت قدميه، إلى الكائنات العليا التى كانت تمثل سقفا له، ومناطق الرغبة أو الرهبة[٣]، كالمطر والبرق والزلازل والبراكين، وذلك استتبع تطور العلاقة بين الإنسان المفكر والكون المحيط به.

وظل الأمر بين الإنسان والكون فى حالة من الترقب والتأمل، وكان انتظار المنافع أو الهرب من المخاوف من جانب الإنسان وحده، الذى أرهقته قوى الطبيعة، فراح يحاورها ويتجادل معها، وربما أمكنه التعبير عن ذلك التناجى لها، أو التجادل معها من خلال لغة معبرة مكتوبة، ظهرت على بعض الأحجار التى أمكن التعرف عليها، وفك رموزها الإشارية، وكان ذلك ديدن عقلية المفكر أبان عصر ما قبل الفلسفة المنظمة.

ثانيا: فى عصر التفكير المنظم

وهو العصر الذى برز فيه العقل الإنسانى مرتحلا من الأرض إلى السماء، ومن السماء إلى الأرض، فى صورة متبادلة بينه وبين الظواهر الطبيعية، حيث كان همه الأول التعرف لا على وجود الكائنات المحيطة به، وإنما التعرف على كيفية وجودها والغاية التى تقوم عليها، فهو لا ينظر إليها فى ذاتها، وإنما ينظر فى الأصول التى انطلقت منها، أو التى قامت عليها؛ ولذا تعرف الفلسفة فى ذلك العصر بأنها العملية العقلية التى تبحث عن أصل الكائنات، وكيفية وجودها على نحو ما هى عليه[٤].

---

(١) إذ يذهب البعض أن هذا التاريخ يعرف باسم: العصور ما قبل التاريخية، ويقدرونها بمائتى ألف سنة قبل الميلاد. [راجع للدكتورة نهاى محمد الطويل - الحضارة القديمة ص١٧] ويذهب آخرون إلى أن هذه العصور تمتد قرابة الملايين قبل التاريخ المتفق عليه. [راجع للدكتور السيد حسن الدرملى - التاريخ القديم ص١٣] بينما يذهب فريق ثالث إلى أن هذه العصور ضاربة فى القدم، دو ن تحديد لبدايتها، كما أن النهاية ليست محل اتفاق بين الدارسين، ولكنهم يذكرونها على ناحية تقريبية. [راجع للدكتور صبرى عبدالعظيم النكلاوى - التاريخ والحضارة ص٣٢] ومن ثم فقد غلب عندى تفويض العلم فى المسألة على وجه اليقين إلى علم الله تعالى باعتبار أن الظن لا يفيد فى هذه المسائل، كما لا يمكن اعتباره قاعدة يقينية.

(٢) حيث إن ابنى آدم عليه السلام قد تعلم قابيل الزراعة، بينما تعلم هابيل الرعى، وقد أتقن كل منهما المهنة التى تعلمها. [راجع فى ذلك: حاشية العلامة الصاوى على الجلالين]

(٣) الأستاذ ناصر محمد أبو على - الإنسان والخرافة ص٥٣ ط١٩٣٧/١م.

(٤) بوهاد أندرسون - ما قبل الفلسفة ص٣١ .

فالمتمرس هنا لا ينعكس إلى ذاته بقدر ما ينتقل ناحية الأمام والخلف، والشمال والجنوب، والفوق، لكنه لم يعد ينظر إلى مسألة التحت أبدا؛ لأنها مرحلة سبق له أن تعرف عليها، وأبدى وجهة نظره فيها، وأمكنه الوصول ناحيتها إلى ما يشبه القناعة، بأن ما أدركه بشأنها يكفيه ولا يحتاج معه إلى زيادة.

وهذا العصر دفع بالمفكرين إلى استحداث طرائق فكرية وأنماط سلوكية جديدة، لمواجهة المشكلات المستجدة مع عدم التخلى عن الأساليب القديمة؛ لأن دورها لم ينقطع، وإن كان أقل فى ناحية الاستفادة منه[١]، فظهرت وسائل تسوية وجه التربة، حتى تصير صالحة للإنبات، واستئناس المزيد من الحيوانات البرية، والعمل على زراعة قمم بعض الجبال والاستفادة من قطرات الأمطار[٢].

وقد صاحب ذلك ظهور طبقة من المفكرين الذين اندفع بهم التأمل العقلى المنظم، والرغبة فى كشف المستور، إلى ممارسة بعض ألوان التنسك ثم التألية لبعض قوى الطبيعة، وبخاصة فى الأمم أو الجماعات الذين انقطعوا عن نور الوحي، أو انقطعت عنهم تعاليمه[٣].

لكن هؤلاء الأفراد القلائل كانت لهم أنات حائرة، وأحكام صائبة، جعلت غيرهم يتجه إليهم، ينشد لديهم سلامة الفكر، وصحة الرأى، والوقوف على النتائج الصائبة، واستخدام الأحكام المقبولة، فكانوا حكماء فى أقوامهم، من غير أن ينسبوا إلى الحكمة، وإنما نسبت إلى فعالهم وأقوالهم ونصائحهم الحكمة[٤] ووصفوا بها.

بيد أن هذا العصر قد امتدت أثاره، فشملت المعمورة شرقا وغربا، شمالا وجنوبا، وبات أفراد كل جيل داخل ذلك المجتمع يتحاورون فيما بينهم، ويعمل كل طرف من المتحاورين على إبراز ملكاته، وما يقع فيه الإبداع بالنسبة له، ومن ثم انحاز كل فريق إلى جانب معرفى يبذل جهده فيه،

---

(١) الدكتورة لمان محمد الطويل – الحضارة القديمة ص٤١، وراجع للأستاذ فهمى حسن – الإنسان والحضارة ص٥٤ طبعة دار المختار بالعراق ١٩٤١م.

(٢) الدكتور السيد حسن الدرمللى – التاريخ القديم ص١١٢، وكذلك التاريخ والحضارة ص٩٧ للدكتور صبرى عبدالعظيم النكلاوى، وراجع فلسفة الحضارة للدكتورة نازلى إسماعيل ص٣٩ وما بعدها.

(٣) لما هو معلوم عندنا من أن الله تعالى جلت حكمته لم يترك أمة من الأمم إلا وجعل فيها النذر الذين يهدونهم للخالق العظيم جل علاه ويعبدونهم له لا سواه. قال تعالى: ﴿وإن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾ [سورة فاطر – من الآية ٢٤] يقول الحافظ ابن كثير – رحمه الله – : « وما من أمة خلت من بنى آدم إلا وقد بعث الله تعالى إليهم النذر وأزاح عنهم العلل، كما قال تعالى: ﴿إنما أنت منذر ولكل قوم هاد﴾[سورة الرعد – الآية ٧]، وكما قال تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾ [سورة النحل – من الآية ٣٦] والآيات في هذا الشأن كثيرة »[العلامة الحافظ ابن كثير – تفسير القرآن العظيم – ج٣ ص ٥١٢] وقال السيوطى: « وفي قوله ﴿ وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾ يقول كل أمة قد كان لها رسول جاءها من الله »[العلامة جلال الدين السيوطى – الدر المنثور فى التفسير بالمأثور ص٤٢٣]

(٤) لوفتانا – الحكمة والفلسفة ص٢٧ – ترجمة رزق صبحى ط ١٩٦٥م.

ويحاول تقويم النتائج التى انتهى إليها، طالما أدرك ما فيها من هنات، ثم تقييم ذلك مرة أخرى فى حدود الطاقة والإمكانيات المتاحة، وبالتالى يمكن النظر فى هذه الحقيقة الزمانية من خلال العصور التالية له.

أ- عصر الفلسفة الطبيعية

وهو العصر الذى لجأ المفكر فيه إلى الطبيعة وحدها، يتجادل معها ويتحاور، لكن بلغة أكثر رقيا من السالفة، وينظر فيه إلى مظاهر الطبيعة، يتساءل معها عن أسباب وجودها، وبواعث هذا الوجود[١]، والأصل الذى قام عليه، والغاية التى ينشدها، فكأن المتأمل هنا قد أوقف حركته العقلية على الجانب الطبيعى، فقط دون اعتبار لشيء أخر سواه، ولذا عرفت الفلسفة أبان ذلك العصر بأنها التعرف على ماهية الطبيعة، وطرائق إخضاعها للبحث العقلى، وسبر أغوارها بحثا عن الأسس والغايات التى تجيء معها[٢]، بحيث يدفعها المفكر إلى الإفصاح عن القضايا التى كانت تخفيها.

ولا شك أن هذا العصر قد تغلب عليه سمة الموضوع المطروح للتأمل، ولا تغلب عليه سمة المفكر نفسه، ومن ثم فان تعريفه للفلسفة لا يخرج كثيرا عن تعريف الطبيعيين المتقدمين فى اليونان أو المتأخرين، بل يعتبر من بواكير التعريف الطبيعى للفلسفة فى عصورها المختلفة، وكأنه يمهد للفكر المادى الذى حبس دائرة البحث عنده فى نطاق ما يقع تحت الحواس فقط.

ولا يقتصر هذا العصر على بلد بعينه، أو جماعة فكرية بذاتها؛ لأنه شغل بعض الرءوس فى مصر أبان القرن التاسع قبل الميلاد — وربما قرون عديدة قبله — وكان نظام الأسر والملوك والفراعنة يسمح به إلى أبعد صورة[٣]، كذلك امتلأت به بعض الرءوس فى الصين وبابل والهند[٤]، وكانت له سمات عديدة، احتفظ بتسجيلها تاريخ الفكر الإنسانى فى صورة من صوره التى مازالت معالمها بادية

ب- عصر فلسفة ما قبل سقراط

هذا العصر فى بلاد اليونان تميز بالبحث عن الثابت والمتغير فى الطبيعة، على الناحية الجوهرية والعرضية، كما حاول البحث عن الموجد لذات الطبيعة، وبعبارة أخرى كانت سمة ذلك العصر لـ

---

(١) الدكتور جابر محمد رزق — الفلسفة الطبيعية ص١٢ ط١/١٩٣٧م.

(٢) الدكتور صبرى ياسين اليعقوبى — نشأة الفلسفة الطبيعية ص٣٥ طبعة دار الأناضول — تركيا ١٩٥١م وقد خصص الكتاب للحديث عن الفلسفة الطبيعية من قبل سقراط حتى الفلسفة الحديثة، وله أراء كثيرة يجارى فى بعضها أصحاب الفكر المادى .

(٣) دوهان فردريك — فلسفة مصر القديمة ص٧٧ — ترجمة هناء معشر .

(٤) الدكتورة نازلى إسماعيل حسين — فلسفة الحضارة ص٨٩ ط سعيد رأفت ١٩٨١م.

قبل سقراط[1] هي البحث في الأشياء من ناحية أصولها وتركيباتها، وانحلال هذه التراكيب، وتحولات هذه الجوهريات والعرضيات من أنظمة مادية إلى أرقام ودلالات رياضية، كما تم بحث علاقة هذه الطبيعيات بالرياضيات عن طريق جهة أخرى غير طبيعية، وغير رياضية أيضا فأمكنهم إطلاق اسم الميتافيزيقا عليها.

ومن ثم يمكن القول بأن هذا العصر عرفت فيه الفلسفة بأن البحث في المتغير والثابت، وإمكانية تحويل كل منهما للأخر، وربط ذلك بعلاقة رياضية عن طريق دعم ميتافيزيقي[2].

بناء عليه؛ فقد ظهرت ثلاثة مذاهب تمثل ثلاث مدارس كلها تمارس المهام العقلية في شكل نتاج فلسفي له مقوماته الطبيعية والأساسية أيضا. هي :

المدرسة الأيونية[3] ذات الاتجاه الطبيعي :

وهم الذين هموا إلى مسائل العلم الطبيعي، وراحوا يبحثونها، ويتأملون فيها، وينظرون إلى مشكلاتها نظرة موضوعية، ثم يعملون على معالجة قضايا العلم الطبيعي في نطاق ما رسمه زعماء المدرسة الأوائل، وكان منهم :

---

(١) سقراط : هو واحد من أشهر فلاسفة اليونان ٤٧٠/٣٩٩ ق.م ؛ ولد في أثينا من أم كانت تعمل قابلة ، وأب يحترف صناعة التماثيل ، وقد أحترف سقراط صناعة أبيه أول أمره ؛ لكنه ما لبث أن تحول عن هذه الصنعة إلى البحث في الحكمة ، والتفكير فيها في سن مبكرة ، ثم أخذ يغذي عقله علميا ، ويهذب نفسه عمليا ، وكان يعتقد أن الغاية من العلم هي العمل ؛فأتهم بإنكار آلهة المدينة والدعوة لآلهة جديدة، وافساد عقول الشباب ؛ حكم عليه بالإعدام ، وشرب سم الإعدام وهو راض ؛ وقد مات بعد بلوغه سن السبعين – [راجع في تاريخ الفلسفة اليونانية ص٩٢/٩٨] وكان من تلاميذه العديدين: أفلاطون، وأرستيبوس، وإقليدس الميحاري، و لم يكتب كثيرا، وإنما كان يعتمد على أسلوب الحوارات، حيث كان يحاور الناس ويناقشهم في كل ما يتعلق بالفضيلة والأخلاق، وكان يفترض منهجا في التحاور صار معروفا باسمه، وذاع أمره بالنسبة إليه، كان مصدره هؤلاء التلاميذ وقد اتهمته الديمقراطية اليونانية بالزيغ عن الدين وإفساد عقول الشباب، وحكمت عليه بالإعدام. [راجع الموسوعة الفلسفية ص٢٤٥] وضع مجموعة من العلماء السوفيات والموسوعة الفلسفية ص٢٤٤ للدكتور عبدالمنعم الحفني، وقد ذكر إن هذه المعلومات عنه تم الرجوع فيها إلى كل من مسرحية السحب لأرسطو فان والمذكرات لاكسينوفون والمحاورات لأفلاطون باعتبارها المصادر التي تذكر حياة سقراط وتشير إلى نهايته أيضا.

(٢) الدكتور عبدالعظيم حسين ظافر – الفلسفة اليونانية قبل سقراط ص٧١ – ط١ – المغرب ١٩٧١م.

(٣) راجع تاريخ الفلسفة اليونانية للأستاذ يوسف كرم ص٩ وما بعدها، وقصة الفلسفة اليونانية للدكتور أحمد أمين ص١٧ وما بعدها، وللدكتور عبدالعظيم حسين ظافر – الفلسفة اليونانية قبل سقراط ص٧٢ وما بعدها فكل من هذه المصادر قدم نبذة عن هذه المدارس والمذاهب إما في صورة موجزة أو في شيء من البسط والشرح.

● ١- طاليس الأيونى (٦٢٤/٥٤٦ ق.م):-

وهو غير أرسطو طاليس[1] وقبله بقرون عديدة، وكان بحثه وتأملاته الطبيعية تتم على الناحية النظرية، واضعا فى حسبانه الماء كمادة أولية يقيم فيها أبحاثه، فينتهى إلى أن الماء هو أصل الكائنات، وهو المادة الأولى التى صدرت عنها كل الكائنات، وإليها تعود، كما ظن أن الأرض قرص متجمد من الماء، يسبح فوق لجج مائية ليس لأبعادها نهاية، باعتبار أن الحياة تدور مع الماء وجودا وعدما.

ومن ثم فقد عرف الفلسفة بأنها البحث فى أصل الماء للتعرف على حقيقة نشأة الكون من خلال التقلبات الطبيعية التى تطرأ على الماء[2]، فأقام طاليس ثلاثة مبادئ، من وجهة نظره، ليفسر بها هذه النشأة والمبادئ. هى:

☆**الأول** : أن الكون الطبيعى يتألف من مادة الماء وحدها دون سواها.

☆**الثانى** : أن الأرض قرص يسبح فوق الماء، أو هى قرص عظيم الحجم يغطى وجه كل الماء.

☆**الثالث**: أن كلا منهما يتبادل هويته مع الثانى تبادل الأصل والفرع[3].

وطاليس بهذا إنما يعبر عن روح سادت أصحاب هذا الاتجاه الطبيعى الذين عكفوا على المكونات الطبيعية، يتساءلون معها، ويعيدون البحث فيها، ولا يتوقفون عن مطارحة أنفسهم الغرام

---

(١) أرسطو طاليس : ولد عام ٣٨٤/٣٢٢ق.م ، بأسطاغيرا إحدى المستعمرات اليونانية، وكان أبوه طبيبا لملكها. [راجع للدكتور مصور عبدالقادر القط .- أرسطو وفلسفته ص١٧] وتقع هذه المدينة على بحر إيجه فى الشمال الشرقى من شبه جزيرة خلفيدية فى تراقية على حدود مقدونيا ، وكانت أسرته معروفة بالطب ، وكان أبوه نيقوما خوس طبيب خاصا للملك ، دخل أرسطو أكاديمية أفلاطون ، فتميز على أقرانه ؛ فسماه أفلاطون العقل لذكائه الخارق ؛ مات عام ٣٢٢ ق.م ، ويرجع المؤرخون موته إلى وجود مرض فى معدته بعد أن ترك ثروة من المؤلفات العلمية – [راجع قصة الفلسفة اليونانية للأستاذ / أحمد أمين ، والدكتور زكى نجيب محمود ، وراجع تاريخ الفلسفة اليونانية ليوسف كرم] وترجم أيضا لأرسطو طاليس بأنه أرسطو بن نيقوما خوس كان أبوه طبيبا لأمينتاس الثانى ملك مقدونيا، وهو فيلسوف وعالم موسوعى ومؤسس علم المنطق وعدد من فروع العلم المختلفة، ولد فى أسطاجيرا فى شمال اليونان، مات أبوه فى صغره فوفد على أثينا وتتلمذ فى الأكاديمية عشرين عاما ثم اختاره فيليب ملك مقدونيا ليكون قريبا لولده الاسكندر، وبعد أعوام قليلة عاد أرسطو إلى أثينا ليؤسس اللوقيون وبعد وفاة الإسكندر ثار الأثينيون على المقدونيين والمتصلين بهم، واتهموا أرسطو بالإلحاد ففر إلى طالين وهو يقول: لا حاجة لى لأن أهل لأثينا منحوا فرصة أخرى للإجرام ضد الفلسفة. [راجع الموسوعة الفلسفية المختصرة ص٣٢ ، ونشأة الحرية فى التربية ج٢ ص٣٢٥ تأليف و.ج ماك كالستر – ترجمة أمين مرسى قنديل]

(٢) الدكتور عبدالعظيم حسين ظافر – الفلسفة اليونانية قبل سقراط ص٨٢ .

(٣) الدكتور توفيق محمد خضر – الفكر اليونانى لدى الطبيعيين ص٥٢ ، وهو بهذه النتيجة يخالف الذين ذهبوا إلى أن فلسفة طاليس يمكن اعتبارها قائمة على مبدأين هما: تآلف الكون من الماء، الأرض قرص تسبح فوق ذات الماء .

فى أعابيرها، بغية الظفر منها بنصيب، أو الفوز بغاية، ولكنهم لم يبلغوا غاية؛ لأن أبحاثهم حرجـت هـم عن نطاق التأمل فى المخلوقات إلى نطاق التأمل فى ذات الخالق فهلكوا.

وفى الحديث الشريف عن ابن عمر[١] ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « تفكروا في آلاء الله ولاتتفكروا في الله »[٢]؛ لأن التفكر فى الخالق جل علاه مغرق فى الكفر إلى أبعد مدى، وأهل الكفر جميعا ملة واحدة.

وعن عبدالله بن سلام ﷺ[٣] « قال خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على ناس مـن أصحابه وهم يتفكرون في خلق الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيم تتفكرون قالوا نتفكر في الله، قال: لا تفكروا في الله وتفكروا في خلق الله، فإن ربنا خلق ملكا قدماه في الأرض السـابعة

---

(١) عبدالله بن عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لـؤي القرشـي السهمي كنيته أبو محمد عند الأكثر . روى عن النبي ﷺ كثيرا وعن عمر وأبي الدرداء ومعاذ وابن عوف وعن والـده عمرو قال أبو نعيم حدث عنه من الصحابة بن عمر وأبو أمامة والمسور والسائب بن يزيد وأبو الطفيل وعدد وآخرون . وقال ابن سعد أسلم قبل أبيه ويقال لم يكن بين مولدهما إلا اثنتا عشرة سنة أخرجه البخاري عن الشعبي وحـزم بـن يونس بأن بينهما عشرين سنة.وفي البخاري والبغوي من طريق همام بن منبه عن أبي هريرة ما أحد من أصحاب رسـول الله صلى الله عليه وسلم أكثر حديثا مني إلا ما كان من عبدالله بن عمرو فإنه كان يكتب . قال الواقدي مات بالشـام سنة خمس وستين وهو يومئذ بن اثنتين وسبعين. الإصابة فى تمييز الصحابة - (العلامة شهاب الدين أحمد بن على بـن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢هـ) رقم: ٤٨٥٠ ص١٩٣/١٩٧ .

(٢) الإمام الطبراني - المعجم الأوسط ج:٦ ص٢٥٠ - رقم: ٦٣١٩ ، وأخرجه الهيثمي - مجمع الزوائـد ج:١ ص٨١ - باب في التفكر في الله تعالى والكلام.

(٣) هو « عبد الله بن سلام ابن الحارث الإمام الحبر المشهود له بالجنة أبو الحارث الإسرائيلي حليف الأنصار من خـواص أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، حدث عنه أبو هريرة وأنس بن مالك وعبد الله بن معقل...، وآخرون، وهو ممـن شهد فتح بيت المقدس ، وعن إسلامه يقول أنس إن عبد الله بن سلام أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقدمـه إلى المدينة فقال إني سائلك عن ثلاث لا يعلمها إلا نبي ما أول أشراط الساعة وما أول ما يأكل أهل الجنة ومن أيـن يشـبه الولد أباه وأمه، فقال: أخبرني بهن جبريل آنفا قال ذاك عدو اليهود من الملائكة قال إما أول أشراط الساعة فنار تخرج من المشرق فتحشر الناس إلى المغرب وأما أول ما يأكله أهل الجنة فزيادة كبد حوت وأما الشبه فإذا سبق ماء الرجل نـزع إليه الولد وإذا سبق ماء المرأة نزع إليها قال أشهد أنك رسول الله . وقال يا رسول الله إن اليهود قوم بهـت وإنهـم إن يعلموا بإسلامي بهتوني فأرسل إليهم فسلهم عني. فأرسل إليهم فقال: أي رجل ابن سلام فيكم قالوا حبرنا وابن حبرنـا وعالمنا وابن عالمنا قال أرأيتم إن أسلم تسلمون قالوا أعاذه الله من ذلك قال فخرج عبد الله فقال أشهد أن لا إلـه إلا الله وأن محمدا رسول الله فقالوا شرنا وابن شرنا وجاهلنا وابن جاهلنا فقال يا رسول الله ألم أخبرك أنهم قوم بهـت، وعـن معاذ بن جبل ﷺ قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إنه عاشر عشرة في الجنة، ومات ابن سـلام ﷺ في سنة ثلاث وأربعين بالمدينة » [راجع سير أعلام النبلاء ج٢ ص٤١٣/٤٢٦ - رقم:٨٤]

سنسى ورأسه قد حاوز السماء العليا ما بين قدميه الى ركبتيه مسيره ستمائة عام وما بين كعبيه إلى أخمص قدميه مسيرة ستمائة عام والخالق أعظم من المخلوق »[1].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما « أنه صلى الله عليه وسلم خرج علي أصحابه فقال ما جمعكم فقالوا اجتمعنا نذكر ربنا ونتفكر في عظمته، فقال تفكروا في خلق الله، ولا تتفكروا في الله، فإنكم لن تقدروا قدره »[2].

٢ـ أنكسندريس الملطى (٦١١/٥٤٧ ق.م) صاحب فكرة اللامحدود واللانهائى :ـ

رغم أنه كان أحد تلاميذ طاليس المبرزين، إلا أنه خالفه فى أصل الفكرة التى قال بها طاليس، ورفض أن يكون الماء هو أصل الكائنات الطبيعية، وظل ينقض آراء سلفه، حتى أتى عليها، ثم انتهى إلى أن أصل الكون مادة هولامية غير معروفة من حيث هى، ولكنها معروفة من خلال تحولاتها الطبيعية، وترددها بين النار والطين، أو بين الحرارة والرطوبة، وبالتالى عرف الفلسفة بأنها البحث العقلى الحر المتأنى للتعرف على أصل نشأة الكون وتحولات الطبيعة ومسايرة الحياة[3].

ويمكن القول بأن أنكسندرس المليطى كان من أنصار القول بتعدد الأصول الطبيعية التى نشأ عنها الكون، سواء أطلق عليها إسم اللامحدود أم اللامتناهى، كما كان من أصحاب المدرسة الطبيعية التى آلت على نفسها ضرورة إيجاد حل لمشكلة خلق الكون أو نشأته[4]، من خلال مبدأين:

☆ **الأول** : اللامتناهى الممتزج.

☆ **الثانى** : الحركة التى تحدث الاجتماع أو الافتراق فى أجزاء اللامتناهى.

---

(١) العلامة أبو نعيم الأصبهانى - حلية الأولياء ج:٦ ص:٦٧ . وعن عبدالله بن سلام ﷺ أيضا « أنه صلى الله عليه وسلم خرج على قوم ذات يوم وهم يتفكرون فقال مالكم تتفكرون فقالوا نتفكر في خلق الله عز وجل قال فكذلك فافعلوا تفكروا في خلقه ولا تتفكروا فيه فإن لهذا المغرب أرضا بيضاء نورها بياضها أو بياضها نورها مسيرة الشمس أربعين يوما بها خلق من خلق الله لم يعصوا طرفة عين قالوا يا رسول الله فأين الشيطان عنهم قال ما يدرون خلق الشيطان أم لا قالوا من ولد آدم هم قال لا يدرون خلق آدم أم لا ».[العجلونى - كشف الخفاء ج:١ ص:٣٧١ - رقم ١٠٠٤]

(٢) العلامة العجلونى كشف الخفاء ج: ١ ص: ٣٧١ - رقم ١٠٠٥ . وقال: الحديث وللطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب عن ابن عمر مرفوعا . وفى الأثر : عن العلاء عن الحسن قال: » تفكر ساعة خير من قيام ليلة »[العلامة ابن أبي شيبة - مصنف ابن أبي شيبة ج٧ ص١٩٠ - رقم: ٣٥٢٢٣ ، وذكره أبو نعيم الأصبهاني - حلية الأولياء ج:١ ص٢٠٩ عن أبي الدرداء].

(٣) الدكتور عبدالعظيم حسين ظافر – الفلسفة اليونانية قبل سقراط ص٨٣ .

(٤) راجع تفاصيل ذلك فى تاريخ الفلسفة اليونانية للأستاذ يوسف كرم، وقصة الفلسفة اليونانية للدكتورين أحمد أمين، وزكى نجيب محمود وغيرهما مما ذكرته لذلك من مصادر.

ولكنه في الحقيقة قد أخفق فى الوصول إلى أصل تلك النشأة؛ لأنها متعلقة بأمر غيبى لا سبيل إلى معرفته إلا عن طريق النقل المنزل. قال تعالى: **﴿ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا﴾**[1].

● ٢ـ أنكسيمانس الأيونى (٥٨٨/٥٢٤ ق.م) :ـ

كان من أكثر تلاميذ أنكسمندر التقاء به ومتابعة له، ولكنه لم يكن واسع الخيال خصبه، بل كان واقعيا إلى حد كبير، حتى اتهم بأنه أقل نصيبا من أستاذه بخصوص استدراك العلم ومراجعته، ولكنه لم يكن اتهاما صحيحا، وإلا لم يكن فيلسوفا[2].

ذهب أنكسيمانس إلى أن أصل الكون هو الهواء من خلال عمليتى التخلخل التى تملأ أجواء الفضاء فتنشأ عنها الكائنات غير المادية، وعملية التكاثف التى تنشأ عنها الكائنات المادية، وبالتالى فالهواء عنده جوهر أول،انطلقت عنه جميع الكائنات، حيث يكون فى تكاثفه سحابا، وفى تخلخله نارا.

ويلاحظ أن أنكسيمانس الأيونى يستبدل الاجتماع بالتكاثف والافتراق بالتخلخل من حيث هما فكرتان، لكن هناك فرق بين كون الاجتماع والافتراق خواص الحركة، وبين كون التخلخل والتكاثف من خواص الهواء والماء، باعتبار ان الماء عند التخلخل يصير بخارا، وعند التكاثف يصير ثلجا، ثم كتلا متكاملة من الجسمية[3].

إذن هو قد تفاعل مع ميدأين :

☆**الأول:** الهواء:-

☆**الثانى:** خاصتى التخلخل والتكاثف.

وبناء عليه؛ عرف الفلسفة بأنها عملية عقلية قصد بها البحث عن حلول لمشكلة أصل الكون، من حيث النشأة والاستمرار[4]، ومن حيثيات أخرى قد تجيء على ناحية من النواحى التى تخدم الفلسفة، وتقدم خدمة للمجتمع الذى يعيش فيه الفيلسوف نفسه.

---

(١) سورة الكهف – الآية ٥١ . » ما أشهدت إبليس وذريته خلق السماوات والأرض يقول ما أحضرتهم ذلك فأستعين بهم على خلقها ولا خلق أنفسهم، ولا أشهدت بعضهم أيضا خلق بعض منهم فأستعين به على خلقه بل تفردت بخلق جميع ذلك بغير معين ولا ظهير، فكيف اتخذوا عدوهم أولياء من دونى وهم خلق من خلق أمثالهم وتركوا عبادتى وأنا المنعم عليهم وعلى أسلافهم وخالقهم وخالق من يوالونه من دونى منفردا بذلك من غير معين ولا ظهير، وما كنت متخذ من لا يهدى إلى الحق ولكنه يضل فمن تبعه يجور به عن قصد السبيل أعوانا وأنصارا« [الإمام ابن جرير الطبرى – جامع البيان ج١٥ ص٢٦٣]

(٢) بار تلمى هنيلر – الفلسفة اليونانية فى مراحلها الأولى ص٥٧ – ترجمة صبحى رزق – ط الدار العربية ١٩٥٧م.

(٣) راجع للأستاذ يوسف كرم – تاريخ الفلسفة اليونانية، وقصة الفلسفة اليونانية للدكتور أحمد أمين، وذكى نجيب محمود.

(٤) الدكتور سامى السيد صبرة – الفلسفة اليونانية الطبيعية ص٧٣ .

على كل؛ فان من يلاحظ تعريف الفلسفة لدى كل من فلاسفة المدرسة الأيونية، يراها تعاريف متخالفة جاءت معبرة عن وجهة نظر المفكر نفسه فى المشكلة التى يتعرض لها، وذلك مما يدل على استحالة تقديم تعريف حدى للفلسفة، بحيث يكون جامعا مانعا.

◄◄ المدرسة الرياضية ذات الاتجاه العقلى :

نسبت إلى زعيمها فيثاغورث المتوفى ٤٩٧ قبل الميلاد، حيث ذهب كثير من الدارسين إلى أنه الذى وضع لفظ الفلسفة موضع القبول فى الأوساط العلمية، مفرقا بين الحكمة التى هى حق الآلهة والفلسفة التى هى محبة الحكمة، حيث يقول: « لست حكيما، فان الحكمة لا تضاف لغير الآلهة، وما أنا إلا فيلسوف محب للحكمة »[١].

ومن ثم فقد عرف فيثاغورث الفلسفة بأنها : « التفهم الكامل بأن جوهر الكون أعداد رياضية تتركز كلها فى الرقم الأول منها، ثم تتحول معها فى الأرقام التى تليه »[٢].

بمعنى أن الفكر العقلى التأملى انطلق لدى فيثاغورث ومن شايعة، من منظومة الأعداد الذهنية التى ترتبط فى الغالب الأعم بقدرة العقل على الخوض فى المسائل الرياضية[٣]، ولذا فيمكن القول بأنه عرف الفلسفة تعريفا مع طبيعته الرياضية، حين قرر أنها طلب المعرفة ومحبة الحكمة.

كما نقل المؤرخون عنه أنه كان يقول: « الحكمة لله وحده، وإنما للإنسان أن يجد ويجتهد ليعرف، وفى استطاعته أن يكون محبا للحكمة، تواقا للمعرفة باحثا عن الحقيقة أى فيلسوفا »[٤].

وقد سار على نهج فيثاغورث مجموعة من تلاميذه وأصدقائه الذين راقتهم فكرته الذهنية وفلسفته الرياضية، حتى صاروا ينسبون إلى الفيثاغورية، وربما نازعوا فيثاغورث نفسه فى تلك النسبة،

---

(١) الأستاذ فوزى عبده طايل – دراسات فى الفلسفة اليونانية ص١٣٥ ط١/١٩٤١م.

(٢) الدكتور صبرى السيد نبوى – محاضرات فى الفكر الفيثاغورثى ص٣٢ ط٢/١٩٥٧م.

(٣) للعقل فى الإسلام مكانة عظيمة ومنزلة رفيعة، وينبغى أن أوضح مفهوم العقل فى اللغة، فيقول الراغب :« وأصل العقل الإمساك والاستمساك، كعقل البعير بالعقال، وعقل الدواء البطن، وعقلت المرأة شعرها وعقل لسانه: كفه، ومنه قيل للحصن معقل، وجمعه معاقل » [المفردات للراغب الأصفهانى – ص٣٤٢]. وفى لسان العرب: « رجل عاقل، وهو الجامع لرأيه وأمره، مأخوذ من عقلت البعير إذا جمعت قوائمه، وقيل: العاقل الذى يحبس نفسه، ويردها عن هواها. أخذا من قولهم قد اعتقل لسانه إذا حبس ومنع الكلام، وسمى العقل عقلا؛ لأنه يعقل صاحبه عن التورط فى المهالك، أى يحبسه » [لسان العرب – باب اللام – مادة (عقل) جـ١١ ص٤٥٨/٤٥٩]. وفى المعجم الوجيز: « العقل: ما يكون به التفكير والاستدلال، وتركيب التصورات والتصديقات، ويتميز به الحسن من القبيح، والخير من الشر، والحق من الباطل » [المعجم الوجيز ص٤٢٩].

(٤) أزفولد كولبة – مدخل إلى الفلسفة ص٨ – ترجمة الدكتور أبو العلا عفيفى .

ومن أكثرهم شهرة سحيزون وزيلفون وكاسيمرز، الذين ذهبوا إلى أن العالم المشاهد وغير المشاهد أقرب الأشباه بعالم الأعداد(١).

كما ذهبوا إلى أن مبادئ الأعداد هي ذاتها عناصر الموجودات التي تقوم عليها وتنطلق منها، وبالتالي فهي في حقيقتها أعداد ثابتة، وهي جوهر الكون، ومع هذا فهي أعداد رياضية(٢)، وأكدوا على أن الفلسفة هي المعرفة(٣) ومحبة الحكمة.

ويذكر المؤرخون أن كريسس قال لسولون: لقد سمعت أنك جبت كثيرا من البلدان متفلسفا – يعني طالبا للمعرفة – كأنه في كل رحلاته لم يكن له من غرض إلا المعرفة وطلبها، وتذكر رواية تاريخية أخرى: أن قارون قال لسولون المشرع: سمعت أن رغبتك في المعرفة قد حملتك على أن تطوف بكثير من البلدان متفلسفا(٤)، فالتفلسف عنده يراد به طلب العلم أو التماس المعرفة في غير ما غرض أخر يدفعه إلى ما يقوم به.

ومن ثم؛ فهم تميزوا عن المدرسة الأيونية ذات النزعة الطبيعية بأنهم حولوا اتجاه الفلسفة من الفيزياء(٥) – وهي التفكير المادي – إلى التفكير الغير مادي – وأعني به التفكير المتأني والانطلاق نحو عالم ما وراء الطبيعة – واشتركوا معهم في أن الفلسفة هي طلب المعرفة ومحبة الحكمة، وكان ذلك ديدن بلاد اليونان حتى القرن السادس قبل الميلاد.

---

(١) المشابهة ليست كاملة، وإنما معناه أن العالم بكل ما فيه من موجودات فيها الكثير من التناقض الظاهري، إلا أنها ترجع إلى أصل واحد، كما ترجع الأعداد كلها إلى رقم (١) فهو الأصل الذي جاء بعده رقم (٢) وهكذا ....

(٢) الدكتور صبحي محمد سلامة شعيب – أثر الفيثاغورثية على الفلسفة اليونانية ص١٣٧ – طبعة الدار الجديدة ١٩٦١م.

(٣) المعرفة في اللغة: ما وضع ليدل على شيء بعينه وهي المضمرات والإعلام والمبهمات وما عرف باللام والمضاف إلى أحدهما والمعرفة في الاصطلاح: إدراك الشيء على ما هو عليه وهي مسبوقة بجهل بخلاف العلم ولذلك يسمى الحق تعالى بالعالم دون العارف. [الجرجاني – التعريفات ج١ ص٢٨٣ رقم: ١٤١٣] والمعرف في المنطق هو ما يستلزم من تصوره اكتساب تصور الشيء بكنهه أو بامتيازه عن كل ما عداه فيتناول التعريف الحد الناقص والرسم فإن تصورهما لا يستلزم تصور حقيقة الشيء بل امتيازه عن جميع الأغيار فقوله ما يستلزم تصوره يخرج التصديقات وقوله اكتساب يخرج الملزوم بالنسبة إلى لوازمه البينة. [الجرجاني – التعريفات ج١ ص٢٨٣ رقم: ١٤١٢] والعرفان عند الصوفية كالمعرفة إدراك الشيء بتفكر وتدبر فهو أخص من العلم ويقال فلان يعرف الله ولا يقال يعلم الله لما كانت المعرفة تستعمل في العلم القاصر المتوصل إليه بتفكر ويضاد المعرفة الإنكار والعلم الجهل والعارف المختص بمعرفة الله ومعرفة ملكوته وحسن معاملته تعالى. [المناوي – التعاريف ج١ ص٥١١].

(٤) الدكتور توفيق الطويل – أسس الفلسفة ص٧ ص٤٦ .

(٥) الفيزياء : علم يبحث في خواص الأجساد الطبيعية، ويعرف بعلم الطبيعة عند العرب، كما يعرف الفيزياء لدى الغرب في المقابلة بالميتافيزيقا التي تعني القضايا اللاهوتية في جانبها التأملي، وقد تطلق على ما يطلق عليه أنه علم الطبيعة باعتبار الميتافيزيقا النقدية، ونحن نرفض اعتبارها ميتافيزيقا نقدية، ويعتمد عليها وحدها في اعتقاده؛ لأن ما يقول ذلك ينتهي إلى إنكار وجود الله تعالى.

◄◄ المدرسة الإيلية ذات الاتجاه الميتافيزيقي (٥٧٠/٤٥٠ ق.م) [1]

وهم الذين صاحوا بأعلى صوت، قائلين: إن الكون فى حقيقته الأولى هو ذات الوجود الثابت والمتغير معا، فالصورة التى تكون عليها الأشياء لا تعتبر حقيقة ثابتة؛ لأنها قابلة للتحول من صورة إلى أخرى، ومن حال إلى أخر. أما الحال الدائمة التى لا يقع عليها التبدل أو التغير، فهى الوجود ولا نزاع فيه والواقع يشهد بذلك التغير لا محالة.

وقد جاء على متن تلك المدرسة أربعة نالتهم الشهرة، وتنازعوا بعد الصيت، وتدفقوا مع المدرسة الإيلية تدفق التيار الجارف، المندفع من أعلى بالاتجاه الآخر. وهم:

● ١ـ **أكزينوفان**[2]:وهو الذى نادى بأفكار تلك المدرسة، ثم دعا إليها بازلا كل وقته وما يملك فى هذا السبيل، وقد عرف الفلسفة بأنها: الباحث فى المبادئ الأولى[3]، على الناحية الطبيعية، دون إقامة اعتبار لأى شيء آخر.

● ٢ـ **بارمنيدس الإيلى**: ولد فى إيليا وتتلمذ على يد أكسانوفان، وكان بارميندس هو الرأس الحقيقى للمدرسة الإيلية، حيث إنه الواضع لأسس المذهب، وكانت الفلسفة عنده هى الاتجاه بالعقل بعيدا عن العالم المادى، حيث يدرك المبادئ الأولى للكون والحياة[4]، ثم الارتداد بهذه المبادئ حتى تتحقق وحدة الوجود، وكان شاغله الأساسى اكتشاف الوسائل والأسباب التى توصله إلى الحقيقة الكامنة وراء هذه المظاهر الطبيعية، والوجود عنده قديم؛ لامتناع حدوثه من اللاوجود، والوجود الذى يقصده هو الوجود العقلى الخالص.

● ٣ـ **زينون**: ولد فى إيليا حوالى ٤٩٠ ق.م ومات حوالى ٤٢٠ ق.م، تتلمذ على يد بارمنيدس، وهو أحد أعمدة المدرسة الإيلية، وهو المحامى البارع، والمتابع الماهر والمفند لحجج الخصوم، المثبت

---

(١) مدينة إيليا من المدن المستحدثة، حيث بناها الأيونيون الهاربون من وجه المغير الفرسى، وكان بناؤهم لها على الشاطئ الغربى من إيطاليا الجنوبية، وقد انتقلت إليها الحركة العقلية التى كانت منتشرة فى أيونيا قبل الزحف الفرسى عليها، وقد ازدهرت فيها المعارف والعلوم العقلية ازدهارا كبيرا، حتى راحت تضارع فى ثقافتها وحضارتها أبان تلك الفترة العاصمة الفرعونية القديمة. [راجع للأستاذ: نعمت الله حكيم الرحمن – تاريخ الفلسفة اليونانية ص١٨٣ ط الـدار العثمانية ١٣١٥هـ]

(٢) ولد اكسانوفان فى مدينة كولوفون من أعمال أيونيا القريبة من مدينة أفسوس بآسيا الصغرى حوالى ٥٧٠ق.م، اضطر لمغادرة موطنه هاربا من غزو الفرس، وارتحل إلى بلدان اليونان ومدنها، حتى بلغ صقلية، ثم انتقل إلى إيطاليا الجنوبية، وأخيرا استقر به المقام فى إيليا، وكان حكيما متميزا، وشاعرا مبرزا، كما كان عزيز النفس، لكنه كان ناقدا متحمسا، وثائرا مندفعا يتدفق حماسا. [الدكتور:عبدالعظيم حسن الشورى – المدرسة الإيليائية وأثرها فى الفلسفة اليونانية ص٧٥ ط١/١٩٥٦م]

(٣) الدكتورة: ليلى محمد فاروق – محاضرات فى الفلسفة اليونانية ص٧٧ ط١/١٩٨م.

(٤) الأستاذ: نعمت الله حكيم –تاريخ الفلسفة اليونانية ص١٨٥ .

لقواعد المدرسة، المدافع الحقيقى عنها بما كان يملك من حجج قوية وقدرة لغوية فائقة، وإمكانيات عقلية تجاوز بها الحدود[١].

● مـ مليسوس: وهو الفيلسوف الأصلى للمدرسة الإيلية، والمقنن للمذهب، والمعدل لكل خطوات السير فيه، فهو المهندس الحقيقى لكل من المدرسة الإيلية والمذهب الميتافيزيقى آنئذ[٢].

◉ **وفى تقديرى** أن طلب المعرفة ومحبة الحكمة فى هذه الفترة كان هو التعريف السائد للفلسفة، أو التعريف الذى تلتقى حواليه تعاريف الفلسفة حتى عصر سقراط الذى عاش نهاية القرن الخامس ومطالع الرابع قبل الميلاد ٤٦٩/٣٩٩ق.م، وإن رمت تعريفا إجماليا للفلسفة عندهم فى هذه الفترة فيمكن القول بأنها: البحث النظرى فى العالم، وتعليل ظواهر الكون فى حدود طلب المعرفة ومحبة الحكمة[٣].

إذن كان اليونان قبل سقراط يحاولون بحث الظواهر الكونية، لمعرفة كونها أصل الكون أم لا، لكن أى تلك الظواهر الكونية هى التى كانت محل بحث الفكر لفلاسفة اليونان، وتنازعت فيها عقولهم، وتصارعت أراؤهم، وبخاصة أن هناك فروقا كثيرة بين الظاهرة الجوية والظاهرة الفلكية[٤]، والظاهرة الكونية، بل وغيرها من الظواهر التى تشترك معها فى اسم الظاهرة[٥]، وتختلف عنها فى أبعادها وحقيقتها[٦].

والجواب: أن التوسع فى استخدام لفظ الظاهرة بهذا الشكل لم يكن معروفا لدى القدماء بالمعنى الذى نعرفه نحن الآن، حين تطلق لفظ الظاهرة ، وإنما كان لفظ الظاهرة عندهم ينطبق على ما

---

(١) الدكتورة : ليلى محمد فاروق – محاضرات فى الفلسفة اليونانية ص٨٢ .

(٢) جوهان ترومان – الفلسفة الإيلية وأثرها على الميتافيزيقا اليونانية ص٥٢ – ترجمة صبحى حسن .

(٣) الدكتور: عوض الله جاد حجازى، والدكتور: محمد السيد نعيم – فى تاريخ الفلسفة اليونانية ص١٢ ط٢ دار الطباعة المحمدية بالقاهرة.

(٤) علم الفلك : يعرف بأنه علم يبحث فيه عن الأجرام العلوية وأحوالها (راجع المعجم الوجيز ص٤٨١) .

(٥) يذهب علماء النفس والمعنيون بالتحليل النفسى فى تعريف الظاهرة عندهم بأنها « أمر عارض لا يمكن أن يستمر، وإنما يزول إذا زال سببه، باعتباره نزوعا نحو شيء ما دافع للعداونية »[جان بلانش و ج ب نونتا ليس – ترجمة الدكتور / مصطفى حجازى – المعجم العام لمصطلحات علم النفس والتحليل النفسى ص٣٢٢ – المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع – ط أولى ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م]كما يعرفها علماء الفيزياء بأنها » كل ما يبحث فيه العلم من الحقائق التجريبية أو على المعطيات التجريبية المباشرة من جهة ما هى مشتملة على المدرك «[دكتور/ جميل صليبا – المعجم الفلسفى ج٢ من الطاء إلى الياء ص٣٠– مطبعة دار الكتب – بيروت عام ١٩٨٢م] إذن يمكن القول: بأن الظاهرة هى التى لم تكن موجودة ثم وجدت فى المحسوسات والمعقولات سواء بسواء، أو أنها التى كانت موجودة ثم عدمت سواء أثرت فى الغير أم لم تؤثر فيه، وإنما انحصر أمرها فى ذاتها.

(٦) الدكتور حسانين السيد أبو قرن – الفلسفة اليونانية ورحالها ص٥٣ ط٢/١٩٥٣م.

يتعلق بالموجود المادى وحده غالبا، ويمثل فى ذات الوقت ظاهرة كونية فحسب، وكانت الأسئلة التى ترد على تفسيرات هذه الظواهر الكونية لدى اليونانيين القدماء تقوم على هذه العناصر:

[أ] من أين نشأ هذا الكون وما مصيره[1]؟

[ب] ما هى أسباب الظواهر البادية فيه من الصلابة والليونة والكثافة، أو التخلخل والنعومة أو الخشونة، والكثرة أو القلة.

[جـ] ظواهر البرق والرعد والمطر وغيرها من الظواهر الكونية والأسباب التى تؤدى إليها.

[د] لماذا تشتد الحرارة فى فصول بعينها، بينما تشتد البرودة فى الفصول الأخرى، أو تتلاشى كل منهما فى بعض الأوقات، أو تدوم فى بعض الأوقات دون الأخرى[2].

[هـ] ما مصير الظواهر المنبثة فى الكون فرادى وجماعات ؟

[و] ما هى الغاية من وجود هذا الكون، وإلى أين يسير ؟

[ز] هل خلف هذا العالم عوالم أخرى، وهل بعد هذا الكون أكوان أخرى مماثلة له، وهل توجد عوالم أخرى غير هذا العالم الذى نعيش فيه، بل وما مصير هذه العوالم على فرض وجودها وإذا لم توجد فما المانع من ذلك الوجود[3].

وكانت هذا الأسئلة وأمثالها مما يقصد به فهم الكون والتعرف على أسراره، بجانب محاولة تفهم ظواهره التى سبغت تعريف الفلسفة لدى اليونانيين القدماء، بل واستمرت غالبة على تفكيرهم فترة زمنية ممتدة، حتى صار تعريف الفلسفة الغالب أبان تلك الفترة: بأنها البحث النظرى فى العالم، ومحاولة تعليل ظواهر الكون من الناحية النظرية، ولا يخلو هذا العمل من كونه طلبا للمعرفة، كما لا يخرج عن كونه محبة الحكمة، على ما مال إليه تعريف الفلسفة فى العصر ا ليونانى على وجه العموم، ولدى القدماء منهم على وجه الخصوص.

---

(١) لأن البحث فى حقيقة الكون غير البحث فى كيفية نشأته، أو بداية نشأته، وهى فى صميمها أسئلة ميتافيزيقية، لكنها لما ارتبطت بالأجزاء المادية من هذا العالم فقد صارت مباحث فيزيقية.

(٢) الدكتور: محمد صبرى الظهران — الجغرافيا الطبيعية ص٤٣ ط١٩٦١/١م.

(٣) ذلك التساؤل مما يغلب على بعض الأفهام، وقد يكون لديها بعض أسباب القبول أو الرفض.

جـ من عصر سقراط إلى العصور الوسطى

● ١ـ سقراط[١]:

نشأ سقراط بين أب ينحت التماثيل، ليتكسب من ورائها ما يحفظ عليه أوده، وأم مارست مهنة القابلة حتى تساهم فى نفقات الأسرة، وكان سقراط صاحب عقلية متميزة، ولأنه الوليد الوحيد للأسرة، فقد حرصت أسرته على تنمية تلك القدرات، وقد كان لها ما أرادت، فاعتلى هذا الوليد سلم المعارف السائدة، وأمكنه أن يبرز على أقرانه، بل وأن يبز الجميع ممن كانت تمتلئ بهم ساحات أثينا على الخصوص واليونان على وجه العموم[٢].

ولما تقدمت به سنه نحو شرخ الشباب، كانت قدراته العقلية هى الأخرى آخذة فى الصعود، حتى بلغت النضج الذى مكنه من أن يلعب دورا بارزا فى الحياة العقلية اليونانية آنئذ، منطلقا من أثينا

---

(١) ولد سقراط فى أثينا حوالى ٤٧٠ ق.م، وكان من أسرة متوسطة الحال، ولكنه كان صاحب قدرات عقلية متميزة، مكنه من الانخراط فى المدارس العلمية التى كانت سائدة فى بلاد اليونان آنئذ، إذ كان تلميذا فى مدرسة أرخيلاوس الذى خلف انكساغوراس فى قيادة المدرسة بأثينا، وكان معجبا ببعض آراء أنكساغوراس إلى حد كبير، ومنها القول بأن العقل هو علة النظام والقانون فى العالم، وقد دعاه ذلك الإعجاب إلى التخلى عن الأبحاث الكونية التى كان يجيدها، والاتجاه إلى البحث فى الإنسان، والكثير من المعلومات التى يتناقلها المؤرخون عن حياته، أغلبها من نسج الخيال، وبخاصة ما يتعلق بزواجه من امرأة سليطة اللسان جافة الطبع، أو شجاعته فى حصار بوتديا ٤٣١/٤٣٠ق.م، لكن المتفق عليه هو أن سقراط كان متميزا فى قدراته العقلية، كما كان معتدا بنفسه إلى حد كبير، وأمثاله تقع لهم العداوات، ويكثر أعداؤهم، كما تكال الاتهامات لهم، سواء ما يتعلق منها بالعقائد أم ما يتعلق بالعادات السائدة فى المجتمع، ولما قوة القانون، أم ما يتعلق بأمن البلاد واستقرارها.

وسقراط قد وقع له ذلك كله فاتهم بأنه ينكر الاعتقاد فى الآلهة الشعبية، كما يدعو لإنكار العقائد والعادات الثابتة، وكذلك اتهم بأنه يلجأ لإفساد عقول الشباب، ودفعهم للخروج على أسرهم والقيم الثابتة، وكان منهج سقراط فى التهكم والتوليد من عوامل الغضب عليه، حتى كان خصومه هم قضاته وجلادوه الذين قرروا تقديمه للمحاكمة، وسارعوا بالحكم عليه بالإعدام عن طريق تجرع السم، فمات به عام ٣٩٩ق.م .

ويذهب البعض إلى أن بعض تلاميذه وفروا له فرصة الهرب من حكم الإعدام، وكان فى إمكانهم إنقاذ ذلك، ولكنه أبى الفرار، إذ كيف يقول الناس عنه بعد موته، أيقولون أن صاحب الفضيلة والداعى لها يتخلى عنها، فكان ذلك الاعتداد بالنفس هو الذى مكن الأعداء من القضاء عليه، وسواء أكانت دوافعهم شخصية أم دوافع عامة، فان الذى لا خلاف عليه هو أن سقراط كان يعلم الفضيلة، ويدعو إليها، كما أخرج الشباب من دائرة الفكر السوفسطائى العقيم إلى دائرة التفكير العلمى المنظم، ومن دائرة التخبط والشكوك إلى دائرة الوقوف على شواطئ اليقين. [راجع للدكتور حسانين السيد أبو قرن- الفلسفة اليونانية ورجالها الأوائل ص٨٣ ط١/١٩٧١م، وراجع للدكتور: رمزى البسيونى – خطوات الفلسفة اليونانية ص١١٥ ط أولى ١٩٧٦م، وللدكتور محمد السيد أحمد شحاته – فلاسفة الإغريق بين العمق الفلسفى والبساطة العقلية ص٣١٦/٣١٧ ط١/١٤٢١هـ/٢٠٠١م.

(٢) الدكتور صبرى محسن زينهم – سقراط فيلسوف اليونان ص١٧ ط٢ / ١٩٧٧م.

ومن حواليه، غير عابئ باعتراضات من هم أسن منه من رجال السوفسطائية، ولا بتحذيرات الخصوم الذين راحوا يتكاثرون حوله، ويعملون على صرف الناس عنه.

اصطنع سقراط لنفسه منهجا عقليا فى الحوار يقوم على جانبين. هما:-

* **أ- التهكم من الأفكار السائدة،** التى يدعو إليها السوفسطائية ومن يقف معهم؛ لأنها - من وجهة نظره - غير قابلة للتطبيق، كما أنها تهدم القيم الراقية، ولا تدعمها أدلة، ثم هى فى مجملها تحمل معاول هدفها فى أعناقها، ومثلها يجب التخلى عنه؛ لأن النقائض تأتيها من كل جانب، وكل يستغل فى تهكمه منها طريقة اصطناع الجهل، وبالتالى يلجأ إلى إلقاء الأسئلة المتوالية على من يعتنق تلك الأفكار، حتى يشعر من نفسه بأنها غير صحيحة(١).

وذلك ألزمه مقابلة الناس فى الأماكن المختلفة، يستوى فى ذلك الأندية والمدارس والشوارع والأسواق؛ لأن العبرة عنده هى الوصول إلى الرءوس التى تحمل تلك الأفكار، والغاية لديه هى إخلاء هذه الرءوس من ذات الأفكار السوداء، التى لا تحمل إلا الخرافات ولا تنقل إلا الأوهام.

* **ب- التوليد:-** حيث يقتنص من إجابات محدثيه الفاسدة بعض النقاط الإيجابية، ثم يقوم بترتيبها على ناحية فنية ثم يعيد طرحها عليهم مرة ثانية، من باب إعادة العقل اكتشاف نفسه، فهو فى التهكم يخلص العقل من أفكاره الخاطئة، وفى التوليد يضع العقل على عتبات الأفكار الصحيحة؛ لأن المعارف عنده قائمة فى المدركات العقلية التى تضم بين جنباتها المعانى الكلية.

وبالتالى فقد عرف الفلسفة بأنها البحث المتواصل فى المعرفة الصحيحة، وطرائق اكتسابها، وكيفية الاستفادة منها على الناحية العملية والعلمية(٢)، ولأن المعارف الصحيحة لديه هى القائمة القدرات العقلية، وتمكنها من اصطياد المعانى الكلية، فقد أمكنه انتزاع العقل من البحث فى أصل الكون إلى البحث فى معارف الإنسان، وبالتالى وصف بأنه الذى أنزل البحث الفلسفى من السماء إلى الأرض، حيث أمكنه إعادة الإنسان إلى أفعال نفسه، والحكم عليها بأنها خيرة، أو شريرة، من خلال القدرات العقلية والقوانين الفكرية(٣)، التى لا يقع فيها التنازع بين أصحاب الفكر المنضبط.

---

(١) الدكتور: حسانين السيد أبو قرن - الفلسفة اليونانية ورحالها الأوائل ص١١٢ ط أولى / ١٩٧١م.

(٢) الدكتور: حسن محمد الجبيلى - سقراط وفلسفته ص٤٣ ط٢ / ١٩٦٧م.

(٣) الدكتور: مرسى البسيونى - خطرات الفلسفة اليونانية ص١١٧ ط٢/١٩٥٦م ط الدار البيضاء

٢ـ أفلاطون[1] (الاثيني ٤٢٧/٣٤٧ق.م):-

يعده أغلب المؤرخين من أعظم فلاسفة اليونان، وأفضل تلاميذ سقراط، عنى بالرياضيات والفلسفة، كما عنى بالجدل[2]، وأنشأ أكاديمية عرفت باسم أكاديمية أفلاطون، وأطلق عليها اسم الأكاديموث، وهو أستاذ أرسطو، عرف الفلسفة بأنها كسب أو تحصيل المعرفة، أو هى معرفة الأمور الأزلية، ومعرفة حقائق الأشياء على ما هى عليه[3]، وطبقا لهذا التعريف فقد شملت الفلسفة علوما ثلاثة هى:-

☆ أـ الجدل.
☆ بـ العلم الطبيعى.
☆ جـ علم الأخلاق.

وجعل علم الجدل شاملاً النظر فى العلم[4] الإنسانى، ومسائل ما وراء الطبيعة، التى تتعلق

---

(١) أفلاطون : أحد فلاسفة اليونان قبل الميلاد ، ولد حوالى (٤٢٧ق.م) فى أثينا ، وقد تتلمذ عليه أرسطو ، واستفاد غيره الكثير من أفلاطون نفسه ، وهو غير أفلاطون المصرى الاسكندرانى صاحب الأفلوطينية الحديثة ، الذى ولد عام ٢٠٥م بأسيوط ، ثُمَّ رحل إلى سوريا والعراق وروما ، حتى استقل بها ومات ٢٧٠م – [راجع فى تاريخ الفلسفة اليونانية للدكتورين / عوض الله حجازى ، محمد السيد نعيم ص٢٠٥/٢٠٨].

(٢) الجدل : طريقة فى المناقشة والاستدلال صورها الفلاسفة بصور مختلفة، وهو عند مناطقة المسلمين "قياس مؤلف من مشهورات أو مسلمات، واشتهر بالجدل السوفسطائيون من اليونان والمعتزلة من المسلمين . [راجع المعجم الوسيط – مجمع اللغة العربية ج١ ص١١٦ – ط٣/١٩٨٥م] ويعرف العلامة الجرجانى: الجدل بأنه دفع المرء خصمه عن إفساد قوله بحجة أو شبهة أو يقصد به تصحيح كلامه، وهو الخصومة فى الحقيقة والجدال عبارة عن مراء يتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها. [راجع فى هذا الشأن للعلامة السيد الشريف الجرجانى – التعريفات ص٦٦ ، وكذلك الإفصاح فى فقه اللغة – الأستاذ عبدالفتاح الصعيدى ، والاستاذ حسين يوسف موسى ج١ ص٢٤٤ ط٢ ملتزم الطبع والنشر – دار الفكر العربى – مطبعة المدنى بالقاهرة]

(٣) الدكتور صلاح عبدالعليم إبراهيم – دراسات فى الفلسفة ص٢٢ طبعة المدنى ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

(٤) ينقسم العلم إلى قسمين:

الأول : العلم القديم وهو علم الله تعالى القائم بذاته جل شأنه، وهو صفة أزلية قديمة بها انكشاف جميع المعلومات، فهو علم إحاطة وانكشاف، ومن ثم لا يشبهه شيء من علوم غيره؛ لأنه المتفرد به جل شأنه.

الثانى: العلم الحادث : وهو يتنوع إلى ١- البديهى وهو ما لا يحتاج إلى تقديم مقدمة كالعلم بوجود الإنسان نفسه، وأن الكل أعظم من الجزء، وأن الأب من له ابن إلى غير ذلك مما هو بدهى، وسمى بذلك لنسبته إلى البداهة. ٢- الضرورى: وهو ما لا يحتاج فيه إلى تقديم مقدمة كالعلم الحاصل بالحواس الخمس على سبيل القطع . ٣- الاستدلالى: وهو الذى يحتاج إلى تقديم مقدمة كالعلم بثبوت الصانع وحدوث العالم، وما كان من هذا القبيل. [راجع التعريفات ١٣٦] وأرجعه البعض إلى نوعين: الأول:- البديهى وهو الذى لا يحتاج إلى بذل مجهود عقلى، ولا يحتاج إلى نظر وكسب. والثانى الكسبى وهو الذى يحصل بالأسباب التى تباشر بجانب النظر والاستدلال على ما ذهب إليه المناطقة. [راجع فى ذلك الشأن كتابنا: الغزاليات فى منطق التصورات أثناء الحديث عن أقسام العلم باعتبار البديهى والكسبى].

بالوجود ككل والمعقولات الأولى[١]، على حين يشمل العلم الطبيعي علوم الطبيعة، والفلسفة الطبيعية، وعلم النفس. أما علم الأخلاق فهو العلم الذى يبحث فى السلوك الإنسانى[٢].

ولأن أفلاطون درس الرياضة[٣] والفلك، كما درس الموسيقى والبيان، والجدل والأخلاق؛ فإنه درس السياسة[٤] والجغرافيا والتاريخ، بل والطب والتنجيم، فكان موسوعة علمية متحركة مكنته هذه العلوم كلها من خلط التعاريف السابقة وهضمها، ثم استخراج عصارتها فى ثوب مشبع بالمعرفة، ومن اعتزازه بهذه العلوم كان يوصى تلاميذه ومريديه بدراسة الفلسفة والرياضيات والهندسة[٥]،

---

(١) المعقولات الأولى هى أحد أقسام المعقولات، فالمعقولات قسمان :[١] المعقولات الأولى: وهى ما يكود بإزائها موجود في الخارج نحو طبيعة الحيوان والإنسان فإنهما يحملان على موجود خارجي كقولنا زيد إنسان وفرس حيوان. [٢] المعقولات الثانية ما لا يكون بإزائها شيء فيه كالنوع والجنس والفصل فإنها لا تحمل على شيء من الموجودات الخارجية. [العلامة محمد عبد الرؤوف المناوي المولود ٩٥٢والمتوفى ١٠٣١هـ ـ التوقيف على مهمات التعاريف ج١ ص٦٦٦/٦٦٧- دار الفكر المعاصر , دار الفكر – بيروت , دمشق – ١٤١٠هـ الطبعة الأولى –تحقيق د. محمد رضوان الداية].

(٢) الدكتور: يحيى هويدى – مقدمة فى الفلسفة العامة ص٣٣ (بتصرف يسير).

(٣) دراسة الكميات العددية والعلاقات بينها، والكميات الفراغية والعلاقات بينها، وكذلك تعميم هذه الكميات تعريفها بدقة على أساس خصائص معينة أيضا، لاستنتاج العلاقات الكائنة بين الكميات نفسها، وبين علاقات سبق الحصول عليها، والفروع الرياضية الابتدائية بالنسبة للكميات العددية هى الحساب، أما بالنسبة للكميات الفراغية فهى الهندسة الفراغية، أما علم الجبر فيعتبر تعميما للحساب. [راجع الموسوعة العربية الميسرة - ج١ ص٩٠٥ - دار النهضة - لبنان بيروت ١٤٠١هـ/١٩٨١م].

(٤) السياسة هى : « فن التعامل مع الآخرين لصالح الفرد والجماعة، سواء أكان ذلك فى محيط الجماعات القليلة، أم فى محيط الدول والجماعات الكبيرة ». [الدكتور عبدالحميد منتصر – السياسة بين اللغة والمفهوم ص٥ – دار الوفاء طبعة أولى ١٩٦٧م] وتعرف أيضا بأنها: « العلم الوحيد الذى تجد الأنظمة الحالية لها فيه مجالا »[أرسطو طاليس – السياسة ص٨ – ترجمة الدكتور أحمد لطفى السيد] كما تعرف بأنها: « وسيلة تحصيل الحق، وتمية الأحواء، وتهذيب الخواطر، سواء أكان ذلك بين الأفراد، أم الأمم ». [الأستاذ سامى نصر الله لطفى – السياسة – ط٢/١٩٦٣م ص١٧]وقد يذهب البعض إلى أن السياسة هى الدبلوماسية، واضعين فى الاعتبار أنّ الدبلوماسية مصطلح حديث، بينما السياسة مصطلح قديم، ولما كانت الدبلوماسية هى : « القدرة على إظهار الحلول الجدية للمشكلات الصعبة فقد اعتبرها البعض مرادفة للسياسة »[دكتور فؤاد محمد ناصر – ما الدبلوماسية – طبعة كركوك بالجمهورية العراقية ١٩٥٣م ص١٣] لذا؛ فإن السياسة والدبلوماسية معا يتآزران لأداء خدمة بعينها. ويذهب البعض إلى أن السياسة مأخوذة من الأصل اللغوى "ساس" ومعناه قاد أمة أو رعية بنصوص حرت بمجرى القانون إلى ما يراه مناسبا لها.[الأستاذ: توفيق محمد أبو خضرة – السياسة فن وعلم – طبعة فاس بالمغرب ١٩٦٢م ص٦٣]

(٥) هندس مجارى الفنى والأبنية هندسة قدرها ورسم أشكالها والهندسة - الحد والقياس المهندس مقدر مجارى القنى وحيث تحفر والأبنية، وصاحب علم الهندسة [راجع فى هذا الشأن للمعلم بطرس البستانى - قطر المحيط ج٢ ص٢٣١٦]

وكانت له عبارة قد كتبها على مدخل الأكاديمية كعنوان عليها تقول عباراته: « لا يدخل علينا من لم يكن رياضيا »[1].

غير أن تعريفه للفلسفة يلاحظ عليه الخلط المقصود بين ماهية الفلسفة – أى تعريفها –، وبين المهمة التى تناط بالفلسفة، وهى البحث عن طبيعة الموجودات على ما هى عليه، دون نظر إلى اعتبار أخر، ويبدو أن هذا الخلط كان السمة البارزة التى توجت هام هذا العصر الفكرية، كما تسيطر على سائر الأفكار التى تخدم هذا النوع من البحث العقلى المتميز، بجانب أن أفلاطون نفسه كان ينظر إلى الفلسفة من ناحية موضوعها – أى من ناحية العناصر التى تتألف منها[2] – وهو ما يمكن قبول تعريفه للفلسفة على تلك الناحية.

٣- أرسطو طاليس الاسطاغيرى - المعلم الأول - (٣٨٤/٣٢٢ق.م):-

عقلية تغنت بالمعارف، ونمت بين أحضان العلوم المختلفة، ولما اكتملت معارفه برعاية أفلاطون له، وصح القول فيه بأنه قد توافرت لديه كل عوامل النجاح العلمى، وأنه قد أعد إعدادا علميا ليكون قائد علميا، بدل أن يكون قائدا عسكريا[3]، وقد أبلى فى هذا الجانب بلاء كبيرا.

ولئن صح ما نقله المؤرخون عن أرسطو، من أنه كان جامعة متنقلة، أو دائرة معارف محمولة على كتفين؛ فإن تعريفه للفلسفة قد عبر عنه حيث عرفها بأنها: البحث عن الوجود بما هو موجود، وسماها الفلسفة الأولى، تمييزا لها عن الفلسفة الثانية، التى هى عنده العلم الطبيعى، وسماها أيضا بالحكمة؛ لأنها تبحث فى العلل الأولى[4].

ويذكر الكثيرون من الدارسين أن أرسطو قد شغل نفسه بالفلسفة، من حيث التسمية والموضوعات، كما شغل نفسه بها من ناحية الوظائف والغايات، واستدلوا على ذلك بأنه أحيانا يطلق عليها اسم الحكمة، وأحيانا أخرى يطلق عليها اسم العلم الإلهى، وأحيانا ثالثة يطلق عليها اسم العلم المتعلق بقضايا ميتافيزيقية[5]، إلى غير ذلك من التسميات، وكان لكل تسمية منها مدلول خاص عنده، لكن كثرة أساميها لا تدل على انه كان واثقا من معالجته الكاملة للمشكلة التى يتناولها، بقدر ما يعطى انطباعا أكثر من التردد فى الحكم الدقيق على موضوعاتها، وكذلك الأسماء التى تعبر عنها، فضلا عن التعريفات التى تقف لها وحدها على وجه الخصوص.

---

(١) الأستاذ يوسف كرم – تاريخ الفلسفة اليونانية ص٦٣ طبعة دار القلم – بيروت، ونسبت هذه العبارة أيضا إلى فيثاغورث. [راجع للدكتور زكى محمد فرج – الفلسفة الفيثاغورية ص١٥]

(٢) أزفولد كولبه – المدخل إلى الفلسفة ص٩ – ترجمة الدكتور أبو العلا عفيفى – طبعة لجنة التأليف والترجمة بالقاهرة ١٩٥٥م.

(٣) ميتزكوندرسيه – أرسطو حكيم اليونان ص١٣ – ترجمة وفاء خيرى ط دمشق ١٩٦٧م.

(٤) الدكتور: توفيق الطويل – أسس الفلسفة ص٤٧ ط دار النهضة المصرية.

(٥) ميتزكوندرسيه – أرسطو حكيم اليونان ص٦٥ – ترجمة وفاء خيرى .

وأرسطو يجعل فى حسبانه باعثا للاسم الذى يطلقه على الفلسفة، يعلل به من جانبه بفرض التأكيد على ذلك الإطلاق، فحين أطلق عليها العلم الإلهى، إنما قصد بذلك الإطلاق أهم المباحث التى يدور حولها الجدل، وهى الموجود الأول، أو علة الوجود الأولى[1]، أما حين أطلق عليها اسم الحكمة، فقد كانت غايته من ذلك الإطلاق أن يحصر موضوعاتها فى دائرة ما بعد الطبيعة، بحيث يكون لفظ الحكمة أو الفلسفة فى مقابلة لفظ العلم الطبيعى[2].

بيد أن النظرة التأملية توقف الدارس على أن لفظ الفلسفة عند أرسطو كان مساويا للفظ العلم، بحيث يتساويان معا فى الوقوف على شاطئ واحد، وتكون الكفتان متساويتين بين لفظ الحكمة أو الفلسفة، أو هى والعلم، أما حين أطلق عليها لفظ العلم المتعلق بقضايا ميتافيزيقية، فقد كان مقصده البحث المتعالى عن الطبيعة والعلم معا[3].

بناء عليه فقد أمكن لأرسطو أن يقسم الفلسفة إلى قسمين، كما يقسم العلم أيضا إليهما تماما بتمام:-

☆**الأول**: الفلسفة النظرية: وهى التى تتمثل فى الطبيعيات والرياضيات والإلهيات.

☆**الثانى**: الفلسفة العملية: وهى التى تتمثل فى الأخلاق والسياسة والاقتصاد.

ومن هذه القسمة للفلسفة يتضح أن أرسطو قد تجاوز الخطوط التى رسمها السابقون عليه من مفكرى اليونان، كما يكشف النقاب عن فكر أرسطو، وملامح فلسفته، لكن تبقى نقطة مهمة، وهى مكان الميتافيزيقا من فكر ارسطو وفلسفته، أهى ضمن المباحث النظرية للفلسفة، أم من المباحث العملية، وإذا كانت فمن أى غصن من أغصان الفلسفة تجىء الميتافيزيقا؟

والجواب: أن الميتافيزيقا عند تحديد المعنى الفنى الدقيق، ينصرف إلى ما بعد الطبيعة وحده، أو ينصرف إلى المبادئ اللاهوتية على وجه اليقين[4]، ومن ثم يصح القول بأن أرسطو قد أقدم على تعريف الفلسفة بعدة تعريفات، بعضها يتسع جدا حتى ينصب على مفهومها العام الشامل لكل العلوم، وبعضها يضيق جدا، حتى لا يحتمل سوى المفهوم الضيق، الذى يتعلق باللاهوت وحده، دون اعتبار لشيء آخر سواه.

ويبدو لى أن أرسطو قد استفاد من ظروف عصره، وأنه متى واجهته قوى أكبر من إمكانياته، فإنه كان يتصرف فيها من خلال لغة تجىء معها اللولبية، بحيث لا تقع عليه الإدانة التى تعقبها الهلكة، كالحال مع سقراط، ونفس الشيء اصطنعه فى تعريفه للفلسفة، فتارة يجعله تعريفا عاما، بحيث يشمل

---

(١) الدكتور: فاضل محسن السيد الذكى – دراسات فى الفلسفة الأرسطية ص١٣٧ طبعة الدار القومية ١٩٥٧م.

(٢) الدكتورة: فوقية السعيد التهامى – أرسطو وفلسفته ص٩٥ ط٢ كركوك ١٩٦٣م.

(٣) وهو بهذا يفتح بابا جديداً للبحث الميتافيزيقى فى الجوانب المختلفة، كما يخص عالم الشهادة بنصيب وافر من الدراسات العلمية والميتافيزيقية أيضا.

(٤) يراجع فى ذلك معالجتنا للعلاقة بين الميتافيزيقا والفلسفة، حيث عرضت ما أعاننى الله تعالى على بيانه.

للعلوم النظرية والعملية، وتارة يجعله عميقا، حيث يقتصر على ما بعد الطبيعة، ويقصد ... الميتافيزيقا التأملية(١).

كما يغلب على ظنى أن هذا التعريف الأرسطى للفلسفة قد كتب له بعض البقاء فترة من الزمن، امتدت حتى نهاية العصر الإغريقى، وتسلل إلى ما بعده بقليل، ثم طار ذكره لدى الدارسين للفلسفة حتى يومنا هذا، ولا يعرف بالضبط أو على وجه اليقين السبب القوى الذى كان يقف خلف هذه التعريفات الأرسطية، حتى نالت لونا من العصمة للأفكار بين أهل اليونان، بدليل أنه لم يخرج أحد عليها، أو يفكر حتى فى مجرد إعلان خروجه عليها، أو رفضه لها(٢)، بل على العكس من ذلك تماما تلمح فى مفردات الناقلين، تمسكا بها، كما تغالبك كثرة المرددين لها، أو المترددين عليها الذين لا هم لهم إلا التمسك بها، مع تأكيدهم صحة الانتساب إليها.

ومع أن أرسطو لم يكن مسيحيا، إذ أنه ولد ومات قبل المسيحية، إلا أن الكنيسة المسيحيه اعتنقت أفكار أرسطو، حتى صورته على أنه قديس مسيحى، وتمسكت بآرائه، واعتبرتها المذهب الرسمى للكنيسة، وأقامت على ذلك الحال منذ العصر المدرسى حتى يومنا الراهن، وترتب على ذلك ظهور آثار لها خطرها، الذى لا ينكر فى تاريخ النـزاع بين الدين المسيحى والفلسفة(٣)، التى أنتجتها العقلية اليونانية، ونقلها ذات العقل(٤) اليونانى إلى البيئات الأخرى من خلال روافد عديدة.

---

(١) راجع كتابنا: رياض الأشواق فى الميتافيزيقا والأخلاق ص١٠٧ .
(٢) ميتز كوندرسيه – أرسطو حكيم اليونان ص٧٢– ترجمة وفاء خيرى .
(٣) الدكتور توفيق الطويل – قصة الصراع بين الدين والفلسفة ص١٠١ ط٣ دار النهضة العربية ١٩٧٩م.
(٤) أشار القرآن الكريم إلى معنى العقل بعدة ألفاظ منها : ١- العقل : وقد وردت مادة (عقل)، وما اشتق منها فى القرآن الكريم تسعة وأربعين مرة، منها قوله تعالى: ﴿وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير﴾(الملك/١٠). قال ابن عباس ﷺ : « لو كنا نسمع الهدى أو نعقله، أو لو كنا نسمع سمع من يعي ويفكر، أو نعقل عقل من يميز، وينظر » [الجامع لأحكام القرآن جـ١٠ ص٦٦٩١]. ٢- الفؤاد: وقد وردت مادة (فأد) فى القرآن الكريم ثلاث عشرة مرة، منها قوله تعالى: ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾(النحل /٧٨). قال ابن كثير: « والأفئدة هي العقول التي مركزها القلب على الصحيح، وقيل: الدماغ، والعقل به يميز بين الأشياء ضارها ونافعها » [تفسير القرآن العظيم جـ٢ ص٧٩]. ٣- النهى : وقد وردت هذه المادة (نهى) مرتين فى القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿إن في ذلك لآيات لأولي النهى﴾(طه/٥٤). قال الفخر الرازى: « أى لأهل العقول، والأقرب أن للنهية مزية على العقل، والنهى لا يقال إلا فيمن له عقل وانتهى به عن القبائح » (مفاتيح الغيب جـ١١ ص٦٧). ٤-الحجر : وقد وردت مادة (حجر) وما اشتق منها فى القرآن الكريم إحدى وعشرين مرة، منها قوله تعالى: ﴿هل في ذلك قسم لذي حجر﴾(الفجر - الآية٥). قال الإمام الرازى « الحجر: العقل سمي به؛ لأنه يمنع عن الوقوع فيما لا ينبغي، كما سمي عقلا ونهية؛ لأنه يعقل ويمنع، وحصاة من الإحصاء وهو الضبط. قال الفراء: والعرب تقول: إنه لذى حجر إذا كان قاهرا لنفسه، ضابطا لها، كأنه أخذ من قولهم: حجرت على الرجل. وعلى هذا سمي العقل حجرا؛ لأنه يمنع من القبيح من الحجر، وهو المنع من الشيء بالتضييق فيه » (مفاتيح الغيب جـ١٦ ص٣٩٣). ٥- اللب : ورد تعبير أولى الألباب فى القرآن الكريم ست عشرة مرة منها: قوله تعالى: ﴿إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب﴾ [آل عمران - الآية ١٩٠]. قال القرطبى: « قوله تعالى : ﴿ لآيات لأولي الألباب﴾ أى الذين يستعملون عقولهم فى تأمل الدلائل » [الجامع لأحكام القرآن - جـ٣ ص١٥٥٢] . ٦- القلب : وقد وردت مادة (قلب) وما اشتق منها فى القرآن الكريم ثمان وستين مرة، منها قوله تعالى: ﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾[سورة ق - الآية ٣٧].قال القرطبى: « قوله تعالى: ﴿لمن كان له قلب﴾أى عقل يتدبر به » [الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ٩ ص٦١٩٣]. [ولمزيد من التفاصيل راجع للدكتور عبدالوهاب محمد عبدالله سليم - بناء الإنسان فى القرآن الكريم - رسالة دكتوراه بكلية أصول الدين والدعوة بالزقازيق ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م]

في العصور الوسطى(١)

سلف التقاط بعض التعاريف للفلسفة فى عصر ما قبل الفلسفة، كما تعرضت لذكر بعض التعريفات فى العصر اليونانى، سواء عصر ما قبل سقراط، أم ما جاء بعده؛ ولأن المقصود ليس هو حصر المدارس أو التعريفات والمذاهب(٢) الفلسفية، فقد غلب عندى أن ما ذكرت فيه كفاية، لكن لما كنت قد انتويت اقتناص جمع من التعاريف للفلسفة على مدى العصور الفلسفية، فقد ألزمنى ذلك مسايرة ذات الاتجاه من العصور الوسطى، حتى العصر الحاضر.

مفهوم العصور الوسطى :

والعصور الوسطى تعرف بأنها الفترة الزمنية التى غلبت على سماء الحرية والفكر فى أوربا، فجعلتها فى ظلام من سحابات الجهل(٣) أو أغلال العبودية التى فرضها رجال اللاهوت المسيحي على الخصوص، وكانت محاكم التفتيش(٤)، تغل كل الأفكار، وتقيد كل العقول، حتى فشا بين الناس الجهل، وانتشر الظلم، وعم الظلام.

اختلف دارسو الفلسفة والمؤرخون في مفهوم العصور الوسطى على أقوال:

الأول: القائلون بالتحديد الزماني :

---

(١) تقع فلسفة العصور الوسطى فى عهدين؛ أولهما: العصر الكنسى، ويذهب الكثيرون إلى أن الفلسفة ليس لها فى هذا العصر من الشأن إلا القليل. ثانيهما: العصر المدرسى: وهو يبدأ من القرن التاسع إلى القرن الخامس عشر وقت قيام النهضة الأوربية. [راجع للدكتور نصر خليل جمعة – العصور الوسطى وفلسفتها ص١٥٧]

(٢) المذاهب : مجموعة من الآراء والنظريات العلمية والفلسفية ارتبط بعضها ببعض ارتباطا يجعلها وحدة متناسقة . [راجع المعجم الوجيز – باب الميم ص٢٤٧ – مجمع اللغة العربية ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م] ويقول العلامة الجرجانى : « المذهب الكلامي هو أن يورد حجة للمطلوب على طريق أهل الكلام بأن يورد ملازمة ويستثني عين الملزوم أو نقيض اللازم أو يورد قرينة من القرائن الاقترانيات لاستنتاج المطلوب مثاله قوله تعالى لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا (سورة الأنبياء الآية ٢٢) أي الفساد منتف فكذلك الإلهية منتفية وقوله تعالى أيضا فلما أفل قال لا أحب الآفلين (سورة الإنعام الآية ٧٦) أي الكوكب آفل وربي ليس بآفل ينتج من الثاني الكوكب ليس بربي » [التعريفات ج١ ص٢٦٥ – باب الميم – رقم:١٣٢١]

(٣) الجهل هو : « اعتقاد الشيء على خلاف ما هو عليه... والجهل البسيط : هو عدم العلم عما من شأنه أن يكون عالما . والجهل المركب : هو عبارة عن اعتقاد جازم غير مطابق للواقع. [الجرجانى – التعريفات ص١٠٨] .

(٤) محاكم التفتيش كان قضاتها من القسس والذين انغلقوا فكريا، وكان المنفذون للأحكام هم الشمامسة والقمامعة الذين كانوا أكثر انغلاقا وقوة، أما البطاركة والكرادلة فكانوا بمثابة الموجه لكل من القضاة ومنفذى الأحكام. [راجع فى هذا الشأن للدكتور حمدى محمد السعيد – أوربا والعصور الوسطى ص١٨٣]

حيث يذهبون إلى أن العصور الوسطى فكرة تطلق على فترة من الزمان تبلغ قرابة الألف عام، تبتدئ بسقوط الدولة الرومانية الغربية عام ٤٧٦ على يد الجرمان الأشداء، وتنتهى بسقوط الدولة الرومانية الشرقية عام ١٤٥٣ على يد المهاجمين الأتراك[١].

كما يطلق لفظ العصور الوسطى على عصور الظلام فى أوربا، أو هى الفترة الزمانية الفاصلة بين العصر اليونانى والعصر الإسلامى، ويطلق عليها عصور الجهل أيضا، كما يطلق على بعضها عصر أباء الكنيسة، وعصر الآباء المدرسين، ولكل منها ملامح عديدة، ولها أخطار كبيرة على العقيدة[٢] والقيم والأخلاق، بل وعلى الفلسفة أيضا[٣].

❁ الثانى: القانون بالتحديد الإحداثى:-

وهم يذهبون إلى أن العصور الوسطى ابتدأت من انهيار الإمبراطورية الرومانية فى القرن السادس الميلادى، وتنتهى عند الإصلاح الدينى الذى طالب به أحرار الفكر فى أوربا ابتداء من القرن الخامس عشر[٤]، سواء أكان دعاة الإصلاح من أوربا أم من بلاد الشرق.

---

(١) الدكتور حمدى محمد السعيد – أوربا والعصور الوسطى ص١٩٢.

(٢) تعرف العقيدة فى الاصطلاح بأنها هى « الجانب النظرى الذى يطلب الإيمان به أولا، وقبل كل شيء، إيمانا لا يرقى اليه شك، ولا تؤثر فيه شبهة » [الإمام الأكبر شيخ الإسلام / محمود شلتوت - الإسلام عقيدة وشريعة ص٩ - دار الشروق - الطبعة السادسة عشر ١٩٩٠م] . وتعرف أيضا بأنها هى « مجموعة من قضايا الحق البديهية المسلمة بالعقل والسمع والنظر يعقد عليها الإنسان قلبه، ويثنى عليها صدره، حازما بصحتها، قاطعا بوجودها وثبوتها، لا يرى خلافها أنه يصح أو يكون، وذلك مثل اعتقاد الإنسان بوجود خالقه » [الشيخ أبو بكر الجزائرى - عقيدة المؤمن ص٢٠ - مكتبة الكليات الأزهرية - الطبعة الأولى ١٩٧٧م] . أو « هى ما يؤمن به الإنسان ويعرفه مهما بعدت به تلك المعرفة أو ذاك الإيمان عن الحقيقة والواقع » [الدكتور / محمد بيصار - العقيدة والأخلاق وأثرهما فى حياة الفرد والمجتمع ص١٤ - ط الثالثة - مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٢م) .وتعرف أيضا بأنها « التصديق بالشيء والجزم به دون شك أو ريبة، فهى بمعنى الإيمان، يقال : أعتقد فى كذا أى أؤمن به وأصدقه، سواء أكان حقا أو باطلا »(الشيخ / سيد سابق - العقائد الإسلامية ص١٠ - الطبعة الثالثة - دار التراث العربى - الناشر دار الكتب الحديثة) . كما تعرف بأنها : « هى رباط معنوى يربط المسلم بربه، وهو رباط لا تحله أزمة مادية، ولا اضطهاد بشرى »(الشيخ / محمد الغزالى - عقيدة المسلم ص٥ - دار الدعوة - الطبعة الثالثة ١٤١١هـ) . أو « هى هذا المبدأ الذى يتمسك به صاحبه ويؤمن بصوابه دون الاستناد إلى دليل »(الدكتور / على عبدالحليم محمود - مع العقيدة والحركة والمنهج، فى خير أمة أخرجت للناس ص٢٠ - دار الوفاء -ط الأولى ١٩٩٢م) . وتعرف بأنها « العقيدة هى الإيمان الجازم بالله تعالى، وما يجب له من التوحيد والطاعة »(الدكتور / ناصر عبدالكريم العُقل - مجمل أصول أهل السنة فى العقيدة ص٥ ١٩٩٢م)، أو هى « الإيمان بحقيقة معينة إيمانا قطعيا لا يقبل الشك أو الجدل، أو هى ما يؤمن به الإنسان ويراه عن اقتناع قلبى أكبر . والعقيدة الدينية هى ما يؤمن به معتقده من أفكار وأراء وتصورات معينة تتصل بالله وملائكته وكتبه ورسله، كما تتصل بالحياة الدنيا والآخرة »(الدكتور/ عبدالغنى عبود - العقيدة الإسلامية والأيدلوجيات المعاصرة ص١٢ - الطبعة الثانية).

(٣) هذا التعريف مما أميل إليه؛ لأن الظواهر التاريخية قد دلت عليه، ولا أحد ممانعة فى الانطلاق منه أو الانتهاء إليه.

(٤) الدكتور: خان السيد حبران – العصور الوسطى وفلسفتها ص١٣٤ ط٢/١٩٧١م.

✽ الثالث: القائلون بالتحديد التقليدى:-

وهم الذين يذهبون إلى أن العصور الوسطى هى الفترة التى انطلق فيها الفكر الأوربى، وانقطع التفكير الفلسفى ابتداء من مطالع القرن التاسع، حتى نهايات القرن الرابع عشر، ومطالع القرن الخامس عشر الميلادى[١].

وهى كلها إطلاقات عنى بها أصحابها على جهة من الجهات، لكن هناك من يقرر أن « جذور القرون الوسطى ظهرت فى الدولة الرومانية منذ القرن الأول للمسيح[٢]، كما أن هذه القرون لم تنته بسقوط القسطنطينية[٣] »[٤].

---

(١) الدكتور يوسف محمد يوسف – العصور الوسطى ص٤٥ ,

(٢) المسيح: هو عيسى ابن مريم بنت عمران، ولدته أمه بإذن الله من غير أب فى بلدة بيت لحم قرب بيت المقدس، أرسل الله تعالى عيسى عليه السلام رسولا إلى بنى إسرائيل وأنزل عليه الإنجيل، فدعاهم إلى الرجوع لأحكام التوراة الصحيحة، وعدم التلاعب بها، وبشرهم بقرب ظهور خاتم الأنبياء محمد ﷺ، فأمن به قلة سموا بالحواريين، وكفر أكثر اليهود، وحقدوا عليه لتبشيره بنبى آخر الزمان، من غير بنى إسرائيل، فأنكروا نبوته واتهموا أمه بالفاحشة، وتآمروا عليه، فأغرو به الحاكم الرومانى بيلاطس البنطى لقتله وصلبه، فألقى الله شبهه على يهوذا الاسخربوطى الذى دلهم على مكانه، فصلبوه، ورفع الله عيسى إلى السماء، ذكرت القصة فى القرآن الكريم ٢٥ مرة منها ١٦ مرة نسب إلى أمه. [راجع للعلامة الحافظ ابن كثير – البداية والنهاية – م٢ ص٦٨، الموسوعة العربية الميسرة ص١٩٨١، قاموس الكتاب المقدس ص١٠٦٥].

(٣) قسطنطينية ويقال قسطنطينة بإسقاط ياء النسب، كانت رومية دار ملك الروم وكان بها منهم تسعة عشر ملكا ونزل بعمورية منهم ملكان وعمورية دون الخليج وبينها وبين القسطنطينية ستون ميلا وملك بعدهما ملكان آخران برومية ثم ملك أيضا برومية قسطنطين الأكبر ثم انتقل إلى بزنطية وبنى عليها سورا وسماها قسطنطينية وهي دار ملكهم إلى اليوم واسمها إستنبول وهي دار ملك الروم بينها وبين بلاد المسلمين البحر المالح. عمرها ملك من ملوك الروم يقال له قسطنطين فسميت باسمه، ولها خليج من البحر يطيف بها من وجهين مما يلي الشرق والشمال وجانباها الغربي والجنوبي في البر وسمك سورها الكبير أحد وعشرون ذراعا وسمك الفصيل مما يلي البحر خمسة بينها وبين البحر فرجة نحو خمسين ذراعا وذكر أن لها أبوابا كثيرة نحو مائة باب منها باب الذهب وهو حديد مموه بالذهب، وقال بطليموس في كتاب الملحمة مدينة قسطنطينية طولها ست وخمسون درجة وعشرون دقيقة وعرضها ثلاث وأربعون درجة وهي في الإقليم السادس طالعها السرطان ولها شركة في النسر الواقع ثلاث درج في منبر الكفة والردف أيضا سبع درج ولها في رأس الغول عرضه كله وهي مدينة الحكمة لها تسع عشرة درجة من الحمل بيت عاقبتها تسع درج من الميزان قال وليست هذه المدينة كسائر المدن لأن لها شركة في كواكب الشمال ومن ههنا صارت دار ملك وقيل طولها تسع وخمسون درجة ونصف وثلث وعرضها خمس وأربعون درجة، ومن المنابر العجيبة منارة قسطنطينية لأنها منارة موثقة بالرصاص والحديد والبصرم وهي في الميدان إذا هبت عليها الرياح أمالتها شرقا وغربا وجنوبا وشمالا من أصل كرسيها ويدخل الناس الخزف والجوز في خلل بنائها فتطحنه. [العلامة ياقوت بن عبد الله الحموي أبو عبد الله المتوفى ٦٢٦هـ– معجم البلدان ج٤ ص٣٤٧/٣٤٨ – دار الفكر- بيروت – (بدون تاريخ وتحقيق) ، وراجع الطبعة الأولى – دار الكتب العلمية – بيروت ١٤١٠هـ/١٩٩٠م ج٤ ص٣٩٥ – تحقيق فريد عبدالعزيز الجندى]

(٤) سلامة موسى – ما هى النهضة ص١١ – ط دار المستقبل بالقاهرة، وراجع للدكتور: مراد وهبة – قصة الفلسفة ص٣٥ ط دار الثقافة.

وربما صارت ملامح هذه الفترة غير واضحة المعالم - من الناحية الفلسفية - بحيث يمكن القول بأن العصور الوسطى فكرة ليست لها موضوعات محددة، غير أن هذا القول لا يقع في دائرة الصواب، أو لا ينال هذا القول الثقة التي تدفع لقبوله. أما لماذا؟

فلأن العصور الوسطى في نظري، مصطلح قد يقصد به في الفلسفة ما بين الإنتاج الذهبي الحرفي العالم الذي كانت تمارسه الفلسفة اليونانية، والوحي الإلهي الذي جاء به النبي الخاتم سيدنا محمد ﷺ ، ومن أبرز ملامح العصور الوسطى ظهور العديد من المدارس والاتجاهات، بل والتيارات الفكرية الدينية في غير الإسلام المتخالفة على الدوام.

فمن المدارس التي ظهرت أبان تلك الفترة مدرسة الإسكندرية التي لم تكد تظهر إلى الوجود، حتى كسفت بنورها العلمي مدارس أثينا، وانتزعت منها راية العلم والفلسفة، واستمرت تتزعم الحركة الفكرية زهاء ثمانية قرون ابتداء من القرن الثالث قبل الميلاد، وعند انشائها حتى القرن الخامس بعد الميلاد[1].

كما ظهرت الفيثاغورثية الجديدة كمذهب رياضي عقلي، حاول التوفيق بين الأديان التي انطلقت من عقول أصحابها، أو التي جاء بها الوحي من قبل، ولكنها تمركزت بعد ذلك في عمليات تطهير ذاتي، أو نقاء خارجي، أو شفافية تحتاج المزيد من التركيز.

كذلك تبلورت الأفلوطنية المحدثة التي أقامها أفلوطون المصري[2]، الذي كان له دور كبير في نقل الكثير من المعارف الفلسفية الجديدة، إلى البيئة المصرية التي صارت مستعدة لتقبل هذه الأفكار، وبخاصة بعد أن صار لأفلوطين الكثير من الأتباع والمريدين، والكثرة من الأفكار التي تنقل منسوبة إليه، وكلها تجيء على ناحية من النواحي الفلسفية الخالصة.

إذن أمكن تعريف الفلسفة بأنها المواءمة بين متطلبات العقل في حدود ما تسمح به الموروثات[3]، باعتبار أن ذلك من مطروحات الفكر الفلسفي، على أن يكون الموروث المراد من التعريف هو ما يتعلق بالموضوع، لا ما يتعلق بغير الفلسفة لوجود الفرق بين المفهومين.

غير أن بعض التعريفات للفلسفة قد انطلقت من الغاية الفلسفية، لا من ناحية الموضوع، كالتعريف القائل بأن الفلسفة عمل عقلي غايته التعرف على حقائق الأشياء، والوصول إلى معرفة ما بينها من علائق[4]، فصار ذلك التعريف للفلسفة متساويا مع تعريف التفلسف، حتى لكأن التفلسف والفلسفة شيء واحد، وهو من نتائج الحركة الفكرية في العصور الوسطى.

---

(١) الدكتور: أحمد فؤاد الأهواني – المدارس الفلسفية ص٨٤ .
(٢) هو أفلوطين المصري رائد الأفلوطونية الحديثة ، ولد في أسيوط الوسطى ٢٠٥/٢٧٠م.
(٣) الدكتور: رمضان حسني توفيق – الفلسفة اليونانية ص٩٢ ط١/١٩٥١م.
(٤) الدكتورة: فوزية مرسي الشيخ – دراسات في فلسفة العصور الوسطى ص١٧٧ ط٢/١٩٩١م.

ومن المؤكد ان الحركة العقلية أبان العصور الوسطى فى اوربا قد وقعت بين كل من

☆ **أ- سلطان الكنيسة التى تمسكت بآراء أرسطو اليونانى،** و لم تقم لغيرها اعتبار لأى فكر آخر، بل اعتبرت أفكار أرسطو هى الدين الذى يجب اعتقاده، والتمسك به والدفاع عنه، كما أنها لم تسمح لأحد بالخروج عليه، ومن تجرأ وخرج عليه، تكون عقوبته الإعدام.

☆ **ب- سلطة الآباء الرسوليين الذين لهم وحدهم حق تفهم الكتاب المقدس**[١]، ويسمح لهم وحدهم بالحديث عنه، وتقديم التفسيرات له، وكلما كان لدى هؤلاء الآباء من ثقافة[٢]؛ فإنه لابد أن تصطبغ بها الحركة العقلية، وتجرى فى التعاريف الفلسفية على ذات الناحية التى تقف عندها التفسيرات اللاهوتية[٣].

☆ **جـ- الانفلاتات العقلية الخافتة التى أمكن لأصحابها التعبير عن بعضها فى شكل من الأشكال** وكان التعبير عنها أهم أسباب القضاء على بعض أصحاب تلك العقليات، كالحال مع برونو[٤]،

---

(١) يتكون الكتاب المقدس من: أ- العهد القديم هو مجموعة من الأسفار المعتمدة عند اليهود، وتبلغ تسعة وثلاثين سفرا، وتنقسم إلى أربعة أقسام: أ- كتب موسى أو الأسفار الخمسة. ب- الأناشيد وعددها خمسة أسفار. جـ- الأسفار التاريخية وعددها اثنى عشر سفرا. د- أسفار الأنبياء وعددها سبعة عشر سفرا. [دكتور:محمد إبراهيم الجيوشي – دراسات عن اليهودية ص٤٢/٤٤ د.ت] ب-العهد الجديد : هو مجموعة من الأسفار الخاصة بالنصارى، التى يقدسونها إلى جانب أسفار العهد القديم، ويعتقدون أن تلك الأسفار موحى بها لأصحابها من الله بمعانيها لا بألفاظها، ويتكون العهد الجديد من سبعة وعشرين سفرا أقرها أغلب النصارى. [الأستاذ عبدالراضى محمد عبدالمحسن – منهج أهل السنة والجماعة فى الرد على النصارى – دراسة علمية من خلال جهود ابن تيمية – الفاروق الحديثة للطباعة والنشر – ط٢/١٩٩٥م].

(٢) ثقف الشيء ثقفا وثقافا وثقوفة: حذقه. ورجل ثقف: حاذق فهم، وأتبعوه، ويقال: ثقف الشيء وهو سرعة التعلم، وثقفت الشيء حذقته، وثقفته إذا ظفرت به. قال الله تعالى: فإما تثقفنهم في الحرب . وثقف الرجل ثقافة أي صار حاذقا فطنا، فهو ثق [لسان العرب ج٩ ص١٩]، والثقف الحذق في إدراك الشيء وفعله ومنه قولهم رجل ثقيف أي حاذق في إدراك الشيء وفعله وعنه استعير المثاقفة ويقال ثقفت كذا أي ادركت ببصرك لحذق في النظر ثم تجوز به فاستعمل في الإدراك وإن لم يكن معه ثقافة نحو. قال تعالى" ﴿ واقتلوهم حيث ثقفتموهم ﴾ (سورة البقرة ١٩١).
[العلامة محمد عبد الرؤوف المناوي المولد ٩٥٢هـ والمتوفى ١٠٣١هـ - التوقيف على مهمات التعاريف - ج١ ص٢٢١ -دار الفكر بيروت, دمشق ١٤١٠هـ - ط١- عدد الأجزاء ١ - تحقيق: د. محمد رضوان الداية]

(٣) الدكتور: خالد السيد حبران – العصور الوسطى وفلسفتها ص١٤٧ .

(٤) برونو : ذلك الراهب أدى دورا فى دراسة علم الفلك، انتحى جانبا فى صومعة يتعامل مع علم الفلك، ويدون أبحاثه فى سرية تامة، وحذر من أن تصل أخباره رجال الدين، لكن ما ظنه خافيا لم يلبس أن بلغ إلى رؤسائه فما كان منهم إلا أن هددوه بإنزال أشد العقاب به، وفر من وطنه إيطاليا إلى بلد آخر يضمن فيه السلامة، ويطمئن على ممارسة أبحاثه، ورغم أنه فى بلد آخر، إلا أن الكنيسة أصدرت أحكامها عليه واعتبرته عدوها الأول، ومن ثم؛ ظلت تطارده برجالها من كل ناحية، حتى تم القبض عليه وأودع السجن مدة ثمان سنوات، فلما لم يرجع عن رأيه قررت الكنيسة إعدامه، وفى صباح الثانى عشر من يناير ١٦٠٠م تم تنفيذ حكم الإعدام فيه حرقا. [راجع للدكتور حسن محمد مرسى: أحرار الفكر الإنسانى ص١٤٥]

وجاليليو[١]، وكوبرنيقوس[٢] وغيرهم.

من ثم يمكن القول بأن فلسفة العصر الوسيط كانت تمثل نوعا من أنواع الامتداد الفكـــرى لفلسـفة الإغريق، مع تعديل بسيط، ودليل ذلك أنها اعتبرت تعريفات أرسطو للفلسفة قاعدة دينيـــة فكرية معا، وقد استمرت فى إرسال أصواتها الخافتة حتى فترات طوال[٣]، لكن لم يكتب لها النجـــاح الكامل.

هـ تعريفات الفلسفة فى ظل الإسلام

الإسلام دين الله رب للعالمين، فيه صلاح الدنيا والدين، بلغ به كل الأنبياء، ونادى به ودعـــا إليه جميع المرسلين، من لدن سيدنا آدم عليه السلام، وكان كل نبى يأتى بشـــريعة خاصـــة تناســـب ذات المكلفين، وظل ذلك الأمر قائما إلى أن جاء خاتم النبيين – رحمة الله للعالمين – سيدنا محمد ﷺ قـــال تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا﴾[٤].

وهذا الإسلام الدين الإلهى العام، الشامل، جاءت به النصوص المنزلة من قبل الله جل عـــلاه، وكان كل نبى يأتى قومه مبلغا عن الله تعاليمه إليهم، يأخذ بأيديهم، كما يأخذ بعقولهم، إلى ما فيـــه صلاح عقيدتهم، وسلامة عبادتهم، وصحة أخلاقهم، وكمال آدابهم، وتعليم الصناعـــات والحـــرف

---

(١) جاليليو : أقام على دراسة الأجرام السماوية والعالم الطبيعى، من سدم ومجرات، حتى اكتشف مجموعة الكواكب، ومـــن ثم غضب رجال الكنيسة عليه، وأصدروا أمرا كهنوتيا بأن تتم محاكمة جاليليو فى روما؛ عساه يلقى مصير سابقيه، وبعـــد أن عذب فترة تراجع عن الآراء التى كان ينادى بها، وأعلن ذلك أمام جمع كبير من رجال الكنيسة، ولكـــن ذلـــك لم يشفع له، و لم يتم الإفراج عنه، وإنما ظل سجينا لا يعرف الحرية، ولا يتحدث معه أحد حـــتى مـــات ســـنة ١٦٤٢م، ويقال: إنه مات مسموما بيد رجال الكنيسة. [راجع للدكتور خيرى حسن صفوت – محاكم التفتيش ورجال العلـــم ص١٩٥، وتاريخ الفلسفة الحديثة ليوسف كرم]

(٢) كوبر نيقوس: عاش داخل الكنيسة احتيالا على رجالها؛ لأنهم كانوا يحرمون البحث العلمى، الذى يعتقدون أنه يعـــارض تعاليم الكتاب المقدسى، حتى يستطيع دراسة العلوم؛ لأن التعليم كان مقصورا على طبقة الكهان، وقد تفرغ لدراســـة علم الفلك، حتى توصل إلى أن الأرض كروية، وأن حركة النجوم التى نراها من فوق الأرض هى حركة ظاهرية، يمكـــن تفسيرها بدوران الأرض حول محورها مرة كل يوم، ورغم أنه توصل إلى هذه الفكرة فى شبابه، إلا أنـــه خشـــى مـــن الإعلان عنها خوفا من رجال الكنيسة، ثم أعلن عنها قبيل وفاته، وظلت الكنيسة تطارد كتبه وتصادرها، ومات فى عـــام ١٥٤٣م. [الدكتور أحمد عبدالخالق- الإسلام والفكر المنحرف ص١٠٤ – دار الهـــدى للطباعـــة – الطبعـــة الأولى ١٩٨٣م، وراجع تاريخ الفلسفة الحديثة].

(٣) يراجع كتابنا: رياض الأشواك فى الميتافيزيقيا والأخلاق ص١٠٨ .

(٤) سورة التوبة – من الآية ٣ . يقول العلامة الرازى : « والمعنى أن الله تعالى أكمل الدين فلا يحتاج الناس إلى دين غـــيره، ولا إلى نبى غير نبيهم صلوات الله وسلامه عليه، ولهذا جعله الله تعالى خاتم الأنبياء، وبعثه إلى الإنس والجن، فلا حـــلال إلا ما أحله، ولا حرام إلا ما حرمه، ولا دين إلا ما شرعه، وكل شيء أخبر به فهو حق وصـــدق لا كـــذب فيـــه ولا خلاف »(الإمام فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن على التيمى البكرى الرازى – مفـــاتيح الغيـــب أو التفسير الكبير – م٥ ص٥٦٣ – ط١ دار الغد العربى بالقاهرة ١٤١٢هـــ/١٩٩٢م .

الضرورية، والمهن الحياتية التي تقودهم إلى الاستفادة من أنماط الحياة المختلفة على ناحية علمية أحيانا وعملية أخرى، لطفا من الله تعالى ورحمة بعباده.

فلما بعث الله النبي الخاتم سيدنا محمدا ﷺ جعل رسالته عامة خاتمة قائمة إلى يوم الدين، وجاء ضمان تلك الرسالة الخاتمة فى كتاب منزل خالد، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد هو القرآن الكريم[١]، وجعل السنة النبوية المطهرة الصحيحة مع القرآن الكريم توضيح مبهما، أو تفصل مجملا، أو تطلق مقيدا، أو تستقل بحكم شرعى، ففى الحديث الشريف عن أبي هريرة[٢] ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: « إني قد تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما كتاب الله وسنتي ولن يتفرقا حتى يردا علي الحوض »[٣]. وقوله صلى الله عليه وسلم: « تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما؛ كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ »[٤]،

(١) وفى الحديث الشريف: عن الحارث الأعور قال« مررت في المسجد فإذا الناس يخوضون في الأحاديث فدخلت على علي فقلت يا أمير المؤمنين ألا ترى أن الناس قد خاضوا في الأحاديث قال وقد فعلوها قلت نعم قال أما إني قد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ألا إنها ستكون فتنة فقلت ما المخرج منها يا رسول الله قال كتاب الله فيه نبأ ما كان قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم وهو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله وهو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم هو الذي لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ولا يشبع منه العلماء ولا يخلق على كثرة الرد ولا تنقضي عجائبه هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد من قال به صدق ومن عمل به أجر ومن حكم به عدل ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم ».[الإمام الترمذى - سنن الترمذي ج٥ ص١٧٢ - [١٤] باب ما جاء في فضل القرآن - الحديث:٢٩٠٦، وأخرجه الدارمي - سنن الدارمي ج٢ ص٥٢٦ - الحديث:٣٣٣١ ، مصنف ابن أبي شيبة ج٦ ص١٢٥ - الحديث:٣٠٠٠٧] . وعن معاذ بن جبل قال « ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما الفتن فعظمها وشددها فقال علي بن أبي طالب يا رسول الله فما المخرج منها فقال كتاب الله فيه حديث ما قبلكم ونبأ ما بعدكم وفصل ما بينكم من تركه من جبار قصمه الله ومن تتبع الهدى في غيره أضله الله هو حبل الله المتين والذكر الحكيم والصراط المستقيم هو الذي لما سمعته الجن قالت إنا سمعنا قرآنا عجبا هو الذي لا تختلف به الألسن ولا تخلقه كثرة الرد ». [العلامة الطبراني - المعجم الكبير ج٢٠ ص٨٤ رقم:١٦٠]

(٢) هو أبو هريرة بن عامر بن عبد ذي الشري بن طريف بن عتاب بن أبي صعب بن منبه بن سعد بن ثعلبة بن سليم بن فهم بن غنم بن دوس بن عدنان بن عبدالله بن زهران بن كعب الدوسي. وعن أبي هريرة قال: كان اسمي في الجاهلية عبد شمس بن صخر فسماني رسول الله صلى الله عليه وسلم عبدالرحمن وكنيت أبا هريرة لأني وجدت هرة فحملتها في كمي فقيل لي أبو هريرة. وقد أجمع أهل الحديث على أنه أكثر الصحابة حديثا. قال البخاري روى عنه نحو الثمانمائة من أهل العلم وكان أحفظ من روى الحديث في عصره.. وقد عاش أبو هريرة ثمانيا وسبعين سنة، وكانت وفاته بقصره بالعقيق سنة ٥٧هـ فحمل إلى المدينة. [راجع الإصابة لابن حجر القسم الأول [من ذكر له صحبة، وبيان ذلك].. رقم: ١٠٦٧٤ - ص٤٢٦/٤٤٤ .

(٣) الحاكم - المستدرك على الصحيحين ج١ ص١٧٢ - الحديث: ٣١٩ . وأخرجه العلامة جلال الدين السيوطى - الجامع الصغير- باب: حرف التاء - الحديث رقم:٣٢٨٢ ، وراجع الشيخ محمد حسين عبدالوارث - من أنوار السنة ص٥٧ ط أولى ١٩٥٤م - الدار القومية .

(٤) الإمام الحافظ أبو عبدالله الحاكم النيسابورى (٣٢١/٤٠٥)هـ - المستدرك على الصحيحين - طبعة دار الكتب العلمية ببيروت ١٤١١/١٩٩٠م الأولى - تحقيق مصطفى عبدالقادر عطا. جـ١ ص١٧١ - الحديث رقم: ٣١٨، وراجع سنن البيهقي الكبرى ج: ١٠ ص: ١١٤ - الحديث رقم: ٢٠١٢٣]

وقد ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ قال: « تركت فيكم ما لـــن تضلـــوا بعـــده إن اعتصمتم به. كتاب الله. وأنتم تسألون عني. فما أنتم قائلون ؟" قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت »[١].

وعن المقداد[٢] عن رسول الله ﷺ قال: « ألا اني أوتيت الكتاب ومثله معه ألا إني أوتيـــت القرآن ومثله معه الا يوشك رجل ينثني شبعانا على أريكته يقول عليكم بالقرآن فما وجدتم فيـــه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه الا لا يحل لكم لحم الحمار الأهلي ولا كـــل ذي ناب من السباع ألا ولا لقطة من مال معاهد الا ان يستغني عنها صاحبها ومن نزل بقوم فعليـــهم ان يقروهم فان لم يقروهم فلهم ان يعقبوهم بمثل قراهم »[٣].

---

(١) الإمام مسلم - صحيح الإمام مسلم. - باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم - الحديث رقم: ١٤٧ - (١٢١٨) من رواية حاتم بن إسماعيل المدني عن جعفر بن محمد، عن أبيه. وأخرجه الإمام الحافظ أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويـــني [٢٠٧هـ/٢٧٥هـ] (ابن ماجه) في سنن ابن ماجه (طبعة دار إحياء التراث العربي، تحقيق محمد فؤاد عبـــد البـــاقي ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م) - باب حجة رسول الله صلى الله عليه وسلم. - الحديث رقم: ٣٠٧٤

(٢) المقداد بن معد يكرب بن عمرو بن يزيد بن معدي كرب أبو كريمة وقيل أبو يحيى الكندي نزل حمص روى عن النـــبي وعن خالد بن الوليد ومعاذ بن جبل وأبي أيوب الأنصاري وجماعة وعنه ابنه يحيى وابن أبنه صالح بن يحيى وخـــالد بـــن معدان وحبيب بن عبيد ويحيى بن جابر الطائي والشعبي وشريح بن عبيد وعبد الرحمن بن أبي عوف وعبد الرحمـــن بـــن ميسرة الحضرمي وراشد بن سعد المقرائي وأبو عامر الهوزني ومحمد بن زياد الألهاني وأخرون ذكره بن سعد في الطبقـــة الرابعة من أهل الشام وقال مات سنة سبع وثمانين وهو بن إحدى وتسعين سنة. [راجـــع: تهذيـــب التـــهذيب ج١٠ ص٢٥٥ - رقم:٥٠٧، ومشاهير علماء الأمصار ج١ ص٥٣ - رقم:٣٦٥، والثقات ج٣ ص٣٩٥ - رقـــم:١٣٠٠، والإصابة ج٦ ص٢٠٤- رقم:٨١٩٠]

(٣) الإمام أبو داود - سنن أبي داود - باب في لزوم السنة - الحديث رقم:٤٦٠٤، وأخرجه الإمام أحمد بن حنبل - مسند أحمد ج٤ ص١٣٠ - الحديث:١٧٢١٣، وأخرجه البيهقي - سنن البيـــهقي الكـــبرى ج٩ ص٣٣٢ - الحديـــث:- ١٩٢٥٣ ، والدار قطني - سنن الدارقطني ج٤ ص٢٨٧ - الحديث:٥٩.وعن جابر بن عبد الله قال: « "رأيت رســـول الله صلى الله عليه وسلم في حجته يوم عرفة وهو على ناقته القصواء يخطب فسمعته يقول: يا أيها الناس اني تركت فيكم من إن أخذتم به لن تضلوا كتاب الله وعترتي أهل بيتي" » [سنن الترمذي (وشرح العلل)، - مناقب أهل بيـــت النـــبي صلى الله عليه وسلم. في الحديث رقم: ٣٨٧٤]، وروى الترمذي أيضا من نفس الباب في الحديث رقم: ٣٨٧٦- عـــن زيد بن ارقم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:« "اني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعـــدي؛ أحدهمـــا أعظم من الآخر؛ كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي ولن يتفرقا حتى يـــردا علـــى الحـــوض فانظروا كيف تخلفوني فيهما » وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

وقوله ﷺ : « إني أوتيت الكتاب وما يعدله يوشك شعبان على أريكته أن يقــول بيني وبينكم هذا الكتاب فما كان فيه من حلال أحللناه وما كان فيه من حرام حرمناه ألا وإنــه ليس كذلك »[١].

وقال تعالى: : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن اللـــه شديد العقاب﴾[٢]. وبين سبحانه وتعالى أن محبة الرسول الخاتم سيدنا محمد من محبة الله قال تعــالى: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم﴾[٣].

۞ **يقول العلامة ابن كثير**[٤]: « هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية فإنه كاذب في نفس الأمر حتى يتبع الشرع المحمدي، والدين النبــوي في جميــع

---

(١) العلامة ابن حبان - صحيح ابن حبان ج١ ص١٨٨ - ذكر الخبر المصرح بأن سنن المصطفى صلى الله عليه وسـلم كلها عن الله لا من تلقاء نفسه الحديث:١٢ وقال صاحب عون المعبود : « أوتيت الكتاب أي القرآن وما يعدلــه أي الوحي الباطن غير المتلو أو تأويل الوحي الظاهر وبيانه بتعميم وتخصيص وزيادة ونقص أو أحكاما ومواعظ وأمثالا تمـاثل القرآن في وجوب العمل أو في المقدار، قال البيهقي هذا الحديث يحتمل وجهين أحدهما أنه أوتي من الوحي الباطن غـير المتلو مثل ما أوتي من الظاهر المتلو والثاني أن معناه أنه أوتي الكتاب وحيا يتلى وأوتي مثله من البيان أي أذن له أن يبـين ما في الكتاب فيعم ويخص وأن يزيد عليه فيشرع ما ليس في الكتاب له ذكر فيكون ذلك في وجوب الحكم ولزوم العمل به كالظاهر المتلو من القرآن ألا يوشك قال الخطابي يحذر بذلك مخالفة السنن التي سنها رسول الله صلى الله عليه وسـلم مما ليس له ذكر في القرآن على ما ذهب إليه الخوارج والروافض من الفرق الضالة فإنهم تعلقوا بظاهر القــرآن وتركـوا السنن التي ضمنت بيان الكتاب فتحيروا وضلوا انتهى رجل شبعان هو كناية عن البلادة وسوء الفهم الناشيء عن الشبع أو عن الحماقة اللازمة للتنعم والغرور بالمال والجاه على أريكته أي سريره المزين بالحلل والأثواب وأراد بهــذه الصفـة أصحاب الترفه والدعة الذين لزموا البيوت و لم يطلبوا العلم من مظانه فأحلوه أي اعتقدوه حلالا فحرموه أي اعتقــدوه حراما واجتنبوه ألا لا يحل لكم بيان للقسم الذي ثبت بالسنة وليس له ذكــر في القــرآن » [عــون المعبــود ج١٢ ص٢٣١/٢٣٢] .

(٢) سورة الحشر - الآية ٧ .

(٣) سورة آل عمران - الآية ٣١ .

(٤) ابن كثير : هو الإمام الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي المولود في ٧٠٥هـ والمتــوفى في ٧٧٤هـ ، وهو غير الإمام عبدالله بن كثير بن عبدالمطلب القرشي المكي ٤٥هـ/١٢٠هـ ، إمام القراءات في مكــة، أخذ عن أبي أيوب الأنصاري، وأنس بن مالك ، وأخذ القراءة عرضا عن عبدالله السائب، وكـــان فصيحــا مفوهــا وصاحب وقار وسكينة ، روى عنه أحمد البزي ، والإمام قنبل . [راجع العلامة ابن الجزري - النشــر في القــراءات العشر ج١ ص١١٣] ومن أشهر مؤلفات ابن كثير المحدث تفسير القرآن العظيم، والبداية والنهاية . توفي سنة ٧٧٤هـ . [الطبقات للداودي ج١/١١١]

أقواله وأفعاله كما ثبت في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: [من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد][(١)].

ولهذا قال إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله حيث يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه، وهو محبته إياكم وهو أعظم من الأول، كما قال بعض العلماء الحكماء ليس الشأن أن تحب إنما الشأن أن تحب، وقال الحسن البصري[(٢)] وغيره من السلف زعم قوم أنهم يحبون الله فابتلاهم الله بهذه الآية فقال قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله، وعن عائشة رضي الله عنها قالت [قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهل الدين إلا الحب في الله، والبغض في الله، قال الله تعالى قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني][(٣)]. وقوله تعالى ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم أي باتباعكم الرسول صلى الله عليه وسلم يحصل لكم هذا من بركة سفارته »[(٤)].

وقد اجتهد علماء أهل الإسلام فى تفهم النصوص النقلية – القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة الصحيحة – وكانت لهم اجتهادات كثيرة، وقد نشأت من تلك الاجتهادات علوم بعضها يتعلق بالعقيدة الإسلامية ، كعلم التوحيد، وبعضها متعلق بالجوانب التشريعية كالفقه وأصوله،

---

(١) الإمام مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري (المولود فى ٢٠٦هـ والمتوفى فى ٢٦١هـ) – صحيح مسلم – ج: ٣ ص: ١٣٤٣ – باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور – الحديث: ١٧١٨ – دار إحياء التراث العربي – بيروت – عدد الأجزاء ٥ – تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ورواه البخارى – ج٢ ص٦٥٣، ج٦ ص٢٦٧٥، وراجع مسند أبو عوانة ١ ج٤ ص١٧١، وسنن الدار قطنى ج٤ ص٢٢٧، ومسند الامام أحمد ج٦ ص١٤٩، ج٦ ص١٨٠، ج٦ ص٢٥٦، والترغيب والترهيب ج١ ص٤٤، تحفة الأحوذى ج٥ ص٢٣٥ .

(٢) هو « الحسن بن أبي الحسن البصري الإمام أبو سعيد مولى زيد بن ثابت، وقيل غير ذلك وأبوه يسار من سبي ميسان أعتقته الربيع بنت النضر ولد الحسن زمن عمر وسمع عثمان وشهد الدار بن أربع عشرة سنة وروى عن عمران بن حصين وأبي موسى وابن عباس وجندب، وروى عنه بن عون ويونس، وكان كبير الشأن رفيع الذكر رأسا في العلم والعمل مات في رجب سنة عشرة ومائة وقد قارب التسعين » [راجع العلامة محمد بن أحمد أبو عبدالله الذهبي الدمشقي المولود ٦٧٣هـ، المتوفى ٧٤٨هـ – الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة – ج١ ص٣٢٢ رقم:١٠٢٢- دار القبلة للثقافة الإسلامية , مؤسسة علو – جدة – ١٤١٣هـ/١٩٩٢م – الطبعة الأولى – تحقيق محمد عوامة، تقريب التهذيب ج١ ص١٦٠ رقم:١٢٢٧، جامع التحصيل ج١ ص١٦٢ رقم:١٣٥، سير أعلام النبلاء ج٤ ص٥٦٣ رقم:٢٢٣، الطبقات للداووى جـ١ ص١٥٠].

(٣) العلامة البيهقى – سنن البيهقي الكبرى ج١٠ ص٢٣٣ – رقم: ٢٠٨٥٨ بلفظ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا عبد الله أي عرى الإسلام أوثق قال قلت الله ورسول الله أعلم قال الولاية في الله الحب في الله والبغض في الله » ، وقال الشافعي رحمه الله ولو خص امرؤ قومه بالمحبة ما لم يحمل على غيرهم ما ليس يحل له فهذه صلة ليست بعصبية فقل امرؤ إلا وفيه محبوب ومكروه، والحديث أخرجه أبو بكر بن أبي شيبة – مصنف ابن أبي شيبة ج٦ ص١٧٠ – رقم:٣٠٤٢٠ ، ج٧ ص٨٠ قم:٣٤٣٣٨.

(٤) العلامة إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي أبو الفداء المتوفى ٧٧٤هـ – تفسير القرآن العظيم – ج:١ ص:٣٥٩ – دار الفكر – بيروت ١٤٠١هـ – عدد الأجزاء ٤ .

وبعضها يتعلق بالجوانب اللغوية أو البلاغة، أو الفقهية والعلمية فى القرآن الكريم، وهى علوم القرآن والتفسير والبلاغة، وغيرها من العلوم التى تحفظ نصوص السنة النبوية المطهرة الصحيحة، وتعرف برجالها وأحكام ذلك كله، وهو ما عرف باسم الدراية والرواية، أو السند والمتن، مما برع فيه مفكرو أهل الإسلام، وسميت هذه الاجتهادات باسم كل علم تميز بموضوعه ومسائله ومنهج الدراسة فيه.

كما اجتهد مفكرو الإسلام فى تفهم النصوص النقلية على ناحية أخرى تغلب عليها النزعة العقلية التأملية حينا(١)، والوجدانية حينا أخر(٢)، وبعضها يتعلق بالعالم الذى نعيش فيه كصفة غالبة(٣)، وبعضها يتعلق بالعالم الذى أبلغنا الشرع الشريف ومنه ما يتعلق بحقيقة اليوم الأخر ابتداء من البرزخ حتى يوم العرض على الملك العلام الغيبى(٤)، واستقرار أهل النعيم فى الجنة، واستقرار أهل العذاب فى النار، وبقاء أهل الأعراف كلٌ فى مكانه.

بيد أن أصحاب الاتجاه العقلى الخالص من أهل الإسلام قد غلب على بعضهم إطلاق اسم الحكماء عليهم تارة أو فلاسفة الإسلام تارة أخرى، وحيث قد انتهى الأمر بهم الى هذا الهدف، فإن التماس تعريف للحكمة عندهم يكون أمراً قائما على ناحية مقبولة، وقد عرفت مباحثهم باسم الحكمة أو الفلسفة الإسلامية، تميزا لها عن الأبحاث التى قام بها اليونان، أو التى قام بها الهنود ومفكرو الصين، أو أهل بابل والمصريون القدماء، فضلا عن مفكرى أشور، وتمييزاً لأبحاثهم عن كل من الفلسفة اليونانية والمسيحية، والفلسفات التى انطلقت من أصحاب العبث ودعاة اللامعقول، فيما بعد كالشيوعية والوضعية وغيرها من الفلسفات الإلحادية(٥).

وحيث تعدد حكماء المسلمين بتعدد النزعات، وأماكن الإقامة أو الهجرة، أو بالنظر إلى المشرق الإسلامى ومغربه، فقد تعددت التعريفات التى انطلقت منهم، معبرة عن تلك الموجات المتلاحقة من التفكير.

---

(١) نشأ عن هذه النزعة التأملية علم العقيدة أو علم الكلام وغيرها مما يتعلق بأدلة إثبات وجود الله تعالى، ومعرفة ما له تعالى من جلال وكمال، وما يتعلق بالنبوات والرسالات واليوم الآخر.

(٢) نشأ عن هذه النزعة كل من علم التصوف وعلم الأخلاق أو علم السلوك وما يجيء على ذلك الجانب.

(٣) كعلوم الإحياء والطبيعة والفلك وغيرها من العلوم التى تخدم ذلك الجانب.

(٤) يشترك فى الحديث عن ذلك الجانب الأخروى أغلب العلوم الإسلامية، وكل جاء على ناحية من النواحى التى عنى بها أو اهتم بدراستها أصحاب التخصص أنفسهم.

(٥) راجع كتابنا أوراق متناثرة فى التيارات المعاصرة ص٢١٨ أثناء الحديث عن المذهب الوجودى.

من ثم سألتقط بعض من تلك التعريفات على النحو التالي:

١ـ الكندي فيلسوف العرب[1]:

لاشك أن الكندى كان فيلسوف العرب الأول بلا منازع، أو أنه كان عقلية ناضجة متميزة، مكنته من دراسة ثقافة عصره وهضمها، ثم استخراج عصارتها، وكان عالما بالرياضة على وجه الخصوص، كما كان معتزلى النزعة الاستدلالية، جمع العديد من تعاريف الفلسفة بعضها راجع إلى الموضوعات التى تعالجها، وبعضها الأخر قائم على مناهجها، وبعض ثالث نما فى رحاب الغاية منها، والهدف الذى تسعى إليه، والبعض الأخير قد استقاه من الممارسة الفنية لهذا النوع من التفكير العقلى.

من هذه التعريفات:

- أنها علم الأشياء الأبدية الكلية إنياتها ومائيتها وعللها بقدر طاقة الإنسان[2]، وهو تعريف يركز على الجانب المعرفى دون الجانب الاعتقادى؛ لأن المفكر المسلم لا يأخذ عقيدته إلا من النقل المنزل، وبالتالى فهو يفارق – على سبيل التمايز – بين المنتج العقلى والتنزيل الإلهى، وأعنى به النقل الصحيح من قبل الله تعالى فى القرآن الكريم والحديث النبوى الصحيح.
- كما عرفها بأنها: التشبه بأفعال الله تعالى بقدر طاقة الإنسان[3]، وهو تعريف يركز على الجانب العملى، وبالذات ما يتعلق بالناحية الخلقية؛ لأن التشبه بالفعل الإلهى يراد به الالتزام فى الأفعال كلها بما أمر به الله تعالى على سبيل التمسك والممارسة به، والانتهاء عما نهى الله تعالى عنه على سبيل الانصراف بالكلية.
- كذلك عرفها بأنها مباشرة التفكير العقلى بأقصى طاقاته فى الملكوت كله؛ بغية الاستدلال[4] على خالقه، وإدراك العلائق القائمة بين أصول الأشياء[5].

---

(١) الكندى: « هو أبو يوسف يعقوب بن إسحاق بن الصباح بن عمران بن محمد شعث بن قيس الكندى من قبيلة كندة العربية الأصيلة ؛ التى يمتد أمرها فى الجاهلية والإسلام ،إذ أن نسبه يمتد فى الماضى ، حتى يصل إلى يعرب بن قحطان من العرب القدامى ، وكان أجداده ملوكا لذات القبيلة ، عرف بأنه فيلسوف العرب ، وأول فلاسفة الإسلام، وكان متبحرا فى فنون الحكمة ، وسائر العلوم ، وكثير من الصناعات والمعارف ؛ ولد فى ١٨٥هـ ، وتوفى ٢٥٧هـ ». [راجع الفهرست لابن النديم ص٢٥٥ ، وحكماء المشرق للدكتور سامى نصر ص٢٥ ، والكندى فيلسوف العرب للدكتور مصطفى عبدالرازق]

(٢) الدكتور صبحى محمد راشد – الكندى فيلسوف العرب ص٥٣ ط دار المروة ١٩٧٧م.

(٣) الدكتور عبدالحليم محمود – التفكير الفلسفى فى الإسلام ص٢٢٣ .

(٤) الاستدلال تقرير الدليل لإثبات المدلول فإن كان من الأثر على المؤثر سمي استدلالا إنيا أو عكسه سمي لميا والاستدلال [illegible] [التعاريف ج١ ص٥٦]

(٥) الدكتور حسين مرسى محمود ثروت – دراسات فى الفلسفة الإسلامية ص١٣٢ ط أولى ١٩٦٥م.

وهو تعريف – إن صحت نسبته إلى الكندى – يجمع بين الفلسفة والتفلسف، كما ينصب أخره على موضوع الحكمة الإسلامية؛ لأنها التى تعنى بالاستدلال على وجود الخالق العظيم جل علاه وعلاقته بالعالم والإنسان، ومن ثم يكون تعريفا يصلح إطلاقه على الفلسفة الإسلامية وحدها.

وفى تقديرى: أن الكندى قدم تعريفات عديدة بعضها على سبيل الحكاية عند أصحاب تلك النزعات، باعتباره كان متقنا للفلسفة اليونانية والهندية، كما كان متمكنا من الفلسفة الفارسية، وذلك كله جعله يذكر بعض التعاريف على أنها من مكررات أصحابها، ثم فى النهاية ذكر التعريف الذى ارتضاه، ممثلا للحكمة الإسلامية، طبقا لما يساير منهجه العلمى واتجاهه العقدى، وهى سمة يتميز بها مفكرو الإسلام رحم الله الجميع.

٢ـ الفارابى[1] المعلم الثانى (٢٥٩/٣٣٩هـ):ـ

عاش قرابة الثمانين عاما قضاها ما بين قرية وسيج التى ولد بها من أعمال فاراب ودمشق التى وافته المنية بها، زهد حياة الترف، وليالى القصور، وآثر العزلة الاجتماعية بعد أن رأى من أحوال الناس مالا يستقيم مع القيم الشرعية، ومن فهو قد ولد بوسيج، ثم ارتحل من فاراب إلى بغداد فدرس المنطق، ثم ارتحل إلى حران، فالتقى بعلمائها، ثم إلى دمشق ومصر وحلب ، واستقر به المقام أغلب الوقت فى مجلس سيف الدولة الحمدانى، وأخيرا عزف عن ذلك كله فلم يعد يرى إلا عند مجتمع ماء أو مشتبك رياض، وظل على ذلك حتى لقى الله تعالى[2].

- عرف الفلسفة بأنها: العلم بحقائق الموجودات، ومعرفة أصولها التى قامت عليها[3]، وهو تعريف قريب الشبه فى صوره بما نقل عن فلاسفة اليونان، وبالتالى فيمكن اعتباره من التعاريف التى قصد بها الحكاية، أو عرض الأفكار التى يتمسك بها أصحابها، أو من باب الثقافة العامة الت هى قاسم مشترك، لا من باب الاعتقاد الذى يمثل حقيقة دينية.

---

(١) الفارابى : » هو أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان بن أوزلغ ، ونسب لفاراب إحدى الولايات الفارسية القريبة من الحدود التركية ، كان أبوه فارسيا ، وأمه تركية ، وقد ولد غالبا فى ٢٥٩هـ ، شغل أبوه منصبا قياديا فى الجيش التركى ، وحبب إليه السفر والترحال ، وكان ابنه على شاكلته ؛ غير أنه تميز بقدرات عقلية أوسع ، مكنته من التعرف على ثقافة عصره فى شتى جوانبها ، وأمكنه أن يشارك فيها بكل قوة ، ويترك أثارا متعددة فى كافة النواحى المعرفية ، وبخاصة العقلية ، بجانب الروحية ، وعرف بالمعلم الثانى ، توفى عام ٣٣٩هـ ؛ بعد أن ترك رصيدا ضخما من العلوم والمعارف « . [راجع فى ذلك وفيات الأعيان لابن خلكان جـ١ ، والتفكير الفلسفى فى الإسلام للدكتور عبدالحليم محمود ، والفلسفة الإسلامية للدكتور إبراهيم مدكور ، والجانب الإلهى للدكتور محمد البهى].

(٢) راجع فى ترجمته طبقات الأمم للقاضى صاعد، والفهرست لابن النديم ، وأخبار العلماء للقفطى، ووفيات الأعيان لابن خلكان.

(٣) الدكتور حسين مرسى محمد ثروت – دراسات فى الفلسفة الإسلامية ص١٥٧ .

- كما عرفها بأنها: العلم بالموجودات بما هى موجودة[١]، أو هى العلم بالموجودات، من حيث هى موجودة[٢]، ويبدو أن هذين التعريفين قد ترددا منسوبين إلى أرسطو، مما أوحى للبعض باتهام مفكرى الإسلام بأنهم مجرد نقلة، أو مترجمين للفكر اليونانى باللغة العربية، وهو اتهام باطل، وزعم خاطئ، حتى لو كانت هناك بعض المشابهات بين ذينك التعريفين، وما نسب لأرسطو؛ لأن الدعوى التى لا تقوم على دليل صحيح تعتبر إتهاما باطلا.

٢ـ الشيخ الرئيس ابن سينا[٣] (٣٧٠/٤٢٨هـ — ٩٨٠/١٠٣٧م):ـ

نشأ فى عصر يموج بالفتن السياسية، وتضطرب فيه الاتجاهات العلمية، وتتنازع فيه الآراء الفقهية، بجانب خلافات الأمراء الذين حاول كل منهم التقرب إلى العلماء ومجالسهم، بل ويستعملهم كمستشارين له فى أمورهم، ويعتزون بهم لإشباع تلك الرغبة فى نفوسهم، فكان لذلك أثره السلبى على الحياة العلمية والاجتماعية والسياسية.

تناول ابن سينا الفلسفة على أنها الحكمة، ثم عرفها بأنها: استكمال النفس الإنسانية بتصور الأمور والتصديق بالحقائق النظرية والعملية على قدر الطاقة الإنسانية[٤]، وهذا التناول الذى قام به الشيخ الرئيس ينصرف إلى الحكمة فى المفهوم الإسلامى؛ لأنه نظر إليها بمنظور خاص، إنه منظار المسلم، الذى تقف معه عقيدته الدينية، حتى توجهه إلى الحقيقة التى يبحث عنها[٥]، والغاية التى ينشدها، أو يسعى إليها، وهو أمر محمود للمفكر المسلم، ويدفع عن الشيخ الرئيس الاتهام التبعية للفكر اليونانى، أو الاتهام فى عقيدته الدينية.

---

(١) الدكتور توفيق الطويل — أسس الفلسفة ص٤٩ .

(٢) الدكتور صبحى محمد ضبيع — الفلسفة الإسلامية فى المشرق ص١٥٥ ط١/١٩٦٥م.

(٣) هو الشيخ الرئيس أبو على الحسين بن عبدالله بن الحسن بن على بن سينا ولد فى قرية أفشنه قريبا من بخارى سنة ٣٧٠هـ طبقا لما انتهت إليه رواية ابن خلكان، بينما يذهب ابن أبى أصيبعة إلى أنها عام ٣٧٥هـ وتوفى عام ٤٢٨هـ، وكان أبوه من أهل بلخ، ثم انتقل إلى بخارى، ثم سكن بقرية خرمثين، منحه الله القدرة على اكتساب المعارف والعلوم، بل كان قوى القوى كلها، كما يقول هو عن نفسه، بز أقرانه وتفوق على الأكبر منه، فكانت له تصانيف كثيرة فى سائر الفنون العلمية والأدبية والموسيقية، وكان فقيها متمكنا، كما كان صوفيا راقيا، وطبيبا متميزا، وموسيقيا واعيا، مات بهمذان، ودفن بمسجدها، وقبره تحت السور من جانب القبلة، ويذهب البعض إلى أن رفاته نقل إلى أصفهان، ودفن بها فى موضع على باب كونكنبن، والله تعالى أعلى وأعلم . [راجع لابن أبى أصيبعة عيون الأنباء فى طبقات الأطباء جـ٢ ص٣٤٢، وكذلك مقدمة الإشارات والتنبيهات — القسم الأول ص٢٥٤- تحقيق المرحوم الدكتور سليمان دينا] ولطالب المزيد الرجوع لترجمته فى وفيات الأعيان جـ٢ ص١٦٠، والفهرست لابن النديم، وأخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطى، وطبقات الأمم للقاضى صاعد الأندلسى.

(٤) الشيخ الرئيسى ابن سينا — تسع رسائل فى الحكمة والطبيعيات ص٢ ط٢ دار العرب للبستانى — بيروت .

(٥) الدكتور فوزى محمد زكى — محاضرات فى الفلسفة الإسلامية ص٥٣ ط الدار القومية ١٩٤٦م.

ويذهب الدكتور الطويل إلى أن ابن سينا، اعتبر تعريف الفلسفة نوعا من التماس العلم بطبيعة الموجودات، بما هي كذلك عن طريق النظر العقلى[1]، وبالتالى فقد انقسمت الفلسفة عند ابن سينا بناء على ذلك إلى قسمين:-

❁ **القسم الأول : الحكمة النظرية :-**

↫ **وهى أنواع ثلاثة :-**

☆**النوع الأول: العلم الطبيعى**، وهو الذى يبحث فى الأمور التى يتعلق وجودها وحدودها بالمادة الجسمانية والحركة كالأجرام السماوية والعناصر الأربعة، وما يتكون منها[2]، ويعتبر ابن سينا هذا النوع من الحكمة النظرية العلم الأسفل؛ لأنه يقوم عليه العلم الأوسط، أو أنه الذى يمهد للعلم الأعلى.

☆**النوع الثانى : العلم الرياضى:-** وهو العلم الذى يبحث فى الأمور التى يتعلق وجودها – لا حدودها – بالمادة والحركة، مثل العدد وخواصه، ومثل التربيع والتدوير والكروية، وهو العلم الأوسط من علوم الفلسفة النظرية، ولا يقوم ذلك العلم منفردا، وإنما لابد أن يسبقه العلم الطبيعى.

☆**النوع الثالث: العلم الإلهى :-** وهو العلم الذى يبحث فى الأمور التى لا تفتقر إلى المادة والحركة، لا فى وجودها ولا فى حدودها، وهذه الأمور إما من الذوات، مثل ذات الأحد الحق رب العالمين، وإما من الصفات مثل الوحدة والكثرة والعلة[3] ... الخ.

❁ **القسم الثانى: الحكمة العملية:-**

↫ **أنواع ثلاثة :-**

☆**النوع الأول الحكمة المدنية**: وهى التى تقود الإنسان إلى التماس طرق التعاون بين الناس فى مصالح أبدانهم ومعاشهم، واستمرار حياتهم.

☆**النوع الثانى : الحكمة المنزلية**: وهى التى تنظم المصالح المشتركة بين الأسرة الواحدة فى المنزل الواحد، والأولاد والآباء.

☆**النوع الثالث : الحكمة الخلقية** : وهى التى تقود إلى تعليم الفضائل، واجتناب الرذائل، فيقف للأخرى متعلما منفذا، بينما يقف من الثانية – الرذائل – موقف المناهض لها، الرافض لأحكامها، حتى إنه يعمل على تجنبها فتزكو نفسه[4].

---

(١) الدكتور توفيق الطويل – أسس الفلسفة ص٤٩ .

(٢) الشيخ الرئيس ابن سينا – تسع رسائل فى الحكمة والطبيعيات ص٢،٣ .

(٣) الدكتور صلاح إبراهيم – دراسات فى الفلسفة ص٢٨ .

(٤) راجع الإلهيات عند ابن سينا ص٤٢ ، وكتابنا المدخل لدراسة الحكمة الإسلامية.

إذن يمكن القول بأن تعريف الفلاسفة الأوائل من أهل الإسـلام في المشـرق الإسـلامي كالكندي والفارابي وابن سينا قد انصب على جانب واحد هو الفلسفة أو الحكمة الإسـلامية، ثم انسحب في بعض الأحيان إلى الفلسفة بمعناها العام، بيد أنه لما كان ارتباط هـذه الدراسـة معنيـة بالتقاط بعض التعاريف، فمن الأوفق التماس نوع من التعاريف في العصر الحديث والمعاصر معا.

لكن تبقى نقطة هامة، وهي ألا يمكن القول بأن الفكر الفلسفي الإسلامي قـد نقـل أو ترجـم مـن الـتراث اليوناني أو غيره؟

والجواب أن هذه المزاعم غير صحيحة، ويفصح عن ذلك الأسباب الآتية:-

السبب الأول: أن التعاريف التي حكاها الفارابي تركز على مفاهيم تخالف في طبيعتها المفاهيم الـتي جرت في رءوس مفكري اليونان، لما سبق القول به، من أن المفكر المسلم حين اسـتفاد بـالفكر الآخر فإنما اقتصر في تلك الاستفادة على مجرد استخدام الألفاظ، والتي تمثل مصطلحـات عنـد أصحابها، حيث عمد إليها، ثم أفرغها من مضامينها، عند أصحابها من اليونان أو غيرهم، ثم عبأها بالمضامين الإسلامية التي هي تراثه الأصيل[1].

الثاني: أن أرسطو ومن معه من فلاسفة اليونان، أو من فلاسفة الصين والهند أو بابل وآشـور، أو غيرهم ممن يطلق عليهم مصطلح فلاسفة — إن صح التعبير — فقد شغلوا أنفسهم بنوع من العلم، ونمط من أنماط المعرفة، ألا وهو العلم أو المعرفة، التي لا علاقة لها بهداية الدين، أو تعاليمه. أمـا لماذا؟

فلأن أيا منهم لم يكن مسلما، كما أن أيامهم لم يكن قد استفاد شيئا من نور الوحي الإلهي، وبالتالي فكل معارفهم بعيدة تماما عن هذا الهدى الإلهي، فمن أين لهم أن يتحدثوا عن معارف إلهية لا علم لهم بها.

أما الفارابي؛ فالحال مختلف معه إنه مفكر مسلم، شأنه شأن مفكري المسلمين، الذين كـان الهدى السماوي هو مرشدهم وهاديهم، وآية ذلك أن الفارابي قرر أن العلم المعتبر عنده هو العلـم الذي يثبت الموجودات ببراهين يقينية[2]، طبقا لما تمثله الفارابي نفسه في فكره؛ وتشبعت به أعماقـه من النصوص الشرعية الإسلامية، ولم يعرف ذلك النوع من العلم، لا من سبق أرسطو، ولا من لحقه

كما أن المعرفة اليقينية لابد لها من:-

أ- صحة المصدر الذي تقوم عليه وصدقه .

ب- سلامة قضاياها وعدم تناقضها.

---

(١) راجع ما سبقت كتابته بهذا الخصوص في ذات الكتاب، وراجع أيضا مقالات في أصالة المفكر المسلم للدكتورة فوقيـة حسين محمود.

(٢) الإمام الأكبر الشيخ مصطفى عبدالرازق — تمهيد لتاريخ الفلسفة ص٥١ .

ح- اضطرادها وعدم تسلل أوجه الضعف إليها.

د- موافقة هذه المعرفة للفطر النقية، والعقول السليمة والطباع الصحيحة والنوايـــا المســـتقيمة[١]، والنقل المنزل هو الذى يتميز بذلك كله، والمفكر المسلم يلتزم به ولا يتزحزح عنه.

إذن اختلاف فكر أرسطو عن فكر الفارابى، إنما هو اختلاف حقيقى يبلغ حد التباين، ويزيـد عليه[٢]، بدليل أن من يحاول تطبيق هذه القواعد على مفهوم العلم لدى الفارابى وعند أرســـطو، أو يعقد نوعا من المقارنة بينهما فى المسألة؛ فسوف يرى أنهما لا يشتركان إلا فى مجرد استعمال لفـــظ العلم[٣]، وهذا الاشتراك لا يفيد أبدا أن أهل الإسلام قد استفادوا موضوعاتهم العلميـــة مـــن غـــير الإسلام، لما هو معروف من أن الاشتراك فى التسمية لا يفيد الاشتراك فى المسمى.

كما أن مجرد الاشتراك فى لفظ الاسم لا يعطى معنى التطابق التام فى المفـــاهيم، باعتبـــار أن المفاهيم متخالفة فى طبيعتها وموضوعاتها، وإن كانت متوافقة فى الألفاظ المستعملة لها المنطوق بها[٤]، وبالتـــالى فـــلا يتصـــور أن يكـــون الكنـــدى والفـــارابى وابـــن سـينا وابـــن باجـــة[٥]،

---

(١) يراجع كتابا: رياض الأشواق فى الميتافيزيقيا والأخلاق ص١١٠ .

(٢) الدكتور محسن صالح فاروق – قضية المفاهيم والمصطلحات ص١١ .

(٣) الدكتور صبرى محمد أبو هاشم – العلم عند العرب ص٤٥ ط أولى ١٩٧٣م بالمغرب.

(٤) الدكتور محسن صالح فاروق – قضية المفاهيم والمصطلحات ص١٣ ط١ دار الإنتاج بالعراق ١٩٥١م.

(٥) هو أبو بكر محمد بن يحيى المعروف بابن باجه ، وابن الصائغ التجيبى الأندلسى السرقسطى. ولـد فى نهايـات القـرن الخامس الهجرى أو أواخر القرن الحادى عشر الميلادى بمدينة سرقسطة. توفى عام ٥٣٣هـ/١١٣٨م. [راجع الأستاذة / زينب محمد عفيفى شاكر – ابن باجه وآراؤه الفلسفية – رسالة ماجستير – مخطوطة بجامعة عين شمـس ١٩٧٦م]، ومن مؤلفاته(١) تدبير المتوحد : الذى يعتبره المؤرخون أهم مؤلفاته الكاملة على الإطلاق. (٢)الغاية الإنسانية : وهـو قريب جدا من المؤلفات الفنية فى عالم الأخلاق ، مضافا إليه تصورات الرحل حول الغاية من الفعل الإنسانى ، والغايـة الحقيقية من وجود الإنسان نفسه والغاية من علم الإنسان وإمكانية الاستفادة منه والقرب إلى الله تعالى(الدكتورة / وفـاء عبدالمعز الأحمر – موقف ابن باجه الأندلسى من الغاية الإنسانية ص٧٣ ط أولى الدار البيضاء سـنة ١٩٧٩م .). (٣) الوقوف على العقل الفعال ، وهو كتاب مستقل ترجم إلى اللغة العبرية وغيرها من اللغات اللاتينية ، وفيـه أحـاديث مستفيضة واتجاه فلسفى إسلامى خالص متعلق بمفاهيم تخالف ما كان عليه اليونان كثير المخالفـة. (الأسـتاذ / رؤف عبدالكريم – مؤلفات ابن باجه بين التبعية والاستقلال ص١٢١ .) ، (٤) رسالة الوداع : (٥) قول يتلو رسالة الوداع ، (٦) اتصال العقل بالإنسان ، (٧) رسالة فى النفس . (٨) كلام فى البرهان ، (٩) مجموعة فى الفلسفة العقلية والطـب أيضا ، ومحتواها مما أشار اليه بعض الدارسين من أنها كانت تمثل اتجاهات ابن باجه فى مراحلها العلمية المتقدمة التى كـان يحرص عليها ، والأرجح أنها النتائج العقلية والتجريبية التى توصل اليها فى العلوم والمعارف التى تعرض اليها ، ولذا فمـن المناسب اعتبارها نتائج له ، فى الميتافيزيقا التأملية والممارسات العملية الطبية(الدكتور الحاج زابـير بـن السـماوى . إبداعيات فلاسفة المغرب الطبية ص١٨٥ – ط الدار البيضاء .) . (١٠) فصول فى السياسة المدنية ، (١١) رسـائل فى المنطق ، ويذكر أنها توجد فى مكتبة الأسكوريال مخطوطة ، وأنه كتبها بخـط يـده ، وانـه أتمـها يـوم ٤ شـوال ٥١٢هـ(الدكتور سليمان سليمان خميس – بداية الفلسفة الإسلامية فى المغرب ونهايتها فى المشرق ص٣٤ .)

وابن طفيل[١] وابن رشد[٢]، وغيرهم من مفكرى أهل الإسلام، بمجرد نقلة أو مترجمين للتراث اليونانى، وإنما كان لديهم من الحيدة وعناصر الابتكار، ما جعلهم حكماء على لغة أهل الإسلام، فلاسفة على سبيل الاستقلال، بل ميزهم عن غيرهم ممن يشتركون معهم فى الحقل الفكرى، أو فى بعض الموضوعات المتداولة بين المفكرين معرفيا.

☆**الثالث:** إن إمكانية التعرف على الموجودات بما هى عليه موجودة، يمثل نقطة معرفية متميزة، قد تتجاوز مفاهيمها ما يتعلق بالغيبيات، وهنا مكمن الخطر، بالنسبة للفكر الغير إسلامى، أ ما عند المفكر المسلم، فإن هذه المعرفة تقف عند حدود الغيبيات لا تتجاوزها[٣]، حتى وإن تصور العقل قدرته على التحليق فى سمائها، أو السباحة بين جداولها الخرخارة[٤]، وأنهارها الجميلة.

أضف إلى ما سبق أن بحث الموجودات بما هى عليه لدى الفكر اليونانى، إنما يكون منصبا على القدرات العقلية، وبالتالى سوف يركز أهل اليونان على معرفة ما يطاق بالعقل وحده؛ لأنه

---

(١) ابن طفيل : » هو أبو بكر محمد بن عبدالملك بن محمد بن طفيل القيسى ، ولد فى غرناطة فى أوائل القرن السادس ، وتمكن من العلوم العقلية والإسلامية ، وكانت له اتجاهات عديدة قام بها خدمة لدين الإسلام ، وللعلم والمباحث العقلية ، وكانت له علاقة بابن باجه ، وهو من أهم العلامات الفكرية المتميزة فى الفكر الإسلامى بالأندلس والمغرب « - [راجع المعجب فى تلخيص أخبار المغرب للمراكشى ، وروضات الجنات للخوانسارى ، ونفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للعلامة أحمد بن محمد المقرى] .

(٢) ابن رشد : أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد القرطبى . ولد سنة ٥٢٠هـ/١١٢٦م . فيلسوف من أهل قرطبة، صنف نحو خمسين كتابا منها : (التحصيل، فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، تهافت التهافت، بداية المجتهد ونهاية المقتصد، مناهج الأدلة) . كان دمث الأخلاق حسن الرأى، ويلقب بابن رشد الحفيد تمييزا له عن جده أبي الوليد محمد بن أحمد المتوفى سنة ٥٢٠هـ . توفى ابن رشد الحفيد سنة ٥٩٥هـ/١١٩٨م . [راجع الأعلام للزركلى ٣١٨/٥ ، وراجع كتابنا: أوراق منسية فى النصوص الفلسفية ص٨٧/٧١]

(٣) لأن الغيب عندنا نحن المسلمين يجب الإيمان به على ما جاء به النقل المنزل من غير محاولة اختراق لشيء من حواجزه، وفى الحديث الشريف عن أبى ثعلبة الخشنى أن النبى ﷺ قال: « إن الله حد حدودا فلا تعتدوها ، وفرض لكم فرائض فلا تضيعوها، وحرم أشياء فلا تنتهكوها ، وترك أشياء فى غير نسيان رحمة لكم فاقبلوها ولا تبحثوا عنها». [العلامة الحاكم - المستدرك على الصحيحين ج٤ ص١٢٩ – الحديث رقم:٧١١٤ ، وراجع للإمام الشوكانى - فتح القدير ج٢ ص١٢٠] . وروى العلامة المتقى الهندى فى كنز العمال - الباب الثانى: فى الاعتصام بالكتاب والسنة - الحديث رقم:١٦٥٦ - « عن أبي الدرداء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: إن الله افترض عليكم فرائض فلا تضيعوها، وحد حدودا فلا تقربوها (تتعدوها) وحرم محارم فلا تنهكوها، وسكت عن كثير من غير نسيان فلا تكلفوها، رحمة من الله فاقبلوها، ألا إن القدر خيره وشره، ضره ونفعه إلى الله، ليس إلى العبد تفويض ولا مشيئة » .

(٤) خرر : الخرير: صوت الماء والريح والعقاب إذا حفت؛ قال الليث: خرير العقاب حفيفه، وأما في الماء فلا يقال إلا خرخرة. و الخرارة: عين الماء الجارية، سميت خرارة لخرير مائها، وهو صوته. وعين خرارة، و خر الماء الأرض خرا. و الخرخرة: سرعة الخرير في القصب ونحوها. [ابن منظور - لسان العرب ج٤ ص٢٣٤ ، وراجع للعلامة الرازى - مختار الصحاح ج١ ص٧٢].

الحاكم فى المسألة والقاضى أيضا، أما بحثها عند مفكرى المسلمين، فإنما يكون متعلقا بمحاولة نفهم النصوص الناقلة لها، دون التعرض لحقائقها التى لا طاقة للعقل فيها، باعتبارها أمورا غيبيه جاءت فى نصوص الشرع على سبيل الإجمال[١]، والعقل يبحث دلائل التعرف على ذلك.

بيد أن العقل المسلم فى تناوله لتلك الموضوعات، إنما يحاول الموائمة بين نصوص الشرع والمنتجات العقلية، وهو ما يعرف باسم التوفيق بين النقل والعقل، أو بين الدين والفلسفة، أو بين نصوص الشرع وانطلاقات الفكر، ولا يوجد شيء من ذلك لدى مفكرى اليونان أو الهند، فضلا عن مفكرى بابل وأشور، إنما سمة المفكر المسلم، بل وإحدى خصائصه المميزة عن كل المفكرين الآخرين.

☆**الرابع:**- أن فلسفة كل عصر إنما تتعامل مع العلم الذى يسود طبيعة وروح ذلك العصر، فأى تغيير فى طبيعة العلم يتبعه رد فعل فى الفلسفة[٢] وبالبديهة يدرك أن العصر الذى ظهر فيه التفكير العقلى لدى اليونان، وتبدت فيه جلاليب الفلسفة اليونانية، ليسْ هو العصر الذى ظهرت ونمت فيه الحكمة الإسلامية، فضلا عن نمائها وازدهارها، سواء أكان فى الزمان أم فى المكان والموضوعات، بجانب الوسائل والغايات.

كما أن اتجاهات الفلسفة اليونانية من بحثها عن المادة التى نشأ منها الكون، وانطلاق فلاسفة اليونان القدامى نحوها، سواء فى الماء أم الهواء أم فى التراب أم النار، أم فى الاسطقصات الأربعة تعتبر أصدق تعبير عن روح الفلسفة اليونانية فى مراحلها الأولى[٣].

وفوق ذلك فإن هذه الفلسفة التى ظهرت فى بلاد اليونان قد لجأت إلى أنماط معرفية كانت تتسع أحيانا فتشمل الكون أو الوجود كله، وتضيق أحيانا أخرى، فلا تعبر إلا عن توجهات معرفية توشك أن تتلاشى.

أما الحكمة الإسلامية فقد كانت على العكس من ذلك تماما، إنها فلسفة منضبطة تسعى لتقديم الأدلة على وجود الله تعالى، فى جانب الإلهيات، ولكنها فى جانب المعرفة[٤] تقود إلى كل من المعرفة الحسية، وتكشف عن الحكم فيها، وتبين أنها يقينية متى تعلقت بالمعجزات؛ لأن جهة تفهم

---

(١) الدكتور عبداللطيف صلاح لطف الله – القضايا الإيمانية ص١٥٧ ط٢/١٩٥٦م.

(٢) جيمس جينز – الفيزياء والفلسفة ص١٤ .

(٣) راجع فى ذلك للدكتورة أمانى السيد خليل – الفلسفة اليونانية وقضاياها ص١٤٣ ط أولى – الدار الحديثة بمراكش ١٩٧٦م.

(٤) المعارف متعددة بتعدد المصادر، كما هى متعددة باعتبار الوسائل والنتائج ، فمنها المعرفة الحسية، ومنها المعرفة العقلية، ومنها المعرفة الإلهامية، ومنها المعرفة اللدنية، ومنها المعرفة النقلية. [راجع للدكتور عبدالحليم محمود – التفكير الفلسفى فى الإسلام ص٧٧، وكتابنا: المدخل لدراسة الحكمة الإسلامية، وكتابنا المعرفة عند ابن رشد ص٧٨]

المعجزات هي نعت[1]، والمعرفة العقلية متى كانت قائمة على أسس صحيحة، والمعرفة الإلهامية التي تجيء من لدن أفضال الله جل شأنه. قال تعالى: ﴿فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما* قال له موسى[2] هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا﴾[3].

ثم المعرفة الوحيية أو النقلية، وهي أصدق المعارف وأكثرها اتساعا وعمقا، وذلك كله مما تمايز به العقلية الإسلامية، ويدل على نضج المفكر المسلم، كما يدل على سعة مداركه، أما في مجال القيم فإنها لدى المسلم منضبطة بأحكام الشرع، وبالتالي فإن الفلسفة الإسلامية لم تتأثر بالفلسفات الأخرى، كما اتضح أن فلاسفة الإسلام ليسوا نقلة لتراث أحد، كما أنهم ليسوا مقلدين لأي فكر أخر، باعتبار أن طبيعة العقلية الإسلامية الإنتاج الجاد، والتواصل المستمر.

و تعريف الفلسفة في العصر الحديث

درج الباحثون في تأريخ الفلسفة بوجه عام على تقسيمه باعتبارات مختلفة إلى عصور، وبالتالي فعصر الفلسفة الحديثة هو الذي يبدأ من بواكير ظهور الثورة الصناعية في أوربا، بحيث يحل

---

(١) راجع كتابنا: الغزاليات في النبوات ص٢١٨ وما بعدها.

(٢) موسى : هو موسى بن عمران بن قاهت بن لاوى بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل ﷺ كلمة الله وأرسله إلى فرعون مصر منفتاح (مرنبتاح) ابن رعمسيس (رمسيس) الثاني ورابع فراعنة الأسرة التاسعة عشرة في القرن الثالث عشر قبل الميلاد لإخراج قومه بني إسرائيل، و لم تأت بعد شريعة موسى إلا شريعة محمد ﷺ وبينهما شبه كبير في حياتهما ودعوتهما وإيذائهما من قومهما، وشريعتهما وقد وردت قصة موسى في مواضع كثيرة من سور القرآن الكريم، وورد اسمه في ١٣٦ مرة تقريبا، توفي في آخر سنوات التيه في صحراء سينا، وبعد موت أخيه هارون عليهما السلام، ودفن في أرض مؤاب جنوب الأردن وكان عمره ١٢٠ سنة . [العلامة الحافظ ابن كثير - البداية والنهاية ص٩٣٠، وقصص الأنبياء للنجار ج١ ص٢٠٢] وهو صاحب رسالة إلهية تمثل شريعة خاصة لبني إسرائيل وحدهم. قال تعالى: ﴿ وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ سورة الصف - الآية ٥ .

(٣) سورة الكهف - الآيتان ٦٥/٦٦ . يقول الإمام الفخر الرازي: « إن هذه الآيات تدل على أن موسى عليه السلام راعى أنواعا من الأدب واللطف عندما أراد أن يتعلم من الخضر، حيث إنه جعل نفسه تبعا له؛ لأنه قال : (هل أتبعك)، واستأذن في إثبات هذه التبعية، فكأنه قال: هل تأذن لي أن أجعل نفسي تبعا لك؟ وهذه مبالغة عظيمة في التواضع، وقوله تعالى : ﴿ على أن تعلمن ﴾، وهذا إقرار له على نفسه بالجهل، وعلى أستاذه بالعلم، وقوله: ﴿ مما علمت ﴾ وصيغة من للتبعيض، فطلب منه تعليم بعض ما علمه الله، وهذا أيضا مشعر بالتواضع، كأنه يقول: لا أطلب منك أن تجعلني مساويا في العلم لك، بل أطلب منك أن تعطيني جزءا من أجزاء علمك، كما يطلب الفقير من الغني أن يدفع إليه جزءا من أجزاء ماله ». [العلامة الفخر الرازي - مفاتيح الغيب - جـ١٠ ص٦٥٢/٦٥٣ بتصرف]

مكانيا محل العصر الوسيط، وتكون نهايته مع نهايات القرن العشرين[1]؛ لأن القرن الحادى والعشرين يطلق عليه مصطلح العصر الحاضر.

والفلسفة العامة فى العصر الحديث كانت تسعى لاكتساب أرض فكرية جديدة، بغية التطورات العلمية، حتى تعوض الخسائر التى لحقت بها من جراء النتائج السلبية المفرزة من العصور الوسطى، التى علت الأصوات فيها، تطالب بالفصل بين الدين والدولة، كما نادت بفصل الفلسفة عن الحياة العامة تارة، أو فصلها عن العلوم الأخرى تارة أخرى؛ ولذا عرفت بأنها الاتجاه العقلى نحو بحث الكائنات والعلاقات بينها، بغية الانتقال من الوضع الحالى إلى آخر متميز[2]، أو من وضع ثابت إلى آخر متحرك، يحقق طفرة فى مجال العلوم المختلفة[3]، وبالتالى فالفلسفة صارت عملية عقلية، تقوم على نوع من التحول المستمر والتطور المتلاحق.

كما تعرف بأنها البحث الجاد عن الموروثات فى الميتافيزيقا والفيزياء على السواء[4]، وهو تعريف فيه الكثير من القفزات والاسقاطات الفكرية، ولكنه استنتاج لعقلية ظن أصحابها بأنفسهم تفوقا على غيرهم، ودفعهم إلى إعلان التمرد عليهم، بل وعلى كل من يخالفهم الرأى، باعتبار أنهم وحدهم الذين أحرزوا تفوقا نالها، وبخاصة فى الفلسفة، رغم ما لا قوة من معارضة[5] دفعت بهم إلى إعلان المعارضة لكل ما هو قائم، دون نظر إلى ما فيه من أفكار، بعضها قد يكون مقبولا على ناحية من النواحى، أو مرفوضا على ذات الناحية أو ناحية أخرى.

لكن تعاريف الفلسفة الحديثة اختلفت من قرن إلى آخر، ومن مدرسة أو مذهب إلى غيره، ففلاسفة القرن السادس عشر كانت لهم تعريفات عن الفلسفة الحديثة، اختلفت كثيرا أو قليلا عن التى أنشأها فلاسفة القرن السابع عشر، وكذلك الحال مع الذى جاءوا من بعدها، سواء القرن الثامن عشر أو التاسع عشر، وهذه الاختلافات راجعة إلى اختلافات الزمان المتلاحق وتطوراته، والمشكلات التى طرحت نفسها على المفكر وطالبته بتقديم حلول لذات المشكلات.

فى نفس الوقت اختلفت تعاريف الفلسفة باختلاف المناهج التى اصطنعها أصحابها لأنفسهم أثناء سيرهم فى تلك الدراسات، كالحال مع العقليين والتجريبيين والحسيين والحدسيين والمثاليين، إذ

---

(١) وقد يقصد باصطلاح العصر الحديث الفترة الواقعة ما بين القرن الخامس عشر حتى نهاية التاسع عشر، ويقصد به أحيانا الفترة الزمانية الواقعة بين القرن السابع عشر حتى العشرين، ولكل وجهة، وهى كلها تعبر عن نوع من الاهتمام المتزايد بالحركة العقلية فى غضون تلك الفترة.

(٢) هارمى بانتيلو – ملاحظات على الفلسفة الحديثة ص١٣ – ترجمة يسرى محسن ط١/١٩٦١م.

(٣) الدكتور فوزى محمد زاهر – دراسات فى الفلسفة الحديثة ص٣٧ – طبعة دار مراد ١٩٧٣م.

(٤) الدكتور جمال محمد خليل – الفلسفة الحديثة مذاهب وقضايا ص١٥ ط أولى ١٩٨٧م.

(٥) فرانكلين – ل – باومر – الفكر الأوربى الحديث – الاتصال والتغير فى الأفكار – القرن السابع عشر ص٤٤ – ترجمة د: أحمد حمدى محمود – الهيئة المصرية ١٩٨٧م.

كان العقليون يرون أن العقل هو الأداة الوحيدة للمعرفة، أنه ملكة سامية، بعيدة عن كـــل تجربـــة حسية، وهو الذى يجعلنا على صلة مباشرة بالمطلق وهو فطرى لدى جميع الناس[1]، وهو المعول عليـه وحده، من ثم فإن تعريفهم للفلسفة سوف يرتد إلى هذه الأصول العقلية.

أما التجريبيون؛ فقد ذهبوا إلى أن العقل باطن فى التجربة، وسموها التجربة المعقولة، فـالعقل عندهم يكون مستقلا وحده بإدراك المعارف، ولا تكون التجربة كافية وحدها بتلك الغايات، وإنمـا لابد من تآزر كل منهما مع الآخر، أما عند تقرير الغلبة أو السيطرة، فإنها تكون للعقل الذى يتحادل مع الطبيعة، حتى يتمكن من السيطرة عليها تماما، مستخدما فى سبيل ذلك ما ينشره عليها من صـور وقوالب، فيلفها فى طياته لفا، بحيث لا يستطيع أى جزء من التجربة أن يخرج عن هذه القوالب[2] التى صنعها العقل نفسه.

من ثم اختلفت تعاريف الفلسفة فى العصر الحديث، اختلافا قبليا وبعديا أيضـا، أو بعبـارة أخرى: ذهب البعض إلى وجود معارف قبلية فطرية ثابتة فى العقل، تمثل المبادئ الأولية له، مهمتـها الربط بين الأفكار السابقة كلها، ثم استنباط كل القضايا من خلالها استنباطا عقليا لا واقعيا، استنباطا يقوم على المفاهيم الرياضية لا على القواعد التجريبية، ولكن لا مانع من الاهتمام بالتاريخ والطـابع التاريخى لكل نشاط بشرى[3].

◄◄ عوامل تطور تعريف الفلسفة فى العصر الحديث:

إذن حدث تطور سريع متلاحق لتعريفات الفلسفة فى العصر الحديث، ومرجع ذلك عندى للعوامل الآتية :-

الأول: تكاتف السلطة السياسية مع قسوة السلطان الكنسى فى أوربا:-

ذلك أن الكثيرين نادوا بضرورة الخضوع لتعاليم السلطان، مهما كان جـائرا، والالـتزام بقوانين وقرارات السلطة السياسية – مهما كانت جائرة أو غير واقعية – مادامت السلطة الكنيسـية قد أعلنت قبولها على الناحية الدينية، كما نادى هؤلاء بضرورة الخضوع لتعاليم رجال اللاهـوت الكنسى، وإن لم يكن لها وجود بالأناجيل مادام آباء الكنيسة قد أقروا بهذه، أو سمحوا بتلك[4]، حتى وقع الناس بين نارين لا يستطيعون الهرب منهما، ولا الانفلات عن أحدهما، نار السلطة السياسـية، ونار السلطة الكنسية.

وقد أدى ذلك إلى تزايد الضغوط على الحركة الفكرية والمفكرين الأحرار، كما تكـاثرت أحكام الاتهام بالكفر والخروج عن الأنظمة السياسية، حتى بات المفكر الحر يعيش فى قلق لا يـهدأ؛

---

(١) الدكتور محمد غلاب – المعرفة عند مفكرى المسلمين ص٦٥ – الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦م.

(٢) الدكتور يحيى هويدى – أضواء على الفلسفة المعاصرة ص٤٢ – مكتبة القاهرة الحديثة.

(٣) برتراند راسل – حكمة الغرب ج٢ ص١٧٥ – ترجمة الدكتور فؤاد زكريا – سلسلة عالم المعرفة بالكويت – العـدد ٧٢.

(٤) الدكتور محمد السيد الذاكى – اتجاهات الفلسفة فى العصور الوسطى ص٥٣ ط دار مختار ١٩٣٥م.

لأنه قد يخالف بأفكاره بعض القوانين التي أمضتها السلطة السياسية، إذ كان همها الأول تثبيت أقدامها في قيادة البلاد، حتى لو أدى ذلك إلى تقييد حرية الأفراد للملك، وتنصيبه عليهم، كأنه ظل الله في الأرض[1]، وبالتالي لجأ البعض إلى استحداث ما يسمى بالعقد الاجتماعي أو التعاقد الاجتماعي.

ومن المؤكد أنه كلما كثرت القيود على حركة الفكر؛ أمكن وضع الأغلال الفكرية على العقول ذاتها، وذلك يحد من الإنتاج العلمي والفكري، كما يؤدي إلى تناقص الإدراك الواعي، حتى لو تزايدت المعارف في الرءوس، فإن إمكانية الاستفادة منها، أو التعبير عنها تحتاج حرية فكرية، تسمح بذلك الإعلان، فإذا خالف الإعلان عنها ما تنادي به الكنيسة - من تعاليم لا أساس لها[2]، أو تفرضه القوانين الجائرة التي وضعتها السلطة الحاكمة - فإن هذا الفكر الحر سوف يصطدم بها، وهنا تقع المشكلات التي يكون ضحاياها هم المفكرون الأحرار وحدهم.

من ثم لجأ كل مفكر إلى الخفاء، بغية ممارسة التفكير العقلي الحر، لإشباع ما يتوارى بين حناياه، أو يعتمل بفؤاده، وحينئذ يلجأ إلى تقديم تعريفات للفلسفة، على ناحية ترضي السلطة الحاكمة والسلطان الكنسي، وفي نفس الوقت يحاول بهذه التعريفات إشباع رغباته الداخلية، وذلك مما يجعلها متكاثرة إلى حد كبير، قد يظهر التناقض الشديد بينها[3]، أو الاختلاف الذي لا يمكن إحداث نوع من التوافق معه.

☜ **الثاني: ضيق المفكرين الأحرار بالسلطان الكنسي:-**

من المؤكد أن المفكرين الأحرار في أوربا لم يرق لهم ما يعاني منه الآباء الكنسيون من تزمت سلوكي، وانغلاق فكري، حتى ضاقت بهم صدور الأحرار من المفكرين، وبالتالي رفضوا الانصياع للسلطان الذي زعمته الكنيسة لرجالها، وبخاصة بعدما صارت الأحكام التي يصدرها القسس والبطاركة أو القمامصة والشمامسة تمثل سيوفا مسلطة على رقاب المفكرين الأحرار[4]، وكوابيس تطارد أحلام العلماء في اليقظة والمنام.

وبلغ من قسوة هذه الأحكام أنها لا تقبل أي لون من ألوان الاعتذار، بل أن من حاول الخروج على تلك القواعد الكنسية، انهالت عليه أحكام الكفر والهرطقة، وبخاصة بعدما اعتبرت الكنيسة أن القضايا التي يصدرها اللاهوتيون هي ذاتها قضايا الإيمان المسيحي، التي لا تقبل نظر العقل

---

(١) راجع كتابنا: خواطر حثيثة في الفلسفة الحديثة أثناء الحديث عن توماس هوبز، وراجع للأستاذ يوسف كرم - تاريخ الفلسفة الحديثة، وللدكتور محمد فوزي حسين - الفلسفة والكنيسة ص٧٧ .

(٢) الدكتور صبري عبدالخالق الضبعي - الفلسفة بين الدين والعلم ص١٥٧ - ط٢ الدار الجديدة - تونس ١٩٦٤م.

(٣) راجع كتابنا: قضايا حبيسة في الفلسفة الحديثة ص٨٧ .

(٤) الدكتور سليم السيد أبو سلامة - الفلسفة والكنيسة والعصور الوسطى ص١٤٧ ط أولى ١٩٤٧م.

فيها[١]، مع أنها لا تدعمها أدلة علمية أو دينية مقبولة، كما لا تقوم فى أصولها على نقل صحيح النسبة إلى الله تعالى[٢]، ولا واقع مستقيم يمكن للعقل أن يستريح فى رحابه.

كما أن السلطان الكنسى حول آراء القائمين عليه إلى أحكام واجبة النفاد فى مواجهة الآخرين، كأنما صدرت بها أحكام القضاء، التى لا تخضع للمناقشة؛ كما لا تقبل الاستئناف أو النقض، وكان هذا السلطان ممتد حتى شغل كافة الجوانب الحياتية فى أوربا، فامتلأت ساحات الفكر فيها قسوة وعنفا، وبرزت محاكم تفتيش النوايا والضمائر، مما حدا بالمفكر الحر إلى إخماء نفسه، أو العمل تحت ستار فى ظاهرة إرضاء السلطان الجائر، أو يتوارى خلف عبارات شفافة، تحمل احتراما زائفا لرجال الدين المسيحى، الذين اعتصم بعضهم بالجهل[٣]، والتحفوا أنواعا من الض ل، وافترشوا أطيافا من الخيال، لم تنل من أرض الواقع موقعاً واحداً صحيحاً.

إذن المفكر الحر الذى يريد التفلسف فى تلك الآونة؛ عليه أن يكون يقظا لوليب. بحيث يتعامل مع العبارات التى تصدر عنه تعاملا خاصا، وأبسط حدود التعامل هو أن يغلف عباراته الفلسفية ومباحثه الميتافيزيقية فى أثواب زائفة من عبارات المدح والثناء، لم يقصد بها ما تحتويه مباشرة من معان، وإنما قصد بها خداع من قيلت فيه أو جاءت بحقه[٤].

ومن معالم ذلك أن ديكارت الفيلسوف الفرنسى الشهير، حين خشى على نفسه سطوة رجال الكنيسة والسلطان الكنسى، أهدى مقدمة كتابه التأملات لعلماء الدين المسيحى، الذين كان بغضه لهم من أبرز عوامل ثورته العلمية عليهم[٥]، لكنه عبر عن هذه الثورة فى ثنايا ذات التأملات، ولم يكتشفها الكهنة أو رجال اللاهوت فى المسيحية، كما لم يتمكن من التعرف عليها رجال السلطة السياسية هم الآخرون، أو عرفوها لكنهم لم يفكروا فى التعرض له ؛ لأنه سبق إلى تقديم الإهداء، كأنه اعتذار متقدم، أو اعتراف كهنوتى على فعل سوف يقدم عليه صاحبه.

☜ <u>**الثالث : رغبة التخلص من الموروث البالى:-**</u>

لاشك أن الموروث البالى يمثل عقبة فى سبيل أى تقدم علمى، وبخاصة إذا كان الموروث ينعم بسلطان كبير، ودعم واسع من السلطة الدينية والسلطة السياسية، فإذا علمنا أن المفاهيم والآراء التى تركها أرسطو اعتبرت لدى اليونان ورجال المسيحية تراثا فكريا، يجب التمسك به، والمحافظة عليه،

---

(١) يعترف كانت بهذه المسألة فيقول: إن العقيدة المسيحية كأقراص الدواء مرة المذاق، متى مضغت. [راجع للدكتور رفقى زاهر – أعلام الفلسفة الحديثة]

(٢) الدكتور سليم السيد أبو سلامة – الفلسفة والكنيسة والعصور الوسطى ص١٥٣ ط أولى ١٩٤٧م.

(٣) أ.ب. هايتيم – الصراع بين الكنيسة والمفكرين الأحرار ص٤٣ – ترجمة وفاء فخرى .

(٤) الدكتور سليم السيد أبو سلامة – الفلسفة والكنيسة والعصور الوسطى ص١٦٧ ط أولى ١٩٤٧م.

(٥) ذلك واضح لمن طابق بين إهدائه كتابه التأملات فى الفلسفة الحديثة، وبين مباحث الكتاب نفسه، وكذلك الحال مع كتابه مقال فى المنهج.

وإذاعته حينا بعد الآخر[١]، مع أن به جملا عديدة من الأخطاء، ومع هذا تمسكت به القيادة الأوربية في العصور الوسطى.

بل إن رجال الدين المسيحي تخطو ذلك كله، واعتبروه جزءا من التراث الديني المسيحي، بغض النظر عن كونه تراثا صحيحا، أو تراثا يحمل بعض الصحة أو بعض الفساد، المهم أنه مادام قد قال به أرسطو، فيجب التمسك به، حتى نال القبول من كل ناحية، كما حظى بأنه قول معصوم من ناحية الكنيسة، بحيث لم يعد لأرسطو إلا مجرد الفكر[٢]، وكان للكنيسة دور التقنين الديني لهذا التراث الأرسطي اليوناني.

من جراء ذلك انطلقت ثورات المفكرين الأحرار في كل مكان من أوربا على هذه الأوضاع المتردية، وباتت نيران الثورة تظهر في شكل نقدي، يكون خفيفا حينا، أو عنيفا في حين آخر، وكان ذلك كله منصبا على الأفكار الأرسطية وحدها أول الأمر، ثم اشتد النقد عنفا وضراوة، وبخاصة بعد أن بدأت بواكير المنهج التجريبي تأخذ في الانطلاق على يد روجر بيكون، ثم فرنسيس بيكون من بعده، الذي وصل به درجة اليقين النسبي في العلوم الطبيعية[٣].

وراحت أنماط المنهج التجريبي تعدو خلف بعضها، وتقفز قفزا متلاحقا، وباتت ثماره الذاكية تعطى نتائج كانت في الماضي أشبه بالأحلام، وما هي إلا أيام قلائل، حتى بلغ درجة من اليقين النسبي الذي تفرضه المناهج التجريبية في العلوم الطبيعية[٤]، وكان لذلك أثره في زعزعة الثقة الدينية، وسحبها من رجال اللاهوت المسيحي.

إذن تحقق على أيدي الكثير من المفكرين انطلاقات رائعة في هذا المجال، وبخاصة بعد أن رفع بيكون الراية عالية، ومهد أرضية النقد، وعبد طريق مهاجمة الموروث التي تتمسك به الكنيسة، فلما مات ترك ذلك النقد أمانة في عنق زميل له هو ديكارت الفرنسي، الذي انتصب المنهج العقلي عنده على قوائم ثابتة، فراح يبعث به من رقاد الأموات بعض الأفكار، حتى بلغت دنيا الأحياء، وما أن وصل به غايته إلا كان الأمر قد وقف عند استخراج المنهج الرياضي، الذي يصلح للبحث في الفلسفة العامة، والميتافيزيقا على وجه السواء[٥]، كما أن ناحية المنهج العقلي لا تعارض غاية المنهج الرياضي في الفلسفة، وإنما يوازر كل منهما الآخر، فكان ذلك من الدواعي التي حركت النفوس، حتى تبلغ غايتها، وتشتعل الثورة على الموروث البالي آنا بعد آخر، مما عجل بظهور الأفكار الجديدة، والتخلص من الأفكار الفاسدة الموروثة البالية.

---

(١) الدكتور: حسن محمد زعرب – اليونان وثقافتهم القديمة ص٢٧١ ط٢/١٩٥٧م.

(٢) الأستاذ فوزي رزق – أرسطو والديانة المسيحية ص١٣٧ ط الدار العربية بدمشق ١٩٤٦م.

(٣) الدكتور عمر السيد عبدالظاهر – الفلسفة الحديثة ص٣٢ نشر وتوزيع المطبعة الحديدة ١٩٦٧م.

(٤) الأستاذ صفوت صبحي عبدالعظيم – المنهج التجريبي وأثره في النهضة الحديثة ص١٣٥ ط أولى ١٩٨١م.

(٥) الدكتورة بثينة محمد حاد – المنهج العلمي ص٤١ – الطبعة الأولى.– دار الوفاء ١٩٩٧م.

الرابع: ظهور أفكار كانت بذورا في الأوهام والأحلام:-

انتشرت موجة الإنكار للمسائل التي يتقاسمها بعض الناس، وبخاصة تلك التي تسعى إليها الكنيسة ورجال السياسة، كما ظهرت إشارات فلسفية راحت تجرى في أوربا كعواصف الشتاء، ناقلة موجات من الأفكار الفلسفية، مادية كانت أو تجريبية، نقدية كانت أو مثالية، بعضها تخلى عن البحث فيما وراء المحسوس[1]، وبعضها أخلى من مساحته الفكرية البحث في المسائل الميتافيزيقية، أو الإيمان بها، بل أعلن أنه لا يؤمن إلا بما تصدقه التجربة، كما لا يصدق إلا بما تحكم به حواسه، فأنكر الموجودات غير المحسوسة، ولم تحفل ذاكرته إلا بالماديات فقط، كالحال مع الوضعية المنطقية والوضعية الطبيعية، بل والوضعية الاجتماعية، وكالحال مع المادية الجدلية أو الديالكتيكية والماركسية، بل والوجودية الملحدة في الفلسفة والآداب والفنون، وكذلك العلمانية والبراجمانية فيما بعد.

بناء عليه فقد تحولت هذه البذور الغير متوافقة فكريا إلى أقرب الأشباه بنباتات غير متوافقة، ألقيت في أرض خصبة، وتمت تغذيتها بمقومات قوية، وأساليب علمية حديثة، حتى شبت عن الطوق في أرض الواقع، ولكنها ستظل تعاني من فقدان النسب، وقلق الفكر، وثورة العواطف، مع شدة الحرمان، فكان لهذه الأمور من الآثار ما غطى تعريف الفلسفة، ونال منها بالقدر الذي يعرفه الدارسون لتاريخ الفلسفة[2]، وبخاصة ما يتعلق بالعصر الحديث.

إذن يمكن القول: بأن تعريف الفلسفة في العصر الحديث لم يكن ممكنا على ناحية الجامع المانع، إلا إذا تم تناول أفكار كل الفلاسفة ، واحدا بعد الآخر في كل الاتجاهات على سبيل الحصر، يستوى فيه كل من العقليين والمثاليين والحدسيين والتجريبيين والحسيين ، وأصحاب المناهج المختلفة، وذلك مما لا يعد أمرا مطاقا، بل لا سبيل إلى ذلك في دراسة واحدة، ومن خلال مجهود باحث واحد، وإنما إذا كان ذلك من الضرورى، فلابد من توافر كل الجهود، وتضافر سائر القوى، وإقامة موسوعة كبيرة، تكون مهمتها حصر تعاريف الفلسفة في العصر الحديث.

ولا تفى بهذا كله أو شيء منه هذا الكتاب الذى جاءت مباحثه على عجل، وآمل لها أن تقع من الله موضع الرضى، وتنال من الناس أهل الخير موقع القبول، وما ذلك على الله بعزيز.

ي- عوامل انعدام التعريف الحدى للفلسفة

تاريخ الفكر الفلسفى مليء بالمفارقات، التي ترجع إلى طبيعة كل مفكر وقدراته الذهنية، متعدد الموضوعات، متقلب المناحي والاتجاهات، وطبقا لذلك فلم يتمكن باحث من القول بأن للفلسفة تعريفا حديا جامعا مانعا، إذ لو كان للفلسفة موضوع واحد محدد، تخصه بالدراسة والبحث

---

(١) الدكتور: رمزى فرج عبدالعال – الفلسفة الحديثة والمعاصرة ص١١٢ ط٢/١٩٥٧م

(٢) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع لكل من المدخل إلى الفلسفة لأزفولد كوليه، ومناهج الفلسفة لول ديورانت، ومبادئ الفلسفة لرابو بورت، وكذلك أسس الفلسفة للدكتور توفيق الطويل، وتاريخ الفلسفة الحديثة للأستاذ يوسف كرم.

فى العالم امشاهد مثلا؛ لكان تعريفها تابعا لهذا الموضوع على الأقل. ويكون تعريفا بالموضوع[١]. غير أنها لم تقف عند موضوع واحد تعتبره طوال تاريخها الفكرى الطويل، وإنما تناولت العديد من الموضوعات، كما تقلبت معها فى الأوجه المختلفة.

كذلك فإن العقليات المختلفة التى برزت، ناحية هذا النوع من التفكير، كانت مختلفة فى طبيعتها، التى تتعاطى الفلسفة باختلاف الظلال والتركيبة الثقافية، بجانب التراكمات الفنية والذهنية، بجانب القدرات العقلية، فى نفس الوقت فإن المجتمع الذى نشأ فيه الفكر هو الآخر قد أثر فى النمط الذى يمارسه المفكر، باعتبار أن الإنسان ابن بيئته، وربيب مجتمعه، وحفيد موروثاته.

فإذا كان المجتمع مغلقا؛ فإن المباحث الفلسفية تطرق أبوابه على استحياء، وفى شىء من اللوبية مع المداراة، واصطناع الكثير من الأقنعة المختلفة فى مظاهرها؛ بغية النفاذ إلى ذلك المجتمع، وبالتالى يأتى دور العصر الذى وجد فيه ذلك المفكر، حيث تمر به المباحث الفلسفية فى خفاء[٢].

من ثم؛ فإن تقلب الفلسفة موضوعات مختلفة، وتقلب المفكرين عوامل اجتماعية متباينة يعطى الباحث فرصة القول بأن تعريف الفلسفة العامة لم يثبت على حال واحد منذ بداية التاريخ الفكرى حتى اليوم، بل كان ذلك أحد الأسباب الرئيسية فى انعدام وجود تعريف واحد حدى للفلسفة العامة.

بيد أن التأمل العقلى والتاريخ الفكرى، قد أنبأ بأن اختلاف العصور الفلسفية، كان هو الآخر مواكبا لاختلاف الموضوعات التى تناولتها الفلسفة، وظل ذلك ديدنهما منذ البدايات الأولى حتى يومنا هذا، مع استمرار عملية الزحف المستمر لكل منهما[٣]، وذلك مما جعل الفلسفة تصطبغ بسمة العصر الذى كانت تمر به، وكان للتأثير الفكرى فى كل هذه العصور لون خاص تميزت به الفلسفة، وانعكس على تعريفاتها.

فى نفس الوقت؛ فإن أصحاب العملية العقلية، وهم الفلاسفة آنئذ كانت لهم اتجاهات مختلفة، ونزعات متنوعة، باعتبار البيئة التى نشأ فيها كل منهم، وربما نزعات تواترت على غير هدف واحد، واندفعت فى طرائقها، فلم تنل شيئا من الاستقرار، وفوق ذلك كانت تحيط بهم تيارات وميول فكرية، اقتبست من العوامل المحيطة بهم، ثم تأثرت هذه العوامل بالفلاسفة، باعتبار أن الإنسان الإيجابى هو الذى يؤثر فى المحيطين به ويتأثر بهم، أما السلبى فإنه يتأثر ولا يؤثر[٤].

---

(١) الدكتور: حسن محمد صبرى — الفلسفة ومشكلاتها ص١١٣ ط١/١٩٥٧م.

(٢) الأستاذ: فخرى السيد طلعت — دراسات فى الفلسفة ص٣٥ ط٣/١٩٥١م.

(٣) الدكتور: محمد سلامة عبدالوارث — الفلسفة العامة وقضاياها ومشكلاتها ص١٩.

(٤) الدكتور: عبدالخالق عبدالعظيم ظهير — دراسات فى الميتافيزيقا ص١١٧ ط دار الأمل ١٩٧٧م.

كما أن بعض الفلاسفة كانت تحيط بهم ظروف بعضها نفسى قائم على سلامة هذا الجانب. وبعضها قائم على الظروف المعيشية والأنظمة الاجتماعية، أو الأزمات الفكرية والضغوط السياسية والاتجاهات العاطفية، وهذه كلها بلا شك إن فرضت نفسها على المفكر؛ فإن توجهاته ستكون إلى ناحية بعينها، وبالتالى ينطوى على نفسه، فيقدم للفلسفة تعريفا يتناسب مع تطلعاته هو[1] وتركيبته الذهنية والاجتماعية والنفسية أيضا.

فإذا تأكد أن الإنسان اجتماعى الطبع، يتأثر بما يجرى فى المجتمع الذى يعيش بداخله، وتتأثر نفسه نزعاته الفكرية وهموم نفسه الداخلية، فيتأثر بالثقافة المحيطة به، أدركنا أن ذلك كله ربما كان له دخل كبير، أو تأثير واضح على الفيلسوف، سواء فى تناول الموضوع الفكرى، أم فى طريقة العرض، أم فى النتائج التى يترقبها، والتعريفات التى تصدر عنه للفلسفة ذاتها، أو المباحث التى عكف على دراستها، وجعلها فى مواجهة مع قدراته العقلية[2].

◈ **لكن ربما يقال:** لماذا لم تتحدث عن أسباب انعدام وجود تعريف واحد حدى للفلسفة العامة؟ أو بعبارة أخرى: ما هى العوامل والأسباب التى جعلت تعريفات الفلسفة متعددة إلى حد التباين والاختلاف من أول أمرها حتى اليوم، وإلى ما بعد ذلك، بل سيظل ذلك ديدنها على الدوام رضى الناس أم كرهوا؟

☜ **والجواب : أن هذه الأسباب تتدافع فيما بينها، ويمكن إجمالها فيما يأتى:-**

◄◄ ١- طبيعة الفلسفة الذاتية والعرضية:

للفلسفة لها طبيعتها المميزة لها عن غيرها من العلوم، فهى متخالفة مع غيرها من العلوم العقلية، وفى نفس الوقت فإن من طبيعة الفلسفة الذاتية الانطلاق فى الملكوت من خلال التأملات المتواصلة، دون أن تكون هناك أغلال أو قيود تقلل من حركة القائمين بها.

وإذا كان هناك العديد من العلوم لها جنس و فصل، بحيث يمكن تعريفها به تعريفا حديا، أو تقريبيا على ناحية الجمع والمنع فى الأولى، والإفادة التامة فى الثانية، فإن الفلسفة على العكس من ذلك، إنه لا جنس لها يعمها، ولا فصل يمايزها، سوى لفظ العلم[3]، كما أن الفلسفة عند المنكرين لها لا تخرج عن كونها إرهاصات فكرية لم تقدر لها شيء من التوفيق، ولو كانت الفلسفة عندهم علما خاصا؛ لكانت فى ذات الوقت أحد أفراد العلم على وجه العموم.

إذن تبدو الصعوبة قائمة فى ذات الفلسفة، وبخاصة متى نظر إليها من جانب المعرفة – الابستمولوجيا – باعتبار أنها علم إنسانى أو طبيعى أو ميثولوجى، وقد أدى ذلك كله إلى عدم تحديد

---

(١) الدكتورة: هدى محمد عبدالجواد – الفيلسوف الوجودى (دراسة موضوعية) ص١٢ ط١/١٩٦٥م.

(٢) وهذا الاستنتاج أراه مقبولا من ناحية أن التاريخ الفكرى العام لا يرفضه، وإنما يؤيده.

(٣) الدكتور: حسن محمد صبرى – الفلسفة ومشكلاتها ص٤٩ ط٢ دار الوفاء ١٩٤٤م.

الموضوع تحديدا تاما جامعا مانعا، بجانب انعدام وجود الجنس والفصل المميز معها، وبالتالى فلم يعد هناك أدنى شك فى أن هذه التراكمات الفكرية تمثل صعوبات مستجدة فى إمكانية تعريف الفلسفة بالتعريفات الحدية الدائمة[١].

أضف إلى ما سبق أن طبيعة الفلسفة جعلتها داخلة فى نطاق المجهود الذهنى والمهايا الاعتبارية بجانب تعدد المفاهيم الذهنية، وذلك مما جعل تعاريف الفلسفة غاية فى الصعوبة؛ لأن كل تعريف يصدر عن فريق أو طائفة لم يسلم من وجوه الطعن عليه، بل لم يسلم من محاولة استبدال غيره به، وإيجاد تعريفات بديلة تغنى عنه.

ولما كانت الذاتيات للفلسفة لابد من مقارنة كل عرضياتها، أو بعضها لها، فقد كان من الضرورى الإلماح إلى أن من عرضيات الفلسفة استخدام مناهج تقليدية فى دراسة الموضوعات الفلسفية، وتناول المشكلات والقضايا الميتافيزيقية[٢]، وكذلك الاستعاضة عن بعض تلك المناهج بأخرى تكون ذات أهمية تبادلية، تتعلق بالجوانب الميتافيزيقية من ناحية الكشف عنها، أو الاستدلال عليها، وهى أيضا لم تسلم من الاعتراضات الكثيرة التى توجهت إليها.

إذن الفلسفة فى تعريفاتها لا تخرج عن نطاق العصر الذى يؤرخ لها فيه، وهذه العصور كلما أمكن بحثها؛ أنتجت حب المعرفة وطلبا أو محبة الحكمة والسعى إليها، بل لا تخرج عن كونها محبة الحكمة ورغبة فى التماس الحقيقة لذاتها[٣].

وفى تقديرى: أن هناك صعوبات تكتنف الفلسفة من حيث دراستها وموضوعاتها، وبالتالى فقد تحولت تلك الصعوبات الموضوعية إلى صعوبات ذاتية وأخرى عرضية، ولابد من التغلب عليها أولا، حتى تتمكن الفلسفة من التحليق فى دنيا المعارف، بثقة وعمق، وتغطى المساحات الفكرية بأرصدة ثقافية، وكلها لا تعين على تقديم تعريف للفلسفة على ناحية حدية، باعتبار ذاتيات الفلسفة هى موضوعاتها الخاصة.

كما أن عرضيات الفلسفة العامة، وأعنى بها العصور التاريخية للفلسفة لا يمكنها تقديم تعريف للفلسفة يتسم بطبيعة الدوام، على أساس أن كل عصر منها له قضاياه ومشكلاته الخاصة، فإذا أمكن تقديم تعريف للفلسفة فى عصر منها، ثم جاء الذى بعده بمشكلات وقضايا جديدة؛ فإن التعاريف السالفة لا تعدوا أن تكون بضاعة انتهت صلاحيتها أو أفكارا غلب عليها التقادم[٤]، ومثلها لا تنهض معه تعريفات للفلسفة بحيث تكون ثابتة أو دائمة، فضلا عن أن تكون حدية .

---

(١) الدكتور: عبدالخالق عبدالعظيم ظهير – دراسات فى الميتافيزيقا ص٦٣ ط الدار الجديدة بدمشق ١٩٢٧م.

(٢) الأستاذ رمزى السيد طلعت – دراسات فى الفلسفة ص٤٢ ط أولى – دار المنارة بتونس ١٩٦٥م.

(٣) الدكتور: توفيق الطويل – اسس الفلسفة ص٤٤ ط دار النهضة المصرية

(٤) وحينئذ لا يكون لتلك الأفكار أو التعاريف أى شيء من الأهمية، بل على العكس من ذلك، ربما كان الإهمال والنسيان والأفكار التى لا تدعمها أرصدة ثابتة تكون ساقطة بمرور الزمن.

اضف إلى ما سبق غاية كل فيلسوف جانب معرفه، وكذلك وسيلة معرفيه. ..مناهج يوائم فيها بين الجانب المعرفى والأداة أو الوسيلة المعرفية وكل فيلسوف يمثل مدرسة أو مذهبا خاصا ثم يتبعه آخرون، فتتكون منهم مدرسة أو من ينسب إليهم مذهب(١)، فإذا قدم فيلسوف تعريفا، ثم جاء من بعده فى ذات المدرسة أو المذهب وأقاموا تعريفاتهم للفلسفة، فإنما تكون فى الغالب غير متوافقة مع الأصل الذى قامت عليه المدرسة أو المذهب، وذلك مما يجعل بناء تعريف واحد حدى للفلسفة غاية فى الصعوبة.

٢ـ تعدد الموضوعات الفلسفية :ـ

ذلك أن الموضوعات التى تبحثها الفلسفة متعددة من حيث هى..، كما أنها متعددة فى غاياتها والأغراض، وكذلك تتعدد من حيث التناول بالبحث والدرس، والمناهج التى تعالج مسائل الفلسفة، بدليل أن موضوعات الفلسفة كانت تضيق فى بعض الأحيان، وتتسع فى بعضها الآخر، فعند ضيق موضوعاتها تتمثل فى بحث الطبيعة عند فريق أو الوجود عند فريق أخر(٢)، وقد تختص بالقيم وحدها، كما قد تقف عند حد دراسة الإنسان والمبدأ والمصير، أما عند اتساعها فإنها تشمل موضوعات كثيرة كلية ومعارف إجمالية، إلهية كانت هذه المعارف أم طبيعية أم إنسانية.

أو كانت هذه المعارف من قبيل المعانى الكلية والأفكار المجردة، بدليل أن هناك أربع نظريات فى المعانى الكلية تقف على دراستها أربع مدارس فلسفية:-

❊ الأولى : المدرسة الأرسطية صاحبة النظرية التصورية:ـ

وهى التى تميل إلى الحكم على المعنى الكلى(٣)، بأنه تصور ذهنى، لا يجاوز العقل الذى يتمثلها، فإنسان مثلا فكرة لها وجود فى ذهن الإنسان، لكنها تكون منفصلة عن وجود المفردات الجزئية، ويصير الفرد الواحد من أفراد الناس بمقدار ما تتمثل فيه تلك الفكرة المجردة، فقوام التصور(٤) الذهنى المجرد عند أصحاب تلك النظرية هو الصفات الجوهرية المشتركة، التى تجعل الفرد المتعين المتخصص عضوا فى نوعه فقط.

---

(١) الدكتور: حسن محمد صبرى – الفلسفة ومشكلاتها ص٦٧ .

(٢) الدكتور صبرى على حسن الثروى – الفلسفة موضوعات ومشكلات ص٥٣ ط١/١٩٥٧م.

(٣) ذهب الفلاسفة إلى أن الكليات موجودة فى الأذهان لا فى الأعيان وقصدوا بذلك وجودها فى الأذهان بالعقل، أما وجودها فى الأعيان فهو وجود بالقوة، حسب تصوير ابن رشد. [راجع تهافت التهافت لابن رشد ص٢٠٦]

(٤) التصور حصول صورة الشيء في العقل وإدراك الماهية من غير أن يحكم عليها بنفي أو إثبات. [العلامة السيد الشريف علي بن محمد بن علي الجرجاني - المولود ٧٤٠هـ والمتوف ٨١٦ هـ - التعريفات ج١ ص٨٣ باب التاء رقم: ٣٧٧ - دار الكتاب العربي - بيروت - ١٤٠٥هـ - الطبعة الأولى - عدد الأجزاء ١ - تحقيق إبراهيم الأبياري]

❊ الثانية: المدرسة الأفلاطونية صاحبة نظرية الشينية أو الواقعية:-

وهى التى تميل إلى الحكم على المعنى بأنه حقيقة كائنة فى العالم الخارجى، وليس تصورا دهنيا كالأفراد الجزئية سواء بسواء[١]، والفرق بينها وبين الأفراد أن المعانى الكلية أو الأفكار المجردة أو المثل أو المعقولات الخارجية، قائمة فى عالم عقلى غير هذا العالم الفيزيقى، الذى هـو فى الواقـع عـالم الجزئيات المتغيرة.

❊ الثالثة: المدرسة الاسمية صاحبة النظرية الكمونية:-

وتميل هذه المدرسة إلى الحكم على المعنى الكلى بأنه كائن كامن فى دلالة اللفظ الكلى علـى مسمياته الجزئية، دون أن يكون لذلك المعنى وجود خارجى منفصل، أو جود فى التصور الذهـنى[٢]، إن وجوده فى الشيء بالقوة من غير إعطاء تصورات ذهنية محددة له.

❊ الرابعة: المدرسة البراجماتية صاحب النظرية النفعية السلوكية:-

وهى التى تميل إلى الحكم على المعنى الكلى بأنه طريق السلوك، إزاء طائفة معينة من مفردات، فإذا تشابه رد الفعل السلوكى إزاء شيئين؛ كان هذان الشيئان ينتميان إلى نوع واحد، فالتجريد هنـا ليس لصفات الأشياء،ولكنه لطريقة السلوك[٣]، وذلك كله يؤدى إلى عدم وقوف الفلسـفة علـى تعريف حدى واحد.

◄◄ ٢- اختلاف العصور الفلسفية:

سلف القول بأن طبيعة الفلسفة تحكم بإقامة العديد من التعاريف لهـا، وكذلـك تعـدد موضوعات الفلسفة يلزم هو الآخر بضرورة بناء أكثر من تعريف لدى كل فيلسوف يتناول موضوعا من موضوعاتها بالمعالجة؛ بغية استخراج نتائج تقدم فائدة، أو عدة فوائد للمجتمع الذى يعيش فيـه، بيد أن العصور الفلسفية هى الأخرى مختلفة، وذلك الاختلاف يفرض تقديم العديد مـن التعـاريف للفلسفة، ولا يسمح لدارس حتى يحتفظ بتعريف واحد[٤]، أو يحكم بأنه الذى يجب اتباعه أثناء دراسة الفلسفة، فضلا عن الإعلان بأن هذا التعريف هو الصحيح على الدوام، أو هو الغالب بصفة مستمرة، أما لماذا؟

فلأن العصور الفلسفية كانت تقسم من الناحية التاريخية إلى :

(١) الدكتور: فوزى السيد دقدق – المنطق الحديث ومشكلات الدراسة ص١٢٤ ط أولى ١٩٥٧م.
(٢) الدكتور: على رضوان نصار – المنطق الحديث ص٥٧، وقد أفاض فى هذه المصطلحات وبيان الفـروق بينـها أئمـة الإسلام الأعلام كالفارابى وابن سينا وابن رشد وابن تيمية، الذى حاول دراسة هذه المشكلات على أنها مصطلحـات، وبذل فيها جهودا كبيرة، وكذلك سبقه إليها الإمام الغزالى فى معيار العلم والميزان والقسطاس، وكذلك فعل السـيوطى، بل إن علماء أهل الإسلام فى دراساتهم الأصولية قد حققوا نتائج إيجابية عالية فى هذا المجال .
(٣) جون ديوى – المنطق نظرية البحث ص٣١ – مقدمة الدكتور زكى نجيب محمود.
(٤) الدكتور: حسن محمد صبرى – الفلسفة ومشكلاته ص٧٧ ط١٩٧١/٣.

☆أ- **عصر فلسفة ما قبل الفلسفة**: وله سماته الخاصة به[١]، باعتبار أن كل مفكر أو فيلسوف، إنما كان يشغل نفسه بالقضية التي يلمسها هو، ولا يعلن عنها لغيره لا من حيث هي قضية، ولا باعتبار النتائج، وإنما كان يكتفي بأن يحدث بها نفسه من حيث الدراسة، كما يكتفي بالاستفادة من ناتجها باعتبار النتائج، ومثله لا يمكنه تقديم تعريف للفلسفة يكون مقبولا لدى الجميع.

☆ب- **عصر التفكير المنظم**: ويعنون به العصر الذي بدت فيه الأفكار الفلسفية مطلة من رءوس أصحابها في لغة مشتركة، تجرى فيها التساؤلات المشتركة والإجابات المقصودة[٢]، ومحاولة الاستفادة من هذه النتائج على ناحية عامة، أو في محيط أكبر، بحيث تسقط فيه الفردية، وتظهر الجماعة الإنسانية في صورة من صورها، وهذا القسم يتنوع زمنيا إلى:

(١) عصر الفلاسفة الطبيعيين الأولين في اليونان.
(٢) عصر الشكاك من السوفسطائيين وغيرهم.
(٣) عصر الفلاسفة الطبيعيين المتأخرين.
(٤) عصر سقراط ومن تلاه.
(٥) عصر فلسفة آباء الكنيسة – الفلسفة المسيحية والمسيحية المفلسفة.
(٦) عصور الفلسفة الإسلامية، وهي ممتدة حتى الآن، لأن النصوص الحاملة لها مازالت قائمة؛ إذ أن نصوص النقل المنزل أبدية عامة منزلة من عند رب العالمين.
(٧) عصر الفلسفة الحديثة في أوربا، من روجر بيكون حتى نهايات القرن التاسع عشر.
(٨) عصر الفلسفة المعاصرة، وهو يبدأ من القرن العشرين، حتى يومنا هذا.

من ثم؛ فإن العصور الفلسفية مختلفة بالأزمنة، وهذا الاختلاف يؤكد وجود استقلال كل عصر منها عن غيره، كما يكشف عن وجود العديد من التعريفات الفلسفية، باعتبار ان كل عصر كانت له سمته المميزة، التي تصور الحالة الفكرية، وترسم ملامح الانطلاق نحو المستقبل[٣]، في بطيء حينا، أو انطلاق سريع في حين أخر، وكان التقدم العلمي هو السمة الغالبة على باقي السمات، حيث قد فرد العلم أجنحته في العصور الحديثة، ابتداء من القرن السابع عشر، وتوالت خطواته

---

(١) هذه السمات لا يمكن أن تنفصل عن طبيعة الفلسفة، بل الغالب أن الأجنحة التي كانت تطير بها الفلسفة في عصر ما قبل الفلسفة، إنما كانت أجنحة كبيرة ممتدة في عقل كل مفكر على حده.

(٢) الأستاذ رمزي السيد طلعت – دراسات في الفلسفة ص٥٥ ط١/١٩٧٧م.

(٣) الدكتور: محمد سلامة عبدالوارث – الفلسفة العامة قضاياها ومشكلاتها ص٧٣. وليس المراد باختلاف العصور الفلسفية اختلاف المفاهيم والمدركات، وإنما المراد أن طبيعة كل عصر زمني، تصاحبها ظروف فكرية، بعضها مستحدث تماما، وبعضها مستمد في بعض أصوله من الماضي، ثم أضاف إليها المشكلات الحاضرة، التي تحتاج حلولا على ناحية من النواحي.

التقدمية، بسرعة متزايدة، في إيقاع متعدد يدعو إلى الدهشة[1]، فقد أبان ذلك عن طبيعة كل عصر وحاجاته إلى سدم العديد من التعاريف الفلسفية، لا الالتزام بتعريف واحد؛ لأن ذلك سيكون أمرا صعبا أو مستحيلا.

◀◀ د. النزعة العاطفية والعقلية التي تقود الفيلسوف:

كل مفكر له طبيعته العقلية، وتكويناته الذهنية، وأرصدته الثقافية، وحيث قد عرفت أن موضوعات الفلسفة متعددة، وعصورها مختلفة؛ فإن النزعة العقلية لدى كل فيلسوف أو مفكر هي الأخرى، تختلف في عمقها أو تسطحها عن الآخر، كما تختلف باعتبار العموم والخصوص، وبالتالي فإن نزعة الفلاسفة العقلية لم تكن واحدة، وإنما كانت تمثل اتجاهات مختلفة. أما لماذا؟

فلأن كل مفكر أو فيلسوف إنما اتجه إلى أصول قائمة في ذهنه، وانتحى بها نحو قواعده الأصيلة، التي عاشت معه سنوات عمره التي قطعها، فتكونت خلالها ثقافته العلمية، وشبت عن الطوق نزعته العقلية، فإذا اتجه إلى الفلسفة وحاول تقديم تعريف لها، فلا شك أن ثقافته العلمية ونزعته الفكرية سيكون لهما أكبر الأثر في التعريف الذي يؤلفه، والاتجاه الذي ينشده[2].

وكل فيلسوف له طبيعته الخاصة في طرح المشكلات التي يجدها أمامه مفروضة من ناحيته أو يفرضها الواقع عليه، أو تناول القضايا التي هو بصددها، إذ من المعروف أنه كلما جاء مفكر أو فيلسوف مغاير بثقافته من سبق؛ فإنه ربما طمس التعاريف التي سبقت في ميدان الفلسفة[3]، وربما تخلى عن بعضها، ثم عدل فيها بما يتناسب مع آرائه وطموحاته العلمية.

بيد أنه متى استقر على شاطئ الفلسفة؛ فإنه يلجأ إلى تقديم تعريف لها، يكون مغايرا لتعاريف السابقين عليه، أو متوازنا مع بعض التعاريف التي يراها مقبولة عنده، طبقا للمعطيات التي تعيش بداخله، وهكذا دواليك كلما ظهر فيلسوف بثقافته، أو مفكر بتكويناته الذهنية فإنه يقدم للفلسفة تعريفا يتفق مع ذات الثقافة والمعطيات.

كما أن هذه الثقافات الفكرية متنوعة بين نظرية وعملية، سلوكية وتجريبية، وهذا التنوع هو ذات التناثر الذي يمثل اتجاهات فلسفية ، قد تتوافق مع بعضها، وقد تتخالف، ولكنها يجمعها التوجهات نحو الفلسفة، وفي ذات الوقت يكون طابعها الاختلاف في التكوينات الذهنية والمعطيات الفكرية، والأصول الاعتقادية في بعض الأحيان[4]، ومثل ذلك لا يمكن من تقديم تعريف للفلسفة يكون جامعا مانعا، أو تعريفا حديا منطقيا.

---

(١) لويس دي برولیه – الفيزياء والميكروفيزياء ص١٢٥ .

(٢) الدكتور: حسن محمد صبرى – الفلسفة ومشكلاتها ص٢٣ ط٣/١٩٨١م.

(٣) الدكتورة: هدى محمد عبدالجواد – الفيلسوف الوجودى ص٢٧ ط٢/١٩٦٧م.

(٤) الدكتور: محمد سلامة عبدالوارث – الفلسفة العامة وقضاياها ومشكلاتها ص٢٥ ط١/١٩٥٧م.

وربما تطلب دليلا على ذلك فأحيلك إلى تعريفات الفلسفة فى عصورها المختلفة، وسوف تجد ذلك فى شكل بارز، كما أذكر أن هيراقليطس (٥٣٥/٤٧٥ق.م) صاحب مذهب التحول والصيرورة[١] الذى كان يؤمن بأن انسجام العالم يرجع الى قانون غير مرئى يسمى اللوغوس، ومهمته إيجاد التوازن والسلام بين قوى العالم المتضادة التى يتهدد بعضها بالتدمير والهلاك[٢].

كما كان يعتقد أن النار هى المادة الأولى التى تكون منها العالم، وهى مبدأ الكل، والكل صادر عنها وعائد إليها بالضروزة، وهى العنصر الأول، وهى الإله الأعظم، الذى لا يفنى ولا تخمد قوته، وهى روح الحياة فى كل حى، ومنشأ الحركة الفعلية فى كل متحرك، ومصدر الاستعداد للحياة فى كل جامد، وهى فوق ذلك منتشرة فى جميع جزئيات الكائن الحى، وهى التى تنبض القلب، وتحرك الدم فى مجاريه[٣]، فهل يكون تعريفه للفلسفة مخالفا لتلك التكوينات الذهنية والاعتقادات الدينية، أم سيكون متوافقا معها، أظن أنك سوف توافقنى على أنه لن يخرج فى تعريفه للفلسفة عن تلك الثقافة وذلك الاعتقاد، وهو الذى أعنيه بمفهوم النزعة التى تقود الفيلسوف، حيث كان يعرف الفلسفة بأنها النظر فى أصل الكون، وكيفية صدور هذه الكائنات عنه[٤]، من غير إحالة إلى شىء أخر.

كما أن أرسطو كان يعرّف الفلسفة بأنها العلم الباحث عن الموجودات بما هو موجود، ومعناه أن ذلك العلم يعنى المميزات الكلية للنظام الضرورى، وهو الذى يكون دائما على ما هو عليه، ويمكن معرفته معرفة ثابتة على هذا المنحى[٥].

وذلك مما يؤكد أن أرسطو كان يعبر عن وجهة نظره، لا وجهة نظر أخرى، كما كان يمثل اتجاها فلسفيا قام فى ذهنه على التراكمية الثقافية والتوجهات الاعتقادية والأصول المعرفية، وبه يتأكد القول السائر بأن النزعة العقلية والعاطفية للفيلسوف تؤثر فى بنائه، كما تؤثر فى تعريفه للفلسفة.

بدليل أن أرسطو كان يسميها الفلسفة الأولى باعتبارها باحثة عن الموجود، بما هو موجود، بينما كان يميل إلى أن الفلسفة الثانية: هى التى تمثل العلم الطبيعى، وقد سار خلفه غيره ممن اعتقد نفس الآراء، أو كانت ثقافته فى حدود نفس الأفكار، بينما كان فيثاغورس يعرف الفلسفة بأنها

---

(١) صير : صار الأمر إلى كذا يصير صيرا و مصيرا و صيرورة و صيره إليه و أصاره، و الصيرورة مصدر صار يصير. و المصير: الموضع الذي تصير إليه المياه. و الصير: الجماعة. و الصير: الماء يحضره الناس. [العلامة ابن منظور – لسان العرب ج٤ ص٤٧٧].

(٢) أميل بريهيه – الآراء الدينية والفلسفية لفيلون ص١٢٥ – ترجمة د: محمد يوسف موسى – ط الحلبى .

(٣) الدكتور محمد غلاب – الفلسفة الإغريقية ص٧٢ .

(٤) الدكتور على منسى السعيد – فلاسفة اليونان المتقدمين ص١٧١ ط دار الأقصى ١٩٦١م.

(٥) أ- ١ طيلر – المعلم الأول – أرسطو وفلسفته ص٢٦ .

البحث عن طبيعة الأشياء[1]، وليس فى طبيعتها، والفرق بين طبيعتها وفى طبيعتها كبير على الناحية الفنية.

ثم إن الفيلسوف أو المفكر ما هو إلا إنسان غير معصوم، تكونت ثقافته من خلال الأودية التى أمكنه ارتيادها، والأنهار التى وقف عليها، فحين يقرر ذلك الفيلسوف إصدار رأيه فى مسألة ما ؛ فإنه حتى إن أمكنه التخلص من الإعلان عن هذه الأفكار التى استقاها من مجتمعه و لم يختبر صحتها، إلا أنها تضغط عليه من الداخل طالما كانت لها صورة ذهنية أو وجود فى عقله[2]، وذلك يؤثر على تعريفه للفلسفة بشكل طبيعى.

أضف إلى ما سبق أن بعض الفلاسفة أو المفكرين، يمكنهم التخلص من هيمنة الموروثات الفكرية، ولكنهم فى الغالب الأعم يعجزون عن دفعها بالنسبة لعواطفهم؛ لأن سلطان العقل يمكنه بسهولة التخلص من الأفكار الفاسدة، بقليل من العناء، أما العاطفة فمن الصعب التخلص من هيمنتها على المشاعر والقلب، وذلك مما يؤثر على النتاج العقلى فى تعريفه للفلسفة.

وقد أفاض الشعراء، فى بيان سلطان العاطفة على القلب والعقل معا، حتى إن الواحد منهم ربما نحا سلطان العقل جانبا، وأفسح لسلطان العاطفة كل المساحة، كما فعل قيس وليلى، وكثير وعزه، وجميل وبثينه، وغيرهم. من ذلك قول قيس:

أمر على الديار ديار ليلى ∴ أقبل ذا الجدار وذا الجدارا

وما حب الديار شغفن قلبى ∴ ولكن حب من سكن الديارا[3]

فهو قد أعلن أنه منح عاطفته كل المساحة الفكرية، بل والعقلية أيضا، حتى كأنه صار مسلوب العقل والقدرة والإرادة فى مواجهة محبوبته، وأنه قد منح محبوبته الحق فى التربع على عرش قواه كلها، وأنه يبحث عنها فى كل مكان، حتى وإن غابت عن ديارها؛ فإنه لا يتصور خلو الديار من صورها؛ ولذا فهو يسارع إلى ذات الديار يقبل الجدار الذى يلاقيه، لا حبا فى الجدار الأصم، وإنما تعبيرا عن الحب الذى يكنه لليلى ساكنة الديار. وكانت خطابات نيتشه فيلسوف القوة والضعف السرية المشتعلة الفائرة نحو كوزيما زوجة صديقه فاجنر الموسيقى نفسه من الأدلة على ذلك أيضا[4].

وبناء عليه؛ فإن العاطفة يكون لها دور كبير فى التعريفات أو المفاهيم والمصطلحات التى يقوم بها المفكر، وإن أمكنه السيطرة عليها فى بعض الأوقات، إلا أنه لا يتمكن من إلغائها تماما، وذلك مما

---

(١) الدكتور توفيق الطويل – أسس الفلسفة ص٤٥ .

(٢) راجع كتابنا: الحثيث فى المنطق الحديث ص٤١٥ .

(٣) راجع كتابنا : حصاد الاقتصاد فى الاعتقاد – الأفعال الإلهية ج٣ ص٣١٧ وهذه الأبيات منقولة عن الاقتصاد فى الاعتقاد للإمام الغزالى – القطب الثالث.

(٤) الدكتور عبدالعظيم السيد الجبيلى – دراسات فى الفلسفة الحديثة والمعاصرة ص١٧٥ .

يؤثر على النتاج العقلى لذات المفكر، ويجعله يراجع قراراته فيما انتهى إليه سلفا[١]، وقد يظل على ذلك زمنا طويلا، وربما استغرق ما بقى له من عمر، مما ينتهى إلى القول بأن النزعة العاطفية أو العقلية بالنسبة للفيلسوف لها دور فى انعدام التحاكم إلى تعريف حدى واحد دائم للفلسفة العامة، أو حتى نوع من أنواع الفلسفة.

◀◀ هـ الظروف المحيطة بالمفكر نفسه:

أجل الإنسان ابن بيئته، يتأثر بها ويؤثر فيها، وكل إنسان مهما كان مستواه العقلى تؤثر فيه العوامل التى تحيط به، سواء أكانت هذه العوامل المحيطة بالمفكر نفسية أم سياسية أم اقتصادية وثقافية، بل لا أغالى إذا قلت: إن المفكر يتأثر بالنواحى الاجتماعية والأدبية والخلقية، كما يتأثر بالتيارات الفكرية والفنية، كما يتأثر بالاتجاهات العقائدية أيضا، وكل العوامل المحيطة به تؤثر فيه، مادامت قريبة منه، ولها علاقة به[٢].

ذلك أن الأساطير التى سادت مجتمع اليونان قديما، بما فيه من قصص تحمل النرجسية حينا، أو تعلن عن الرمزية حينا أخر، كان لها دور كبير فى تكوين ثقافة فلاسفة اليونان فى هذه الفترة؛ لأنهم لم يتمكنوا من إفراغ حصيلتهم الذهنية كلها على الأرض، وإنما أفرغوا منها ما أمكنهم القيام به فقط، وهو الذى يتعارض مع الأسس المنطقية التى كان لها وجود واقعى[٣].

أما ما تم إفراغه فهو ما لم يعتمد على الأسس المنطقية، أو الذى لا توجد له أرضية صلبة من الأفكار الصحيحة المقبولة، ونظرا لتكاثر هذه الاتجاهات فى اليونان فقد انتحى التفكير الفلسفى لدى اليونان خلال تلك المرحلة ناحية أخرى، هى البحث عن تفسير واقعى لسر هذا الكون ومعرفة العناصر المكونة له، وإدراك قواه المختلفة، وعلاقتها بالإنسان نفسه[٤].

إذ كيف يكون الإنسان ابن البيئة التى ولد فيها، وتجول بين أنحائها، واكتسب ثقافته مما يدور فيها، ونعم أو شقى بالأنظمة السياسية القائمة بها، ثم يأتى ذلك اليوم الذى ينسلخ من هذه العوامل جميعها، حتى يكون كأن لم يكن قد وجد بها – رغم أنه مازال مقيما بها – ثم يقدم صورة ذهنية أو أفكارا فلسفية، أو يعطى تعريفا للفلسفة، إن ذلك لا يكون إلا فى عالم الخيال، أو إذا نقل ذلك المفكر من ذات البيئة إلى أخرى تخالفها فى طبيعة العوامل، لا فى ذاتها، ثم يقضى شطرا كبيرا من

---

(١) هذا مما يمارسه أصحاب الفكر الناضج؛ لأن الواحد منهم يراجع معلوماته آنا بعد أخر، وكل ما سبق له القول به من أفكار كان يظنها صحيحة، فلما بان له أن هناك أفضل منها عدل فيها و لم يتمسك بها، بل تخلى عنها نظرا لما فيها من أخطاء.

(٢) الدكتور: محمد صبحى خير الله – دراسات فى الفلسفة المعاصرة ص٣٧ ط دار مراد ١٩٦٧م.

(٣) الدكتور: محمد سلامة عب الوارث – الفلسفة العامة قضاياها ومشكلاتها ص٦٣ ط الدار العصرية ١٩٥٧م.

(٤) الدكتور: محمود عبدالرازق شفشق وآخر – تاريخ التربية ص٣٨ .

عمره فى البيئة الجديدة[١]، وبالتالى فإنه إن أمكنه تقديم تعريف للفلسفة فلن يخرج عن طبيعة البيئة الجديدة، التى صارت له بمثابة القاعدة الاجتماعية الأولى البديلة لذات الفكرة.

كما أن الظروف السياسية المضطربة هى الأخرى تؤثر على المفكر؛ لأنه كلما خلا المجتمع من الغطاء السياسى الأمن، حلت بدلا منه أغطية قلقة، يجرى فيها الخوف على استقلال البلاد وحريات أهليها، بدليل أن الظروف السياسية إذا اختلت قواعدها الصحيحة فى بلد من البلدان، أو انهارت الأصول المتفق عليها؛ فإن العنف السياسي يكون هو السائد بما يخلفه من قتل ودمار وتخريب ديار، وإتلاف ممتلكات، إلى غير ذلك من أوجه العنف[٢].

وقد أنبأت الأخبار أن العنف السياسى إذا حل فى بلد ما؛ فإن أهله يتحولون من الأمان إلى الفزع، ومن الأمن إلى الخوف، ومن النشاط التجارى إلى الكساد، وتاريخ الاغتيالات السياسية فى مصرنا الحبيبة مازالت دماؤه قانية، والأحبار التى كتبت بها لم تجف، ومثل هذه الظروف لا تعطى المفكر الحرية الكاملة للتعبير عن رأيه فى صراحة ووضوح، ولا تسمح لأفكاره بالانطلاق إلا بعد تردد قد يطول أو يستغرق الشطر الأكبر من عمر ذلك المفكر، ومثله لا يعين على تقديم تعريف محدد للفلسفة.

ولا يخفى أن دور الظروف الاجتماعية من تمايز الطبقات، وانتشار البطالة، وتعويم عملة ذلك البلد، وتباين النظرات الاجتماعية فى كل أمر يباشره المفكر كالزواج والطلاق، وما يتعلق بشئون الأسرة يؤثر ذلك كله فى المفكر؛ لأن الفقير سيكون تفكيره منصبا على محاولة إيجاد حلول لمشكلته هو أولا، ثم الخروج منها إلى المشكلات الأكبر[٣]، باعتبار أنه فاقد أسباب الحياة ومثله لا ننتظر منه أن يكون فيلسوفا.

كما أن البخيل صاحب الثراء الفاحش، والجاه العريض لا يشعر بالأمان، إذ كيف يكون آمنا وحوله ذئاب مفترسة تصارع الوحوش، وتقاتل فى سبيل البقاء، وحتما ستخلع عن نفسها هذه اللفافة الرقيقة من الحياء، وتجادل الطبيعة، حتى تبادلها قسوة بقسوة، وعنفا بعنف، وأول من يقع معه العنف، وتجرى له القسوة هو صاحب الثراء الفاحش والجاه العريض، الذى يبخل على خلق الله بما أفاء عليه به مولاه[٤]، وحينئذ لن يتمكن من التفكير الصحيح وهو على يقين من أن

---

(١) كالحال مع المفكر الشرقى الذى يكون له أبناء يقضون شطرا كبيرا من أعمارهم داخل مجتمعه، بما فيه من قيم وعوامل محيطة، ثم ينتقل بهم إلى الغرب، فتقع لهم عوامل جديدة تحيط بهم، فإذا ظهر بينهم فيلسوف فى المستقبل، فإن البيئة الجديدة هى التى يكون لها الدور الجديد فى مكوناته الذهنية، متى كان منفتحا عليهم من أول مراحل انتقاله إلى أوربا، ودليل ذلك بعض المستشرقين وبعض المستغربين على السواء.

(٢) الدكتورة: هانم محمد عيد – الخلفية السياسية للعمل الاجتماعى ص٧١ – طبعة دار مراد ١٩٧١م.

(٣) الدكتورة: هدى محمد عبدالجواد – الفيلسوف الوجودى ص٥٣ .

(٤) الدكتورة هانم محمد عيد – الخلفية السياسية للعمل الاجتماعى ص٨٣.

بجحافل(١) المحرومين تتجه نحوه، تريد سلبه ما يتمتع به، حتى لو أدى ذلك إلى القضاء عليه، ومثله لا يكون قادراً على التفكير العقلى السليم، كما لا يتمكن من إصدار تعريف للفلسفة يكون كافيا على ناحية حدية، حتى لو عمل بالفلسفة طيلة عمره(٢).

أما الظروف الثقافية والعوامل الاعتقادية؛ فإنها تؤثر فى ذات المفكر بطريقة أو أخرى؛ لأن العقل الإنسانى بطبيعته كلما مر بمعتقدات تسللت إليه خفية أو جهارا، واستقر الكثير منها فى ذاته اللاواعية فدعمت كيانها، وأضحت كل فكرة جديدة لا تتمشى معها إعلانا بالحاجة إلى إعادة النظر فى هذه المعتقدات(٣)، التى لم يقم دليل على صحتها، كالحال مع البوذية(٤) والكونفوشيوسية(٥) والبرهمية(٦)، وغيرها من الديانات التى لها أصول كتابية، ثم قام أصحابها بتبديل ذلك كله إلى ديانات صنعتها أيديهم كالمسيحية الحالية واليهودية السياسية وكلها عوامل تؤثر فى الفيلسوف على نحو من

---

(١) الجَحْفَل: الجيش الكثير، ولا يكون ذلك حتى يكون فيه خَيْل؛ ورجل جَحْفَل: سيد عظيم القَدْر؛ و جَحَافل الخَيْل: أفواهُها. و جَحْفَلَة الدَّابة: ما تَنَاوَل به العَلَفَ، وقيل: الجَحْفَلة من الخَيل والحُمُر والبغال والحافر بمنزلة الشفة من الإنسان والمِشْفَر للبعير. [لسان العرب ج١١ ص ١٠٢]

(٢) لاشك أن هذه العوامل عند اجتماعها تمثل قرارات متعددة واتجاهات متعاضدة، تؤكد كلها أن الفلسفة ليس بالإمكان تقديم تعريف حدى لها يكون واحدا على مدى الأيام.

(٣) الدكتور توفيق الطويل – قصة الصراع بين الدين والفلسفة ص٣٥ – دار النهضة العربية ط٣ ١٩٧٩م.

(٤) وجدير بالذكر أن مؤسس البوذية اسمه الحقيقى هو " سورانا أوجوناما " ، عاش ما بين أعوام ٥٦٦/ ٤٨٦ ق.م Goutama Siddhartha ، ابن حاكم ساكاس ، ولهذا يسمى حكيم ساكاس ، ولد بإقليم نيبال فى القسم الشمالى من الهند الوسطى ، وهى تتنوع إلى :-

أ- بوذية شن : وهى مدرسة الأرض الطاهرة الحقة ، وهى إحدى المدارس البوذية فى اليابان .

ب- البوذية التنترية : وهى تمثل تطورا هاما فى بوذية الهند والبلاد المجاورة ، لا سيما التبت ، وتستخدم لغة موغلة فى الرمزية -دكتور/ إمام عبدالفتاح إمام - معجم ديانات وأساطير العالم - (مجلد ١ ص٢٢٤ ، مجلد ٢ ص ٢٤٦ / ٢٩٩) مكتبة مدبولى - ٦ شارع طلعت حرب / القاهرة ١٩٩٥ .

(٥) ترجع هذه الديانة إلى كونفوشيوس الذى أشاع بين الصينيين، أن عبادة الأسلاف هى اصل العقيدة الكونفوشيوسية، وموقف كونفوشيوس من جعل عبادة الأسلاف موقف رسمى فى الدين الكونفوشيوسى، وما كان مطلب كونفوشيوس لإجراء طقوس وتقديم قرابين، تكريما للأسلاف، لم يكن من أجل الأرواح بذاتها، ولا من أجل إكرامها، أو من استدرار عطفها بل حصرا؛ لأن هذه الطقوس قائمة من قديمة الزمان »[سيراغى أ. توكاريف – الأديان فى تاريخ شعوب العالم – ترجمة الدكتور : أحمد م. فاضل ط أولى ١٩٩٨م – الأهالى للتوزيع بدمشق سوريا]

(٦) البرهمية ديانة الهند القديمة ، وهى مستخرجة من كتب الفيدا وقد استمدت اسمها من أهمية براهمان ، بوصفه قوة عليا، كما استمدته من وضع طبقة البراهمة (الكهنة فى الهندوسية) فى آن معا ، ويذهب البعض إلى ان جماعة براهما حركة وثنية داخل الهندوسية ، تشبه البروتستانتية ، تأسست فى كلكتا عام ١٨٢٨ ، لا تعترف بسلطة الفيدا ، ولا تؤمن بتجسيد الإله. البرهمى : فى السنسكريتية مالك براهما أعلى طبقة اجتماعية فى الهندوسية ، وهى طبقة الكهنة، ويرجع وضعهم الرفيع إلى تقسيم الفيدا للسكان إلى أربع طوائف مغلقة ، والشروح الملحقة بالفيدا أقدم الكتب المقدسة فى الهندوسية ، وهى تفسر معنى الفيدرا على نحو ما تستخدم الطقوس والقرابين ، والمضمون الرمزى لأعمال الكهنة، وكلمة براهمانا قد تعنى إما أقوال البرهمى ، أو شرح معنى الكلمات المقدسة . وبراهمانا تاساتى : إله قوى السحر التى تمسك بالكون فى الهندوسية . [جفرى بارندر - المعتقدات الدينية لدى الشعوب - سلسلة عالم المعرفة رقم ١٧٣ / ١٤١٣هـ – ١٩٩٣م – ترجمة الدكتور/ إمام عبدالفتاح إمام]

الأنحاء، وقد تلحته إلى تقديم بعض التنازلات الفكرية في سبيل الظفر بمستوى كان يعلق عليه بعض الآمال الفكرية الأخرى، وهو ما يعرف باسم التنازلات المتقابلة[١].

ولا يغيب عن دارس أن الظروف الاقتصادية قد تدفع الفيلسوف إلى إجراء تعديل في بعض الأفكار التي قرر دراستها على ناحية من النواحي، وبخاصة إذا كانت تلك الظروف قاسية تنال لقمة العيش، وأقراص الدواء أو تضغط على المسكن الأمن، بدليل أن أنبا زوقليس اليوناني تنازل عن كثير من أفكاره بعد ما بلغه أن الآلهة ترفض اعتماده على المبادئ الثلاثة في تفسير نشأة الكون، حيث كان يقول بأنها الماء والهواء والنار، ثم أضاف إليها العنصر الرابع، وهو التراب، حتى لا تضطر الآلهة الغضبى إلى امتصاص الماء وهلاك النبات[٢].

ونظراً لأن هذه الضغوط كانت تمارس عليه من خارج إمكانياته، فقد أرجع تلاقي هذه العناصر الأربعة أو تفرقها إلى قوتين رمزيتين هما:-

أ- قوة المحبة التي تجمع وتضم المتشابهات إلى بعضها.

ب- الكراهية التي تقوم بعملية فصل المتشابهات، وإعادتها إلى طبيعتها من التفرقة.

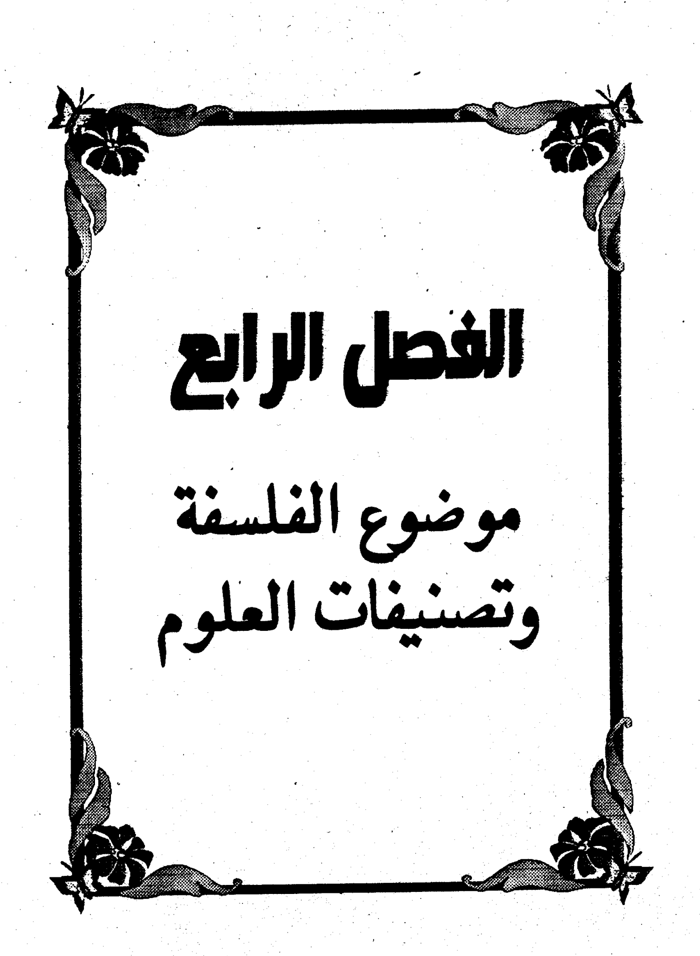
وكلما كانت الاتجاهات الفكرية خاضعة للظروف الاقتصادية، فإن إمكانية التعويل على النتائج أو التعديل فيها تكون ضئيلة إذا قورنت بغيرها من الظروف التي تكون الحياة فيها رحيبة، وظروف المعيشة معها رغيدة، والحرية الفكرية والسياسية تجدان المتنفس الواسع والمرتع الخصب، والجو الأمن، وبالتالي فإن الحرية الفكرية تنتج أنماطا جديدة من الاتجاهات العقلية التي تتدافع فيها الفلسفة كأنها نهر جار، أو غطاء فكري يظل المباحث العقلية، بحيث تكون معبرة عن ثقافة المفكر واتجاهاته الطبيعية.

والذي أنتهي إليه هو أن الظروف المحيطة بالفيلسوف، لها دور كبير في تكوين فلسفته، كما أنها تكون أحد العوامل أو الأسباب، التي تحول بينه وبين إصدار تعريف حدي للفلسفة على ناحية الجمع والمنع.

---

(١) يجرى هذا المصطلح في عرف الساسة غالبا، وبخاصة عندما يرفض الاشتباكات العسكرية بين الجيوش أو إجلاء المستعمر عن بلد من البلدان التي ترجع على ثرواتها وحاول امتصاص كل خبراتها، كما يجرى في اصطلاح رجال الاقتصاد عند إجراء بعض التسويات المتعلقة بالمديونيات أو القروض، ويستخدم في الفلسفة للتعبير عن حالة اليأس التي تلازم الفيلسوف عند عجزه عن ممارسة فلسفته في شكل علمي وبطريق آمن. [راجع كتابنا: رياض الأشواق في الميتافيزيقيا والأخلاق ص٩٨].

(٢) هانزبينس – شيثرون وطبيعة الآلهة اليونان ص١١٢ – ترجمة صابر صابر جلال – العراق ١٩٤١م.



الفصل الرابع

موضوع الفلسفة
وتصنيفات العلوم

لكل علم من العلوم أو من من الفنون موضوعه الخاص به، بحيث تتم دراسته فى إطاره، كما أن معالجة مسائله تكون من خلاله، لكن فى حدود المنهج المرسوم، والخطة الموضوعة؛ بغية الوصول إلى الأهداف المنشودة من ذات العلم[١]، والغايات التى يتطلبها البحث العلمى، والنتائج التى تجيء معه، والآمال التى تعلق عليه.

والفلسفة علم تميز بالعموم والشمول، أو بعبارة أخرى تتميز الفلسفة عن غيرها من العلوم بأنها ذات أبعاد كثيرة تتجاوز حدود العلوم الأخرى، كما أنها تجيء فى أنماط مختلفة بعضها يمثل عمل الفيلسوف، وبعضها تمثله الجزئيات الفلسفية المبحوثة[٢]، وهو ما يعبر عنه بالميدان الفلسفى.

أ- موضوع الفلسفة

الدارس للفلسفة يلاحظ أنها كانت فى بعض العصور تتسع فتشمل كل العلوم، بحيث تكون موضوعات العلوم المختلفة هى موضوعات الفلسفة[٣]، أو بعبارة أخرى تكون كل العلوم هى ذاتها موضوع الفلسفة، بحيث إذا قلت ما هو موضوع الفلسفة؟ كان الجواب: أن موضوع الفلسفة هو كل العلوم.

نعم قد يجيء موضوعها فى جانب معرفى واحد يقف عند الأخلاق، أو الطبيعة، أو يستخلص لنفسه نظرية الوجود وحدها أو المنطق على حدة، وهو ما يعرف باسم اختلاف موضوع الفلسفة باختلاف طرائق التصنيف للعلوم[٤].

وذلك مما يدفع إلى ضرورة بيانه والحديث عنه على النحو التالى:

١- عموم البحث فى المبادئ الكلية[٥]

وهو شمول موضوع الفلسفة البحث فى المبادئ الكلية، التى تمثل كل العلوم والفنون السائدة فى ذات العصر، والتى تمهد للعصور المستقبلية على جانب معرفى متميز، وكان ذلك سمة الفلسفة المصرية القديمة، حيث كان الكهنة[٦] الدينيون يمثلون طبقة من طبقات الفلاسفة، كما كان

---

(١) أ.هـ تانيهوم – المنهج العلمى ص١٣ – ترجمة حنان فخري – الطبعة الثانية – مكتبة رزق ١٩٦٧م.
(٢) الدكتور فوزى حسن رزق – مدخل إلى الفلسفة ص٩/ ١٩٦٠م.
(٣) الدكتورة فاطمة محمد الثروى – دراسات فلسفية ص١٢ ط١/١٩٧٨م.
(٤) راجع لفردريك روزنتال – التراث القديم فى الحضارة الإسلامية ص٤٩ وما بعدها.
(٥) لا شك أن البحث فى المبادئ الكلية يعتبر من أهم موضوعات الفلسفة، وأكثرها عموما واتساعاً.
(٦) الكاهن هو خادم دين ، وفى اصطلاح الكتاب المقدس هو الشخص المخصص لتقديم الذبائح ، وكان كل الأفراد قبل النظام الموسوى يقدمون الذبائح كنوع من الكهنوت ، ثم انحصر اختيارهم فى كل ذكر من ذرية هارون ، بشرط أن لا يكون فيه عيب أو تشويه جسدى، وكانت واجبات الكهنة تقديم الذبائح اليومية والأسبوعية والشهرية والسنوية، وكانوا يخدمون فى الاحتفالات والتطهير، وكانوا يطلقون الصوت فى الأبواق المقدسة، ويحملون تابوت العهد، ويقضون فى دعاوى الغيرة ، ويقدمون المال للافتداء، ويفسرون الناموس للشعب.[قاموس الكتاب المقدس ص٧٩١/٧٩٤]

المهندسون والعلماء هم الآخرون يمثلون طبقة من طبقات الفلاسفة، بل كان علماء القانون والأخلاق هم الآخرون يمثلون طبقة متساوية مع الطبقات الأخرى فى وصفهم بأنهم فلاسفة[١].

وعرفت الفلسفة عندهم بأنها المعرفة العقلية أو المعرفة العلمية بالمعنى الأعم، إنها ام العلـوم، او علم العلوم، وكان ديكارت يقول: « الفلسفة أشبه بشجرة جذورها الميتافيزيقا، وجذعها الفيزيقـا، والفروع التى تخرج منها هى كل العلوم »[٢].

وكان الإغريق الأوائل ينظرون إلى الفلسفة أيضا على أنها أم العلوم، فلم يسمحوا لأنفسـهم بفصل اى موضوع معرفى عن الفلسفة، وبالتالى فكانت الفلسفة عندهم تضم شتى أطراف المعرفـة، حتى الطب نفسه كان من عمل الفيلسوف[٣]، فاتساع موضوع الفلسفة فى تلك العصور كان سمـة الفلسفة لدى المصريين القدماء، كما كان عند اليونان سواء بسواء.

بل إن الصينيين هم الآخرون كانوا يعتبرون الفلسفة عملا عقليا علـى الناحيـة النظريـة والعملية، بحيث يغطى كافة أرجاء المعارف الإنسانية، بحيث صار كل من يتفرد فى علم من العلـوم يسمى فيلسوفا، بالعلم الذى تفرد به وتميز فيه[٤]، فاجتمعت الفلسفة فيهم على ناحية من النواحى.

وكما كان الإغريق والمصريون ينظرون الى موضوع الفلسفة نظرة العموم، فقد أقام تلـك النظرة فلاسفة الهنود أيضا، وكذلك البابليون، الذين لم ينظروا إلى موضوع الفلسفة إلا نظرة كليـة شاملة لكل من الموضوع والمنهج والغايات[٥]، بحيث يمكن القول بأن موضوع الفلسفة فى هذه الآونة كان متمثلا فى العلوم الإنسانية كلها من غير تفصيل أو تمايز.

« ٢- الخصوص: البحث فى مبدأ بعينه »

وهو اختصاص موضوع الفلسفة بالبحث فى مبدأ واحد كلى، كالحال مع الأوائل من اليونان الذين بحثوا نشأة الكون، وأصل تلك النشأة، هل هو الماء، أم التراب، أم الهواء، أم النار؟ ولا شك أن كل واحد منها كان يمثل مبدأ يتم بحثه على أنه موضوع معرفى مستقل، واقع تحت ميكروسـكوب البحث الفلسفى[٦].

وكان هذا التخصص الموضوعى بمثابة الركيزة الأولى، التى قام عليها البحـث فى انقسـام الفلسفة إلى عملية ونظرية، حيث ذهب أرسطو إلى أن موضوع الفلسفة النظرية هو المبادئ المجـردة

---

(١) المستشرق جون كالمان – الحضارة المصرية القديمة ص٤٥ – ترجمة وفاء صبرى ١٩٨٢م.
(٢) الدكتور فوزى حسن رزق – مدخل إلى الفلسفة ص١٧ ط١٩٥٧/٢م دمشق.
(٣) الدكتور عزت قرنى – مدخل إلى الفلسفة ص١٤ ط١٩٨١/١م.
(٤) أرنولد هافى – الحضارة الشرقية – بلاد الصين ص٢١٣ ط١٩٤٧/١م – ترجمة سامى نصر.
(٥) أ.هـ نانتهوم – المنهج العلمى ص٥١ .
(٦) الدكتور لطفى محمد عديلة – الفلسفة اليونانية ص٤٥ طبعة أولى ١٩٧١م.

عن المادة: الله، العقل، العالم، وكل واحد منها قد نشأ عنه علم بأكمله هي العلم الإلهي، وعلم النفس والعلم الطبيعي، ولها أساس مشترك هو علم الوجود[١].

كما أكد على أن موضوع الفلسفة العملية هو أفراد المجتمع في إدارة أنفسهم[٢]، وهي الأمور المتعلقة بما له علائق بالمادة، وقد نشأ عن كل واحد منها علم بأكمله فظهر علم الأخلاق، وعلم الاقتصاد وعلم السياسة، باعتبار أن موضوعها الأصلي هو الفرد والأسرة والمجتمع[٣].

وكلها تنطلق من أساس مشترك هو الفلسفة العملية بالمعنى العام، ومن ثم تميزت الفلسفة في مراحلها بالتنظيم الفني، مع الاتساق؛ لأنها تقوم على مبادئ مشتركة، يحكمها العقل البرهاني، أو الاستدلالي والحدسي أيضا[٤]، ويحكمها النقل المنزل عندنا نحن المسلمين.

لكن هذا الخصوص للموضوع لم يكن على وتيرة واحدة، أو حال ثابتة في كل العصور الفلسفية، أو سمة كل المدارس والمذاهب الفلسفية، وإنما كان الموضوع يختبئ حينا خلف الأخلاق مثلا، فتظهر الفلسفة الأخلاقية، أو يجيء مع علم الطبيعة، فتظهر الفلسفة الطبيعية، وأما إذا كان الموضوع خاصا بالقضايا المكونة للعلم الإلهي، فإنها تعرف باسم الفلسفة الإلهية[٥]، وكلما كان الموضوع الفلسفي متعلقا بشيء واحد على سبيل الخصوص، فإن الفلسفة هي الأخرى تكون خاصة في الموضوع على الأقل.

أجل انطلقت الفلسفة تبحث موضوعات عديدة، وكل جزئية من أي موضوع مطروح للدراسة، فإنه متى صار بإمكانها الابتعاد عن الأخريات، فإنها تسارع إلى الاستقلال والإمساك بهذا الغصن، وإطلاق اسم من الأسماء عليه، ومن ثم تعددت الفلسفات بتعدد موضوعاتها المختلفة[٦].

◈ **ربما يقال:** إن الخصوص في الموضوع الفلسفي ليس جديرا بأن تفرد له الصفحات؛ لأن المبادئ الكلية التي تسعى إليها الفلسفة لا يمكن اعتبارها ذات خصوصية، فكيف يمكن الجمع بين عمومية المبادئ الكلية، وخصوصية الموضوع المعرفي[٧].

☜ **والجواب** أن الخصوص في الموضوع الفلسفي، إنما هو باعتبار الدراسة والتناول، وكل تخصص في الدراسة لا يمثل نوعا من الخروج على القواعد العامة، أو المبادئ الكلية[٨]؛ لأن العقول البشرية

---

(١) الدكتور عزت قرني – مدخل إلى الفلسفة ص١٤ ط١/١٩٨١م.
(٢) الدكتور حسن محمد فاضل – دراسات في الفلسفة اليونانية ص٤٥ ط١/١٩٧١م.
(٣) الدكتور لطفي محمد عديلة – الفلسفة اليونانية ص٥٢ .
(٤) الدكتور صبحي رزق – الفلسفة والأخلاق ص٧٧ .
(٥) الأستاذ صبري حسنين صابر – ميادين الفلسفة ص١١٧ ط دار المعرفة ١٩٧٥م.
(٦) الدكتور حسن محمد فاضل – دراسات في الفلسفة اليونانية ص٥١ ط أولى الدار الجديدة ١٩٧٨م.
(٧) هذا التساؤل مما يمكن إيراده، وهو يجيء دائما على سبيل الاستشعار حينا، وعلى سبيل التراكيب التساؤلية أحيانا أخرى.
(٨) الدكتور: فوزي محمد عبالعظيم – اتجاهات الفلسفة القديمة والمعاصرة ص١٢١ ط١/١٩٦٢م.

فيها من القصور الكثير، وليس - بإمكانه مهما اتسعت مداركها - أن تتناول المبادئ الكلية كلها بالدراسة من ناحية فيها العموم المطلق[١].

كما أن عمومية المبادئ الكلية لا تمثل فاصلا بين موضوعات الدراسة، التي تأوى إليها الفلسفة، وبين ميادين الفلسفة التي تمثل طبيعة مستقلة في كل المبادئ العامة والميادين الفلسفية[٢].

أضف إلى ما سبق أن خصوص الموضوع في الفلسفة لا يعتبر تقسيما للمبادئ الفلسفية، بحيث يصير كل مبدأ منها جزيرة منعزلة، وإنما هو تقسيم التكامل الذى يؤدى في النهاية إلى إعادة صياغة الموضوعات الفلسفية على ناحية أكثر دقة، وأوفى بحثا، وذلك من سمات المباحث الفلسفية.

٢- تبادل المواقع بين المبادئ والجزئيات

من المعلوم أن كل موضوع معرفي يفيد العموم، فإنه يستقل به، بحيث يكون وصفا له أو اسما قائما عليه، وكذلك كل موضوع يفيد الخصوص، فإنه يرتبط به ارتباطا وثيقا، باعتبار أن العموم أو الخصوص الموضوعي، إنما يمثل اتجاها معرفيا، غير أن بعض المبادئ قد تتحول عند الدراسة إلى جزئيات مبحوثة، أو واقعة في ميدان البحث الفلسفي على ناحية تدريجية[٣]، تنتهي إلى الإمساك ببعض الجزئيات، بغية الوصول إلى قاعدة عامة كلية من ناحية الاستدلال عليها[٤]، أو توظيفها لخدمة المجتمع الإنساني، أو بعض أجزاء منه.

بمعنى أننا إذا بحثنا الوجود كمبدأ كلي، أو نظرية تمثل الجوانب الفلسفية مجتمعة، فلابد من تقسيم الدراسة فيه إلى نواح وجوانب عديدة:

الناحية الأولى: الآراء في نشأته

وقد جاءت في دراسات متعددة، وأشكال متباينة، حتى انتهت كلها إلى عدة قواعد صارت فيما بعد ممثلة لجملة الآراء الفلسفية، في تفسير الوجود، من حيث طبيعته. وهي:

* **أ- الوجود الواحدي**: وهو الذى يقوم على أن مادة الوجود هي مادة أو مبدأ واحد، كلي سواء أكان هو المادة أم الروح، وقد نشأت باقي الموجودات عنه، فهو الكلي وهي الجزئيات الخاصة به[٥].

---

(١) وهذا مما تشهد به العقول الصحيحة؛ لأن العقول ليس بإمكانها استيعاب كل العلوم المتزايدة في التنامي على وجه الكمال، وإنما لابد من التخصص، حتى يتحقق الإنجاز.

(٢) راجع في ذلك كتابنا: رياض الأشواق في الميتافيزيقا والأخلاق ص٨١.

(٣) راجع للدكتورة بثينة محمد جاد - المنهج العلمي ص١٧ وما بعدها، وكذلك طريق الفيلسوف ص٤٥ لنيقولا بردیائيف

(٤) ويقوم بهذا الدور أصول الفقة عندنا نحن المسلمين، كما يقوم به المنطق الكلاسيكي الذى يعتمد على الجمل اللغوية والتزامها القواعد المنطقية، والمنطق التجريبي الاستقرائي، الذى يقوم أصحابه على ناحية تنتهي إلى نتائج وقواعد كلية عامة، يمكن تطبيقها على الحالات الجزئية.

(٥) راجع تفصيلات ذلك في أسس الفلسفة للدكتور: توفيق الطويل؛ ونظرات في الفلسفة للدكتور هاشم عبدالعظيم، وكتابنا الإيمان بالغيب وأثره على الفكر الإسلامي، وكلها تناولت المدارس الفلسفية التي تمسكت بهذا التقسيم.

❊ **بـ .نوجود الاثنينى:** وهو ـدى يقوم عى أن مادة الوجود الأولى مكونة من مادة وروح معـــاً، وكل منهما لها طبيعة مستقلة، لكنها تتكامل فيما بينها على سبيل التجاذب الطبيعى، أو التدافـــع الذاتى. وطبقا لقدرة عليا[١].

❊ **جـ الوجود المتعدد:** وهو الذى يقوم على أن أصل الكون المادة والروح والعقل الفعال، أو العقـــل الكنى السارى فى الكون[٢].

الناحية الثانية: الآراء المتعلقة بحقيقة الوجود

ويعنون بها ما يتعلق بالوجود، لا من حيث الكلى والجزئى، أو المفرد والمتعدد، وإنما باعتبـــار أخر، مخالف لما سبق تماما، إنما تبحث الآراء المتعلقة بحقيقة الوجود من ناحيـــة الأبديـــة والأزليـــة وغيرهما.

وذلك يجىء فيما يلى:

❊ **أ. الأبدية:** هل هو قائم فى المستقبل لا يزول، ولا يتغير، باعتبار أن الأبد هو ما لا نهايـــة لـــه فى المستقبل، أم أن الأبد هو المكث الطويل فقط، وعلى أى منهما فقد كان بحث الوجود مرتبطـــا بكل منهما على ناحية من النواحى، التى انشغلت بها المباحث الفلسفية[٣].

❊ **بـ الأزلية:** هل هو قديم فى الماضى بقدم علته، أم بقدم عناصره، أم بقدمه الزمـــانى، أم القـــدم الذاتى، باعتبار أن الأزل هو القدم الماضى، ومن ثم تعددت المباحث الفلسفية فى تناول الوجـــود، باعتبار القدم والحدوث[٤]، وكانت لهم فى ذلك صولات وجولات كثر فيها الجدل، وتعـــددت الأحكام على ما هو معروض فى الكتب الفلسفية على ناحية تفصيلية.

❊ **جـ العمر الافتراضى (البداية والنهاية):-** وهى مدة عمر الكون، هل هى مليار سنة، أم أكـــثر أم أقل، وهى كلها افتراضات غير صحيحة، لكنها دلت على أن الكون أو الوجود كان هو شـــغل

---

(١) الدكتور صبرى حسن منصور – الفلسفة الطبيعية ص٧١ طبعة دار الثقافة ١٩٦٥م.

(٢) الدكتور حسن محمد فاضل – دراسات فى الفلسفة اليونانية ص٧١ .

(٣) راجع تفاصيل ذلك فى ميادين الفلسفة للأستاذ صبرى حسينى صابر ص٣٥ وما بعدها.

(٤) تعتبر مسألة قدم العالم أو حدوثه من المسائل التى أثارت الجدل داخل البيئة الإسلامية، حتى انتهت إلى إصدار أحكـــام الكفر على بعض من علماء أهل الإسلام، وهم ما قصدوا بالقدم مشاركة البارى فى خلقه أو صفاته، وإنما كانت لهـــم أفهام فى المسألة قائمة على تفهم النقل المنزل، ومحاولة التوفيق بين المنتج العقلى والنص النقلى، وقد عرضت لشىء مـــن ذلك بالتفصيل. [راجع كتابنا: أوراق منسية فى النصوص الفلسفية، وللدكتور رفقى زاهر – قضية التكفير عند الإمـــام الغزالى، وللدكتور عبدالمنعم شعبان: قضية البعث، وللدكتور صلاح عبدالعليم إبراهيـــم – الإنســـان بدايـــة ونهايـــة، والأخيرتين رسائل للدكتوراه بجامعة الأزهر – أصول الدين بالقاهرة]

الفلاسفة الأصيل[١]، بغية الوصول فيه إلى حل. قال تعالى: ﴿مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾[٢].

ولا شك أن كل ناحية مما مر ذكره يمكن إرجاعها إلى جانب بحثى، وهو المراد بالتقسيم فى تناول المبادئ الكلية، كما هو المعنى بالدراسة عندما يقال: إن الجوانب الجزئية تتبادل المواقع فى الدراسة مع المبادئ الكلية، ولكل من هذه الموضوعات أنصار لهم أدلة، وخصوم لهم العديد من الاعتراضات، لست فى مجال ذكرها أو الحديث عنها الآن.

الناحية الثالثة: الوجود بما هو موجود

وهذه الناحية تتعلق لا بكون الوجود مفردا أو مركبا، ولا بكون الوجود أبديا أو أزليا، إنما تختلف عن ذلك، حيث تجيء فى:

* **أ- ناحية الكائنات المتوافقة**:- ويقصد بها توافق العوالم القائمة فى المفاهيم، والمبادئ الكلية كالنباتية والحيوانية والجمادية والإنسانية، فإن كل مجموعة منها متوافقة مع أفرادها، لا تخرج عنها، فالنبات له سماته الخاصة، وكذلك الحال مع عالم الحيوان والجماد والإنسان أيضا[٣].

* **ب- ناحية الكائنات المتباينة**: ويقصد بها تداخل العناصر فى الوجود من غير اختلاط، فالنبات يقوم برعايته الإنسان، وكل ما كان من الكائنات المتباينة، يبحث فيه عن العلاقات التى تربط بين

---

(١) هذه مجرد افتراضات خيالية غير صحيحة، ولمزيد من التفاصيل راجع كتابنا: الإيمان بالغيب وأثره على الفكر الإسلامى

(٢) سورة الكهف – الآية ٥١ . ما أشهدتهم خلق السموات والأرض و لا خلق أنفسهم قيل الضمير عائد على إبليس وذريته أي لم أشاورهم في خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم بل خلقتهم على ما أردت وقيل ما أشهدت إبليس وذريته خلق السموات والأرض ولاخلق أنفسهم أي أنفس المشركين فكيف اتخذوهم أولياء من دوني وقيل الكناية في قوله: ما أشهدتهم ترجع إلى المشركين وإلى الناس بالجملة فتتضمن الآية الرد على طوائف المنجمين وأهل الطبائع والمتحكمين من الأطباء وسواهم من كل من ينخرط في هذه الأشياء وقال ابن عطية: إن الغرض المقصود أولا بالآية هم إبليس وذريته وبهذا الوجه يتجه الرد على الطوائف المذكورة وعلى الكهان والعرب والمعظمين للجن حين يقولون أعوذ بعزيز هذا الوادي إذ الجميع من هذه الفرق متعلقون بإبليس وذريته وهم أضلوا الجميع فهم المراد الأول بالمضلين وتندرج هذه الطوائف في معناهم، و لا خلق أنفسهم رد على الطبائعيين حيث زعموا أن الطبائع هي الفاعلة في النفوس وقرأ أبو جعفر ما أشهدناهم بالنون والألف على التعظيم الباقون بالتاء بدليل قوله ما كنت متخذ يعني ما استعنتهم على خلق السموات والأرض ولا شاورتهم وما كنت متخذ المضلين يعني الشياطين وقيل الكفار عضدا أي أعوانا يقال اعتضدت بفلان إذا استعنت به وتقويت والأصل فيه عضد اليد ثم يوضع موضع العون لأن اليد قوامها العضد يقال عضده وعاضده على كذا أعانه وأعزه. ومنه قوله سنشد عضدك بأخيك أي سنعينك بأخيك ولفظ العضد على جهة المثل والله سبحانه وتعالى لا يحتاج إلى عون أحد وخص المضلين بالذكر لزيادة الذم والتوبيخ. [تفسير القرطبي ج: ١١ ص: ٢/١]

(٣) الدكتور: فوزى الثروى زكريا – الفلسفة والمنطق ص١٥٧ طبعة أولى ١٩٥١م.

مكوناتها الأصلية[1] فقط، وهو طبيعة التفلسف الذى يوقف مفهومه على معرفة حقائق الأشياء، من غير اعتبار لشيء أخر.

* **جـ ناحية الكائنات المتشاركة**:- ويقصد بها تداخل الكائنات المتوافقة والمتباينة فى بعضها، عن طريق الاغتذاء تارة، كالحال مع الإنسان الذى يتغذى على بعض من لحوم الحيوان والنبات[2]،ويستفيد من الجماد فى لباسه وفراشه، فالفلسفة تبحث هذه الجوانب على ناحية فنية.

* **د ناحية الكائنات التى تفرز صورها العلوم المستحدثة**، وتقوم به الهندسة الوراثية فى جانب منه الآن، كالإنسان الآلى والهندسة البيوكيميائية، والمستحدثات العلمية الحديثة[3]، من شبكة المعلومات

---

(١) الدكتور صبرى حسن منصور – الفلسفة الطبيعية ص٩٨ ط٢/١٩٨٣م.

(٢) التناسخ هو : « عبارة عن تعلق الروح بالبدن، بعد المفارقة حيث تنتقل من بدنها الأول إلى بدن آخر، من غير تخلل زمان بين التعلقين للتعشق الذاتى بين الروح والجسد » [العلامة عبدالقاهر الجرجانى – التعريفات ص٦١]، وعلى هذا فالتناسخية هم الذين يقولون بانتقال الأرواح وتبدلها على الأبدان، بحيث تتوارد على البدن الواحد عدة أرواح، فإن كانت السعادة هى الغاية – فإن الروح تتعلق بالبدن رقيا، وإن كانت الأخرى ؛ انقلبت دونيا، فتعلقت بجسم حيوان مقبول أو مرذول، حسب إمكانيات الروح وما عملته[راجع كتابنا: الغزاليات فى النبوات ص٤٤٩]ويرى العلامة البغدادى أن التناسخية أصناف أربعة، وكلها يجمعها مذهب واحد، فيقول « القائلون بالتناسخ أصناف، صنف من الفلاسفة، وصنف من السُّمَّنية، وهذان الصنفان كانا قبل دولة الإسلام، وصنفان آخران ظهرا فى دولة الإسلام: أحدهما من جملة القدرية، والأخر من جملة الرافضة الغالية » [الإمام البغدادى – الفرق بين الفرق ص٢٠٣]، وبهذا فإن العلامة البغدادى قد ذكر أنهم ليسوا قوما بعينه، ولا طائفة بذاتها، وإنما هو فكر يلتف حوله من تفاعلوا معه، واستراحوا فى أحضانه، وكل من يعتنق نفس الأفكار يوصف بأنه تناسخى، بحكم الاعتقاد والفكر الغالب [راجع كتابنا- الغزاليات فى النبوات ص٤٤٩]ومن أنواع : التناسخ الروحى ومعناه: « أن الأرواح يمكنها تبادل الأجساد، فإذا كانت الروح طيبة، وهى فى جسم حيوان، أمكنها الترقى، حتى تصل إلى الحد الذى تكون به روحاً لإنسان أعلى من الحيوان، وتظل هكذا ترقى كلما كانت صالحة. أما إذا كانت روحا غير طيبة، وهى فى جسد إنسان، فإنها لا تبقى فيه، بل تنزل عنه إلى روح حيوان، كالكلب أو الخنزير، وهكذا فإنها تظل ترتقى، وتهبط طالما كانت فى أسرى الخير والشر ». [العلامة الشهرستانى – الملل والنحل ج٢ ص١١٣ – تحقيق الأستاذ عبدالعزيز محمد الوكيل ط الحلبى]، « وهذا التناسخ باطل شرعا؛ لأن الله تعالى خلق لكل جسد روحاً يتعلق بها، وتدبره، فإذا خرجت الروح وقعت الوفاة، وتحقق الموت والآيات القرآنية والأحاديث النبوية فى هذا الشأن أكثر من أن تحصى، وكلها دالة على أن الروح لكل جسم تختص به وحده ». [العلامة السعد التفتازانى – شرح المقاصد ج٥ ص٨٨ – تحقيق الدكتور عبدالرحمن عميرة] كما أن هناك نوعا آخر من التناسخ، ألا وهو التناسخ الجسدى، ومعناه « أن أجسادا نمت فى الماضى من إنسان أو حيوان أو نبات، ثم حدث لها هذا الذى يحدث، وهو الموت والبلى، ثم العود مرة أخرى إلى مادة التراب، التى كانت الأصل الأول، وحينئذ تختلط المادة الترابية، التى ظلت على أصلها مع المادة الترابية، التى تحولت من تراب إلى إنسان، ثم عادت إلى التراب مرة أخرى. وهذا التناسخ الجسدى أمر طبيعى، جعله الله تعالى فى الكائنات الحية، ولا يتنافى أبدا مع البعث القائم على الأجزاء الأصلية لكل إنسان والشرع الشريف لم ينكره، بل ربما ظواهره تؤيده وتنبه إليه ».[العلامة الشهرستانى – الملل والنحل ج٢ ص٢٢٥]

(٣) راجع كتابنا : أوراق متناثرة فى التيارات المعاصرة ص٢١ وما بعدها.

المختلفة، وما كان فى مجال البحث العلمى، سواء أكان فى مجال البيولوجيا وعلم الأحياء، أم كان فى مجال الصناعة، وقد يجيء مع الكائنات المتخلقة من عناصر أولية فى عالم النبات، أو الحيوان، وهو ما يعرف باسم الاستنساخ أو التهجين الوراثى(١).

إذن موضوع الفلسفة لم يقف عند خال واحدة، وإنما كان يتسع فيشمل كل الموضوعات التى يمكن للعقل أن يسير فيها، ويحاول التعرف عليها، دون قيود عليه، يستوى فى ذلك أن يكون الموضوع متعلقا بالموجودات القائمة فى عالم الشهادة، أم القائمة فى عالم الغيب، ومن ثم يكون الموضوع متسعا، متى كانت العوامل المحيطة بالفيلسوف تسمح بذلك.

وقد يضيق الموضوع إلى أبعد حد، بحيث لا يكون الاشتغال إلا بجانب معرفى واحد، يضيق إلى أبعدى مدى، يكون الفلسفة هى الداعية إليه، كما تكون هو ذاته المقصود بعمل الفيلسوف دون سواه، متى فرضت على الفلسفة والفلاسفة القيود، إذن المرجع فى تناول الفلسفة موضوعا بعينه أو موضوعات متسعة، إنما هو العوامل المحيطة بالفيلسوف، سواء أكانت سياسية أم دينية، وسواء أكانت طبيعية أم قائمة فى ذات الموضوعات المتناولة ذاتها(٢).

ويمكن القول بأن موضوع الفلسفة ارتبط فى أغلب الأحيان بتصنيف العلوم على وجه العموم، حيث إن العلوم الفلسفية أربعة أنواع(٣) باعتبار التصنيف.

☆**الأول: العلوم التربوية فى الرياضيات**، وتتكون من:

١- الحساب. ٢- الهندسة. ٣- الفلك. ٤- الموسيقى(٤).

☆**الثانى : العلوم المنطقية**، تتكون من:-

١- فن الشعر. ٢- فن الريطوريقا - الخطابة. ٣- فن المقالة والمناقشة.
٤- فن التحليل وهى الشرح والتفسير. ٥- فن السفسطة - أسلوب الحديث.

☆**الثالث: العلوم الطبيعية**، وتتكون من :-

١- الأسس المادية للموضوع والشكل والزمن والمسافة والحركة. ٢- السماء والأرض.
٣- الكون والفساد. ٤- الظواهر الكونية. ٥- علم المعارف.
٦- علم النبات. ٧- علم الحيوان.

---

(١) الدكتور محسن محمد أبو هدية - الاستنساخ النباتى ص١٣ ط الدار الحديثة ١٩٩٨م.

(٢) راجع كتابنا: التفلسف مفهومه ودوافعه وخصائصه، فقد ذكرت هذه المسائل هناك بالتفصيل.

(٣) فردريك روزنتال - التراث القديم فى الحضارة الإسلامية ص١١١ .

(٤) وكل علم من هذه العلوم له أصول تتم دراسته من خلالها وقواعد يقوم عليها، ويحتكم إليه عند دراستها، وبالتالى فحينما يقال: إن موضوع الفلسفة يضيق، فالمقصود انحصاره فى إطار علم بعينه.

☆ **الرابع: العلوم الميتافيزيقية:**

١ – التعريف بالخالق. ٢– الكائنات الروحية.
٣– موضوعات تتعلق بالروح الكونية والفردية. ٤ – الهداية النبوية. ٥– البعث[1].

وتتضمن الفلسفة معرفة الموضوعات جميعا بما هى عليه، وفق تحديدها، ابتداء من الأجناس العليا، وحتى الخصائص الفردية، وكذلك معرفة الأشياء القدسية = الميتافيزيقا[2].

◈ **لكن وربما يقال:** هل هناك عوامل هى التى تفرض على الفلسفة الانحصار داخل إطار موضوع بعينه لا تتخطاه، أو هى التى تدفعها إلى اجتياز كل العقبات، فتشمل كل العلوم على سبيل البحث والتوجيه، أم أن ذلك طبيعة الفلسفة ذاتها، وبعبارة أخرى: يمكن أن يتساءل المرء: هل الانكماشات التى تواجه الفلسفة فى موضوعها تكون من طبيعتها الذاتية، أم ناشئة عن عوامل أخرى خارجية تكون لها السيطرة عليها.

☜ **والجواب:** أن الفيلسوف مرتبط بالعديد من العوامل الخارجية والذاتية، كما أن البواعث على التفكير هى الأخرى، قد تنشط فى جانب حينا، بينما تختفى أو تتلاشى فى جانب حينا آخر[3]، وكلما كان الفيلسوف متمكنا من قدراته الذاتية، وفى تآلف مع العوامل الخارجية، ولديه رغبة فى الانطلاق نحو المراقى والتحليق فى العوالى؛ فإن موضوع الفلسفة يتسع إلى حد كبير.

أما إذا عاندته الظروف الطبيعية، وعجز عن قهرها، أو خاصمته العوامل الخارجية، و لم يتمكن من إزاحة عوائقها، أو كانت قدراته العقلية بحاجة إلى المزيد من العناية، والأكثر من الرعاية، أو كانت تنشد المزيد من الثقافة والبحث العلمى، فإن موضوع البحث الفلسفى بالنسبة له سيكون فى أضيق دائرة، طبقا لما يتناسب مع الظروف الخاصة والإمكانيات الذاتية[4].

على أن هناك أمرا مهما، يجب الالتفات إليه، وهو أن خصوصية الموضوع فى الفلسفة أو عمومه، لا تخرج عن كونها إطارا فنيا من الأطر التى تهتم بها الفلسفة من ناحية الدراسة فقط، إذ ليس من اليسير على المفكر إزاحة جزء من ثقافته الصحيحة، أو إبعادها عن ميدان الاحتكاك المباشر

---

(١) فردريك روزنتال – التراث القديم فى الحضارة الإسلامية ص١١٤ .
(٢) وبالتالى فإن الميتافيزيقا لا تكون مساوية للفلسفة، وإنما هى جزء منها؛ لأنها داخلة فيها من ناحية، كما أنها تتعلق بمباحث هى نوع من العلوم التى تشغلها الفلسفة من ناحية أخرى.
(٣) الدكتور فوزى محمد ثابت – الفيلسوف والفلسفة ص٥٧ طبعة أولى ١٩٨٨م.
(٤) طالما كان الفيلسوف متأثرا بالعوامل المحيطة به، فمن الطبيعى أن يرتد ذلك إلى ثقافته، ومنها الفلسفة، بل أنها تكون أكثر تأثرا بالظروف المحيطة بالفيلسوف. [راجع فى ذلك للدكتور صبحى محمد حسن – الفيلسوف والفلسفة ص٣٥ ط أولى ١٩٨١م.

والتجربة الواقعية[1]، والاختبار المتواصل لها، بغية الاطمئنان على صحتها، واستمرار المحافظة على سلامتها، وإنما لابد له من ابتلاء جزء من ثقافته عن طريق الشك فيها، أو اختبار صحة معلوماته.

في نفس الوقت فلا يكون المرء مفكرا عميقا، أو فيلسوفا متكاملا، إلا إذا انشغل تفكيره بالعالم المشاهد والغائب معا، ونظر للمشكلات المعرفية نظرة كلية في المفاهيم، متخصصة في التناول؛ لأنه لو لم يكن صاحب تفكير عميق، لم يكن فيلسوفا متكاملا[2]، ومن شأن كل مفكر أن يرتب أفكاره بطريقة عملية، كما يصوغها في قوالب فنية، تناسب طبيعة الموضوع الذي يبحثه، كما يستخدم الوسائل التي تعينه على إبداء نتائج صحيحة، أو تقوده إلى اكتشاف حلول واقعية لمشكلات التي تنغص مضجعه، وتفزع أمنه.

بيد أنني أنوه إلى حقيقة هامة — من وجهة نظري — وهي أن اختلاف كل مفكر أو جملة من مفكرين في طريقة تناول موضوع من الموضوعات،لا يعني أنها اختلافات في الموضوع المطروح، حيث تتعدد الموضوعات الفلسفية بتعدد المفكرين والفلاسفة؛ لأن تعدد الوسائل وطرائق البحث، لا يلزم معه تعدد في الموضوعات على ناحية من النواحي.

ميادين الفلسفة

يذهب الكثيرون من الدارسين إلى أن موضوع الفلسفة هو الذي يمهد لميدانها، ومن ثم فكل موضوع فلسفي، إنما هو علامة كاشفة عن ميدان فلسفي متميز، بينما يذهب آخرون إلى أن موضوعات الفلسفة تغاير ميادينها، مغايرة تؤكد استقلال كل منهما - الميادين والموضوعات — عن الآخر، باعتبارات مختلفة، ويستدل أصحاب كل رأي بأدلة.

ونظراً لهذه الاختلافات في المنظور من ناحية الموضوعات والميادين، فقد رأيت أن عملية التوفيق بينهما ممكنة، باعتبار أن بعضها داخل في نطاق عمومية الميادين، بينما يمكن حمل الثاني على خصوصيتها، وهاك مجملا للآراء في المسألة:

الأول: أصحاب عموم الميادين

يرى أصحاب هذا الاتجاه، أن للفلسفة العامة ميادين عامة، تقوم عليها المباحث الفلسفية، يمكن تسميتها بالنظريات الفلسفية الأساسية حينا، أو العامة حينا آخر، وهي :

---

(١) راجع كتابنا: خواطر حثيثة في الفلسفة الحديثة ص٧١ ط٢.

(٢) الدكتور فوزي محمد ثابت — الفيلسوف والفلسفة ص٧٢ ط٢/ ١٩٦٣م.

١ـ نظرية الوجود ـ الأنطولوجيا ـ :

وهى التى تبحث فى الوجود من حيث هو، كما تبحث فى طبيعة الوجود، باعتبار المادة، وما وراء المادة[١]، وما يلحق بكل منهما من الثبات أو التغير، ويأتى بعد أى منهما على سبيل التفسير والتوضيح، سواء باعتبار القدم أم باعتبار الحدوث، وسواء باعتبار النقل والمشيئة، أم باعتبار القدرة والعمل الإلهى[٢].

وتعتبر نظرية الوجود من أسبق المشكلات الفلسفية وجودا، وأكثرها جدلا، وأشدها أثراً؛ لأنها التى حركت العقل الإنسانى فى كل اتجاه، ودفعته إلى بحثها فى نوع من السرعة المتأنية حينا، أو المندفعة فى بعض الأحيان[٣]، وما تزال هذه المشكلة تطل برأسها فى أفكار كل من الماديين الأولين والطبيعيين المتأخرين، بل إنها تجاوزت بلاد اليونان إلى بابل والصين والهند، وكانت سابقة عليهم فى مصر أبان حكم ما قبل الأسر، وهو ما يمثل حقبة زمانية، امتدت قرابة أربعة عشر ألف قرن من الزمان[٤]، وما تزال أصداء البحث فى هذه النظرية تتوالى، ويبدو أنها ستظل مادام البحث الفلسفى لم ينقطع، كما لم يقنع الفلاسفة بما حصل عندهم من نتائج.

٢ـ نظرية المعرفة ـ الأكسيمولوجيا ـ :

وهى التى تبحث فى المعارف والعلوم الإنسانية، من حيث البداهة والاكتساب، من ناحية اليقين أو الظن، وقد احتاج ذلك بحث مصدر المعرفة، بغية التعرف على ما إذا كان هو الحواس الخمس الظاهرة: ١- السمع. ٢- البصر. ٣- الشم. ٤- الذوق. ٥- اللمس، وتسمى المعرفة الحسية. قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ[٥] لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[٦].

---

(١) راجع كتابنا: قضايا حبيسة فى الفلسفة الحديثة ص٩٨ ط الرابعة ٢٠٠١م.

(٢) الدكتور صبرى حسن سالم – الفلسفة والميتافيزيقا ص٥٣ ط١/١٩٧٧م.

(٣) راجع كتابنا: رياض الأشواق فى الميتافيزيقا والأخلاق ص٩٣ .

(٤) الدكتور يوسف محمد ثروت – الفلسفة العامة ص٥٣ ط المشهد/١٩٧٨م.

(٥) يقول الحافظ بن كثير – رحمه الله – : « والأفئدة هى العقول التى مركزها القلب على الصحيح، وقيل: الدماغ، والعقل به يميز بين الأشياء ضارها ونافعها ».[تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ٢ ص٧٩] ويقول الشيخ الألوسى: « فى تقديم السمع والبصر على الأفئدة المشار بها إلى العقل، لتقديم الظاهر على الباطن، أو لأن لهما مدخلاً فى إدراكه فى الجملة، بل هما من خدمه، والخدم تتقدم بين يدى السادة، وكثير من السنن أمر بتقديمها على فروض العبادات ».[روح المعانى للألوسى – جـ١٤ ص٢٠٢ – طبعة دار الفكر، والألوسى هو شهاب الدين السيد محمود أفندى الألوسى. ولد سنة ١٢١٧هـ فى جانب الكرخ من بغداد، كان محدثاً ومفسراً وأصوليا فقيهاً، اشتغل بالتدريس والتأليف، وتراث المذهب الحنفى. توفى سنة ١٢٧٠هـ . (التفسير والمفسرون) ط الذهبى جـ١ ص٣٥٢ – دار الكتب الحديثة مصر – الطبعة الثانية]

(٦) سورة النحل – الآية ٧٨ .

ويقول الإمام الفخر الرازى عند بيانه لهذه الآية : « واعلم أن ذكرها ههنا تنبيهاً على دقيقة لطيفة، كأنه تعالى قال: أعطيتكم هذه الإعطاءات الثلاثة مع ما فيها من هذه القوى الشريفة، لكنكم ضيعتموها، فلم تقبلوا ما سمعتموه، ولا اعتبرتم بما أبصرتموه، ولا تأملتم فى عاقبة ما عقلتموه، فكأنكم ضيعتم هذه النعم، وأفسدتم هذه المواهب. فلهذا قال: ﴿ قليلا ما تشكرون ﴾ وذلك لأن شكر الله تعالى هو أن تُصرف هذه النعمة إلى وجه رضاه، وأنتم لما صرفتم السمع والبصر والعقل، لا إلى طلب مرضاته، فأنتم ما شكرتم نعمه البتة »[١] .

أم كان المصدر هو القدرات العقلية المتميزة، وتسمى المعرفة العقلية؛ وجاء حديث القرآن الكريم عنها فى آيات عديدة، من ذلك قوله تعالى :: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى﴾[٢]. وقوله تعالى: ﴿ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[٣]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ ﴾[٤].

أم كان المصدر هو الإلهام الإلهى، والعلم اللدنى[٥]، الذى يجيء الإنسان المؤمن التقى الصالح كنوع من الإلهام، وتسمى المعرفة الإلهامية أو اللدنية لقوله تعالى ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا* قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾[٦].

﴿۞﴾ **يقول الإمام الفخر الرازى:** « إن هذه الآيات تدل على أن موسى عليه السلام راعى أنواعاً من الأدب واللطف عندما أراد أن يتعلم من الخضر، حيث إنه جعل نفسه تبعا له؛ لأنه قال : (هل أتبعك)، واستأذن فى إثبات هذه التبعية، فكأنه قال: هل تأذن لى أن أجعل نفسى تبعا لك؟ وهذه مبالغة عظيمة فى التواضع، وقوله تعالى : ﴿ على أن تعلمنى ﴾ إقرار له على نفسه بالجهل، وعلى أستاذه بالعلم، وقوله: ﴿ مما علمت ﴾ وصيغة من للتبعيض، فطلب منه تعليم بعض ما علمه الله، وهذا أيضا مشعر بالتواضع، كأنه يقول: لا أطلب منك أن تجعلنى مساويا فى العلم لك، بل أطلب

---

(١) الإمام الفخر الرازى - مفاتيح الغيب - جـ١٥ ص٦٣٧

(٢) سورة طه – الآية ٥٤ . قال الإمام الفخر الرازى - رحمه الله - : « أى لأهل العقول، والأقرب أن للنهى مزية على العقل، والنهى لا يقال إلاّ فيمن له عقل وانتهى به عن القبائح »[مفاتيح الغيب - للعلامة الفخرالرازى - جـ١١ ص٦٧]

(٣) سورة البقرة - الآية ١٦٤ .

(٤) سورة الروم – الآية ٢٢ .

(٥) العلم اللدنى : ويسمى أيضا العلم الوهبى؛ لأنه يأتى للإنسان بعد اكتمال عقله من غير أسباب تباشر، ولا وسائل تحصل، وربما هو المعنى بقوله تعالى: ﴿ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ سورة البقرة الآية ٢٨٢ . (راجع فى هذا الشأن : التعريفات للعلامة الجرجانى ص١٣٦).

(٦) سورة الكهف - الآيات ٦٤/٦٦ .

منك أن تعطيني جزءاً من أجزاء علمك، كما يطلب الفقير من الغني أن يدفع إليه جزءاً من أجزاء ماله »[١]. على سبيل الترفق به، والإحسان له.

أم كان المصدر هو النقل المنزل من قبل الله تعالى – القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة الصحيحة – وهى المعرفة الوحيية أو النقلية[٢].

كما أنها تبحث حدود ما ينبغى معرفته، وما لا يجب البحث فيه، وكيفية التفرقة بين كل منهما، وما إذا كان المبحوث عنه مما هو مسكوت عنه من قبل الله تعالى، منهى عن البحث فيه، أم

---

(١) العلامة الفخر الرازى – مفاتيح الغيب – جـ١٠ ص٦٥٢/٦٥٣ بتصرف . وفى السنة النبوية الصحيحة عن رسول الله قال: « بينما موسى، عليه السلام، في قومه يذكرهم بأيام الله. (وأيام الله نعماؤه وبلاؤه). إذ قال فى نفسه: ما أعلم في الأرض رجلا خيرا أو أعلم مني. قال فأوحى الله إليه. إني أعلم بالخير منه. أو عند من هو. إن في الأرض رجلا هو أعلم منك. قال: يا رب! فدلني عليه. قال فقيل له: تزود حوتا مالحا. فإنه حيث تفقد الحوت. قال فانطلق هو وفتاه حتى انتهيا إلى الصخرة. فعمي عليه. فانطلق وترك فتاه. فاضطرب الحوت في الماء. فجعل لا يلتئم عليه. صار مثل الكوة. قال فقال فتاه: ألا ألحق نبي الله فأخبره؟ قال فنسي. فلما تجاوزا قال لفتاه: آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا(سورة الكهف – من الآية ٦٢) قال ولم يصبهم نصب حتى تجاوزا. قال فتذكر قال: أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت. وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره. واتخذ سبيله في البحر عجبا. قال ذلك ما كنا نبغي فارتدا على آثارهما قصصا(١). فأراه مكان الحوت. قال: ههنا وصف لي. قال فذهب يلتمس فإذا هو بالخضر مسجى ثوبا، مستلقيا على القفا. أو قال على حلاوة القفا. قال: السلام عليكم. فكشف الثوب عن وجهه قال: وعليكم السلام. من أنت؟ قال: موسى. قال: ومن موسى؟ قال: موسى بني إسرائيل. قال: مجيء ما جاء بك؟ قال: جئت لتعلمني مما علمت رشدا. قال: إنك لن تستطيع معي صبرا وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا شيء أمرت به أن أفعله إذا رأيته لم تصبر قال ستجدني إن شاء الله صابرا ولا أعصي لك أمرا قال فان اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها قال انتحى عليها قال له موسى عليه السلام أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمرا قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا فانطلقا حتى إذا لقيا غلمانا يلعبون قال فانطلق إلى أحدهم بادي الرأي فقتله فذعر عندها موسى عليه السلام ذعرة منكرة قال أقتلت نفسا زاكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند هذا المكان رحمة الله علينا وعلى موسى لولا أنه عجل لرأى العجب ولكنه أخذته من صاحبه ذمامة قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذرا ولو صبر لرأى العجب قال وكان إذا ذكر أحدا من الأنبياء بدأ بنفسه رحمة الله علينا وعلى أخي كذا رحمة الله علينا فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية لئاما فطافا في المجالس استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه قال لو شئت لاتخذت عليه أجرا قال هذا فراق بيني وبينك وأخذ بثوبه قال سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر إلى آخر الآية فإذا جاء الذي يسخرها وجدها منخرقة فتجاوزها فأصلحوها بخشبة وأما الغلام فطبع يوم طبع كافرا وكان أبواه قد عطفا عليه فلو أنه أدرك أرهقهما طغيانا وكفرا فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته إلى آخر الآية».[الإمام مسلم – صحيح مسلم – باب من فضائل الخضر، عليه السلام. في الحديث رقم: ١٧٢ – (٢٣٨٠)، ١٧٠ – (٢٣٨٠) – ج٤ ص١٨٥٠/١٨٥١

(٢) والمعرفة النقلية هى مصدر المعرفة الوحيد اليقيني؛ لأنها تنزيل من الله تعالى المصدق لها جل علاه.

هو ممكن، ويقع التحاور فيه والبحث عنه، ففى الحديث الشريف عن أبى ثعلبة الخشنى(١) أن النبى ﷺ قال: «إن الله حد حدوداً فلا تعتدوها ، وفرض لكم فرائض فلا تضيعوها، وحرم أشياء فلا تنتهكوها ، وترك أشياء فى غير نسيان رحمة لكم فاقبلوها ولا تبحثوا عنها»(٢). وعنه ﷺ : « إن الله عز وجل فرض فرائض فلا تضيعوها وحد حدودا فلا تعتدوها وحرم أشياء فلا تقربوها وترك أشياء غير نسيان رحمة لكم فلا تبحثوا عنها »(٣).

وعن أبى الدرداء(٤) عن النبى قال « إن الله عز وجل افترض فرائض فلا تضيعوها وحد حدودا فلا تعتدوها، وسكت عن كثير من غير نسيان، فلا تكلفوها رحمة لكم فاقبلوها »(٥). وعنه صلى

---

(١) أبو ثعلبة الخشني صحابي مشهور معروف بكنيته واختلف في اسمه اختلافا كثيرا .وسكن أبو ثعلبة الشام وقيل حمص روى عنه أبو إدريس الخولاني وأبو أمية الشعباني وأبو أسماء الرحبي وسعيد بن المسيب وجبير بن نفير وأبو قلابة ومكحول وآخرون ومنهم من لم يدركه قال بن البرقي تبعا لابن الكلبي كان ممن بايع تحت الشجرة وضرب له بسهمه في خيبر وأرسله النبي صلى الله عليه وسلم إلى قومه فأسلموا وأخرج بن سعد بسند له إلى محجن بن وهب قال قدم أبو ثعلبة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتجهز إلى خيبر فأسلم وخرج معه فشهدها ثم قدم بعد ذلك سبعة نفر من قومه فأسلموا ونزلوا عليه قال أبو الحسن بن سميع بلغني أنه كان أقدم إسلاما من أبي هريرة وعاش بعد النبي صلى الله عليه وسلم ولم يقاتل بصفين مع أحد الفريقين ومات في أول خلافة معاوية كذا قال والمعروف خلافه وقال أبو علي الخولاني كان ينزل داريا وأخرج بن عساكر في ترجمته من طريق محفوظ بن علقمة عن ابن عائذ قال قال ناشرة بن سمي ما رأينا أصدق حديثا من أبي ثعلبة لقد صدقنا حديثه في أفنية الأودية قال علي وكان لا يأتي عليه ليلة إلا خرج ينظر إلى الأسماء فينظر كيف هي ثم يرجع فيسجد وعن أبي الزاهرية قال قال أبو ثعلبة إني لأرجو الله ألا يخنقني كما أراكم تخنقون عند الموت قال فبينما هو يصلي في جوف الليل قبض وهو ساجد فرأت ابنته في النوم أن أباها قد مات فاستيقظت فزعة فنادت أين أبي فقيل لها في مصلاه فنادته فلم يجبها فأتته فوجدته ساجدا فأنبهته فحركته فسقط ميتا قال أبو عبيد وابن سعد وخليفة بن خياط وهارون الحمال وأبو حسان الزيادي مات سنة خمس وسبعين. راجع الإصابة لابن حجر العسقلاني - القسم الأول [من ذُكِرَ له صحبة، وبيان ذلك]. الفصل:٩٦٥٨ ص٥٨/٦٠ .

(٢) الإمام الشوكانى - فتح القدير ج٢ ص١٢٠ .

(٣) العلامة المتقى الهندى - كنز العمال - الباب الثاني: في الاعتصام بالكتاب والسنة - الحديث رقم:٩٨٠ - وذكره العلامة أبو نعيم الأصفهانى - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ج٩ ص١٧ دار الكتب العلمية - بيروت .

(٤) أبو الدرداء : هو الصحابى الجليل ؛ عويمر أبو الدرداء مشهور بكنيته وباسمه جميعا واختلف في اسمه فقيل هو عامر وعويمر . أسلم يوم بدر وشهد أحدا وأبلى فيها قال صفوان بن عمرو عن شريح بن عبيد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد نعم الفارس عويمر وقال هو حكيم أمتي . روى عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن زيد بن ثابت وعائشة وأبي أمامة وفضالة بن عبيد روى عنه ابنه بلال وزوجته أم الدرداء وأبو إدريس الخولاني وسويد بن غفلة وجبير بن نفير وزيد بن وهب وعلقمة بن قيس وآخرون قال أبو شهر عن سعيد بن عبدالعزيز مات أبو الدرداء وكعب الأحبار لسنتين بقيتا من خلافة عثمان وقال الواقدي وجماعة مات سنة اثنتين وثلاثين وقال بن عبدالبر إنه مات بعد صفين والأصح عند أصحاب الحديث أنه مات في خلافة عثمان. راجع الاصابة لابن حجر - العين بعدها الواو. رقم : ٦١٢١

(٥) العلامة المتقى الهندى فى كنز العمال - الباب الثاني. في الاعتصام بالكتاب والسنة - الحديث رقم: ٩٨١

الله عليه وسلم أنه قال: « إن الله افترض عليكم فرائض فلا تضيعوها، وحد حدودا فلا تقربوها (تتعدوها) وحرم محارم فلا تنهكوها، وسكت عن كثير من غير نسيان فلا تكلفوها، رحمة من الله فاقبلوها، ألا إن القدر خيره وشره، ضره ونفعه إلى الله، ليس إلى العبد تفويض ولا مشيئة »[١].

أم كانت المعرفة متعلقة بما هو أمر الله عز وجل بتجنب البحث فيه، لعدم قدرة العقول على بلوغ شيء منه لقوله تعالى ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلا قَلِيلا﴾[٢].

۞ **يقول الشيخ الشعراوى** – رحمه الله – « إن معرفتنا بالروح تدخل بنا فى نطاق ما استأثر الله ﷻ بعلمه، حيث يقول: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾[٣]، يعنى من المتعلقات الخصوصية لله. فإن إرادة الخالق ﷻ أن تكون بنا حياة تلتحم الروح بالبدن، فتكون الحياة ...، فلا تحيى المادة بلا روح، ولا تظهر الروح إلا فى المادة. وحين تلتقى الروح بالمادة؛ توجد النفس »[٤].

فى نفس الوقت فإن جوانب المعرفة لا تتوقف عند مجرد المصدر والموضوع، وإنما تتجاوز ذلك إلى البحث فى كونها ممكنة أم مستحيلة، وكذلك يقينية أم ظنية، وفوق ذلك فإن الفوائد المترتبة عليها قد ضارعت المصدر والموضوع فى اجتذاب الدارسين إليها، ومحاولة كشف أسرارها، وإزالة جوانب الغموض عنها[٥].

---

(١) العلامة المتقى الهندى فى كنز العمال – الباب الثاني: في الاعتصام بالكتاب والسنة – الحديث رقم: ١٦٥٦ – عن أبي الدرداء .

(٢) سورة الإسراء – الآية ٨٥ . يزعم حكماء اليونان أن الروح أقرب إلى عنصر النور، وأن النفس أقرب إلى عنصر الهواء والتراب. والروح أرفع من النفس فى درجات الوجود، ودرجات الحياة عند أكثر حكماء اليونان، فمنهم من ينسب النفس إلى الكائنات العضوية جميعاً، ومنها كل نبات ينمو ويلد، ويوصف ببعض صفات الأحياء، فمعنى النفس عندهم على هذه الصفة مرادف لمعنى الحركة الحيوية، أو معنى القوة التى تجعل أعضاء الجسم الحي مخالفة للأجسام المادية فى قابلية النمو والتوليد.[الأستاذ عباس محمود العقاد – الإنسان فى القرآن – ص٢٧]

(٣) سورة الإسراء – الآية ٨٥ .

(٤) كتاب: النفس فى القرآن ص٥/٦ لأصحاب الفضيلة: الشيخ الشعراوى ، والشيخ محمد الغزالى، والدكتور أحمد عمر هاشم، والدكتور جمال ماضى أبو العزايم – الطبعة الثانية – طبعة دار فيصل للتأليف والترجمة والنشر (بتصرف) . وهذا الموضوع تحت عنوان (ما هى النفس؟ هل هى الروح؟ أم هما مختلفان؟) :

(٥) راجع للدكتور محمد غلاب – نظرية المعرفة عند مفكرى المسلمين، فقد تناول هذه المصادر مع التفصيل الذى تحتاجه الدراسات التى يقع فيها التخصص الفلسفى.

٢. نظرية القيم – الابستمولوجيا:

وهى التى تعنى بالقيم الإيجابية والسلبية، كالصدق والكذب والخير والشر، والسعادة والشقاء، والجمال والقبح، والعدل والظلم[١]، أو بعبارة أخرى هى التى تكون موضوعاتها الفضائل أو الرذائل، وهى حين تبحث الفضائل، إنما تتخذها صورة للممارسة التى يجب أن تسود المجتمع الإنسانى كله، وحيث تبحث الرذائل، فإنما لتدفع أصحاب العقول الصحيحة بعيدا عن ممارستها وتبعدها عن ساحة القبول، حتى تحقق للمجتمع الإنسانى الخلو منها، أو الابتعاد عنها[٢].

من ثم ظهرت المدارس الأخلاقية المجردة، كالحال مع أصحاب الأخلاق النظرية[٣]، كما أظهرت الحياة الروحية التى تدفع إلى ممارسة الجانب العملى فى صياغته النظرية، أو بعبارة أخرى تحويل الجانب النظرى الإيجابى فى القيم إلى دافع عملى يحقق مصالح الإنسان.

الثانى: أصحاب خصوصية الميادين

وهم الذين يذهبون إلى أن للفلسفة العامة ميادين خاصة تقوم عليها جزئيات المباحث الفلسفية[٤]، إذ العبرة عندهم بالجزئيات المبحوثة، أو القابلة للبحث بغض النظر عن التسمية، وبالتالى يمكن تسمية هذه المباحث باسم العناوين أو الموضوعات التى تبحثها دون تحديد لاسم معين، أو موضوع بذاته؛ لأنها ميادين معينة يتجه إليها الباحث حين يريد تأسيس علم من العلوم أو يضع مبادئ له[٥]، أو يسارع ببناء جملة من القواعد الصحيحة، بغرض إقامة علم عليها، كالحال مع فلسفة العلوم التطبيقية، وفلسفة العلوم الرياضية، وفلسفة العلوم النظرية، حيث تسمى كل مجموعة منها باسم موضوعاتها، ثم يُعزل كل واحد من أفراد تلك المجموعة، ويطلق عليه اسم مستقل، بحيث يكون داخل إطار المجموعة الأم[٦].

من ذلك أيضا الأصول الفلسفية للعلوم العربية، فيكون عندنا فلسفة علم النحو، وفلسفة علم الصرف[٧]، وفلسفة علم البلاغة، وفلسفة علم الأدب، وهى كلها ترتد إلى المجموعة الأم[٨]، والأصول الفلسفية للعلوم الشرعية، فيكون لدينا فلسفة الفقه العام، وفلسفة أصول الفقه، وفلسفة

(١) الدكتور شوقى السيد حسن – نظرية القيم – دراسة جمالية ص٣١ ط دار توفيق بالقاهرة ١٩٦٨م.
(٢) هذه الغايات التى تسعى إليها عملية البحث فى نظرية القيم .
(٣) راجع للدكتور محسن نصار – الأخلاق النظرية والعقلية (دراسة مقارنة) ص٨٢ ط١ /١٨٥٧م .
(٤) الدكتور: يوسف محمد ثروت – الفلسفة العامة ص٦١ ط مكتب المدى ١٩٨٦م.
(٥) الدكتور محسن نصار – الأخلاق النظرية والعملية دراسة مقارنة ص٨٢ ط المكتبة المصرية الجديدة ١٩٨١م
(٦) الدكتور يوسف محمد ثروت – الفلسفة العامة ص٧٤ المطبعة الحديثة ١٩٥٥م.
(٧) الصرف علم يعرف به أحوال الكلم من حيث الإعلال. وفي اللغة الدفع والرد وفي الشريعة بيع الأثمان بعضها ببعض . [التعريفات للجرجاني ج١ ص١٧٤ – باب الصاد – رقم: ٨٦٤] وقال صاحب التعاريف: الصرف بالفتح رد الشيء من حالة إلى أخرى أو إبداله بغيره وتصريف الرياح صرفها من حال إلى حال ومنه تصريف الكلام والدراهم والصريف اللبن إذا سكنت رغوته كأنه صرفت الرغوة عنه والصرف شرعا بيع الأثمان بعضها ببعض والصرف بالكسر صبغ أحمر خالص ثم قيل لكل خالص من غيره صرف كأنه صرف عنه ما يشوبه وفي المصباح الصرف الذائب الذي لم يمزج ويقال لكل خالص من شوائب الكدر صرف لأنه صرف عن الخلط. [العلامة محمد عبد الرؤوف المناوي المولد ٩٥٢هـ والمتوفى ١٠٣١هـ – التوقيف على مهمات التعاريف ج١ ص٤٥٤ باب الصاد فصل الراء-].
(٨) الدكتور فؤاد أبو ذكرى – الفلسفة دراساته ونظرياته ص٥٧ ط٣/١٩٨١م ط٣/١٩٨١م.

الفلسفية للعلوم الشرعية، فيكون لدينا فلسفة الفقه العام، وفلسفة أصول الفقه، وفلسفة الفقه المذهبي وكلها ترتد إلى الأصول الأولى، وهى الأصول للعلوم الشرعية، وكذلك الحال مع الأصول الفلسفية للعلوم العقلية، فيكون لدينا فلسفة المنطق، وفلسفة علم الكلام، وفلسفة الرياضيات، وقس على ذلك سائر الأنماط المعرفية، كما يمكن إدخال علم السياسة والاقتصاد وعلم الأخلاق فى مجموعة من المجموعات الأم، التى تكون بمثابة المجمع الذى تأوى إليه رءوس هذه العلوم.

وفى تقديرى: أن أصحاب القول الثانى يمكن ضمهم إلى أصحاب القول الأول؛ لأن الأولين إنما يبحثون الكليات، بينما الآخرون يبحثون الجزئيات[1]، كما أن أصحاب الميادين العامة يتجهون إلى مبادئ التعميم فى الميادين وهم بذلك يقدمون حصرا فنيا لميادين الفلسفة، أما الآخرون فإنهم يمثلون جانبا من جوانب مباشرة العقل والاتقان مع القواعد المعمول بها، أو التى سبق وضعها بدليل أن بعض هذه النصوص قد اعتبر مدخلا لبعض العلوم الأخرى، كالحال مع المنطق ومناهج البحث، فإنها اعتبرت مقدمة البحث فى كل العلوم[2].

جـ- نماذج من تصنيف العلوم

لما لم تكن العلوم قد استقرت فوائدها أبان عصور بعض فترات التاريخ، فقد كان النظر فيها يعتمد بشكل أو أخر على وجهة النظر الذاتية، دون التفات لشيء أخر، تحكمه الظروف أو تمليه القواعد، حتى إذا استقرت العلوم بدأت اتجاهات البحث فى العلوم بتصنيفها ومناهج تأخذ طريقها إلى الواقع العملى[3]، بحيث يكون من الممكن استخدامها، والتعامل معها على ناحية متكاملة.

بيد أنه قد درج الدارسون على تصنيف العلوم من ناحية موضوعاتها، أو من ناحية غاياتها[4]، أو تاريخ إنشائها غير أن البعض ربما انحاز لتصنيف منها، واعتبره الأساس، ثم أهمل باقى التصنيفات مع أنها فى الغالب الأعم لا تمثل سوى وجهة نظر غلبت على أصحابها، وقد ينحاز بعض أخر إلى تصنيف بديل للذى قبله، ويقع الانحياز له هو الآخر، ومن ثم فيجدر الإلماح إلى بعض نماذج من تصنيف العلوم مع بيان الأساس الذى قام عليه، وضرورة التنويه إلى أن تصنيف العلوم على الناحية الفنية الخالصة كان من عمل مفكرى المسلمين وحدهم، إذ لم يسبقهم إليه سابق، بل كان الجميع من بعدهم يسير على خطاهم، سواء أكان فى تصنيف العلوم أم فى تصنيف مناهج البحث.

(١) راجع كتابنا: الغزاليات فى منطق التصديقات ص٢٧٨ وما بعدها.

(٢) الدكتور على عبدالحميد غزلان – المنطق والفلسفة ص٤٧ ط١/١٩٨٧م.

(٣) هذا مما تشهد به أبناء الماضى والحاضر، ويعلنه أهل الاختصاص من غير المتعصبين، أو أصحاب النزعات التى تميل إلى الطعن على الآخرين.

(٤) الغايات جمع غاية، والغاية هى ما لأجله وجود الشيء. [الجرجانى – التعريفات ج١ ص٢٠٧ – باب الغين – رقم:١٠٣٥]

لم تكن مسألة تصنيف العلوم قد عرفت، حتى إذا نظمت المعارف والعلوم، وثبتت أقدامها، بات أمر النظر فى موضوعاتها من الضرورات التى لا غنى عنها(١)، ونظرا لأن بعض هذه الموضوعات قد تتداخل مع البعض الآخر، فقد كان من الضرورى أيضا فصل الموضوعات عن بعضها بطريقة علمية خالصته، من خلال منهج البحث الذى يغلب استخدامه فى ذلك الفن دون سواه، وهو ما يعرف باسم تمايز العلوم بتمايز موضوعاتها.

فمثلا تمايز الفقه بمعناه الفنى(٢) عن أصول الفقه بأن الثانى يضع القواعد الكلية التى يمكن تطبيقها على الجزئيات، بينما كان الأول هو الميدان الذى تطبق فيه قواعد أصول الفقه، أو بمعنى أخر صار الفقه المذهبى — الفروع — هو الموضوع الذى تطبق فيه قواعد أصول الفقه(٣).

وكذلك الحال فى العلوم العربية كلها: من نحو، وصرف، وبلاغة، وأدب، قد أمكن تصنيفها على أنها علوم لغة عربية؛ لأن موضوعاتها تفصلها عن العلوم الشرعية كالفقه وأصوله والحديث الشريف والتوحيد، بل إن العلوم العقلية هى الأخرى كالتوحيد والمنطق والفلسفة، قد صارت متمايزة بموضوعاته تمايزا كبيرا(٤).

بيد أن هذا التصنيف قد لوحظ فيه اقتراب بعض الموضوعات من بعضها الآخر، إلى حد التداخل فى بعض الظواهر التى تلحق بالمقدمات، أو تجىء مع النتائج، كالحال فى علم الميكانيكا، إذ أن فرعيه — الديناميكا والاستاتيكا — يتقاربان فى الموضوع، وإن اختلفا فى صيغة كل منهما ونتائجه، على أساس ان الديناميكا علم الحركة المنتظمة، بينما الاستاتيكا علم الانتظام والثبات معا(٥).

وكذلك تقارب علم أصول الفقه من علم المنطق الصورى فى بعض الطرائق والمناهج، أو الموضوعات والغايات، وإن اختلفا فى أن علم أصول الفقه يمكن تطبيقه على الفقه المذهبى فى كل الحالات، بينما لا يمكن تطبيق المنطق فى الواقع الخارجى، باعتبار أن المنطق علم يبحث فى صحيح التفكير الإنسانى من فاسده، ولا علاقة له بالأحكام الشرعية، التى هى الغاية والغرض فى إنشاء المنطق الأصولى(٦).

---

(١) الدكتورة: فوزية حسن صلاح — مناهج البحث النظرى ص١٣ ط دار فواز ١٩٨٧م.
(٢) عرف الفقه بأنه العلم بالأحكام الشرعية المكتسبة من أدلتها التفصيلية. [الشيخ محمد أبو زهرة — أصول الفقه ص٢١، وراجع فواتح الرحموت شرح مسلم الثبوت ج٢ ص٣٥]
(٣) الشيخ محمد السيد أبو عاقلة — أصول الفقه ص١٥ ط الدار النعمانية ١٩٣١م.
(٤) الدكتور سالم السيد أبو عطوة — مناهج البحث ص٢١ .
(٥) أ.ب ناتيهوم — الفيزياء والكون ص٥١ — ترجمة صابر السيد أبو جمعة.
(٦) راجع كتابنا: الحثيث فى المنطق الحديث ص٩٧ .

التصنيف الثاني : باعتبار الوسائل[١]

وهو يقوم على أن كل علم يتخذ لنفسه وسائل ينفرد بها عن غيره، فمن العلوم ما كانت وسيلته التأمل العقلى المنطقى فقط على الناحية النظرية، ومنها ما كانت وسيلته الجدل الهادف، ومن ما كانت وسيلته كثرة التعرض للبدهيات، والخضوع للتدريب الفكرى الشاق على اكتساب المهارات، بحيث يمكن اللجوء إليها واستخدامها فى الضروريات والمسلمات معا[٢].

فالعلم الطبيعي مثلا إنما تكون وسائل البحث فيه هى القوانين الطبيعية، اما علم المنطق فوسائل البحث فيه القوانين العقلية[٣]، وبالتالى فتمايز هذا التصنيف إنما يقوم على الوسائل. لكن هذا التصنيف قد لوحظ فيه إمكانية استخدام وسيلة بعينها فى عدد من العلوم، بحيث يقع الخلط بينها على صورة أو أخرى، فالحساب مثلا يستخدم القوانين العقلية، والمنطق يستخدم القوانين العقلية، ولكن المنطق ليس هو الحساب، وكذلك الحال مع كل العلوم، التى يسعى الإنسان لتحصيلها والضرب فيها بسهم.

التصنيف الثالث: باعتبار اللغة

وهو يقوم على أن ما كتب بلغة من اللغات، فإن هذه اللغة تعتبر هى الأصل الذى قام عليه، كما تعتبر اللغة هى المصنف الطبيعى له، والتصنيف الحقيقى للعلوم المختلفة، مادامت مدونة وخارج نطاق الشفهى، فالمؤلفات باللغة العربية توضع فى قسم ما صنف بالعربية، وما صنف بالفارسية يوضع فى قسم ما صنف بالفارسية، وقس على ذلك سائر العلوم والفنون، بحيث تتعدد التقسيمات بتعدد اللغات واللهجات[٤].

إذن مرجع هذا التصنيف ليس للموضوعات، او الوسائل، كالحال مع سابقية، وإنما هو قائم على أساس اللغة، فالمؤلفات المدونة بالعربية توضع فى قسمها، وهكذا يكون الحال مع كل العلوم فى كل اللغات، وحينئذ يتعدد التصنيف بتعدد اللغات لا محالة، ومن ثم تكثر إلى حد كبير.

وقد لوحظ أن هذا التصنيف غير جامع ولا مانع، لكنه معمول به فى بعض المكتبات العلمية، التى تقسم العلوم الموجودة فيها إلى مخطوطات ومطبوعات، كما تقسمها إلى ما هو مكتوب باللغة العربية، وما هو مكتوب باللغات الأحرى[٥].

---

(١) الوسيلة ما يتقرب به إلى الغير ذكره الراغب وقال أبو البقاء الوسائل جمع وسيلة وهي ما يتوصل به إلى التحصيل.
[المناوى - التعاريف ج١ ص٧٢٦]

(٢) راجع للدكتورة فوزية حسن صلاح – مناهج البحث النظرى ص٢٥ ، وهذا الاتجاه يغلب غيره فى بعض أنواع من الدراسات المعاصرة.

(٣) الدكتور سالم السيد أبو عطوه – مناهج البحث ص٢٣ .

(٤) راجع كتابنا: الحثيث فى المنطق الحديث ص٣١٧ .

(٥) الأستاذ جمال عبده عبدالعظيم – طريقة تصنيف المكتبات العلمية ص٢٥ أطروحة علمية ١٩٨٧م.

وكان أهل الإسلام ينظرون إلى العلوم نظرة مقسمة، إما إلى عربية أو أجنبية، فما كان من العربية فهو مبحوث على ناحيتها، ولا بد من العناية به على تلك الناحية أيضا[١]، فظهرت العلوم العربية شاملة كل المعارف التي دونت بالعربية، أو كانت وليدة البيئة العربية، بينما ما كتب بغيرها كان محسوبا في عداد العلوم الأجنبية[٢].

لكن اللغة هي الأخرى قد لا تكون جامعة لكل ما كتب باللسان العربي، ولا مانعة من دخول غير العربي إلى العربية، كما يستبعد هذا التقسيم القائم على اللغة ما تم ترجمته من العربية إلى غيرها، بينما يجعل ما ترجم إلى العربية مصنفا على أنه عربي، مع أنه لم يزد عن كونه معلومات ومفاهيم لاتينية، استخدمت في التعبير عنها اللغة العربية.

الرابع : باعتبار النظري والعملي

وهذا التصنيف قد روعي فيه الالتفات إلى العلوم الداخلة في نطاق التصنيف، فما كان منها عمليا، وضع في تصنيف ثابت، أطلق عليه اسم التصنيف العملي، وما كان منها واقعا في نطاق التأمل العقلي، والبحث النظري الخالص أطلق عليه اسم التصنيف النظري، وبالتالي فالنوع الرابع نتج عنه تنوعان، باعتبارين مختلفين[٣].

فمثلا العلوم السلوكية وما يخضع للتجربة - بأنواعها المختلفة - يمكن أن يدخل في نطاق التصنيف العملي، وكل ما جاءت موضوعاته أو نتائجه والوسائل على ناحية عملية، فإن انضمامه إلى تلك المجموعة أو ذات التصنيف يعتبر ضرورة علمية[٤]، كما أن العلوم النظرية كالتاريخ والسير، فإنها تصنف على أنها علوم نظرية، وكذلك الحال مع القصص، أما الفلك والجغرافيا فإنها علوم عملية تجريبية.

وقد قسم العرب العلوم إلى :-

أ- علوم عربية .

ب- علوم أجنبية .

وجعلوا كل واحد منها يجئ في أنواعه:

أ- علوم نظرية كالرياضيات والعلوم الطبيعية والميتافيزيقا.

---

(١) الدكتور فوزي محمد قنديل - دور العرب والمسلمين في بناء الحضارة ص٨٣ ط١/١٩٨١م.
(٢) فردريك روزنتال - التراث القديم في الحضارة الإسلامية ص١١٥ .
(٣) راجع كتابنا : الحثيث في المنطق الحديث ص٣١٨ .
(٤) الدكتورة وفاء ثابت - مناهج البحث في العلوم ص٤٧ ط٢/١٩٩٥م.

ب- علوم عملية كالأخلاق والاقتصاد والسياسة[١].

وكان لأهل الإسلام فضل السبق فى هذه التقسيمات، وإقامة ذات التصنيفات، فالخوارزمى[٢] يؤلف فى تصنيف العلوم كتابا جامعا، أطلق عليه اسم مفتاح العلوم[٣]، وكذلك فعل الفارابى، حين ألف كتابه إحصاء العلوم، حيث يقول: نقصد فى هذا الكتاب أن نحصى العلوم المعروفة بوجه عام، واحدا واحدا، وأن نقدم مسحا شاملاً لكل علم على حده، وأن نشير كذلك إلى التقسيمات الفرعية الممكنة، وأن نقدم مسحا شاملاً لكل فرع[٤]، إذن أهل الإسلام هم الذين صنفوا العلم على طريقة علمية استفاد بها من جاء بعدهم، أو من نقلت إليه ثقافتهم.

الخامس: باعتبار الدينى والدنيوى

هناك تصنيف فنى للعلوم قام به بعض من أهل الإسلام، لكنه جاء على الناحية الدينية، فما كان من العلوم التى تخدم القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة الصحيحة، اعتبرت علوما دينية كالتفسير وعلوم القرآن وعلم القراءات، وكـ ـذلك علوم الحديث دراية ورواية أو سندا ومتنا،كذا علم الفقه والأصول والتوحيد والتصوف[٥]، وما كان من علوم العربية التى جاءت بها الإشارات فى النقل المنزل، اعتبرت علوما دينية[٦]، أما ما كان من قبيل العلوم التى تمهد للحياة، وتعين على الرفاهية، وتنوع الصناعات المختصة، والتعرف على الهضاب والجبال وأنواع التربة، وعلم الجغرافيا والتاريخ وغيرها من العلوم النظرية أو العملية، لكنها لا تقوم على أسس دينية، فقد اعتبرت كلها من العلوم الغير دينية.

---

(١) ذهب فردريك روزنتال إلى أن هذا التقسيم قد أخذه الإسلاميون عن ارسطو ومدرسته، وهو بهذا الزعم يعمل على إنقاص المسلمين حقوقهم ، ويدل على تعصبه الجنسى، وهو ما كان الأولى به أن يبتعد عنه، إذ الأحكام غير الموضوعية لا يلتفت إليها، وراجع له التراث القديم فى الحضارة الإسلامية ص١٠٥.

(٢) الخوارزمي واسمه محمد بن موسى وأصله من خوارزم وكان منقطعا الى خزانة الحكمة للمأمون، وهو من أصحاب علوم الهيئة وكان الناس قبل الرصد وبعده يعولون على زيجيه الأول والثاني ويعرفان بالسند هند وله من الكتب كتاب الزلزيج نسختين أولى وثانية كتاب الرخامة كتاب العمل بالاسطرلابات كتاب عمل الإسطرلاب كتاب التاريخ سند بن علي اليهودي ويكنى أبا الطيب كان اولا يهوديا وأسلم على يد المأمون وكان منجما له وهو الذي بنى الكنيسة التي في ظهر باب الشماسية في حريم دار معز الدولة وعمل في جملة الراصدين بل كان على الارصاد كلها وله من الكتب كتاب المنفصلات والمتوسطات كتاب القواطع نسختين كتاب الحساب الهندي كتاب الجمع والتفريق كتاب الجبر والمقابلة. [راجع الفهرست لابن النديم ج١ ص٣٨٣]

(٣) طبع الكتاب القاهرة ١٣٤٩هـ/١٩٣٠م والخوارزمى ممن لهم اهتماما كبيرة وولع متزايد بالمصطلحات العلمية، حيث كان له فضل السبق فيها.

(٤) أبو نصر الفارابى – إحصاء العلوم ص٢ وما بعدها – تحقيق د: عثمان أمين ط القاهرة ١٣٥٠هـ/١٩٣١م .

(٥) وهى كلها علوم داخل البيئة الإسلامية قام بها مفكرون مسلمون لخدمة النقل المنزل .

(٦) الدكتورة: وفاء ثابت – مناهج البحث فى العلوم ص٥٢ ط٢/١٩٥٧م.

على أن الفارابى قدم تصنيفا للعلوم فى مجموعات خمسة هى :

☆**الأولى** : مجموعة العلوم اللغوية، ولها تنوعات فرعية[١].

☆**الثانية**: مجموعة العلوم المنطقية، ولها تنوعات فرعية.

☆**الثالثة**: مجموعة العلوم الرياضية: الحساب، الهندسة، الفلك الرياضى وهو الفلك المقترن بالتنجيم، البصريات، والموسيقى، وتنقية حمل الأثقال والميكانيكا.

☆**الرابعة**: مجموعة العلوم الطبيعية والميتافيزيقا، ولكل منها تنوعات فرعية.

☆**الخامسة**: مجموعة العلوم السياسية والتشريع والتأمل الديني ولكل منها تنوعات[٢].

وكان لأصحاب رسائل أخوان الصفا العديد من الإضافات والتنوعات، بعضها جاء معبرا عن زمرة من المعارف البسيطة، وبعضها الآخر جاء معبراً عن فروع أو مسائل جزئية من العلوم، لكنها أطلق عليها اسم الجزئية المبحوثة، أو الموضوعة للبحث العلمى[٣].

ومن المؤكد أن الفلسفة ترتبط ارتباطا وثيقا بعلم تصنيف العلوم، بل إن الفلسفة الإسلامية هى التى قادت المفكرين إلى إبراز هذه التصنيفات الفنية للعلوم المتعددة على النواحى المختلفة، كما كانوا يعتبرون الفلسفة صنعة؛ لأنها تقوم على الجانب العملى، كما كانوا يعتبرونها علما برأسه على أساس أن العلم المراد هو المعرفة النظرية، التى يتم الحصول عليها من خلال الملاحظة المجردة، والتأمل الخالص، ومن ثم فقد تلاقى عندهم الجانبان – العلمى والنظرى – فى الفلسفة.

كما أن العلوم كلها تقع لها التعاون على ناحية من النواحى، فعلم الطب يحتاج علم اللغة، ليكون وسيلة التعبير عن المباحث الطبية، وكل علم متأخر يأخذ عن المتقدم شيئا ما، أو تتحقق له به بعض الفوائد، لكن مجمل العلوم يأخذ من الفلسفة الأولى[٤]، فالعلم الطبيعى والفلك مثلا كل منهما يهتم بدراسة الكون، لكن العالم الطبيعى يدرس جوهر الموضوع، أما عالم الفلك، فإنما يهتم بأغراضه، وبالتالى فالذى يدرس جوهر أحد الموضوعات إنما يقدم لدارس علم آخر مبادئ لهذا العلم، وهكذا يتعلم الفلكى من العالم الطبيعى، أن حركة الكواكب لابد وأن تكون دائرية[٥]، وذلك مما يؤكد أن العلوم كلها لا تتآزر فيما بينها لتقدم خدمات علمية.

ولكن الفلسفة بينها جميعا تقف كالأم الرؤم أو المراقب المحايد، فهى تحتضن كل العلوم على ناحية من الشمول لموضوعاتها ومعارفها، متى اعتبرت أما للعلوم، أو تحتضن عملية البحث على الناحية الفنية، متى اعتبرت ممثلة لمجموعة من العلوم ذات الطبيعة الخاصة المتميزة.

---

(١) يدخل فيها النحو والصرف والبلاغة والأدب، وعلم القراءة والكتابة والشعر والنثر .

(٢) راجع تفاصيل ذلك فى إحصاء العلوم للفارابى .

(٣) الدكتور هاشم محمد صبحى – أخوان الصفا ودورهم فى مناهج البحث ص٥١ ط١٩٦٥/٣م.

(٤) فردريك روزنتال – التراث القديم فى الحضارة الإسلامية ص١٢٠ .

(٥) راجع التراث القديم فى الحضارة الإسلامية ص١٣١/١٠٤ .



الفصل الخامس

علاقة الفلسفة

بغيرها من المجالات بوجه عام

نشطت الفلسفة – التأملية – نشاطا ملحوظا فى عصورها المختلفة، لكنها كانت فى العصر الإسلامى أكثر نشاطا، وأوسع نطاقا، وأشمل موضوعات(١)، فهى قد استوفت جوانب الإدراك الحسى والمعارف الناتجة عنها، كما احتوت العلوم التى قامت على أنماط معرفية عقلية، وفى نفس الوقت فقد فرضت حمايتها أو صايتها الطبيعية على العلوم العقلية المجردة، التى تقوم على الفكر وحده، وترتبط به دون سواه(٢).

أجل ظهرت التراكمات العديدة للموضوعات التى شغلت بال العلماء قديما وحديثا، كما أنها استغرقت تأملات المفكرين بصفة عامة والفلاسفة بصفة خاصة، فلما تمايزت هذه التراكمات عن بعضها بالأسماء والمفاهيم والموضوعات، أمكن التعبير عن كل مجموعة منها بإطلاق اسم فن من الفنون أو علم من العلوم عليها(٣).

من ثم ظهرت العلوم المتعددة فى العالم الطبيعى وغير الطبيعى(٤)، كما ظهرت البحوث المتميزة فى العالم المشاهد أولا، لكن ذلك لم يمنع من البحث فى العالم غير المشاهد ثانيا، وأن يطلق على تلك المباحث اسم الميتافيزيقا، أو المباحث فى العوالم الغيبية(٥)، فوقعت هذه المباحث تحت اسم حكمة الكهنة لدى المصريين القدماء، واسم الفلسفة عند قدماء اليونان.

إذن قبل بناء الفلسفة على الناحية التنظيمية – عصر فلسفة ما قبل الفلسفة – كانت العلوم غير مقننة، كما أنها لم تكن منظمة، ولا محددة الهوية فى الموضوعات، وتبع ذلك اختلاط فى المفاهيم والمسميات(٦)، وفى هذه الأثناء كانت الإيحاءات والانطلاقات الفلسفية متداخلة تداخلا تاما فى المفاهيم الأخرى.

وبالتالى يمكن بحث العلاقة بين الفلسفة والعلوم الأخرى من خلال ما يلى:-

---

(١) يذهب بعض الدارسين إلى بحث هذه النقطة، من خلال العلوم والفنون التى تقع بينها والفلسفة صلات، كالفقه والتوحيد وغيرها، ولكنى أثرت ذكر هذه العلاقات على ناحية القواعد العامة، وليس على ناحية الفروع العلمية، ولكل وجهة.

(٢) راجع كتابنا: المدخل لدراسة الحكمة الإسلامية ص٣١٥ وما بعدها، وكذلك كتابنا ملامح الحكمة الإسلامية فى المغرب الإسلامى ص٧٨ ط١/١٩٩٨م.

(٣) الدكتور رجب محمد ثابت – الفلسفة القديمة ص٤٧ ط١/١٩٦٢م دار المهدى.

(٤) الدكتور: ثروت السيد الجميل – الميتافيزيقا ص٧٧ ط٢ – مكتبة توفيق ١٩٥١م.

(٥) يراد بالطبيعى هنا ما يبحث فيه من خلال علم الطبيعة، بحيث يتمايز عن علم الفلك والرياضة وغيرها من العلوم التى لا تدخل فى نطاق العلم الطبيعى من حيث الدراسة أو استخدام الوسائل.

(٦) الدكتور: محمد عبدالعظيم قابيل – الفلسفة والميتافيزيقا ص١٣ ط٢ مكتبة عبدالغنى ١٨٥٧م.

أـ فى ظل التفكير الفلسفى الغير منظم

ما من شك فى أن التفكير الإنسانى طبيعة، جبل الله الناس عليها، ولكنها قد تختلف فى بعض الناس قوة أو ضعفا، كما تختلف لدى الفرد الواحد فى أحيان كثيرة، طبقا لظروفه الصحية والاجتماعية والسياسية والثقافية[1]، ولابد لمن يتصدى لمعرفة العلاقة بين الفلسفة والمجالات العلمية الأخرى، أن يتعرف على ملامح هذه ومفاهيم تلك.

ومن ثم سأجعل الحديث عن هذه العلاقة فى ذات العصر من خلال مرحلتين:ـ

الأولى : مرحلة التداخل والاندماج

وهى المرحلة التى كانت العلوم كلها غير محددة الموضوعات، ولا تنقلها مناهج ثابتة، وإنما كان يحصل فيها نوع من تداخل التأملات الفلسفية مع الأبحاث العملية فى رأس المفكر الواحد ذاته، بل وكانت الاتجاهات الأدبية هى الأخرى تنازع كل الاتجاهات فى رأس ذات المفكر الواحد[2].

بيد أن ذلك لم يكن فى بلدان العالم كلها، كما لم يكن فى التاريخ الفلسفى على الدوام، وإنما كان فى الفترة القائمة بين ظهور الحركات الفكرية الأولى على وجه الأرض، حتى عصر التفكير الفلسفى المنظم، الذى كان يشغل الأماكن التى يوجد فيها البشر، متى كانت لديهم إمكانيات البحث الفلسفى أو التفكير العقلى المتمايز.

ومن مظاهر ذلك ورود المسائل اللاهوتية ضمن المباحث الأدبية[3]، وتجئ التأملات الفلسفية مطوية بين ثنايا الأدبيات من الشعر والنثر، حيث جاءت الحكمة معلنة عن نفسها فى مفردات لغوية. من ذلك قولهم:

قد يدرك المتأنى بعض حاجته ∴ وقد يكون مع المستعجل الزلل[4]

---

(١) راجع كتابنا: التفلسف (مفهومه – بواعثه – خصائصه) أثناء الحديث عن العوامل المحيطة بالفيلسوف وأثرها على فلسفته، ففيه تفاصيل تدعو الحاجة إليها.

(٢) الدكتور: محمد السيد صقر – الفلسفة والاتجاهات المعاصرة ص٥٣ – ط دار الهدى ١٩٨١م. وكذلك للدكتور: صبرى هاشم – الفلسفة والمجتمع ص٢٥.

(٣) الدكتور: فوزى محمد حجر – الأدب والفلسفة ص٧٣ ط٢/١٩٥٧م.

(٤) هذا البيت منسوب لعدى بن زيد الجاهلى. ومن أقواله أيضا:

عن المرء لا تسأل وأبصر قرينه ∴ فإن القرين بالمقارن يقتدى
فإن كان ذا شر فجانبه سرعة ∴ وإن كان ذا خير فقارنه تهتدى

فالبيت فيه مبادئ فلسفية واضحة، إنه يهمس فى الأذن بالقاعدة الأخلاقية العامة، التى يتمسك بها العرب فى جاهليتهم، وهى أن فى التأنى السلامة، كما فى العجلة الندامة، إذ المتأنى فى كل عمله، إنما يستخدم التأمل والذكاء، والتعرف على الجوانب الفنية الدقيقة، وبناء عليه تأتى نتائج بحثه على ناحية إيجابية فيها السلامة، أما العجول فإن الزلل يكون طبيعة فيه، وسمة مميزة له.

وكذلك قولهم:

لكل داء دواء يستطب به ∴ إلا الحماقة أعيت من يداويها

وكل داء جعل الله له دواء يتداوى به، إلا داء الحقد والحسد والموت، ففى الحديث الشريف عن أسامة بن شريك(١) قال:أتيت النبي صلى اللّه عليه وسلم، وأصحابه كأنما على رءوسهم الطير، فسلمت ثم قعدت، فجاء الأعراب من ههنا وههنا، فقالوا: يارسول اللّه، أنتداوى؟ فقال: "تداووا فإنّ اللّه تعالى لم يضع داءً إلا وضع له دواءً غير داء واحدٍ: الهرم" »(٢). أما الأحمق فلا علاج لمرضه، كما أن من يحاول مساعدته يقع له الفشل، باعتبارٍ أن التداوى لابد فيه من مستعد له.

ومن أقوال اليونان: الحكيم هو الذى يكبح جماح شهوته، ولا تستعبده العاطفة، و إنما زينه عقله، وترفعه تأملاته، وتدل عليه سلوكياته(٣).

---

(١) أسامة بن شريك الثعلبي من بني ثعلبة بن يربوع، له صحبة روى حديثه أصحاب السنن وأحمد وابن خزيمة وابن حبان والحاكم ومن حديثه أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه كأنما على رءوسهم الطير وفي بعض طرقه خرجت مع النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع فجاء قوم فقالوا يا رسول الله إن بني يربوع قتلونا فقال لا تجني نفس على أخرى وروى أسامة بن شريك أيضا عن أبي موسى الأشعري وذكر الأزدي وابن السكن وغير واحد أن زياد بن علاقة تفرد بالرواية عنه. راجع الإصابة لابن حجر - باب الألف بعدها سين [ص:٤٨]. الفصل: ٩٠

(٢) أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني المتوفىَ سَنَة ٢٧٥ هـ- سنن أبي داود ج٣ ص٣٨٣ - كتاب الطب - باب في الرجل يتداوى. الحديث رقم: ٣٨٥٥ -تحقيق محمد جميل - دار الفكر ١٩٩٤م . وعن جابر قال : قال رسول الله : « تداووا عباد الله، فإن الذى خلق الداء خلق الدواء،فإذا أصاب الدواء الداء؛ برأ بإذن الله » [أخرجه مسلم فى كتاب السلام باب لكل داء دواء واستحباب التداوي رقم: ٢٢٠٤] وعن زياد بن علاقةَ عن أسامةَ بنِ شريكٍ قال: « (قالت الأعرابُ: يا رسولَ اللهِ ألا نَتَداوى؟ قال: نعمْ يا عبادَ اللهِ تداووا فإنَّ اللهَ لم يضعْ داءً إلاَّ وضعَ لهُ شفاءً أو دواءً، إلاَّ داءً واحداً، فقالوا: يا رسولَ اللهِ وما هو؟ قال: الهَرَمُ) »(سنن الترمذي (وشرح العلل)، للإمام الترمذي - بَابُ مَا جَاءَ فِي الدَّوَاءِ والحثِّ عليهِ - الحديث رقم: ٢١٠٩ .)، وعن أبي الدرداء قال: « قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: "إن اللّه [تعالى] أنزل الداء والدواء وجعل لكلّ داء دواء، فتداووا ولا تداووا بحرام" » [سنن أبي داود - الإمام الحَافِظِ أبو دَاوُد سُلَيمَان بن الأشعَث السّجِسْتَانِي المتوفّى سَنَة ٢٧٥ هـ- دراسة وفهرسة كَمَال يوسُفْ الحوُت، مركز الخدمات والأبحاث الثقافية - باب في الأدوية المكروهة - الحديث رقم: ٣٨٧٤] ، وعن أبي سعيد عن رسول الله قال : « إن الله تعالى لم ينزل داء إلا أنزل له دواء، علمه من علمه، وجهله من جهله، إلا السام وهو الموت »(الجامع الصغير للسيوطي - [تتمة باب حرف الألف] - الحديث رقم: ١٧٨٣ ، ورواه الحاكم في المستدرك).

(٣) الدكتور: رجب محمد ثابت - الفلسفة القديمة ص٥٣ ط١/١٩٦٢م.

وقال قس بن ساعدة الأيادى[1]:

لِدُوا للموت وابنوا للخرابِ ∴ فكلكم يصير إلى تباب
ألا يا موت لم أر منك بُدًّا ∴ أتيت وما تحيف وما تحابى
كأنك قد هجمت على شيبى ∴ كما هجم المشيب على شبابى[2]

ومن يطالع النثر أو الشعر الذى سلف ذكره، يراه قد خلط المباحث الفلسفية بالآداب، حتى صارت الحكمة أدبا، كما كان الأدب حكمة، وبقدر ما حملت اللغة الأدبية من ملامح اختلاط الفلسفة بالأدب، فقد حملت سائر العلوم على بعضها[3]، بحيث يمكن القول بأن اختلاط الفلسفة بالعلوم الأخرى كان سمة عصر فلسفة ما قبل الفلسفة.

الثانية: مرحلة الانفصال البحثى

وهى المرحلة التى وقف العقل البشرى فيها يمايز بين الموضوعات، ثم يضم منها ذات العلائق المتبادلة فيما بينها إلى بعضها، بمعنى أنه إذا أراد بحث ظاهرة كونية كالمطر، أو الكسوف أو

---

(١) قس بن ساعدة بن حذافة بن زفر بن اياد بن نزار الايادي البليغ الخطيب المشهور، عاش ثلاثمائة وثمانين سنة وقد سمع النبي حكمته وهو أول من آمن بالبعث من أهل الجاهلية وأول من توكأ على عصا في الخطبة وأول من قال اما بعد في قول وأول من كتب من فلان الى فلان وفي رواية بن الكلبي ان في آخر خطبته لو على الأرض دين أفضل من دين قد اظلكم زمانه وادرككم أوانه فطوبى لمن أدركه فاتبعه وويل لمن خالفه وكانت العرب تعظمه وضربت به شعراؤها الأمثال... . وقال المرزباني ذكر كثير من أهل العلم انه عاش ستمائة سنة وكان خطيبا حكيما عاقلا له نباهة وفضل، وقد افرد بعض الرواة طريق حديث قس وفيه شعره وخطبته، فمنها ما أخرجه عبد الله بن احمد بن حنبل في زيادات الزهد من طريق خلف بن اعين قال لما قدم وفد بكر بن وائل على رسول الله قال لهم ما فعل قس بن ساعدة الايادي قالوا مات يا رسول الله قال كأني أنظر اليه في سوق عكاظ على جمل احمر الحديث وذكر الجاحظ في كتاب البيان والتبيين قسا وقومه وقال ان له ولقومه فضيلة ليست لاحد من العرب لان رسول الله روى كلامه وموقفه على جملة بعكاظ وموعظته وعجب من حسن كلامه واظهر تصويبه وهذا شرف تعجز عنه الأماني وتنقطع دونه الآمال وانما وفق الله ذلك لقس لاحتجاجه للتوحيد ولاظهاره الإخلاص وإيمانه بالبعث ومن ثم كان قس خطيب العرب قاطبة ومنها ما أخرجه بن شاهين من طريق بن أبي عيينة المهلبي عن الكلبي عن أبي صالح عن بن عباس قال لما قدم أبو ذر على النبي قال له يا أبا ذر ما فعل قس بن ساعدة قال مات يا رسول الله قال رحم الله قسا كأني انظر اليه على جمل اورق تكلم بكلام له حلاوة لا احفظه فقال أبو بكر انا احفظه قال اذكره فذكره وفيه الشعر وفيه فقال رجل من القوم رأيت من قس عجبا كنت على جبل بالشام يقال له سمعان في ظل شجرة الى جنبها عين ماء فإذا سباع كثيرة وردت الماء لتشرب فكلما زأر منها سبع على صاحبه ضربه قس بعصا وقال كف حتى يشرب الذي سبق قال فتداخلني لذلك رعب فقال لي لا تخف ليس عليك بأس. [الإمام ابن حجر – الإصابة ج٥ ص٥٥١ رقم: ٧٣٤٥]

(٢) الدكتور السيد رزق فضل الله – مظاهر الحكمة فى الأدب الجاهلى ص١٨٥ ط١/١٩٧٥م.

(٣) الدكتور فوزى محمد ثابت – فلاسفة اليونان الأوائل ص٢١ ط٢/١٩٨١م.

الخسوف، أو ظاهرة البرق، فإنه يضم هذه الظواهر إلى بعضها، ويحاول التعرف على العلائق التى تربط بين هذه الظواهر المبحوثة على ناحية علمية[١].

أما إذا بحث فى المسائل المتعلقة بالمادة وخواصها من صلبة إلى غاز وسائل، أو من ناحية كونها تفنى كليا، أو تفنى على ناحية جزئية، أو ما إذا كان فناؤها عن تدمير، كالحال فى الطاقة الإشعاعية، التى هى من نسيج طبيعى لكل من ذرة الهليوم والريديون[٢].

أم كان فناؤها عن طريق تحولاتها فى مدارات أخرى وأشكال جديدة، فإنه يضم هذه المباحث إلى بعضها على ناحية البحث الفنى، دون نظر لشيء أخر، وكان ذلك قائما فى بواكير التفلسف المنظم بشكل خافت، ثم أخذ البروز والإعلان عن نفسه، حتى استوى على سوقه، فإذا هو علم كامل يدرس تحت اسم مناهج البحث.

وكان الباحثون فى العلوم المختلفة يختلطون مع بعضهم فى المكان البحثى، دون أن يحاول أحدهم التأثير فى غيره، أو يعمل على التأثر به[٣]، إنهم أشبه بالجزر الواقعة فى محيط واحد، لكن كل منها له حكومته وقيادته، بجانب اقتصاده، ووسائل دفاعه، وكل يدبر حاله عن طريق الاكتفاء الذاتى، بحيث لا يحتاج إلى أحد أقرب الجيران إليه أو أبعدهم عنه.

بيد أن الفلاسفة لم تكن لهم سمة مميزة، و لم يطلق عليهم من الأسماء ما يقع لهم وحدهم على سبيل الاختصاص، فكانوا يسمون أحيانا بأصحاب التأمل الخيالى[٤]، ومن ثم فقد اتهموا بأنهم أصحاب الخيال، أو العبث واللامعقول، وكانت هذه الاتهامات من أسباب بغضهم فى نفوس العامة والقيادة السياسية، التى كانت تحرص على إبراز سطوتها وبطشها مع المفكرين الأحرار، للإعلان عن قبضتها الحديدية، بحيث يخاف الجميع من هذه القيادة، ويرهبونها على كل الأحوال.

أجل كان يطلق على أصحاب المباحث اللاهوتية الكهنة، أو حكماء الدين عند المصريين القدماء، أما لدى اليونان فقد كانوا يعرفون بأنهم أصحاب التطلعات السماوية، من باب السخرية بهم، أو التندر بأحوالهم، أو محاولة إنقاص دورهم فى الحياة[٥]، أو التقليل من شأن هذا الدور الذى يمارسونه على أقل تقدير.

---

(١) الدكتور صابر حسن خليل – مناهج البحث فى القدم ص٧٣ ط٢ دار الفؤاد ١٩٧١م.

(٢) الدكتور محسن السيد زكى – مناهج البحث العلمى ص١١٢، ولأن الطاقة فيهما إشعاعية، فإن تدهوراتهما المتواصلة تنتهى بها إلى التدمير على ناحية من النواحى الذاتية.

(٣) الدكتور صابر حسن خليل – مناهج البحث فى القدم ص٨١ ط٢ – مكتب الأوفست ١٩٧١م.

(٤) الدكتورة تحسين السيد حديلة – الفلسفة اليونانية ص١٧٧ ط دار الهدى ١٩٦٧م.

(٥) الدكتور فوزى محمد ثابت – فلاسفة اليونان الأوائل ص٢٣ ط٢ – مكتبة مكة ١٩٧٣م.

لكن دللك لم يمنع من ظهور أفراد متميزين، كونوا فيما بينهم جماعات صغيرة. اتخذت لنفسها نمطا معينا من التفكير، وطريقا من طرق المعالجة للمسائل، والبحث عن حلول للمشكلات التى تؤرق بعض الشباب من أبناء النبلاء، أو التى تعوق الأسر المالكة عن الاستمتاع بمباهج الحياة، وتسموا بالحكماء[1]، يستوى فى ذلك ما كان عند المصريين القدماء والبابليين، أو رجال الصين، ومفكرى اليونان، أو الطبقة المتميزة فى الهند، وقد شغلت تلك المرحلة فترة زمانية طويلة فى بعض البلدان، قصيرة فى بعض أخر، مما يؤكد أن عملية الانفصال البحثى كانت مقصودة من أصحاب العلوم والفنون أنفسهم أول الأمر، ثم صارت عادة يقوم بها غيرهم على سبيل التقليد والمحاكاة، أو على سبيل التنفير منهم والابتعاد عنهم، وبالتالى فلم تكن بين الفلسفة والعلوم الأخرى، سوى علاقة البحث العلمى.

بـ في ظل التفكير الفلسفى المنظم

المعروف أن العقل المنظم يقوم على معطيات صحيحة، ولما كان التفكير الفلسفى قبل عصر الفلسفة المنظم، قد برزت فيه علاقة الفلسفة بالمجالات الأخرى، من خلال مرحلتى التداخل والانفصال البحثى، فإن هذه العلاقة فى ظل التفكير الفلسفى المنظم، قد تغيرت إلى شكل متطور، طبقا لمقتضيات الظروف وطبيعة العصر[2]، الذى وجد فيه المفكر أو الفيلسوف.

ففى بعض العصور التاريخية كانت الفلسفة هى أم العلوم، ورأس الجميع، حيث كان الفلاسفة يمثلون الصفوة الممتازة داخل المجتمعات التى يقيمون بها، وفى بعض العصور كانت الفلسفة واحدة من المجموعة التى تمثل أهم العلوم الإنسانية، وكان الفلاسفة على قدم المساواة مع الرياضيين والفقهاء ورجالات الدولة[3]، لكن هناك عصور أخرى كانت الفلسفة فيها تنزوى بأضيق ركن،

---

(١) إذ كانت الأسر الحاكمة فى ذلك الوقت تحرص على تدبير وسائل الاستمتاع بمباهج الحياة على أوسع نطاق، وكانوا يستخدمون فى سبيل تحقيق تلك الغاية المشهورين بالمرح والفكاهة، والمعروفين بالمقدرة على أسعاد الآخرين ، باعتبار أن السعادة هدف نبيل، وغاية سامية، وكذلك كانوا يحتاجون للسحرة، حتى يبعدوا عنهم الأرواح الشريرة، والمنجمين لاطلاعهم على الغيب، والكهنة لإجراء طقوس الدين، التى تدخل السرور إلى النفوس، من ثم كان احتياجهم للفلاسفة، أو الحكماء ليحيلوا لأنفسهم أكبر قدر من السعادة، على أساس أن الحياة فرصة واحدة، إذا مضت لن تعود، وأن لحظات السعادة يسعى إليها كل كائن طبقا لإمكانياته، والظروف المحيطة به، مع عدم الإخلال بالواجبات التى تناط به، أو الحقوق التى يجب عليه القيام بها. [راجع كتابنا: نظرية السعادة فى الفكر الإنسانى وموقف الإسلام منها ص١٣٥]

(٢) الدكتور فوزى عبدالعظيم الدكشة – الفلسفة وظروف العصر ص١٣ طبعة الدار الجديدة ١٩٦١م.

(٣) الأستاذ صبحى محسن ثروت – الفلسفة ومناهج البحث ص٦١ طبعة مكتبة الفتح ١٩٥٥م.

وتلوى عنقها فى حجرها، فلا مكان للفلسفة، ولا حرص عليها، كما لا اهتمام بالفلاسفة، إذ كانوا فى هذه الآونة محل بغض من العامة، وعدم احترام من السلطة القائمة[١].

وطبقا لتلك الظروف، فقد تغيرت أشكال العلاقة بين الفلسفة ومجالات العلوم المختلفة، وقد نتج عن ذلك كله بروز بعض المشكلات على سطح الأفكار، فانتهى الأمر إلى أن مرت تلك العلاقة بعدة مراحل من أبرزها:-

الأولى: مرحلة التباين والابتعاد

وهى المرحلة التى بدأت مع مطالع عصر التفكير الفلسفى المنظم فى بابل ومصر والصين، بل واليونان أيضا، حيث كانت الفلسفة تبحث فى موضوعات مستقلة، يلجأ إليها المفكر مختارا، لكونها غير خاضعة للثقافة العامة[٢]، أو واقعة تحت الغطاء الجماهيرى، ومن ثم اتهمت الفلسفة فى هذه الآونة بأن قضاياها عويصة، ومسائلها غير واقعية، ومباحثها لا يمكن تطبيقها، كما أتهم الفلاسفة بأنهم يعيشون فى أبراج عالية عاجية، لا علاقة لها بالواقع.

ففى مصر كان الكهنة الدينيون يمارسون طقوسهم الدينية وحدها، على حين كان الفلاسفة يمارسون تأملاتهم الفكرية، دون نظر لشيء أخر، وكل منهما كان يمثل جانبا من جوانب البحث، من غير التفات إلى أية علاقة بينهما[٣]، سوى التباين الطبيعى، والابتعاد الذاتى.

بيد أن البابليين هم الآخرون كانوا ينظرون إلى المسائل اللاهوتية نظرة متعالية قوامها أن ما ينتجه الفكر يمكن الاعتماد عليه، أما مخلفات الواقع المادى، فليس لها شيء من الثبات، أو أدنى درجات اليقين[٤]، وكذلك الحال مع المباحث المتعلقة بعلم الفلك والرياضيات فكل علم منها كان يمثل واقعا خاصا به، وقلعة حصينة ليس من اليسير اجتياز أسوارها.

ولم يكن حال اليونان فى هذه الناحية مخالفا لحال المصريين القدماء، ولا البابليين، وإنما الناس ينظرون إلى جميع العلوم فى شيء فى التباين الموضوعى، والتباعد الغائى، بجانب الاختلاف فى النتائج والوسائل[٥]، بدليل أن أكسيملر كان يقول: لا علاقة للعلوم ببعضها، والفلسفة يجيء الاختلاف معهم من شأنها[٦].

---

(١) الدكتور فوزى عبدالعظيم الدكشة – الفلسفة وظروف العصر ص٢١/٢٢ .

(٢) أ.ب هيلير – الفلسفة فى عصورها الأولى ص٤٩ ترجمة إسماعيل رزق – ط أولى ١٩٤٧م.

(٣) الدكتور حمدى صالح داود – الفلسفة ومناهج البحث ص٧٧ ط٣/١٩٧٥م.

(٤) أ.ب هيلير – الفلسفة فى عصورها الأولى ص٥٣ ط دار مختار ١٩٤٧م ترجمة إسماعيل رزق – ط أولى ١٩٤٧م .

(٥) الشيخ مرسى محمد أبو حطب – الفلسفة المسائل والوسائل ص١٢٤ ط أولى مطبعة المعتصم ١٩٥٣م.

(٦) أ.ب هيلير – الفلسفة فى عصورها الأولى ص٦١ .

إذن تباين العلوم كان السمة البارزة، والفلسفة هى الأخرى كانت بمجرد علم، لم تثبت قواعد البحث فيه، يباين كلا من الفيزياء وعلم الفلك، كما يبتعد تماما عن كل من القانون وعلم الهيئة، وهذا يؤكد أن علاقة الفلسفة بغيرها فى هذه المرحلة كانت مضطربة، سواء على ناحية الدراسة، أم على ناحية الاشتغال.

الثانية : مرحلة التقارب النسبى

وهي المرحلة التى اتسمت بتمايز العلوم فى التقارب النسبى بين بعضها، من خلال المناهج المستحدثة، أو الغايات المتوخاة، أو الوسائل المشتركة[١]، فهو تقارب يمضى ببطء شديد، تحفه المخاوف، وتتربص به المخاطر، ويتوجس المفكرون له خيفة من سلطان الرياضيين، كما يخشى الطبيعيون من سطوة المؤرخين أو رجال الحديث.

لكن هذا التخوف لم يمنع من وجود مساحات مشتركة بين العلوم بعضها البعض الأخر، صحيح كانت خطوات التقارب بين العلوم بطيئة، لكنها كانت متواصلة[٢]، تصوغها الرغبة فى امتلاك النواصى، وتضيق المسافات، والسيطرة على باقى المساحات.

---

(١) الدكتور: صلاح الدين الجوهرى – الفيزياء والفلسفة ص٨٧، وكل أصحاب فن إنما يجدون لذتهم فى الأبحاث التى يقومون بها، طالما كانت نتائجها صحيحة، ولا توجد ممانعة لها على ناحية من النواحى الشرعية، أو الاجتماعية أو الثقافية، فإذا وجدت ناحية من هذه النواحى، فإن الأبحاث تتوقف والرغبة فى العلم تختفى أو تنقطع.

(٢) كأنها تحمل على جبينها الحكمة القائلة: قليل دائم خير من كثير منقطع ، وفى الحديث الشريف عن أبي أمامة أن ثعلبة بن حاطب الأنصاري أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: « يا رسول الله أدع الله أن يرزقني الله قال ويحك يا ثعلبة قليل تودي شكره خير من كثير لا تطيقه ثم رجع إليه فقال يا رسول الله أدع الله أن يرزقني مالا قال ويحك يا ثعلبة أما تريد أن تكون مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم والله لو سألت أن يسيل لي الجبال ذهبا وفضة لسالت ثم رجع إليه فقال يا رسول الله أدع الله أن يرزقني مالا والله لئن أتاني الله مالا لأوتين كل ذي حق حقه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم ارزق ثعلبة مالا فاتخذ غنما فنمت كما ينمو الدود حتى ضاقت عنها أزقة المدينة فتنحى بها وكان يشهد الصلاة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يخرج إليها ثم نمت حتى تعذرت عليه مراعي المدينة فتنحى بها فكان يشهد الجمعة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يخرج إليها ثم نمت فتنحى بها فترك الجمعة والجماعات فيتلقى الركبان ويقول ماذا عندكم من الخبر وما كان من أمر الناس فأنزل الله عز وجل على رسوله صلى الله عليه وسلم خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها قال فاستعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصدقات رجلين رجل من الأنصار ورجل من بني سليم وكتب لهما سنة الصدقة وأسنانها وأمرهما أن يصدقا الناس وأن يمرا بثعلبة فيأخذا منه صدقة ماله ففعلا حتى ذهبا إلى ثعلبة فأقرآه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صدقا الناس فإذا فرغتما فمرا بي ففعلا فقال والله ما هذه إلا أخية الجزية فانطلقا حتى لحقا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنزل الله عز وجل على رسوله صلى الله عليه وسلم ومنهم من عاهد الله لئن أتانا من فضله إلى قوله يكذبون قال فركب رجل من الأنصار قريب لثعلبة راحلة حتى أتى ثعلبة فقال ويحك يا ثعلبة هلكت أنزل الله عز وجل فيك من القرآن كذا فأقبل ثعلبة ووضع التراب على رأسه وهو يبكي ويقول يا رسول الله يا رسول الله فلم يقبل منه رسول الله صلى الله عليه وسلم صدقته حتى قبض الله رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أتى أبا بكر رضي الله عنه بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا أبا بكر قد عرفت موقعي من قومي ومكاني من رسول الله صلى الله عليه وسلم فاقبل مني فأبى أن يقبله ثم أتى عمر رضي الله عنه فأبى أن يقبل منه ثم أتى عثمان رضي الله عنه فأبى أن يقبل منه ثم مات ثعلبة في خلافة عثمان رضي الله عنه » [الإمام الطبراني – المعجم الكبير ج٨ ص٢١٨/١٢٩ – رقم: ٧٨٧٣]

فبدأت الفلسفة فى استعمال ألفاظ الرياضيين من حيث الكم المنفصل والمتصل، كما استعارت من الطبيعيين بعض المصطلحات الخاصة بهم، كألفاظ الخلاء[1] والملاء، وألفاظ الجوهر والعرض، واقتربت من المنطق فاستعملت المعقولات الأولى تارة والثانية تارة أخرى[2]، وكان هذا التقارب بمثابة الإعلان عن نوع من الانفتاح الفلسفى على العلوم الأخرى.

كما أن علم الرياضة من حساب وهندسة، كان هو الآخر قد بدأ فى استعارة بعض المفاهيم والقوانين، بغرض الإستفادة منها، وإدخالها حيز الاهتمام بها، والاستعمال لها، مع أن الحساب أرقام ذهنية، تعبر عن الكم المنفصل، والهندسة أحجام وسطوح، تعبر عن الكم المتصل فى جانب من جوانبه[3].

إذن استخدم الحساب مفهوم العلاقات المتبادلة فى الطبيعة، وجعلها إحدى العلامات البارزة لديه، بدليل أن هذه العلاقات - الجمع، الطرح، الضرب، القسمة - قائمة فى علم الحساب بشكل أساسى، وتمثل عاملا هاما رئيسيا فيه.

لم يكن حال العلوم النظرية، إلا كحال العلوم التطبيقية والأخرى السلوكية، من تقارب نسبى مع بعضها البعض الأخر، وكذلك بين هذه العلوم والفلسفة التى باتت تمارس عملية التقارب النسبى مع باقى العلوم فى شكل أكثر تسامحا واتساعا، وقد أدى ذلك كله إلى فتح قنوات للاتصال

---

(١) الخلاء: هو البعد المفطور عند أفلاطون والفضاء الموهوم عند المتكلمين أي الفضاء الذي يثبته الوهم ويدركه من الجسم المحيط بجسم آخر كالفضاء المشغول بالماء أو الهواء في داخل الكوز فهذا الفراغ الموهوم هو الذي من شأنه أن يحل فيه الجسم وأن يكون ظرفا له عندهم وبهذا الإعتبار يجعلونه حيزا للجسم وباعتبار فراغه عن شغل الجسم إياه يجعلونه خلاء فالخلاء عندهم هو هذا الفراغ مع قيد إلا يشغله شاغل من الأجسام فيكون لا شيئا محضا لأن الفراغ الموهوم ليس بموجود في الخارج بل هو أمر موهوم عندهم إذ لو وجد لكان بعدا مفطورا وهم لا يقولون به والحكماء ذاهبون إلى امتناع الخلاء والمتكلمون إلى إمكانه وما وراء المحدد ليس ببعد لا لانتهاء الأبعاد بالمحدد ولا قابل للزيادة والنقصان لأنه لا شيء محض فلا يكون خلاء بأحد المعنيين بل الخلاء إنما يلزم من وجود الحاوي مع عدم المحوي وذا غير ممكن. [الإمام الجرجاني - التعريفات ج١ ص١٣٥ رقم:٦٦٣] و الخلاء: هو المكان الذي لا ساتر فيه من بناء أو غيره، والخلوة محادثة السر مع الحق حيث لا أحد ولا ملك، والجلوة خروج العبد من الخلوة بالنعوت الإلهية. [العلامة المناوى - التعاريف ج١ ص٣٢١]

(٢) المعقولات الأولى هى أحد أقسام المعقولات، فالمعقولات قسمان :[١] المعقولات الأولى: وهي ما يكون بإزائها موجود في الخارج نحو طبيعة الحيوان والإنسان فإنها يحملان على موجود خارجي كقولنا زيد إنسان وفرس حيوان. [٢] المعقولات الثانية ما لا يكون بإزائها شيء فيه كالنوع والجنس والفصل فإنها لا تحمل على شيء من الموجودات الخارجية. [العلامة محمد عبد الرؤوف المناوي المولود ٩٥٢والمتوفى ١٠٣١هـ - التوقيف على مهمات التعاريف ج١ ص٦٦٦/٦٦٧- دار الفكر المعاصر , دار الفكر - بيروت , دمشق - ١٤١٠هـ الطبعة الأولى -تحقيق د. محمد رضوان الداية].

(٣) الدكتور صابر حسين خليل - مناهج البحث فى القدم ص٨٩ ط القاهرة ١٩٦٤م.

بين العلوم المختلفة[١]، كما ساعد على وجود نوع من الامتزاج النسبى بين الفلسفة والعلوم التى جرت فى محيطها، وكان لها نوع من التعامل المباشر معها.

كان من جراء ذلك وجود انفتاح نسبى من الفلاسفة على موضوعات العلوم الأخرى، قابله انفتاح نسبى آخر من العلماء على بعض مباحث الفلسفة، وبات هذا الانفتاح النسبى يمثل نافذة صغيرة، تطل منها العلوم المختلفة على بعضها[٢]، دون أن تسمح تلك النافذة الصغيرة أول الأمر بدخول موضوعات فلسفية متكاملة إلى ميادين العلوم التى يمارسونها.

فى نفس الوقت اعتبرت المواد المتسللة عبر النافذة نوعا من الثقافة المتميزة، وقد حرص كل من هؤلاء العلماء على التعامل مع تلك الثقافة الوافدة فى شيء من الحيطة، وبكثير من التأنى[٣]، دون أن يحمل أحد من أنصار فن ضغينة فى صدورهم على أصحاب فن آخر.

إذن هذا التقارب النسبى بين الفلسفة والعلوم الأخرى أوجد نوعا من الثقافة التى أمكن توظيفها لخدمة العلوم المختلفة على أوسع نطاق، بحيث تم إعادة النظر فى الأحكام التى صدرت بخصوص بعض العلوم أو بعض المباحث، وكان بعض هذه الأحكام يدين فرعا من فروع المعرفة، بأنه يسبب الجدل أو يفسد القيم[٤]، أو يؤدى إلى الإلحاد تجانب الهرطقة، فلما تمت إعادة النظر فى الأحكام السابقة، أمكن التعديل فى بعضها، والإلغاء فى البعض الآخر.

وكانت الفلسفة فى الماضى من العلوم التى صدرت بعض الأحكام بإدانتها، واتهام القائمين عليها بالإلحاد تارة، وإفساد عقول الشباب تارة أخرى، كالحال مع سقراط فى بلاد اليونان، ومع فى تسى فى الصين، وكرايسلميز فى الهند، وكاهن معبد الغوطة فى مصر[٥]، وما صدرت ضدهم هذه الأحكام إلا لأنهم أعلنوا تعلقهم بالفلسفة وانخراطهم فى سلك الفلاسفة.

فلما أعيد النظر فى هذه الأحكام عاد للفلسفة حقها السليب، وتمكن الفلاسفة من العيش فى أمان، بدل الخوف والقلق والاضطراب، وكذلك الحال فى باقى العلوم التى صدرت بشأنها أحكام كانت غير مقبولة فى ذاتها، بل من هذه الأحكام أنها تجاوزت كل الحدود[٦].

---

(١) الدكتور حمدى صالح داود — الفلسفة ومناهج البحث ص٩٥ ط مكتبة وهبى ١٩٧١م.

(٢) الدكتور فوزى عبدالعظيم الدكشة — الفلسفة وظروف العصر ص٤٣.

(٣) الأستاذ عبدالناصر السيد جاب الله — الفلسفة الحديثة ص٧٤ ط١/١٩٥٧م.

(٤) الدكتورة سوسن السيد طه — دراسات فى الفلسفة اليونانية ص٥٧ ط١/١٩٧٦م.

(٥) الدكتور حسن سليم عبدالوارث — الفلسفات القديمة (دراسات تاريخية) ص٤١ ط دار الهدى ١٩٦٦م.

(٦) راجع للأستاذ رزق المتولى — الفلسفة المصرية القديمة ص٧١ ط١/١٩٤٧م.

إذن التقارب النسبي بين الفلسفة والعلوم الأخرى كان المرحلة الهامة، التي أعادت للفكر الإنساني بعضا من الهيبة السليبة، وأرجعت إليهم بعض الحقوق المغتصبة، كما دفعت عن الفلاسفة العوادي، التي ظلت في تربص دائم بينهم.

الثالثة: مرحلة الاختلاط والتداخل

وهي المرحلة التي تلت عملية التقارب النسبي، بل وتأسست عليها، حيث انفتح المفكر على الثقافات المحيطة به، من خلال النافذة الصغيرة، ثم أخذ في تنمية هذه الثقافات على طريقة مناسبة، مع الاحتفاظ بالأصول العامة[1]، يستوي ذلك في بلدان العالم الفكري كله، إذ لم تختلف فيه منطقة عن أخرى؛ لأن الفكر الإنساني يتزاوج مع بعضه إلى حد التلقيح، ومن ثم فقد أمكن استيلاد أفكار وثقافات جديدة، كان لها من الأرصدة المعرفية ما جعلها تقف على أرضية ثابتة، أثمرت العديد من الثقافات المستحدثة، التي ظهر لها الأثر الكبير في تنامي العلوم المختلفة، وازدياد الأنواع المعرفية[2].

بيد أن هذه المرحلة قد كانت لها بعض السمات من أبرزها:-

أ- تبادل المواقع البحثية:-

نظرا لهذا التداخل الثقافي بين العلوم، والاختلاط المعرفي، أمكن وقوف الفلاسفة على قمة البحث العلمي الطبيعي، حيث صار المفكر فيلسوفا في العلم الطبيعي، وتمكن العالم الفيزيائي من ارتياد حقل المعرفة الفلسفية، وناضل في سبيل بلوغه الغاية، حتى أمكن القول بأنه صار فيزيائيا فيلسوفا، إذن صار الفيلسوف يحل محل غيره من أصحاب التخصصات الأخرى[3]، ويحدث معه أيضا نفس ما حدث مع غيره، بالنسبة لأصحاب ذات التخصصات.

فالعالم المسلم الفارابي، كان نموذجا للفنان الذي تربع على قمة الفلسفة، والفيلسوف الذي أمكنه الوقوف بثقة على أرضية العلوم المختلفة[4]، ومنها علم الفلسفة وعلم الأخلاق، بجانب علم الموسيقى، وكان له في كل منها الجهد الواضح، والمجهود الكبير، والاتجاهات المتعددة.

والشيخ الرئيس ابن سينا هو الأخر كان صاحب مذهب سياسي ورأسا في الطب، ومع ذلك بلغ القمة في الفلسفة، فصار طبيبا فيلسوفا، أو فيلسوفا طبيبا[5]، وله في كل المجالات العلمية المختلفة الجهود الكبيرة، والنتائج المبهرة، التي مازالت تجرى حولها الدراسات المختلفة.

---

(١) الدكتور علي فهمي الزواملي – البيئة وأثرها على ثقافة الجماعة ص٥٣ ط١/١٩٧٦م.

(٢) الدكتورة لمان الحبشي السيد حبشي – الإنسان والمعرفة (دراسة في العقلية الإنسانية) ص٥٧ ط٢/١٩٦٧ كركوك.

(٣) الدكتور ثروت حسني عبدالعظيم – الفيلسوف والثقافة البيئية ص٧٤ ط١/١٩٦٥م.

(٤) الدكتورة ليلى محمد حسن – الفارابي حياته وفلسفته ص١٧، والفارابي للأستاذ نصر محمد طلعت، وراجع الفارابي للأستاذ سعيد زايد – سلسلة أعلام العرب.

(٥) الدكتور محمد رضوان العلاف – فلاسفة الإسلام ص٧٦ ط١/١٩٤٦م.

كذلك أبو الوليد بن رشد الحفيد كان قاضي القضاة فى الفقه المالكى[1]، وصاحب جهد كبير فى أصول الفقه[2]، ومع هذا كان الرجل المدافع الممتاز عن حياض الفلسفة، بل حمل لواء الدفاع عن الفلسفة والفلاسفة، فصار المحامى الذى يتربع بالدفاع عن متهم بريء، ينتظر الأجر من الله تعالى، واستطاع أن يمحو بعض آثار الحملة الغزالية على الفلسفة والفلاسفة[3].

ب- اختلاط العلوم والعلماء:

فى هذه المرحلة - الاختلاط والتداخل - لم يعد العلم للعلماء، والفلسفة للفلاسفة، وإنما صار العالم يملك الاشتغال بالفلسفة، كما يشتغل الفيلسوف بالعلم.

وليس من اليسير حصر العلماء الذين اشتغلوا بالأمرين - الفلسفة ومجال أخر - معاً، بدليل أن الحكماء الأطباء صنفت فيهم مصنفات مستقلة[4]، وكذلك الحال مع الفقهاء والصوفية والمفسرين، بجانب علماء الفلك والرياضيات، مما يؤكد أن هذه المرحلة كانت شاملة، وأن الاختلاط والتداخل فى هذه المرحلة قد غلب على الفكر والمفكرين معا.

جـ- العموم الثقافى والمساحى:

كما أن معالم هذه المرحلة الفلسفية قد غطت سحابات اليوم فى العالم الفكرى كله، فكانت فى الشرق سارية، كما كانت فى الغرب جارية، غير أنها فى الغرب كانت تمضى فى طريقها، معلنة عن نفسها فى شيء من الحياء المصطنع[5]، أما فى الشرق، فكانت المباحث الفلسفية تمضى فى دلال ونية؛ لأنها صنعة العقول الكبيرة، حتى إن أترابها الكواعب من العلوم الأخرى، كن ينظرن إليها فى شيء من الغبطة، وكثير من الحسد، ويتمنين أن ينلن حظها، أو تبتسم الأيام لهن مثل ما هى باسمة لها.

لكن دوام الحال من المحال، والمستتر بالآمال مكشوف الأحوال، والمستلذ بما يملك فاقد النهى قليل الاحتمال، فما شمس الضحى باقية، ولا كشف ظلام الليل بمحال، بدليل أن هذه المرحلة - الاختلاط والتداخل - لم تكد تستقر حتى أتت الرياح بما لا تشتهى السفن، وتبدلت الأحوال، فظهرت مرحلة جديدة كان لها أكبر الأثر على مسيرة الفلسفة وعظيم الخطر على الفلاسفة أيضا.

---

(١) كانت أسرته تتولى القضاء فى قرطبة، فكان جده قاضيا ومفتيا، وكذلك كان أبوه، ثم جاء هو وكان على نفس منهجهم بيسر. وجدير بالذكر أن المالكية هم أتباع الأمام مالك بن أنس بن مالك بن أبى عامر الأصبحى أبو عبدالله المكي ، أحد العلماء وسيد الفقهاء، وهو المجدد لأمر الدين على رأس المائتين. توفى سنة ٢٠٤هـ . [راجع التهذيب جـ٩ ص٢٣، والتقريب جـ٢ ص١٤٣، حلية الأولياء جـ٩ ص٦٣]

(٢) من أشهر كتبه فى هذا المجال بداية المجتهد ونهاية المقتصد. [راجع أعلام المؤلفين لعمر رضا كحالة، وطبقات الأطباء]

(٣) الدكتور حسن مرسى ثابت – ابن رشد وفلسفته ص٢٣ طبعة دار مراد ١٩٦٧م .

(٤) من ذلك عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، وأخبار الحكماء بأخبار الحكماء والفهرست.

(٥) كان ذلك أثناء العصور المظلمة فى أوربا، وكان يتم خوفا من سلطان الكنيسة. [راجع أوربا والعصور الوسطى]

كما علا نجم الاختلاط والتداخل للفلسفة فى المجالات المختلفة، وبرز الفلاسفة فى المجتمع يمثلون الصفوة الفكرية، ونظر الناس إليهم نظرة متميزة على ناحية من العلو فى القاعدة الاجتماعية والأدبية بجانب الفكرية[١]، فقد نظر إليهم بعض العاملين فى مجالات أخرى نظرة كراهية، عمادها التشبث بالواقع، والمحافظة على مواقع الرئاسة الاجتماعية والأدبية، والسياسية أيضا.

وقد استطاع هؤلاء الخصوم اللعب على أوتار عواطف العامة، وخداع البسطاء والسذج، كما أمكن لبعضهم الفوز برغبات بعض القادة السياسيين من الأمراء والأغرار، الذين تربوا فى دواوين مغلقة، أو نشأوا فى عباءات أفكار لاهوتية، أمكن تلقينهم إياها على أساس أنها غير قابلة للجدل أو المناقشة[٢]، فلما ولى هؤلاء عروش بلادهم، كانوا الآمرين الناهين فى العلن، بينما هم أراجوزات أو دمى، يقوم بتحريكها أولئك الذين خاصموا الفلسفة والفلاسفة من غير دراسة لها، أو خوفا من انتزاع السلطات التى يتمتعون بها[٣].

بل تمكن هؤلاء من إيقاع بعض المفكرين فى شباكهم، حين تمكنوا من دفعهم إلى حلبات الصراع الفكرى، وإنزالهم أرضية المعارك التى لم يكن لديهم استعداد لها، ولا معرفة جيدة بطرقها، والحيل التى تجيء فيها، فكان الصراع فى ظاهره بين فريقين، بينما هو فى الحقيقة بين طرف واحد هو الذى أعد له، ويقوم فيه الخصم بدور المبارز المتدرب وحده.

وإمعانا فى النيل من المفكرين، كان هؤلاء الخصوم يهمسون فى آذان أولئك الأمراء، بأن تكون المنازلة بينهم والمفكرين الأحرار علانية جماهيرية، حتى يشهد غالبية المجتمع هزيمة الفلسفة وأقوى رجالها، وانتصار الخصوم بجانب صعود نجم رجال الأمير وحاشيته[٤]، الذين نجحوا فى مخططهم؛ لأنهم تلاعبوا بالألفاظ التى استخدموها كميادين للمبارزة الفكرية، كما لعبوا على أوتار عواطف الجماهير والأمراء الدينية، بجانب إجادة بعضهم علمية التمثيل كالحواة فى سيرك، أو

---

(١) الدكتور حامد السيد عبدالله – الفلسفة صولة ودولة ص٥٦ ط١- تونس ١٩٥٧م.

(٢) الدكتور خالد محمد عبدالوارث – مشكلات فلسفية – الإنسان ص٥٣ – طبعة أولى – دار عبدالمهيمن ١٩٧٦م.

(٣) الدكتور فوزى عبدالعظيم الدكشة – الفلسفة وظروف العصر ص٦٦ .

(٤) وهذا الموقف يذكر القارئ بما فعله سحرة فرعون مع سيدنا موسى كليم الله، حيث أخبر الله تعالى أنهم قالوا لنبى الله موسى الكليم: ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنتَ مَكَانًا سُوًى * قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾ [سورة طه – الآيتان ٥٨:٥٩]

السحرة(١) فى ميدان خداع عيون الناس وعقولهم(٢)، وقد استمر ذلك على العديد من الجهات.

من جراء ما قام به الخصوم ضد الفلسفة والفلاسفة، هب الإغرار من الأمراء والعامة، والغوغاء إلى النفرة من الفلسفة، واتهام الفلاسفة بالإلحاد والزيغ عن الدين، واتهام الفلسفة بالعبث واللامعقولية، وكان من نتائج ذلك أن أحرقت أغلب المؤلفات الفلسفية فى المشرق الإسلامى(٣)،

---

(١) وعن حقيقة السحر يقول الإمام القرطبى - رحمه الله - : « ذهب أهل السنة إلى أن السحر ثابت وله حقيقة، وذهب عامة المعتزلة: إلى أن السحر لا حقيقة له، إنما هو تمويه وتخييل وإيهام لكون الشيء على ما هو به، وأنه ضرب من الخفة والشعوذة » . هذا وقد بينت السنة النبوية شناعة السحر، وأنه من أعظم الذنوب وأكبر الكبائر، فقد عده الرسول ﷺ من السبع الموبقات، فعن أبى هريرة ﷺ : « عن النبى ﷺ قال: اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا يا رسول الله وما هن؟ قال: الشرك بالله والسحر، وقتل النفس التى حرم الله إلاّ بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم،والتولى يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات »(الحديث أخرجه البخارى - كتاب الوصايا - باب قوله تعالى ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما ﴾ حديث رقم: ٤٧٦٦ .).وبين النبى ﷺ أيضا أن من اعتقد السحر وعمل به، فقد أشرك بالله عز وجل، فعن أبى هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: « من عقد عقدة، ثم نفث فيها، فقد سحر، ومن سحر فقد أشرك، ومن تعلق شيئا وكل إليه » [أخرجه النسائى - كتاب تحريم الدم - باب الحكم فى السحرة- ج٧ ص١١٢-١٩ باب الحكم في السحرة - رقم:٤٠٧٩.).وعن حكم تعلم السحر وتعليمه :- يقول الإمام الألوسى - رحمه الله - : « واختلف فى تعليمه وتعلمه، فقيل كفر لهذه الآية، إذ فيها ترتيب الحكم على الوصف المناسب، وهو مشعر بالعلية، وأجيب بأنا لا نسلم أن فيها ذلك؛ لأن المعنى أنهم كفروا، وهم مع ذلك يعلمون السحر، وقيل: إنهما حرامان- وبه قطع الجمهور-، وقيل مكروهان - واليه ذهب البعض -. وقيل: مباحان والتعليم المساق للذم هنا محمول على التعليم؛ للإغواء والإضلال، واليه مال الرازى » [روح المعانى - الألوسى - جـ١ ص٣٣٩] قال: الإمام ابن حجر: « وقد أجاز بعض العلماء تعلم السحر، لأحد أمرين: إما لتمييز ما فيه كفر عن غيره. وإما لإزالته عمن وقع فيه. فأما الأول: فلا محظور فيه، إلاّ من جهة الاعتقاد، فإذا سلم الاعتقاد بمعرفة الشيء بمجرده، لا تستلزم منعاً، كمن يعرف كيفية عبادة أهل الأوثان للأوثان، لأن كيفية ما يعلمه الساحر، إنما هى حكاية قول أو فعل بخلاف تعاطيه والعمل به. وأما الثانى: فإن كان لا يتم كما زعم بعضهم، إلاّ بنوع من أنواع الكفر أو الفسق، فلا يحل أصلا، وإلا جاز للمعنى المذكور » [فتح البارى بشرح صحيح البخارى - جـ١٠ ص٢٣٥ - طبعة الريان] وجدير بالذكر أن السحر يختلف عن الشعوذة ، فالشعوذة طبقا لتعريف ايفانزبريتشارد الكلاسيكى هى : القدرة الكامنة على إيذاء الآخرين، باستخدام وسائل فوق طبيعية، ويميز ايفانز هذه القوة عن السحر الضار، الذى يكتسب بالتعليم ويتصف بأنه الاستخدام الضار، أو العدوانى للسحر، وقد تبنى هذا التمييز بين الشعوذة والسحر الضار نفر كبير من الباحثين الأفريقيين. [لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى موسوعة علم الإنسان - المفاهيم والمصطلحات الأنثروبولوجية - تأليف شارلوت سيمور سميث- ترجمة مجموعة من أساتذة علم الاجتماع بإشراف محمد الجوهرى ص٤٥٣ المشروع القومى للترجمة ١٩٩٢م]

(٢) لأن السحر لا يغير حقيقة الأشياء، وإنما يغير نظرة المرء إليها. قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَلْقَوْاْ سَحَرُواْ أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ [سورة الأعراف - الآية ١١٦]

(٣) الدكتور عبدالحليم محمد عبدالحليم - الفلسفة الإسلامية فى المشرق ص١٩٧ ط٢/١٩٦٥م.

وعاش بعض الفلاسفة مقيدى الحرية، وظل بعضهم رهين الاعتقال حتى الموت[١]، وبعضهم خرج من المحبس، فلم يمهله القدر حتى يرمم شروخ جداره الفكرى، أو يعيد صياغة علاقته الاجتماعية، بحيث يزيح من عقول العامة الأفكار الباطلة، والاتهامات الفاسدة ضد الفلسفة والفلاسفة.

ولأن الفكر الحر لا يتوقف، والسلطة السياسية لا تسمح به، فقد لجأ المفكرون والفلاسفة إلى ممارسة أنشطتهم العقلية فى شيء من الخفاء، والانفصال عن المجتمع بالجسد أو الفكر، وهو ما عرف عند ابن باجة بالعزلة الفكرية[٢]، إذ ليس من شأن الفيلسوف مبادلة الخصوم قدحا بقدح، أو قبحا بقبح، وإنما شأن الفيلسوف الحقيقى التعالى عن السفاسف، والتماس الكمالات لنفسه فى العقيدة والشريعة والأخلاق[٣].

إذن راح المفكرون يمارسون أفكارهم من خلال العلوم التى يدرسونها من غير إعلان عن كونهم فلاسفة، أو أصحاب فكر حر، فظهرت فى أوربا أبان بواكير عصر النهضة مباحث فلسفية، كان من وصايا القائمين عليها، أن لا يتم نشرها أو الإعلان عنها، إلا بعد موت ذلك المفكر نفسه[٤].

---

(١) كالحال مع شيخ الإسلام ابن تيمية ، حيث ظل فى محبسه بقلعة دمشق حتى مات . وابن تيمية : هو الشيخ الإمام العلامة الحافظ الناقد الفقيه المجتهد المفسر البارع شيخ الإسلام علم الزهاد نادرة العصر تقي الدين أبو العباس أحمد بن المفتي شهاب الدين عبد الحليم ابن الإمام المجتهد شيخ الإسلام مجد الدين عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم الحراني أحد الأعلام ولد في ربيع الأول سنة إحدى وستين وستمائة، وسمع ابن أبي اليسر وابن عبد الدائم وعدة ، وعني بالحديث وخرج وانتقى وبرع في الرجال وعلل الحديث وفقهه وفي علوم الإسلام وعلم الكلام وغير ذلك وكان من بحور العلم ومن الأذكياء المعدودين والزهاد والأفراد ألف ثلاثمائة مجلدة وامتحن وأوذي مرارا مات في العشرين من ذي القعدة سنة ثمان وعشرين وسبعمائة. [راجع العلامة عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي أبو الفضل المولود ٨٤٩هـ المتوفى ٩١١هـ – طبقات الحفاظ ج١ ص٥٢٠ – رقم: ١١٤٢ – الطبقة السادسة – رقم: ٢٢٠ – دار الكتب العلمية – بيروت ١٤٠٣هـ – ط١، وراجع فوات الوفيات – العلامة محمد بن شاكر الكتبى – تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد ج١ ص٦٢/٨٢ – مطبعة السعادة بمصر – مكتبة النهضة المصرية ١٩٥١م]

(٢) لأن خصوم ابن باجة خرجوا فى طرقهم معه على الحدود اللائقة بالمتحاورين، فلفقوا له اتهامات عديدة، وأمكنهم جمع شهود زور عليه، بل أنه لما وجد منهم استعمالا لألفاظ لا تليق به هجرهم، وانعزل بفكره عنهم، ولم يجارهم فى قسوة ألفاظهم، ومع هذا ظلوا به حتى مات بالسم من خلال طبيب آخر، كان زميلا له فى مهنة الطب، كان قد حسده وحقد عليه، ولم يكتف بانسحاب ابن باجة من الحياة الفكرية، وإنما ظل به حتى انتهى من الحياة بالكلية.

(٣) راجع مقالات فى أصالة المفكر المسلم للدكتورة فوقية حسين محمود – نشرت بمجلة الأزهر.

(٤) كالحال مع ديكارت وكتاب العالم الطبيعى الذى أوصى بعدم نشره إلا بعد موته، خشية أن يناله من العقاب ما نال كلا من جاليلو وكوبر نيقوس، وخاصة أن الموضوعات التى تناولها هو فى كتابه تتشابه مع النتائج التى انتهى إليها كل منهما، وكانت نهاية كل منهما بسببها.

وفى العالم الإسلامى اختبأت الأفكار الفلسفية بين أحضان، وأعطاف علم الكلام تارة، أو ثنايا علم التفسير وأصول الفقه حينا أخر(١)، كما جرت بين مفردات علماء الأخلاق، بل والسير والقصص أحيانا، التى جرت على ألسنة أبطالها مباشرة، أو جاءت على ألسنة الحيوان، مع أنها خطرات فلسفية خالصة، ومباحث جاءت على ناحية فنية دقيقة(٢).

وكان من جراء ذلك أن انفصلت المفردات والمصطلحات الفلسفية فى ذاتها كألفاظ، ولكنها كانت مختبئة بين ثنايا الأجزاء البحثية فى المؤلفات العلمية فقهية كانت أم كلامية(٣)، بل جرت فى أغلب الأحيان كشروح لنصوص شرعية، جىء بها على ناحية استدلالية، كالحال مع أصول الفقه الذى عبرت مصطلحاته الفنية عن أسس فلسفية، حيث جاءت هذه المصطلحات الأصولية حاملة المفاهيم الفلسفية، معبرة عنها بصورة أو أخرى(٤).

كما أن بعض هذه المباحث صارت قاسما مشتركا بين بعض العلوم المختلفة كمبحث الدلالة لدى المناطقة، وعلماء الأصول، وكذلك علماء الحديث، بل وعلماء التفسير(٥) أيضا، مما يؤكد ظهور

---

(١) الشيخ محمد رجب الطويلة – الفلسفة وأصول الفقه ص٥٣ ط الدار الجديدة ١٣٨٥هـ .

(٢) كالحال مع قصص كليلة ودمنة لابن المقفع، وكتاب الحيوان للجاحظ وغيرهما مما اشتهر فى الأدب العربى مبتكرا أو مترجما.

(٣) راجع للإمام البيضاوى الطوالع، وللأصفهانى المطالع، و كذلك المواقف للعلامة عضد الدين الإيجى، ففى كل منهما مباحث فلسفية ممتازة، مع أن هذه المؤلفات كلامية فى معانيها، والعناوين التى تجىء معها.

(٤) الدكتور السيد حسن مسلم – الفلسفة وعلاقتها بالعلوم ص١٥٧ ط دار العلم ١٩٦١م.

(٥) التفسير : « علم يفهم به كتاب الله المنزل على نبيه محمد ﷺ وبيان معنيه، واستخراج أحكامه وحكمه، واستمداد ذلك من علم اللغة والنحو والتصريف وعلم البيان وأصول الفقه والناسخ والمنسوخ. [راجع للعلامة الحافظ جلال الدين السيوطى – الإتقان فى علوم القرآن ج٤ ص١٦٩ – مكتبة دار التراث ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ط٣]، وعلم التفسير من أجل العلوم وأشرفها، لجلال وشرف موضوعه، إذ به تتضح معانى ألفاظ القرآن الكريم، وتظهر محاسنه، وهو مفتاح كنوز وذخائر، وبذلك يتدبره العباد، ويصلون إلى طريق الهداية والرشاد. فيقول الإمام الزركشى رحمه الله: « إن أولى ما أعملت فيه القرائح، وعلقت به الأفكار اللواقح، الفحص عن أسرار التنزيل، والكشف عن حقائق التأويل، الذى تقوم به المعالم، وتثبت الدعائم، فهو العصمة الواقية، والنعمة الباقية والحجة البالغة، والدلالة الدافعة، وهو شفاء الصدور، والحكم العدل عن مشتبهات الأمور، وهو الكلام الجزل الفصل الذى ليس بالهذل، لا يستقصى معانيه فهم الخلق، ولا يحيط بوصفه على الإطلاق ذو اللسان الطلق، فالسعيد من صرف همته إليه، وقف فكره وعزمه عليه، والموفق من وفقه الله لتدبره، واصطفاه للتذكير به وتذكره، فهو يرتع فى رياض، ويكرع منه حياض(كرع فى الماء أو الإناء كرعا، كرعا = تناوله بفيه من موضعه، والحياض: جمع حوض وهو مجتمع الماء، ومنه حوض البحر وحوض النهر– المعجم الوجيز ص٥٣١، ١٨٧ .) »(البرهان فى علوم القرآن للزركشى – جـ١ ص٣ طبعة المكتبة العصرية – صيدا – بيروت – تحقيق أبو الفضل إبراهيم. والإمام الزركشى هو محمد بن بهادر بن عبدالله الزركشى أبو عبدالله بدر الدين . عالم بفقه الشافعية والأصول، تركى الأصل، مصرى المولد والوفاة. له تصانيف كثيرة فى عدة فنون منها:(لقطة العجلان، البحر المحيط) فى أصول الفقه. ولد سنة ٧٤٥هـ/١٣٤٤م، وتوفى سنة ٧٩٤هـ/١٣٩٢م . الأعلام للزركلى جـ٦ ص٦٠). هذا ومن ألوان تفسير القرآن الكريم التفسير الموضوعى، وذلك « بجمع الآيات القرآنية ذات الموضوع الواحد، ووضعها تحت عنوان واحد، والنظر فيها بما يؤلف منها موضوعا واحد مستخرجا من الآيات الكريمة على هيئة مخصوصة »(المدخل إلى التفسير الموضوعى – دكتور عبدالستار فتح الله سعيد ص٣٣ ط دار الطباعة والنشر الإسلامية). والتفسير الموضوعى تبدو أهميته فى إبراز مقاصد القرآن الكريم، وبيان إعجازه من جهة تألف وتعانق آياته، ففيه يقول أحد الباحثين: « هو من أعظم ما تحتاجه المكتبة الدينية، وتطلبه مصلحة الدعوة الإسلامية من الناحيتين العلمية والعملية، وفى تقديرى أن هذا التفسير سيكون جواب القرآن على تساؤلات الإنسان وحيرته فى كل مكان، بل سيكون زادا للدعاة العاملين أنفسهم حين يريدون إقامة أمتهم على منهاج القرآن وشريعة الله رب العالمين، ويكون نورا بأيمانهم، وهم يدعون الأمم الحائرة، ويردون الشبهات الجائرة، ويقيمون دليل الإعجاز المتجدد على صحة النبوة الخاتمة وضرورتها الدائمة للبشرية العانية »(المدخل إلى التفسير الموضوعى – دكتور عبدالستار فتح الله سعيد ص ٩، ١٠).

بعض البذور الفلسفية بين ثنايا جذور بيانات علوم أخرى، فاختلطت الثمار بين الجميع إلى حد التقارب[١]، وكان ذلك من معالم التفكير الفلسفي الذى مارس أتباعه نشاطهم الذهني في عباءات بعض العلوم التي لم تعلن عنه في وجه سافر.

◈ **بيد أن هذه المرحلة لم يفلت منها علم من العلوم، ولا فن من الفنون. أما لماذا؟**

☜ **فلأن** التفكير العقلي الحر كالهواء يتسلل إلى الرئتين طوعا أو كرها، أو كشعاع يلاحق أصحاب الطيف لا يفترق عنهم، ولما كانت المباحث الفلسفية بهذا القدر من الانسلال داخل العلوم، فقد عمل الفلاسفة على إشباع هواياتهم الفلسفية بشكل خال من الاحتراف الذى لو أعلنوا عنه فقد يضر بهم والأبحاث التي يقومون بها أيضا.

◈ وفي تقديري: أن هذه المرحلة هي أكثر المراحل خطورة، على الفكر الإنساني. **أما لماذا؟**

☜ **فلما يلي:-**

[أ] أنه كان يمارس دوره في التفلسف على الناحية الفنية، من غير أن يعلن عن نفسه.

[ب] أنها لم تكن تعطي العقل الفرصة الجيدة لممارسة ما يقوم به على وجه صحيح[٢]، وإنما كان يمارس ذلك في شيء من العجلة حينا، أو الغموض والتعقيد حينا آخر، ولذلك ظهرت الاتجاهات المختلفة، حيث ظهرت الصوفية المتفلسفة، كما ظهرت المدارس الفلسفية المتصوفة، وكذلك كان الحال مع أغلب العلوم ذات الصبغة النظرية والعملية على السواء.

[جـ] أنها لم تكن بناءة في الجانب الفلسفي، ولذلك عم الجمود، وكادت الحركة العقلية أن تتوقف تماما[٣]، اللهم ألا بصيص النور الذى كان يتسلل من خلال بعض الاتجاهات الأدبية، والمحاكلة اللفظية التي أثرت في الألفاظ، ولم يكن لها أدنى وجود بالنسبة للفكر من الناحية الإيجابية.

[د] أنها كانت أحد عوامل تخلف الشرق، حيث جعلت الغرب يأخذ بركب التقدم فيسبق، رغم أن حضارة الشرق هي الأسبق وجودا[٤]، فلما جاء الإسلام أعلاها قدرا، وأزكاها موضوعات، وأكثرها زينة ورفعة، ولكن ذلك كله قد تخلف فراح المتأخر وجودا يسبق المتقدم عليه، مما كان له كبر الأثر السلبي على الحياة الفكرية والعلمية

---

(١) يمكن مطالعة هذه الآثار والمعالم في المؤلفات الكلامية والأصولية على حد السواء، وبخاصة تلك التي ألفت فيما بعد القرن الخامس الهجرى.

(٢) والمفكر ما لم تتح له الظروف الطبيعية على سبيل التوافق للإنتاج الذهني الجيد، فإن أبحاثه تتسم بالتسرع، وتجيء فيها عناصر الرعونة.

(٣) الدكتور السيد حسن مسلم – الفلسفة وعلاقتها بالعلوم ص١٦١ ط الدار الجديدة ١٩٦٥م.

(٤) الدكتور خيرى عبدالعظيم – مشكلات فلسفية ص٧١ – ط دار التوفيق ١٩٧٦م.

الخامسة : مرحلة الاستقلال التام:

أجل ضاف الناس من عملية اختباء الفلسفة داخل المباحث الفقهية والأصولية؛ لأن ذلك لا يحقق الفائدة من الفلسفة، وإنما أدى إلى الخلط السيئ بين الفلسفة والعلوم الأخرى، فالفقه مثلا وأصوله قد بدأ الناس يضيقون بدراستهما لاختلاط ألفاظهما بالمصطلحات الفلسفية[١]، حيث ظهر الغموض الشديد، وكثرت المقدمات الطويلة المغرقة فى الألفاظ والمصطلحات الفلسفية الخالصة، مع أن الموضوع فى الفقه والأصول.

كذلك ضاق الناس بدراسة التفسير الذى تسللت إليه المصطلحات الفلسفية، فأفسدت جماله وأذهبت من النفوس ما فيه من روعة، لا لأن الفلسفة سيئة، وإنما لعدم اندماج المصطلحات الفلسفية مع المصطلحات التفسيرية[٢]، ولا نستغرب ذلك، فلو أننا خلطنا كأسا من التفاح الممتاز، مع قطعة من اللحم الممتاز فى إناء واحد، ثم قدمناه لجائع ذواق، فسوف يرفضه مع جوعه الشديد، لا لأن بالتفاح واللحم عيبا، ولا لأن فى المتقدم له هذا الخليط عيبا، وإنما العيب فى خلط نوعين فى كأس واحد وهما لا يلتقيان بهذه الطريقة.

من ثم كانت هناك ضرورة داعية لفصل كل علم من العلوم، أو فن من الفنون عن الآخر، وقد ساعد على ذلك وجود العديد من العوامل. أهمها:

[أ] **ظهور بعض القيادات المستنيرة، وتوليها زمام السلطة**[٣]، فأتاح ذلك للفلاسفة فرصة التقاط الأنفاس من تلاحقها، وانتشال الأفكار الجادة من وهدتها، والاستعداد لتعاطى المعارف على طرائقها الطبيعية، ومن خلال المناهج العلمية، دون التفاف حول مسائلها، أو اجتزاء لقضاياها

[ب] **ظهور الثورة العلمية التى واكبت عصر النهضة فى أوربا**، وتفرغ العديد من الباحثين للمعارف والعلوم تناولا ودراسة[٤]، والاستخدام لأدوات الطباعة والمتغذيات والمستجدات، ودفع المهتمين بها إلى تثبيت أقدامهم من خلال فرض المكافآت الكبيرة لكل من يتقدم بفكرة جديدة[٥]، أو يعمل على تطبيقها فى مجال العلوم أيا كانت طبيعتها.

---

(١) بل ما تزال بعض المؤلفات الفقهية خاصة بالمصطلحات الفلسفية التى تجعل عملية التفهم للأصول الفقهية من الصعوبة بمكان، كالحال مع المنهاج والمفتاح والإيضاح، وحاشية قليوبى وعميرة والورقات، بل الشرح الكبير على حاشية الدسوقى، وأمثال هذه المؤلفات العظيمة فى مباحثها، لكنها شديدة الصعوبة، لاختلاطها كمباحث كلامية أو فقهية أو تفسيرية بالمباحث الفلسفية.

(٢) لما هو معروف من أن كل علم من العلوم له اصطلاحاته الخاصة به، ولا يمكن أن تقوم الاصطلاحات فى علم بعينه، ثم تنزع منه لتحل فى غيره، كما أن القاعدة قاضية: أنه لا مشاحة فى الاصطلاح.

(٣) الدكتور خليل محمد خليل – القيادة وأثرها فى توطيد الحكم ص٥٧ ط دار مراد ١٩٥٦م.

(٤) الدكتورة سلوى نصر الدين – الحضارة الحديثة ص٦١ ط٢/١٩٨١م.

(٥) الدكتور عبدالعظيم محمد شلباية – عوامل ظهور الحضارات ص٤٤ طبعة الدار الجديدة ١٩٦٧م.

[جـ] **بروز أهل الخير وشيوع الأوقاف الخيرية فى البلاد الإسلامية**، وتوزيع ريعها على طــلاب العلم، مما مكن لأصحاب النفوس ذات الإمكانيات العالية على استخدامها بكل طاقتهـــا[1]، وإفراغ ذلك كله فى علوم متخصصة، طابعها الاستقلال فى البحث والموضوعات والغايـــات، بغض النظر عن تقاربها فى النتائج أو تباعدها.

[د] **تبنى بعض الجهات طائفة معينة، تكون مهمتها البحث الجاد فى علم واحد** على ناحية الدقـة والعمق، ولا ممانعة فى المشاركة الثقافية لبعض العلوم الأخرى، فظهرت فى العالم الإســـلامى مدارس الحديث، ومدارس الفقه، وربط الصوفية، ومدارس العلوم العربية، كالحال مع البصر والكوفيين، وكان الجامع الأزهر الشريف منارة عالية، يقوم بذلك كله من خـــلال أســاتذته وطلابه، داخل الأروقة المنتشرة بداخلة وحلقات الدرس التى تنعقد بجوار أعمدتــه المباركـــة، وكذلك معاهده التى كانت منارة، تشع أنوارها فى مدن مصر الكبيرة، حتى انجـــذب إليـــها طلاب العلم الراغبون فى العلم الإلهى، على وجه الخصوص، والعلوم الإسلامية علـــى وجــه العموم.

[هـ] **الحاجة إلى الإبداع فى كل فن على حدة** بغرض تطبيق نتائجها فى الواقع العملـــى المعـــاش، يستوى فى ذلك أن تكون نظرية أم تجريبية.

إذن علاقة الفلسفة بالمجالات المختلفة لم تكن على شاكلة واحدة، أو طريقة ثابتـــة، وإنمـــا كانت ذات طبيعة لولبية تضيق حينا وتتسع أخر، أو تنفصل حينا ثم تتداخل فى وقت أخـــر، لكـــن الاستقلال كان هو الحلقة الأخيرة من الحلقات، التى صارت محكمة السرد بين الفلســـفة والعلـــوم المختلفة.

---

(١) الشيخ محمد مرسى العشرى – الوقف الخيرى ومشروعيته ص٧٣ طبعة دار الاستقامة، وراجع للشيخ محمد بخيـــت – محاضرات فى نظام الوقف .



علاقة الفلسفة بكل من:

العلم - القيم

الميتافيزيقا - تاريخ الفلسفة

﴿ د- علاقة الفلسفة بالعلم ﴾

تمهيد

من المؤكد أن الله تعالى قد أمر بالعلم، وحبب فيه؛ لأن أهل العلم هم المتميزون على غيرهم عند الله جل علاه. قال تعالى: ﴿**أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾(١).

۞ **قال الإمام النسفي** : « أمن هو مطيع كمن هو عاص فى ساعات الليل؛ لأنه يحذر عذاب الآخرة، ويطلب الجنة، ففيه دلالة على أن المؤمن يجب أن يكون طيلة عمره قائما بين الخوف والرجاء؛ ولذا يرجو رحمته لا عمله ويحذر عقابه لتقصيره فى علمه؛ لأنه لا يستوى الذين يعلمون ويعملون بالذين يعلمون ولا يعلمون، وكما لا يستوى العالم والجاهل، فكذلك لا يستوى المطيع والعاصى »(٢)، لما بين كل منهما من فوارق. « فكأنه جعل من لا يعمل غير عالم، وفيه ازدراء عظيم بالذين يقتنون العلوم، ثم لا يقتنون ويفتنون بالدنيا، فهم عند الله جهلة، حيث جعل القانتين هم العلماء، أما غيرهم فلا التفات لهم، ولا اعتداد بهم »(٣).

۞ **ويقول العلامة الزمخشرى**: « أراد بالذين يعلمون ممن سبق ذكرهم، وهم فى نفس الوقت القانتون، وبالذين لا يعلمون الذين لا يأتون بهذا العمل كأنه جعل القانتين هم العلماء، وهو تنبيه على أن من لم يعمل فهو غير عالم، وفيه ازدراء عظيم بالذين يفتنون العلوم على سبيل المعرفة بها، ثم لا يقتنون ويفتنون فيها، ثم يفتنون بالدنيا فهم عند الله جهله، رغم أنهم بين الناس فى عداد العلماء »(٤).

---

(١) سورة الزمر – الآية ٩، هذه الآية الكريمة تقرر عدم المساواة بين العالم والجاهل، بصيغة الاستفهام التقريرى، (هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون؟) لأن العاقل لا ينكر هذه الحقيقة الواضحة، فلا يستوى النقيضان، العلم والجهل، كمالا يستوى الأبيض والأسود، والأعمى والبصير، والظلمات والنور، والظل والحرور. إذ العالم تتفتح بصيرته، فتتكشف له الحقائق، فيقدر الله حق قدره، ويعرف واجبه تجاه ربه، لكن الجاهل لا تستنير بصيرته، فهو أعمى لا يدرك الحق، ولا يعرف الحقيقة، ومن ثم فهو يعاديها؛ لأنه قد جهل بها. [دكتور عبدالوهاب محمد عبدالله سليم - بناء الإنسان فى القرآن (رسالة دكتوراه) بكلية أصول الدين والدعوة بالزقازيق ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م].

(٢) الإمام النسفى – مدارك التنزيل وحقائق التأويل - ج٤ ص٤٠ .

(٣) الإمام النسفى - تفسير النسفى - جـ٤ ص٥٢٢ - طبعة دار الكتاب العربى بيروت -

(٤) الإمام الزمخشرى - الكشاف جـ ٩ ص٢٦٥ .

۞ **وذكر الإمام القرطبى:** « الذين يعلمون هم الذين ينتفعون بعلمهم ويعملون به، فأما من لم ينتفع بعلمه، و لم يعمل به، فهو بمنزلة من لم يعلم »[١]، بل إنه صار بما علم مسئولا عنه، ومن ثم فإنه إذا لم يعمل بما علم، فقد ظلم نفسه، ولا يفعل ذلك إلا الجاهل.

۞ **وقال الإمام الشوكانى:** « وقيل المراد بالذين يعلمون هم العاملون بعلمهم، فإنهم المنتفعون به؛ لأن من لا يعمل بمنزلة من لم يعلم، وعلى هذا فكل من علم و لم يعمل؛ يعاقب بالحرمان من نور العلم »[٢]، وفى الحديث الشريف عن أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من عمل بما يعلم ورثه الله علم ما لم يعلم »[٣].

۞ **وقال الإمام القاسمى**[٤]: « فى الآية إشعار بأن الذين يعلمون هم العاملون بعلمهم،إذ عبر عنهم أولا بالقانت، ثم نفى المساواة بينه وبين غيره؛ ليكون تأكيدا له، وتصريحا بأن غير العامل كأنه ليس بعالم »[٥]، وبالتالى فقد جاء الكلام على سبيل الاستفهام الإنكارى.

كما أن العلماء هم أهل القرب من الله تعالى حبا له، وتعلقا به، وانصرافا عن كل ما يغضبه جل علاه. قال تعالى: ﴿**إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور**﴾[٦].

فعن ابن عباس ﷺ قال: « العالم بالرحمن من عباده، من لم يشرك به شيئا، وأحل حلاله وحرم حرامه، وحفظ وصيته، وأيقن أنه ملاقيه، ومحاسبه بعمله. وعن على ﷺ قال: إن الفقيه حق الفقيه، من لم يقنط الناس من رحمة الله، و لم يرخص لهم فى معاصى الله تعالى، و لم يؤمنهم من عذاب الله، و لم يدع القرآن رغبة عنه إلى غيره، إنه لا خير فى عبادة لا علم فيها، ولا علم لا فقه فيه، ولا

---

(١) الإمام القرطبى - الجامع لأحكام القرآن - جـ٩ ص٥٦٨٤.

(٢) العلامة الشوكانى - فتح القدير - جـ٣ ص٨١٠، طبعة دار الفكر .

(٣) العلامة أبو نعيم الأصبهانى – حلية الأولياء ج١٠ ص١٥ ، وذكره ابن كثير – تفسير القرآن العظيم ج٤ ص ٥٢٩، وفى الأثر: عن يحيى بن جعدة عن علي قال يا حملة العلم اعملوا به فإنما العالم من عمل بما علم ووافق علمه عمله، وسيكون أقوام يحملون العلم لا يجاوز تراقيهم، يخالف عملهم علمهم، وتخالف سريرتهم علانيتهم، يجلسون حلقا فيباهي بعضهم بعضا، حتى إن الرجل ليغضب على جليسه أن يجلس إلى غيره، ويدعه أولئك لا تصعد أعمالهم في مجالسهم تلك إلى الله. [الدارمى – سنن الدارمي ج١ ص١١٨ رقم: ٣٨٢]

(٤) القاسمي : هو جمال الدين بن محمد بن سعيد بن قاسم القاسمى. ولد بدمشق سنة ١٢٨٣هـ/١٨٦٦م، ونشأ وتعلم بها واشتغل فيها بإلقاء الدروس، ثم رحل الى مصر وزار المدينة وعاد إلى دمشق، وانقطع فى منزله للتصنيف، من أشهر مصنفاته: (محاسن التأويل فى القرآن الكريم)، و (إصلاح المساجد من البدع والعوائد). توفى سنة ١٣٣٢هـ/١٩١٤م. [معجم المؤلفين - دار إحياء التراث العربى - بيروت].

(٥) العلامة القاسمى - تفسير القاسمى جـ١٤ ص٥١٣١ .

(٦) سورة فاطر - من الآية ٢٨ . وهذه الآية الكريمة تبين لنا، أن أهل العلم هم أشد الناس خشية لله تعالى؛ لأنهم أكثر الناس معرفة به.

قراءة لا تدبر فيها.وعن ابن مسعود قال: ليس العلم عن كثرة الحديث، ولكن العلم كثرة الخشية من الله تعالى.

وعن سعيد بن جبير[١]. قال: الخشية من الله تعالى هى التى تحول بينك وبين معصية الله عز وجل. وعن الحسن البصرى قال: العالم من خشي الرحمن بالغيب، ورغب فيما رغب الله فيه، وزهد فيما زهد الله فيه، ثم تلى ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾[٢]. وقال الربيع بن أنس: من لم يخشى الله، فليس بعالم. وقال مجاهد: إنما الفقيه من يخاف الله عز وجل»[٣].

۞ **ويقول الأستاذ عبدالكريم الخطيب:** « فإن هذه الخشية لله، هى التى تقع فى القلوب، وتستولى على المشاعر، ولا تجيء إلا عن علم بالله من جلال وقدرة وعلم وحكمة، وهذا العلم، لا يحصل إلا بالبحث الجاد، والنظر المتأمل، والعقل الدارس المفكر فى خلق السماوات والأرض، وما فى السماوات والأرض. فمعرفة الله أولا، ثم الخشية ثانيا، وأنه لا خشية إلا عن معرفة بالذات التى تخشى ويخشى سلطانها، ويخاف بأسها. وأنه لا معرفة إلا عن نظر وتفكر وتدبر، وذلك شأن أهل العرفان بالله رب العالمين »[٤].

وبالتالى فقد وردت مادة الكلمة ع ل م فى القرآن الكريم حوالى ست وثمانمائة مرة[٥]، مما يؤكد عربيتها من ناحية، وعروبتها أيضا، بجانب أن ذلك يكشف عن علاقة بين مادة الكلمة (ع ل م) وبين مادة كلمة الحكمة البديل الطبيعى الوافى فى العربية عن الفلسفة للفظ اليونانى، وهذه العلاقة تجيء فى المحسوسات تارة، إن كان المراد من مادة (ع ل م) السمة المميزة، أو العلامة الفاصلة[٦]، كما تجيء العلاقة بين الحكمة والعلم فى المعقولات تارات عديدة غالبا، على معنى الفهم أو معنى الإحساس الكامل، أو ارانه العالية والمعرفة الكاملة الصحيحة.

---

(١) سعيد بن جبير : هو سعيد بن جبير بن هشام الأسدى بن محمود الكوفى إمام فقيه عابد فاضل، ورع حجة الله على المسلمين من التابعين، قتله الحجاج بن يوسف صبرا سنة ٩٥هـ . التهذيب - جـ٤ ص٢١١ .

(٢) سورة فاطر - من الآية ٢٨ .

(٣) الإمام القرطبى - الجامع لأحكام القرآن - جـ٨ ص٥٤٢٦ .، وابن كثير - تفسير القرآن العظيم جـ٣ ص٥٥٤

(٤) الأستاذ عبدالكريم الخطيب - التفسير القرآنى للقرآن - جـ٢٢ ص٨٨١/٨٨٢ .

(٥) الأستاذ محمد فؤاد عبدالباقى - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم - باب العين ص٤٦٩/٤٨١ ولا شك أن ورود الكلمة بهذا العدد الكبير جدا فى القرآن الكريم، يؤكد على أن الدين الإسلامى يدعو للعلم ويحبب فيه، لكن بشرط أن يكون علما نافعا.

(٦) ومنه قولهم علم الرجل ابنه بعلامة،حتى لا يضيع منه فى الزحام. [لسان العرب ج١٢ ص٤١٩] وكان أد بن طابخه اليمنى ممن علمتهم أمهاتهم بشيء لا يغيب عنها، حيث كانت إذا أرادت الذهاب للحج فإنها تضع صوفة على قفا ولدها، بحيث تميزه عن غيره، ولذا قالوا عليه صوفة، ونسب الصوفيه إليها باعتبار السحولة الشديدة. [راجع للإمام ابن عجيبة - الفتوحات الإلهية فى المباحث الأصلية ص٤٣] والمعلم هو الأثر الذى يستدل به على الطريق. [قطر المحيط - باب العين]

بيد ان العلم لدى الدارسين لا يتـم التعامل معه على ناحية واحدة، وإنما يجيء على العديد من الاعتبارات والصور المختلفة من أبرزها:

❊ **أـ باعتبار الموضوع:** وعرفوه بأنه الموجود فى الذهن على طريق الكسبيات أو البدهيات والفطريات، كالعلم بالله تعالى، فإن معرفة الله عز وجل مستقرة فى الفطر النقية، قائمة فى العقول الصحيحة(١).

❊ **بـ باعتبار الملكة المدركة:** وعرفوه بأنه ما يكون قارا فى النفس الناطقة والمشاعر على جهة الفعل والانفعال، لا على أنه عرض، وإنما على أنه حقيقة ثابتة، لكن هذا التعريف لم يسلم للقائلين به(٢).

❊ **جـ باعتبار التقسيمات العامة:**

☆ ١ – **العلم الإلهى** : وهو « علم باحث عن أحوال الموجودات التي لا تفتقر في وجودها إلى المادة، وقيل هو الذي لا يفتقر في وجوده إلى الهيولى »(٣)، وربما عرف بأنه صفة أزلية قديمة، بها انكشاف جميع الموجودات والمعلومات انكشافا تاما(٤).

☆ ٢ – **العلم الإنسانى:** ويعرف بأنه العلم الحادث على سبيل الاكتساب، أو النظر المرادف للمعرفة والإدراك(٥).

❊ **دـ باعتبار الفائدة:** وعرفوه بأنه ما يترتب عليه منفعة فى الحال والاستقبال، ويدفع عن صاحبه مضرة عاجلة أو آجلة ، سواء تعلقت بالدنيا أم بالآجرة.

❊ **هـ باعتبار الأنواع(٦):**

---

(١) راجع كتابنا: الإيمان بالغيب وأثره على الفكر الإسلامى، وكتابنا: حبو الوليد فى علم التوحيد.

(٢) العلم الفعلي ما لا يؤخذ من الغير . [التعريفات ص٢٠١ رقم: ٩٩٧] والعلم الإنفعالي ما أخذ من الغير , [نفس المصدر ص٢٠٠ رقم: ٩٩٢]

(٣) الجرجانى – التعريفات ج١ ص٢٠٠ رقم:٩٩٠.

(٤) العلامة الشيخ محمد بن حسن الثروى – العقيدة الإسلامية ص٥٣ .

(٥) الشيخ رزق محمد أبو سمرة – حاشية على متن السلم ص١٣ .

(٦) ذكر العلامة الجرجانى العديد من أنواع العلم منها : [١] العلم الإنطباعي هو حصول العلم بالشيء بعد حصول صورته في الذهن ولذلك يسمى علما حصوليا . (راجع التعريفات ج١ ص٢٠٠ رقم: ٩٩١) [٢] العلم الإنفعالي ما أخذ من الغير , [نفس المصدر رقم: ٩٩٢] [٣] علم البديع: هو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية مطابقة الكلام لمقتضى الحال ورعاية وضوح الدلالة أي الخلو عن التعقيد المعنوي. [المصدر السابق رقم: ٩٩٣] [٤] علم البيان: علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه. [المصدر السابق رقم: ٩٩٤]. [٥] علم الجنس ما وضع لشيء بعينه ذهنا كأسامة فإنه موضوع للمعهود في الذهن. [نفس المصدر ص٢٠١ رقم: ٩٩٥] [٦] العلم الحضوري هو حصول العلم بالشيء بدون حصول صورته في الذهن كعلم زيد نفسه. [السابق رقم: ٩٩٦] [٧] العلم الطبيعي هو العلم الباحث عن الجسم الطبيعي من جهة ما يصح عليه من الحركة والسكون. [نفسه رقم: ٩٩٨] [٨] علم الكلام علم باحث عن الأعراض الذاتية للموجود من حيث هو على قاعدة الإسلام. [السابق رقم: ٩٩٩] [٩] علم المعاني هو علم يعرف به أحوال اللفظ العربي الذي يطابق مقتضى الحال. [السابق رقم: ١٠٠٠] [١٠] علم اليقين ما أعطى الدليل بتصور الأمور على ما هي عليه. [الجرجانى – التعريفات – ج١ ص٢٠١ رقم: ١٠٠١] ولطالب المزيد مراجعة التعاريف للعلامة المناوى ج١ ص٥٢٣/٥٢٤ .

☆١- البديهي.
☆٢- الضروري
☆٣- الفطري.
☆٤- الكسبي: « العلم الاكتسابي هو الذي يحصل بمباشرة الأسباب »[١].
☆٥- الاستدلالي.

وكل منها تجيء معه تعريفات عديدة.

☆ و- باعتبار القدم والحدوث:

☆١- **العلم القديم المطلق** «وهو علم الله تعالى، وهو قائم بذاته تعالى لا يقع له شيء من الشبه بالعلوم المحدثة »، ويقول الجرجاني: « العلم القديم هو القائم بذاته تعالى ولا يشبه بالعلوم المحدثة للعباد »[٢].

☆٢- **العلم القديم النسبي**: كعلم الملائكة وأبينا آدم عليه السلام.

☆٣- **العلم المخلوق الحادث**، ويسمى العلم المحدث أيضا ومنه العلم الفيزيائي أو العلم الميتافيزيقي. يقول الجرجاني: « العلم المحدث ينقسم إلى ثلاثة أقسام: بديهي وضروري واستدلالي فالبديهي ما لا يحتاج إلى تقديم مقدمة كالعلم بوجود نفسه وان الكل أعظم من الجزء والضروري ما لا يحتاج فيه إلى تقديم مقدمة كالعلم بثبوت الصانع وحدوث الأعراض والاستدلالي هو الذي يحصل بدون نظر وفكر وقيل هو الذي لا يكون تحصيله مقدورا للعبد »[٣].

غير أني سأبحث هنا مفهوم العلاقة بين العلم والفلسفة، باعتبار أن ذلك هو المقصود في هذه الدراسة، والبادي ان بين العلم والفلسفة علاقة من نوع ما، وهذه العلاقة لم تكن على حال واحدة قديما وحديثا، وإنما كانت تأخذ صورا واشكالا مختلفة، طبقا لظروف كل من العلم والفلسفة، فإذا اضطهد العلم مثلا، كالحال في العصور الوسطى، فإن الفلسفة هي الأخرى يقع لها نفس الشيء،

---

(١) الجرجاني - التعريفات ج١ ص٢٠٠ رقم: ٩٨٩ ،وراجع التعاريف للمناوي ج١ ص٥٢٣.

(٢) الجرجاني - التعريفات ج: ١ ص: ٢٠٠ رقم: ٩٨٨.

(٣) الجرجاني - التعريفات ج: ١ ص: ٢٠٠ رقم: ٩٨٨. ويعرف الجرجاني العلم بأنه « الاعتقاد الجازم المطابق للواقع وقال الحكماء هو حصول صورة الشيء في العقل والأول أخص من الثاني وقيل العلم هو إدراك الشيء على ما هو به وقيل زوال الخفاء من المعلوم والجهل نقيضه وقيل هو مستغن عن التعريف وقيل العلم صفة راسخة في النفس تدرك بها الكليات والجزئيات وقيل العلم وصول النفس إلى معنى الشيء وقيل عبارة عن إضافة مخصوصة بين العاقل والمعقول وقيل عبارة عن صفة ذات صفة وقيل ما وضع لشيء وهو العلم القصدي أو غلب وهو العلم الاتفاقي الذي يصير علما لا بوضع واضع بل بكثرة الاستعمال مع الإضافة أو اللام لشيء بعينه خارجا أو ذهنا ولم تتناوله الشبهة » [التعريفات ج: ١ ص: ٢٠٠ رقم: ٩٨٨]

باعتبار أن العلم هو الذى يقود للفلسفة، أو أنها التى تدفع للعلم، ومتى كانت السيادة لأصحاب فرع من فروع العلم التقليدية، فإنهم يخاصمون الفلسفة والفلاسفة أيضا.

ومن ثم فإن هذه العلاقة تجيء فى الصور الآتية :

١ـ الترادف أو تبادل المواقع.

ومعناه أن العلم والفلسفة شيء واحد من حيث الاستعمال، لا من حيث الإطلاق اللغوى، فمتى أطلق لفظ العلم، فهم منه لفظ الفلسفة، أو معناها على طريق التضمن، وكان هذا المعنى سائدا لدى المصريين القدماء، الذين كانوا يطلقون لفظ الحكيم أو الكاهن على المتمكن من العلم بمعناه الشامل(١)، وإن كان لفظ الكاهن يطلق كثيرا على أولئك النفر الذين خصوا أنفسهم بالمعابد قياما عليها، ومراعاة لأحكامها، والقيام بالطقوس المفروضة على من يقيمون بها أو يقومون بأعباء الخدمة فيها(٢).

وكان الكهنة من جنس الفلاسفة، كما كان الفلاسفة كهنة يقومون بإلقاء العظات فى المعابد، أو توجيه الأنظار إلى فوائد العلم، والدفع بمن لديهم قدرات إلى ممارسة ذلك كله فى الميدان النظرى والعملى معا، حتى صار الفيلسوف هو العالم وهو الكاهن، لكن مع استعمال لفظ الحكيم بدل لفظ الفيلسوف، على ما أخبرت به الوثائق التاريخية(٣).

وفى العالم القديم قبل العصور التاريخية، كان كل عالم فى شيء ما هو فيلسوف به حكيم فيه، ويتم التعامل معه على الناحيتين فى آن واحد، وبخاصة إذا كان ممن يجيدون عملية الفحص والعلاج، فكان المريض يذهب إلى حلقات العلم قلية العدد، ثم يبحث عن ذلك الحكيم داخل الأماكن التى يتردد تلاميذه فيها عليه، ليقوم بفحصه ووصف العلاج المناسب له، وربما أعطاه الدواء من الذى بحوزته(٤)، فهو يمارس العلم على الناحية العملية، كما يمارس الفلسفة على الناحية النظرية.

أما فى بلاد اليونان فكان اسم العالم يطلق على الفيلسوف قبل ارسطو، باعتبار أنه الذى يولى القضايا الصحيحة أهمية كبرى، فى الوقت الذى كان يطلق لفظ الراوى أو الحاكى على أصحاب السير وقصاص الأخبار والخرافات أو الأساطير(٥)، فكان هذا التمايز علامة على أن العلم والفلسفة شيء واحد فى مقابلة ما لا تجيء الأدلة الصحيحة معه.

---

(١) توماس هيرز – العلم و الفلسفة ص٣٤ ترجمة رمزى فخرى ط١/١٩٦١م.

(٢) الدكتور زين العابدين محمد أبو هدية –التراث المصرى القديم ص١٣٧ ط١ المكتبة العلمية – بيروت ١٩٦٧م.

(٣) توماس هيرز – العلم والفلسفة ص٣٦ ، وراجع ص٤٧/٥٥ ففيها تفاصيل كثيرة عن أعمال الكهنة داخل المعابد المصرية القديمة وخارجها.

(٤) الدكتور فورى محمد الطحان – معالم الحضارة القديمة ص١٧١ ط دار الفؤاد١٩٨١م.

(٥) توماس هيرز – العلم والفلسفة ص٤١ .

من ثم يمكن القول بأن العلم والفلسفة من الألفاظ التى يجيء معها التوارد على مفهوم بعينه، حيث يطبق على يقع فى وضع الشيء فى موضعه وهو الحكمة[١]، أو يقع فى مفهوم الموجود الذهنى، الذى تبنى عليه الحضارات وهو العلم[٢]، وبقدر ما يقع من توارد أو ترادف يقع ذات تبادل المواقع.

أما فى بلاد الإسلام فاسم العلم كان يطلق على كل الفنون والعلوم المشروعة من قبل الله تعالى، أو التى توصل إلى العلوم المشروعة، باعتبار أن ما يتوصل به إلى الواجب فهو أيضا واجب على لسان الشرع[٣]، الذى أمر به ونبه إليه.

ودليل ذلك: وجود جملة من الفلاسفة الأفذاذ، كانوا فى ذات الوقت من أجلة العلماء، الذين يشار إليهم بالنبان، كأفلاطون وأرسطو فى بلاد اليونان، والفارابى وابن سينا والرازى وابن رشد فى بلاد الإسلام[٤] ، وكل واحد منهم كان يطلق عليه لفظ العالم، كما كان يطلق عليه لفظ الفيلسوف.

بل كان أهل الإسلام يطلقون على المشتغل بالعلوم العقلية اسم الحكيم، بينما يطلقون على المشتغل بالتفسير وعلومه: اسم المفسر، والمشتغل بالعلوم الحديثية: محدث، والمشتغل بعلوم الفقه[٥]: اسم الفقيه، وعلى المشتغل بأصول الفقه: اسم الأصولى، وهكذا فكل فرع من فروع العلوم الشرعية كان يطلق على المشتغل به الوصف المناسب لطبيعة ذلك العلم[٦].

٢ـ العموم والخصوص:

لما انفتحت الأمصار واتسعت الديار، أو كثرت فى الناس العلوم، وتنوعت بهم المعارف، صار لفظ الفلسفة أخص من لفظ العلم، إذ كان لفظ العلم يطلق على ما يفيد من المعارف، ويمكن مراجعته على القواعد الثابتة، التى يحتكم إليها[٧]، بينما كان لفظ الفلسفة يطلق على مبحث محدد هو

---

(١) الشيخ نور الدين الصابونى – الكفاية على الهداية ص٣٣ ط محمد على صبيح .

(٢) العلامة القاضى أبو بكر الباقلانى – الإنصاف ص١٣ ط المكتبة الأزهرية – تحقيق الشيخ محمد زاهد الكوثرى.

(٣) إمام الحرمين الجوينى – الورقات فى أصول الفقه ص٢٧ .

(٤) الدكتور محمد غلاب – المعرفة عند مفكرى المسلمين ص٩٣ .

(٥) الفقه هو في اللغة عبارة عن فهم غرض المتكلم من كلامه وفي الاصطلاح هو العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسبة من أدلتها التفصيلية وقيل هو الإصابة والوقوف على المعنى الخفي الذي يتعلق به الحكم وهو علم مستنبط بالرأي والاجتهاد ويحتاج فيه إلى النظر والتأمل ولهذا لا يجوز أن يسمى الله تعالى فقيها لأنه لا يخفى عليه شيء. [الجرجانى - التعريفات ج١ ص٢١٦ رقم: ١٠٩٨]

(٦) الدكتور محمود فوزى الثروى – دراسات فى الفلسفة الإسلامية ص٣٥ وراجع للدكتور حسن محمد سالم – الفلسفة والتصوف – دراسة مقارنة ص٥٩ .

(٧) توماس هيرز – العلم والفلسفة ص٧٣ .

الوجود، ولما كان العلم أشمل من الوجود، فإن لفظ العلم يكون اعم من الفلسفة أيضـا، باعتبار الموضوع الذى تتناوله الفلسفة، أو يتناوله العلم[١].

ففى بلاد اليونان كان لفظ العلم أعم من لفظ الفلسفة، إذ أن لفظ الفلسفة كان يطلق على تلك الجماعة التى تجوب بعضا من بلاد الإغريق، يعلمون الناس الجدل، ويصرفونهم إلى أعمال الغوغائية، وكيفية التلاعب بالألفاظ والتحاور بالمعانى[٢]، التى ترد على جهات متعددة.

وفى بلاد الصين والهند كان لفظ الحكمة يرادف لفظ الفلسفة – من حيث المفهوم – لكنهما يختلفان عن لفظ العلم الذى كان يطلق على أخص المباحث المعرفية، بحيث صار أى نوع من أنواع المعرفة – حتى لو كان ذلك متعلقا بمصدر المعرفة، أو درجتها فى اليقين أو الظن – هو العلم[٣]، ومن ثم فقد كانت الفلسفة عندهم أعم من العلم.

إذن وقع لكل من الفلسفة والعلم العموم والخصوص فى بلاد الشرق والغرب، وقد أكدت الدراسات العلمية – التى قامت على أسس صحيحة – أن كلا من الفلسفة والعلم تجىء معه مسألة العموم للفلسفة والخصوص للعلم حينا، ثم تجىء مسألة العموم للعلم والخصوص للفلسفة فى الحين الآخر، ومثل ذلك يكون الحال مع الخصوص.

أما فى حواضر العالم الإسلامى، فقد بدأت العلوم فى التنوع باعتبار النظرى والعملى، العقلى والنقلى، وهذا التنوع ارتبط به كل من العلوم الضرورية البدهية والكسبية الفعلية والانفعالية[٤]، بينما كانت الفلسفة – أول أمرها – تلتزم طرائق البحث النظرى وحده، باعتبارها تفكيرا عقليا وعملا ذهنيا مجردا.

وقد ظهرت المفاهيم المتخالفة بين العلم والفلسفة، على سبيل التمايز لدى مفكرى الإسلام الأوائل، ابتداء من أصحاب الرأى فى المعتزلة[٥]، ولدى شيوخ المذهب الحنفى، الذين كانوا يستحبون الوصف بالحكيم متى كان جامعا بين علوم الدين والدنيا، والوصف بالعالم إذا كان مشتغلا بالعلوم الدينية وحدها[٦]، وكثيرا ما كان يطلق لفظ الحبر أو البحر أو الإمام أو العلامة على المتمكن من العلوم الشرعية، وفى نفس الوقت يطلق لفظ الحكيم على الجامع معها العلوم العقلية والدنيوية من الطب والرياضة والطبيعة وخلافه.

---

(١) الدكتور محمود فوزى الثروى – دراسات فى الفلسفة الإسلامية ص٣٧.

(٢) توماس هوز – العلم والفلسفة ص٨٦، مع ملاحظة أن الذى يقوم بذلك الدور فى بلاد اليونان قديما هم السوفسطائيون وحدهم فى الغالب.

(٣) الدكتور حسن محمد عبدالعظيم – الفلسفات القديمة ص١٨١.

(٤) الدكتور حسن محمود قطب – الفلسفة بين الأنصار والخصوم ص٩٣.

(٥) الدكتور محمود نصر الدين الهوارى – المعتزلة واتجاهاتهم الفكرية ص٨٥ ط١/١٩٥٧م.

(٦) الأستاذ نعيم محمد لطفى – مدرسة الرأى وأثرها فى الفكر الإسلامى ص١٩.

وكان لفظ الحكيم يطلق على الأطباء والفلاسفة، حتى اشتهر ذلك بين العامة، فمتى مـــرض آحاد الناس وأرادوا علاجه، قالوا: فلنذهب إلى الحكيم؛ لأن لديه دراية بتشخيص الأمراض، بجـــانب وصف الدواء اللازم، وإجراء الجراحات، التي يكون المريض بحاجة إليها[1]، فعرف ابن سينا بالحكيم، كما عرف غيره بذات اللقب أو تسمى به.

إذن يمكن القول بأن الفلسفة والعلم يتبادلان المواقع من العموم والخصـــوص، دون اعتبـــار لشيء من المفاهيم الأخرى، التي يعكف عليها البعض ممن يحاولون الرجوع بالأفكار إلى ثلـــة مـــن الماضي الضارب في أحضان الزمن البعيد، أو أولئك الذين يحاولون القفز بالمفـــاهيم مـــن العصـــور الوسطى إلى الزمن الذي يعاصرنا أو نتعاصر معه.

٢- احتياج كل منهما للآخر:

لا شك أن الفلسفة يمثلها التأمل كما يصوغها التفكير الجاد، ويدفع إلى نتائجها الوضـــوح في المعاني، وأن العلم يمثله المجهود الذهني، والاستنطاق للحوادث بجانب التجربـــة العمليـــة في العلـــوم التطبيقية، وبالتالي فلا يستغني الفيلسوف المفكر عن المجهود الذهني، ولا يستغني الباحث الجيد عـــن التأمل الهادف.

وبنفس القدر من الحماس العلمي يمكن القول بان العالم الفيزيائي يحتاج إلى جهود الفيلسوف الميتافيزيقي[2]، فالملاحظة العملية التي يقوم بها العالم مثلاً تنطوي على تأمل مقصود، وتفكير جاد تقوم به الفلسفة، ثم يكتشف العالم عناصر هذه الملاحظة على ناحية فيزيقية، فدل ذلك علـــى أن العلـــم محتاج إلى الفلسفة.

يقول شيخنا: « إن الملاحظة العلمية ليست مجرد تسجيل لما يطرأ على الظواهر، مـــن تحـــول أو تطور، فإن كل ملاحظة تنطوي على عنصر عقلي، كما أنها تعتبر محاولة أولية لتفسير الظواهـــر وفهمهما، كما العقل ليس آلة تسجيل فحسب، بل يتدخل بالفعل، ويقوم بدور إيجابي؛ لأنه يعزل الظاهرة، التي تحت الحواس عما عداها من الظواهر، حتى يمكن وصفها وتحليلها، والوقوف علـــى العلاقات التي تربط العناصر الداخلة في تركيبها »[3]. وهو دور يتواءم فيه العلـــم والفلســـفة، ويكشف احتياج كل منهما للآخر.

---

(١) الدكتور رمزي محمد المعداوي – الطب في البيئة الإسلامية ص٧٣ .
(٢) الدكتور حسن محمود قطب – الفلسفة بين الأنصار والخصوم ص٩٨ .
(٣) الدكتور علي محمد جبر – منطق حديث ص٥٣ – الطباعة الفنية، حيث تعرف الملاحظة العلمية بأنها التدخل الإنسـان في الظواهر الكونية، وإخضاعها للسيطرة ثم مراقبة النتيجة التي تجيء بعد ذلك. [المصدر نفسه ص٥٦]

حيث تعرف الظاهرة(١) بأنها « موضوع ذو وجود خارجي حقيقي، بصرف النظر عن صلته بالذهن، ولكل علم ظواهره التي يدور بحثه حولها، ولذلك تسمى كل ظاهرة بموضوعها التي تقع فيه، فيقال: الظاهرة الجوية؛ لأنها متعلقة بآثار الطبيعة، كما يقال: الظاهرة الكونية؛ لأنها متعلقة بالعوالم الكونية »(٢).

---

(١) تأتي الظاهرة في اللغة على عدة معان. منها [١] الوضوح والبيان: تقول العرب: ظهر الشيء الذي كان قد خفي فصار واضحا بينا، ومنه العين الجاحظة لوضوحها وبيانها. [العلامة مجد الدين الفيروز آبادى - القاموس المحيط - ج٢ ص٨٢ - باب الراء فصل الظاء ط الأولى - مطبعة الحسينية المصرية ١٣٣٠هـ. [٢] ما يعقب أصله: تقول العرب: فلان أظهر فلانا، والقوم أظهروا آباءهم إذا كانوا منجبيهم فكل سلف يظهره خلفه وكل فرع يظهر اصله.[محمد مرتضى الزبيدى - تاج العروس - باب الراء فصل الظاء ص٣٧١ - مطبعة الخيرية بجمالية مصر ج٣ سنة ١٣٠٦هـ] [٣] ما يحمل عليه غيره: ومنه قول العرب: حمل فلان متاعه على ظهره، ومما يذكر أيضا حملت المسألة أخبارها، وظهرت بها ظهورا لا يمكن خفاؤه.[المعلم بطرس البستاني - قطر المحيط ج٢ ض ى ص١٢٨٢ - طبعة مكتبة لبنان بيروت نقلا عن طبعة ١٨٦٩م]. [٤] القوة أو الضعف: تقول العرب: هو رجل مظهر يعني قوى الظهر، بحيث يمكن الاعتماد عليه متى كان صحيحا غير سقيم، هذا بالنسبة للإنسان، أما بالنسبة للحيوان فيمكن لنا استخدام ظهره. [العلامة الزمخشرى - أساس البلاغة - جـ٢ ص٦٠٨ - باب الظاء - مادة ظهر- ط الأولى - القاهرة - مطبعة دار الشعب ١٩٦١م] [٥] المعاونة والمؤازرة: يقال ظاهر فلان أخاه، وظاهر الجيش الآخر بمعنى عاونه في المهمة التي وكلت إليه وآزره فيها حتى أتمها على الناحية المنشودة. [العلامة أبو الحسن بن على بن الحسن - المنجد في اللغة - باب الظاء - مادة ظهر ص٢٥٧ - تحقيق د/ أحمد مختار وأخر - الطبعة الثانية - مطبعة عالم الكتب ١٩٨٨م] [٦] العلو والارتفاع: ومنه ما يقال : أظهرت البيت على الأرض، وعن أقرانه بمعنى أعليته ورفعته فصار ظاهرا على غيره عاليا عنه مرتفعا عليه. [العلامة ابن منظور - لسان العرب - ج٤ ص٢٧٦٩ - باب الظاء - مادة ظهر - طبعة دار المعارف ١٩٨٤م] [٧] المطابقة بين الشيئين : تذكر مصادر العربية قولها: ظاهر فلان بين الثوبين، يعني طابق بينهما، فعرف عن كل منهما ما يعينه على إصدار الحكم بشأن كل منهما في موضوعية ودقة.[محمد مرتضى - تاج العروس ص٣٧٤] [٨] الغلبة والانتصار :جاء عن العرب قولهم: ظهر قوم فلان على أعدائهم بعد أن كانوا مستترين تحتهم، ويقصد بذلك أنهم غلبوهم وانتصروا عليهم فظهروا حتى كأنهم وحدهم على الساحة، تشهد لهم بذلك أرض المعركة، ويستقر معهم أمر الظهور على الأعداء. [المعجم الوجيز - باب الظاء مادة (ظ هـ ر) ص٤٠٢ - م. الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ١٩٩٨م] [٩] الاستخفاف بالشيء: ذكرت مصادر العربية قولها ظهر فلان بالحاجة التي بلغه أمرها أو نما إليه شأنها، فلم يعرها اهتماما أو يخف لنجدتها وتقديم المساعدة لها على سبيل التقليل من شأنها أو الاستهانة بالعواقب المترقبة عليها [إصدار مجمع اللغة العربية - المعجم الوسيط - باب الظاء مادة ظهر ص٥٩٩ ج٢ ط٣ الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ١٩٨٥م] [١٠] التثبت: قالت العرب: ظهر فلان بين القوم بمعنى ثبت فصار كالعلم عليهم كما يقال قرأ فلان عن ظهر قلب يعني بما ثبت في فؤاده واستقر في أفهامه، وبات من السهل عليه استظهاره ومراجعة ما فيه. [الأستاذ / الطاهر أحمد الزاوى الطرابلسي - مختار القاموس ص٣٩٩/٤٠٠ ج١ م. عيسى الحلبي وشركاؤه ط١٤ سنة ١٩٦٤م]

(٢) الدكتور محمد صالح - الظاهرة تعريفها ودلالاتها ص٣٥ طبعة دار المشرق ١٩٧٧م وتعرف لدى علماء النفس بأنها « أمر عارض لا يمكن أن يستمر، وإنما يزول إذا زال سببه، باعتباره نزوعا نحو شيء ما دافع للعداونية ».[جان بلانش و ج ب نونتا ليس - ترجمة الدكتور / مصطفى حجازى - المعجم العام لمصطلحات علم النفس والتحليل النفسي ص٣٢٢ - المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع - ط أولى ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م] وعند علماء الفيزياء بأنها « كل ما يبحث فيه العلم من الحقائق التجريبية أو على المعطيات التجريبية المباشرة من جهة ما هي مشتملة على المدرك ».[دكتور/ جميل صليبا - المعجم الفلسفى ج٢ من الطاء إلى الياء ص٣٠- مطبعة دار الكتب - بيروت عام ١٩٨٢م] كما تعرف بأنها حركة منقولة في الفضاء تصل متلقيها كلما كان قريبا منها بدرجة أكبر مما لو كان بعيدا عنها، ويظهر ذلك بوضوح في علم الطبيعة .[لويس دياب وآخرون - الموسوعة العلمية الميسرة ص١٥٠/١٥١ - مطبعة مكتبة اليونان ١٩٨٥ - طبع في لبنان على مطابع تيوبرس]

كما أن الفلسفة تحتاج العلم؛ لأنه الذى يحول التفكير الفلسفى من صورته الذهنية إلى صورة واقعية، فكل عمل عقلى مجرد، متى أمكن تطبيقه فى المجال العملى، فإنه يكشف عن احتياج الفلسفة للعلم، كما يبين عن العلاقة التى تربط بين العالم والفيلسوف، مع ضرورة الالتفات إلى أن طريق الفيلسوف هو التأمل العقلى الخالص تماما عن أية عناصر خارجية.

بيد أن الفيلسوف يبدأ طريقه من العمليات العقلية البسيطة، حتى يبلغ قمة التجريد، أما العالم فإن طريقه يبدأ من الحواس الظاهرة، حتى يبلغ التعميم[1]، ومما يمكن الالتفات إليه أيضا هو أن كلا منهما — الفلسفة والعلم — فى مسألة الاحتياج للآخر، ليسا على قدم واحدة، أو قدر ثابت، وإنما قد يكثر احتياج العلم للفلسفة فى بعض الأحيان بأوسع مما تحتاج الفلسفة للعلم، بدليل أن الفلسفة تبحث فى الكون كله، من حيث المبدأ والمنتهى، ويتعلق بذلك نظرية الوجود أو الانطولوجيا أيضا[2].

كما تبحث فى العقل الإنسانى ومعارفه وكيفية اكتسابه لها، أو كيفية الوصول إلى كون بعضها بدهيا فى العقل، بينما يكون البعض الأخر فطريا أو كسبيا أو نقليا، وهو ما يتعلق به نظرية المعرفة[3]، كما أن الفلسفة تبذل جهدها فى بحث الخير والحق والعدل والجمال، من حيث الحقيقة، وتقوم به نظرية القيم، أما العلم فإنه فى الجانب العملى يتعلق بالتجربة والملاحظة، وهما عمليتان حسيتان، أما فى الجانب النظرى، فإنه يتعلق بالمعارف التى يقدمها له الفيلسوف، ومن ثم فاحتياج العلم للفلسفة يكون أكثر اتساعا من احتياج الفلسفة للعلم، لكن لا مانع من القول بأن العلم فلسفة جزئية، وأن الفلسفة علم بالمبادئ الكلية والأصولية الأولية[4].

ب‌- الاستقلال والتمايز:

من المؤكد أن الفلسفة أو الحكمة تلتقى مع العلم والمعرفة فى شكل من أشكال الترادف والتوارد، وتبادل المواقع، كما يحدث نوع من ذلك فى العموم والخصوص، واحتياج كل منهما للآخر[5].

---

(١) الدكتور بوهان كالفن – طريق الفيلسوف ص٥١ – ترجمة هناء صبرى ١٩٥٧م.

(٢) الدكتور فوزى محمد الحوت – الفلسفة والعلم ص٦٧ طبعة أولى ١٩٦١م.

(٣) الدكتور بوهان كالفن – طريق الفيلسوف ص٥٧ – ترجمة هناء صبرى ١٩٥٧م.

(٤) ويذهب السيد الشريف الجرجانى الى أن الفلسفة هى التشبه بالإله بحسب الطاقة البشرية لتحصيل السعادة الأبدية كما أمر الصادق صلى الله عليه وسلم فى قوله تخلقوا بأخلاق الله أي تشبهوا به في الإحاطة بالمعلومات والتجرد عن الجسمانيات. [التعريفات ج١ ص٢١٦ رقم:١٠٩٩]

(٥) الدكتور فوزى محمد الحوت – الفلسفة والعلم ص٧٣ .

لكن ذلك لا يمنع من القول بوجود نوع من الاستقلال والتمايز بينها، يمكن التقاط بعض صوره فيما يلي:

أ- التسمية:-

تختلف الفلسفة أو الحكمة عن العلم فى الإطلاق الاسمى، أو كما يقول العلماء: الوصف العنوانى، فكل من الحكمة والعلم يطلق على اسم خاص به دلت عليه المفردات اللغوية، ومن ثم فإن أى دارس متى نظر إلى مادة الكلمة (ح ك م) أو مادة الكلمة (ف ل س ف)، الدالتين على معنى واحد، ونظر إلى مادة الكلمة (ع ل م) فإنه سيرى فارق لغويا كبيرا بينهما فى المادة الصرفية، والمعانى التى يحملها اللفظ نفسه، مما يثبت استقلال كل منهما عن الآخر فى المنطوق اللغوى، وتمايزه عنه فى الدلالة الاسمية.

ب- الموضوع[1]:

موضوع الفلسفة يشمل العالم المشاهد وغير المشاهد، المرئى والمعقول، إنه عام متسع إلى أبعد مدى، فعموم الموضوع فى الفلسفة ليس محل جدل بين العلماء، صحيح هى بحث عقلى حر، لكنه غير مقيد بحدود عالم معين، وإنما هو منطلق فى كل الأرجاء، حتى ما يمكن تخيله، أو يجيء على سبيل الاحتمال، وبالتالى فموضوع الفلسفة يقع فيه ما هو بالفعل وبالقوة.

أما موضوع العلم فمهما اتسع، فإنه لا يخرج عن نطاق جزئية مبحوثة، أو واقعة تحت الدراسة، فعالم الفلك مثلا يبحث الظواهر الفلكية وحدها بالغرض، وإن تعرض لموضوعات أو جزئيات أخرى تخدم علم الفلك، فإنه يكون متوجها إليها بالعرض[2]، والفرق بين ما يجيء فيه القصد، وما يجيء فيه الارتجال أو العشوائية كبير لمن تأمله، ونفس الحال مع العالم فى مجال البصريات أو الهندسة الوراثية، أو غيرها من العلوم.

٢- المنهج[3]:

لما كان المنهج هو الطريقة التى يتبعها الباحث فى دراسته للمشكلة لاكتشاف الحقيقة، وللإجابة على الأسئلة والاستفسارات التى يثيرها موضوع البحث، وهو البرنامج الذى يحدد لنا السبيل للوصول إلى تلك الحقائق وطرق اكتشافها[1]..

---

(١) وضع: الموضع المكان والمصدر أيضا و وضع الشيء من يده يضعه وضعا و موضعا و موضوعا، ووضع الرجل فى تجارته و أوضع على ما لم يسم فاعله فيهما أي خسر يقال وضع في تجارته فهو موضوع فيها و التواضع التذلل . [مختار الصحاح - باب الواو - ص ٧٠٥/٢٤٠].

(٢) الدكتور حسن محمد أبو سالم – الفلسفة ومناهج البحث ص٩٣ ط ١٩٦٥م.

(٣) المنهج : كلمة منهج مشتقة من نهج، أى سلك طريقا معينا، وبالتالى؛ فكلمة المنهج تعنى الطريق، ولذلك كثيرا ما يقال : طرق البحث كمرادف لمناهج البحث – [راجع البحث العلمى مناهجه وتقنياته ص٤٨ – الدكتور محمد زيان عمر – طبعة دار الشروق – جده – السعودية ط٤ عام ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م]

فمما لاشك فيه هو أن الفلسفة غير مفيدة بمنهج ثابت سوى المنهج العقلى التأملى المجرد الكلى[٢]، ولو أن منهج الفلسفة وقف عند موضوع بعينه، أو جزئية واقعة فى دائرة بحث بذاتها، لما كان منهجا فلسفيا؛ لأن طبيعة المنهج الفلسفى تحتم عليه ألا يتقيد بموضوع بحثى واحد يظل قائما فيه، وإلا خرج عن دائرة البحث العقلى الحر.

أما منهج العلم، فإنه جزئى، يخضع لطبيعة كل فرع من فروع المعرفة، بحيث يتناسب مع الموضوع المدروس، فعلم التاريخ مثلا يستخدم المنهج التاريخى السردى[٣]، وعلم الفيزياء يستخدم المنهج التجريبى العملى، وعلم الرياضة يستخدم المنهج البرهانى، وعلم النفس النظرى يستخدم المنهج الحكوى الاستفراغى الذاتى[٤]، وعلم النفس العملى يستخدم المنهج التجريبى المشترك، وهكذا تتعدد المناهج فى فروع العلم بتعدد موضوعاتها الجزئية.

✲ **جـ المعطيات:**

الفلسفة تعنى بدراسة أصول الأشياء وعلاقتها ببعضها على الحقيقة الذاتية، بغرض التعرف على العلل القائمة بينها، فهى تكشف طرائق جديدة فى البحث العلمى[٥]، كما تمهد لاستحداث المزيد، إنها تعطى تصورات صحيحة عن كيفيات عديدة، من خلال الاستنباط مختلف الأنواع، وفوق ذلك فهى تتجاوز حدود المعقولات، إلى ما هو متخيل على ناحية من النواحى[٦]، فتفتح أفاقا جديدة للعلوم والمعارف المختلفة، كما أن طبيعتها السعى الحثيث للدفع بأسئلة مستجدة، ثم تطلب الإجابة عليها.

أما العلم فإنه يعطى نتائج برهانية فى الرياضة، احتمالية فى العلوم التطبيقية، ظنية فى العلوم التى لم يتوقف البحث العلمى فيها[٧]، إن معطيات العلم التطبيقى يحتكم فى صحتها للتجربة، ومعطيات العلم النظرى يحتكم فى صحتها للواقع التاريخى، إذن فما يعطيه العلم من نتائج كثير، لكنه يبحث عن غيرها، إذ مازال الطريق أمامه طويلا، وينتظر منه بذل المزيد.

---

(١) البحث العلمى – الخطوات المنهجية لإعداد البحوث الاجتماعية ص٨٦ – الدكتور / محمد شفيق – المكتب الجامعى الحديث ١٩٩٤م .

(٢) الدكتور بوهان كالفن – طريق الفيلسوف ص٦١ .

(٣) الدكتور على محمد فوزى – مناهج البحث العلمى ص١٥٧ ط١/١٩٦١م.

(٤) الدكتور عبدالعظيم محمود طلب – مناهج البحث ص٦٥ ط١/١٩٥٧م.

(٥) الدكتور على محمد فوزى – مناهج البحث العلمى ص١٥٨ .

(٦) الدكتور عبدالعظيم محمود طلب – مناهج البحث ص٦٧ .

(٧) الدكتور عبدالرحمن حسن للوم – الفلسفة والعلم ص٧٥ ط دار الهدى ١٩٥٧م.

وفى تقديرى: أن الفلسفة أشبه بالمصباح الذى ينطلق فى الفيافى والمجاهيل، حتى يشكف مخبأتها، والعلم هو الذى يسير خلف ذلك المصباح بنقل من تلك المخبآت ما أمكنه حمله، ثم يعاود السير فى ذات الطريق، عله يحمل مكتشفات أخرى جديدة.

❊ **٥ـ الغاية**[١]:

الغاية من الفلسفة معرفة حقيقة الحقائق لذاتها، ثم التعرف على الحقائق المختلفة، والكشف عن العلاقات القائمة بين ذوات الحقائق المختلفة[٢]، ومعرفة الأصول التى تربط بينها، أما إذا خرجت عن تلك الغايات إلى الجدل والعبث والإلحاد، فإنها لا تكون فلسفة.

أما الغاية من العلم فهى وضع تلك المعرفة موضع التنفيذ العملى، والاستفادة منها على ناحية من النواحى، مع الأخذ بعين الاعتبار أن هذه الغايات تتكامل فيما بينها، ولا تتخالف، إلا إذا خروج العلم عن حقيقته المنوطة به، إلى مجال الخرافات والأساطير[٣]، فحينئذ لا يسمى علما، ولا يصح أن ينسب القائم بها إلى زمرة العلماء.

بـ علاقة الفلسفة بالقيم

◈ **تعتبر مسألة القيم وبحثها على الناحية الفكرية من الأهمية بمكان. أما لماذا؟**

☜ **فلأن** القيم هى التى تمثل جوهر العمل، وترتبط به من ناحية السلوك، على النحو الذى يتم به، ومن ناحية النتائج المترتبة عليه، والغايات التى يهدف إليها، أو يبحث عنها، ولذلك اعتبرت واحدة من النظريات أو أحد المباحث الفلسفية الثلاثة[٤].

لكن القيمة كمنطوق لغوى، تدل على ما يجيء فى الماديات، وما يجيء فى المعنويات، كما أن أصلها إن كان (ق و م) كمادة لغوية، فإنها تكون لفظا يفيد الإصلاح، باعتبار أن المصدر منه

---

(١) غاية كل شيء: مداه ومنتهاه، فمثلا: « أنه سابق بين الخيل فجعل غاية المضمرة كذا »، الغاية والراية سواء : ففى حديث أشراط الساعة « فيسيرون إليهم في ثمانين غاية » . ومن رواه بالباء الموحدة أراد به الأجمة، فشبه كثرة رماح العسكر بها. [راجع غريب الحديث والأثر لابن الأثير - مجلد الثالث - حرف الغين المعجمة.- باب الغين مع الياء]. ويقول الجرجاني: الغاية: ما لأجله كان وجود الشيء. [التعريفات ج١ ص٢٠٧ - باب الغين رقم:١٠٣٥]

(٢) الدكتور حسن محمد أبو سالم – الفلسفة ومناهج البحث ص٩٨ .

(٣) الدكتور فوزى محمد الحوت – الفلسفة والعلم ص٨٩ .

(٤) نظريات الفلسفة العامة هى: ١- الوجود. ٢- المعرفة. ٣- القيم. وتسمى مباحث أيضا، كما ينظر إليها البعض على أنها موضوعات فلسفية، بينما يعتبرها البعض الآخر ميادين فلسفية، ولكل وجهة أقام تسميته عليها.

التقويم، أما إن كان (ق ي م) فإنها تفيد التثمين والتقدير، بمعنى وضع الشيء موضع قيمته المقدرة، وكل من الإصلاح والتقدير يجرى فى المحسوسات والمعقولات[١].

بيد أنها فى الاصطلاح تختلف باختلاف الموضوعات التى تجيء فيها، ومن ثم فليس من السهل وضع تعريف واحد يكون جامعا مانعا، بدليل أن علماء القانون يعرفون القيمة بأنها: « المفهوم الداخل فى إطار تقييم العلاقات بين الأفراد الطبيعيين والاعتباريين، وخضوع ذلك لمراقبة القواعد القانونية، بما يحقق الصالح العام لأفراد المجتمع كله »[٢]، وهذه النظرة القانونية تقوم على مراقبة العلاقات التى يحدد القانون دورها فيها، مادام ذلك لصالح المجتمع الإنسانى، سواء أكان ذلك فى مجتمع بعينه، وهو القانون الخاص، أم كان فى إطار المجتمع الإنسانى كله، وهو القانون الدولى العام.

كما أن علماء الاقتصاد تحدثوا عن نظرية القيمة، باعتبار أن كل ما يقع تحت نظر ع لماء الاقتصاد، لابد أن يخضع للتقييم، فما لا قيمة له لا ينظر إليه علماء الاقتصاد، ومن ثم عرفوا القيمة بأنها: « الاتجاه العام فى وضع العقارات والمنقولات والسندات، موضع النقد العام، عند التعامل بها بحيث تظهر أوجه التمايز فيها »[٣]، وهو تعريف عام، لكنه لا يصلح فى العقود التى تقع موقع المضاربة، ولا كذلك فى الأصول التى يمكن إرجاعها إلى صور تجرى فيها العمليات النقدية مجراها.

أما علماء الأخلاق فكانت نظرتهم للقيمة من ناحية مختلفة عن نظرة كل من علماء القانون وعلماء الاقتصاد، إنهم نظروا إليها من جانب ما يترتب على ما يصدر عن الإنسان العاقل، ويؤدى إلى نتائج يمكن الحكم عليها بأنها حسنة خيرة، أو سيئة شريرة، ومن ثم عرفوها بأنها: « ما يعقب ناتج ما يقوم به الإنسان العاقل من حكم عليه، فإن الناتج مما يحكم عليه بالحسن كانت قيمته خيرة، وإن كان ذلك الناتج مما يحكم عليه بالقبح كان قيمته سيئة »[٤].

وهذا الجانب الأخلاقى ربما كان اعتماده على الظواهر النقلية، من مثل قوله تعالى: ﴿**فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره * ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره**﴾[٥].

---

(١) الدكتور فتح الله السيد الجعفرى- الفلسفة قضايا وغايات ص٥١ ط١/١٩٥٧م.

(٢) المستشار أنور محسن ثروت باشا – القاعدة القانوية ودورها فى أمن المجتمع – دراسة مقارنة بين فرنسا ومصر ص١٣ طبعة الدار الجديدة ١٩٤٧م. وراجع للدكتور رزق إسكندر – نظرية القيمة وفلسفة القانون ص٥٣ ط٢/١٩٥٣.

(٣) الدكتور فوزى محمد نصر الدين – نظرية القيمة ص١٥ ط دار المختار ١٩٦١م.

(٤) الشيخ نصر الدين محمد الغرواني – الأخلاق بين الدين والفلسفة ص١٧ ط١ دار الهدى ١٣٣٥هـ.

(٥) سورة الزلزلة – الآيتان ٧/٨ . يقول العلامة الطبرى : فمن عمل في الدنيا وزن ذرة من خير يرى ثوابه، هنالك ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره، يقول ومن كان عمل في الدنيا وزن ذرة من شر يرى جزاءه هنالك وقيل ومن يعمل والخبر عنها في الآخرة لفهم السامع معنى ذلك لما قد تقدم من الدليل قبل على أن معناه فمن عمل ذلك دلالة قوله يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم على ذلك، ولكن لما كان مفهوما معنى الكلام عند السامعين، وكان في قوله يعمل حث لأهل الدنيا على العمل بطاعة الله والزجر عن معاصيه مع الذي ذكرت من دلالة الكلام قبل ذلك على أن ذلك مراد به الخبر عن ماضي فعله وما لهم على ذلك أخرج الخبر على وجه الخبر عن مستقبل الفعل. [الطبري– جامع البيان ج٣٠ ص٢٦٧]

يقول الإمام محمد عبده[١]: « من يعمل من الخير أدق عمل وأصغره؛ فإنه يراه ويجد جزاءه، لا فرق في ذلك بين المؤمن والكافر. غاية الأمر أن حسنات الكفار الجاحدين، لا تصل بهم إلى أن تخلصهم من عذاب الكفر، فهم به خالدون في الشقاء.

ومن يعمل مثقال ذرة شر يره، لا فرقا في ذلك بين المؤمن والكافر، فالمؤمنون يرون جزاء ما عملوا من شر إذا لم يكونوا تابوا عنه، وليس الجزاء منحصرا في العقاب في دار العذاب، فمنه ما يكون كذلك، وهو الجزاء على الكبائر وترك الفرائض، إذا لم تمحها التوبة الصحيحة، ومنه ما يكون بنقص في درجة الكرامة، كجزاء الصغائر، فإنها وإن لم تدخلك النار، ولكنها تريك منزلة أحط منزلة من التي انصرفت عنها، وهذا شر تراه يقابل الشر، الذي صنعت »[٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « قال ﷺ : لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى تقاد الشاة الجلحاء من الشاة القرناء »[٣].

وعن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم، فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال « "يا عبادي! إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما. فلا تظالموا. يا عبادي! كلكم ضال إلا من هديته. فاستهدوني أهدكم. يا عبادي! كلكم جائع إلا من أطعمته. فاستطعموني أطعمكم. يا عبادي! كلكم عار إلا من كسوته. فاستكسوني أكسكم. يا عبادي! إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعا. فاستغفروني أغفر لكم. يا عبادي! إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني. ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني. يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم. كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم. ما زاد ذلك في ملكي شيئا. يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم. وإنسكم وجنكم.

---

(١) الشيخ محمد عبده بن حسن خير الله من آل التركماني – مفتي الديار المصرية، من كبار رجال الإصلاح والتجديد. ولد بمصر، ونشأ في محلة نصر بالبحيرة، توفي سنة ١٩٠٥م . راجع الأعلام للزركلي جـ٦ ص٢٥٢ .

(٢) الشيخ محمد عبده – تفسير جزء عم ص١٣٨/١٣٩ – مطبعة محمد علي صبيح ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م .

(٣) الإمام مسلم – صحيح مسلم – باب تحريم الظلم. في الحديث رقم: ٦٠ – (٢٥٨٢) . – والحديث ذكره الإمام النووي في شرح الصحيح مسلم في الحديث رقم: ٦٠ مـ٨ جـ١٦ ص١٣٦، وراجع سنن الترمذي (وشرح العلل) – كتاب صفة القيامة– باب ما جاء في شأن الحساب والقصاص – الحديث رقم: ٢٥٣٥. جـ٤ ص٦١٤، والحديث ذكره الإمام المباركفوري في تحفة الأحوذي – ص١٥٦٨ – باب ما جاء في شأن الحساب والقصاص في الحديث رقم: ٢٤٦٥، والمراد بـ [(لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة) هذا تصريح بحشر البهائم يوم القيامة وإعادتها يوم القيامة كما يعاد أهل التكليف من الآدميين. وكما يعاد الأطفال والمجانين ومن لم تبلغه دعوة. وعلى هذا تظاهرت دلائل القرآن والسنة. قال الله تعالى: وإذا الوحوش حشرت. وإذا ورد لفظ الشرع، ولم يمنع من إجرائه على ظاهره عقل ولا شرع، وجب حمله على ظاهره. قال العلماء: وليس من شرط الحشر والإعادة في القيامة المجازاة والعقاب والثواب. وأما القصاص من القرناء والجلحاء فليس هو من قصاص التكليف: إذ لا تكليف عليها. بل هو قصاص مقابلة. والجلحاء هي الجماء التي لا قرن لها].

كانوا على أفجر قلب رجل واحد. ما نقص ذلك من ملكي شيئا. يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم. وإنسكم وجنكم. قاموا في صعيد واحد فسألوني. فأعطيت كل إنسان مسألته. ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر. يا عبادي! إنما هي أعمالكم أحصيها لكم. ثم أوفيكم إياها. فمن وجد خيرا فليحمد الله. ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه »[1].

إذن الحكم على الفعل الإنساني[2] بأنه ذات قيمة إيجابية أو سلبية، كان محل عناية علماء الأخلاق، وبالتالي فحديثهم عن الفعل الإنساني لا من حيث هو، وإنما من ناحية ما يترتب عليه من نتائج، وكل فعل تعقبه قيمة لابد من النظر فيها بمنظور العقل حينا، وبمنظور الشرع حينا آخر، على أن منظور الشرع يكون وحده الذي له الحق السيطرة والسيادة فوق الجميع.

لكن الفلاسفة نظروا إلى الأفعال الإنسانية باعتبار مخالف للاعتبارات السابقة، إنهم نظروا إليها لا من ناحية كونها جميلة محمودة، أم قبيحة مذمومة، وإنما كان اهتمامهم بها من حيث هي، دون أن يترتب على ذلك حكم شرعي، أو حكم عقلي، وبالتالي ركزوا على الجانب الإيجابي من الأفعال الإنسانية، وخصوا كل مجموعة متناسقة من هذه الأفعال بإسم معين، كالحق، والعدل، والخير، والجمال.

من ثم عرفوا القيمة بأنها: « ما يتعلق بالحق والعدل والخير العام، بجانب الجمال، ولذا تعددت القيمة عندهم وتنوعت، فكان من جراء هذا التعدد والتنوع ظهور نظرية كاملة، تجمع كافة الجوانب، أطلق عليها اصطلاحيا اسم نظرية القيم، أو مبحث القيم العام[3]، وقد شغل هذا البحث فكر الفلاسفة في الشرق الإسلامي والغرب اللاتيني على قدر سواء.

---

(١) الإمام مسلم صحيح مسلم – باب تحريم الظلم في الحديث رقم: ٥٥ – (٢٥٧٧)، وراجع صحيح مسلم بشرح النووي – الحديث رقم: ٥٥ – ٨م ج١٦ ص١٣٢، والمراد بـ [(إلا كما ينقص المخيط) قال العلماء: هذا تقريب إلى الإفهام. ومعناه لا ينقص شيئا أصلا. كما قال في الحديث الآخر "لا يغيضها نفقة" أي لا ينقصها نفقة. لأن ما عند الله لا يدخله نقص، وإنما يدخل النقص المحدود الفاني. وعطاء الله تعالى من رحمته وكرمه، وهما صفتان قديمتان لا يتطرق إليهما نقص. فضرب المثل بالمخيط في البحر؛ لأنه غاية ما يضرب به المثل في القلة. والمقصود التقريب إلى الأفهام بما شاهدوه. فإن البحر من أعظم المرئيات عيانا وأكبرها. والإبرة من أصغر الموجودات مع أنها صقيلة لا يتعلق بها ماء].

(٢) الفعل الإنساني ينقسم إلى: أ- أفعال اضطرارية كالهوى من عال، ورعشة اليدين من الحموم، وزغللة العين من مرضيهما، وارتفاع ضغط الدم، أو انخفاضه .... إلى غير ذلك مما يجيء على تلك الناحية وهو لا يسأل عنها، ولا يحاسب بها؛ لأنه لا دخل له فيها. ب- أفعال اختيارية كالمذاكرة واللعب والأكل والشرب والتصدق والبخل والزواج والزنا، والجهاد والقتل، فكلها أفعال تتم بإرادته، ولذلك يحاسب عليها، وتوصف بأنها خيرة حسنة، إن كانت موافقة للشرع الشريف، كما توصف بأنها شريرة سيئة، إذا كانت مخالفة للشرع الشريف. جـ- أفعال تتعلق بالاضطرارية من ناحية والاختيارية من ناحية أخرى، كالقتل الخطأ، والعصمة غير المقصودة للناقة، ومن الآثر يتأب الأمر رغم أنفه، فهو قد جمع بين الأمرين، فالأفعال التي تصدر من الإنسان هي ذاتها الموضوع المحكوم عليه في الدراسات الأخلاقية.

(٣) الدكتور رشدي محمد صرود – الفلسفة ونظرية القيم ص١٧ ط١/١٩٥٧م.

ولأن أثر المسلمين فى التفكير الأوربى كان عظيما، فمن المناسب التقاط بعض الإشارات التى تمثل نقاط التلاقى بين الفلسفة الإسلامية والأوربية، فى دوائر النظريات الفلسفية عموما، والقيم بوجه خاص، باعتبار أن أوربا فى عصر النهضة لم تعرف تراث فلاسفة المشرق الإسلامى، إلا عن طريق الأندلس، حيث أشرف ريموند أسقف طليطلة[١]، على ترجمة أعمال المشاهير، وبخاصة الفارابى وابن سينا والغزالى وغيرهم[٢].

◈ لكن ما هى علاقة الفلسفة كبحث عقلى حر بالقيم كمبحث سلوكى، يحتكم فيه إلى العرف الصحيح، والقواعد الثابتة المعمول بها، وبعبارة أخرى: ما هى العلاقة التى تسمح بالحديث عن الفلسفة من خلال القيم، أو تبحث فى القيم من خلال الفلسفة[٣]؟

☜ **والجواب:** أن هذه العلاقة تجيء فى المظاهر الآتية:-

☆ **الأول: العموم والخصوص:-**

حيث إن الفلسفة أعم من القيم؛ لأن القيم تمثل نظرية من النظريات الفلسفية، أو مبحثا من مباحثها، باعتبار أن الفلسفة أعم مطلقا لشمولها، كلا من الوجود والمعرفة والقيم، بينما تكون نظرية القيم أخص؛ لأنها جزء أو مبحث من مباحث الفلسفة، ولا منازعة فى ذلك[٤]، اللهم إلا أن يراد بالقيم ما يتعلق بالنظريات الاقتصادية، او القواعد القانونية، أو العلاقات السائدة فى بعض الأنظمة الاجتماعية.

☆ **الثانى: الاشتراك البحثى:-** أجل : الفلسفة بحث عقلى حر، والقيم هى الأخرى بحث عقلى حر، لكن الفلسفة تكون حريتها قائمة فى استخدام الوسائل، وكذلك الوصول للنتائج على وجه

---

(١) طليطلة بضم الطاءين وفتح اللامين وأكثر ما سمعناه من المغاربة بضم الأولى وفتح الثانية: مدينة كبيرة ذات خصائص محمودة بالأندلس يتصل عملها بعمل وادي الحجارة من أعمال الأندلس وهي غربي ثغر الروم وبين الجوف والشرق من قرطبة وكانت قاعدة ملوك القرطبيين وموضع قرارهم وهي على شاطىء نهر تاجه وعليه القنطرة التي يعجز الواصف عن وصفها وقد ذكر قوم أنها مدينة دقيانوس صاحب أهل الكهف قالوا وبقرب منها موضع يقال له جنان الورد فيه أجساد أصحاب الكهف لا تبلى إلى الآن والله أعلم، وقد قيل فيهم غير ذلك كما ذكر في الرقيم وهي من أجل المدن قدرا وأعظمها خطرا ومن خاصيتها أن الغلال تبقى في مطاميرها سبعين سنة لا تتغير وزعفرانها هو الغاية في الجودة وبينها وبين قرطبة سبعة أيام للفارس وما زالت في أيدي المسلمين منذ أيام الفتوح إلى أن ملكها الأفرنج في سنة ٤٧٧ وكان الذي سلمها إليهم يحيى بن يحيى بن ذي النون الملقب بالقادر بالله وهي الآن في أيديهم وكانت طليطلة تسمى مدينة الأملاك ملكها اثنان وسبعون لسانا فيما قيل ودخلها سليمان بن داود وعيسى بن مريم وذو القرنين والخضر عليهم السلام فيما زعم أهلها والله أعلم. [العلامة ياقوت الحموى - معجم البلدان ج٤ ص٣٩/٤٠]

(٢) Pirenne: Lacivilisation. Occidentale, P.226

(٣) الدكتور خيرى محمد الشهابى – الفلسفة والواقعية والقيم ص٤٣ ط٢/١٩٥١م.

(٤) الدكتور رشدى محمد صبره – الفلسفة ونظرية القيم ص٢٥ .

العموم(١)، أما القيم فإنها بحث عقلى حر فى اصطياد الحكم على المقدمات التى تجىء فيها، لما هو معروف من أن كل قيمة من القيم الثابتة أو المتبادلة، المطلقة أو النسبية، إنما تنهض فى ابحاث ذات طبيعة استقلالية عن باقى العلوم الأخرى، بل والقيم الأخرى أيضا(٢)، طبقا لطبيعتها التى تجىء عليها.

لكن كل قيمة من القيم الثابتة لها طبيعة مستقلة فى بحثها، فالخير غير الحق، وكلاهما يغاير الجمال، بل إن نظرية الواجب هى الأخرى تجىء فى ثنايا أعطاف كل من الخير والحق والعدل، ومع ذلك فلها طبيعة مستقلة فى بحثها والتعرف عليها.

بيد أن الفلسفة تشترك مع القيم الثابتة فى طريقة البحث، وربما اشتركت معها أيضا. فى عملية الانطلاق نحو النتائج، وإن كانت طبيعة كل من الفلسفة والقيم تختلف باعتبار أن القيم تمثل بحثا فى السلوك الإنسانى، وطريقة التعامل معه على ناحية بعينها، بينما تمثل الفلسفة صورة من التقدم الفكرى والانطلاق التأملى الحر(٣)، على الجانب النظرى والعملى، متى كان ذلك ممكنا.

☆ **الثالث: الاحتكام إلى الثوابت الصحيحة:-**

الفلسفة تقوم على البحث العقلى الحر، وهى تحتكم إلى الثوابت الصحيحة من البراهين العقلية، والقيم هى الأخرى تحتكم إلى الثوابت الصحيحة من الأعراف المستقرة، والعادات السليمة، وتحكم به الفطر الصحيحة، ولذلك فكل من الفلسفة والقيم يتفقان فى الاحتكام إلى الثوابت الصحيحة على ناحية أو أخرى.

بيد أن مشكلة القيم قفزت عن إطار الفلسفة التقليدية، وخرجت من عباءتها، وراحت تتساءل ما قيمة الإنسان فى هذا الوجود، وما قيمة الحياة بجانب الموت، بل ما قيمة المادة بجانب الروح(٤)؟

والإجابة على هذه التساؤلات تكشف عن حقيقة مهمة، وهى احتكام كل منهما إلى الأصول العامة، والقواعد الثابتة الصحيحة، واتخاذ منهج طرح التساؤلات، بحثا عن إجابات بعينها.

☆ **الرابع: اتحاد الغايات:-**

الغاية فى الفلسفة معرفة الحقيقة لذاتها أولا، والعمل بمقتضى ذلك العلم، والغاية فى القيم هى معرفة الجميل الممدوح وممارسته، ومعرفة الجميل فى كل ما يصدر عن الإنسان هو نوع من طلب

---

(١) الدكتور أحمد فتحى عطا الله – الفلسفة الواقعية ص٤٣ ط١/١٩٦٥م.

(٢) الدكتور رشدى محمد صبره – الفلسفة ونظرية القيم ص٣٧ .

(٣) الدكتورة ليلى محمد فوزى – الفلسفة والقيم (دراسة مقارنة) ص٥٧ ط مكتبة الرياض ١٩٧٥م.

(٤) الدكتورة نازلى إسماعيل حسين – الفكر الفلسفى دعوة الى الفلسفة ص١١٤ ط١/١٩٨٢م.

الحقيقة. كما أن معرفة الخير هى التماس لجانب من جوانب الحقيقة، أما الاتجاه نحو العدل والجمال فهو الحقيقة بذاتها.

ومع أن العدل اسم من أسماء الله الحسنى[1]، التى يجب على المسلم معرفتها، كما يجب عليه أيضا التمسك بها، فإن القيم الإسلامية أكدت على ضرورة الالتزام، بكل هذه الأسماء الحسنى، حتى تكون سلوكا عمليا فى حياة المسلم بالله كلها[2]، يستوى فى ذلك أن يكون العدل مع الإنسان نفسه، أو مع غيره من بنى الإنسان الأصدقاء والأعداء، أو الكائنات الأخرى، وهذه الغاية تشترك فيها الفلسفة ونظريات القيمة، بحيث يصعب القول بانفراد أحدهما فى هذه الغاية عن الأخرى.

أجل كانت الفلسفة أول أمرها منحصرة فى إطار موضوعات ضيقة، تتمثل فى مجموعة من الجواهر والأعراض والكيفيات، وكانت نتائجها تابعة لها، ونفس الشيء مع القيم التى كانت موضوعاتها متمركزة فى جملة من الفضائل، فصارت نتائجها مرهونة بموضوعاتها أيضا[3]، وهذا يشير إلى اتحاد كل منهما فى البحث عن الغايات، وارتباط جملة الغايات بالمجموعة التى قامت عليها كموضوعات.

فى نفس الوقت، فإن العقل الحدسى الحقيقى، فى الفلسفة والقيم قادر على إحداث تشكيل قليل من القطعيات الضرورية، بطريقة بالغة الغنى فى نتائجها لأول وهلة، وبغير كثير من العناء يسوى هذه النتائج جميعا او بعضها أفكارا لم يستطع رؤيتها من سبقوه[4]، وكذلك الوجدان الحى يمكنه تقديم مجموعة من الضروريات القطعية فى مجال التأكيد على جملة الفضائل الحق، والعدل، والخير والواجب بجانب الجمال، وذلك مما يؤكد اتحاد كل من الفلسفة أو القيم فى الغايات أو النتائج التى يسعى إليها كل منهما.

---

(١) ففى الحديث الشريف عن أبي هريرة قال: « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن لله تعالى تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارئ المصور الغفار القهار الوهاب الرزاق الفتاح العليم القابض الباسط الخافض الرافع المعز المذل السميع البصير الحكم العدل اللطيف الخبير الحليم العظيم الغفور الشكور العلي الكبير الحفيظ المقيت الحسيب الجليل الكريم الرقيب المجيب الواسع الحكيم الودود المجيد الباعث الشهيد الحق الوكيل القوي المتين الولي الحميد المحصي المبدي المعيد المحيي المميت الحي القيوم الواجد الماجد الواحد الصمد القادر المقتدر المقدم المؤخر الأول الآخر الظاهر الباطن الوالي المتعالي البر التواب المنتقم العفو الرءوف مالك الملك ذو الجلال والإكرام المقسط الجامع الغني المغني المانع الضار النافع النور الهادي البديع الباقي الوارث الرشيد الصبور » [الإمام الترمذى - سنن الترمذي ج٥ ص٥٣٠ رقم:٣٥٠٧]

(٢) الشيخ محمد منصور المنياوى – أسماء الله الحسنى ص١٣ ط دار الهدى ١٣٧٥هـ.

(٣) الدكتور فوزى محمد صالح –الفلسفة والقيم ص١٥٧ ط١/١٩٨٥م.

(٤) إسحق أسيموف – الحقيقة والخيال ص٣١٢ – ترجمة الدكتور محمد جمال الدين الفندى، والدكتور جابر عبدالحميد خان – طبعة دار المعارف ١٩٦٥م.

☆ **الخامس: تأكيد المثل العليا:-**

الفلسفة تسعى إلى البحث الجاد، وتعمل على صياغة أسبابه فى العديد من النواحى، التى تتسم بالمثل العليا، أثناء البحث، أو التعرض للنتائج، وكل الفلاسفة الأحرار يمارسون ذلك الدور، فالمصريون القدماء كانت غايتهم من الفلسفة التكمل المعرفى[1]، والعمل على مقتضى ذلك التكمل، وبناء عليه؛ ظهرت الأهرامات والمسلات، والعديد من التماثيل والدمى، التى تعبر كلها عن الفلسفة التى كانت تجرى فى أعراف هؤلاء العمالقة من المفكرين الأحرار، حتى قيل: إنها فلسفة المثل العليا.

واليونان كان سعيهم إليها سعيا إلى التطبيق العملى للمثل أيضا، والسعى الدءوب نحوها، حتى إن أفلاطون أقام مذهبه الفلسفى على فكرة المثل وعالم المثل، مستخدما الطريق الرياضى منهجه فى الوصول إلى ذلك الذى يسعى إليه[2]، وكان حال أرسطو كحال أستاذه سعيا نحو المثل، وإن اختلفت المسميات، أو طريقة التعبير عنها[3]، وجاء من بعد أرسطو فساروا على نفس المنهج.

والقيم كانت تسعى لتأكيد المثل، لكنها تأخذ من الواقع المعاش دعما يتزايد كلما تقدمت السنون، أو قفزت المفاهيم، فمثلا كانت القيم فى الماضى تحاول التجاوب مع الواقع فى شكل أرقى مما هى عليه، وهى فى ذلك تنطلق من عمليات راقية، ترفض الدونية بكل معانيها، فظهرت محاولات كثيرة للأخلاقيين والفلاسفة حول الوجود.

ما قيمة هذا الوجود؟ ما قيمة كل كائن على حده فى منظومة الوجود؟ ما قيمة الوجود المتعالى؟ ما قيمة الوجود المتدانى؟

وراحت هذه الأسئلة تنتشر فى مجال بحث الوجود وتتكاثر، ويسعى كل منها للظفر بغاية جديدة، عمادها السعى للمثل العليا، والتشبه بالإلة فى كمالاته[4].

وفى العصر الإسلامى برزت مشكلة القيم، وراحت تبحث عن المعرفة، ما قيمة المعرفة، ما قيمة مصادر المعرفة، بل ما قيمة كل مصدر على حدة، ما قيمة الإنسان فى هذا الوجود؟ ما قيمة الإنسان فى العالم الأخروى؟ ما قيمة الحياة كلها لمن اطاع؟ ولمن عصى؟، وبخاصة أن النصوص الدينية قد دعمت البحث النظرى فى مجال القيم؟ وسارت معه تهديه إليها على كل ناحية ممكنة.

---

(١) الدكتور السيد على السيد رمضان – فلسفة قدماء المصريين ص١٥٣ .

(٢) الدكتور عبدالعزيز يوسف – أفلاطون وعالم المثل ص٥٩ ط١/١٩٥٣م.

(٣) الدكتور نصر الدين عبدالعظيم – المثل فى فلسفة أرسطو ص٣٤ ط١/١٩٦٤م.

(٤) وكان المصريون القدماء يظنون فى مثلهم أنها صعبة المنال، عزيزة المماثلة، أما اليونان فكانوا يظنون فى مثلهم القدرة على النزول إلى الأفراد والالتحام بهم، أما فى الإسلام فالمثل العليا جاءت بها نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة الصحيحة، حتى لا يضل العقل فى سعيه نحوها أو يشقى.

ﷺ من ثبت قوله تعالى: ﴿وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع﴾[1]. يقول العلامة الطبري: « يخبر الله جل ثناؤه عن قدر ذلك في الدنيا فيما لأهل الإيمان به عنده في الآخرة وأعلم عباده فقال وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع وما جميع ما أعطى هؤلاء في الدنيا من السعة وبسط لهم فيها من الرزق ورغد العيش فيما عند الله لأهل طاعته في الآخرة إلا متاع قليل وشيء حقير ذاهب، كزاد الراعي يزوده أهله الكف من التمر أو الشيء من الدقيق أو الشيء يشرب عليه اللبن »[2]،

ﷺ وقوله تعالى: ﴿فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل﴾[3]. يقول العلامة الطبري: « يقول رب العزة فما الذي يستمتع به المتمتعون في الدنيا من عيشها ولذاتها في نعيم الآخرة والكرامة التي أعدها الله لأوليائه وأهل طاعته إلا قليل يسير. فيقول لهم: اطلبوا أيها المؤمنون نعيم الآخرة وترف الكرامة التي عند الله لأوليائه بطاعته والمسارعة إلى الإجابة إلى أمره في النفير لجهاد عدوه »[4].

ﷺ **ويقول الإمام القرطبي:** « المتاع ما يتمتع به وينتفع كالفأس والقدر والقصعة، ثم يزول ولا يبقى ملكه. قاله أكثر المفسرين؛ قال الحسن[5] : كخضرة النبات، ولعب البنات وبالتالي فلا حاصل له ولا دوام عليه. وقال قتادة[6]: وهي متاع متروك توشك أن تضمحل بأهلها، فينبغي للإنسان أن يأخذ من هذا المتاع بطاعة الله سبحانه ما استطاع »[7].

ﷺ وقال تعالى: ﴿قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا﴾[8]. يقول العلامة الحافظ ابن كثير : « قال الله تعالى قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى، إذ أن آخرة المتقي خير من دنياه ولا تظلمون فتيلا من أعمالكم بل توفوها أتم الجزاء وهذه تسلية لهم عن الدنيا وترغيب لهم في الآخرة وتحريض لهم على الجهاد، وقال الحسن: متاع الدنيا قليل، رحم الله عبدا صحبها على حسب ذلك، وما الدنيا كلها أولها وآخرها، إلا كرجل نام نومة، فرأى في منامه بعض ما يحب، ثم انتبه. وقال ابن معين كان أبو مصهر ينشد:

ولا خير في الدنيا لمن لم يكن .: له من الله في دار المقام نصيب

---

(١) سورة الرعد – الآية ٢٦ .

(٢) الطبرى – جامع البيان ج: ١٣ ص: ١٤٤.

(٣) سورة التوبة – من الآية ٣٨ .

(٤) العلامة ابن جرير الطبرى – جامع البيان ج١٠ ص١٣٣ .

(٥) هو أبو سعيد الحسن البصرى بن أبي الحسن مولى زيد بن ثابت، ولد في زمن عمر بن الخطاب ﷺ، وكان إماما في العلم والعمل، توفي سنة ١١٠هـ. راجع الطبقات للداودى جـ١ ص١٥٠ .

(٦) قتادة: هو قتادة بن دعامة بن عزيز السدوسى البصرى، من الثقات الإثبات، كان حجة في الحديث مأمونا، توفي سنة بضع عشرة ومائة . راجع تهذيب التهذيب جـ٨ ص٣١٥، وتقريب التهذيب جـ٢ ص١٢٣ .

(٧) الإمام القرطبي – الجامع لأحكام القرآن – ج٣ ص١٥٤٤ .

(٨) سورة النساء – الآية ٧٧ .

فـإن تعجـب الدنيـا رجـالا فإنـــ .:. ـــها متاع قليـل والـزوال قريـب »[1]

وقال تعالى: ﴿اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾[2]

وفى قوله تعالى: ﴿ وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾ يقول العلامة الطبرى : « كـأن الله تعالى ذكره يقول: لا تركنوا إلى الدنيا فتسكنوا إليها فإنما أنتم منها في غرور تمتعون ثم أنتم عنها بعـد قليل راحلون.

وقال عبد الرحمن بن سابط[3] إنما متاع الحياة الدنيا كزاد الراعي تزوده الكف من التمـر أو الشيء من الدقيق أو الشيء يشرب عليه اللبن، فمعنى الآية وما الحياة الدنيا إلا متاع قليل لا يبلغ من تمتعه ولا يكفيه لسفره »[4].

وفى الحديث الشريف عن أبي هريرة قال [قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن موضع سوط في الجنة لخير من الدنيا وما فيها اقرؤوا إن شئتم فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فـاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور][5].

---

(١) العلامة الحافظ ابن كثير – تفسير القرآن العظيم المشهور بتفسير ابن كثير ج١ ص٥٢٧ .

(٢) سورة الحديد – الآية ٢٠ .

(٣) عبد الرحمن بن سابط الجمحي ذو مراسيل عن أبي بكر وعمر وله عن سعد وعن عائشة وعنه عمرو بن مرة وعلقمة بن مرثد والليث بن سعد فقيه ثقة مات بمكة ١١٨ قال بن معين لم يسمع من جابر ولا من أبي أمامة . [راجع الكاشـف ج١ ص٦٢٨ رقم:٣١٩٨ ، وجـامع التحصيـل ج١ ص٢٢٢ رقـم:٤٢٨ ، وتقريـب التـهذيب ج١ ص٣٤٠ رقم:٣٨٦٧، و الثقات ج٧ ص٦٩ رقم:٩٠٤١، والتاريخ الكبير ج٥ ص٢٩٤ – رقم:٩٦٠]

(٤) العلامة ابن جرير الطبرى – جامع البيان عن تأويل آي القرآن ج: ٤ ص: ١٩٩، وقال الطبرى : « وهذا التـأويل وإن كان وجها من وجوه التأويل فإن الصحيح من القول فيه هو ما قلنا لأن الغرور إنما هو الخداع في كـلام العـرب وإذ كان كذلك فلا وجه لصرفه إلى معنى القلة لأن الشيء قد يكون قليلا وصاحبه منه في غير خداع ولا غرور وأما الـذي هو في غرور فلا القليل يصح له ولا الكثير مما هو منه في غرور، والغرور مصدر من قول القائل غرني فلان فهو يغـرني غرورا بضم الغين وأما إذا فتحت الغين من الغرور فهو صفة للشيطان الغرور الذي يغر ابن آدم حتى يدخله من معصيـة الله فيما يستوجب به عقوبته ».

(٥) العلامة أبو عبدالله الحاكم – المستدرك على الصحيحين ج٢ ص٣٢٧ – الحديث: ٣١٧٠ ، وابن حبان – صحيح ابـن حبان ج١٦ ص٤٣٣ – ذكر الأخبار بأن القليل من الجنة لأهلها خـير ممـا طلعـت الشـمس لأهـل الدنيـا – الحديث:٧٤١٧ ، وأخرج البخارى – صحيح البخاري ج٣ ص١١٨٧ – الحديث:٣٠٧٨ بلفظ عن أبي هريرة قـال [قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن موضع سوط في الجنة لخير من الدنيا] ، وأخـرج البخـارى أيضـا – صحيح البخاري ج٥ ص٢٣٥٨ – الحديث: ٦٠٥٢ بلفظ عن سهل قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم [يقـول موضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها ولغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها]

وفى الحديث الشريف أيضا عن سهل بن سعد[١] رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [لو أن الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافرا شربة ماء][٢]، وعنه سهل بن سعد قال [كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بذي الحليفة فإذا هو بشاة ميتة شائلة برجلها فقال أترون هذه هينة على صاحبها فو الذي نفسي بيده للدنيا أهون على الله من هذه على صاحبها ولو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها قطرة أبدا][٣].

وعن سهل بن سعد عن النبي صلى الله عليه وسلم [لو عدلت الدنيا عند الله جناح بعوضة ما أعطى كافرا منها شيئا] [٤]، ثم قال سبحانه وتعالى "والآخرة عندِ ربك للمتقين" أي هي لهم خاصة، لا يشاركهم فيها أحد غيرهم، ولهذا لما [قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين صعد إليه في تلك المشربة لما آلى صلى الله عليه وسلم من نسائه فرآه على رمال حصير قد أثر بجنبه فابتدرت عيناه بالبكاء وقال يا رسول الله هذا كسرى وقيصر فيما هما فيه وأنت صفوة الله من خلقه وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم متكئا فجلس وقال أوفي شك أنت يا ابن الخطاب ثم قال صلى الله عليه وسلم أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا وفي رواية أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة][٥]، وعن عبدالرحمن بن أبي ليلى: [أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لاتشربوا في آنية الذهب والفضة ولا تأكلوا في صحافها فإنها لهم في الدنيا ولنا في الآخرة وإنما خولهم الله تعالى في الدنيا لحقارتها][٦].

ومما لا شك فيه أن الفلسفة عملية وعلمية – تجريبية أو نظرية – تسعى إلى بلوغ الغاية، وتستهدف المثل العليا، حتى لا يكون أمام العقل شيء أخر يمكنه التطلع إليه، ولذا قيل: إن الفلسفة أم العلوم، والباحث الدءوب عن المثل العليا[٧]، والقيم الإيجابية هي الأخرى انطلاق نحو توظيف المعارف وتحويلها إلى سلوك عملى مثالى، يتحقق به رضوان الله تعالى عندنا نحن المسلمين، أو إشباع رغبة داخلية، وناحية وجدانية فى مظاهر عملية، أو قابلة لهذه الممارسة العملية.

---

(١) سهل بن سعد بن مالك الساعدي كان اسمه حزن فسماه رسول الله سهلا كنيته أبو العباس مات بالمدينة سنة ثمان وثمانين وهو آخر من مات من الصحابة بالمدينة، وقال: إنه رأى النبي وهو ابن خمس عشرة وقال أبو نعيم: مات سنة ثمان وثمانين بالمدينة وهو ابن مائة سنة وأكثر روى عنه الزهرى وأبو حازم المديني وابنه العباس ويحيى بن ميمون الحضرمي » [راجع العلامة محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي المتوفى ٣٥٤ – مشاهير علماء الأمصار ج١ ص٢٥ رقم:١١٤، التاريخ الكبير ج٤ ص٩٧ رقم:٢٠٩٢، الجرح والتعديل ج٤ ص١٩٨ رقم:٨٥٣ ، التاريخ الصغير (الأوسط) ج١ ص١٨١ قم:٨٤٦].

(٢) الطبراني - المعجم الكبير ج٦ ص ١٥٧ - الحديث:٥٨٤٠.

(٣) الإمام ابن ماجة - سنن ابن ماجه ج٢ ص١٣٧٦ - [٣] باب مثل الدنيا - الحديث:٤١١٠ .

(٤) العلامة الطبراني - المعجم كبير ج٦ ص١٧٨ الحديث : ٥٩٢١ .

(٥) الإمام البخارى - صحيح البخارى - الحديث: ٢٤٦٨ ، وأخرجه مسلم - ج٢ ص١١١١- الحديث رقم: ١٤٧٩.

(٦) الإمام البخارى - صحيح البخارى ج٥ ص٢٠٦٩ الحديث: ٥٤٢٦ ، وأخرجه مسلم - صحيح مسلم - ج٣ ص١٦٣٨ - الحديث: ٢٠٦٧.

(٧) هنرى توماس – الفلسفة والمثل ص١٥ – ترجمة وفاء صالح ، لو قال الباحث المؤدب عن معرفة حقئق الأشياء، فربما كان ذلك مقبولا على ناحية من النواحي المعرفية.

أ- علاقة الفلسفة بالميتافيزيقا

كان الفهم السائد للفلسفة فى العصور الكلاسيكية[١]، هو عمومها واشتمالها كل النظم الثقافية والعلمية فى داخل الإطار الأرسطى، وكذلك كل ما وصفه الأدب العربى، بأنه علوم أجنبية إغريقية[٢]، وبالتالى فإن الفلسفة على هذا المفهوم تعتبر العلم[٣] الشامل الجامع لغيره من العلوم، وظل الحال على ذلك فترات طوال، حتى صار ذلك الاعتقاد قاعدة شبه مضطردة.

بيد أن هذا الفهم لعموم الفلسفة وخصوص العلوم الأخرى، جعل الفلسفة تقف بين العلوم كلها، سيدة تحمل وحدها تاج العز فوق رأسها، بينما العلوم الأخرى تلتف حولها التفاف الوصيفات بالملكة، حتى جاءت أفهام أخرى عالجت الموقف بنوع من الموضوعية والحيدة، فانتهى الأمر معها إلى أن علاقة الفلسفة بالعلوم الأخرى تجيء فى طريقين:

أ- طريق الإطلاق والعموم.

ب- طريق التقييد والتخصيص.

❃ **أما الأول: وهو الإطلاق**، فقد ذهب أصحابه إلى اشتمال الفلسفة كل العلوم[٤]، بحيث تقع بين جنباتها علوم الطب والهندسة والعلوم المعملية، بجانب العلوم الإنسانية، حتى اللسانية منها على أساس الفهم السائد للفلسفة، وأنها أم العلوم وأس العلوم[٥].

❃ **وأما الثانى: وهو التقييد والتخصيص**، فمعناه إطلاق ا لفلسفة على معنى ضيق، بحيث لا يشمل إلا المنطق والأخلاق والميتافيزيقا، وهذا الطريق تتنوع إلى نوعين:-

(١) ما يدخل فى صميم الفلسفة: وهو الأخلاق والميتافيزيقا، على وجه من العموم.

---

(١) تطلق الكلاسيكية على معنى التقليدى، وعلى معنى القدم، يقال فكرة كلاسيكية، أى قديمة أو تقليدية.

(٢) فردريك روزنتال – التراث القدم فى الحضارة الإسلامية ص١٣٨ – تقدم وتحليل د: عبدالله حسن المسلمى – مكتبة سعيد رأفت ١٩٩٣م.

(٣) العلم هو إدراك الشيء على ما هو به ويقال عليه أنه ملكه يقتدر بها على إدراك الجزئيات. [العلامة زكريا بن محمد بن زكريا الأنصاري أبو يحيى المولود ٨٢٤هـ والمتوفى ٩٢٦ هـ – الحدود الأنيقة والتعريفات الدقيقة ج١ ص٦٦ – دار الفكر المعاصر – بيروت ١٤١١هـ – الطبعة الأولى] تحقيق د. مازن المبارك]

(٤) الدكتور صبحى حسن السامرائى – الفلسفة والتاريخ ص٧١ .

(٥) الشيخ منصور رجب عليوة – الفلسفة بين القبول والرفض ص١١ – مطبعة الاستقامة ١٩٣٧م.

(٢) ما يعد وسيلة للأبحاث الفلسفية: وهو المنطق، إذ أنه عند الأوائل وسيلة البحث المأمونة، ومن ثم عرفوه بأنه: « آلة قانونية تعصم مراعاته الذهن عن الخطأ في التفكير »(١).

بينما هو عند بعض المسلمين كأبي حامد الغزالي: معيار العلم(٢)، وعند بعض آخر أنه يقوم بدور الوسيلة Organon للوصول إلى الفلسفة(٣).

فإذا بلغنا الحديث عن العلاقة بين الفلسفة والميتافيزيقا، وجدنا تيارين متعارضين:

التيار الأول: انفصال الميتافيزيقا عن الفلسفة

وذلك الأمر يبدو عند بعض مفكري المسلمين فقط، والسبب راجع عندهم إلى أن أبحاث الميتافيزيقا لدى المسلمين هي المعبر الوحيد عن الاهتمامات العقدية، المتمثلة في الأبحاث اللاهوتية(٤)، أو بمعنى آخر، فإن هذا البعض يرون الميتافيزيقا تتعلق بعلم الإلهيات فقط، أو بعلم التوحيد أو علم الكلام على العموم — الإلهيات، والنبوات، والسمعيات — باعتبار أن هذه المباحث الكلامية تتعلق بأمر عقدي، وترتبط به وحده(٥)، مع انه يقع كله في دائرة الغيبيات، ومن ثم فقد اعتبروا الميتافيزيقا منفصلة عن الفلسفة، بل وأعلى من الفلسفة درجة(٦).

ويبدو أن رحلة هذا التيار قد استمرت فترة طويلة من الزمان كانت السيادة الفكرية للآراء التي يتبناها، وربما استغرقت الوقت الحاضر في أغلب مراحله، اللهم إلا عند الاعتماد على النقل الشرعي، واعتبار الفلسفة هي الحكمة، والنظر إليها، باعتبار أن المراد من لفظ الحكمة هو الفلسفة بمعناها العام(٧).

كما أن مستند تيار انفصال الميتافيزيقا عن الفلسفة ، ربما كان بعض الآثار والنقول الفكرية، التي جاءت على الناحية الإسلامية، من أمثال قول ابن تيمية: « والله لقد سبق إلى جنات عدن أقوام ما كانوا بأكثر الناس صلاة، ولا صياما، ولا حجا، ولا اعتمارا، ولكنهم عقلوا عن الله تعالى

---

(١) الدكتور: عوض الله جاد حجازي — المرشد السليم في المنطق الحديث والقديم ص١٣ .

(٢) كتاب ألفه الإمام الغزالي، تحدث فيه عن المنطق وأصول الفقه، واعتبر أن من ليس عنده شيء من المنطق فليس أهلا للنظر في العلوم.

(٣) فرانتز روزنتال — التراث القديم في الحضارة الإسلامية ص١٣٨.

(٤) أ ب هيوز — التراث الفلسفي عند المسلمين ص٣١ — ترجمة الأستاذ فوزي عطا الله .

(٥) الدكتور محمد السيد سليم — محاضرات في الفلسفة الإسلامية ص٣٥ ط٢/١٩٨١م.

(٦) فردريك روزنتال — التراث القديم في الحضارة الإسلامية ص١٣٨.

(٧) الفرق بين معنى الفلسفة الخاص والمعنى العام، هو ذات الفرق بين التيارين المتعارضين لمن تأمل هذه وتلك.

مواعظه، فوجلت منه قلوبهم، واطمأنت إليه النفوس، وخشعت منه الجوارح، فقاقوا الخيقة بطيب المنزلة، وحسن الدرجة عند الناس فى الدنيا وعند الله فى الآخرة »[1].

على كل؛ فإن هذا التيار الانفصالى كانت له جذور عميقة وفروع باسقة، وبخاصة إذا وضع فى الاعتبار تلك القوى الفكرية المناهضة لجعل الفلسفة علما، أو إدخالها ميدان الدراسات الفكرية أخلاقا أو منطقا أو خلافه، كالحال مع موقف شيخ الإسلام ابن تيمية، ومن نسج على منواله، أو سبقه إلى إعلان هذا الفصل ومهاجمة الفلسفة، وإن كان يتعاطاها فى الخفاء، كالحال مع الإمام الغزالى[2].

لكن أصحاب هذا الاتجاه الانفصالى، قدموا أدلة تدعم موقفهم، وتنتهى إلى الحكم بأن الفلسفة تغاير الميتافيزيقا تماما، **ومن أبرز أدلتهم على انفصال الفلسفة عن الميتافيزيقا ما يلى:-**

١- فى الموضوع:-

ذلك أن موضوع الفلسفة التقليدية الكون بما هو عليه، وعلى النحو الذى هو عليه، أما موضوع الميتافيزيقا فكان ما وراء الحس، إنه الأمر الغيبى على نحو ما[3]، سواء أكان هذا الأمر الغيبى هو معرفة الله تعالى وطرق الاستدلال على وجوده جل شأنه، أم هو كان هو السبيل والموصل إلى هذه المعرفة، يستوى فى ذلك أن يكون الأمر الغيبى مما أشار إليه النقل، وتحدث عنه مباشرة[4].

٢- فى المنهج:-

منهج الفلسفة العامة مرن، يستوعب الكثير من الاتجاهات الفكرية، فإذا تناول جانبا اجتماعيا، استخدم إليه طريقا موصلة إليه، بحيث تتعامل معه، وتؤدى فيه إلى نتائج مهمة[5]، وإذا تناول جانبا معرفيا فى أى ناحية من نواحى المعرفة، فإنه يصطنع ما يوصل إليها، أما المنهج فى الميتافيزيقا فقائم على ناحية واحدة هى إثبات ذات الله تعالى، وتجريدها مع التنزيه، وكذلك إثبات سائر الكمالات له جل شأنه، وما يستتبع هذه الكمالات الإلهية[6].

---

(١) شيخ الإسلام الإمام أحمد بن تيمية – بغية المرتاد فى الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية ص٦٠ .

(٢) المشهور أن الإمام الغزالى حارب الفلسفة، وهاجم الفلاسفة ونال منهم فى وقت ما، وإن كان هو فى الحقيقة قد مال إلى كثير من تلك الأقوال، ورشح لها فى كثير من مؤلفاته، بحيث يمكن القول بأنه كان فيلسوفا على طريقته النقدية.

(٣) راجع للدكتور حسن محمد الشربينى – الميتافيزيقا عند العرب ص٧٣، حيث أكد أن الميتافيزيقا هى الغيب

(٤) الفرق بينهما هو ذات الفرق بين الوسيلة والغاية، لكن مع الاختلاف فى الألفاظ المعبرة. [راجع فى ذلك كتابنا: الإيمان بالغيب وأثره على الفكر الإسلامى]

(٥) الدكتور عبدالعاطى السيد خليفة – الفلسفة منهج وغايات ص١٣ .

(٦) راجع فى ذلك كتابنا: حبو الوليد فى علم التوحيد ص١٤٣، وكتابنا: المدخل التام لعلم الكلام ص٣٤٥ وما بعدها.

ثم: فإن المنهج فى الفلسفة اقتصر فى معظم الأحيان على الدراسة النظرية[١]، بينما فى الميتافيزيقا استخدم الأدلة العقلية، والتأمل الفكرى فى الجوانب المنبثة فى الكون على نواح مختلفة.

غير أن بعض الباحثين يرون للفلسفة وظيفة، بجانب علم اللاهوت – رغم انفصالهما – وهذه الوظيفة ليست ثانوية، بل هامة جدا، تتلخص فى دراسة جميع المعانى الأساسية، التى يستخدمها رجال اللاهوت دراسة نقدية تحليلية، مثل مفهوم الله والوحى، ويطلقون على هذه الدراسة المتعلقة بالدين اسم "فلسفة الدين"، ويرون أن فلسفة الدين مهمتها – بجانب ما ذكر – ربط المعانى المتصلة – باللاهوت – بالعلوم الأخرى، كالفلسفة العامة والأخلاق[٢]، ومع هذا فهم كغيرهم ممن يميلون إلى هذا الاتجاه، هو اعتبار الفلسفة أم العلوم، ومهمتها تقديم الخدمات الإنسانية المتعددة فى كافة مجالات الحياة.

غير أن تقسيم الفلسفة إلى فلسفة دين، وفلسفة تاريخ، وفلسفة أخلاق . وفلسفة علوم، ليس معناه تقسيم الفلسفة بمعناها عند الإغريق[٣]، وإنما الاحتمال القائم هو تقسيم الفلسفة باعتبار المعنى المنقول إلى البيئة الإسلامية، وأعنى به محبة الحكمة وممارستها، فإن قبل هذا الاحتمال، فلاشك أن فيه فتحا جديدا لفكرة ظلت مغلقة، بل استعصت على الحل آمادا بعيدة.

ومن البدهى القول: بأن محبة الحكمة، أو الحكمة، أو حب الحكمة، إنما يمثل وصفا لحالة معينة، هى محور وضع الشيء موضعه، بينما مصطلح محب الحكمة، أو صديق الحكمة، إنما تمثل موصوفا بها وليس وصفا، أو بمعنى آخر تمثل الباحث – الفيلسوف – وليس المبحوث – الفلسفة، ومن ثم يصح القول بأنها محبة الحكمة، وأن متعاطيها القائم على أمورها محب الحكمة، ولا مشاحة فى هذا الفهم[٤]، طالما أن الظواهر النقلية تؤيده ولا تعانده[٥].

بل إن الإمام الحكيم الترمذى[٦] مال إلى هذا المعنى، وأكده فى عبارة وجيزة، حيث قال: « الحكمة حكمتان: حكمة من العلم به، وهى الحكمة العليا، وحكمة من العلم بأموره وتدبيره

---

(١) دكتور: الطبلاوى محمود سعد – موقف ابن تيمية من فلسفة ابن رشد ص٢٣٠ مطبعة الأمانة.
(٢) دكتور: عزت قرنى – مدخل إلى الفلسفة ص١٣٨/١٣٩ – مكتبة سعيد رأفت.
(٣) راجع للدكتور عبدالواحد محمد الطيب – الفلسفة الإغريقية ص٧٥ .
(٤) راجع كتابنا: التفلسف (مفهومه – بواعثه – خصائصه) ففيه تناول لبعض هذه المفاهيم .
(٥) لمزيد من التفاصيل راجع كتابنا: المدخل لدراسة الحكمة الإسلامية، ففيه تفاصيل تتعلق بهذا الجانب.
(٦) هو الإمام الحكيم : محمد بن علي بن الحسن بن بشير الترمذي المؤذن المعروف بالحكيم أبو عبد الله، كان إماما من أئمة المسلمين له المصنفات الكبار في أصول الدين ومعاني الحديث وقد لقي الأئمة الكبار وأخذ عنهم وفي شيوخه كثرة وله كتاب نوادر الأصول مشهور رواه عنه جماعة بخراسان.وذكر أبو عبد الرحمن في طبقات الصوفية انه هجر بترمذ في آخر عمره بسبب تصنيفه كتاب ختم الولاية وعلل الشريعة قال فحمل الى بلخ فاكرموه لموافقته لهم في المذهب يعني الرأي، وذكره أبو نعيم في الحلية فقال صحب أبا تراب النخشبي ولقي يحيى بن الجلاء وصنف التصانيف الكثيرة في الحديث وهو مستقيم الطريق تابع للأثر يرد على المرجئة وغيرهم من المخالفين وذكر أشياء من كلامه لم يزد على ذلك سوى سياق أشياء من كلامه منها قوله كفى بالمرء عيبا ان يسره ما يضره ومنها قوله وقد سئل عن الخلق فقال ضعف ظاهر ودعوى عريضة، وذكره الكلاباذي في كتابه التعرف في مذهب التصوف من أئمة المصنفين في ذلك وعظمه عاش الى حدود العشرين وثلاث مائة قال الأنباري المذكور ذكر انه سمع منه سنة ثماني عشرة وثلاث مائة نحوا من تسعين سنة. [راجع : لسان الميزان ج٥ ص٣٠٨ رقم:١٠٣٣]

وصنعته، و لم يقف عند هذا الحد »، وإنما أكد أن المقبولين من الله تعالى هم الذين ساروا على طريقه، واحتذوا طريق الأنبياء حتى نالوا منه الحكمة العليا، والسائرون إليه على طريق الأولياء نالوا منه الحكمة الدنيا(١).

والترمذى(٢) يذهب إلى أبعد من هذا حين يصرح بأن الحكمة هى : « الصدق والصفاء »(٣)، وبالتالى فإن مسألة الفصل بينهما – الميتافيزيقا والفلسفة – أمر ضرورى لا محيد عنه، باعتبار الموضوع والمنهج على ما مر ذكره.

التيار الثانى: امتزاج الميتافيزيقا بالفلسفة

وهذا التيار يميل إلى أن الفلسفة والميتافيزيقا شيء واحد، وأن الاختلاف والتمايز بينهما قد جاء فى الاسم فقط، أما المدلول فهو واحد، وإذا كانت الفلسفة بالمفهوم العام تشمل كافة العلوم النظرية؛ فإن الميتافيزيقا كذلك تشكل كافة العلوم بالمعنى الواسع لها، أما إذا قلنا بتحديد الميتافيزيقا وانحصار معناها فى مباحث اللاهوت، فقد جعلنا العام خاصا بلا مبرر، وهؤلاء يمثلون جمهرة من علماء المسلمين، مفكرين وفلاسفة، بل وزعماء فرق إسلامية وغيرهم.

وهذا التيار الذى يرى ضرورة وجود امتزاج بين الفلسفة والميتافيزيقا، لا يقف عند مجرد التعريف لكل منهما، وإنما يميل إلى ضغط الفلسفة وإدماجها فى علوم كثيرة، ومنها الميتافيزيقا، وطبقا لهذا يمكن القول: بوجود علم ميتافيزيقا الفلسفة، كما يقال: كذلك على غيرها من العلوم، حتى ولو كانت علم الموسيقى الذى يعرف بأنه: مجموعة المعارف والنسق الفلسفية والعلمية والتاريخية والفولكلورية المتعلقة بالصوت وفن النغم(٤).

---

(١) الإمام أبو عبدالله الترمذى – الكلام على معنى لا إله إلا الله أو شفاء العلل ص٣٣ – تحقيق د: محمد إبراهيم الجيوشى – مطبعة حسان.

(٢) جدير بالذكر أن الترمذى الحكيم هذا غير الإمام المحدث محمد بن عيسى بن سورة بن الضحاك السلمي الترمذى. صاحب الجامع والعلل الضرير الحافظ العلامة، طاف البلاد وسمع خلقا كثيرا من الخراسانيين والعراقيين والحجازيين وغيرهم ، روى عن محمد بن المنذر والهيثم بن كليب وأبو العباس المحبوبي وخلق ، ذكره ابن حبان في الثقات وقال كان ممن جمع وصنف وحفظ وذاكر، وكان أحد الأئمة الذين يقتدى بهم في علم الحديث صنف كتاب الجامع والعلل والتواريخ تصنيف رجل عالم متقن كان يضرب به المثل في الحفظ مات بترمذ في رجب سنة تسع وسبعين ومائتين. [طبقات الحفاظ ج١ ص٢٨٢ رقم:٦٣٤، وراجع الثقات ج٩ ص١٥٣ رقم: ١٥٧٣٥، وميزان الاعتدال فى نقد الرجال ج٦ ص٢٨٩ رقم:٨٠٤١، وراجع تهذيب التهذيب ج٩ ص٣٤٤ رقم:٦٣٨]

(٣)الإمام أبو عبدالله الترمذى – الكلام على معنى لا إله إلا الله أو شفاء العلل ص٣٤ – تحقيق د: محمد إبراهيم الجيوشى – مطبعة حسان.

(٤) الفرد أينشتين – الموسيقى فى العصر الرومانتيكى ص٧ – ترجمة الدكتور: أحمد حمدى محمود، وهو غير ألبرت أينشتاين صاحب نظرية النسبية المشهورة فى العلوم الطبيعية والرياضية.

على أن هذا الخلط بين الفلسفة والميتافيزيقا، ربما صور على أساس أن الفلسفة إن هى تفسير شامل للكون ككل، قد يكون لها علاقة بالدين، الذى يبحث هو الآخر فى الكون والأشياء، ولكن من حيث إنها مخلوقات صادرة من خالق إله[1]، عظيم له من صفات الجلال والكمال ما يتناسب معه سبحانه وتعالى[2]، فظن البعض أن أمرهما واحد، وأن كليهما يخدم الآخر فى الغاية التى يأملها ..

◈ لكن هناك فرق بين الدين والميتافيزيقا، وهذا الفرق لا يجعل المسألة على النحو السالف سارية أو مقبولة عندنا نحن أهل السنة والجماعة. **أما لماذا؟**

فلأن الدين الإسلامى نصوصه مقدسة موثقة؛ لأنها تنزيل من حكيم حميد[3]، بجانب أن الدين الإسلامى يشمل البحث النظرى فى أمور العقيدة، ففى الحديث الشريف: قال ﷺ : « الإيمان قال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره »[4].والتطبيق العملى لها فى أمور الشريعة، ففى الحديث الشريف عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: « بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَالْحَجِّ وَصِيَامِ رَمَضَانَ »[5]، والمحافظة على الآداب الإسلامية من خلال السلوك المتميز.

---

(١) الدكتور: الطبلاوى محمود سعد – موقف ابن تيمية من فلسفة ابن رشد ص٢٠١ .

(٢) الدكتور محمد عبدالعظيم أبو شرف – الميتافيزيقا التاملية ص٤٣ .

(٣) قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [سورة فصلت – الآيتان ٤١/٤٢]

(٤) ففى الحديث الشريف عن عمر بن الخطاب: « قال بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه وقال يا محمد أخبرني عن الإسلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا قال صدقت قال فعجبنا له يسأله ويصدقه قال فأخبرني عن الإيمان قال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره قال صدقت قال فأخبرني عن الإحسان قال أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك قال فأخبرني عن الساعة قال ما المسئول عنها بأعلم من السائل قال فأخبرني عن إمارتها قال أن تلد الأمة ربتها وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان قال ثم انطلق فلبثت مليا ثم قال لي يا عمر أتدري من السائل قلت الله ورسوله أعلم قال فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم » [صحيح مسلم ج١ ص٣٦ – ١كتاب الإيمان –١ باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سبحانه – رقم:٨]

(٥) الإمام البخارى – صحيح البخارى – جـ١ – باب الإيمان، وقول النبي صلى الله عليه وسلم: (بني الإسلام على خمس). الحديث رقم: ٨ . وأخرجه مسلم في الإيمان، باب: أركان الإسلام ودعائمه العظام، رقم: ١٦.وذكره العلامة العجلونى – كشف الخفاء – حرف الباء الموحدة – الحديث رقم:٩٢٨ وذكره العلامة السندي – حاشية السندى على السنائى – : ٢٢٢٩ – باب على كم بني الإسلام- الحديث رقم: ٤٩٩٩ وقال السندى « [بني الإسلام] يريد أنه لا بد من اجتماع هذه الأمور الخمسة ليكون الإسلام سالما عن خطر الزوال وكلما زال واحد من هذه الأمور يخاف زوال الإسلام بتمامه وللتنبيه على هذا المعنى أتي بلفظ البناء وفيه تشبيه الإسلام ببيت محمسة زواياه وتلك الزوايا أجزاؤه فبوجودها أجمع يكون البيت سالما وعند زوال واحد يخاف على تمام البيت وإن كان قد يبقى معيوبا أياما والله تعالى أعلم [شهادة] بالجر على البدلية من خمس أو الرفع على أنه خبر محذوف أي هي شهادة الخ والمراد الشهادة بالتوحيد على وجه يعتد به وهو أن تكون مقرونة بالشهادة والله تعالى أعلم »

وقد جاءت السنة النبوية المطهرة موضحة ذلك فى قوله ﷺ : : «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإنك إن لا تراه فإنه يراك »[1]، بينما الميتافيزيقا بحث نظرى فى جانب الألوهية فقط.

إذن الدين اعم من الميتافيزيقا؛ لأنه يشمل الجانبين، العملى والنظرى، والعقدى والشرعى، بينما الميتافيزيقا لا تمثل إلا جزءا محدداً هو مسالة الألوهية، ولا تعتبر النبوات والسمعيات داخلة فيها، ولهذا ذكرت أن الدين الإسلامى أعم من الميتافيزيقا، ومن كل العلوم أنه الذى يؤسس لها ويحافظ عليها.

وربما توهم أن مسألة التوفيق بين الدين والفلسفة، التى أحاطها البحث النظرى بكثير من الاهتمام والعناية — تعطى مدلولا بأن كلا منهما فى ناحية، والمطلوب جمع شمل الأمرين، وليس الأمر كذلك؛ لأن مسألة التوفيق بين الدين والفلسفة عنت بجانب واحد من الدين، مع الفلسفة، ولسنا نسلم بأن الفلسفة هى الميتافيزيقا، وإنما نميل إلى أن هناك فرقا بين الفلسفة والميتافيزيقا على ما سلفت الإشارة إليه.

كما أن مفكرى المسلمين، الذين عنوا بالتوفيق لم يذكروا اسم الفلسفة، وإنما ذكروا الحكمة، فمثلا ابن رشد كتب: فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، واستخدم لفظ الحكمة، و لم يذكر أبدا الفلسفة من هنا صح القول: بأن المراد من الحكمة عنده، الميتافيزيقا وليس الفلسفة، وبالتالى يكون العمل الأصلى لهم هو التوفيق بين المباحث الميتافيزيقية التى عنت بمباحث الألوهية وبين النصوص الدينية، وليس الفلسفة التى عنيت بمباحث الوجود والمعرفة والقيم.

بد علاقة الفلسفة بتاريخ الفلسفة

هناك مصطلحات لابد من تفهم المقصود بها، يستوى فى ذلك العلوم النظرية والتطبيقية، أو النظرية والعملية؛ من هذه المصطلحات تاريخ وتأريخ، فالتاريخ هو الحقبة الزمانية، التى تصاحب الأحداث التى جرت فيها، بحيث يكون شاهدا عليها، وبعبارة أخرى: التاريخ هو الوعاء الزمنى الذى تجرى فيه الأحداث.

---

(١) هذا جزء من حديث طويل أخرجه الإمام مسلم - صحيح مسلم ج:١ ص٣٦/٦٨ - الحديث رقم:٨، ٩ وأخرجه البخارى فى صحيحه ج١ ص٢٧، ج٤ ص١٧٩٣، وأخرجه ابن خزيمة فى صحيحه ج٤ص٥، وابن حبان ج١ ص٣٩١، ص٣٩٨، ومسند أبى عوانة١ ج٤ ص١٩٤، وسنن الترمذى ج٥ ص٦، ومجمع الزوائد ج١ ص٣٨، وسنن البيهقى الكبرى ج١٠ ص٢٠٣، وسنن النسائى ج٨ ص٩٩، ص١٠٢، وسنن ابن ماجه ج ص٢٤، ٢٥، ومصنف ابن أبى شيبة ج٥ ص١٥٧، ومسند أحمد ج١ ص٥١، ٣١٩، وج٢ ص١٠٧، ص٤٢٦، والمعجم الكبير ج١٢ ص٤٣٠، ج٢٠ ص١٦٥ .

والتاريخ أقسام:-

❊**الأول: التاريخ السياسي:** وهو الذى يتحدث عن أحوال الأمم والدول والملوك والأمراء

۞قال العماد الأصفهانى: « إن عادة التواريخ الابتداء ببدء الخلق، أو بدء دولة من الـــدول، فــلا توجد دولة ألا ولها تاريخ يرجعون إليه، أو يعولون عليه، ينقله خلفها عن سلفها، وحاضرها عن غابرها، تقيد به شوارد الأيام، وتنصب به معالم الأعلام، ولولا ذلك لانقطعت الوصل، وجهلت الدول، ومات فى أيام الأواخر ذكر الأوائل »[1].

❊**الثانى: التاريخ الدينى:** وهو الذى بين أثار قدره الله فى خلقه كقوله تعـــالى: ﴿إِنَّ فِـــي خَلْـــقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾[2].يقول الإمام القرطبى: « قوله تعالى : ﴿ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ أى الذين يستعملون عقولهم فى تأمل الدلائل »[3].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾[4]. يقول العلامة الطبرى : « ينبه الله تعالى عباده على موضع الدلالة على ربوبيتـــه وأنه خالق كل ما دونه إن في اعتقاب الليل والنهار واعتقاب النهار الليل إذا ذهب هذا جاء هـــذا وإذا جاء هذا ذهب هذا وفيما خلق الله في السماوات من الشمس والقمر والنجوم وفي الأرض من عجائب الخلق الدالة على أن لها صانعا ليس كمثله شيء لآيات يقول لأدلة وحججـــا وأعلامـــا واضحة لقوم يتقون الله فيخافون وعيده ويخشون عقابه على إخلاص العبادة لربهم فإن قـــال قائل أو لا دلالة فيما خلق الله في السماوات والأرض على صانعه إلا لمن اتقى الله قيـــل في ذلـــك الدلالة الواضحة على صانعه لكل من صحت فطرته وبريء من العاهات قلبه و لم يقصد بذلك الخبر عن أن فيه الدلالة لمن كان قد أشعر نفسه تقوى الله وإنما معناه إن في ذلك لآيات لمن اتقى عقـــاب الله فلم يحمله هواه على خلاف ما وضح له من الحق لأن ذلك يدل كل ذي فطرة صحيحة على أن

---

(١) العلامة العماد بن محمد حامد الأصبهانى الشافعى – الفتح القدسى ص٥٣ ط المطبعة المنيرية ١٣٢١هـــ .

(٢) سورة آل عمران – الآية ١٩٠، وثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ كان يقرأ هذه الآيات العشر من آخر آل عمران، إذ قام من الليل لتهجده، فقد أخرج الإمام البخارى بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال بت عند خالتى ميمونـــة، فتحدث رسول الله ﷺ مع أهله ساعة، ثم رقد، فلما كان ثلث الليل الآخر قعد فنظر إلى السماء، فقال:﴿ إِنَّ فِي خَلْـــقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ..﴾، ثم قام فتوضأ واستن ثم صلى إحـــدى عشـــرة ركعة، ثم أذن بلال فصلى ركعتين، ثم خرج فصلى بالناس الصبح ».[الإمام البخارى – صحيح البخارى – كتـــاب العمل فى الصلاة – باب استعانة اليد فى الصلاة – إذا كان من أمر الصلاة، حديث رقم: ١١٩٨، وأخرجه مســـلم – كتاب صلاة المسافرين – باب صلاة النبى ﷺ بالليل ج٦ ص٥١ النووى]

(٣) الإمام القرطبى – الجامع لأحكام القرآن – جـــ٣ ص١٥٥٢ .

(٤) سورة يونس – الآية ٦ .

له مدبرا يستحق عليه الإذعان له بالعبودية دون ما سواه من الآلهة والأنداد »[١]، فإنها آلهة باطلة، وأنداد أشد بطلانا.

۞قال أبو إسحاق الحموى: « وهذا التاريخ مع قربه من الصحة، فإنه يذكر علماء الأمة المحمدية ويعرف بمحاسنهم وعلومهم وسيرهم التي يستدل بها العامي في أموره ويتدبرها، ويتفكر فيها فينتفع بما قالوه، وعانوه، وإن ينقل عنهم من المحاسن دنيا وأخرى »[٢].

۞ويذكر ابن خلدون[٣]: « أن هذا النوع من التاريخ جم الفوائد، شريف الغاية، ألا وهو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سيرهم، والملوك في دولهم وسياستهم، حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرونه في أحوال الدين والدنيا »[٤].

❊الثالث: التاريخ الفلسفي:-

وهو الذى يراقب الحركة الفكرية الفلسفية منذ بدايتها، بحيث يحكى أحوالها ، ويعمل على إبراز مظاهرها وتقلباتها المختلفة، ولابد فيه من المشاركة الطبيعية ومشاهدة الأفكار بعين العقل والبصيرة القوية، لا بعين البصر منها الكليلة[٥]، وهذا التاريخ يرسم صورة حقيقية للفكر الفلسفي من غير تدخل فيه، بحذف منها أو زيادة.

❊الرابع: التاريخ الأصلي :-

وهو الذى يعبر عن وجدان المؤرخ المشارك في الأحداث، فالتاريخ الأصلي هو الذى يقوم على أرض الواقع لا يفارقه، ولا يفقد نضارته، ويحكى عنه دون زيادة عليه أو نقصان، ويمثل ذلك النوع بعض الكتابات الفنية والخطب الدينية والسياسية ذات البعد الطبيعي، وهو أقرب المناهج إلى الحاضر والحياة بأكملها، وهو أنواع:

---

(١) الإمام الطبرى – جامع البيان ج١١ ص٨٦/٨٧ .

(٢) العلامة أبو إسحاق إبراهيم بن عبدالله بن عبدالمنعم الفقيه القاضي الحموى الأصل: الجواهر في ذكر أنسار الأوائل والأواخر ص٢٥ ط١/١٣١٥هـ.

(٣) ابن خلدون : هو قاضي القضاة مؤيد الدين عبدالرحمن بن محمد بن خلدون الإشبيلي الحضرمي المالكي المتوفى سنة ثمان وثمانمائة وهو كبير عظيم النفع والفائدة . روى عنه كان في وقعة تيمور قاضيا بحلب فحصل في قبضته أسيرا سميرا فكان يصاحبه وسافر معه إلى سمرقند فقال له يوما: لي تاريخ كبير جمعت فيه الوقائع بأسرها خلفته بمصر وسيظهر به المجنون بشير إلى برقوق فقال له: هل يمكن تلافي هذا الأمر واستخلاص الكتاب؟ فاستأذن في أن يعود إلى مصر ليجيء به، فأذن له ولعل ذلك الكتاب هو العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والروم والبربر وقد اشتهر نحو ثلثه بالمقدمة ودون مفردا . [راجع كشف الظنون لحاجى خليفة – باب التاء – علم التاريخ (تاريخ ابن خلدون) (١/ ٨٣٦) بتصرف يسير]

(٤) الإمام عبدالرحمن بن خلدون – المقدمة ص١٣ .

(٥) الشيخ محمد أحمد الذاكى – الإمامة والتاريخ ص٣٩ .

أ- التاريخ الكلى. ب- التاريخ العملى البراجماتى.

جـ- التاريخ النقدى. د- التاريخ التصورى.

الخامس: التاريخ التأملى: وهو الذى يتجاوز الحاضر الحسي، حتى يأخذ بصاحبه إلى بحث الماضى محل العبرة، والحاضر حتى يستعد لمطالعة ما فيه، وينتقل للمستقبل، حتى يتصور ما يمكن أن يجيء فيه.

السادس: التاريخ الفلسفى لا فلسفة التاريخ، وهو الذى يتابع حركة الأحداث الفكرية فى الجانب المتعلق بالأهداف العلمية على ناحية فنية(١).

فإذا قيل تاريخ النحو مثلا، فإن المراد من هذا المصطلح هو الفترة التى ابتدأ فيها البحث حول التفكير فى النحو، وبناء قواعده، وتطبيق تلك القواعد والإضافات أو التعديلات التى تمت منذ بداية التفكير فيه حتى اللحظة التى نحن فيها.

أما التأريخ: فهو تدوين تلك الأحداث، بحيث يسهل تبادلها وتناولها، من خلال الحفظ فى الصدور، أو إبرازها فى الكتابة والسطور، ومن ثم فإن تأريخ النحو هو العلم الذى يقوم برصد الأحداث التى جرت لهذا العلم مدارسه كالبصرة والكوفة وبغداد، ومذاهبه كسيبويه(٢)، والزجاج(٣)، وما يتعلق بذلك كله من خلافات ومعارك ينهض لها علم التأريخ.

---

(١) الدكتورة نازلى إسماعيل حسين – فلسفة الحضارة ص٢٧٥، وللدكتور رمزى حس عطا الله – التاريخ و الحضارة ص٦١، وللدكتورة فوزية السيد رجب –التاريخ والفلسفة ص١٥٣ .

(٢) سيبويه: اسمه عمرو بن عثمان بن قنبر مولى بني الحارث بن كعب بن عمر بن وعلة بن خالد بن مالك بن أدد ويكنى أبا بشر ويقال كنيته أبو الحسن وسيبويه بالفارسية رائحة التفاح وأخذ النحو عن الخليل وهو أستاذه وعن عيسى بن عمر وعن يونس وعن غيرهم وأخذ اللغات عن أبي الخطاب الأخفش الكبير وغيره وعمل كتابه الذي لم يسبقه الى مثله أحد قبله و لم يلحق به بعده قرأت بخط أبي العباس ثعلب احتمع على صنعة كتاب سيبويه اثنان وأربعون انسانا منهم سيبويه والأصول والمسائل للخليل وقد قدم سيبويه أيام الرشيد الى العراق وهو بن اثنين وثلاثين سنة وتوفي وله نيف وأربعون سنة بفارس وقال غيره كان وروده العراق قاصدا يحيى بن خالد فجمع بينه وبين الكسائي والأخفش فناظراه وخاطباه في مسائل سالاه عنها وحاكماه الى فصحاء الاعراب وكانوا قد وفدوا على السلطان وهم أبو فقعس وأبو دثار وأبو الجراح وأبو ثروان فكان الكسائي على الصواب وكلم الكسائي يحيى بن خالد فأجازه بعشرة آلاف درهم فأخذها وعاد الى البصرة ومنها الى فارس ومات بها سنة سبع وسبعين ومائة ومن غير خط ثعلب كان المبرد إذا أراد انسان أن يقرأ عليه كتاب سيبويه يقول له ركبت البحر تعظيما له واستعظاما لما فيه وكان المازني يقول من أراد أن يعمل كتابا كبيرا في النحو بعد كتاب سيبويه فليستحي. [العلامة محمد بن إسحاق أبو الفرج النديم المتوفى ٣٨٥ هـ - الفهرست ج١ ص٧٦ – دار المعرفة – بيروت١٣٩٨هـ- ١٩٧٨م]

(٣) الزجاج : هو إبراهيم بن السري بن سهل أبو إسحاق الزجاج كان فاضلا دينا حسن الاعتقاد وله المصنفات الحسنة منها كتاب معاني القرآن وغيره من المصنفات العديدة المفيدة وقد كان أول أمره يخرط الزجاج فأحب علم النحو فذهب إلى المبرد وكان يعطي المبرد كل يوم درهما ثم استغنى الزجاج وكثر ماله و لم يقطع عن المبرد ذلك الدرهم حتى مات وقد كان الزجاج مؤدبا للقاسم بن عبيد الله فلما ولي الوزارة كان الناس يأتونه بالرقاع ليقدمها إلى الوزير فحصل له بسبب ذلك ما يزيد على أربعين ألف دينار توفي في جمادى الأولى منها وعنه أخذ أبو علي الفارسي النحوي وابن القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي نسب إليه لأخذه عنه وهو صاحب كتاب الجمل في النحو. توفى سنة ٣١٠ عشر وثلثمائة .[راجع البداية والنهاية لابن كثير . وكشف الظنون لحاجي خليفة ٤٢٠/٢]

والفلسفة هى الأخرى كما أن لها موضوعا وأهدافا وفوائد مع وظائف، فإن لها أيضا تاريخا قد امتد البحث حولها فيه، وكان شاهدا على الأحداث والتطورات أو الابتكارات التى حدثت للفلسفة أو الفلاسفة، حيث كان المؤرخ الفكرى، يرصد ذلك كله فى شيء من المتابعة الدقيقة، والتواصل المستمر[١]، إنه يرصد حركة الفكر الإنسانى فى جانب هام من جوانبه الفنية، ولذا فإن علاقته بالفلسفة هى علاقة مصاحبة للأحداث، والتعبير الحقيقى عنها، من غير إضافة إليها، أو نقصان لما هو قائم فيها.

ومن ثم فإن تاريخ الفلسفة يكون بمثابة المصور الفنى لأحداثها، وبناء عليه يعتبر التاريخ بالنسبة للفلسفة أهم مصدرٍ معرفى لمن أراد متابعة الأبحاث والنظريات الفلسفية، فإذا أنزلنا هذا التاريخ منزلة المؤرخ، أو استعرنا المؤرخ بدل التاريخ، أمكن تشبيه تاريخ الفلسفة بالمعمر العجوز، الذى عاش منذ ظهور بدايات الحركة العقلية الفكرية إلى يومنا[٢]، وكان متمتعا بقدرات عقلية عالية، وحواس شديدة التركيز، ومقدرة فائقة على جمع المعلومات، ثم هو يحكى للأجيال قصة الفلسفة، وهم يصغون إلى ذلك المعمر العاشق للفلسفة الذى كان يتابعها فى كل مكان.

إن تاريخ الفلسفة أقرب شبها بالراوى أو القاص لملاحم وذكريات عاشها، وأحداث كان مشاركا فيها[٣]، ثم هو يتبرع بالحديث عنها فى شيء من الاستفاضة التى لا تمل، والإيجاز الذى لا يخل، وبالتالى يحسن الانتباه إلى ما يحكيه ذلك الراوى، والإصغاء الشديد لكل ما يقصه؛ لأنه الشاهد على الأحداث الفلسفية وتطوراتها، وهو المشارك الجاد فى تحولاتها.

صور العلاقة بين الفلسفة وتاريخ الفلسفة

علاقة الفلسفة بتاريخ الفلسفة تجيء فى صور عديدة. من أبرزها:

الأولى: الراوى والرواية:

عرفنا أن التاريخ الفلسفى هو الراوى للأحداث والتطورات الفلسفية، وبالتالى فإذا لم يوجد ذلك الراوى ماتت الرواية، إذ من ذا الذى يمكنه الإخبار عنها وهو لم يعاصر أحداثها، أو يمكنه الحديث بالتفصيل عن أخبارها، وهو لا علم له بشيء منها[٤]، إن العلاقة بينهما على تلك الناحية بارزة،و ليس من السهل إنكارها.

---

(١) الدكتورة: فوزية السيد رحب – التاريخ والفلسفة ص١٧١ .

(٢) هذا المثال على سبيل التقريب، بحيث يمكن للدارس التفرقة بين الفلسفة كعلم وبين تاريخ الفلسفة كمتحدث عنها، أو مصور للأحداث التى مرت بها.

(٣) الأستاذ صبرى حسن أبو طويلة – فن الرواية – تصدير الأستاذ محسن سامى ط أولى ١٩٣٥م.

(٤) الدكتور السيد محمد أبو الفضل – دور القصة فى صنع الأحداث ص٢٣ ط١٩٦١/١م، وراجع أيضا للأستاذ التهامى محمد طلعت – فن كتابة القصة ص٣٥ .

وربما يقال: إن الرواية فن أدبي، منها مرتجل والمقتبس، وفيها المترجم والأصيل، وبين جنباتها الواقعي والخيالي والعبث أو اللامعقول(١)، فهل تاريخ الفلسفة يكون هو الراوي للأحداث المرتجلة أم المقتبسة أو المترجمة في الفلسفة الواقعي أم الخيالي؟

والجواب: أن استعمال لفظ الراوي والرواية في الأدب على سبيل الاستعارة في الفلسفة، أمر وارد، فالكثير من العلوم تستعير من بعضها مفردات أو مصطلحات، يرى الدارسون فيها الحاجة داعية إليها، وليس في ذلك شيء يدعو للتساؤل أو الحيرة(٢)، كما أن الفلسفة في نظر التاريخ أحداث تروى، وأخبار تقص، فالخيال فيها غير موجود، إنما أحداث وقعت وتطورات قامت، وتاريخ الفلسفة كان يرصد ذلك، من ثم فهو يحكي ما شاهده على وجه تفصيلي.

الثانية: الرصيد الوثائقي:-

ذلك أن مباحث الفلسفة لم تقم كلها في لحظة واحدة، كما أن ميادينها لم تقعد في يوم واحد، إنما ليست كالقوانين التي تصدرها المجالس النيابية في جلسة واحدة، أو المجالس التشريعية في مسودات ومقترحات، يمكن النظر فيها، حتى تتم الموافقة عليها، واعتبارها تشريعا ثابتا؛ لأن الفلسفة ابتدأت بتأملات عقلية فردية محدودة، لم يعلن عنها في ظل العصور التي سبقت عصر التفلسف المنظم(٣).

وكل مفكر يعمل في مجال الفلسفة لابد أن يراجع تاريخ الفلسفة، حتى يتعرف الجوانب التي تركها من سبق، ثم ينظر فيها بنفسه، فما رآه معها يحتاج إصلاحا قام به إن كان يتمكن من ذلك، وما كان فيها يحتاج إضافة، فإنه لا يتوانى في الإعلان عنه والتأكيد عليها(٤)، وإذا رأى فيها من أوجه الإتقان والإجادة، فإنه ينظر إليها، بحيث يستفيد منها جميعا، على أية ناحية، إذن تاريخ الفلسفة هو الرصيد الوثائقي، ومستودع الفكر للفيلسوف يرجع إليه، ويأخذ منه، ثم يضيف إليه ما يرى إمكانية إضافته إليه.

الثالثة: التجديد والإحياء للأفكار:-

عرفت أن الفلسفة لم تنشأ كلها في لحظة واحدة، كما عرفت أنها مرت بعصور مختلفة، وكان لتاريخ الفلسفة دور هائل في تجديد الأفكار الفلسفية من خلال إعادة النظر المتواصل في

---

(١) راجع لتوماس هيوز – الأدب الروائي ص٣٧ – ترجمة حنان فوزي، وراجع للأستاذ صفوت حسب الله – الأدب بين القديم والحديث والمعاصر ص٣١ طبعة أولى ١٩٦٧م.

(٢) الدكتور السيد محمد أبو الفضل – دور القصة في صنع الأحداث ص٤١ ط مطبعة الجامعة ١٩٦٥م.

(٣) راجع ملامح هذا العصر في كتابنا التفلسف (مفهومه – بواعثه – خصائصه) ، وكتابنا المدخل لدراسة الحكمة الإسلامية، ففي كل واحد منهما شيء يتكامل مع الأخر.

(٤) راجع للدكتور محمود حسن صبره – الفيلسوف ودوره في البناء الفلسفي ص٧١ ط مراكش.

المباحث التي تعكف عليها، كما أنه الذى يعمل على إحياء بعض الأفكار والنظريات الفلسفية، التي انطمرت أبان عصور الظلام، أو الاضطهاد الفكرى[1]، ويظل تاريخ الفلسفة ممسكا بها يعلن عنها في خفاء مقصود حينا، أو في شيء من الاستحياء المتعمد حينا آخر، حتى يتمكن من الهرب بها بعيدا عن خصومها، الذين رصدوا العيون لاجتثاثها من أصولها.

والتاريخ يعيد للحياة موات الأفكار، ويبعث فيها مباهج الحياة، وفى كتابة التاريخ أحياء كامل للماضى، وانتقال متواصل بالأفكار من عالم النسيان إلى عالم التذكر والتحفز والانطلاق مع المعالجة التامة، لكل أوجه القصور على ناحية مقصودة[2]، وفى الحكم يقولون:

ومن وعى التاريخ فى صدره ∴ فقد أضاف أعماراً إلى عمره

ثم إن التاريخ الفلسفى بالنسبة للفلسفة يكون بمثابة الرصيد الذهنى التراكمى الذى يحفظ كافة العمليات العقلية التي قام بها الفكر الإنسانى فى مراحله المختلفة، وزحفت معه هذه العمليات العقلية فى شكل متواصل تحكى قصة كفاحه، وتدعم مواقفه العلمية[3]، إنه أشبه بالمهندس الذى يقوم بمتابعة مخزونة الأساسى فى المواد التي يقوم بالعمل فيها، فإذا وجد منه مطمورا، أبرزه ثم دفع به إلى من يظهر أرصدته، ويعيد إليه رونقه، فيكون بذلك قد أعاده للحياة جديدا. **أما كيف؟**

☜ **فالجواب:** أن التاريخ الفكرى قد أنبأ عن ميلاد حضارات مختلفة منذ عصر ما قبل التاريخ، حيث وجدت أثار العصر الحجرى الأول، الذى يرجع إلى اثنين وأربعين ألف عام قبل الميلاد، فى جبل القربة غرب النيل من تجاه مصر، وكذلك فى صحراء العباسة من شمال القاهرة، وكان الإنسان فى تلك العصور الغابرة يستخدم الحجر الصوان فى صنع الأدوات التي يحتاجها فى أعمال الصيد، والدفاع عن نفسه.

وفى هذا العصر كانت تنتشر حضارة ما قبل العصور التاريخية فى أفريقيا، والشرق الأدنى، وجنوب غرب أوربا، أى حول شواطئ البحر الأبيض المتوسط[4]، ولكن الإنسان المعاصر لم ينقطع عن الماضى، وإنما راح يعيش فيه، ويستثير جنباته لا رفضا لذكريات الماضى، وإنما طلبا للظفر منه بالأفكار التي كان لها دور كبير فى تفعيل الحضارة، حين قامت عليها، أو كان لها دور فى إنشاء حضارة مستجدة، تكون لها الريادة، بجانب الأسس القويمة، التي يمكن الاعتماد عليها بشكل أكثر دقة، وأوسع انتشارا، وأعمق تأثيرا[5].

---

(١) الدكتور صابر حسن العجلان – تاريخ الفلسفة ص٣٣ ط دار مراد ١٩٥٧م.

(٢) الدكتور صبحى حسن السامرائى – الفلسفة والتاريخ ص٤٥ ط١/١٩٥٧م.

(٣) الدكتورة ناهد عبد العظيم الخواص – فى تاريخ الفلسفة ص٢٧ .

(٤) الدكتورة نازلى إسماعيل حسين – فلسفة الحضارة ص١٨ مكتبة سعيد رأفت.

(٥) الدكتور صابر حسن العجلان – تاريخ الفلسفة ص٥٧ ط٢ مطبعة الهدى ١٩٧٥م.

ولما كانت الحضارة لا تقوم من فراغ، وإنما لابد فى إقامتها من قواعد فنية تنهض عليها، فإن عملية التجديد والإحياء لذات الأفكار، يكون من طبيعة العلاقة التى تربط بين الفلسفة وتاريخ الفلسفة.

الرابعة : التبادل العضوى :ـ

من المؤكد أن الفلسفة بحث عقلى حر، يقوم به كل مفكر أو فيلسوف حسب طاقته، ويبرز فيه مجهوده الذهنى، ويكون التاريخ الفلسفى مشاهدا لتلك المحاولات كلها، بحيث تصير هذه العمليات العقلية فى الجانب الفلسفى، جزءا من التاريخ الذى يرويها، كما يكون التاريخ نفسه جزأ من العمليات الفلسفية، باعتبار أنه منطو فيه من قبلها[١]، ودليل ذلك ظهور علم فلسفة التاريخ، الذى يقوم بمهام غاية فى النضج الفلسفى، وعلى جانب كبير من الأهمية الفلسفية أيضا.

وهذا التبادل العضوى كائن فى جزئيات التاريخ التى تتداخل معها بعض أجزاء الفلسفة، حتى تكون شيئا واحدا، أو عجينه اختلطت منها المادة والصورة، وتلاقت الهيولى مع العلل المختلفة[٢]، فى طريق واحد جرى بداخله التآلف والتآزر، فصار كل جزء عوضا للأخر، إذا فقد[٣]، أو كليا تجرى عليه أحكامه فى صورة أقرب الأشباه والنظائر بالقصر الواسع، الذى اختلطت مادته بصورته وتوارى حديده مع الأسمنت والجص وباقى المواد الخام، التى قام عليها القصر الواسع، بل يمكن القول بأنه لم يعد لشيء من هذه المواد وجود مستقل عن الآخر، حتى لو كان جملة الأحجار التى بنى القصر الواسع بها أو أقيم عليها.

ودليل ذلك ما ذهب إليه البعض، من أن التاريخ الفلسفى ما هو إلآ محاولة لتبرير حقيقة التاريخ الكلى، وإذا كانت الفلسفة تهتم بالعناصر القبلية للمعرفة، فإنه يبدو أنه لا وجود لعلم فلسفة التاريخ، الذى يهتم بدراسة الواقع الذى كان، أو الكائن بالفعل[٤]، فكل من الفلسفة وتاريخ الفلسفة يتكامل مع الآخر، كأنه نسيجه الذى تكون منه، أو طبيعته المتداخلة مع بنائه الحقيقى.

---

(١) هذا من الأدلة العقلية على وجود علاقة عضوية بين الفلسفة وتاريخ الفلسفة، ومفهوم العضوية هنا هو قيام أجزاء الفلسفة داخل أجزاء تاريخ الفلسفة، وكذلك الحال مع تاريخ الفلسفة بالنسبة للفلسفة أيضا، فمفهوم علاقة العضوية بينهما قائم لا ينقطع.

(٢) العلل تتعدد فى الفلسفة. فمنها: أ- العلة التامة. ب- العلة الناقصة. جـ- العلة الموحدة. د- العلة الدائرة. هـ-العلة الغائية. و- العلة المادية. ز-العلة الفاعلة. ى- العلة الصورية. م-العلة المستجمعة. [راجع تفاصيل ذلك فى كتابنا: الإلهيات عند ابن سينا ص٣٧ وما بعدها]

(٣) الدكتورة ناهد عبدالعظيم الخواص – فى تاريخ الفلسفة ص٣١ .

(٤) الدكتورة نازلى إسماعيل حسين – فلسفة الحضارة ص٢٨٦ .

وفى تقديرى: أن عملية الترابط بين أجزاء التاريخ العام، والفكر الفلسفى تمتد فى حركات الزمن الفلكى[١]، منذ بداية الوجود الإنسانى؛ لأن الحركة العقلية تمر فى زمان محدد على ناحية فلكية، وتجيء ذات الحركة فى جزء من الزمان، ثم إن هذه الحركات هى الممثل للزمان نفسه، وبالتالى فالعلاقة بينهما أخذة فى الامتداد للخلف والأمام معا.

الخامسة : الاستمرارية :

من البدهى القول بأن تاريخ الفلسفة يساير ذات الحركة الفلسفية، باعتبار أنه ما من حركة فكرية ألا وتجيء فى زمان بعينه، فاستمرار الحركة الفكرية يؤاخيه استمرار الفترات الزمانية، أو التاريخ الفلسفى[٢]، كما أن النتاج الفلسفى أشبه بالتيار المائى، المتدفق بالنهر، والتاريخ الفلسفى يكون بمثابة أرضية النهر وجسوره، أو أشبه صوره بالتيار الهوائى، والتاريخ الفلسفى يكون بمثابة الغلاف الجوى، الذى يحيط بالهواء، ويحفظ عليه حركته، حتى لا يقع بداخله أى نوع من أنوع الأنفلات الهوائى.

إذن كلما وجد فكر فلسفى كان التاريخ مصاحبا له، متابعا خطواته متحدثا عنه، فإذا أراد باحث استرجاع شيء من هذا الفكر، فما عليه إلا أن يعود إلى التاريخ الفلسفى، الذى يعد بمثابة الحافظة والذاكرة الواعية، لكل فكر فلسفى على الخصوص[٣].

ومن البدهى القول بأن الحركة الفكرية تأخذ فى الامتداد من كل ناحية، فهو تغدو باحثة فى مسألة الوجود لدى الفيلسوف، ثم لا تلبث أن تنتقل منها إلى بحث الوجود ذاته لدى عالم الفيزياء، وفى نفس الغدوة تبحث مسألة الوجود على الناحية التى يقف عندها عالم النفس[٤]، إذن الحركة الفكرية فى وقت واحد انطلقت فى اتجاهات متباينة متباعدة، ومن البدهى أيضا القول بأنها فى كل هذه الحالات كانت مرتبطة بالتاريخ ارتباطا وثيقا، وهو المقصود بعلاقة الاستمرار بينهما.

---

(١) الزمان أنواع: الأول: المقدر فى علم الله الأزلى، السابق لخلق الكون ، واللاحق له، وفى الحديث الشريف: عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة قال وعرشه على الماء. [الإمام مسلم - صحيح مسلم ج٤ ص٢٠٤٤ رقم:٢٦٥٣] . الثانى: الفلكى وهو المرتبط بحركة الليل والنهار. قال تعالى: (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا) [سورة الإسراء – الآية ١٢]، وقال تعالى: (إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ) [سورة التوبة – الآية ٣٦] الثالث: البيولوحى وهو المتعلق بالخلية على الجانب الاحيائى. [راجع فى كتابنا: الإيمان بالغيب وأثره على الفكر الإسلامى]

(٢) الدكتور صبحى حسن السامرائى – الفلسفة والتاريخ ص٤٧ ط تونس ١٩٦١م.

(٣) الدكتورة ناهد عبدالعظيم الخواص – فى تاريخ الفلسفة ص٣١ .

(٤) الدكتور صابر حسن العجلان – تاريخ الفلسفة ص٦٦ .

.ن الفلسفة والتاريخ الفلسفي أقرب شبها بالجنين والرباط السرى، لا ينفصل أحدهما عن الآخر، وإلا حدث التدمير والفناء لكليهما على السواء، إنه لا توجد حركة مكانية، ألا وهى قائمة فى زمان، ولا توجد حركة فكرية ألا وهى مرصودة بتاريخ، فالاستمرارية بينهما تعد من أبرز سمات العلاقة التى تجمعهما[١].

وفى تقديرى: أن علاقة الفلسفة بتاريخ الفلسفة، تجيء فى صور عديدة عند التفصيل، لكن عند الإجمال يكون من السهل جمع كل هذه الصور فى تشبيه الفلسفة والتاريخ الفلسفى بالهواء والرئتين، كل منها يحتاج الأخر ضرورة، ولا يستغنى أحدها عن الآخر، لأى سبب سوى الموت، ومتى ماتت الفلسفة فقد مات التاريخ الفلسفى، وإن بقى التاريخ بمفهومه الكلى العالم، بيد أنها لما كانت عملا عقليا، فإنها قد تنطمر فى نفوس أصحابها حينا من الزمان، لعدم القدرة على الإعلان عنها، لكنها لا تموت، وبالتالى يكون من غير المقبول الإدلاء بتصريحات تبشر بموت الفلسفة، أو انعدام الحركة العقلية على هذا الجانب الإبداعى.

﴿ ثالثا : دور الإسلام فى تطور الفكر الفلسفى ﴾

الإسلام هو دين الله رب العالمين، ارتضاه الله جل علاه للمكلفين، وبعث به الأنبياء والمرسلين[٢]، وختمهم بسيدنا محمد ﷺ[٣]. قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾[٤].

وبين جل علاه: أن هذا الدين هو المقبول وحده عند الله تعالى فى الدنيا والآخرة، فلا يهودية ولا نصرانية ولا بوذية، ولا كونفوشيوسية، ولا أية ديانة أخرى، كما ذكر جل علاه أن أية اعتقادات من هذا القبيل تكون فاسده مردودة فى وجوه أصحابها. قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[٥].

---

(١) راجع كتابنا: رياض الأشواق فى الميتافيزيقا والأخلاق ص٩٩ .

(٢) هذه الخصيصة فى الدين الإسلامى ثابتة، بل الإسلام هو الدين الوحيد الذى جاء به كل رسل الله تعالى إلى كل المكلفين حتى تقوم الساعة.

(٣) راجع كتابنا الدرة النيرة فى الدفاع عن السنة النبوية الصحيحة المطهرة ج٢ ص٨٧ .

(٤) سورة التوبة – من الآية ٣ . يقول العلامة الرازى : « والمعنى أن الله تعالى أكمل الدين فلا يحتاج الناس إلى دين غيره، ولا إلى نبى غير نبيهم صلوات الله وسلامه عليه، ولهذا جعله الله تعالى خاتم الأنبياء، وبعثه إلى الإنس والجن، فلا حلال إلاّ ما أحله، ولا حرام إلاّ ما حرمه، ولا دين إلاّ ما شرعه، وكل شيء أخبر به فهو حق وصدق لا كذب فيه ولا خلاف » [الإمام فخر الدين الرازى – مفاتيح الغيب – م٥ ص٥٦٣ – ط١ دار الغد العربى بالقاهرة ١٤١٢هـ/١٩٩٢م .

(٥) سورة آل عمران – الآية ٨٥ .

يقول العلامة الحافظ ابن كثير: « قوله تعالى:﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينـــا فلـــن يقبـــل منه ﴾. أي من سلك طريقاً سوى ما شرعه الله فلن يقبل منه، ﴿ وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح: "من عمل عملاً ليس عليه أمرنــا فــهو رد" »[1]. وعَنْ عائشة أم المؤمنين؛ أن رَسُول اللَّه صَلى اللَّه عليه وَسلم قَالَ: « مِن أَحْدَثَ فِي أمرنا هذا ما ليس منه، فهو رد»[2].

ولما كان الإسلام بهذا الكمال والتمام، فقد حملته نصوص ثابتة فى مصادرها مرنة فى التعامل معها[3]، بحيث تكون من الوفاء حتى تلبى احتياجات الخلائق فى كل ما يتعلق بأمور الدنيا إلى يــوم القيامة، وهذه النصوص تقوم على مصدرين:

❊الأول: القرآن الكريم :ـ

القرآن عند أهل أصول الفقه هو اللفظ المنزل على سيدنا محمد للإعجاز بأقصى بسورة منه، المكتوب في المصاحف المنقول عنه نقلا متواترا بلا شبهة[4]، والقرآن عند أهل الحق العلـــم اللـــدني الإجمالي الجامع للحقائق كلها[5].

❊الثانى: السنة النبوية المطهرة الصحيحة:

السنة في اللغة الطريقة مرضية كانت أو غير مرضية والعادة وفي الشـــريعة هـــي الطريقـــة المسلوكة في الدين من غير افتراض وجوب، كما أنها ما واظب النبي صلى الله عليه وسلم عليها مع الترك أحيانا فإن كانت المواظبة المذكورة على سبيل العبادة فسنن الهدى وإن كانت علـــى ســـبيل العادة فسنن الزوائد، باعتبار أن سنة الهدى هي ما يكون إقامتها تكميلا للدين وهي التي تتعلق بتركـــها كراهة أو إساءة وسنة الزوائد هي التي يكون أخذها هدى أي إقامتها حسنة ولا يتعلـــق بتركـــها كراهة ولا إساءة كسير النبي صلى الله عليه وسلم في قيامه وقعوده ولباسه وأكله.

كما تعرف بأنها مشترك بين ما صدر عن النبي صلى الله عليه وسلم من قول أو فعـــل أو تقرير وبين ما واظب النبي صلى الله عليه وسلم عليه بلا وجوب وهي نوعان:

---

(١) العلامة الحافظ ابن كثير - تفسير القرآن العظيم (٢/٢١٢) .

(٢) الإمام محمد بن ماجة القزويني - سنن ابن ماجة - باب تعظيم حديث رَسُول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم والتغليظ علـــى مِن عارضه - الحديث رقم:١٤ - وأبو داود فى سننه - باب في لزوم السُّنة - الحديث رقم:٤٦٠٦] والمراد بــــــ: [(في أمرنا) أي في شأننا. فالأمر واحد الأمور. أو في ما أمرنا به، فالأمر واحد الأوامر. (فهو رد) أي مردود].

(٣) هناك فرق بين ثبات النصوص ومرونتها؛ لأن الثبات قائم فى كونها هى المصادر الصحيحة، أما المرونة فـــهى قائمـــة فى معنى شمول النص لكل الأحداث وقدرته على استيعاب كافة المتطلبات، وإشباع كل الرغبات، وذلك من سمات القـــرآن الكريم وخصائص الحديث النبوى الشريف الصحيح.

(٤) العلامة الجرجاني - التعريفات ج١ ص٢٢٣ رقم:١١٢٩.

(٥) العلامة المناوى - التعاريف ج١ ص٥٧٨ .

الأولى: سنة هدى: ويقال لها السنة المؤكدة كالأذان والإقامة والسنن والرواتب من الصلاة والصيام والمضمضة والاستنشاق على رأي وحكمها المطالبة بها في دار الدنيا كالواجب، إلا أن تاركه يعاقب وتاركها لا يعاقب.

الثاني: سنن الزوائد: كأذان المنفرد والسواك والأفعال المعهودة في الصلاة وفي خارجها وتاركها غير معاقب(١).

وقد جاءت بهما نصوص القرآن الكريم، ونصوص السنة النبوية المطهرة الصحيحة أيضا، فمن القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾(٢)، فالنور هو السنة النبوية المطهرة الصحيحة، والكتاب المبين هو القرآن الكريم، كما يطلق النور على القرآن الكريم، وعلى النبي ﷺ أيضا.

يقول الإمام القرطبي: « سمى الله تعالى كتابه نورا فقال وأنزلنا إليكم نورا مبينا، وسمى نبيه نورا فقال قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين وهذا لأن الكتاب يهدي ويبين وكذلك الرسول ووجه الإضافة إلى الله تعالى أنه مثبت الدلالة ومبينها وواضعها »(٣).

﴿وقوله تعالى: : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾(٤)، فالرسول الكريم ﷺ جاء بالنقل المنزل كله، وهو القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة الصحيحة.

۞يقول السيوطي: « كان يؤتيهم الغنائم وينهاهم عن الغلول. كما أن الله تعالى قد أمرهم أن يتمسكوا بما أتاهم به الرسول. وعن ابن جريج من طاعتي وأمري ﴿فخذوه وما نهاكم عنه﴾ من معصيتي فانتهوا.

۞وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ألم يقل الله ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ قالوا: بلى، قال: ألم يقل الله: (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ﴾(٥)، الآية قال: فإني أشهد أن رسول الله ﷺ نهى عن الدباء(٦)،

---

(١) السيد الشريف الجرجاني – التعريفات ج١ ص١٦١/١٦٢.رقم: ٨٠٥.
(٢) سورة المائدة – من الآية ١٥ .
(٣) الإمام القرطبي – الجامع لأحكام القرآن ج: ١٢ ص: ٢٥٧.
(٤) سورة الحشر – الآية ٧ .
(٥) سورة الأحزاب الآية ٣٦
(٦) الدباء: « القرع واحدها دُبّاءة كانوا ينتبذون فيها فتُسرع الشدّة في الشراب وتحريم الانتباذ في هذه الظروف كان في صدر الإسلام ثم نسخ وهو المذهب وذهب مالك وأحمد إلى بقاء التحريم » [العلامة ابن الأثير – النهاية في غريب الحديث ج٢ ص٩٦] ، ويقول الرازي: « الدُّبّاء بالضم والتشديد والمد القرع الواحدة دبّاءة » [مختار الصحاح ج١ ص٨٣].

والحنتم (١)، والنقير (٢)، والمزفت (٣)» (٤) (٥).

ومن السنة النبوية المطهرة، ما روى عن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: « إني قد تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما كتاب الله وسنتي ولن يتفرقا حتى يردا علي الحوض »(٦).

---

(١) الحنتم: « جرار مدهونه خضر كانت تحمل الخمر فيها الى المدينه ثم اتسع فيها فقيل للخزف كله حنتم، واحدها حنتمه. وإنما نهى عن الانتباذ فيها لأنها تسرع الشدة فيها لأجل دهنها. وقيل لأنها كانت تعمل من طين يعجب بالدم والشعر فنهي عنها ليمتنع من عملها والأول الوجه » [العلامة ابن الأثير - النهاية في غريب الحديث ج١ ص٤٤٨] ويقول العلامة الرازى : « الحنتم الجرة الخضراء » [مختار الصحاح ج١ ص٦٦].

(٢) النقير : « النقرة التي في ظهر النواة والنقير أيضا أصل خشبة ينقر فينبذ فيه فيشتد نبيذه وهو الذي ورد النهي عنه » [العلامة الرازى مختار الصحاح ج١ ص٢٨١] وقال ابن الأثير: « النقير أصل النخلة ينقر وسطه ثم ينبذ فيه التمر ويلقى عليه الماء ليصير نبيذا مسكرا والنهي واقع على ما يعمل فيه لا على اتخاذ النقير » [النهاية في غريب الحديث ج٥ ص١٠٣]، وقال ابن منظور: « النقير النكتة التي في ظهر النواة. وروي عن أبي الهيثم أنه قال: النقير نقرة في ظهر النواة منها تنبت النخلة. و النقير: ما نقب من الخشب والحجر ونحوهما، وقد نقر و انتقر، وفي حديث عمر، رضي الله عنه: على نقير من خشب؛ هو جذع ينقر ويجعل فيه شبه المراقي يصعد عليه إلى الغرف. و النقير أيضا: أصل خشبة ينقر فينتبذ فيه فيشتد نبيذه، وهو الذي ورد النهي عنه » [لسان العرب ج٥ ص٢٢٨].

(٣) المزفت : « يقال لبعض أوعية الخمر المزفت وهو المقير ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عن هذا الوعاء المزفت أن ينتبذ فيه كما ورد في الحديث أنه نهى عن المزفت من الأوعية؛ قال هو الإناء الذي طلي بالزفت وهو نوع من القار ثم انتبذ فيه » [العلامة ابن منظور - لسان العرب ج٢ ص٣٤]، ويقول ابن الأثير: « المزفت من الأوعية هو الإناء الذي طلي بالزفت وهو نوع من القار ثم انتبذ فيه » [النهاية في غريب الحديث ج٢ ص٣٠٤ - باب الزاي مع الفاء مادة زفت].

(٤) نص الحديث النبوى الشريف عن ابن عباس قال « قدم وفد عبد القيس على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا رسول الله إنا هذا الحي من ربيعة وقد حالت بيننا وبينك كفار مضر فلا نخلص إليك إلا في شهر الحرام فمرنا بأمر نعمل به وندعوا إليه من وراءنا قال آمركم بأربع وأنهاكم عن أربع الإيمان بالله ثم فسرها لهم فقال شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وأن تؤدوا خمس ما غنمتم وأنهاكم عن الدباء والحنتم والنقير والمقير زاد خلف في روايته شهادة أن لا إله إلا الله وعقد واحدة » [الإمام البخارى - صحيح البخاري ج١ ص١٩٥ - [١٣] كتاب مواقيت الصلاة [١] باب منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين - الحديث:٥٠٠، وأخرجه مسلم - صحيح مسلم ج١ ص٤٦ - [٦] باب الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم وشرائع الدين والدعاء إليه والسؤال عنه وحفظه وتبليغه من لم يبلغه - الحديث:١٧ ، وأخرج مسلم عن أنس بن مالك أنه أخبره « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن الدباء والمزفت أن ينبذ فيه » [الإمام مسلم - صحيح مسلم ج٣ ص١٥٧٧ - [٦] باب النهي عن الانتباذ في المزفت والدباء والحنتم والنقير وبيان أنه منسوخ وأنه اليوم حلال ما لم يصر مسكرا - الحديث:١٩٩٢]، وعن سعيد بن جبير رضي الله عنه أنه سمع ابن عمر وابن عباس يشهدان على رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه نهى عن الدباء والحنتم والنقير والمزفت، ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ .

(٥) العلامة جلال الدين السيوطى - الدر المنثور فى التفسير بالمأثور - الطبعة الثانية - طبعة دار الفكر بيروت ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

(٦) الحاكم - المستدرك على الصحيحين ج١ ص١٧٢ - الحديث: ٣١٩ . وأخرجه العلامة جلال الدين السيوطى - الجامع الصغير- باب: حرف التاء - الحديث رقم:٣٢٨٢ ، وراجع الشيخ محمد حسين عبدالوارث - من أنوار السنة ص٥٧ ط أولى ١٩٥٤م - الدار القومية .

وقوله صلى الله عليه وسلم: « تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما؛ كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ »[١].

وقد ثبت فى الصحيح عن رسول الله ﷺ قال: « تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به. كتاب الله. وأنتم تسألون عني. فما أنتم قائلون ؟" قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت »[٢]. وعن المقداد عن رسول الله ﷺ قال: « ألا اني أوتيت الكتاب ومثله معه ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه»[٣].

بيد أن هذه النصوص التى هى مصدر الإسلام الأول، قد أخذت الإنسان إلى الأصول الأولى، التى ترضى الله عز وجل، ثم جعلته يتأمل فى كل ما يمكن التأمل فيه من النظر حول الملكوت على كل ناحية، والاستدلال بالخالق على خلقه، والاستدلال بالخلق على الخالق أيضا.

۞يقول الإمام الغزالى: « والأصل هو معرفة الله تعالى، ثم سلوك الطريق إليه، فأما أمر الآخرة فيكفى فيه الإيمان المطلق، فإن للعارف المطيع معادا مسعدا، وللجاحد العاصى معادا مشقيا، فأما معرفة تفصيل ذلك فليس بشرط فى السلوك، لكنه زيادة تكميل للتشويق والتحذير »[٤].

ومن المعلوم أن نصوص القرآن الكريم كلها قطعية فى ثبوتها عن الله تعالى، وهو معنى قطعى الورود[٥]، لكنها قد تكون قطعية فى دلالتها، متى كانت الألفاظ لا تحتمل سوى معنى واحد[١]، وقد

---

(١) الإمام الحافظ أبو عبدالله الحاكم النيسابورى (٣٢١/٤٠٥)هـ - المستدرك على الصحيحين - طبعة دار الكتب العلمية ببيروت ١٤١١/١٩٩٠م الأولى - تحقيق مصطفى عبدالقادر عطا. حـ١ ص١٧١ - الحديث رقم: ٣١٨]

(٢) الإمام مسلم - صحيح الإمام مسلم. - باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم - الحديث رقم: ١٤٧ - (١٢١٨) من رواية حاتم بن إسماعيل المدني عن جعفر بن محمد، عن أبيه. وأخرجه الإمام الحافظ أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني [٢٠٧هـ/٢٧٥هـ] (ابن ماجه) فى سنن ابن ماجه (طبعة دار إحياء التراث العربي، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م) - باب حجة رسول الله صلى الله عليه وسلم. - الحديث رقم: ٣٠٧٤

(٣) الإمام أبو داود - سنن أبي داود - باب في لزوم السُّنة - الحديث رقم:٤٦٠٤، وأخرجه الإمام أحمد بن حنبل - مسند أحمد ج٤ ص١٣٠ - الحديث:١٧٢١٣، وأخرجه البيهقي - سنن البيهقي الكبرى ج٩ ص٣٣٢ - الحديث:- ١٩٢٥٣.وعن جابر بن عبد الله قال: « "رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجته يوم عرفة وهو على ناقته القصواء يخطب فسمعته يقول: يا أيها الناس اني تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا كتاب الله وعترتي أهل بيتي" » [سنن الترمذي (وشرح العلل)، - مناقب أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم. في الحديث رقم: ٣٨٧٤]، وأخرج ابن حبان بلفظ عن النبى ﷺ : « إني أوتيت الكتاب وما يعدله يوشك شبعان على أريكته أن يقول بيني وبينكم هذا الكتاب فما كان فيه من حلال أحللناه وما كان فيه من حرام حرمناه ألا وإنه ليس كذلك ».[العلامة ابن حبان - صحيح ابن حبان ج١ ص١٨٨ - ذكر الخبر المصرح بأن سنن المصطفى صلى الله عليه وسلم كلها عن الله لا من تلقاء نفسه الحديث:١٢]

(٤) الإمام الغزالى - جواهر القرآن ص١٢ - المطبعة الرحمانية بالقاهرة ١٣٣٥هـ .

(٥) الشيخ محمد الدهشان خير الله - محصل الأصول ص٢٣ - طبعة الدار الرحمانية ١٩٣١م.

تكون ضنية فى دلالتها، متى كان النفظ بإمكانه أن يحمل أكثر من معنى، أو أن اللفظ الواحد تتنازعه جملة من المعانى، وكلها مرادة[٢]، وإن اختلفت جهات تلك المعانى، وتنوعت بين المفاهيم اللغوية، او البلاغية، أو جاءت على ناحية أصولية، أو انطلقت إشاراتها إلى ناحية وجدانية أو فقهية، فضلا عن كونها علمية، إلى أخر ما تجيء عليه المفاهيم.

كما أن النقل المنزل قد جاءت فى ألفاظه جهتان:

☆ **الأولى** : جهة المحكم فى معناه.

☆ **الثانية:** جهة المتشابه فى معناه[٣].

إذن النقل المنزل قطعى فى وروده، لكنه يكون ظنيا فى دلالته، فيحتاج بجهودات عقلية واسعة، تكون غايتها التعرف عليه، بحيث تخرج النتائج الواردة فيه من مجال التأمل المجرد إلى مجال الاجتهاد المنظم، القائم على أسس علمية وإيمانية صحيحة.

كما أن هذا النقل المتشابه فى معناه، قائم هو الآخر على الاجتهاد فى تفهم المعانى الواردة، وذلك مما يفتح الباب واسعا أمام المفكر المسلم، حتى يبذل جهده الفكرى وطاقاته العقلية، خدمة لدين الله تعالى، واتباعا لأوامره جل شأنه، وهو معنى الإبداع الفكرى.

إذن وجود النقل المنزل فى جانبه ظنى الدلالة متشابه المعنى، قد فتح باب التأمل العقلى فى كل أجزاء الكون، ولما كان بعض هذه النصوص قد تحدث عن العوالم الغيبية، كما تحدث بعض أخر عن عالم الشهادة، فإن عالم الشهادة قد ساق المفكر المسلم سوقا إلى استعمال قياس الغائب على الشاهد فى بعض المعانى، التى يصعب على العقل وحده الوصول إليها، أو الاستدلال عليها.

ولما كانت الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة ألفاظ عربية، تكتنفها الاحتمالات؛ باعتبار أن دلالتها ليست قطعية فى الأعم الأغلب[٤]، فمن هنا كانت الضرورة الشرعية قاضية ببذل المجهود العقلى كله فيه، بغية الوصول إلى حلول تكون ذات فعالية بالنسبة للمشكلات التى تعترض مسيرة الحياة الفكرية.

---

(١) الشيخ محمد نصر الدين – فى علوم القرآن ص١٧١ – ط١ الدار الوطنية ١٣٣٥هـ.

(٢) المقصود بالمراده هنا أنها تصلح للانتفاع بها فى العلم الذى ..ت من ناحيته، إذ لا يعقل أن تكون معانى الألفاظ كلها مراده، ثم يقع لها شيء من الحبس.

(٣) راجع فى ذلك الشأن: مناهل العرفان فى علوم القرآن للعلامة الزرقانى ، والتبيان فى علوم القرآن للعلامة الواحدى، والإتقان للعلامة السيوطى، والبرهان فى علوم القرآن للعلامة الزركشى.

(٤) الدكتور عبدالعظيم شرف الدين – تاريخ التشريع ص١٢١ ، ورد المحتار على الدر المختار ج١ ص٨٩، وراجع شفاء العليل ج١، وحاشية الديدمونى على الشرح الكبير ج١ ص٢١٧ ، وراجع كشاف القناع ج٤ وشرح الأزهار ج٣.

ولما كانت هذه التأملات العقلية، هي التي يتولد عنها التفكير الفلسفي، فقد أمكن القول بأن النصوص الإسلامية قد دعت إلى ممارسة الحكمة ورعايتها، حتى تسير في كافة الاتجاهات المشروعة، من بحث عالم الشهادة في جانبيه الفيزيقي والميتافيزيقي معا، كما أن الإسلام قد دعا إلى ممارسة عملية التطور من خلال التأمل العقلي في جوانبه المختلفة[1]، وبخاصة الفكر الفلسفي.

---

(١) سوف أتناول دور الإسلام في تطور الفكر الفلسفي بصورة أوسع في طبعة مقبلة، إن شاء الله تعالى.

القسم الثانى

الميادين الأساسية

للبحث الفلسفي

تمهيد :

يعتبر البحث الفلسفى من العمليات العقلية التى تحتاج مجهودات كبيرة، لأن التفلسف من حيث المفهوم هو معرفة حقائق الأشياء بما هى عليه، والربط بين تلك الأشياء، في شكل يأخذ طريق العلية، أو الحتمية أو الضرورية حينا، كما يأخذ شكل الروابط العادية حينا آخر، وبناءً عليه فكل عمل عقلى بالمعنى الواسع يحتاج مجهودات فكرية متواصلة.

ومن الواضح أيضا أن التفلسف إنما يمثل الخطوة الأولى التى تجئ بعدها موضوعات الفلسفة وميادينها، أو بعبارة أخرى هو الخطوة الأولى التى تليها خطوات أخرى، أكثر جرأة وأقوم طريقاً، ولا مانع من أن تكون ذات وثبات متباعدة، لكنها في طريق واحد، ومن ثم كان التفلسف أحد المقدمات الضرورية للفلسفة، أو الوسائل الأولى التى تقوم عليها، بمعنى أن التفلسف لا يتمكن منه إلا الفلاسفة وحدهم[1] الذين لهم منهج خاص في التأمل، وقواعد يسيرون عليها طبقاً لاتجاهاتهم الفكرية وأنساقهم المعرفية.

فأهل الصين قديما كانت لهم توجهات عقلية، على الناحية النظرية والعملية، لكنها تصب في إطار المعارف الإنسانية، ولم تكن لديهم رغبة فى التعالى عن هذه المعارف[2]، وكذلك صنع الرومان، ثم جاء سكان بابل فانطلقوا نحو المعارف العقلية، بعيداً عن القيود الحسية، ومن ثم تميز الفكر عندهم بتلك الميزة.

غير أن قدماء المصريين ارتبط البحث الفلسفى عندهم بالبحث عن حقائق الكون في صورة بدائية، ثم تواصل هذا الارتباط حتى أخذ شكلا أرقى من سابقه، لكنه مهد لظهور الحضارة المصرية القديمة في أشكالها الأولى، ثم تطورت هذه الأشكال حتى صارت على نحو ما يدركه الناس، وتعبر عنه من الناحية المادية الأهرام التى ما زالت صامدة منذ آلاف السنين.

أضف إلى ما سبق أن هذا التفلسف تحول مع دوافعه إلى ما يشبه الوظائف فصار كل قادر عليه يقوم به، في صورة من الصور نظراً لارتباط الوظيفة

---

١) راجع كتابنا : التفلسف : مفهومه، بواعثه وخصائصه، ص١١، ط أولى، ١٤٢٣هـ.

٢) أرنولد هاف، الحضارة الشرقية، بلاد الصين، ص٢١٣، ط الثانية، ١٩٤٧م.

بالقدرات العقلية، وتناميها، حتى صارت تمثل فوائد يلمس اثارها كل مقبل عليها، مدرك لقيمتها.

غير أن الفكر الفلسفى قد مر بمراحل عديدة، منذ كان خلجات وخواطر تدور في رؤوس أصحابها، إلى أن صار قواعد منظمة، وأفكاراً ثابتة يتم التعامل معها، وتجرى تلك القواعد من الناس مجرى القبول وبخاصة لدى المحبين أو الرفض عند الكارهين، وظل ذلك الحال إلى يومنا هذا.

ولما كان التفلسف أحد المقدمات الهامة، فان علاقة الفلسفة بغيرها من العلوم صارت هى الأخرى ذات أهمية كبرى، بل اعتبرت احدى المقدمات الضرورية أيضا، حيث أدرك الفرقاء حول الفكر الفلسفى أنها مسألة موجودة ومهمة، وذات تأثير قوى وفعال، لأن على أكتافها قامت التصنيفات الدقيقة للعلوم اعتباراً من عصور سابقة، وما زال هذا التصنيف معمولاً به مع الإضافات إليه فى وقتنا الحاضر[١].

ومن المؤكد أن هذا التفكير الفلسفى كما كانت له مفاهيم محددة، فقد ظهرت له أيضاً موضوعات ذات تحديد وقتى، ثم اضطرد هذا التحديد إلى يومنا هذا، وان اختلفت الدراسات حول بعض الجوانب المتعلقة به حتى صار مشهوراً القول : بأن التفكير المتناقض هو الذى يدعو للذعر، ولا يندهش منه الفلاسفة، وأن التفكير السليم يحتاج إلى قرار سيادى، داخل الفرد نفسه قليل التكاليف[٢].

ويعنون بالتفكير المستقيم أو التفكير الصحيح أنه القائم على قواعد مقبولة، وصور صحيحة، متى أمكن الرجوع إليه على فترات طويلة، وإلا فهو ضرب من الخيال، وإزاحة للعقل عن القيام بدوره الحقيقى، يقول أورسيل : إن المطالب المرتبطة بالتفكير الإنسانى عامة، هى وحدها التى تستطيع تأسيس علاقات عامة ضرورية، وذلك يطابق قول "كانت" في الأحكام التركيبية الأولية[٣]. ولابد فى كل فكر فلسفى من خطوات أولى وأحكام أولية.

---

١) راجع كتابنا : الفلسفة العامة أثناء الحديث عن تصنيفات العلوم وعلاقة الفلسفة بها.

٢) روبرت أرنشتاين، عقل جديد لعالم جديد، ص١٣٠-١٣١، الهيئة المصرية، ٢٠٠٠، ترجمة د. أحمد مستجير.

٣) بول ماسون أورسيل . الفلسفة فى الشرق، ص١٣٦، ترجمة د. محمد يوسف موسى.

والحق أن الفكر الفلسفي له ميادين تعتبر اساسية كنظرية المعرفة الاكسيمولوجيا والوجود الأنطولوجيا والقيم الأبستمولوجيا. وله أيضاً ميادين فرعية أو تبعية، قامت في تفريعات نهض إليها الأقدمون، دليل ذلك ما ذكره الباحثون عن المعرفة وكونها عقلية أو حسية أو إلهامية اشراقية، عمادها الفيض، أو هى نقلية عمادها النقل المنزل[1]، وقد ترتب على ذلك وجود العديد من الدراسات، بعضها في المشرق والبعض الآخر في المغرب.

في نفس الوقت فقد ظهرت أفكار كثيرة حتى في نوع الفلسفة، كالحال مع مفكرى المسلمين الذين بحثوا الفلسفة الإسلامية وحاولوا تقديم أسباب أو مبررات سبق ذات الفلسفة الإسلامية في المشرق الإسلامى وتأخرها عنها في المغرب الإسلامى[2].

كذلك شغلت أبحاث الوجود عقول الكثير من المفكرين، فمنهم من نظر إلى فكرة الوجود المطلق، ومنهم من نظر إلى الوجود المقيد، ومنهم من نظر إلى الوجود على الناحية الرياضية.

وظل ذلك التقدم يقنع الإنسان حيناً بصحته، وقد يعجز عن ذلك الإقناع فيقع الرفض له[3]، حتى أطلت على المفكرين نظرية المثل بأشكالها المختلفة سواء ما يتعلق بكون الأشياء الموجودة في عالم الحس تتشارك فيما بينها مشاركة تامة، على ما ذهب إليه أفلاطون[4]. أو أنها تمثل صورة لها غير محددة كما ذهب إليه غيره.

وإذا كانت هذه الموجودات، قد ظهرت لها صور مثالية أطلق عليها نظرية المثل، فقد بات أمر النظر إليها محل بحث مُتواصل انتهى إلى وجود صور مادية، وأخرى مثالية، وثالثة مفارقة، ورابعة معقولة، ثم جاءت الخامسة لتعبر عن المثل

---

١) راجع كتابنا : المدخل لدراسة الحكمة الإسلامية، ص٨٥ وما بعدها..

٢) لمعرفة ذلك على وجه التفصيل راجع / لزميلنا الفاضل الدكتور أحمد محمد على ليلة : الفلسفة الإسلامية بين التقدم فى المشرق والتأخر فى المغرب، فقد أوفى ذلك الجانب من الدراسة، ط أولى، ٢٠٠٤م.

٣) راجع للأستاذ أحمد أمين وزميله : قصة الفلسفة اليونانية، وللأستاذ / يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية.

٤) راجع كتابنا : المثل المعلقة فى الفكر الإسلامى، فقد حاولت تناول هذه الجوانب تناولاً فنياً.

المعلقة كصورة من صور البحث العقلى في الموجودات، على اساس ان المثال صورة مجردة، وفى نفس الوقت هو حقيقة معقولة ثابتة في الذهن، قائمة بذاتها لكنها لا تتغير و لا تفسد[١].

في تقديرى أن القيم العليا قد تولدت هى الأخرى، عن تلك الدراسات العقلية التى التزمت جانب النقد لها، وعملت على التحرر من قيود التقليد، لتبدأ منظومة جديدة يمكن تسميتها منظومة الخير الأعلى، كما يمكن أن تسمى فكرة الجمال، لتكون هذه المنظومات القيمية صورة من صور الجمال في الفكر الإنسانى نفسه، تقول الدكتورة "أميرة حلمى مطر" : "إذا أراد الإنسان أن يكون إلهياً وجميلاً، فعليه تأمل مخلوقات الله، والجمال القائم فيها حتى يصعد إلى العالم العقلى، وعندئذ يرى المثل المعقولة جميلة، بل انها هى نفس الجمال، لأن كل ما هو فوق الجمال، يكتسب الجمال من الفكرة أو المثال"[٢].

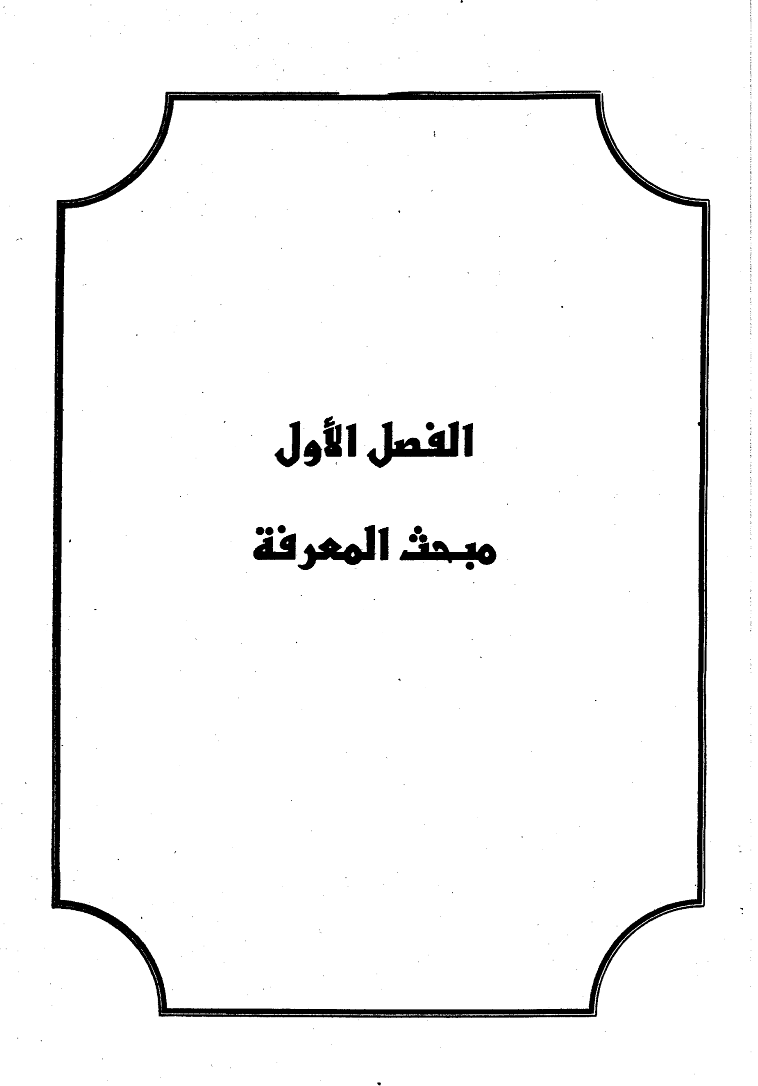
غير أن هذه الميادين الفلسفية الثلاثة - المعرفة والوجود والقيم - إنما تتسع كثيراً أمام الباحث الذى يسعى لتقديم خدمة علمية تترتب عليها نتائج إيجابية، يقول الدكتور "الطويل" : ان فلسفة الأخلاق تمثل القيم العليا، وإذا كان تحقق القيم أمراً متعثراً في دنيا الناس، فإنه ينشد مثلاً أعلى يعمل على معايشته، وقد يحقق في حياته بعض خصائصه[٣]، ومن ثم فسوف تكون تلك المحاولة الفلسفية لبحث الميادين الأساسية في الفكر الفلسفى، الذى أمكن الوقوف عليه، وهو ما سيرد في الصفحات المقبلات إن شاء الله تعالى.

---

١) راجع للدكتور عبد الرحمن بدوى / موسوعة الفلسفة، جـ١، ص١٦٠-١٦٣، حيث تناول ذلك فى شيء من التفصيل.

٢) الدكتورة / أميرة حلمى مطر : فلسفة الجمال، ص١٢١، الهيئة المصرية العامة، ٢٠٠٣م.

٣) الدكتور / توفيق الطويل : فيْ فلسفة الأخلاق، ص١٥، ط دار النهضة العربية ضمن قضايا من رحاب الفلسفة والعلم.



الفصل الأول

مبحث المعرفة

يعتبر مبحث المعرفة الإنسانية من المباحث الهامة في الفكر الفلسفى، بل هو أحد الميادين الأساسية في هذا المضمار، حتى أن البعض من المفكرين يجعلونه سابقاً في التأليف والأهمية، على غيره من الميادين الفلسفية، ومنها مبحث الوجود ومبحث القيم، بحجة أن التأمل معرفة، وأن المعرفة لابد أن تكون قائمة في أصول صحيحة[١]، حتى يتمكن الدارس من التعرف على الوجود، والنظريات التى طرحت أثناء تفسيره، أو حين البحث فيه.

بينما يذهب بعض آخر إلى أن مبحث الوجود يسبق المعرفة، على أساس أن المفكر يوجد جسمه قبل عقله، وأن حواسه الظاهرة تسبق العقل في الشعور والإحساس، كما تسبقه في الوجود، أو الخروج من العدم[٢]، باعتبار أنه لا يوجد عقل أو معرفة في فراغ، وإنما لابد أن يكون هناك جسم له سبق حقيقى في الوجود على غيره.

في نفس الوقت ظهر فريق يسعى لتقديم مبحث المعرفة على مبحث الوجود، باعتبار أن الماهية، وهى التعريف للشيء يسبق وجوده، والحكم على الشيء يجب أن يكون من خلال المفهوم الثابت عنه، حتى وإن لم يكن له وجود حقيقى، كالحال مع العنقاء، ورؤوس الشياطين، وغيرها مما يجيء على تلك الناحية التى لها وجود فى الذهن فقط، وليس لها وجود فى الخارج.

بل إنهم يتجاوزون في هذا الباب الذى فتحوه حين يزعمون أن الأساطير والخرافات يقع لأصحابها معارف بها، من غير أن يكون لها شيء من الوجود أصلاً، بدليل أن الكائنات الخرافية والأسطورية التى صنعها خيال المرء، هو وحده الذى تصورها[٣]، وهو فقط الذى خلع عليها من الصفات ما رآه مناسباً لما في ذاكرته وخياله.

بينما كان الاتجاه المضاد يقوم على ضرورة تقديم مبحث الوجود في التأليف، لأنه سابق في الطبع، وما كان له سبق في الطبع، يجب أن يكون متقدماً

---

١) راجع كتابنا : نظرية المعرفة عند ابن رشد، ص٨٧.

٢) راجع هذه المسألة بالتفصيل فى كتابنا : رياض الأشواق فى الميتافيزيقا والأخلاق، ص٧٨.

٣) الدكتور / محمود على سلامة : الأساطير والخرافات من منظور فلسفى، ص٥٧.

في الوصع ايصا، كما ان الحكم على الشيء يجب ان يكون قائما على تصوره. وهو ما يسمى لدى الفلاسفه والمهندسين بقاعده ان الحكم على الشيء فرع عن تصوره، ومن ثم بات التنازع قائما بين تقديم مبحث المعرفة على الوجود، أو تأخره عنه.

بيد أن الباحث الذى يطلب الحقيقة يجب ان يصع في حسبانه صرورة الرجوع إلى الأصول العامة، أو القواعد الثابتة، حتى لو كان ذلك يستلزم الكثير من الوقت، ويستنزف الأكثر من الجهد[١]، وهذا من شأنه أن نجيء نتائجه على قدر كبير من التوافق مع المقدمات الصحيحة

وحيث أن هذا الفصل سيكون متعلقا بمبحث **المعرفة** من الناحية الفلسفية، فمن المناسب الرجوع إلى اصل الكلمة، وهو مادتها الأولى في لغة العرب، على أساس أنه لابد من وجود علاقة بين المعنى اللغوى والاصطلاحي، كما ان هذه الضرورة تقتضى اعتبار الجزئيات اللغوية معبرة عن الموضوعات التى تمثل المعرفة.

ومن الملاحظ أن مادة الكلمة - ع ر ف قد وردت في القران الكريم حوالى إحدى وسبعين مرة[٢]، وعلى الصيغ المتعددة، كما وردت في لغة العرب على العديد من المعانى أبرزها

١- إدراك الشيء بحاسة من الحواس.

يقال فلان عرف النعومة والخشونة باللمس، وعرف اللون الأبيض من الأسود بالعين، وأمكنه إدراك جودة الطعام أو رداءته بالتذوق[٣]، وما ذلك إلا لأنه تعامل مع كل واحدة منها بحاسة من حواسه الظاهرة، كما يدرك حسن الأصوات وقبحها بالسمع، ومع ذلك يستطيع إدراك المشمومات بالشم، ومتى أدرك شيئا منها على ناحية صحيحة فقد عرفها.

---

١) راجع كتابنا : التفكير الإنسانى أصوله ومستوياته، ص١٨٩

٢) راجع للأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى : المعجم المفهرس لألفاظ القران الكريم، باب الراء. ص٤٥٨-٤٥٩، مطبعة الغزالى، دمشق

٣) العلامه الزمخشرى : اساس البلاغة، باب الراء، ص ١٩٨

٢ سكر النعم

قالت العرب فلان عرف لله فضله أو نعمه واحسانه، ومعنى شكر الله شكر العارف بالفضل، المدرك للنعم، الموفق في المغفرة، الطامع في الرضوان[١]، وحينئذ يسمى هذا المرء بالعارف، كما يسمى بالعروف. لكونه قائما على شكر المنعم جل علاه، وشكر النعمة أيضا.

٣. القيام على الشيء.

ذهب العرب إلى القول بان فلانا عرف الشيء لم يبرحه، ومعناه قام عليه ولم يتخلف عنه، فهو حريص كل الحرص على ان يبقى ما عرف به في أتم شيء وأكمله[٢]، وكذلك فإن القائم على الشيء هو العارف به، وذات الشيء يطلق عليه المعرض من جهة ذات القائم.

٤- تمييز الشيء وتزيينه:

ومنه قول العرب فلان طيب الشيء لأصحابه، وزينة لهم، فصاروا عارفين به عالمين بما فيه كان بين الجميع ألفة عظيمة، وودا لم ينقطع[٣]، بجانب رغبة متواصلة في القيام عليه والاحتفاظ به.

ومنه قوله تعالى: **﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾**[٤]. قال الشيخ عبد الرحمن السعدى: عرفها لهم، لأنه أعدها وطيبها، ثم شوقهم إليها ونعتها لهم، وذكر لهم الأعمال الموصلة إليها[٥].

٥- الإقرار مع التعارف

---

١) بطرس البستانى قطر المحيط، باب الراء، ص٢٩٧.

٢) المعجم الوجيز، باب الراء، ص٨٥

٣) أمين فارس. معجم مقاييس اللغة، باب الراء، ص٢٣٨.

٤) سورة محمد، الايتان ٥، ٦

٥) الشيخ/ عبد الرحمن بن ناصر السعدى، تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان، ص٨٧٣، ط دار الحديث بالقاهرة، ١٤٢٤ ٣ ٢. وذكر العلامة النسفى وغيره عن مجاهد أن قوله تعالى "عرفها لهم" معناه عرفهم مساكنهم فيها حتى لا يحتاجون أن يسألوا عنها. كما "طيبها لهم" فصارت رائحتها معروفة لهم تدفعهم اليه الشيخ محمد بن منصور الدهسان، تفسير سورة القتال، ص٥٧، ط اولى، ١٣١٧هـ.

تقول : اعترف فلان بكذا؛ ومعناه : أقر به ولم ينكره، يستوى أن يكون ذلك ديناً أو ذنباً أو غير ذلك[١]، ومن ثم فالمعرفة هى الاقرار بالشيء مع الاعتراف به.

٦- التحديد الواضح :

تقول العرب : هذا تعريف الشيء ومعناه : تحديده بذكر خواصه المميزة له تعريفاً دقيقاً[٢]، ومنه قولهم : عرفات، لأن الله عز وجل أمر جبريل أن يعرف آدم مناسك الحج، فلما أدركها قال له : عرفت فقال آدم : عرفات، ومعناه : أننى صرت عارفاً بكل ما كلفت به[٣] لأنه محدد واضح من كل ناحية.

٧- ما يتعلق بالغيب :

قالت العرب : فلان عرافة، ومعناه : استطاع تدبر العالم المشاهد، كما وفق للإخبار عن جزئياته، فصار هو العارف به[٤]، ومن ثم سمى عرافة، ثم نقل من الوصف إلى الإسم، كما نُقل بعد ذلك من الإسم إلى الوصف مرة أخرى، ليدل على مدعى معرفة الغيب.

مما سبق اتضح أن مادة كلمة المعرفة، موجودة في لغة العرب بمعان كثيرة، وأن كل باحث يمكنه الوقوف على بعض هذه المعانى أو كلها، حسب توفيق الله تعالى له، ومن ثم فسأعمل على إبراز النقاط الآتية :

أولاً : إمكان المعرفة بين الشكاك والاعتقاديين والنقديين :

يعتبر الامكان أحد جوانب الحكم العقلى الثلاثة[٥]، وهو يتوسطها، حيث يسبقه الوجوب الذى يعرف بأنه : كون الشيء بحالة لا تقبل العدم أصلاً، ومن ثم

---

١) المعجم الوسيط، باب الراء، ص١٩٧.

٢) قطر المحيط، باب الراء، ص١٣٥.

٣) الشيخ / محمد السيد رجب العسال / عرفات فى موكب التاريخ، ص٧، ط المطبعة الميمنية بعناية / فرج الكردى، ١٢٨٧.

٤) القاموس المحيط، باب الفاء، فصل الراء

٥) لأن الحكم العقلى له ثلاثة جوانب او وجوه، والأول "الوجوب"، والثانى "الامكان"، والثالث "الاستحالة"، راجع كتابنا : التفكير الانسانى اصوله ومستوياته، ص٣٥، ط الثانية، ١٩٩٩م، دار آل مخزنجى

عرف الواجب بأنه . الثابت الذى لا يقبل العدم بوجه من الوجوه، ثم يأتى على الطرف الآخر المستحيل . وهو المعدوم الذى لا يقبل الوجود أبدا بحال من الأحوال، وبالتالى فالامكان هو الذى يتساوى وجوده مع عدمه، لا من ذاته وإنما لأمر خارج عنه هو الموجد له، فإن وجد فهو راجع إلى موجده، وإن عدم فعدمه راجع إلى معدمه وهو الله - عز وجل -.

يقول العلامة الشيخ محمد الأنبابى : "ان الوجوب والاستحالة والجواز اعتبارات عقلية، ومن ثم فإنها تمثل الحكم العقلى"[1].

أ - عند الشكاك :

وقد اختلفت وجهات النظر لدى الدارسين في المعرفة! هل يمكن أن تكون موجودة، وإليه ذهب كل من الاعتقاديين والنقديين، مع اختلاف في الاتجاه، بينما ذهب الشكاك إلى نفى المعرفة، والتأكيد على عدم وجودها، وقام السوفسطائيون معهم من خلال الصور التى عرضوها، والأفكار التى قالوا بها حتى انتهوا إلى كونها مستحيلة الوجود، كما هى مستحيلة في الوقوف عليها، وفوق ذلك فإنه لا يمكن التعبير عنها، وقد تضمن قولهم هذا في عدة عبارات :

- الأولى : لا شيء موجود.
- الثانية : إذا وجد لا يمكن معرفته.
- الثالثة : إذا عرف لا يمكن التأكد منه أو الثقة فيه[2].

والحق أن الشكاك قد أسرفوا على أنفسهم، لأنهم بهذا الشك قد اعترفوا بوجود نوع من الأفكار يمكن تسميته بالمعرفة، حتى وإن كان في الجانب الشكى نفسه، بدليل أن ديكارت كان يقول : "ان الشك هو الذى قادنى للحقيقة"[3].

كما أنه ظل يقول : ان الشك موصل لليقين، وفهمت عبارته على أنها تتعلق بالشك المنهجى لا المنهج الشكى، لأن الشك المنهجى يوصل صاحبه إلى

---

١) الشيخ / محمد الأنبابى / تقرير العلامة الأنبابى على حاشية العلامة الباجورى على متن السنوسية، ص١٢، ط المطبعة الحسنية بالقاهرة، ١٢٩١هـ.

٢) الدكتور / محمد مهران عبد الحكيم . الفكر السوفسطائى وموقفه من المعرفة، ص٢٣، ط اولى، ١٩٦١م.

٣) الدكتور / زكى محمود طلبة . ديكارت والفلسفة النقدية، ص٧١، ط اولى، ١٩٤٧م.

الحقيقة، اما المنهج الشكى الذى قال به الشكاك السوفسطائيون فانهم يسيرون عليه حتى يحاولوا هدم الحقيقة، وقد عبر عنه "مونتانى" الذى كان يقول "سأظل اشك حتى في أننى اشك، ولن أترك الأرض الرخوة، واضع قدمى على الصلصال"[١]

ولا شك ان ما يدركه الناس من معارف، قامت عليها حضارات وانتصبت فوقها نهضات، يؤكد انفلات الشكاك عن القواعد العامة، وأنهم كانوا سعاة لتدمير الفكر الإنسانى، وأصحاب نزعة عدوانية تدميرية، بغض النظر عن الأهداف المعلنة من قبلهم.

ب- عند الاعتقاديين

أما الاعتقاديين فقد كانت لهم توجهات عديدة منها

- أن المعرفة أمر ممكن، وفى نفس الوقت، فإن المترتب عليها لا يمكن إنكاره، وأن حقيقة الكون إنما هى أفكار وصور عقلية، وأن العقل هو أيضا مصدر من مصادر المعرفة[٢].

ثم ان هؤلاء الاعتقاديين كانت لهم توجهات معرفية نهضت في حقائق ثابتة جعلت المثاليين يتلقفونها، ثم يقررون وجود حقيقتين ثابتتين في المعرفة المثالية :

- احداهما : حقيقة سلبية : وذلك عندما ننفى استقلال الطبيعة بذاتها وعدم احتياجها إلى الغير، ونعتبر اكتفاء الطبيعة بذاتها وهما
- ثانيهما : حقيقة ايجابية، وهى الإقرار بأن الطبيعة تحتاج إلى عقل أو روح لكى يسيرها، وسواء أكان ذلك هو العقل البشرى أو العقل الكلى الإلهى، فهى في حاجة دائمة إلى غيرها، لأنها غير مستقلة بذاتها، وهى من خلق الله، وخاضعة لسلطته خضوعا كاملا[٣]

---

١) الدكتور منصور خليل عبد العظيم فى الفلسفة الحديثة والمعاصرة، ص٨٢، ط الثانية، ١٩٧١م.

٢) راجع للدكتور محمد شفيق غربال الموسوعة العربية الميسرة، ص١٦٤٥

٣) الدكتورة ناهد يوسف رزق يوسف المعرفة بين المثالية والواقعية فى الفكر الإسلامى. ص [illegible] دار الفرسان بالمنصورة، ٢ [illegible] ٢م

وبناء عليه فالاعتقاديين يؤمنون بوجود المعرفة، ولكنهم يختلفون في مصادرها من حيث القوة والضعف وكذلك الحال مع وسائلها، وهو ما يبنى قدمهم على الميتافيزيقا التأملية التي تنحو نحو مسائل الغيب، وتعتقد اعتقادا قويا بأنها أرقى المعارف وأكثرها حاجة إلى البحث، بل هى أولى بأن تنال العناية القوية من أهل التفكير متى كانوا على رغبة في الوصول للحق، ولذا يقول العلامة "العقباوى" : "ان المعرفة هى الإدراك الجازم المطابق للواقع، وذلك كإدراكنا الجازم بأنه تعالى موجود، بدليل وجود هذه المخلوقات"(١).

ثم ان هذه المعرفة اليقينية تسوق الاعتقاديين إلى معرفة الله تعالى بجانب بعثه الرسل، وكذلك ما يتعلق باليوم الآخر، فمن عرف أجزاء الإيمان أمكنه الحرص عليها، متى كان صاحب عقل سليم، وقلب نقى، لأن أجزاء الإيمان جاء بها الحديث الشريف في قوله ﷺ : "الإيمان : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره حلوه ومره."(٢).

ثم ان الاعتقاد الصحيح يسوق المرء إلى انتظار ما يأتيه في الآخرة، على أساس أن النقل المنزل نفسه قد نبه إلى ذلك كثيراً، حتى ما يتعلق بانقطاع الأجل واستمرار الجزاء، دليل ذلك ما ذكره العلامة السيوطى حين قال :

إذا مات ابن آدم ليس يجرى ... عليه من فعال غير عشر
علوم بثها، ودعاء نجل ... وغرس النخل والصدقات تجرى
وراثة مصحف ورباط ثغر ... وحضر البئر أو إجراء نهر
وبيت لغريب بناه يأوى ... إليه أو بناء محل ذكر(٣).

ومن الملاحظ أن الاعتقاديين متى كانوا من أهل الكتاب والسنة، فإن معرفتهم تكون مترتبة على وجودها في النصوص النقلية أولاً، ثم ما يخدم تلك

---

١) العلامة الشيخ / مصطفى العقباوى : حاشية العقباوى على شرحه لعقيدة الدردير، ص١٣، ط المطبعة الحسنية بمصر، ١٣٢٦هـ.

٢) الإمام مسلم، صحيح الإمام مسلم، جـ١، ص٣٧.

٣) العلامة الشيخ / مصطفى العقباوى : حواش دقيقة على شرح العقباوى لعقيدة الدردير، ص٥٣، المطبعة الحسنية المصرية، ١٣٢٦هـ.

النصوص ثانيا، وهو الفكر الاسلامي. بمعنى ان النصوص الدينيه هى الكتاب والسنة وهى نصوص الاسلام ذاته. لقوله تعالى ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1].

أما ما يجيء حول فهم هذه النصوص الإسلامية فهو الفكر الإسلامى، وبالتالى يكون الاعتقاديون من أهل الإسلام، هم أنفسهم أصحاب المعارف التى تقوم على النصوص الإسلامية ذاتها.

جـ- النقديون

فإنهم ينظرون للمعرفة نظرة أخرى، انها نظرة إلى ما يقع تحت نطاق البحث التجريبى، ويمكن التعامل معه من خلال التجربة والمنهج الاستقرائى ومن ثم فإنه الذى يعتبر معرفة دقيقة يجب التمسك بها، أو على الأقل يعتبرونها معرفة ممكنة وصحيحة متى وافقت القواعد العلمية، في نفس الوقت فإنهم قد تمادوا في القول، وحاولوا التأكيد على المعارف التى تخضع للميتافيزيقا النقدية وحدها، باعتبار أنها التى تقبل الاستدلال عليها، وهؤلاء لهم جذور في الماضى وجذور أيضاً فيما بعد، ثم تلاقت هذه الجذور لتبرز في الفلسفة الحديثة والمعاصرة حاملة اتجاهات، قد تكون بعيدة عن القبول في كثير من الأحيان وبخاصة عندما يتعلق أمرها برفض الميتافيزيقا التأملية.

يقول شتاين بك : "ان النقديين قد عالجوا فكرهم المعرفى بطريقة تدعو للقلق، لأنها أوجدت نوعاً من الصراع بين فلسفة الأنانية، والغيرية فظهر الأنا الآخر"[2]. محاولاً تدمير الغيرية والأنانية، وأن هذا الصراع سيظل قائماً حتى ينتبه هؤلاء وأولئك إلى ما فيه من أخطار، وحينئذ يتغير الموقف.

غير أن النقديين ليسوا جميعاً في هذا الأمر سواء، بل ان بعضهم كانت له توجهات صحيحة، كما كانت لهم طرق في معالجة القضايا التى يطرحونها،

---

١) سورة المائدة، الآية ١٦

٢) جون شتاين بك : الفلسفة النقدية فى القرن العشرين، ص٤٣، ترجمة عادل رمزى / طبعة أولى. دار القلم، ١٩٧١م.

وتاريخ البحث العلمي يؤكد ذلك، سواء أكانت تلك التوجيهات في مجموعات ذات صدى قوى، أم كانت شذرات تأتى ثم تزول.

والحق أن وجود مذاهب كثيرة تعالج موضوع المعرفة، كالمثاليين[1]، والعقليين والواقعيين والتجريبيين وغيرهم، قد أدى إلى بروز مبحث المعرفة على الساحة الفكرية، وقد نال المكانة الأعلى متى قورن بمبحث الوجود أو مبحث القيم.

على أن الفلسفة النقديّة أو الاتجاه النقدى قد نظر للمعرفة الرياضية والمعرفة العقلية ذات الطابع التجريبى، نظرة فيها الكثير من المراجعة بحيث يمكن النظر إلى أصحاب هذا الاتجاه من تلك الزاويّة، نظرة ذات أبعاد مختلفة، وهنا يبدو لى وجود اتجاهين في نطاق أصحاب الفكر النقدى.

- أحدهما : نظرى : يعتمد اعتماداً كلياً على مناحى التفكير العقلى المجرد فى كل مبحث معرفى بغض النظر عن النتائج، لأنه يقف مع المقدمات فقط.
- ثانيهما : يعتمد على الجانب التجريبى وحده[2]، وكلاهما له أنصار وخصوم.

فإذا عدنا إلى مسألة إمكان وجود المعرفة وهو الأمر الذى يحتاج منا وقفة متأنية، أمكننا القول بأن هذه المعرفة موجودة، وجوداً فعلياً، وأن ما يجرى حولها لا يخرج عن كونه جزءاً من القيود التى فرضت نتيجة استعمال بعض الكلمات، التى تكثر أو تقل عند الاستعمال، وكان الأولى أن يقع المزيد من التوسع فى الاستخدام.

دليل ذلك : أن بعض الكلمات تثير المشاعر، وبعض آخر يحرك العواطف، ثم تأتى مسألة أخرى فيها مفردات لفظية، تعمل على التنمية المهارية، والكل يستخدم ذات الألفاظ، لكنه لا يستخدم ذات المعانى المرادة لدى الآخر، ولما كان المفترض في الفيلسوف أنه محرر من قيود العاطفة، فإن المفترض أيضاً فيمن يتعرض لمبحث المعرفة، أن يكون متحرراً من قيود التقليد الأعمى[3].

---

١) يرى البعض أن المثاليين فريق من جملة أصحاب الاتجاه العقلى / الدكتور / توفيق الطويل : قضايا من رحاب الفلسفة والعلم، ص٧٩، طبعة دار النهضة العربية بالقاهرة.

٢) راجع كتابنا : المدخل لدراسة الحكمة الإسلامية، ص٢٢٥.

٣) جون كيمنى / الفيلسوف والعلم، ص١٨-١٩، ترجمة الدكتور / أمين الشريف / المؤسسة الوطنية للطباعة والنشر / بيروت، ١٩٦٥م.

اجل . ان وجود جهات تفكير متعددة في المعرفة بين مؤيد ومنكر ليس معناه أن المنكر قد سعى إلى رفض المعرفة، وإنما معناه رفض الاستدلال بها، والفرق بين الأمرين كبير، كما أن المسألة عند المعترفين بها، ليس معناه اعتقاد المفكر في مبحث المعرفة، وإنما معناه أن العقل الإنساني يمكنه الاستفادة بأرصدته الفكرية في الجانب المعرفي، وهو الأمر الذى يحتاج مراجعة مستمرة على الدوام من خلال فكرة سيادة قوانين السببية.

يقول "هارمن" ان الذى يميز القوانين السببية عن غيرها هو أنها تزودنا بالمعلومات عن المستقبل، كما أنها تشكل الوسيلة الناجحة لتوزيع الجهود بين العالم النظرى والتجريبى[1].

ومن ثم فالقوانين القائمة على السببية، إنما هى اتجاهات معرفية، تفتح الباب لنتاجات عقلية، تؤدى في النهاية إلى الاعتراف بوجود مباحث فنية دقيقة تتعلق بالمعرفة الإنسانية من الناحية الصحيحة متى انت وسائلها سليمة.

يقول "لوفيرييه" الفرنسى : أننا حينما نؤمن بوجود نظريات معرفية، فإننا نعطى أنفسنا شهادة موثقة، على أننا نفكر، كما نؤكد لأنفسنا أننا قادرون على استيعاب الماضى، والتطلع للمستقبل بكل ما فيه من آمال عظيمة أو طموحات متزايدة[2].

وفى تقديرى أن إشكالية البحث، حول كون المعرفة ممكنة أو غير ممكنة تفضى إلى اليقين بانها ممكنة فعلاً، وواقعة على نواح كثيرة، لأنها لو لم تكن ممكنة وواقعة، ما ثار جدل حولها، بل ان النافى لوجود المعرفة إنما يهدم نفسه، أو على الأقل يعلن عجزه عن إدراك نفسه، لأن من يتعمد إهدار المعرفة النظرية، أو العملية إنما يدمر رصيده الذهنى والمعرفى من كل ناحية.

بدليل أننا حينما نولد لا تكون في عقولنا معارف مكتسبة، وإنما تكون فينها جملة من المعارف الفطرية، المتعلقة بالعقيدة الإلهية لقوله تعالى : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ

---

١) اسكندر هارمن : المعرفة بين المنكرين والمؤيدين، ص٣٥-٣٦، ترجمة يوسف زكى، طبعة أولى، بيروت ١٩٦٣م.

٢) لوفيرييه . رؤيتنا للواقع، ص١٣، ترجمة / محمد زكى نصر، طبعة دار الجيل، ١٩٧١م.

للدِّين حنيفاً فِطرتَ اللهِ التي فطر الناس عليها لا تبديل لِخلقِ اللهِ ذلك الدِّينُ القيِّمُ ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يعلمون﴾(١).

يقول الشيخ "عبد الرحمن السعدى" : ان الله جل علاه قد أقام في عقول الناس وقلوبهم، الإسلام، والإيمان، والإحسان، حيث تتوجه القلوب إلى الله – تعالى – بالقصد والبدن، إلى إقامة شرائع الدين الظاهرة، كالصلاة والزكاة والصوم والحج ونحوها، وإقامة شرائعه الباطنة كالمحبة والخوف والرجاء والإنابة والإحسان في الشرائع الظاهرة والباطنة، بأن تعبد الله فيها كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك(٢).

فالفطرة التى يولد المرء مزوداً بها، إنما هى فطرة قلبية وعقلية، لخدمة الحقيقة الدينية، بدليل أنها تصاحب المرء فترة طويلة حتى يحدث له الاكتساب المعرفى بحيث يكون داعماً لما هو مفطور عليه أو مناقضاً له، يقول ﷺ : "كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه"(٣). ثم ان العلم الحديث، قد أقر بأن الجنين في بطن أمه يشعر، ويفرح ويتألم، ولا مانع من اكتسابه الأمور التى تناسب مرحلته الجنينية بدليل أنه حينما يخرج إلى الدنيا الواسعة، يستهل صارخاً، فلو لم تكن لديه معارف بأن ما هو فيه أفضل، مما هو مقبل عليه ما صرخ(٤).

ربما يقال ان النقدية إنما هى صورة من صور المثالية، على أساس أن المثالية يمكن أن تكون عقلية أو ذاتية أو نقدية، وبالتالى تجيء المعرفة عند المثالية النقدية في صورة تخالف ما عليه الوضعية والطبيعية وغير ذلك.

والجواب : أن التيار النقدى في المثالية لا يهمل المعرفة الصحيحة، ولكنه ينظر إلى جملة المعارف من زوايا مختلفة، أبرزها الكيان المعرفى التركيبى القبلى، وبناءً عليه، فهو يؤكد وجود المعرفة، وقدرة المرء على الاستفادة منها، واضعاً في الاعتبار تقسيم القوى المعرفية إلى : حسية وعقلية

---

١) سورة الروم، الآية ٣٠.

٢) الشيخ / عبد الرحمن بن ناصر السعدى : تيسير الكريم الرحمن، ص٧٠٣.

٣) الإمام البخارى فى صحيح البخارى، جـ١، ص٤٥٦.

٤) الدكتور / محمود محمد خشبة : الذكر والأنثى فى المرحلة الجنينية، ص٩٨، طبعة دار رفعت، ١٩٧٨م.

أو حسية وذهنية، على أساس أن إدراك الظواهر، إنما يكون من شأن القوى الحسية، أما إدراك الحقائق فإنه يكون من مدركات أو خواص القوى الذهنية، وحينئذ تأتى النتيجة، وهى اعتبار الميتافيزيقا وظيفة ذهنية مستقلة عن التجربة، موضوعها المبادىء الأولى للذهن الخالص[١].

ولا يغرب عن دارس أن الاتجاه النقدى في المثالية، يذهب إلى اعتبار المعرفة الميتافيزيقية معرفة أولية، مجردة، تتجاوز حدود التجربة، وتقوم على مصادر محددة، تخضع في الغالب الأعم لمقولة الكيف، وتنفصل عن غيرها.

يقول كانت : "ان المعرفة الفلسفية تصدر عن العقل الخالص، وتسمى الفلسفة الخالصة[٢]، وهى إما أن تكون فلسفة تمهيدية فتسمى الفلسفة النقدية[٣]، أو تكون مذهباً فلسفياً كاملاً، وتسمى في هذه الحال بالميتافيزيقا"[٤].

ويذهب النقديون إلى أن المفاهيم لابد أن تكون لها حركة يعبر عنها بالحدوس الحسى. فإذا لم يكن لها حدوس حسى كانت جوفاء، كما أن الحدوس الحسية بدون مفاهيم تكون عمياء[٥]، ويفهم من ذلك أن المعرفة إنما تقوم في المادة والصورة، ويقع فيها التميز الدقيق بين العناصر الحادثة، المتغيرة في حواسنا الحسية، وكذلك العناصر ذات البعد الكلى المستقرة في صميم الباطن المعرفى.

ثانياً : طبيعة المعرفة عند المذهب الواقعى :

يعتبر المذهب الواقعى أحد المعالم الرئيسية التى سادت المباحث الفلسفية في وقت من الأوقات، وكان لأصحابه وجود متواصل، حيث انتهى الأمر معهم إلى اعتبارهم مذهباً فلسفياً، يرى أن وجود الأشياء الخارجية لا يتوقف على إدراك

---

١) عمانويل كانت : مقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة يمكن أن تصير علما، ص١٥-١٦، ترجمة د. نازلى إسماعيل حسين.

٢) هذه التسمية راجعة لما قام بها وهو العقل الخالص، وله أيضا فى ذلك كلام طويل، راجع : نقد العقل المجرد، ففيه عدة قضايا يمكن النظر فيها من جديد.

٣) لأنها تكون معبرة عن جزء من المعرفة، وليست كل المعرفة، كما تعبر عن جزء من الفلسفة ولا تمثل كل الفلسفة.

٤) عمانويل كانت، مقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة، هامش ص٥٤

٥) الدكتور [illegible] ركريا ابراهيم عمانويل كانت [illegible] الفلسفه النقديه ص [illegible]

العقل لها، لأنها موجودة بالفعل، سواء استطاع العقل إدراكها أم لم يستطع، وسواء وجد من يدركها أو لم يوجد[١].

فالواقعية بهذا إنما تحتكم إلى الفكرة القديمة القائلة : لابد من مطابقة الفكر الصحيح للواقع المعاش، مع التأكيد على أن الوجود الفعلى مستقل تماماً عن معرفتنا الفعلية به، سواء أدركنا ذلك أم لم ندركه، ويعلق "جميل صليبا" على الواقعية حين التعريف بها مؤكداً وجود ثلاثة عناصر تقوم عليها اتجاهات المذهب الواقعى هى :

١- العنصر الأول : مطابقة الفكر للواقع.

٢- العنصر الثانى : استقلال الوجود عن معرفتنا الفعلية به.

٣- العنصر الثالث : عدم إمكانية استخراج الوجود من الفكر[٢].

فالمذهب الواقعى هنا يعترف بوجود العالم الخارجى المستقل عن جميع الادراكات والتصورات، بل وما يتعلق بالحس والعقل على السواء، وأن هذا المذهب يمكن اعتباره أحد الوجوه المضادة لأصحاب النزعات المثالية، لأنه يعلق على الحس إمكانية إدراك الوجود على صورة من الصور، وأن التجربة لها نوع من الاستقلال المؤدى إلى نتائج إيجابيه، وهذا الاستقلال بعيد عن الإدراك الطبيعى، والإدراك الحسى، والذى يربط بين هذه الأشياء الموجودة، وإدراكنا لها، إنما هو جملة من العلاقات التى لابد من الاعتراف بها، وأبرزها العلاقات الزمانية والمكانية، وكونها مستقلة تماماً عن كافة ادراكاتنا[٣].

والملاحظ أن الواقعية تنقسم إلى قسمين تجيء في كل قسم جملة من التنوعات، أو الفروع، أبرزها ما ترك أثراً فلسفياً على سبيل القبول أو الرفض :

---

١) راجع كتابنا : التفكير الإنسانى أصوله ومستوياته، ص١١٠-١١١.

٢) الدكتور / جميل صليبا : المعجم الفلسفى، جـ٢، ص٥٥١-٥٥٢.

٣) اميل بوترو · الفلسفة فى ثوبها الجديد، ص١٠١، ترجمة / هانى شكرى، طبعة دار المعرفة، سوريا، ١٩٦٦م

القسم الأول : الواقعية الساذجة(١).

وهى التى تحكم بأن المرء يدرك المعرفة، كصورة لما يجرى في العالم الخارجي من وقائع وأحداث وملابسات، من غير أن يقع للعقل فيها أى دور عن طريق الحذف أو الزيادة(٢).

الواقعية الساذجة تنظر إلى طبيعة المعرفة نظرة فيها الكثير من السذاجة، انها لا تخرج بالفيلسوف عن دور الصبى الصغير الذى يعبر عن الأشياء التى أدركها خياله أو رسمها ذهنه، أو التقط لها عقله صورة مما لمسه في أرض الواقع، فهى نظرية لا ترقى بالمفكر إلى المستوى الراقى عندما يطلب منه التعرف على حقائق الأشياء، أو تقديم مفاهيم محددة للألفاظ التى يستعملها الناس في التفاهم، بعضهم البعض مما يتعلق بشئون الحياة.

كما أن طبيعة المعرفة في الواقعية الساذجة، لا تقدم نفعاً، بدليل أن الخطوات العملية التى قطعها المرء في طريق التفكير العلمي كانت مهمتها تحريك العقل، بحيث يتأمل الأشياء من حوله، ثم يترجم هذا التأمل إلى صور عملية مستجدة، تحقق نتائج مهمة، تثرى أرض الواقع، وتنهض بالمرء حتى يقفز السلم الحضارى في ثقة وأمان، وهذا ما أهدرته الواقعية الساذجة.

أضف إلى ما سبق أنه متى كان الفكر هو صورة الواقع، أو هو الذى ينقل الصور الحسية إلى العقل، ثم يرتد بها إلى الحس، فإنه يكون بذلك قد قضى على عملية التفكير من أصلها.

يقول "دافيد توماس أير" : ان الواقعية الساذجة لا تفسر مهايا الحقائق المطلقة، ولكنها تقف عند تفسير ماهيات الحقائق الخارجية فقط، التى تعتبر أفكارنا صورة كاملة لها(٣).

---

١) وهناك الواقعية النقدية وهى القسم الثانى، كما ان هناك تسميات أخرى يمكن أن تطلق على كل منهما باعتبارها تسميات فرعية قائمة فى الغايات والعلاقات.

٢) الدكتور / شوقى أبو الفتوح صبرى : نظرية المعرفة بين الحسيين والواقعيين، ص٢٢، طبعة أولى، ١٩٨٣م.

٣) توماس أير : الواقعية فى إشكالها المعاصرة، ص٩٣، ترجمة : حنان مرسى، طبعة دار الفكر، ١٩٦٣م.

وفى تقديرى أن أصحاب هذا الاتجاه، قد انفلت منهم المعيار الذى يساعد على القفز للأمام، وهو الطموح المحسوب، بدليل أنهم خافوا من التقدم نحو الميدان الفكرى السليم، يعبر عن هذا الخوف ارتدادهم القهقرى إلى الصور الموجودة في الذهن، وترددهم بينها كصور ذهنية، مقتبسة من أشياء موجودة في العالم الخارجى(١)، بل يمكن القول بأنهم قد قضوا على كل معرفة لا تأتى بعيداً عن الحواس، فهم صورة من المذهب الحسى القديم، لكن تحت اسم جديد.

وإذا كان الحسيون في الماضى، قد أعلنوا أن الموجود هو المحسوس فقط، فإن الواقعية الساذجة قد أعلنوا أن ما في الفكر هو الصورة الحقيقية لما هو موجود في الواقع فقط، ومن ثم فإن معارفهم، وما انتهوا إليه يمكن وصفها بأنها معرفة حسية صرفة لا مكان فيها لما وراء الحس.

القسم الثانى : الواقعية النقدية :

وهى التى تحاول إدخال العقل إلى ميدان العمل، بحيث تكون طبيعة المعرفة قائمة على الحواس والعقل جنباً إلى جنب في نفس الوقت فإن الواقعية النقدية قد أجبرت على إدخال العقل، كوسيلة معرفية على أنه الحكم في الأشياء، كما أنه الذى يحكم على أداء الحواس(٢)، وفى نفس الوقت فإن له دوراً كبيراً في مجال الدراسات المختلفة، كما أن المدارك العقلية أوسع وأثبت من المعارف الحسية.

وإذا كانت الواقعية الساذجة تعتمد على الحواس وحدها، في المعرفة فإن فقد المرء لإحدى هذه الحواس، ينقلب بالنقصان على ذات المعرفة، وليس هذا بمنقلب على العقل(٣)، ولذا فقد أكدت الواقعية النقدية على ضرورة أن يكون للعقل دور فعّال في مجال المعرفة الإنسانية، وهو ما يعنى استفادة الواقعية من ثلاثة مصادر، يمكن اعتبارها مفيدة ومحققة للغاية في اكتساب المعارف بالنسبة للواقعية النقدية.

---

١) راجع كتابنا : الفلسفة العامة، ص٨٧، ط الرابعة.

٢) الدكتور / خالد عبد العظيم درويش، الفلسفة المعاصرة، ص١٨٧.

٣) راجع كتابنا : التفكير الإنسانى / أصوله ومستوياته، ص١١٥، وكتابنا : خواطر حثيثة فى الفلسفة الحديثة، ص٢١٢-٢١٣، الطبعة الخامسة

وهذه المعارف يمكن النظر إليها على أنها طرق معرفية ووسائل تؤثر تأثيرا كبيرا في طبيعة المعرفة، وهى :

١- الحواس الخارجية التى تترتب عليها احساسات مثلها.

٢- الحواس الداخلية، وهى التأملات العقلية في الأفكار التى ترد عن طريق الحس، وهى حينئذ تكون أرقى من سابقتها.

٣- الحدس وهو الصورة الجامعة بين كليهما، والمعينة على تقبل نتائج أفكار جديدة[١].

ثالثاً : طبيعة المعرفة في المذهب المثالى :

يعتبر المذهب المثالى، أحد المذاهب ذات السبق التاريخى في الفكر الفلسفى، على أساس أن المثال هو صورة مجردة، وفى نفس الوقت حقيقة معقولة. يقول أفلاطون : انه علة نموذجية مفارقة، وإلهية للأشياء[٢]، باعتبار أن المثال هو الصفة المعقولة البعيدة تماماً عن الجسمانية، التى هى مظنة الشكل المحسوس المرئي، ثم ان المذهب المثالى في الفكر الفلسفى إنما هو اتجاه يقوم على رد كل وجود إلى الفكر والذهن، على أساس أن حقيقة الكون جملة أفكار وصور عقلية، وأن العقل وحده مصدر المعرفة[٣]، فهم لا ينكرون أن يكون للحس أى دور معرفى، وكذلك يقع الإنكار على الإلهام والنقل المنزل، ومن ثم، فإن اتجاههم قائم على العقل والفكر وليس وراء ذلك شيء أو أى مصدر آخر.

وهذا المذهب المثالى يجيء في أقسام ثلاثة :

- القسم الأول : المثالية الذاتية.
- القسم الثانى : المثالية الموضوعية.
- القسم الثالث : المثالية النقدية.

وهناك أقسام أخرى، لكنها لم تلعب الدور الذى يسمح بجعلها أقساماً مستقلة، كالحال مع المثالية المفارقة، والمثالية المطلقة، والمثالية الحديثة بجانب المثالية ذات التوجهات المختلفة[٤].

---

١) الدكتور / محمود عبد العظيم رضوان : الفلسفة الحديثة، ص١٩٧

٢) الدكتور / أحمد فؤاد الأهوانى / أفلاطون، ص١٠٧-١٠٨، ط دار المعارف بالقاهرة.

٣) الدكتور / محمد شفيق غربال : الموسوعة العربية الميسرة، ص١٦٤٥

٤) لمزيد من التفاصيل راجع : لتوماس هارفى المثالية والواقعية / دراسة نقدية، ص٢١-٤٥، ترجمة / هانم على عبد العظيم، ط أولى، ١٩٨٤

القسم الأول : المثالية الذاتية :

وهى جملة الأعمال الذهنية التى تعيش فى عقل فرد بذاته وتدفعه إلى طلب المثل، أو تلحقه بالصور الذهنية، أو مجموعة معينة من الأفراد بحيث تكون خاصة لهم، متعلقة بهم، ومن ثم يعرف هذا الجانب من المثالية باسم : المثالية الذاتية.

كما يعرف بأنه : مجموعة الأفكار التى تتعلق بالعقل وحده وتنفى وجود ما وراءه، فهو مذهب يعيش عُلى مفهوم ضرورة أن تفسر الظواهر الموجودة فى العالم تفسيراً عقلياً خالصاً، لا علاقة له بشيء وراء ذلك[1]. ولما كانت هذه الأعمال الذهنية، أو الأفكار العقلية ذات طابع ذاتى خالص، فإنها تسمى المثالية الذاتية.

ويذهب الدكتور "محمود فوزى" إلى أن المثالية الذاتية هى التى تنفى وجود العالم المادى الموضوعى، وتعتبر كافة الأشياء نتاجاً للاحساسات والأفكار، كما تنفى القوانين التى لا تقوم على العمليات العقلية الخالصة[2]. بمعنى أنها تفرق فقط بكل ما هو قائم فى الجوانب الذهنية والفكرية، ولا تلتفت إلى شيء وراء ذلك.

ويلاحظ أن هذه المثالية الذاتية تنحصر فى كونها من المذاهب اللامادية، وهى تتفق فى كثير من الآراء التى تعتمد عليها مع بعض المفكرين الذين عايشوا جولة الفكر الحديث، ذات الاتجاهات المعينة، وكانوا أحد الأعمدة القائمة فيه، فمثلاً : يقف دعاة المثالية الذاتية "كجورج باركلى" عند هذه الأفكار ثم يتلاقى مع "جون لوك" فى كون بعض الأفكار البسيطة هو/المدرك الطبيعى، وهى التى تمثل المصادر الطبيعية للقضايا الفكرية وينفيان معاً وجود أفكار فطرية سابقة على كافة أنواع الإدراك العقلى بمعنى أن المعرفة التى نحكم بوجودها إنما تعتمد على ما لدينا عنها من أفكار قائمة فى عقولنا على صورة مقبولة[3].

فالمعرفة عند هذا الفريق – المثالية الذاتية – إنما هى عقلية خالصة، وذاتية قائمة على ادراكاتنا الشخصية، مما يؤكد أن هذا الاتجاه لا يخرج عن القواعد العامة للعقليين، الذين يمكن الرجوع بهم إلى صورة من الصور التجريبية، أو

---

١) راجع كتابنا : التفكير الإنسانى فى أصوله ومستوياته، ص١٤١.

٢) الدكتور / محمد فوزى : المثالية فى العصر الحديث، ص١٣-١٤، ط أولى، ١٩٩٢م.

٣) راجع كتابنا : خواطر حثيثة فى الفلسفة الحديثة، ص١١٢.

المادية مع تعديل بسيط فى الفكرة، ونحن إنما نحكم بذلك لما نراه فى النتائج التى انتهى إليها كل من الفريقين.

أجل : حدثت تطورات شديدة فيها سير نحو الماضى، وانطلاق جهة المستقبل، وقفزات متوالية بالنسبة لمفكرى هذا القسم، بدليل أن باركلى نفسه قد عاد إلى وضعه الطبيعى، فأقام فلسفته الذاتية من خلال الجمع بين التجربة العقلية، والاتجاه الروحى الخالص، فارتد به الأمر إلى اعتبار الحس هو مصدر المعرفة، لكن مع إرجاع ذلك إلى الإثبات العقلى[١]، فالعالم المادى الخارجى من وجهة نظره هو مجموعة من الأفكار القائمة فى العقل، وجميع الأشياء المحسوسة من المرئيات والمسموعات والمذوقات والمشمومات وغيرها، ما هى إلا صور من عمل العقل، فهو بهذا يجعل المعانى الذهنية أشياء محسوسة، فى الوقت الذى كان يجب عليه تحويل الأشياء إلى المعانى، وليس العكس.

فى نفس الوقت فإن المذهب المثالى الذاتى يأخذ بكافة الأشياء المحسوسة، كقواعد ينطلق منها، لكن من غير إعلان ذلك، بدليل أنه نظر إلى المكان والزمان والحركة، كما نظر إلى الطعوم والألوان والأصوات، ثم عبر عنها جميعاً بأنها مدركات عقلية[٢]، مع أن غالبيتها واقعة فى نطاق الحواس وقوعاً حتمياً، كالحال مع المكان، والحركة، وكذلك الطعوم والألوان والأصوات، اللهم إلا أن يقصد منظرها ما يتعلق بالفكرة الذهنية وليس الحقيقة الواقعية.

من ثم يمكن القول بأن فكرة المدرك وحده هى الموجودة على ناحية معرفية، لكن من أين جاءت فكرة المدرك؟[٣]، ألم تكن هى ذاتها وليدة العلاقة القائمة بين المادة وصفاتها، فنحن مثلاً نحكم على المثلث بأنه شكل هندسى ونعرفه بكونه : شكل هندسى محوط بثلاثة خطوط مستقيمة متقاطعة، تنحصر بينها ثلاث

---

١) وبناء عليه فهو يخلط بين الأمرين، ويعتمد على الاتجاهين مع تقديم معرفة العقل على معارف الحس.

٢) برتراندرسل : تاريخ الفلسفة العربية، الكتاب الثالث، ص٢٣٦، ترجمة د. محمد فتحى الشنيطى.

٣) فكرة المدرك لها اتجاهات عديدة واعتبارات متباينة لكنها لدى هؤلاء تتسم بمعنى محدد عندهم.

زوايا[١]، لكن إذا نظرنا إلى التعريف، وطبقناه فى أرض الواقع، أنتج لنا العديد من المثلثات سواء باعتبار الزاوية الحادة، أو الزاوية المنفرجة، أو الزاوية القائمة، فالفكرة عن المثلث ككل مقتبسة من جملة المثلثات الأخرى.

وكذلك الحال مع كل من النعومة والخشونة، والحرارة والبرودة، ثم الحلاوة والمرارة، فإنها جميعاً مدركات من أشياء موجودة فى الحس، وتعبر عن هذه الادراكات، لغات مختلفة، بطرق متعددة، فالذى يدرك حرارة الجو إنما يشعر هو ذاته بسخونة ترتد إلى الجلد، والذى يشعر بمرارة الطعام هو ذاته الذى يدرك خاصية موجودة فى ذات المطعوم، وبناءً عليه فإن هذه الأشياء موجودة سواء أدركناها أم لم ندركها[٢]، وقد ترتب على ظهور هذا القسم، أن يكون المعلوم دائماً هو الذات العاملة فى مجال العلم، أو أن يكون المعلوم هو حالة من حالات الذات العالمة نفسها، هذه ناحية.

ومن ناحية ثانية هى إنكار كافة الوجودات المختلفة، بحيث لا يبقى إلا وجود واحد هو الوجود الذاتى فقط أو هو وجود الذات العارفة، من هنا انحصر أمر المعرفة فى الإدراك، ثم انحصر الإدراك فى قدرة الحواس على امتلاك هذه المعارف، أو الوصول إليها[٣]، باعتبارها الذاتى، وطريقة الإدراك دون نظر لشيء وراء ذلك.

وفى تقديرى أن هذا المذهب ينعكس عليه صدى أفكار سابقة، وأنه حاول التخلص منها، فلم يتمكن، ولما شعر بالعجز عمل على إبرازها مرة أخرى، من خلال جملة أفكار ومفردات لغوية، لا تقدم جديداً فى مجال الدراسات الفلسفية.

القسم الثانى : المثالية الموضوعية :

تعتبر المعرفة المثالية الموضوعية، أحد الاتجاهات المذهبية الفلسفية فى الجانب المثالى، ولذا ظهرت متأخرة عن سابقتيها، لكنها فى الوقت نفسه تمثل خطوة أخرى، بجانب الخطوات السابقة، وبعيداً عن الأسماء أو الأشخاص الذين ظهروا على متن هذا القسم، فيمكن تعريفها بأنها : التى لا يوجد عندها اختلاف

---

١) هذا تعريف المثلث بالرسم على أساس انتفاء فكرة الحد المنطقية فى مثل هذه الأفكار.

٢) وهذا الاتجاه يقوم على تنمية الفكرة، ثم توسيع القاعدة العملية التى تقوم عليها.

٣) وعندما كانت الحواس سليمة وقوية فإن الإدراكات المترتبة عليها تكون هى الأخرى فى نفس القوة.

جوهرى بين الموضوع المعروف، والذات العارفة، سوى فى الصورة المعبرة[١]، ومعنى هذا أن يكون المفكر، هو موضوع المعرفة، والذات العارفة فى وقت واحد، ومن ثم سميت بالمثالية الموضوعية.

وقد تسمى هذه المثالية باسم الموضوعية المطلقة، بناء على أن الذات العارفة وموضوع المعرفة هما الفكرة الوحيدة المطلقة، أو هى المعبر عن الكل، وتسمى الحقيقة الكلية بهذا الاعتبار، فإذا أمكن استعمال هذا المصطلح بطريقة أخرى فإن النتيجة تكون متخالفة فتسمى الحقيقة الجزئية.[٢].

فالمعرفة عند أصحاب هذا الجانب، أو لدى أنصار هذا الفريق، إنما هى مجموع ما يقع بين العارف والمعروف، وبناءً عليه اعتبروا الواقع التجريبى هو المظهر الطبيعى، الذى تختفى من ورائه الحقيقة الكاملة، التى تقنع العقل وترضيه، وعلى أساس تلاقى العقل والفكر، يتم تشكيل الوجود الواقع، وكان براولى من أكثر الذين يعضدون هذا الاتجاه.

يقول "بوشنيسكى" : ان العقل لدى "برادلى" متى استطاع الاستعانة بمنطق الفكر الذاتى فإنه يمكنه أن يتنبأ عن العالم شيئا كثير دون حاجة منا إلى الحواس وإدراكها[٣]. لأن العقل حينئذ يؤدى أعمالاً متنوعة، يقع بينها التداخل، لكنها فى النهاية ذات صبغة متميزة.

ومن الملاحظ أنهم ينظرون إلى الحقيقة المطلقة، المتمثلة فى الكون على أنها لا تقبل التجزئة، ولا تسمح بوجود فواصل أو حدود، فالواقع الكامل هو المطلق، والمعرفة هى السباحة فى حدود ذلك الواقع نفسه، ومن ثم فالمعرفة محصورة داخل إطار الواقع المطلق، ولا يمكنها الانفصال عنه.

أما كيف يفهم هذا المطلق، أو يمكن الوصول إليه؟ أو على الأقل كيف يمكن معرفته على ناحية صحيحة.

---

١) راجع كتابنا : التفكير الإنسانى أصوله ومستوياته، ص٩٨-٩٩.

٢) الدكتور / مرسى جابر عبد الله : المثالية المعاصرة، ص٨٧، وكذلك الدكتور : فوزى غريب : الفلسفة الحديثة ومظاهر النهضة، ص٨٢-٨٣، ط أولى ١٩٩٧م.

٣) بوشنسكى : الفلسفة المعاصرة فى أوربا، ص٥٨، ترجمة الدكتور : عزت قرنى، طبعة سلسلة دار المعارف، ١٩٩٢م.

والجوهر هو أن الكل يتمثل في الوحدة النسقية، تنطوي على التفاصيل الدقيقة، بمعنى أن الكل منحصر في هذه الجزئيات جميعها(١). ومتى انحصر فيها من ناحية الوقوف على طبيعة المحتوى، فإنه يمكن معرفة الحقيقة الكلية.

ثم أن الحقيقة الكامنة في مفهوم هذا الكل، إنما تكون في نسق واضح تربطه جملة من العلاقات المميزة، يمكن أن تسمى التوافق في ارتباط جميع الأجزاء من خلال كل منظم، بواسطة المطلق، بمعنى : أن هذا الارتباط يكون موضوعياً وليس تطابقاً خارجياً، كالحال الذى يكون بين الفكر والواقع.

ولئن كان الفيلسوف "بوزنكيت" ممن مال إلى اعتبار الذات العارفة هى نفسها موضوع المعرفة فلا شك أنه يعد من أنصار المذهب الواحدى فى المعرفة، وبناءً عليه تكون هناك علاقة اتفاق وطيدة، بين الحركة النقدية المثالية، والحركة الموضوعية فى الاتجاه المثالى.

غير أن هذا الاتفاق أو العلاقة التوافقية لم يستمر طويلاً، بدليل أن "ماكتيجارت" قد اعتنق مذهب التعدد فى المعرفة، وبين وجود فوارق بين المظهر والواقع، وبين أيضاً أن صورة التمييز بينهما يعبر عنها بالإطار الأول، أو المرحلة الأولى للتطابق المحدد، فكل ما لا يمكن اعتباره داخلاً فى إطار الواقع، يعتبر داخلاً فى إطار المظهر(٢). ولما كان الواقع ذات طبيعة كلية، والمظهر هو الآخر ذا طبيعة كلية، فإن الموصل إليهما يكون متعدد الأوجه.

أما ما هو قائم فى دائرة الواقع، فإنه يمكن النظر فيه باعتبار المظهر. فبين المظهر والواقع عموم وخصوص، على أساس أن الواقع أعم، أما المظهر فهو أخص(٣)، ومن ثم فكلما نظر إلى المراتب، أو الأشكال المظهرية فهم منها الاتجاه الخاص، أما إذا أطلق لفظ الواقع، فقد فهم منه الاتجاه العام.

---

١) اميل برهييه : تاريخ الفلسفة الحديثة، ج٧، ص١٨٤، ترجمة : جورج طرابشى، الأولى، ١٩٨٧م.

٢) الدكتور / محمود النحاس : الفلسفة الحديثة والمعاصرة، ص٨٣، ط أولى، ١٩٨٣.

٣) العموم والخصوص له صور : الأولى العموم والخصوص المطلق، الثانية : العموم والخصوص الوجهى، الثالثة : العموم والخصوص اللفظى أو اللغوى، راجع كتابنا : النديم فى المنطق القديم

ويبدو لى أنه قد نظر إلى طبيعة المعرفة، من خلال العلاقة التى تربط بين الكل والجزء، فالكل عنده هو المطلق، ويتمثل فى وحدة الأشخاص، ونسق الذوات التى ترتبط ببعضها فى علاقات، كما ترتبط أجزاء الشيء الواحد[١]، وقد نجح أصحاب هذا الاتجاه فى تكوين العديد من المعارف، كما فتحوا طريقاً إلى إنشاء معرفة تجعل العلاقة بين الذات المفكرة، وموضوع التفكير علاقة قائمة أو على الأقل علاقة قوية ليس من اليسير فصم طرفيها.

القسم الثالث : المثالية النقدية :

وهى التى ظهرت فيها المؤثرات الكبيرة بالنسبة للمعرفة، كما برزت عليها أهم النتائج التى كان السابقون فى أوربا قد خلفوها، من أمثال "كانت"، و"هيجل"، و"جرين"، و"كواندرسيه"، وغيرهم.

ومعنى المثالية النقدية : قيامها فى المعارف الإنسانية على علاقات تربط بين الواقع والنتائج الذهنى، ثم تأثيراته المتوالية فى المعارف بأنواعها المختلفة والمتباينة أيضاً[٢].

من الممكن القول بأن المثالية النقدية قد انطلقت فى أوربا، وأثرت تأثيراً كبيراً على كل المعارف القائمة، لأنها نظرت إلى ما تركه الآخرون، ثم قامت بتوجيه الانتقادات العنيفة إليه، مع الهجوم المتواصل عليه بغرض إقامة بناء أو نسق معرفى جديد، بدليل أنهم هاجموا الاتجاه الواحدى فى نظرية المعرفة، كما هاجموا الاتجاه الثنائى أيضاً، بل ذهب أغلبهم إلى أن التفريق بين عالمين أحدهما فى الذات، والثانى فى المظهر، إنما هى تفرقة غير حاسمة[٣]، ولابد من تقديم أوجه جديدة من الممكن القول بأنها قائمة على هذه العلاقات.

من الممكن القول بأن المثالية النقدية فى أوربا، رفضت الفكر التجريبى، كما رفضت الفكر النظرى، ولكنها لم تتمكن من رفضهما معاً، بدليل وقوع أغلب رجالها فى التأثر بالآراء المعروضة نوعاً ما من التأثر، وهذا فى حد ذاته يؤكد أن المثالية النقدية كانت لها آثار كثيرة، وهى فى الأغلب ذات تأثير سلبى.

---

١) راجع كتابنا : الفلسفة العامة، ص٢٩٥، وكتابنا : نظرية المعرفة عند ابن رشد، ص٨٧.
٢) الدكتور / محمود فوزى : الفلسفة الحديثة، ص١١٢، ط أولى، ١٩٨٣.
٣) راجع كتابنا : خواطر حثيثة فى الفلسفة الحديثة، ص٢٠١-٢٠٢.

وفى تقديرى أن هذه الحركة المثالية النقدية كان لها اتجاهان :

- أحدهما : كان يبتغى الهدم لكل ما هو قائم، رغبة فى إسقاط هيبة رجال اللاهوت، والنيل من المفكرين، الذين كان لهم نوع ما من الارتباط بالكنيسة ورجالها، وقد دفعهم ذلك إلى الإطاحة بكل ما هو قائم فعلا، بجانب محاولة هدمه من الأسس، وهو ما يعبر عن الجانب السلبئ لدى هؤلاء.

- ثانيهما : جانب ايجابي متعلق بوجهات النظر المختلفة تعلقاً متواصلاً سعى لدراسة معرفة الواقع وربطه بالذهن والفكر فى رباط قوى مؤثر، ومعالجة أوجه القصور، بغرض إقامة بناء فلسفى جديد ربما يقدر له التوفيق، وقد لا يصل إلى غايته، لكنه عمل يدل على جهود أصحابه الفكرية.

- أما طبيعة المعرفة عندهم، فقد ارتبطت بحقائق الأشياء ارتباطاً وثيقاً، من خلال منظومة الكل، التى تجيء فى علاقات متناسقة، عمادها العملية الذهنية الخالصة، مع النظر إلى المثل الأعلى، الذى تقوم عليه تلك المعرفة، ومن ثم كان اتجاههم متوافقاً مع المباديء التى وضعوها لأنفسهم، وإن لم تقنع غيرهم.

رابعاً : مصادر المعرفة :

من الثابت أن مصادر المعرفة متنوعة، باعتبار المصادر والوسائل، كما هى متنوعة باعتبار الشك أو اليقين، فإن ذكرت وسائلها كانت هى المصادر، وكذلك العكس، وقد اتفق الفلاسفة على أن مصادر المعرفة هى :

١- الحس[١]، ٢- العقل

٣- الإلهام أو الكشف ٤- النقل المنزل أو المعرفة الوحيية

أما المذاهب الفلسفية المشهورة فى مصادر المعرفة فيمكن ضبطها فى ثلاثة :

- الأول : المذهب العقلى.
- الثانى : المذهب التجريبى النقدى[٢].
- الثالث : المذهب الكشفى أو الإلهامى.

---

١) وعلى هذا المصدر قامت المعرفة الحسية ذات الاتجاه المادى الطبيعى، بجانب الوضعية المنطقية.

٢) وهذا الاتجاه له صور متعددة سيجيء الحديث عنها فى ثنايا هذه السطور ان شاء الله تعالى.

واما عندنا نحن المسلمين فإنه توجد بجانب هذه الثلاثة معرفة متميزة عن الجميع يطلق عليها اسم المعرفة الوحيية القائمة فى النقل المدرك وتعتبر معارف تعد أكيد، بل هى فى ذات الوقت أوثق المعارف(١). ومن ثم فلابد من تقديم الماحة عن هذه المذاهب من خلال مواقفها حول مصادر المعرفة

أولاً : المذهب العقلى :

بمراجعة المذاهب فى المعرفة، يتبين أن المذهب العقلى، قد اعتبر العقل هو الأساس، وجعل ما بعده متمما له، أو على الأقل يمكن الاستغناء عنه، باعتبار ان المدار المعرفى ينصب على العقل وحده، فإن كان هذا الدور الذى يقوم به العقل كافيا لبلوغ الغايات، فإن المعارف العقلية تكون هى الحجج الثابتة والعوامل الأكيدة، أما إذا أخفق العقل فى الوصول إلى شيء منها، فإن الخطأ يكون راجعا لعدم ظهورها(٢). وبناء عليه فالعقل عماد البحث المعرفى، وهو المصدر الوحيد الذى يمكن الاعتماد عليه فى المعرفة.

لكن هؤلاء لم يقدموا صورة للمشاكل التى يعجز العقل عن تقديم حلول لها، على أساس أن العقل نفسه احدى المشكلات الرئيسية، ونحن إذا عدنا إلى معالجة مشكلة العقل نلاحظ ضرورة النظر إلى العقل، على أنه آلة شديدة التعقيد، لكنه قادر على التفكير فى حدود ضيقة(٣). وليس على وجه الإطلاق، لأن للعقل العديد من الحدود، وحوله الكثير من الحواجز.

من المؤكد أن المذهب العقلى له تاريخ قديم، وأنه قد بحث عن المعرفة بحثا دقيقا، وفى نفس الوقت فقد كان أرسطو من أصحاب المحاولات القديمة فى هذا الشأن(٤)، يدل على ذلك قوله : أن البحث ما لم يرتبط بالنتائج التى يفضى إليها العقل الصحيح، فإنها تكون نتائج غير صحيحة، ومن ثم أطلق على التفلسف اسم النظر العقلى الخالص.

---

١) دكتورة / فوقية حسين محمود : مقالات فى أصالة المفكر المسلم، ص١٣-١٤، ط اولى، ١٩٨١م.

٢) كيمنى أرثر : الفيلسوف والمعرفة، ص٣١٥، ترجمة امين أبو المجد، بيروت، ١٩٦٣م.

٣) راجع كتابنا : التفكير الإنسانى أصوله ومستوياته، ص٨١.

٤) جون كيمنى : الفيلسوف والعلم، ص٣١٨، ترجمة . د. امين الشريف.

يقول : ان المعرفة على أنواع مختلفة، فهناك المعرفة التى تنتج كافة الخبرات اللازمة فى الحياة، وهناك المعرفة التى نستخدمها، وثمة تقسيم آخر للمصادر المعرفية والنتائج المترتبة عليها، فهناك أنواع المعرفة التى تخدم وتطيع، وهناك الأنواع التى تأمر، والأنواع الأخيرة أعلى درجة[١]، وفيها يكمن الخير بمعناه الحقيقى، ولما كان هذا النوع الوحيد من المعرفة الذى يتوصل به للحكم الصحيح، ويستخدم العقل، ويُضع الخير فى مجموعة نصب عينيه أو بالفلسفة، لأنه الذى يستطيع الانتفاع بسائر أنواع المعرفة وتوجيهها، وفق قوانين الطبيعة، فقد دل الأمر على أن المعرفة العقلية هى أرقى المعارف وأوثقها[٢].

أما بعدها فإنه يكون تابعاً لها، ولا عبرة بوضعه من كونه قائماً إلى الأمام أو الخلف.

فالمعرفة العقلية عند هؤلاء إنما تكون أعلى المعارف وأوثقها، وأحرى بأن تقلد كما يجب أن تتبع فى كافة الاتجاهات الفلسفية، ومن ثم انحصر مصدر المعرفة عند هؤلاء فى العقل وقدراته فقط. نظراً للاعتبارات أو المبررات التى ساقوها، وان كانت فى الحقيقة لا تجدى، كما أنها معارف ليس منها اليقين المطلق على ناحية من النواحى سوى الرياضية لأنها برهانية.

الثانى : المذهب التجريبى النقدى :

وهو الذى حصر المعرفة فيما يجيء عن طريق التجربة، التى يمكن تطبيقها عدة مرات، فتأتى النتائج اللاحقة مؤيدة للسابقة، وهذا المذهب يستعمل كلمة فلسفة وفيلسوف بما يتفق مع الاتجاهات العامة للمذهب نفسه، دليل ذلك : ما ذهب إليه "كارل ياسبرز الوجودى"[٣] من أن كلمة فيلسوف معناها : محبة المعرفة، أو امتلاك المعرفة، ففيلسوف وفلسفة عنده هى المعرفة التجريبية التى

---

١) يقصد بها الأنواع التى تأمر، وبناء عليه فإنها تكون ذات بعد معرفى متميز.

٢) ارسطو : دعوة للفلسفة، ص٣٢-٣٣، تحقيق بروتر بينتيوس، ترجمة الدكتور / عبد الغفار مكاوى، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧م.

٣) هو أحد الفلاسفة الوجوديين الذين عاشوا فى ألمانيا، وقد ولد بها، ثم تنقل بين الكثير من بلدان أوربا فى القرن التاسع عشر والعشرين، حيث ولد ١٨٨٣ بمدينة أولدنبرج بألمانيا ثم مات فى ١٩٦٣، ودرس القانون والطب، وكانت له مشاكل عديدة فى حياته، ومن أشهر مؤلفاته كتاب فلسفة وهو فى ثلاثة أجزاء : الأول عن الحقيقة، والثانى عن العقل والوجود، والثالث عن الإنسان فى العصر الحديث، كما له أصل التاريخ وهدفه، والروح الأوربية، وديكارت والفلسفة، ونيتشه والمسيحية، والقنبلة الذرية، ومستقبل الإنسانية، وغيرها من المؤلفات التى نقلت عنه، راجع لكارل يسبرز : سبيل الحكمة، المقدمة، ترجمة الأستاذ / فؤاد كامل، طبعة دار توفيق ١٩٧١م.

يتوصل إليها القادر عليها من خلال التجريبية النقدية[١]. وبناء عليه فالذى يتوصل إلى المعرفة هو الذى يقال عليه فيلسوف لسبب بسيط هو امتلاكه المعرفة.

كما أن الفلسفة عنده هى التى يبلغ بها الإنسان الحقيقة العلمية التى لا تنكر، ويسميها المعرفة الحقيقية، ويطلق على الناتج عنها اسم الأفكار الحية[٢]. على أساس أن غيرها الذى يجيء فى مواجهتها لا يمكنه الاتيان بما تقدمه ذات الفلسفة.

ولا يغرب عن دارس أن هذا المذهب له اتجاهان. أحدهما ينحو إلى المعرفة التجريبية وحدها من غير إهمال للمعارف الأخرى، بينما يجيء فريق آخر يتمسك بالمنهج التجريبى وحده، من غير اعتبار لشيء آخر، كالحال مع الوضعية المنطقية، والوضعية الطبيعية وما كان من هذا القبيل[٣].

أضف إلى ما سبق أن المذهب التجريبى النقدى الذى يحصر المعرفة فى التجربة وحدها قد أخفق اخفاقاً شديداً، أما لماذا، فلأنه يتجاهل ذات المعارف التى يدعيها، بدليل أنه يطعن على الاحتمالية، كما طعن على ذات المعارف التجريبية، بمعنى أنه ما دام المذهب التجريبى يحصر المعرفة فى التجربة، فإنه بذلك يكون قد حصر موضوع المعرفة أيضاً فى الظواهر الطبيعية، وليست كلها قابلة للتطبيق العملى، والتحقق من صدقها أو الوقوف على نتائجها[٤]. وحينئذ يكون قد هدم القاعدة الأساسية التى يقوم عليها بالنسبة لهذا الجانب المعرفى.

كما أن أصحاب هذا الاتجاه، التجريبى النقدى قد ألغوا الميتافيزيقا التأملية، وأطلقوا عليها اسم الميتافيزيقا التقليدية، وحذفوها تماماً من المعرفة، كما رفضوا أن تكون موضوعاتها داخلة فى هذا النطاق، بدليل قولهم أن الميتافيزيقا التقليدية لا يمكن حسبانها من المعرفة أبداً، وان لحتسبت معرفة فلا يمكن اعتبارها ذات قيمة علمية[٥]. وهو ما يجعل اتجاههم غير قائم على أسس موضوعية، كما أنه لا يقدم أمراً جديداً.

---

١) كارل يسبرز : العقل والوجود، ص٨١، ترجمة : حنان رشدى، ١٩٧١م.

٢) جان فال، وآخرون : التراث الوجودى، ص٦٧، ترجمة : فؤاد كامل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧م.

٣) راجع كتابنا : الوضعية بين المعقول واللامعقول، ص٢٥-٢٦، الطبعة الثانية، ٢٠٠٤م.

٤) الدكتور / السيد قناوى : السببية فى العالم، ص١٧٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٨م.

٥) راجع كتابنا : الوضعية بين المعقول واللامعقول، ص٣٢٠-٣٢١

وفى تقديرى أن المذهب التجريبى النقدى، يمكن اعتباره مذهباً صحيحاً بالنسبة للقضايا التجريبية وحدها، بحيث لا تطبق النتائج التى ينتهى إليها المذهب إلا على الاتجاه التجريبى بالذات، لأنه ان حاول إثبات وجوده فى المعرفة التى تقوم بعيداً عن موضوعات التجربة، فإنه يلغى بذلك الاتجاه العام الذى قام عليه، وهو أولى له، ما دام يمكنه أن يعود إلى الصواب، بحيث يهتدى أصحابه إلى الحقيقة الأساسية فى التفكير الفلسفى. وهى استفادة التجربة من التأمل لأنه إذا لم يكن هناك تأمل جاد، فلا توجد تجربة سليمة.

القسم الثالث : المذهب الإلهامى :

يرى أصحاب هذا الاتجاه أن مصادر المعرفة متواصلة مترابطة لا يمكن فصل بعضها عن الأخر، إلا بمغامرة تؤدى إلى تدمير الجميع، وحجتهم فى ذلك أن الحواس تصلح كمصادر معرفية، لكنها غير مضمونة على وجه الدوام، بدليل أنه ينشأ عنها بعض الشك والكثير من أوجه القصور[1]. بمعنى أن اللمس أو الشم أو الذوق فضلاً عن السمع والبصر، متى نظر إلى كل واحد منها على حدة أمكن اعتباره مصدراً معرفياً، وإذا نظر إليها جميعاً مؤتلفة اعتبرت مصدراً واحداً سمى المصدر الحسى فى المعرفة.

ثم ان هذا الاتجاه لا يرفض المعرفة العقلية التى تقوم على العقل كمصدر معرفى، لكنه لا يجعلها المعرفة الوحيدة التى تحوز الثقة، يقول الدكتور "صلاح فوزى" : ان المعرفة العقلية معرفة مهمة، لكنها ليست الوحيدة التى يوثق فيها، وإنما هناك ما هو أعلى منها وأعنى به الحدسالمعرفى، ويعنون به ما يقع فيه التوقع النفسى والقلبى[2].

بناء على هذا فإن أصحاب الاتجاه الإلهامى، هم أنفسهم الذين يعتقدون – بجانب ما سبق – فى كل من الإلهام الإلهى، والعلم اللدنى الذى تقوم أسبابه على الوهب الإلهى، لأنه يأتى للإنسان بعد اكتمال عقله، من غير أسباب تباشر ولا

---

١) راجع كتابنا / قضايا حبيسة فى الفلسفة الحديثة، ص٩٨-٩٩، ط الثالثة، ٢٠٠١م.

٢) الدكتور / صلاح الدين فوزى : الفلسفة الحديثة والمعاصرة، ج٢، نظرية المعرفة، ص٣٤-٣٥، ط أولى، ١٩٧٣م.

وسائل يمكن تحصيله بها، انطلاقاً من قول الله تعالى : ﴿ واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم ﴾ [١].

أضف إلى ما سبق أن الإلهام نوعان :

١- الإلهام العقلى والقلبى يقع لأصحاب النفوس ذات الرياضة الروحية، عن طريق ممارسة الرياضات البدنية، وما ينتج عنه يسمى التلبثاتى، كما يسمى الحدس أيضاً[٢]. وهو فى كل الحالات ناتج عن التصفية القلبية والروحية التى تعتمد لى سيطرة الداخل وهو القوى الباطنة، على الحواس وهى الوسائل التى تؤدى لما نوع من الاعاقة عن بلوغ الهدف، وهذا الاتجاه يقوم فى الفلسفة بجانب علم النفس العام.

٢- أما الجانب الثانى من الإلهام، أو المعرفة الإلهامية، فهو القائم على المنح الإلهية التى مرجعها إلى فضل الله تعالى أولاً، ثم ما يريده الله ثانياً، ومنه ما يقع على سبيل الفراسة[٣]، أو يقع على سبيل الكرامة، وكله من أفضال الله، ويقع عادة لأولياء الله وخاصته. وهو الذى يعنى به الصوفية وعلماء الأخلاق، بجانب أصحاب المدارس السلوكية القائمة على معالجة قوى النفس والعمل على توجيهها الوجهة السليمة.

وتبدو أيضاً فى ثنايا هذا الاتجاه الفلسفة الإشراقية التى تحصر المعرفة فى نطاق الومضات التى تفيض على قلب المرء وعقله، من لدن الله عز وجل مباشرة، ومن ثم فإن هذا الإلهام يكون أرقى من سابقيه[٤]، باعتبار المصدر، وكذلك النتائج التى تترتب عليه.

---

١) سورة البقرة، الآية ٢٨٢.

٢) راجع كتابنا : التفكير الإنسانى، أصوله ومستوياته، ص٧٨.

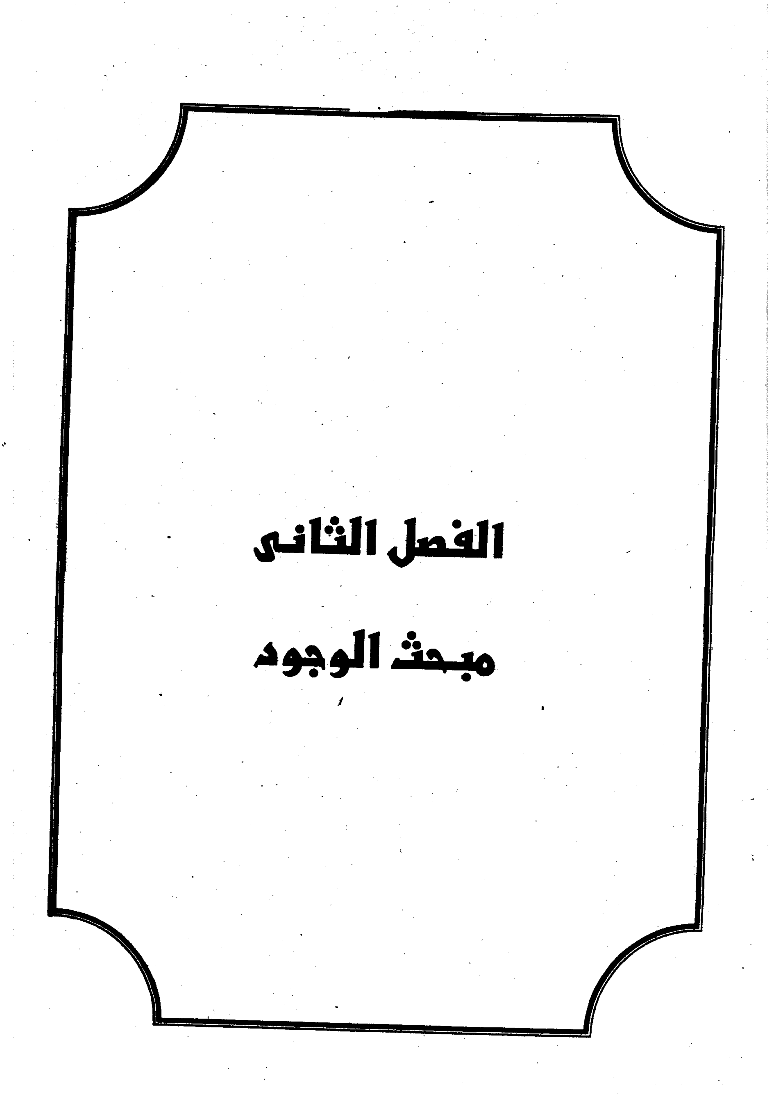
٣) فالفراسة أمر خارق للعادة، لكنها أنواع، منها الفراسة الخلقية التى تتعلق بعمل الأطباء وأصحاب قافة الأثر، ومنها فراسة رياضية أو بدنية، وهى تتعلق بركوب الخيل، والقدرة على احتمال الجسم لبعض المشاق التى لا يحتملها غيره، ومنها فراسة إيمانية أو قلبية، وهى نور يقذف به الله فى قلب العبد فيكشف له ما فى نفوس الآخرين، راجع كتابنا : الإيمان بالغيب وأثره على الفكر الإسلامى، ص٥٦٩، الطبعة السابعة.

٤) راجع كتابنا : منهج السلف الصالح فى إثبات وجود الله تعالى، ص٨٧، آل بسيونى.

فى نفس الوقت فإن المعرفة الإلهامية تتمسك بالنقل المنزل، لليقين بأن المعرفة القائمة على النقل هى المعرفة الصحيحة، التى لا يأتيها الباطل أبداً. وكيف لا وهى من عند الله تعالى جاءت، وفى كتابه وسنة رسوله بلغت، ومن أصدق من الله قليلاً.

ثم ان هذه المعرفة الإلهامية إنما تنظر أيضاً للنفس والروح، كما تنظر للنصوص الحاملة لها، فمـا كان منها يقبل التأويل، أمكن تأويله على الوجه المشروع، وأما الثانى فإنه يتم التصديق به على ما جاء، ثم التفويض فى الحقيقة إلى الله عز وجل.

وقد أفرد المسلمون للمعرفة النقلية – الوحيية – فى مؤلفاتهم العديد من الصفحات، كما جعلوا حولها كثرة من الدراسات، تهدف كلها إلى إبراز المعرفة القائمة على المصدر النقلى، وتؤكد أن هذا المصدر هو الوحيد الذى يحوز اليقين المطلق، ويجب الأخذ به فى كل مراحل التفكير الصحيح.



الفصل الثانى

مبحث الوجود

يعتبر مبحث الوجود أحد المباحث الهامة التى تقوم عليها ميادين الفكر الفلسفى، حتى أن البعض من المفكرين يجعل مبحث الوجود سابقاً على مبحث المعرفة فى الطبع، وبالتالى يؤكد على أنه يجب تقديمه عليها فى الوضع، باعتبار أن المقدم فى الطبع يجب أيضاً أن يتقدم فى الوضع[1].

غير أن البعض من المفكرين المخالفين لسابقيهم فى الرأى ينعى هذا الجانب ويعيبه، على أساس أن المعرفة هى الإحاطة بحقائق الأشياء ومنها الوجود فتكون هى الأعم وهو الأخص، وبناء عليه ذهبوا إلى ضرورة تقديم المعرفة على مبحث الوجود، بل صار كل يعيب الآخر وليس ذلك شأن أصحاب التفكير العقلى، ومن ثم يمكن أن يقع اللوم على الجميع، وهنا أردد قول الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان :

نعيب زماننا والعيب فينا ... وما لزماننا عيب سوانا
وليس الذئب يأكل لحم ذئب ... ويأكل بعضنا بعضاً عيانا
ونهجوا فى الزمان بغير ذنب ... ولو نطق الزمان بنا هجانا[2].

غير أن البحث فى الوجود يستلزم تناول موضوعات كثيرة : منها ما يتعلق بتعريفه من ناحية المفهوم والدلالة، ومنها ما يتعلق بطبيعته من حيث هو مركب من روح أو جسد، أم هو مركب منهما معاً، أم هو بعيد عن المادية والروحية، ومنها : ما يتعلق بالصور التى يجيء عليها باعتبار القدم والحدوث، ومن ثم فإن مبحث الوجود، أو نظرية الوجود تعتبر من أكثر المشاكل الفلسفية جدلاً، وأخطرها على العقيدة أثراً[3]، بدليل أن البحث فيها لم ينقطع، وربما يستمر فترات طويلة فى المستقبل، ما دام هناك فلاسفة يضعون فى مباحثهم الفكرية ومناهجهم العلمية طبيعة البحث الفلسفى، ومن ثم فإنى سأضع فى الحسبان تناول النقاط التالية :

---

١) يقصد بالطبع الفطرة التى خلق الناس عليها، أما الوضع فيقصد به الجانب الذى يقع به التأليف فى الأبحاث العلمية.

٢) الشيخ / عبد المعطى ابن سالم السملاوى : البهجة السنية لشرح القصيدة الزينبية، ص٣٤، المطبعة المحمودية بالقاهرة، ١٣١٨هـ .

٣) راجع كتابنا : رياض الأشواق فى الميتافيزيقا والأخلاق، ص٢٨٥، ط الرابعة.

أولاً : تحديد المراد بمبحث الوجود :

يذهب البعض من الدارسين إلى أن مبحث الوجود هو ما يتعلق بما سوى القضايا التى تتعلق بالقيم والمعرفة(١)، غير أن هذا التعريف لا يفيد جديداً، لأنه يعتمد على جزأين آخرين من أجزاء البحث الفلسفى، وأعنى بهما نظرية المعرفة ونظرية القيم، والمفروض فى المفهوم أن يكون واضحاً، لأن الهدف من التعريف تحديد المعرف تحديداً لا يقع معه لبس فى الذهن مع شيء آخر.

وذهب أهل الإسلام فى تعريف الوجود، مذاهب تتفق مع الاتجاه العام لكل فريق على حدة، بدليل أن الصوفية يعرفون الوجود بأنه :

- فقدان العبد بمحاق أوصاف البشرية، ووجود الحق لأنه لا بقاء للبشرية عند ظهور سلطان الحقيقة(٢)، وإنما الوجود الباقى هو وجود الله عز وجل، وعليه يعول هؤلاء ولا يسمحون بشيء بعده.
- كما يعرف بأنه ما ليس بمعدوم، لكنه معلوم(٣). فكل موجود يقع معلوماً، أما المعدوم فإنه لا يعرف إلا بكونه قد انتفى وجوده.

وذهب الفلاسفة إلى تعريف الوجود بأنه ما يمكن الوقوف عليه خلال الواقع نفسه، على أساس أن فلسفة الوجود إنما تمثل المرحلة المتقدمة بالنسبة للفكرة، ومن ثم فرقوا بين الوجود والماهية، وقالوا : إننا لا نستطيع الانتقال من الماهية إلى الوجود، فالوجود ليس كمالاً، وإنما هو وضع ثابت، وقد مال إلى هذا التعريف الأخير جملة من الوجوديين أشهرهم : القديس أوغسطين، وباسكال، وكيركجور، ويسبرز، وغيرهم(٤).

وذهب الفلاسفة العقليون إلى أن الوجود، وهو الوضع الثابت الذى يقع للعقل دفعة واحدة وليس من السهل إنكاره إلا إذا تعلق بالنفى أو العدم على ناحية ما(٥).

---

١) الدكتور / حسن شلبى، نظرات فى الفلسفة العامة، ص٣١-٣٢، ط أولى، ١٩٦١م.
٢) السيد الشريف الجرجانى : التعريفات، باب الواو، ص٢٢٣، ط الحلبى، ١٩٣٨.
٣) الشيخ / محمد منصور عبد العال : مباحث فى الوجود والماهية، ص١٣، ط أولى، الدار الميمنية، ١٢٩٨هـ.
٤) جان فال : من تاريخ الوجودية، ص٨-٩، ترجمة : هدى زكى، ط بيروت، ١٩٨٣م.
٥) بوتسكى : الوجود المعقول، ص٨٣، ط أولى، ترجمة الدكتور / عبد العزيز رضوان.

علـى أن مبحـث الوجـود يسـمى لـدى الدارسـين باسـم "الأنطولوجيـا"، ويستخدمه البعض من أهل الإسلام وغيرهم على أنه دليل يثبت من خلاله وجود الله تعالى، لكن فكرة الوجود افترقت عن تعريفه أو مفهومه على مدى التاريخ الفلسفي[1]، طبقاً للاتجاه العام الذى قام فيه الوجود كفكرة فلسفية على الأشكال التى تبين عن العلاقة بين التعريف للشيء وبين ذات الشيء من خلال الوجوه الآتية :

أ – الوجود هو المعلوم   ب- الوجود هو المعدوم

جـ- الوجود هو الماهية   د – الوجود نقيض الماهية

هـ- الوجود هو الفكرة الثابتة المحددة تحديداً فنياً

والملاحظ أن هذه التنوعات والجوانب الفكريةإنما أخذت الطابع الفنى عندما ارتبط البحث الأنطولوجى بالاكسيمولوجى، أو بعبارة أخرى : عندما اشترك البحث فى الوجود، مع البحث فى المعرفة من خلال الإنسان ذاته، طبقاً للمفاهيم التى رآها محققة معه ذات الغاية.

لكن هناك مسألة هامة متعلقة بهذا الجانب، ترجع إلى طبيعة الوجود حسب المفاهيم التى وقفوا عليها، فبعضهم نظر إلى الوجود المادي، ومن ثم رأى فريقٌ منهم أنه مكون إما من عنصر واحد من عناصر المادة، وأطلق على أصحاب هذا الاتجاه اسم : أصحاب المذهب الواحد فى تفسير نشأة الكون أو نشأة الوجود، سواء أكان نوع المادة هو الماء وحده أم التراب، أم الهواء، أم النار، المهم أنه مبدأ واحد يمكن تفسير نشأة الكون به، واعتباره الأساس فى تعريف الوجود[2]. وقد حقق الباحثون فى هذا الميدان نتائج متعددة.

وعلى عكس أصحاب ارجاع الوجود إلى عنصر من عناصر المادة، ظهر اتجاه أصحاب المذهب الواحدى الروحى فى تفسير نشأة الوجود، بحيث يكون مناقضاً تماماً للمذهب السالف، أو على الأقل يمكن القول بأن كلا منهما قد أخذ طريقاً متباعداً عن الآخر تمام التباعد، بدليل أن أصحاب المذهب المادى الواحدى

---

١) راجع كتابنا : رياض الأشواق فى الميتافيزيقا والأخلاق، ص٢١٢.

٢) راجع للدكتور / توفيق الطويل : أسس الفلسفة، ص١٤-١٥، وكذلك للدكتورة / فوزية صلاح الدين : الفلسفة الحديثة، ص٤٥، ط أولى، ١٩٨٢م.

لم يسمحوا لشيء آخر بحيث يكون له وجود بجانب ما اعتنقوه، فى ذات الوقت ظهر أصحاب المذهب الروحى الواحد فى تفسير نشأة الوجود، فأهدروا المادة تماماً، كأنه لا وجود لها، وهو ما يفسر مقاتلة كل من الطرفين للآخر، إلى حد الرغبة فى القضاء عليه(١).

كما أن قد ظهر المذهب الثنائى فى تفسير نشأة الكون، ويسمى عند البعض باسم مذهب الثنائية فى تفسير نشأة الكون، وهو يقوم على أن الوجود مكون من مادة وروح، ماهية وحقيقة، وأن هذا التكون الثنائى هو الذى يقوم عليه الوجود كفكرة فلسفية، ثم تتطور الهدف الذى قام عليه هذا الاتجاه حتى انتهى إلى : اعتبار أن الوجود له جانبان :

أحدهما ذهنى : يتمثل فى العقل وقدراته التى تتسع فتشمل أشياء كثيرة،

وثانيهما : خارجى، يتمثل فى الطبيعة العامة للوجود ذاته، ثم جاء تاريخ الفكر الفلسفى لينقل هذه الثنائية إلى معنى آخر، ومذهب مستقل يهدف إلى إبراز قيمة وجود الفرد، بحيث تقوم عليه الحرية المطلقة، كما يسعى الإنسان لاتخاذ موقف معين يتحقق به وجوده الكامل(٢).

ويبدو لى أن ظهور فريق ثالث جمع بين الثنائية المادة والروحية، سالفة الذكر، ثم أضاف إليها القدرة الإلهية، على أساس أنها الفاعلة فى الوجود، أو هى التى يستند إليها كافة الوجودات، كما أنها التى يرجع إليها فى كل ما يتعلق بجميع العدمات، وقد برز ذلك الاتجاه لدى المفكرين المسلمين على وجه الخصوص(٣).

من ثم يمكن تفسير القول بأن تحديد مفهوم الوجود، كمبحث فلسفى أنطولوجى ما يتعلق بالكون على أساس النشأة والاستقلال، وقد يتسع هذا التعريف فيشمل العالم المشاهد والغائب، وعند التطبيق فإنه ينصرف إلى الوجود المخلوق الذى يمكن تقديم دور للفكر الفلسفى عند التعرف عليه.

---

١) راجع كتابنا : التفكير الإنسانى أصوله ومستوياته، ص٧٥-٧٦، حيث تعرضت لبيان ذلك فى شكل تفصيلى، وكذلك كتابنا : قيمة الصراع بين الفلسفة الإسلامية وعلم الكلام، جـ٢، ص٤٣، الطبعة الأولى.

٢) الدكتور / صبرى محمد نصر : الفلسفة القديمة والحديثة، ص١٨١، ط أولى، ١٩٦٥م.

٣) راجع كتابنا : رياض الأشواق فى الميتافيزيقا والأخلاق، ط الخامسة، الشروق ١٩٩٩م.

ثانياً : علاقة مبحث الوجود بما بعد الطبيعة :

سلف القول بأن تعريفات الوجود تتسع فيجيء معها الموضوع، وتتعدد الغايات، أو تضييق التعريفات فتضيق معها أيضاً الموضوعات التى يقوم فيها التعريف، لكن عند التوسع فى الاستعمال، يكون مبحث الوجود أعم لأنه يشمل كافة أنواع الوجود، يستوى فى ذلك العالم الغائب والمشاهد(١)، بل يشمل كل ما سوى الله عز وجل، ومن ثم فإن العلاقة بين الوجود وما بعد الطبيعة تأخذ صوراً عديدة، وتجيء فى أشكال مختلفة من أبرزها ما يلى :

الأولى : العموم والخصوص :

من حيث أن مبحث الوجود، على ما سلف فى التعريف، قد ينصرف إلى وجود العالم المادى وغير المادى، أو المشاهد والغائب، فإنه يكون أعم من ناحية التعريف والموضوع، من ما بعد الطبيعة كمصطلح، على أساس أن مفهوم ما وراء الطبيعة يقصد به أحياناً الميتافيزيقا التأملية، وهى المتعلقة بما وراء المحسوسات، ويعنون بها المطلق، كما يعنون بها العلة الأولى، والمبدأ الثابت فى الفكر الفلسفى، بينما يقصد بها فى الدراسات الفلسفية الإسلامية، ما يتعلق بذات الله وصفاته، والعالم الغائب على وجه الخصوص(٢).

وحيث أن مفهوم العالم الغائب متسع جداً، فإن مفهوم ما وراء الطبيعة يكون متساوياً تماماً مع مفهوم الميتافيزيقا التأملية، عندنا نحن المسلمين، ولدى كل المتدينين، مع اختلاف فى طريقة الإثبات، والجزئيات التى يقع عليها التصديق، فما وراء الطبيعة يكون أخص من مفهوم الوجود على تلك الناحية، والمقصود بمفهوم العموم والخصوص هنا، إنما ينصب على الجانب المتعلق بالدراسة وحدها.

الصورة الثانية : طريقة التناول :

الوجود كمبحث فلسفى يتم تناوله بطريقتين :

إحداهما : مادية تقع فى العالم المشاهد وتنصب عليه، بحيث يكون هو موضوعها الخالص.

---

١) راجع كتابنا : الفلسفة الوجودية، ص٩٢، ط ثانية، ١٩٨٧.

٢) راجع كتابنا : رياض الأشواق فى الميتافيزيقا والأخلاق، ص٢١٢، وكتابنا : منهج السلف فى إثبات العقيدة الدينية، ص٨٣-٨٤.

والثانيـة: غير ماديـة لأنها تتعلق بالعـالم الغائب، بينمـا مصطلح مـا وراء الطبيعـة تتم دراسته من خـلال طريق واحد مـأمون، يعرف بـه، ويسمح بدراسـة بعضــه مــع ضــمانه الأكيـد حتـى ان العقـل يضـل ولا يشـقى، وهـو طريـق النقـل المعصوم[1].

ولا شك أن الوجود على ما هو موجود وبمـا هو موجود، إنمـا يختلف من حيـث النـاظر إليـه طبقـاً للقـدرات العقليـة، والفـروق الفرديـة، بجانـب التراكمـات الذهنية، وهو ما يعنى اختلاف الدراسة، وطريقة المنهج، ذلك أن الجزئيات المعنـى بها الفيلسوف فى مبحث الوجود، إنمـا هـى مـا يتعلق بالماهيـة، وكونهـا معلومـة أو موهومة، أو معدومة بالنسبة للوجود نفسه. بجانب المحاولة القائمة والدائمة لتفسير نشأة الكون، وطرائق المحافظة عليه، بجانب الاستمرار.

أما ما بعد الطبيعة فإنه يقترب – مفهوم – من التحديد على صـورة يمكن الوقوف عندها لدى المتدينين، وبخاصة نحن أهل الإسلام فى سهولة ويسر، لأنه ما من دارس يتعرض لما بعد الطبيعة بالبحث، مستهدياً بالنقل المنزل، إلا حقق أعلـى صـور التقدم.

الصورة الثالثة : الغايات :

مـن المؤكد أن مبحـث الوجـود يمكـن الوقـوف علـى جزئياتـه، فـى العـالم المشاهد متى أمكن للمرء ذلك، بل ان هذا الإمكـان ربمـا جـاء علـى سبيل الحصـر الدقيق، ومن ثم قـالوا : ان كافـة الوجودات معلومـة، ومعنـاه : أنهـا محصـورة فـى كلياتها حصراً دقيقاً[2]. وكلمـا أمكن لدارس معرفـة هذه الجوانـب فإن الغايـة التـى يسعى إليها تكون دانية منه، متحققة بالنسبة له.

يستوى فى ذلك بحثه عن هذه الموجودات وأن يكون وجودها وجوداً حقيقياً فى الذهن والخارج، أو فى الذهن فقط، على أساس أن الخيال قد يعطـى لـه صـورة،

---

١) لمزيـد مـن التفاصـيل راجـع للـدكتورة / نـازلى إسـماعيل، الفكـر الفلسـفى، ص٧٣-٧٤، الدكتورة / فوقية حسن محمود : الفكر الفلسفى الإسلامى، ص١٣٥، ط زريق.

٢) الدكتور / محمد عبد العظيم رجب / الفلسفة الإسلامية بين التقليد والأصالة، ص٨٣، ط أولى ١٩٦٢م، منشأة المعارف بالإسكندرية.

أو وجود فى الذهن والخارج معا، وهو ما يعنى تلاقى الثنائية السالفة فى طريق واحد.

ويبدو لى أن تاريخ الفكر الفلسفى، قد نهض فى وقت متقدم إلى بحث ما وراء الطبيعة، فأمكنه التسليم بوجود بعضها، كما أمكنه الوقوف على مفرداتها، ومن ثم سلم بها على ناحية من المناحى، أو صورة من الصور، ربما قدر لها أن تظهر قوية، او أن تبدو ضعيفة، لكن الثابت هو وقوف الفكر الفلسفى الإسلامى على النقل المنزل، وبالتالى أمكن لهؤلاء المفكرين المسلمين التعرف على ما وراء الطبيعة بالمفهوم الميتافيزيقى التأملى والنقدى أيضاً لكن من خلال نصوص شرعية.

بدليل حديثهم عن الروح والنفس والعقل، وما يتعلق بهذا الجانب الذى جاء القول الفصل فيه من قبل الحق جل علاه كم أن الأمر بالبحث فيه قد جاء من عند الله تعالى، وجاء فى البعض الثانى أمر بالتصديق النقلى، وأن يقع ذلك فى القلب أعلى موقع، أما الحقيقة فيفوض الأمر فيها لله – تعالى – على أساس أن ذلك من الأمور التعبدية وليس من الأمور التعقلية.

فالأمور التعقلية هى ما جاء بها لسان الشرع أمراً أو نهياً، افعل أو لا تفعل، حلا أو حرمة، لكن العقل الصحيح أمكنه إدراك هذا الوجه، كتحريم أكل لحم الميتة[1]، وغيرها مما نص عليه الشارع الحكيم، واستطاع العقل السليم الوقوف على بعض تلك الأسرار أو كلها وهو ما يعرف باسم المعقول المعنى. فكل حكم شرعى أمكن الوقوف على أسباب الحل أو التحريم بالنسبة له إنما يكون مقبول المعنى.

---

١) حيث يذهب علماء الأحياء إلى أن الحيوان يحتفظ فى جسمه بمادة الباولينا السامة لتكون بمثابة وسائل دفاعية بالنسبة لجسمه، وأنه يفرز منها ١٥% عن طريق التبول، أما نسبة ٨٥% فإنها لا تسقط إلا بالذبح، فيقع لجسم الحيوان الطهارة وهو ما يعرف فى الإسلام باسم : تذكية الحيوان / راجع للدكتور / محمود أبو خشبة : نصوص قرآنية ومواقف علمية، ص١٣-١٤، ط أولى، بغداد ١٩٧٨، مراجعة الدكتور / عزت الشراربي، والدكتور / خالد الشيباني.

أما الأمر التعبدى : فهو ما جاء به الشارع الحكيم، وهو أعلى من طاقات العقل كلها، وقد جاء ذلك ابتلاءً من الله تعالى، واختباراً لإيمان العبد، واستمراره فى طريق الطاعة، أو انفلاته إلى طريق الشيطان، ويعرف باسم : الحكم الشرعى التعبدى فى المعنى، ككون صلاة الصبح تجيء فى ركعتين، بينما الظهر يجيء فى أربع ركعات، والعصر فى أربع ركعات، أما المغرب فإنه يصلى ثلاث ركعات، بينما العشاء تجيء فى أربع ركعات، وكذلك نقوم أثناء أداء فريضة الحج بتقبيل حجر ورمى أحجار، هى جمرة العقبة الكبرى والوسطى ثم الصغرى، فإنها جميعاً غير معقولة المعنى، وإنما داخلة فى نطاق الأمر التعبدى.

يدل على ذلك قول سيدنا عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – أثناء تقبيله الحجر الأسود : والله إنى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع – ولولا أنى رأيت رسول الله ﷺ - يقبل ما قبلت[1]. لكن المؤمن يعتقدها، ويصدق بصحتها من باب الإيمان بالغيب الذى جعله الله ابتلاء للمكلفين.

الصورة الرابعة : توافق المبادىء والمقدمات :

الباحثون فى الفكر الفلسفى على الناحية المتميزة يضعون له مقدمات بحثية، متى كان بحثهم متعلقاً بالوجود كفكرة ذهنية، فإذا ما أرادوا تناول ما وراء الطبيعة بالبحث استخدموا أيضاً مبادىء ومقدمات، هى نفسها التى جاءت معهم أثناء بحث الوجود، لكنها فى الغالب تفضى بأصحابها إلى نتائج غير صحيحة، أما لماذا؟

فلأنهم لم ينظروا إلى هذه الموجودات على أن لها موجداً، وإنما نظروا إليها من باب أنها أصول ثابتة، حتى توهم البعض أنها خلقت نفسها أو هى الخالقة للجميع، وفى هذا إهدار لمسئولية الخلافة التى جعل الله الإنسان يقوم بها، لما هو معروف من أن الخلافة التى يقوم بها الإنسان فى الأرض إنما يتبعها أمر التفكير فى الوجود ككل لأنه التكليف المنوط بذات الإنسان المستخلف – فهى تكريم للإنسان من حيث أن الله قد وضعه فى أعلى مقام، وهى تكليف يقتضى القيام بمسئولية وظيفة ذلك الإنسان، ومهام استخلافه، فإذا أساء التكليف فقد التكريم،

---

١) الشيخ محمد عبد العظيم منصور : الفكر الفلسفى ودوره فى تفهم النقل المنزل، ص٢٣، ط الجماهيرية العربية الليبية، ١٩٨١م.

وهبط إلى مستوى الحيوان، ومن ثم تختلف نتائج العقل الذى فكر بـه، كما تختلف أحوال ذلك الإنسان[١].

يدل على ذلك قول الله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴾[٢].

والمعنى أن بنى الإنسان نوعان، أحدهما متى ابتلاه الله بالصحة والمال والعلم فإنه يحمد الله على أن ما منحه من قبل الله إنما هو إكرام له وتكريم أيضاً، ثانيهما متى ابتلاه بما يستوجب الصبر حزن وبكى وأعلن أن الله تعالى قد أهانه، وهو تصور ساذج لأنهما – ما يستوجب الشكر، وما يستوجب الصبر – من عند الله تعالى وحده.

وفى تقديرى أن صور العلاقة بين مبحث الوجود، وما بعد الطبيعة يمكن أن تتجاوز ما سلف ذكره بمراحل كثيرة، لأن هذه الوريقات لا يقصد من خلالها إثبات هذه الصور، وبحثها على نطاق واسع، وإنما يمكن النظر إليها على أنها مفاتيح يستطيع طالب العلم المزيد حتى يتمكن من الوقوف عليها، ولا مانع من أن تكون هى الخطوة الأولى التى تعقبها خطوات أوسع، فى سلم البحث الأنطولوجى، وعلاقته بالقضايا الميتافيزيقية ذات الاتجاه المعرفى.

ربما يقال : لماذا هذا الذى قلت؟

والجواب : أن ما وراء الطبيعة مصطلح يطلق بالمعنى الشرعى على العالم الغائب، بينما يطلق فى العلوم العقلية، وبخاصة الفلسفة على جانب محدد يمكن تسميته اللامادى أو اللامرئى، وحيث أن هذا الإطلاق سار عند أصحابه، فقد أكدوا على أن العلوم الطبيعية هى التى تقابل العلوم الماوراء الطبيعية، وعرفوا الأولى : بأنها كل دراسة تتناول الظواهر الجزئية، بمناهج الاستقراء التى تستند إلى الملاحظة، وتستهدف وضع قوانين عامة تفسر بها هذه الظواهر تفسيراً علمياً[٣].

---

١) الدكتور / احسان عسكر : وظائف التبليغ القرآنى، ص٤٢٤، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ ١٩٩٢م.

٢) سورة الفجر، الآيتان ١٥-١٦.

٣) الدكتور / توفيق الطويل : العلم والعرب فى عصر الإسلام الذهبى، ص٢٦٠، ضمن كتاب : قضايا من رحاب الفلسفة والعلم، دار النهضة العربية.

كما أطلقوا على العلوم الماوراء الطبيعة تعريفاً هو : كل دراسة تتناول العالم غير المرئى بالمناهج التى تتناسب معه بحيث تكون تلك المناهج مؤدية بمن يستخدمها إلى نتائج صحيحة(١). من وجهة نظر القائمين على هذه المباحث أو الاتجاهات الفلسفية.

والذى يمكن الانتهاء إليه هو أن علاقة مبحث الوجود بما وراء الطبيعة ستظل أمراً مهماً، وبخاصة أن الفلسفة قد انفردت بالبحث فى الوجود اللامادى ولواحقه، وأطلقت اسم العلوم الفلسفية على المنطق والأخلاق والجمال، وأظهرت أن وظيفتها وضع معايير التمييز بين الصواب والخطأ، والخير والشر، والجمال والقبح، ثم نزعت هذه الفلسفة عند جمهرة من المحدثين إلى اصطناع المناهج التجريبية، لدراسة قيم الحق والخير والجمال، كما تبدو فى الواقع، وليس كما ينبغى أن تكون بالنسبة للمثل العليا(٢).

ولا يغربن عن دارس أن بحث هذه العلاقات لم ينقطع، وأن دور العلماء فيها على الناحية البحثية لم يتوقف، بدليل وجود العديد من الآراء والنزعات المادية والروحية، التى تهتم ببحث العلاقة الرابطة، أو الفاصلة بين الوجود وما بعد الطبيعة.

ثالثاً : عرض نماذج من الآراء المختلفة ومناقشتها :

من الواضح أن فى مسألة مبحث الوجود آراء عديدة، بعضها يرجع للمذهب الواحدى، وبعضها مرده إلى المذهب الاثنينى، بينما تظهر اتجاهات أخرى تحمل آراء متباينة أشد التباين، والباحث متى أراد حصر تلك الآراء والتعرض لأدلتها على الناحية التى جاءت لدى كل فريق ربما احتاج وقتاً طويلاً، واستفرغ جهداً أكبر، غير أن هذه الوريقات لا تحتمل ذلك التوسع، ومن ثم فسيكون الحديث حول نقطتين اثنتين :

النقطة الأولى : آراء أصحاب المذاهب المادية ومناقشتها :

يذهب هذا الفريق إلى أن الوجود إنما هو القائم على المادة وحدها، إذ المنبث فى الكون إنما هو المادة، سواء أكانت هذه المادة من جنس الصلب أم من جنس السائل، أم كانت من جنس الغاز، بل يذهبون إلى أن الإنسان بعواطفه

---

١) الدكتور / حسن محمد طه : نظرات فى الميتافيزيقا التأملية، ص٣١، ط أولى، ١٩٤٦، وكذلك للدكتور / توفيق الطويل / قصة النزاع بين الدين والفلسفة، ص٤٣، ط الثالثة.

٢) دكتور / توفيق الطويل : قضايا من رحاب الفلسفة والعلم، ص ٢٦٠.

وانفعالاته إنما يمثل أحد المظاهر الطبيعية للمادة ذاتها في أشكالها وصورها المعلومة لدى علماء الطبيعة[1].

كما أن التحولات التي تتم في المادة وصورها المختلفة، إنما هي تحولات طبيعية، تتم في طريقة ديناميكية آلية، لا تحتاج إلى شيء وراء ذلك، في نفس الوقت فإن الخبرة الذاتية تعبر هي الأخرى عن صورة تجريبية، يمكن أن ترتد إلى المادة في شكل من أشكالها، حتى إن الحديث عن وجود شيء ما وراء الخبرة الحسية إنما هو حديث فارغ عن المعنى[2]. ولا يمكن النظر إليه، أو الحكم عليه إلا من ذات الناحية.

بمعنى أن كل ما يتعلق بهذا الجانب الفكري، لا يمكن حسبانه بعيداً عن المادة حتى وإن كان من خلال صورة يتمثل فيها الفكر أو العواطف، فضلاً عن الخيال، فكلها ارتدادات أو ترددات لآثار فكرية، لكنها معبرة عن توجهات مادية خالصة، وهو ما يعرف باسم الأثر المادي الناشيء عن مؤثر له صورة قريبة من الشبه تجمع بينهما فيه.

أضف إلى ما سبق أن المادة – أيا كانت صورتها – يمكن التجريب عليها، ومتى نظر المرء إلى ما حوله أدرك يقيناً أن ليس سوى المادة، أما ما وراءها فلا يمكن حسبانه أو الاعتراف به، فضلاً عن تصديقه أو الإيمان به. ومن المؤسف له أن الفلسفة التقليدية تؤمن بهذا الفكر[3]، في الوقت الذي ترفضه الفلسفة أو الميتافيزيقا المثالية.

ثم ان المادة في صورتها الأولى لا تخرج عن الأفكار المعتنقة، بمعنى أن كل فكرة ذهنية مستمدة من موجود حسي، بدليل أن أي مفكر إنما يرسم صورة فكره هو من خلال ما هو معايشه في أرض الواقع، يستوي في ذلك العشاق

---

١) الدكتور / منصور محمد علي صبح : الفكر المادي وصورة الحديثة، ص٣١، ط أولى، ١٩٧٣م.

٢) الدكتور / زكي نجيب محمود : نحو فلسفة علمية، ص٣٩، مطبعة الأنجلو المصرية، الأولى ١٩٥٨م.

٣) كارل ماركس : بؤس الفلسفة، ص٢٣، ترجمة أندريه يازجي، طبعة دار اليقظة العربية بسوريا.

المحبون، والكارهون القادحون، ومن ثم فكل ما لا يدخل تحت الحس لا فعلاً ولا إمكاناً لا يمكن قبوله(١). وقد اسرفوا على أنفسهم في بسط هذه الأقوال، بجانب تقديم الأدلة المتكاثرة عليها.

ثم ان الروح والنفس لدى أصحاب هذا الاتجاه ما هي إلا مظاهر ترديدية، يمكن اعتبار أي منها بديلاً عن الآخر، أو انهما شيء واحد، ونقل الأشعري أن الأصم كان يخلط بين النفس والجسم ويعلن أنهما شيء واحد، حين يقول : النفس في هذا البدن بعينه لا غير، وإنما هذا الذكر على جهة البيان والتأكيد لحقيقة الشيء لا على أنها مغايرة للبدن مغايرة تامة، تؤكد وجود تباين في الجانبين(٢).

ولعل هؤلاء قد فاتهم حسبان العقل والضمير، بجانب الروح والنفس من المحسوسات، فاستحقوا الوسم أنهم وقعوا في الضلال، لأن الله في نظرهم إما أن يكون موجوداً في مادة أو أن لا يكون موجوداً، وهم في الحالتين كفروا بالله، وآمنوا بما سواه، أما أنا وجماعة أهل الإسلام فإننا نردد ما قاله صاحب العقل السليم :

من لي سواك أحبه أو أعشق ... ولك الملاحة والجمال المطلق
وكل حسن أنت روح وجوده ... وعليه من معنى بهائك رونق
ما القد ما الطرف الكحيل وما اللمى ... لولاك تشهد في حلاه وترمق
وجميع ما في الكون من مستحسن ... فإليك نسبته وباسمك ينطق
رقت حواشي الحسن منك فأهله ... قتلى هواك وكلهم لك يعشق
من مات في دير الهوى بك صبوة ... نال الشهادة وهو حي يرزق(٣).

كما أن التحليل الدقيق لأي عبارة من العبارات عندهم، أو لفظ من الألفاظ يبين أن الوجود هو المادة فقط، وأن المعرفة الإنسانية التابعة لذات الوجود، إنما هي وليدة حاسة، أو يمكن أن نرتد بها إلى الحس نفسه، بل إنا إذا أردنا أن نحلل

---

١) الدكتور / زكي نجيب محمود : خرافة الميتافيزيقا، ص١١.
٢) الامام أبو الحسن الأشعري : مقالات الإسلاميين، جـ٢، ص٢٧.
٣) الشيخ / عبد الرحمن محمد الأنصاري، ابن الدباغ، كتاب مشارق أنوار القلوب ومفاتح أسرار الغيوب، ص٥٧، تحقيق هـ. ريتر، ط دار صادر بيروت.

فكرة ما، لنرى إن كان قد تم بناؤها بطريقة مشروعة، أو لم يكن الأمر كذلك، رددناها إلى أحداثها التى تأثرت بها حواسنا المختلفة، من ضوء وصوت وصلابة، حتى إذا ما وجدنا بين عناصرها عنصراً لا يرتد إلى حاسة بعينها عند اكتسابه بادىء ذى بدء، حكمنا أن الفكرة باطلة فهم يجعلون الواقع المادى التجريبى هو الفيصل فى المسألة بغض النظر عن أى اتجاه آخر[1].

من المؤكد أن هذا التيار المادى فى تفسير الوجود قديم مستحدث أيضاً، بدليل أن بعضاً من اليونان القدماء قد تبنى هذا الاتجاه[2]. ثم سار فيه حتى أسلمه لمن يمارسه ويدعو إليه الآن تحت أسماء وجهات مختلفة.

فى نفس الوقت زعم هؤلاء أن هناك فروقاً كثيرة بين حقائق العقل وحقائق الواقع، ونصبوا تلك الفواصل بغية انجاز المسألة التى علقوها على الحس والعقل، بل أكثر من ذلك أنهم اعتبروا حقائق الواقع داخلة فى نطاق الأخبار، أما حقائق العقل فإنها القضايا الضرورية البديهية التى لا تقبل التناقض سواء أكان ذلك راجعاً إلى حقائق العقل الأولية، أم إلى حقائق سبق الحكم بصحتها من خلال التجربة الحسية[3]، ولكن هذه التفرقة ليست محل اتفاق.

فإذا نظرنا إلى هؤلاء فى العصر الحديث، وجدناهم قد اعتبروا أنفسهم حكاماً على عقول غيرهم من الناس، كما نصبوا أنفسهم قضاة فوق شرع الله، وكأنهم يريدون إعلان موقف واحد صريح، يقوم على الكفر بالله، والخروج عن شرعه، وإعلان المحادة له، وقد صنع غير المسلمين ذلك فى القديم، ثم جاء المستعمرون وأذنابهم ليرددوا نفس الأفكار، فصاروا أذيالاً لهم يجب قطعها، لأن الذى اعتاد الولغ من موارد الكلاب، يصعب عليه السير إلى موارد الأسد.

وبالنظر إلى هذه الآراء يتضح أنها يمكن أن توضع فى سلة واحدة عنوانها : الكفر بالله، واعتقاد ما سواه، لأن إحالة الكون إلى وقائع مادية فقط دون رجوع

---

١) الدكتور / زكى نجيب محمود : نافذة على فلسفة العصر، ص١٢٤، الكتاب السابع والعشرون، كتاب العربى، أبريل ١٩٩٠.

٢) وقد عرف هؤلاء باسم الطبيعيون الأولون، والطبيعيون المتأخرون، لاعتقادهم أن الموجود هو الطبيعة وأن الوجود الحقيقى هو الصورة التى تكون عليها ذات الطبيعة.

٣) راجع كتابنا : الوضعية بين المعقول واللامعقول، ص٢٦١، ط الثانية.

إلى القدرة الإلهية دى الجوانب الروحية، يمثل القضاء التام على باقى الجوانب التى خلقها الله فى كل فرد من بنى البشر، من ثم فإن التصديق بها يمثل أحد النعم التى أولاها الله – عز وجل – بنى الإنسان، وانكارها يمثل كفراً بالله تعالى وخروجاً عليه، كما أن أولئك المتاجرين بالفلسفة قد أخطئوا الطريق الصحيح على كل ناحية، حتى لو كان ذلك القول منهم قد صدر باللسان فقط، وقديماً قيل :

يصاب الفتى من عثرة بلسانه ... وليس يصاب المرء من عثرة الرجل
فعثرته فى القول تذهب رأسه ... وعثرته فى الرجل تبرأ على مهل[١].

ثم ان هؤلاء المتاجرين بالقواعد العلمية، المنكرين وجود الله تعالى، قد استوجبوا غضب الله، لأن من ينكر صنع الصانع، ويكفر بها، فقد استوجب غضب الرب العظيم الذى صنعها، ولو أن الوجود مادة فقط، ما كان للتفكير أدنى وجود، بل ان هؤلاء يذكر موقفهم بما حدث مع بنى إسرائيل، حين كذبوا نبى الله موسى إليهم، وطلبوا إلهاً مادياً تراه عيونهم، وتتحكم منه حواسهم، فابتلاهم الله، ثم أخذهم حيث ابتلاهم بتسع معجزات لم يستطيعوا الهرب منها، وهى : العصا، واليد البيضاء، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والطوفان، والسنون، ونقص الثمرات، فما كان منهم إلا أن كفروا بها جميعاً[٢]، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، بعد أن دعا عليهم نبى الله موسى الكليم كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾[٣].

فى نفس الوقت فإن جمهور هؤلاء المتواصلة المعبرين عن اعتقادهم فى المادة، وتفسير الوجود بها وحدها، يفضى بهم إلى إنكار الحقائق اليقينية كلها، فيتحول المجتمع المعرفى كله إلى أنواع متباينة، يقع بينها التضارب من كل ناحية، ومثله يؤدى إلى تدمير الكيان الفكرى كله لذات الإنسان، والمجموعة التى تعتقد نفس الأفكار.

النقطة الثانية : آراء أصحاب المذاهب الروحية ومناقشتها :

---

١) الشيخ / محمد نصر الدين البنايوسى، حكم العرب وأمثالهم، ص١٥٧، ط الأولى، ١٢١٩هـ.

٢) الإمام / أبو حيان التوحيدى : البحر المحيط وبهامشه : النهر الماد، جـ٢، ص١٧٨.

٣) سورة يونس، الآية ٨٨.

على النقيض من آراء المذاهب المادية فى تفسير القاعدة المعرفية، ظهرت الروحية، بحيث يمكن القول بأن إحداهما تمثل الصورة المضادة للثانية بمعنى : أنه كلما أمكن المرء الوقوف على فكرة لدى أصحاب المذاهب المادية، وجد على ناحية التضاد صورة أو ملامح ذات الفكرة فى الناحية الروحية، وبالتالى ظهرت جملة من الآراء تعزوا وجود العالم، وباقى الموجودات، كما تعزو الوجود نفسه إلى مبدأ روحى غير معروف(١)، لكنهم يستخدمون لفظ الروح الأعلى، أو الروح الكلى، أو الروح السيار، ليوهموا القارىء بأن العالم ليس سوى صور روحية، أو مبادىء عزفت على أوتار الروح المشدودة أعذب الألحان، ورددت أرقى النغمات، وكان سير أغلبهم فى هذا الاتجاه مرتبطاً بالمعرفة، كما هو مرتبط بالوجود تماماً بتمام.

بيد أن كلاً من الطرفين – أصحاب الاتجاه المادى وأصحاب الاتجاه الروحى – قد خالف الحقيقة التى تعيش داخله هو، بل كل فرد من أفراد هذا الوجود(٢)، بدليل أن المرء يتكون من نفس وجسم، عقل ومشاعر ومعارف، ويتمتع بحواس داخلية، تلعب دورها من خلال ملكات محددة، وتستخدم آلات حسية، ولا يمكن أن يكون هذا فى المرء كاملاً إلا إذا تلاقت ذات الجوانب كلها مع بعضها.

والذى تطمئن إليه النفس، أن سلوك المرء طريق الشرع يجعله مستريحاً فى دنياه وأخراه، لأن الشرع فيه الغنية، كما أنه يحقق للمرء أقصى أمانيه، وغاية مرتجاه، لأن الشرع من عند الله، ولا يمنع العقل من أن يكون سائراً فى طريق هداه، على أساس أن العقل نور يقذف فى القلب من عند ذات الإله، وقديماً قال الحارث المحاسبى : ان العقل غريزة إلهية بها إدراك العلوم النظرية والضرورية، وكأنه نور يقذف فى القلب به يستعد لإدراك الأشياء(٣).

كما أن الخضوع للنص الإلهى يوصل الإنسان إلى السعادة العقلية، كما يحقق له السعادة البدنية فى دار الدنيا والدار الآخرة، لأن النفس إذا بلغت سعادتها وصلت إلى لذتها، فأى سعادة تامة تلك التى تأتى بها العقول، البعيدة عن الاهتداء

---

١) الدكتور / فوزى محمد خليل : المذاهب المادية وعلاقتها بالمعرفة، ص٥٧.

٢) الإمام الغزالى : إحياء علوم الدين، جـ١، ص٦٤، ط القاهرة.

٣) الدكتورة / ليلى عبد العظيم : الفلسفة الحديثة والمعاصرة، ص٤٥.

بشرع الله تعالى، أما ما يقع للنفس الشريفة العزيزة العارفة بالله، فإن سعادتها تكون تامة بغير نقص، صافية بغير كدر، حاضرة بغير فقد، خالصة بغير شوب، موافقة بغير ضد، دائمة بلا انقطاع، مسلمة بغير مزاحم[1].

ومن ثم فإن أصحاب العقيدة الدينية الصحيحة القائمة فيما جاء من عند الله تعالى يشعرون دائماً بهذه السعادة. كما ينعمون في الدنيا بالرضا، وفي الآخرة بالقبول، قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ﴾ [2].

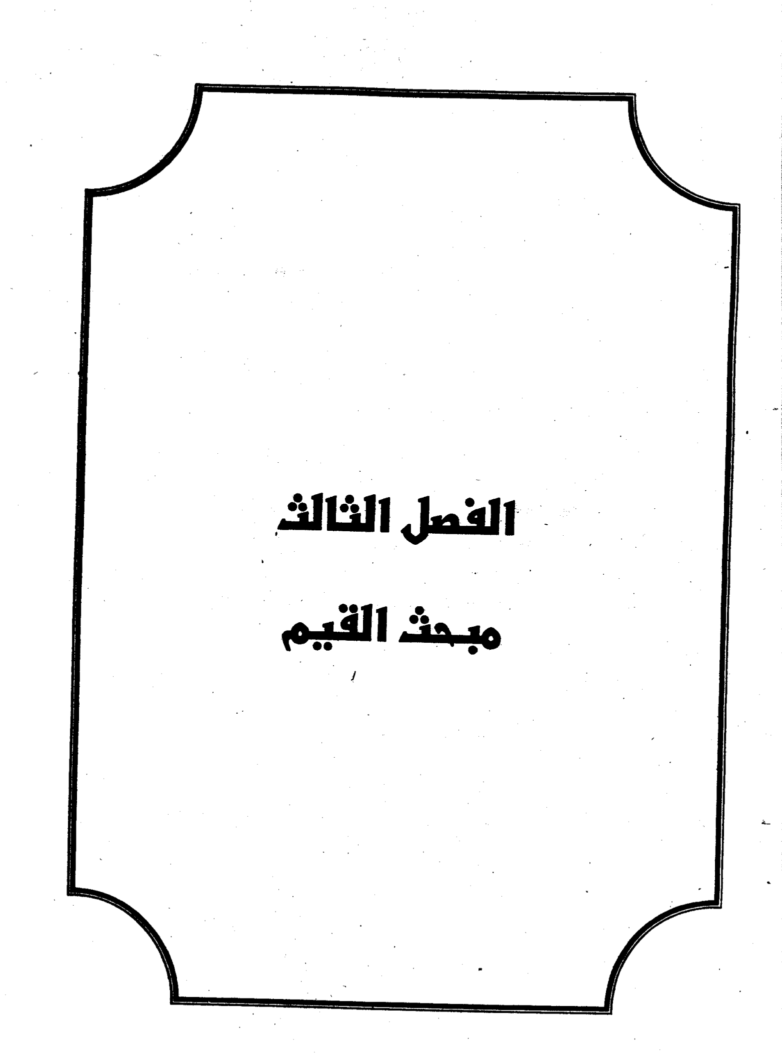
من المؤكد أيضاً أن أصحاب الاتجاه المادي قد لعبوا دوراً كبيراً فيما يتعلق بالمعارف الإنسانية على وجه العموم، وأن بعضهم قد بالغ في ذلك حتى أنكر المعرفة التي ترد بعيداً عن الاتجاه الذي تبدو فيه الحواس، وهم ليسوا على صواب في شيء من ذلك.

كما أن أصحاب الاتجاه الروحي في تفسير المعرفة، قد لعبوا هم أيضاً دوراً كبيراً، حتى كان لهم فيه العديد من الآراء بعضها يناقض البعض الآخر، سواء في المقدمات أم في النتائج، وهو ما يؤكد حاجة الإنسانية إلى الاعتصام بالله تعالى، مع الاهتداء بشرعه جل علاه.

---

١) العلامة / أبو البركات ابن ملكا البغدادي : المعتبر، جـ٢، ص٤٤٧-٤٤٨، ط حيدر أباد الدكن، ١٣٥٨هـ.

٢) سورة النساء، الآية ١٢٥.



الفصل الثالث

مبحث القيم

تعريف القيم :

من المعروف أن الله تعالى قد خلق الإنسان كما خلق غيره من الكائنات الأخرى، وجعله كائناً أعلى متميزاً عن باقى الكائنات الأخرى التى قد تكون وقعت لها المشابهة معه فى شيء من الجسمية، والنماء[١]، كالحال مع النباتات، فإنه يشترك مع الإنسان فى الجسمية بجانب النماء من خلال التغذية، كما يشترك معه فى العمر الزمنى ومراحله من النمو ثم الثبات، وأخيراً يجيء التدهور والحس والحركة[٢]، حيث يشترك الحيوان مع الإنسان فى الحس، يدل على ذلك ما يمارسه الحيوان فى حالات كثيرة من أبرزها الفرح والغضب وما يتعلق بعمليات استمرار النسل، وهذا التميز هو المتمثل فى عنصر وحى عقلى تبدوا مظاهره فى العلوم المخترعة، والفلسفات القائمة، بجانب الفنون والآداب التى تقوم عليها الحضارات، بحيث يمكن القول بأن الإنسان قد أخضع الله له باقى الكائنات[٣]، بدليل قدرته المسيطرة على مملكتى الجماد والحيوان.

وقد كشف الله للإنسان عن قدرات برزت فيه، لا وجود لها عند غيره، بل إنها عزت على الحيوان، واستعصت استعصاءً كاملاً على سائر الكائنات الأخرى، ومن ثم عرفت هذه الملكات المتميزة فى الإنسان بأنها القيم، فإذا جاءت على وجه صحيح كانت قيماً خلقية صحيحة، وإذا جاءت فى مظاهر سلبية، اعتبرت قيماً فاسدة.

غير أن القيمة هى ما يقوم به الشيء، كما يقوم بها السلوك، وبناءً عليه فالقيمة هى التى ينضبط عليها سلوك الكائن العاقل، ومن خلالها يتم الحكم عليه، بالخيرية أو الشرية، كما يوصف فعله بأنه حسن أو قبيح، وله فى ذات الوقت امتداد علاقات تقوده إلى القيم العليا.

---

١) راجع كتابنا : التفكير الإنسانى أصوله ومستوياته، ص١٣٥.

٢) وقد نبه إلى هذه الجوانب الشيخ الرئيس ابن سينا فى كتابه الشفاء، وابن باجه فى كتابه : تدبير المتوحد، وابن طفيل فى كتابه : عن النفس.

٣) هذا الاعتقاد لدينا نحن أهل الإسلام، والنصوص الشرعية دالة عليه.

يقول الدكتور الطويل : إن الإنسان هو الكائن الأخلاقي الوحيد، لأن فيه عنصراً روحياً عقلياً، يتمثل خاصة في قدرته على أن يرتفع فوق جانبه البهيمي الحيواني، ويسمو بها على الكائنات طرا، فإذا ارتفع عن الحيوان كان صاحب قيمة عليا، أما إذا انحط عنه، فإن أمره ينحدر به إلى ما هو أدنى من الحيوان[١]، لأنه يكون قد تخلى عن القاعدة العامة التي تميزه عنه بمراحل عديدة.

وحيث أن نتائج ومظاهر القيم الخلقية، هي التي تؤثر تأثيراً كبيراً على مظهر الإنسان، ولها ارتباط متواصل بكل من مبحث الوجود والمعرفة، فإني سأتناول هذه المسألة في حدود ما يلي :

أولاً : نظرة على القيم بوجه عام :

من المؤكد أن هذا الإنسان الذي خلقه الله تعالى على هذا الجانب، المتميز، بالعنصر الروحي والعقلي عن كافة أنواع الحيوان مهما كانت راقية، له احتياجات عضوية يستهدف إشباعها[٢]، ومطالب أيضاً بيولوجية يعمل على تحقيقها، فإذا استطاع إشباع هذه وتحقيق تلك، طبقاً لمبادىء عليا، فإنه يكون قد التزم الجانب الإيجابي في الأخلاق، وهو ما يسمى القيم الإيجابية.

أما إذا صدر في تحقيق غاياته عن طريق غير مشروع، وقام بها من ناحية الوجوه الفاسدة، فإنه يكون قد خسر هذا الجانب، كما يمكن وصف ما قام به في حدود القيم السلبية[٣]، ومن الملاحظ أن القيم الإيجابية هي كل ما يصدر عن المرء في الجانب العملي، ويسمى الأخلاق العملية، أو يصدر عنه في الجانب النظري، ويسمى القيم أو الأخلاق النظرية.

ويحسن بي بيان أن القيم تنقسم إلى قسمين باعتبار الحسن أو القبح، وهو نفس اعتبار الصحيحة أو الفاسدة، أو الإيجابية والسلبية، فكل قيمة إيجابية يمكن أن

---

١) الدكتور / توفيق الطويل : القيم العليا في فلسفة الأخلاق، ص١٤، ط دار النهضة.

٢) ولا شك أن عملية الاستهداف لاشباع هذه الاحتياجات تؤكد وجود قدرات متميزة في ذات الكائن الحي العاقل وهو الإنسان.

٣) راجع كتابنا : نظرية السعادة في الفكر الإنساني، ص١٢٧.

تقابلها أخرى سلبية، ومن ثم نظر الفلاسفة والأخلاقيون إلى هذه القيم نظرة يتعلق بها الخير والشر، لأنها تتصل بالحرية الإنسانية وما يترتب عليها من مسئولية.

يقول الأستاذ أبو بكر ذكرى : "وما يشهد بهذه المسئولية من هدى العقل والضمير وما قد يترتب عليها من ثواب للمحسن أو عقاب للعاصى"(١).

ثانياً : أنواع القيم :

والملاحظ أن القيم الإيجابية تتنوع فمنها :

الصدق، الشجاعة، والنجدة، والمروءة، وكذلك : العفة، وما يتعلق بها، وتسمى لدى علماء الأخلاق الإسلامية بالفضائل، ثم تأتى على رأسها جميعاً القيم المطلقة، التى تقع فيها المثل العليا، يقول الأستاذ "منصور على رجب" : إن مبحث القيم يعرض للبحث فى المثل العليا وهى القيم المطلقة، من حيث الخير والحق والجمال، وهذا التعرض إنما يتعلق بها من حيث ذاتها، لا باعتبارها وسائل إلى تحقيق غايات، فيسأل : هل هى مجرد معان تقوم بها الأشياء، أو أن لها وجوداً مستقلاً عن العقل الذى يدركها(٢)، وهذا التساؤل بجانب أنه مشروع من ناحية الدراسة، فإنه قائم أيضاً على الناحية الفلسفية.

فى نفس الوقت تظهر قيم سلبية تؤثر على السلوك العام، كالكذب والشر والرزيلة والجبن وتسمى لدى علماء الأخلاق المسلمين بجانب الصوفية باسم الرذائل، بل إن بعض الأفعال قد دخلت إليها كالحال مع السرقة والزنا وما يتعلق بالموبقات، حيث تهوى بأصحابها فى الدرك الأسفل بين الناس، ومن ثم كانت أخلاقاً سلبية.

وسواء أكانت هذه القيم – فى صورتيها – مرتبطة ببعض المنافع الدنيوية أم مرتبطة ببعض الغايات الأخرى، فإن العبرة بالنتيجة المترتبة عليها، بحيث يحكم عليها بأنها صحيحة، فيمدح صاحبها ويثاب على فعله، أو قبيحة يقدح فيه ويقع له الندم عليها.

---

١) الأستاذ / أبو بكر ذكرى : تاريخ النظريات الأخلاقية وتطبيقاتها العملية، ص٤٧، الطبعة الثالثة، الكليات الأزهرية، ١٣٧٨هـ-١٩٥٨م.

٢) الأستاذ / منصور على رجب : تأملات فى فلسفة الأخلاق، ص٥٣، طبعة القاهرة، ١٩٥٣م.

ثالثاً : أساس نشأة القيم :

ومن المؤكد أن هذه القيم متى كانت سلبية، فإنها تمثل الصورة المعكوسة، لما يجب أن يكون عليه ذات الإنسان العاقل المتميز الذى خلقه الله وجعله قائداً على جميع المخلوقات الأخرى المسخرة له، ومن ثم اختلفت الاتجاهات فى الأصل الذى تقوم عليه القيم، فمنهم ذاهب إلى أن القيم إنما هى بنات البيئة البكر، ونبتها المستمر.

* أصحاب الاتجاه الأول : القيم نابعة من البيئة :

يقول الدكتور الطويل : فالقيم تنبت فى حياة الجماعات البشرية آلياً وتلقائياً، إنها نشأت من الخبرة الحسية طويلة الأمد، وتوارثتها الجماعات البشرية جيلاً بعد جيل، وأكدتها المعتقدات الأرضية منذ أقدم العصور[1]، ومن ثم فلا مكان فيها لشيء خارج نطاق البيئة.

* أصحاب الاتجاه الثانى : القيم نابعة من الدين الإلهى :

يذهب الدكتور "على لطف الله" إلى أن القيم تنبع من الديانات السماوية، لأنها التى صاحبت الإنسان منذ وجوده الأول على الأرض، ومن ثم عرفته الخير ومثله العليا، ودلته عليه وأمرته به، كما نبهته إلى الشر وأبعدته عنه وحذرته منه، فتكون القيم نابعة من الديانات السماوية[2]، وعلى هذا فالقيم مرجعها إلى الله تعالى لا إلى شيء آخر، وتبدو الاتجاهان متباعدان فى الشكل الظاهرى.

* أصحاب الاتجاه الثالث : الاتجاه التوفيقى :

أما الدكتور "الحفار" فإنه يذهب إلى أن القيم قد نبتت فى أصول الديانات السماوية، ثم أمسكت بها الجماعات البشرية، حتى صارت معتقدات ثابتة تدفع الإيجابية منها المرء إليها، وتدفع السلبية المرء عنها[3]، وهذا يؤكد على تداخل الاتجاهين البيئى والسماوى فى تكوين هذه القيم بجانب الحكم عليها.

---

١) الدكتور / توفيق الطويل : قضايا من رحاب الفلسفة والعلم، ص١٩.

٢) الدكتور / على لطف الله: القيم فى المنظور الفلسفى، ص٣١، ط أولى، ١٩٤١م.

٣) الدكتور / عبد الباسط محمود الحفار : القيم العليا والقيم الدنيا، ص٥٣، ط أولى ١٩٧١م.

فإذا نظرنا إلى تلك الأفكار التى أرجعت القيم إلى سبب من الأسباب منفصلة عن بعضها، تبين أنها متعددة، بعضها يجيء فى سلوكيات سلبية، ينهى عنها الشرع، ومع هذا لا يمانع المجتمع من ممارستها، ومن ثم تكون هذه القيم وليدة البيئة غير السوية.

أما القيم الإيجابية التى تمثل أعلى المطالب التى يرقاها الإنسان، فى سلم الكمال، من خلال عقله الواعى، تؤكد أن مصدرها هو الدين السماوى. لأن ما يجيء من عند الله فيه مصالح الناس الدنيوية، وسعادتهم الأخروية.

ومن الملاحظ أيضاً أن "الاكسيولوجيا"[1]، أو القيم العليا، بفروعها الثلاثة : المنطق،وفلسفة الأخلاق، وعلم الجمال، تجيء فيها القيم ملتصقة بالإنسان الواعى، لأنه الكائن الوحيد الذى ينزع بمحض تفكيره وإرادته إلى مجاهدة ميوله وغرائزه، بجانب ضبط دوافعه وتهذيب نوازعه، مع السيطرة على الأهواء والنزوات.

وفى تقديرى : أنه متى استطاع الإنسان توجيه رغباته الوجهة الصحيحة على الناحية الشرعية، استطاع التغلب على مطامعه، وحينئذ يبلغ أقصى مطالب الكمال الإنسانى، بدليل أن الناس فى كل المستويات، ومع كافة الأزمنة والأمكنة ينشدون القيم العليا، ويطلبون المثل الكاملة، مهما كانت درجاتهم فى التدنى، وحينئذ يطلب منهم تأدية الواجب، والقيام على المحبة والإخاء، بجانب إشاعة العدل وتطبيقه على الجانب العملى مع كفالة الحرية، وإقرار الأمن والمساواة ليتحقق السلام العام الشامل.

كذلك سعى بنو الإنسان إلى التأكيد على فضائل الكرم والشجاعة والتزام العفة مع التمسك بأمانة القول، والدقة فى العمل إلى غير ذلك من القيم النافعة المفيدة، التى تدرس على أنها فضائل[2]، ويتم التعامل بها من خلال ذات المفهوم الذى يجرى للناس فى مراحل حياتهم من كل ناحية.

---

١) هذا المصطلح يقصد به مبحث القيم، كما أن مصطلح الأنطولوجيا يقصد به مبحث الوجود، بينما مصطلح الاكسيمولوجيا يقصد به مبحث المعرفة.

٢) راجع كتابنا : نظرية السعادة، جـ٢، ص٧٥.

ومع هذا طالبوا بالامتناع عن القتل، وقاتلوا المغتصبين، وكرهوا الكذابين، كما نبذوا الحاقدين والمنافقين، إلى غير ذلك من الآفات الضارة بالمجتمع، وتسمى بالقيم السلبية، لأن الإنسان السوى يرفضها من جانب الفطرة، كما ينبذها من جانب العقل السليم، وفوق ذلك فإنه يرفضها من الجانب الدينى الشرعى.

ونظراً لتعدد هذه القيم على الجانب الإيجابى والجانب السلبى فإنى سألمح إلى القيم العليا، وأعنى بها قيم الحق والخير والجمال، على أساس أن الحق دلت عليه الشريعة الإلهية، ونبهت إليه النصوص التى جاءت من قبل الله عز وجل، كما أن الحق اسم من أسماء الله الحسنى، وفى نفس الوقت فإنه يوفر السعادة للناس فى الدنيا والدرجة العليا فى الآخرة.

كما أن الخير هو الآخر يدفع الشر، ويمحق الباطل، ويؤسس للود بين الناس، ومن ثم كان الجمال متابعاً له، وقد أفاض فى بيان ذلك كثير من الباحثين الذين عنوا بدراسة الآراء حول مصدر القيم، وأنواعها وكيفية بلوغ المرء المثل الأعلى[1].

وكذلك نالت هذه المسائل المتعلقة بالقيم العليا وما يستلزم ذلك عناية كبيرة من الدارسين على أساس أنها قيم إيجابية، يقول الأستاذ "منصور على رجب" : إن الحق الحقيقى هو الذى يعلو ويجب أن يسود، وليس بلازم أن تكون القوة هى التى تقرره، لأن قوة الحق فى ذاته[2]. فلو كانت القوة بعيدة عن الحق، أو كانت وصفاً مفارق له، لكان الحق أضعف من حمل ذات الإسم.

فى نفس الوقت فإن الخير هو الآخر فضيلة، وقيمة إيجابية سعى الإنسان إليها منذ القدم، وكانت خطواته إليه سريعة وممتدة، لأنه يقتلع جذور الشر، ويحقق فى الناس ما ينشدونه من سعادة كبيرة، بجانب الحياة الرغدة الكريمة. وقديماً قيل : من يصنع الخير لا يعدم جوازيه : لا يذهب الخير بين الله والناس.

---

١) راجع للدكتور / توفيق الطويل : القيم العليا فى فلسفة الأخلاق، من ص٩-١٠٢، وكذلك : فلسفة الأخلاق نشأتها وتطورها، طبعة ١٩٧٩م.

٢) الأستاذ / منصور على رجب : تأملات فى فلسفة الأخلاق، ص٢٣٥.

يقول الشيخ "على فرج الله" : إن الخير فضيلة والقيام به هو المثل الأعلى، فلولاه لانحط الإنسان عن الدرك الإنسانى إلى البهيمى[١]، وقد جاءت الآثار الدالة على فضائل الخير من الناحية الاستدلالية، كما جاءت به على الناحية الاستقلالية أيضاً.

ويقول الأستاذ "أبو بكر ذكرى" : إن التربية الخلقية قد تختلف اختلافاً جزئياً تبعاً لاختلاف البيئات ومشارب الأمم والشعوب[٢]. ولكنها نحو الخير تسعى بخطا سريعة، لا مجال فيها للكسل، ولا حظ عندها لأى جانب يتعلق بالفشل لأنها لا تختلف أبداً فى كون الخير قيمة عليا وعملاً يستوجب الشكر من كل المتعاملين معه، الذين ينالهم بالدرجة الأولى ما يترتب عليه.

علاقة علم الجمال بالأخلاق :

يذهب الأستاذ "منصور على رجب" إلى أن علم الأخلاق وعلم الجمال أولاد عم، على معنى أنهما يجمعهما نسب واحد، وهو ان كلاً منهما يتخذ لنفسه هدفاً هو الإنسان، فعلم الأخلاق يبحث فى الإنسان من ناحية ما يجب أن يكون عليه فى سلوكه الخاص والعام، وعلم الجمال يبحث فى الإنسان من ناحية اللذائذ التى تبعثها مناظر الأشياء الجميلة فى الإنسان[٣]، ومن ثم فكل منهما يكمل الآخر، أو على الأقل يتكامل معه فى منظومة واحدة.

ولا يمكن أن يكون الجمال إلا متجسداً فى شيء من الأشياء، بحيث يرى من خلاله للقاعدة المشهورة : كن جميلاً ترى الحياة جميلة، وبالتالى فلابد لمن يتذوق الجمال أن يكون لديه شعور عام بالفضيلة، وأن تكون لديه قدرة على تذوق هذا الجمال، بجانب التلذذ به، وبناء عليه فالجمال إنما يميز بالذوق، وهو ملكة فى الإنسان معها يشعر بلذة الجمال، وقد منحها الله لكل الناس على تفاوت فيما بينهم، رقيها يكون على التهذيب، والمدنية، ومن ثم فهى فى الفرد والمجتمع تجيء فى درجات متفاوتة، ومن ثم اختلفت الحواس والعقل فى إدراك الجمال، وهنا يمكن

---

١) الشيخ / على فرج الله : محاضرات فى علم الأخلاق وعلاقته بالسلوك، ط١٠١، ط الدار الميمنية، ١٣١١هـ.

٢) الأستاذ / أبو بكر ذكرى : تاريخ النظريات الأخلاقية، ص١١١.

٣) الأستاذ / منصور على رجب : تأملات فى فلسفة الأخلاق، ص٥٩.

القول بأن الجمال كما يتعلق بمبحث القيم من تلك الناحية، فإنه يتعلق بمبحث المعرفة من حيث الإدراك الطبيعى لذات المعرفة.

وفى تقديرى أن دراسة القيم الإيجابية قد توسع فيها أهل الإسلام من خلال بيان الأوامر والنواهى، وكذلك مباحثهم حول الفضائل والرذائل، وكذلك عرض القيم الإيجابية والسلبية، وما يتعلق بالأخلاق الفردية والأسرية مما يحتاج دراسات مستقلة، وقد أفاض فى ذلك الكثيرون من القدماء والمحدثين على السواء[1].

وبعد، فإن علاقة القيم بعلم الأخلاق تحتاج العديد من الدراسات الجادة المستقلة، ولا يسعنى إلا أن أقدم خالص شكرى لله رب العالمين.

﴿ رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ [2].

والحمد لله رب العالمين

---

١) ممن قام بهذه الدور فى القرن الماضى / القرن العشرين / الدكتور / محمد عبد الله دراز : دستور الأخلاق فى القرآن، من ص٦٨٩-٧٧٨، الطبعة الثالثة، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م، تعريب الدكتور / عبد الصبور شاهين، مؤسسة الرسالة.

٢) سورة الكهف، الآية ١٠.

فهرس الموضوعات



كتب صدرت

الدكتور/محمد حسيني موسي محمد الغزالي

رئيس قسم العقيدة والفلسفة بكلية أصول الدين والدعوة بالزقازيق.

أولا: في علم العقيدة

١) الإيمان بالغيب وأثره علي الفكر الإسلامي – أطروحة علمية – ط٧ – الأصدقاء ١٩٩٩م.
٢) حبو الوليد في علم التوحيد – شرح الموقف الخامس للإيجي – ط٤ – صبحي ١٩٩٨م.
٣) عبد الكريم الخطيب وآراؤه الكلامية – أطروحة ١٩٩٢م علمية ط٥ آل بسيوني بالزقازيق.
٤) منهج السلف الصالح في إثبات وجود الله تعالي ط٦ آل بسيوني ١٩٩٨م .
٥) الغزاليات في الإلهيات ط٤ الشروق بالزقازيق ١٩٩٨م.
٦) الغزاليات في النبوات – ط١ –آل بسيوني للطباعة والكمبيوتر ٢٠٠٠م.
٧) الغزاليات في السمعيات ط٣ – آل بسيوني ١٩٩٨م.
٨) الغزاليات في المعاد وأمور الآخرة ط٢ مطبعة محمد نصر الله ١٩٩٧م.
٩) المدخل التام لعلم الكلام – أولي آل مخزنجي ١٩٩٨م.
١٠) حصاد الاقتصاد في الاعتقاد –ج١–أثبات الذات الإلهية ط١ آل مخزنجي ١٩٩٨م
١١) حصاد الاقتصاد في الاعتقاد –ج٣ – الأفعال الإلهية ط١ آل مخزنجي ١٩٩٩م .
١٢) حصاد الاقتصاد في الاعتقاد–ج٤:إثبات نبوة سيدنا محمد صلي الله عليه وسلم ط١ صبحي ١٩٩٩م.
١٣) مطاعن أعداء الإسلام في القرآن الكريم والرد عليها –ط١ آل بسيوني ١٩٩٩م.
١٤) التأملات علي ما في شرح المقاصد من سمعيات ج١ ط٣ نور الهدي ١٩٩٤م.
١٥) القضاء والقدر و أثرهما علي المسلم –ط٣- آل بسيوني ١٩٩٨م.
١٦) الإلهيات عند ابن سينا ط٢ - آل بسيوني ١٩٩٨م.
١٧) ذكر الله تعالي في القرآن والسنة ط٥ – مطبعة الشرق ١٩٩٢م.
١٨) القسمة و النصيب وعلاقتهما بالقضاء والقدر ط٢ مطبعة الشرق ١٩٩٢م.
١٩) إثبات العقيدة الإسلامية بالدلائل العقلية ط٢ ١٩٨٧م.
٢٠) العقيدة الألهية في الآيات القرآنية ط٣ ١٩٩٢م.



ثانيا: في الفلسفة والمنطق والتصوف والأخلاق

٢١) رياض الأشواق في الميتافيزيقا والأخلاق –ط٤ الشروق بالزقازيق ١٩٩٨.
٢٢) غدوة المشتاق في ربوع الأخلاق – ط٤ مطبعة حبيب بالزقازيق ١٩٩٨م.
٢٣) خواطر حثيثة في الفلسفة الحديثة –ط٤ الشروق بالزقازيق ١٩٩٨م.
٢٤) أوراق منسية في النصوص الفلسفية – ط٣ صبحي بالزقازيق ١٩٩٨م.

٢٥) دراسات في الفلسفة الحديثة والمعاصرة ط٣ ٢٠٠٢م.
٢٦) مناهج البحث بين التقليد والتجديد -ط٣ الوطنية ١٩٩٢م.
٢٧) أوراق مطوية في التصوف والصوفية - آل سيوني ١٩٩٨م.
٢٨) أنسام حية في الأفكار الصوفية ط٤ الشروق ١٩٩٨م.
٢٩) الموسوعة الغزالية في التصوف والصوفية -ج١.
٣٠) الولاية في الفكر الصوفي وأصولها الشرعية -ط٢ مطبعة زاهر ١٩٩٥م.
٣١) قضايا التصوف بين الأنصار والخصوم -ط١ مطبعة نصر الله ١٩٨٨م.
٣٢) التصوف المفترى عليه ط١ مطبعة دار مار ١٩٨٩م.
٣٣) قيمة الصراع بين الفلسفة الإسلامية وعلم الكلام ط٤-آل بسيوني ١٩٩٨م
٣٤) قضايا حيسة في الفلسفة الحديثة ط٣ الشروق بالزقازيق ١٩٩٨م.
٣٥) المنطق بين التنظيم والتقنين ط١ الوطنية ١٩٩١م.
٣٦) النديم في المنطق القديم-ط٤ مطبعة آل بسيوني ١٩٩٩م.
٣٧) الوليد المنطق في علم المنطق-التصورات-ط دار حبيب ١٩٩٨م.
٣٨) الخطاب بين الأصوليين ودعاة الحداثة مفهومه وقراءاته-ط١ آل بسيوني ١٩٩٩م.
٣٩) الغزاليات في منطق التصديقات -ط١-آل بسيوني للطباعة والكمبيوتر ٢٠٠٠م.
٤٠) الغزاليات في منطق التصورات-ط١-آل بسيوني للطباعة والكمبيوتر ١٩٩٩م.
٤١) المدخل لدراسة الحكمة الإسلامية-ط١-آل بسيوني للطباعة والكمبيوتر ٢٠٠٠م.
٤٢) ملامح الحكمة الإسلامية في المغرب ط أولى ١٩٩٨م.
٤٣) التفكير الإنساني و أصولهمستوياته ط٢-آل بسيوني ١٩٩٩م.
٤٤) الشك في الفكر الإنساني مفهومه ودلالاته ط٣ آل بسيوني ١٩٩٩م.
٤٥) ظاهرة القلق الإنساني بين الدين والعلم ط٣-رضوان ١٩٩٦م.
٤٦) نظرية المعرفة عند ابن رشد-بحث محكم .
٤٧) آراء واتجاهات في الدين والفلسفة-ط٢ آل بسيوني ١٩٩٧م.
٤٨) العلاقة بين بارمنيدس و أفلاطون - ط٤ مطبعة ياسر ١٩٩٥م القاهرة .
٤٩) الفلسفة العامة ط٢ ٢٠٠٢م.
٥٠) الحثيث في المنطق الحديث ج١ ٢٠٠١م.
٥١) الدلالة بين الأصوليين والمحدثين والمناطقة - ط١ حربي ١٩٩٤م.
٥٢) في الوجود وعلله - شرح النمط الرابع لابن سينا -ط ٢ مطبعة الهدي ١٩٩٢م.
٥٣) ابن باجة مفكرا - ط١ - آل بسيوني للطباعة والكمبيوتر ٢٠٠٠م.
٥٤) آراء عبد الكريم الخطيب الفلسفية - أطروحة علمية ١٩٩٣م.

٥٥) من باحة ومدهبه في الأخلاق - أطروحة علمية ١٩٨٧م.

٥٦) أثر الحب عند الصوفية على ادباء الرومانسية ط١ مطبعة رزق ١٩٨٨م.

٥٧) نظرية السعادة في الفكر الإنساني –ط١–آل بسيوني للطباعة والكمبيوتر ٢٠٠٠م.

٥٨) التفلسف بواعثة وخصائصه ط١ ٢٠٠٢م.

ثالثا:التيارات الفكرية والفرق والمذاهب المقارنة.

٥٩) أوراق متناثرة في التيارات المعاصرة ط٤ القبس الشريف١٩٩٨م.

٦٠) عقيدتنا رفع عيسى ونزوله بين الإسلام والنصرانية- أطروحة علمية ط٣آل بسيوني١٩٩٨م.

٦١) من وحي البيان في جماعة الشيطان ط٤آل بسيوني ١٩٩٨م.

٦٢) صدع البرهان في جمهوري السودان ط٣ياسر١٩٩٧م.

٦٣) وميض النصرانية بين غيوم المسيحية ط٥ حبيب ١٩٩٨م.

٦٤) حفيف الأغصان في التعريف بالملل والنحل والأديان ط٤ دار غريب ١٩٩٨م.

٦٥) مقدمة ضرورية في نشأة الفرق الإسلامية ط١ آل بسيوني١٩٩٩ م.

٦٦) رؤية نقدية في الفرق الإسلامية ط٢ الشروق١٩٩٦م.

٦٧) من قضايا مسيحية وموقف الإسلام منها ط٢ مطبعة طارق ١٩٩٣م.

٦٨) بين المسيحية والإسلام في القيم والأحكام ط٢ مطبعة حسني ١٩٨٣م.

٦٩) علاقة اليهودية الدينية بالعهد القديم ط٣ مطبعة يسرى ١٩٩٤م.

٧٠) اليهودية من الأرض إلى الإعتقاد ط١ مطبعة نصر الله ١٩٨٧م.

٧١) العهد القديم بين المفهوم والدلالة ط٣ مطبعة الشرق ١٩٩٣م.

٧٢) الرد الجميل على شبهات صموئيل ط٢ دار منصور ١٩٩٥م.

٧٣) الرد المنحار على قول النجار ط١ مطبعة ناصر١٩٨٢م.

٧٤) في التيارات الفكرية –ط١ آل بسيوني للطباعة والكمبيوتر ٢٠٠٠م.

٧٥) التطور الإحيائي بين الدين والفلسفة –ط١– آل بسيوني للطباعة والكمبيوتر ٢٠٠١م.

٧٦) البابية قراءة جديدة –ط١ – آل بسيوني للطباعة والكمبيوتر ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

٧٧) الوضعية بين المعقول واللا معقول ط دار منار ٢٠٠٣م.



٧٨) تأليه الديانات الوثنية للأيات الكونية ط أولي ٢٠٠٢م.

٧٩) أثر الوثنية في اليهودية ط أولي ٢٠٠٣م.

٨٠) قوانين الوراثة بين الدين والفلسفة ط أولي ٢٠٠٤م.

٨١) موسوعة الغزالية في الجوانب السياسية ج١ ٢٠٠٤م

٨٢) الفكر السياسي عند الغزالي مقارنا بالنظم السياسية الحديثة ٢٠٠٤م.

رابعا:فنون متفرقات

٨٣) الإسلام وتعبئة الشعور العام – ط١ مطبعة محروس ١٩٩١م.
٨٤) لماذا أنتشر الإسلام ؟ج١،ج٢ - ط٥ الأصدقاء ١٩٩٩م.
٨٥) الدرة النيرة في الدفاع عن السنة المطهرة-ج١-مطبعة غريب ط أولي ١٩٩٢م.
٨٦) حلف الفضول عند العرب وأثره في العصر الحديث ط الثانية صنعاء١٩٩٧م.
٨٧) درة المدد بتفسير سورة المسد ط الرابعة الانوار ١٩٩٧م.
٨٨) لماذا ينكمش أبناء الاسلام ج١ ط الثالثة القدس ١٩٩٥م.
٨٩) دور الاعلام المصري ما بين ١٩٦٥حتى١٩٧٣م أطروحة علمية ١٩٧٩م.
٩٠) دور القصص القرآني في إبراز الانا السلبي ط أولي ٢٠٠١م.

خامسا:الأدبيات

أ)المسرح

٩١) وهذا مذهبي:مسرحية جادة مرتجلة ط الثامنة آل بسيوني ١٩٩٩م.
٩٢) أطعموا الجائعين:مسرحية تراجيدية ط الرابعة آل بسيوني ١٩٩٨م.
٩٣) المدرس الكشكول:مسرحية كوميدية هادفة مطبعة غريب ١٩٩٤م.
٩٤) ثورة الضمير:مسرحية في اللامعقول ط الرابعة مطبعة صبحي ١٩٩٣م.
٩٥) يا بني أحفظ ثأر الشهيد:مسرحية جادة مرتجلة ط الثالثة عفت ١٩٩١م.
٩٦) صرخة أم :مسرحية هادفة ط الرابعة الشرقية ١٩٩٠م.
٩٧) أم وأبناؤها في معركة :مسرحية تراجيدية ط الخامسة الوطنية١٩٨٧م.
٩٨) مراحل الحقد أحترقت:مسرحية ملهاة ط الرابعة مطبعة ياسر ١٩٨٤م.
٩٩) الحوار الداخلي والمنولوج النفسي:مسرحية رومانسية ط الرابعة غريب ١٩٩٠م.

ب)الشعر العربي

١٠٠) التائه الغريب ديوان في الشعر العمودي ط٧ الأصدقاء ١٩٩٨م.
١٠١) ظلال من الفكر ديوان في الشعر المرسل -ط ٦ – آل بسيوني ١٩٩٩م.
١٠٢) خواطر شاعر ديوان في الشعر العمودي ط٣ غريب ١٩٩٣م.
١٠٣) دعوة مظلوم و نفثة مهموم ديوان في الشعر المنثور ط٥ توفيق ١٩٩١م.
١٠٤) أحلام الشباب ديوان في الشعر المرسل ط١ مطبعة نور ١٩٧٦م.
١٠٥) مسافر عبر الأشواق ط٥ الأصدقاء ١٩٩٩م.
١٠٦) من وحي الصبا الطبعة الرابعة ١٩٩٨م.
١٠٧) أحلام الفجر الطبعة الخامسة ١٩٩٧م.

١٠٨) مسافر علي جناح الأشواك الطبعة الثالثة ١٩٩٧م.

١٠٩) مؤذن الفجر ط ٣ ١٩٩٦م.

١١٠) عواطف نبيلة ط٣ -١٩٩٧م.

١١١) فتوحات إلهية –ط١ أل بسيوني للطباعة والكمبيوتر ١٩٩٩م.

١١٢) إلهامات ربانية–ط١ أل بسيوني للطباعة والكمبيوتر ١٩٩٩م.

١١٣) علي مشارف الأربعين ٢٠٠١م.

ج)الرواية

١١٤) الوداع الأخير :رواية أجتماعية –ط٥ أل بسيوني ١٩٩٨م.

١١٥) أمرأة المعلم قرني – رواية أجتماعية ط٣ الشروق ١٩٩٧م.

١١٦) الجاهل المتسلط – رواية نقدية ط٥ مطبعة مرسي ١٩٩١م.

١١٧) سالمة رواية احتماعية ط٤ دار منصور ١٩٩٠م.

١١٨) لا تدعي إني .....رواية احتماعية ط٣ مطبعة نصر ١٩٨٩م.

١١٩) مياسة ..رواية احتماعية ط٤ ط نور ١٩٨٧م.

١٢٠) وداعا أيها اليأس – رواية نقدية ط٤ مطبعة مهيب ١٩٨٥م.

١٢١) سلطان الغريزة – رواية من الخيال العلمي – ط٢ – مطبعة الهدي ١٩٨٧م.

١٢٢) الوجدان المحترق – رواية نقدية – ط١ ١٩٨٢م.

١٢٣) صراع العقل مع العاطفة – رواية من الخيال العلمي – ط١ مطبعة زهران ١٩٨٣م.

١٢٤) شيء من الحقيقة – رواية واقعية ط٣ دار ناصر ١٩٨١م.

١٢٥) أحلام ميت ط١ ٢٠٠١م.

١٢٦) الأزعر والثعبان ط١ ١٩٩٩م.

١٢٧) الثوابت والعولمة ط١ ٢٠٠٠م.

١٢٨) أخلاقيات عطعوط و زيزو الزملوط ط ٢٠٠٤م.



١٢٩) الأقنعة المستوردة ط ثانية ٢٠٠٤م.

١٣٠) الأفعى ذات الرداء المثقوب ط١ ٢٠٠٤م.

١٣١) منصور البطل –رواية واقعية ط٣ –مطبعة زاهر ١٩٨١م.

١٣٢) الشاب الرزين –رواية خيالية أدبية ط٤ دار ناصر ١٩٨٢م.

١٣٣) الفيلق الأزرق- رواية نقدية أخلاقية ط٥ دار خيري ١٩٨٩م.

١٣٤) سويعات في مدارس البنات – رواية نقدية احتماعية في أنظمة التعليم ط٣ دار ناصر ١٩٧٩م

١٣٥) علي حدود الممنوع ط أولي ١٩٩٩م.
١٣٦) أفراح وأتراح –رواية رومانسية ط٦ هشام ١٩٩٠م.
١٣٧) أقسمت أن أروي – رواية نقدية – ط٤ مطبعة محسن ١٩٨٧م.
١٣٨) أشواق وأطواق – ط٣ مطبعة ١٩٧٨م.
١٣٩) الأخلاق أرزاق –ط٣ –مطبعة يسري ١٩٨٨م.
١٤٠) أعابير عزة – ط٤ مطبعة الحاج وحيد ١٩٩١م.
١٤١) أحلام السحر ط٤ مطبعة خالد ١٩٨٩م.
١٤٢) لمحات من حياتي – ط٤ مطبعة وهيب ١٩٧٨م.
١٤٣) ستشرق الشمس ذات صباح –رواية رومانسية – ط٥ أشرف ١٩٨٢م.

د)في النقد الأدبي

١٤٤) الأدب الرومانسي بين الأصالة والحداثة –ط١ مطبعة منتصر ١٩٨٦م.
١٤٥) أثر الإغتراب علي الأدباء المعاصرين – ط٣ مطبعة شروق ١٩٨٧م.
١٤٦) فن كتابة المسرح النثري ط٤ صبحي ١٩٩٥م.
١٤٧) يوميات في سنوات – ط٦ الكونتننتال ١٩٩٨م.
١٤٨) أنات حائر :الطبعة الرابعة – الشروق ١٩٩٨م.
١٤٩) من روائع الحكم والأمثال ط٣ ياسر ١٩٩٠م.
١٥٠) أنغام زجلية –ديوان في زجل العامية ط٤ دار توفيق ١٩٨٥م.